

المجلد العاشر

[illegible]


بسم الله الرحمن الرحيم



ضیاء الفرقان
فی
تفسیر القرآن

مجلد ۱۰

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۱۰: 978-964-8981-54-4
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ ۹ض۰۷ن/۹۸ BP
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد العاشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. – ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران – شارع انقلاب – بازارچه کتاب – رقم ۱۰ – دارالکتب الاسلامیة

شابک: ۴ – ۵۴ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

شابک دوره: ۷ – ۲۴ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

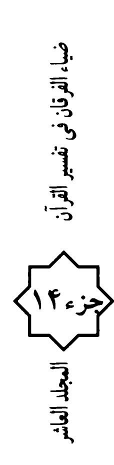
الجزء

الرابع عشر

سُورة الحَجر

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرٰ تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ وَ قُرْاٰنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رُبَمٰا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كٰانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَ مٰآ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّٰا وَ لَهٰا كِتٰابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾ وَ قٰالُوا يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلٰآئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصّٰادِقِينَ ﴿٧﴾ مٰا نُنَزِّلُ ٱلْمَلٰآئِكَةَ إِلّٰا بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوٓا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنّٰا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَ إِنّٰا لَهُ لَحٰافِظُونَ ﴿٩﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لٰا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰابًا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقٰالُوٓا إِنَّمٰا سُكِّرَتْ أَبْصٰارُنٰا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَ لَقَدْ جَعَلْنٰا فِي ٱلسَّمٰآءِ بُرُوجًا وَ زَيَّنّٰاهٰا لِلنّٰاظِرِينَ



﴿١٦﴾ وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾

◀ اللّغة

قُرْآنٍ مُبِينٍ: القرآن بضمّ القاف في الأصل مصدر نحو كفران و رجحان خصّ بالكتاب المنزل على محمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

يَوَدُّ: مِن الوُدّ بضمّ الواو و تشديد الدّال و هو الحبّ.

ذَرْهُمْ: يقال فلان يذر الشّئ أي يقذفه لقّلة إعتداده به و لم يستعمل ماضيه أي أتركهم.

وَ يَتَمَتَّعُوا: أي و يستمتعوا.

وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ: من ألهى يلهي أي يشغلهم الأمل.

أُمَّةٍ: بضمّ الألف وفتح الميم المشدّدة الجماعة.

شِيَعِ الْأَوَّلِينَ: شيع بكسر الشين و فتح الياء جمع شِيَعة قال إبن عبّاس شيع الأمم و احدهم شيعة لمتابعة بعضهم بعضاً.

يَعْرُجُونَ: أي يصعدون.

سُكِّرَتْ: التّسكير إدخال اللّطيف في المسام و منه السُّكر بالشّراب و السُّكر السَّد بالتّراب.

◀ الإعراب

رُبَمَا يقرأ بالتشدظيد و التّخفيف و هما لغتان و فى ربّ ثمان لغات، منها المذكورتان و الثّالثة و الرّابعة كذلك إلاّ أنّ الرّاء مفتوحة و الأربع الآخر مع تاء التّأنيث، ربت ففيها التّشديد و التّخفيف و ضمّ الرّاء و فتحها و في ما، وجهان:

أحدهما: هي كافّة لربّ حتّى يقع الفعل بعدها و هى حرف جرٍّ.

الثّانى: هي نكرة موصوفة.

إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ الجملة نعتٌ لقرية. **إِلَّا بِالْحَقِّ** في موضع الحال فيتّعلق بمحذوفٍ **إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** الجملة حال من ضمير المفعول في يأتيهم و هي حال مقدّرة.

إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ في موضعه ثلاثة أوجه:

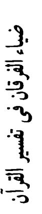
نصب على الإستثناء المنقطع جرّ، على البدل أي إلاّ ممّن إسترق رفع، على الإبتداء **فَأَتْبَعَهُ** الخبر.

◄ التّفسير

الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ وَ قُرْءَانٍ مُبِينٍ

تقدّم الكلام في الحروف المتقطعة في أوّل سورة البقرة و غيرها من السوّر و قلنا أنّها رموز و كنايات لا يعلم معناها و المراد بها إلاّ اللّه تعالىٰ و قوله: **تِلْكَ** إشارة الىٰ آيات الكتاب و المراد به القرآن علىٰ المشهور بين المفسّرين و عليه فقوله: **قُرْءَانٍ مُبِينٍ** صفة الكتاب و هو من عطف الصّفة علىٰ بالموصوف و تنكير القرآن للتّفخيم.

و قال مجاهد و قتادة المراد بالكتاب ما كان قبل القرآن من التّوراة و الإنجيل.





إن قُلت على قول المشهور تلك آيات الكتاب وقرآنٍ، والكتاب هو القرآن فالإضافة أي إضافة الآيات الىٰ الكتاب و هى القرآن من قبيل إضافة الشّئ الىٰ نفسه و هو كما ترىٰ.

و أجيب عنه بأنّ الكتاب و القرآن و أن كان مصداقهما في الخارج واحداً إلاّ أنهما مختلفان لفظاً و معنىً.

أمّا لفظاً فواضح و أمّا معنىً فلأنّ الآيات يعبّر عنها بالكتاب بإعتبار تدوينها و بالقرآن بإعتبار جمعها و تأليفها و بعبارة أخرىٰ من حيث أنّ الآيات دوّنت و كتبت بين الدّفتين يقال لها كتاب ومن حيث أنّها جمعت يقال لها القرآن و هذا القدر من الفرق يكفي في إثبات التّغاير هذا علىٰ قول المشهور.

و أمّا علىٰ قول الثّاني فالسّؤال ساقط فيصير المعنى تلك الآيات هي الكتاب و قرآنٍ مبين أي ظاهر و مظهر ظاهرٌ بنفسه مظهرٌ للمعنى في النّفس فأنّ البيان ظهور المعنىٰ للنّفس بما يميّزه عن غيره لأنّ معنى إبانته منه فصله منه و يحتمل أن يكون المراد بكونه مبينا أي مظهراً إشارة الىٰ نكقتةٍ خفيّة و هى أنّ المظهرية فرعٌ علىٰ أصل الظُّهور فما لم يكن الشّئ ظاهراً بنفسه لا يكون مظهراً لغيره فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له فثبت و تحقّق أنّ القرآن ظاهرٌ بنفسه مظهرٌ لغيره و هذا بعينه خاصّية النُّور و حقيقة الوجود فالنُّور على قول حكماء الإشراق وحقيقةالوجود على قولالمشائينخاصّيتها ما ذكرناه و إذاكانحقيقة الوجود و هي وجود الواجبي خاصّيتها كذلك فالقرآن أيضاً كذلك لأنّه كلامه.

و أن شئت قلت اللّه نور السّمٰوات و الأرض و هكذاكلامه.

رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ

قرأ أهل المدينة و عاصم، **ربما** بالتّخفيف و الباقون بالتشدّيد و روي عن أبي عمرو وجهان و قلنا في الإعراب أنّ فيها ثمان لغات، و ربّ، حرف جرٍّ قيل و تلحقها، ما، علىٰ وجهين:

أحدهما: أن تكون، ما، نكرة موصُوفة بمعنىٰ شئ كقول الشّاعر:

ربّما تجزع النّفوس من الأسر له فرجة كحلّ العقال

فبما، في هذا البيت إسمٌ لما يقدّر من عود الذّكر اليه من الصّفة و المعنى ربّ شئٍ تكرهه النُّفوس و إذا عاد اليها الهاء كان إسماً و لم يجز أن يكون حرفاً.

الثّاني: أن تدخل، ما، كافّة نحو الآية و قول الشّاعر:

ربّــما أوفـيت فـي عـلم يــرفعن ثـوّبي شـمالات

و لمّا كانت ربّ، عند الأكثرين لا تـدخل عـلى مسـتقبل تأوّلوا، يـوَّد، فـي معنىٰ، ودَّ لما كان المستقبل في إخبار اللّه لتحقّق وقوعه كالماضي فكأنّـه قـيل ربّما ودَّ الّذين الخ.

قال بعض المفسّرين و هذا التّأويل ليس بلازمٍ فأنّ، ربّ، قـد تـدخل عـلىٰ المسـتقبل لكـنّه قـليل بـالنّسبة الىٰ دخـولها عـلى المـاضي و مـنه قـول سـليم القيشري:

ومعتصمٍ بالجبن من خشية الرّدي سـيردي وغـاز مشـفق سـيئوب

و قول هند أمّ معاوية لعنة اللّه عليها.

يـا ربّ غـائلة غـداً يـا لهـف أمّ مـعاوية

و قول جحدر:

فأن أهـلك فـربّ فـتىٰ سيبكى عـلّى مـهذبُ رخـص البـنان

أقول أنّ القرآن هو الأصل في هذا الباب لا شعر الشّاعر و لا كلام الادبـاء و لنعم ما قال الرّازي في المقام حيث أنكر ما ذهبوا اليه من عـدم جـواز دخـولها علىٰ المستقبل قال ما هذا لفظه ألا أنّي أقول قول هـؤلاء الأدبـاء أنّـه لا يـجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بـالدّليل العـقّلي و أنّما الرّجوع فيه الى النّقل و الإستعمال و لو أنّهم وجدوا بيتاً مشتملاً علىٰ هـذا الإستعمال لقالوا أنّه جائزٌ صحيح و كلام اللّه أقـوى و أجـلّ و أشـرف فـلم لم يتمسّكوا بوروده في هذه الآية على جوازه وصحتّه انتهىٰ كلامه.

و لكنّهم مع ذلك أجابوا عن الإشكال بوجهين:

أحدهما: أنّ المستقبل في إخبار اللّه بمنزلة المـاضي لتّـحقق وقـوعه فكأنّـه قيل ربّما ودُّوا.

الثّانى: أن كلمة، ما، في قوله: **رُبَمٰا** إسمٌ و يودّ صفة له والتّـقدير ربّ شـيءٍ يوّده الّذين كفروا و في المقام قول ثالث و هو.

أنّ الآية علىٰ إضمار، كان، و تقديره ربما كان يوّد الذّين كفروا، إلاّ أنّه مخالفٌ لمذهب سيّبويه و لا إشكال فيه.

ثمّ أنّهم إختلفوا في أنّ هذا الوِداد أين يكون بعد الموت أو حين الموت فالمشهور على أنّه يقع بعد الموت بعد رؤيتهم العذاب للكافر و الثّواب للمسلم و هذا هو الحق و قيل أنّ الكافر إذا شاهد علامات العقاب عند الموت ودَّ لو كان مسلماً و قيل أنّ هذه الحالة تحصل إذا إسوَّدت وجوههم و قيل بل عند دخولهم النّار و نزول العذاب فأنّهم يقولون أخرّنا الى أجلٍ قريبٍ نجب دعوتك و نتّبع رسلك.

و روى أبو موسىٰ أنّ النّبى صلى الله عليه وآله وسلم **قال إذا كان يوم القيامة و إجتمع أهل النّار في النّار و معهم ما شاء من أهل القبلة قال الكفّار ألستم مسلمين قالوا بل قالوا فما أغنىٰ عنكم إسلامكم و قد صرتم معنا في النّار فيتَّفضل اللّه تعالىٰ بفضل رحمته فيأمر بإخراج كلّ من كان من أهل القبلة مِن النّار فيخرجون منها فحينئذٍ يوّد الّذين كفروا لو كانوا مسلمين وقرأ رسول اللّه** صلى الله عليه وآله وسلم **هذه الآية و على هذا القول أكثر المفسّرين.**

و روى مجاهد عن إبن عبّاس أنّه قال ما يزال اللّه يرحم المؤمنين و يخرجهم من النّار و يدخلهم الجنّ بشفاعة الأنبياء و الملائكة حتّىٰ أنّ اللّه تعالى في آخر الأمر يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنّة فهنالك يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين ذكره الرّازي في تفسيره لهذه الآية و أنت ترى أنّ من هذا الرّوايات سيّما حديث أبي موسى يستفاد أنّ اللّه تعالى يخرج جميع المسلمين من النّار بسبب مقالة قالها الكفّار والعقل السّليم لا يقبل هذا فهذه الأخبار من المجعولات و الأكاذيب و كم لها نظير في إخبارهم فأنّ الأحاديث الصّحاح من طريق أهل البيت عليهم السّلام الّذين أذهب عنهم الرّجس و

طهَّرهم تطهيراً قد دلّت علىٰ أنّ بعض المسلمين عذابهم في القيامة مثل عذاب الكفّار و المشركين و بعضهم أشدّ عذاباً منهم و حتّىٰ من فرعون و نمرود فكيف يعقل أن يقول اللّه لهم ذلك و يخرجهم منها لأنّ الكفّار قالوا كذا و كذا و قد ثبت وصحَّ من الأخبار أنّ عذاب قاتل الحسين و قاتل أمير المؤمنين و هكذا سائر الأئمة نصف عذاب أهل النّار جميعاً و للبحث فيه مقام آخر و ليس كل خبرٍ رواه أبو موسىٰ و أبوهريرة و أنس و أمثالهم من الكذّابين صالحاً للإستناد اليه في تفسير كلام اللّه نعم عند رؤية الكفّار العذاب يوم القيامة في حقّ أنفسهم و رؤيتهم الثّواب في حقّ المسلمين المؤمنين يقولون ما يقولون.

و المراد بالمسلمين في الآية ليس كلّ قائلٍ بالشّهادتين كما زعمه من لا تحصيل له بل المراد بهم من أسلم واقعاً و عمل بأحكام الإسلام و هو الّذي يعبّر عنه بالمؤمن لا أمثال أبي سفيان و معاوية و يزيد بن معاوية و أمثالهم و هذا ممّا لا كلام فيه فأنّ يوم القيامة يوم التّحسر و النّدامة و قد أطال الرّازي الكلام في المقام بما لا فائدة فيه فأنّ الإسلام الّذي عرفناه وحقّقناه غير الإسلام الّذي عرفوه و حقّقوه كما أنّ إسلام رسول اللّه غير إسلام السّقيفة واللّه أعلم.

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

الخطاب لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أمَره اللّه تعالىٰ بترك الكفّار و الإعراض عنهم بعد إنكارهم الحقّ و إصرارهم على عنادهم فأنّ المعاند لا يقبل الحقّ لا لعدم معرفته الحقّ بل لِعناده و لجاجه و على هذا لا فائدة في وعظه و إرشاده إلاّ بقدر إتمام الحجّة عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذي يُوعَدُونَ**[١].

١- الزّخرف = ٨٣ و المعارج = ٤٢

قال اللّه تعالىٰ: **قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**(١).

و فى قوله: **يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ** إشارة الىٰ أنّ الباعث علىٰ إنكارهم الحقّ هو خَوضهم في الحطام الدنيويّة الّذي صار منشأ للآمال الطّويلة و من كان كذلك لا يقبل الحقّ.

قال الرّازي إحتّج أصحابنا بهذه الآية على أنّ تعالىٰ قد يصدّ عن الإيمان و يفعل بالمكلّف ما يكون له مفسدة في الدّين و الدّليل عليه أنّه تعالى قال لرسوله ذرهم يأكلوا و يتّمتعوا ويلههم الأمل فحكم بأنّ إقبالهم على التّمتع و إستغراقهم في طول الأمل يلههم عن الإيمان و الطّاعة ثمّ أنّه تعالى أذن لهم فيها و ذلك يدّل على المقصود انتهىٰ كلامه.

مو الجواب أنّ حكم اللّه تعالىٰ عليهم لا يدلّ علىٰ أنّه تعالىٰ أجبرهم و إضطّرهم علىٰ التّمتع و الإستغراق في طول الأمل بل يدلّ على أنّهم كذلك بإختيارهم إذ لهم أن يتركوا التّمتع و طول الأمل كما تركهما غير واحدٍ من المؤمنين و قوله أنّ اللّه أذن لهم فيها، يقال له، أين أذن لهم.

نعم أنّ اللّه تعالىٰ لم يمنعهم عن التّمتع و طول الأمل بالجبر و الإضطرار بل قالوا لرسوله ذرهم و هذا تهديدٌ و تخويف و ليس بإذنٍ قطعاً.

و السِّر فيه هو أنّ الأذن لابدّ من أن يكون مسبوقاً بالرّضا فما ليس كذلك ليس بإذنٍ و من المعلوم أنّ اللّه تعالى لا يرضى لعبده أن يكون كذلك و لذلك أمر رسوله بالإعراض عنه فكيف أذن فيه و هو ساخط على العبد بفعله ذلك ألا ترىٰ أنّه قال فسوف يعلمون:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَكْفُرُوا بِمَآ آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**(٣).

١- الأنعام = ٩١ ٢- إبراهيم = ٣٠
٣- النّحل = ٥٥ و الرّوم = ٣٤

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ**[١] والآيات كثيرة.

و أنت ترىٰ أنّه لا إذن فيها كما زعمه الّرازي بل فيها تهديدٌ ألبتّة.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ أخوف ما أخاف عليكم إثنان إتّباع الهوى و طول الأمل فأمّا إتّباع الهوىٰ فيصدّ عن الحقّ و أمّا طول الأمل فينسي الأخرة و في حديث آخر الحرص و طول الأمل و المآل واحد فأن الحرص من فروع متابعة الهوىٰ و حاصل الكلام أنّ هذا الإذن من قبيل إذن الوالد لولده الّذي لا يقبل قول أبيه،

إفعل ما شئت فأنّ هذا لا يسمّىٰ إذناً بالحقيقة بل هو تخويف بصورة الإذن.

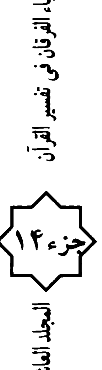
وَ مٰآ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّٰا وَ لَهٰا كِتٰابٌ مَعْلُومٌ

و فيه إشارة الىٰ أنّ الإهلاك والعذاب بعد تماميّة الحجّة لا قبلها و الحجّة على قسمين:

باطنّية وظاّهرية.

الأوّل: هو العقل.

الثّاني: الأنبياء و الرسُّل و الأوصياء بعدهم و أنّما يكون العذاب بعد الحجّة لأنّ اللّه تعالى عادلٌ و العذاب قبل إتمام الحجّة ظلمٌ و هو منزّه عنه هذا تفسير الآية على ظاهرها و هو أن يكون المراد بالكتاب هو الكتاب المعهود الّذي جاء به النّبي و لكن يظهر من المفسّرين أنّهم أرادوا بالكتاب الأجل المكتوب و عليه فمعنى الآية أنّه لم يهلك أهل قرية على وجه العقوبة إلاّ وكان لها كتابٌ معلومٌ يعني أجل مكتوب قد علمه اللّه تعالى لابدّ أن يبلغونه لما سبق في علمه.



١- المُرسلات = ٤٦

و قال الزّمخشري كتاب معلوم، مكتوب معلوم و هو أجلها الّذي كتب في اللّوح و بيّن انتهىٰ.

و أنّما حملوا الكتاب علىٰ الأجل لأنّه تعالىٰ قال بعد ذلك **مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ** واللّه أعلم بكلامه و مراده.

مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَ مٰا يَسْتَأْخِرُونَ

و ذلك لأنّ كلّ أمّةٍ من الأمم لها أجل معلوم في علم اللّه و لا تقدُّم و لا تأخّر فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لٰا يَسْتَأْخِرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ أَجَلَ ٱللّٰهِإِذٰا جٰاءَ لٰا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**[٢] و هذا واضح لا خفاء فيه.

وَ قٰالُوا يٰا أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

قيل، قاله كفّار قريش لمحمّدٍ صلى الله عليه و آله و سلم على جهة الإستهزاء و لم يذكروا وجه عدم تصريحهم بإسمه حيث لم يقولوا يا محمّد صلى الله عليه و آله و سلم بل قالوا يا أيّها الّذي نزل عليه الذّكر و لعلّ الوجه فيه هو تحقيره بزعمهم و المراد بالذّكر على هذا هو القرآن فأنّ اللّه تعالى سمّاه ذكراً في موارد كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **أَنْزَلَ ٱللّٰهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبٰاءِ مٰا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْنٰاكَ مِنْ لَدُنّٰا ذِكْرًا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا هُوَ إِلّٰا ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ**[٥].

١- الأعراف = ٣٤ ويُونس = ٤٩
٢- نُوح = ٤
٣- الطّلاق = ١٠
٤- طٰه = ٩٩
٥- القلم = ٥٢

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ**[١].

قال بعضهم الذّكر، من أسماء القرآن سمّي به لأنّه لا يزال يذّكر و يذّكر به المنزل عليه و المؤمن به و لا ينافي هذا ما قاله بعضهم من أنّ الذّكر يشمل الصّلاة و القراءة و الحديث و تدريس الصّلاة و مناظرة العلماء و أمثال ذلك و هو واضح لأنّ الملاك في الكّل واحد و قولهم أنّك لمجنون، أي في إدّعائك أنّه أنزل عليك الذِكر بوحي اللّه اليك و لم تكن ممّن يقرأ و بعبارةٍ أخرى أنّ الّذي لا يقرأ و يدّعي نزول القرآن عليه فهو مجنون أي لا عقل له، و لم يعلموا أنّ ذلك من أكبر المعجزات و أدلّها علىٰ صدق إدّعائه حيث أنّه أي النَّبي مع أنّه لا يقرأ و لا يكتب ظاهراً قد أتى لهم بكتابٍ فيه علم الأوّلين و الآخرين و هذا من أَعظم الكرامات لو كانوا يعلمون.

لَوْ مٰا تَأْتِينٰا بِالْمَلاٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ

معناه هلاّ تُأتينا، قالوا**لَوْ مٰا** تحضيض علىٰ الفعل كلولا، و هلاّ، و قال الفرّاء الميم في، **لَوما**، بدل من اللاّم في (لولا) و مثله إستولى على الشّئ و أستوفى عليه و مثله، ضالمته و ضاللته، فهو خلمي و خلّي أي صديقي و على هذا يجوز، لوما، بمعنى الخبر.

تقول لوما زيدٌ لضرب عمروٌ قال الشّاعر:

لوما الحياء ولوما الدّين عبتكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

يريد لولا الحياء.

و المعنى في الآية هلاّ تأتينا بالملائكة إن كنت صادقاً في أنّك نبيٌ و قد أجاب اللّه تعالىٰ عنهم بقوله:



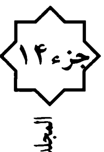
مٰا نُنَزِّلُ اَلْمَلاٰئِكَةَ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ مٰا كٰانُوٓا إِذاً مُنْظَرِينَ

١- الزُّخرف = ٤٤

قيل يعني بالحّق الّذي لا يلبس معه الباطل طرفة عينٍ و قيل معناه ما نـنزّل الملائكة إلاّ بعذاب الإستئصال إذا لم يؤمنوا بالآيات كما كانت حال من قـبلهم من الأمم حين جاءتهم الآيات الّتي طلبوها و لم يؤمنوا و بعبارةٍ أخرىٰ ما نُنَزِّل الملائكة إلاّ بالحقّ لا بإقتراحكم و أيضاً فلو نزلت لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب و بعبارةٍ أخرىٰ بعد إنزال الملائكة أن لم يؤمنوا لم ينظرهم اللّه أي لا يـمهلهم بل كان يعاجلهم بالعقوبة فقوله و ما كنّا إذا منظرين أي ما كـنّا بـعد نـزولهم أن يمهلهم فالأحسن أن لا يطلبوا ذلك.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

الظّاهر أنّ الضّمير في، له، يرجع الى الذّكر أي إنّا نـحن نـزّلنا الذّكـر و هـو القرآن من عندنا و إنّا له أي للذّكر لحافظون، و قيل الضمير عائد على النّبي و المعنى إنّا نحن نزّلنا القرآن و إنّا لمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لحافظون، و أنت ترىٰ أنّ هـذا خلاف الظّاهر إذ ليس في المقام ذكرٌ من النّبي ليعود الضّمير اليه مضافاً الىٰ أنّ الأقرب يمنع الأبعد فما ذكره هذا القائل لا وجه له و الحّق عود الضّمير علىٰ الذّكر إذ هو الّذي يحتاج الىٰ الحفظ الى يوم القيامة و الظّاهر أنّ المراد بالحِفظ حفظه عن التّحريف و يحتمل أن يكون المراد بحفظه هو إبقائه الى يوم القيامة ليكون معجزةً بـاقيةً خـالدة و يـحتمل أن يكـون المـراد حـفظه عـن الزّيـادة و النّقيصة و الحاصل أنّ الّذي أنزل القرآن يحفظه عن جميع الآفات فأنّه على كلّ شيءٍ قدير هذا إذا قلنا أنّ المراد بالذّكر في الآية هو القرآن كـما هـو الظّـاهر وإن قلناً أنّ المراد به الرّسول أو الدّيـن فـالمعنى أيـضاً واضح فأنّ اللّـه تـعالىٰ هـو الحافظ للذّكر بجميع أقسامه فاللّه خير حافظاً و هو أرحم الرّاحمين.



وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ

يقول اللّه تعالىٰ ذلك لنبيّه تسليته له عن كُفر قومه و إنكارهم النبوّة و عـدم إيمانهم به فأعلمه أنّ هذه الرَّوية من الكفّار و المشركين ليست مختصّة بك كما

أنّ الرّسالة أيضاً لا تنحصر فيك فإنّا قد أرسلنا قبلك في الأمم السّالفة من الأنبياء و الرُّسل ما لا يحصيهم إلاّ اللّه و فعل هؤلاء الكفّار بهم ما فعلوا بك من الإنكار و الإيذاء و الإستهزاء و غير ذلك من الأمور الشّنيعة القبيحة و قوله: **فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ**.

قيل شيع الأمم و احدهم شيعة لمتابعة بعضهم بعضاً في الأحوال الّتي يجتمعون عليها في زمنٍ واحدٍ و إنّما عبَّر عنهم بذلك مشعراً بأنّهم أنكروا الرُّسل بلا حجّة و لا برهان بل المجرّد متابعة بعضهم بعضاً تقليداً مثل قولهم إنّا وجدنا آباءنا علىٰ ذلك و أمثال ذلك من التّعابير و الى ذلك أشار اللّه بقوله:

وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

كلمة «ما» للنّفي، و الإستهزاء السُّخرية و المقصود أنّ الكفّار كانوا كذلك مع جميع الأنبياء و قد أشار اللّه تعالىٰ الىٰ هذه الدَّقيقة في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَبِاللّٰهِ وَ اٰيٰاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَنْ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِ ٱللّٰهِ وَ كٰانُوا بِهٰا يَسْتَهْزِءُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحٰاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا**(٤) من الأيات.



أقول حكى اللّه في تلك الآيات عن الأمم السّالفة أنّهم كانوا كذلك نرىٰ في زماننا هذا أيضاً كثيراً من النّاس من مقلّدي هؤلاء الكفرة الفجرة يستهزؤن بأيات اللّه و أحكام دينه و ما جاء به النّبي و ينظرون اليها بنظر السُّخرية و

١- التّوبة = ٦٥
٢- الرّوم = ١٠
٣- الأنبياء = ٤١
٤- الرَّعد = ٣٢

الإستهزاء فيضحكون على أعمال المؤمنين في صَومهم و صلاتهم و حجّهم و زكٰوتهم و خمسهم و غير ذلك ممّا ورد في الشّريعة المقدّسة بل لا يقنعون بالإستهزاء بل ينسبون المؤمنين العاملين بالأحكام بالسّفاهة و الحماقة و التَّحجر و يقولون أنّ زمان العمل بهذه الأحكام قد مضى و أمثال ذلك من الأقاويل العاطلة الباطلة الدّالة على حماقة قائلها و كفرها و إذا كان الإنسان في هذا القرن من المستهزئين بالدّين و الرّسالة فما ظنّك بالأمم السّالفة في القرون الماضية و لا ضرر فيه فأنّ الباطل يقابل الحّق و الكفر يقابل الإيمان و هذا لا يَختَّص بزمانٍ دون زمانٍ.

كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ

أي كذلك نسلك القرآن الّذي هو الذّكر في قلوب المجرمين على معنى أنّه تعالى يلقيه في قلوبهم مكّذباً مستهزءاً به غير مقبول كما لو نزلت بلئيمٍ حاجة فلم يجبك اليها فقلت كذلك أنزلها باللّئام و الى ذلك أشار بقوله:

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ

و المعنى إنّا نعلم أنّهم لا يؤمنون به لكونهم ماضين على سنّة من تقَّدمهم من تكذيب الرُّسل كما سلكنا دعوة الرّسل في قلوب من سلف من الأمم قاله الجبائي و البلخي و قال القرطبي في قوله: **كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ** الى آخر الآية أي نسلك الضّلال و الكفر و الإستهزاء في قلوب المجرمين من قومك كما سلكناه في قلوب من تقَّدم من شيع الأوّلين كذلك نسلكه في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم.

قال و روي إبن جريح عن مجاهد أنّه قال لنسلك التّكذيب و السَّلك إدخال الشّيء في الشّيء كإدخال الخيط في المخيط و ساق الكلام الى أن قال و فى الآية ردٌ على القَّدرية و المعتزلة.

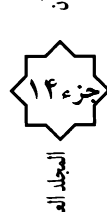
و قيل المعنى نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به و عليه أكثر أهل التّفسير إنتهى كلام القرطبي.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إحتّج أصحابنا بهذه الآية على أنّه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفّار فقالوا قوله: **كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ** أي كذلك نسلك الباطل و الضّلال في قلوب المجرمين ثمّ انّه أطال الكلام في إثبات مدّعاه إن شئت الإطلاع عليه فعليك بمراجعة تفسيره.

و نحن نقول ما ذكره القرطبي و الرّازي و أمثالهما من الأشاعرة أنّما هو على مسلكهم الفاسد و هو الجبر و قد تكلّمنا في هذا الباب غير مرّةٍ و قلنا أنّه عاطلٌ باطلٌ عقلاً و شرعاً وليت شعري ما أرادوا بقولهم أي كذلك نسلك الباطل و الضّلال في قلوب المجرمين فأن كان مرادهم أنّ اللّه تعالى يدخل أو يلقي الباطل و الضّلال في قلوبهم بأنّه تعالى أعلمهم معناهما أو أقدرهما هم على إختيارهم أيّهما شاءوا فهذا لا فرق فيه بين المؤمن و المجرم و أن كان مرادهم أنّ اللّه يخلقهما في قلوبهم بحيث لم يقدروا على الإختيار فهو غير ثابت بل غير معقول لأنّ الباطل و الضّلال ليسا من المخلوقين و لا يقبلان الخلق فأنّهما من المفاهيم المنتزعة عن أعمال البشر فأن كان عمله خيراً ينتزع منه الحقّ و أن كان شرّاً ينتزع منه الباطل أو الضّلال فالإيجاد أنّما هو متّعلق بفاعلهما لا بهما و الفاعل مختار في الإختيار فقولهم هذا لا معنى له.

و الذّي نفهم من الآية هو أنّ الضّمير في نسلكه عائد على الذّكر لا على الإستهزاء و المراد بالذّكر هو القرأن أو معناه العامّ الشّامل للقرأن و الرّسول و الدّين و المراد بالسّلوك النّفاذ كما قاله الرّاغب في المفردات قال:

السّلوك النّفاذ في الطّريق يقال سلكت كذا في طريقه الى أن قال و من الثّاني قوله: **كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ** و قوله: **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**[1] انتهى.



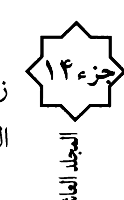
١- المدثر = ٤٢

و معنى الآية كذلك نسلكه أي ننفذ الذّكر في قلوب المجرمين كما ننفذه في قلوب المؤمنين و إن شئت قلت نلقيه في قلوبهما مع علمنا بأنّ المجرم لا يقبل و المؤمن يقبل.

قال بعض المحقّقين المراد إقامة الحجّة على المكذّبين بأنّ اللّه تعالى سلك القرأن و أنفذه في قلوبهم و أدخله في سويداءها كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصّدقين فكذّب به هؤلاء و صدّق به هؤلاء كلٌّ على علم و فهم ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيى من حيَّ عن بيّنةٍ و لئلا يكون للكفّار على اللّه حجّةٍ بأنّهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من أمن، فأعلمهم اللّه تعالى من الأن و هم في مهلةٍ و إمكانٍ، أنّما ما كفروا إلاّ على علم معاندين باغين غير معذورين و لذلك عقّبه بقوله: **وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰابًا مِنَ اَلسَّمٰاءِ**.

و في قوله: **كَذٰلِكَ** إشارة الى أنّ هذا دأبنا و ديدننا و سيرتنا مع النّاس في جميع الأزمنة و علم اللّه تعالى بأنّ المجرم لا يؤمن البتّة لا يوجب إسقاط التّكليف عنه لأنّه يقدر على الإيمان و لا يؤمن بإختياره و العلم الأزلي بعدم إيمانه لا يكون علّة له و يؤيّد ما ذكرناه من التّفسير قوله بعد الكلام بلا فصلٍ لا يؤمنون به و قد خلت سنّة الأوّلين أي نسلك الذّكر في قلوبهم مع أنّهم لا يؤمنون به كما كان الأمر على هذا المنوال في الأمم السّالفة و القرون الماضية الخالية أي ليس هذا من المجرمين غير مترقبٌ بل كان المجرمون قبلهم أيضاً كذلك.

فثبت و تحقّق أنّ السّلوك ليس بمعنى الخلق و الإيجاد في القلوب كما زعمه الرّازي و أتباعه و أسلافه من الأشاعرة فأن خلق الباطل و الضّلال في القلوب شئ و إنفاذ الذّكر فيها شئ أخر فتّفطن.



و الى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله بعد ذلك حيث قال:

وَ لَوْ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰابًا مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ

فكأنّ هذا توضيح و تفسير لقوله لا يؤمنون بـه، أي هـؤلاء فـهموا القـرأن و علموا وجوه إعجازه و ولج ذلك في قلوبهم و وقًر و لكنّهم قومٌ سجًيتهم العناد و شيمتهم اللّد و اللّجاج حتّى لو سلك بهم أوضح السَّبيل و أدعاها الى الإيمان بضرورة المشاهدة و ذلك بان يفتح لهم باباً في السّماء و يعرج بهم اليـه حتّى يدخلوا منه نهاراً و الى ذلك الإشارة بقوله: **فَظَلُّوا** لأنّ الظّلول أنّما يكون نهاراً.

لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ

أي لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم، أنّما سكرّت أبصارنا و سحرنا محمّد، و التَّسكير إدخال اللّطيف فـي المسـام و مـنه السُّكـر بـالشّراب فـقولهم سكّـرت أبصارنا، أي أدخل فيها من اللّطيف في مسامها حتّى مـنعنا مـن رؤيـة الأشـياء على حقيقتها و أصل السُّكر بما أدخل في المسام.

و قال مجاهد و غيره معنى، سكّرت، سدًت.

قال صاحب الكشّاف و المعنى أنّ هؤلاء المشـركين بـلغ مـن غـلُّوهم فـي العناد أن لو فتح لهم بابٌ من أبواب السّماء و يسّر لهـم مـعراج يـصعدون فـيه اليها و رأوا من العيان ما رأوا لقالوا هـو شـئ نـتحايله لا حـقيقة له ولقـالوا قـد سحرنا محمّد بذلك.

و قيل الضّمير الى الملائكة أي لو أريناهم الملائكة يـصعدون فـي السّـماء عياناً لقالوا ذلك انتهى.

و الحاصل أنّ هذه خيالات لا حقائق تحتها فاسجل عـليهم بـذلك أنّـهم لا عذر لهم في التّكذيب من عدم سماعٍ و وعي و وصولٍ الى القلوب و فهموا كما فهم غيرهم من المصدّقين لأنّ ذلك كلّه حاصل لهم و أنّما بهم العناد و اللّدد و الإصرار لا غير وداء العناد لا دواء له إلاّ الموت و الدّخـول فـي العـذاب أعـاذنا اللّه منه.



وَ لَقَدْ جَعَلْنٰا فِي اَلسَّمٰاءِ بُرُوجًا وَ زَيَّنّٰاهٰا لِلنّٰاظِرِينَ

قالوا الجعل قد يكون تصيير الشّئ عن صفةٍ لم يكن عليها و قد يكون بالإيجاد له و على هذا فقوله و لقد جعلنا أي و لقد خلقنا أو لقد صيَّرنا و المعنى واحد **والبُروج** جمع **بُرج** بضّم الباء و هو القصر.

قال في المفردات البروج القصور الواحد، برج و به سمّي بروج النُّجوم لمنازلها المختّصة بها و اصله الظّهور و منه قولهم تبَّرجت المرأة اذا أظهرت زينتها.

و أمّا بروج السّماء فقال الحسن و قتادة هي النُّجوم، و قيل الكواكب السَّيارة.

و قال علّي بن عيسى هي أثنى عشر برجاً، الحمل، الثَّور و الجوزاء و السّرطان و الأسد و السُّنبلة و الميزان و العقرب و القوس و الجدي و الدَّلو و الحوت و هي منازل الشّمس و القمر و الظّاهر أنّ المراد بالبروج النّجوم بدليل قوله: **وَ زَيَّنّٰاهٰا لِلنّٰاظِرِينَ** و ذلك لأنّ النّاظر الى السّماء لا يرى إلاّ النّجوم و أنّ زينة السّماء بها لا بغيرها و الضّمير في زيّناها قيل أنّه عائد على السّماء و قيل على البروج و الحقّ هو القول الأوّل و ذلك لأنّ السّماء مزيَّنة بالبروج لا البروج بها فقوله: **زَيَّنّٰاهٰا** أي زيّنا السّماء بالبروج للنّاظرين اليها.

وَ حَفِظْنٰاهٰا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ

أي و حفظنا السّماء قيل حفظ السّماء هو بالرَّجم بالشُّهب و قيل الرَّجم بمعنى المرجوم فقوله: **كُلِّ شَيْطٰانٍ رَجِيمٍ** أي مرَّميٌ بالنُّجوم أو بالشُّهب فلا يقدر الشّيطان أن يصعد الى السّماء ولوسوس في أهلها و يتَّصرف و يقف على أحوالها.

و قد نقلوا عن إبن عبّاس أنّه قال كانوا لا يحجبون عن السّموات فلمّا ولد عيسى منعوا من ثلاث فلمّا ولد محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم منعوا من السّموات كلّها.

و نقلوا عنه أيضاً أنّه قال و قد كانت الشّياطين لا يحجبون عن السّماء فكانوا يدخلونها و يلقون أخبارها على الكهنة فيزيدون عليها تسعاً فيحدّثون بها أهل الأرض فاذا رأوا شيئاً ممّا قالوه صدَّقوهم فيما جاءوا له.

أقول هذه الأخبار لا أساس لها بل هي بقصص القصّاصين أشبه فلا يمكن تفسير كلام اللّه بها و الذّي تدلّ الآية عليه هو أنّ اللّه حفظ السّموات عن دخول الشياطين و هو أمرٌ ثابت بالنّص.

و أمّا كيفيّة حفظها و زمان حفظها و مقدار حفظها و أمثال ذلك من الأمور فعلمه مختّص به تعالى.

نعم لو وصل الينا من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أو من الأئمّة المعصومين في الباب روايات و أخبار صحيحة قبلناها و إلاّ طرحناها فأنّ الإطّلاع على ما في السّموات لا يمكن إلاّ من طريق الوحي و إبن عبّاس و أمثاله ليس لهم علمٌ بذلك.

و قد قيل لنا إسكتوا عمّا سكت اللّه عنه.

نعم يستفاد من الآية أنّ الشّيطان لا تسّلط له على الملائكة السّاكنين في السّموات لأنّ اللّه حفظ السّماء من دخوله فيها و هذا ممّا لا كلام فيه.

إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ

أي لكن من إسترق السّمع و هو الخطفة اليسيرة فهو إستثناءٌ منقطع و قيل هو متّصل أي إلاّ ممّن إسترق السّمع فأنّا لم نحفظها منه إن تسمع الخبر من أخبار السّماء سوى الوحي فأمّا الوحي فلا تسمع منه شيئاً لقوله: **إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ**(١) و أكثر المفسّرين على أنّ، إلاّ، بمعنى، لكن، و عليه فكأنّه قال ولكن من إسترق السّمع من الشّيطان يتبعه شهابٌ مبين.

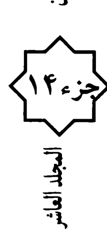
١- الشعراء = ٢١٢

قال الفّراء أي لا يخطئ و قال المفسّرون إلاّ من إسترق السَّمع مثل قوله: **إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ**(۱) و معناه و الإستراق أخذ الشّئ خفيّاً و الشّهاب غمودٌ من نور يمدًّ لشّدة ضياءه كالنّار و جمعه شهب و منهم من قال أنّ الشّهاب يخبل ويحرق و لا يقتل و منهم من قال يقتل و منه قول ذي الرِّمة:

كأنّه كوكبٌ في إثر عفريتٍ مسوّم في سواد اللّيل منقضبٌ

و الأقوال في الباب كثيرة لكن لا أصل لها.

■



۱- الصّافات = ۱۰

وَ ٱلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فيهٰا رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنٰا فيهٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فيهٰا مَعٰايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقينَ ﴿٢٠﴾ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّٰا عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلّٰا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَ أَرْسَلْنَا ٱلرِّيٰاحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَسْقَيْنٰاكُمُوهُ وَ مٰا أَنْتُمْ لَهُ بِخٰازِنينَ ﴿٢٢﴾ وَ إِنّٰا لَنَحْنُ نُحْيي وَ نُميتُ وَ نَحْنُ ٱلْوٰارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأْخِرينَ ﴿٢٤﴾ وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكيمٌ عَليمٌ ﴿٢٥﴾ وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَ ٱلْجٰانَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

◄ اللّغة

مَدَدْنٰاهٰا: المدَّ البسط أي بسطناها.

أَلْقَيْنٰا: الإلقاء الطّرح أي طرحنا فيها.

رَواسِيَ: بفتح الرّاء يقال رسيت السّفينة اذا ثبتت و الرّواسي، الثّابتات.

لَواقِحَ: يقال لقحت النّاقة اذا حملت و ألقحها الفحل اذا ألقى اليها الماء.

صَلْصٰالٍ: الصّلصال الطين اليابس و قيل الصّلصال المنتن.

حَمَإٍ مَسْنُونٍ: الحمأ جمع حمأة و هو الطّين المتغير الى السّواد و المسنون المصبوب و قيل المتّغير.

ٱلسَّمُومِ: الحارّة.

◀ الإعراب

وَ ٱلْأَرْضَ منصوب بفعل محذوف أي و مددنا الأرض و هو أحسن من الرّفع لأنّه معطوف على البروج وَ مَنْ لَسْتُمْ موضعه النّصب لجعلنا إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ الجملة في موضع رفع على الخبر (من شيءٍ) مبتدأ وخَزَآئِنُهُ خبره بِقَدَرٍ في موضع الحال.

لَوَٰقِحَ أصلها ملاقح حذفت الميم لظهور المعنى و قيل أنّه على التّسب أي ذوات لقاح كما يقال طالق و طامس.

و قيل أنّه على حقيقته يقال لقحت الرّيح اذا حملت الماء مِنْ حَمَإٍ في موضع جرّ صفة لصلصالٍ و قيل بدل من الجانّ و يجوز فيه الرّفع أيضاً.

◀ التّفسير

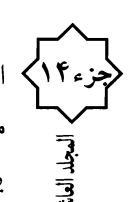
وَ ٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا

الظّاهر أنّ الأرض معطوفة على السّماء في قوله: وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا أي كما أنّا جعلنا للسّماء بروجاً و زيّناها للنّاظرين كذلك مددنا الأرض أي بسطناها و جعلنا لها طولاً و عرضاً قيل أنّها بسطت من تحت الكعبة كما دلّت عليه الأخبار و أنّ البسط كان في يوم الخامس و العشرين من ذي القعدة.

وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ الرّواسي الجبال و أصله الثّبوت يقال رسّت السّفينة اذا ثبتت و المراسي ما تثبّت به.

و قيل جعلت الجبال أوتاداً للأرض و قيل جعلت أعلاماً يهتدي بها أهل الأرض وَ أَنۢبَتْنَا فِيهَا أي في الأرض الممدودة مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ أي مقدّر بقدر و قيل موزون أي وزن بميزان الحكمة و قدّر بمقدارٍ يقتضيه لا يصلح فيه نقصان و لا زيادةٍ.

و قيل أنّ الوزن في الكلام مستعار و المعنى مقدّر محرّر بقصدٍ و إرادة المراد ما يوزن حقيقة كالذّهب و الفضّة و غير ذلك ممّا يوزن.



و الحقّ أنّ ذلك إشارة الى كلّ ما أوجده اللّه تعالى و أنّه خلقه بإعتدالٍ كما قال: **إِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ**[١].

و عندي في المقام وجه أخر و هو أنّ اللّفظ على حقيقته و المعنى أنّ كلّ ما يوزن أنبتناه من الأرض و عليه فقوله: **مَوْزُونٍ** صفة للشّئ أي إنّا أنبتنا من الأرض من كلّ شئٍ بالوزن و لا شكّ أنّ جميع ما ينبت فيها قابل للوزن فالكلام على ظاهره لا إشكال فيه و لا يحتاج الى التّأويل.

و أمّاكيفيّة خلق الأرض بالحّق أنّه لا سبيل لنا الى العلم بها إلاّ ما يظهر من بعض الأخبار الواردة عن أهل بيت العصمة و سيأتي البحث فيها في موضعه إنشاء اللّه.

وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ

المعايش جمع معيشة و هى طلب أسباب الرّزق مدّة الحياة فقد يطلبها الإنسان لنفسه بالتّصرف و التّكسب و قد يطلبه له فأن أتاه الرّزق من غير طلبٍ فلذلك العيش الهنئ و على أيّ حالٍ لاشكّ إنّ معيشة الإنسان لا تحصل إلاّ من الأرض سواء كانت من سنخ المأكولات أو من سنخ المشروبات و الملبوسات و غيرها ممّا له دخلٌ في التّعيش به ممّا يستخرج من أعماق الأرض و قوله: **وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ** قيل المراد به العبيد و الإماء و الدّواب و الأنعام و بالجملة كلّ ما يدّب في الأرض و فيه إشارة الى أنّ اللّه تعالى هو الرّزّاق لجميع الموجودات فقوله: **وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرٰازِقِينَ** في موضع نصب عطفاً على معايش و أعلم أنّه يستفاد من الآية ما لا بأس بالإشارة اليه إجمالاً، و هو أنّه تعالى جعل الأرض لنا و لغيرنا من الموجودات فكما أنّ الإنسان يطلب فيها المعايش كذلك الأنعام و الدّواب فلا يجوز منعها عن التّعيش فيها و الإرتزاق بهما و الإستفادة منها و بعبارةٍ أخرى الأرض و ما فيها لا تختّص بالإنسان بل هي وضعت لجميع ما يدّب عليها:



١- القمر = ٤٩

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مِنْ دٰابَّةٍ فِى اَلْأَرْضِ وَ لاٰ طٰآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَةُ اَللّٰهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهٰا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ اَللّٰهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلْأَرْضَ وَضَعَهٰا لِلْأَنٰامِ**[٣].

و لذلك لا يجوز لأحدٍ أن يمنع غيره عن التَّعيش فيها و الإرتزاق بها فأنّ حقّ التَّعيش فيها ثابت لجميع من يدُّب عليها و هذا أصلٌ من الأصول المسلّمة العقليّة و الشرعيّة و لابّد لكّل إنسانٍ مسلماً كان.

أو كافراً أن يراعي هذا الحّق في غيره و إنكاره يوجب خروج الإنسان عن طور الإنسانيّة و دخوله في زمرة البهائم و الحيوانات الّتي لا تعرف الحقّ إلاّ لنفسه واضح.

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ عِنْدَنٰا خَزٰآئِنُهُ وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلاّٰ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ

لمّا أفاد في الآية السّابقة أنّ الأرض جعلها لنا و لغيرنا من الموجودات أفاد في هذه الآية أنّ الأرزاق تحت إختيارنا و قدرتنا و ما ننَزّله عليكم إلاّ بما يصلحكم و ينفعكم دون ما يفسدكم و يضّركم حسب ما سبق في علمنا و هذا هو مقتضى العدل و الحكمة فأنّ الإفراط و التَّفريط أعني بهما الزيّادة عن الحّد و النَّقيصة عنه خارجان عن العدل.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مٰا يَشٰآءُ إِنَّهُ بِعِبٰادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **سُنَّةَ اَللّٰهِ فِى اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كٰانَ أَمْرُ اَللّٰهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**[٥].

١- الأنعام = ٣٨
٢- هُود = ٦٤
٣- الرّحمٰن = ١٠
٤- الشّورىٰ = ٢٧
٥- سورة الأحزاب أية ٣٨

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ**[١].

و كلمة (إن) في صدر الآية للنّفي بمعنى، ليس و خزائنه، كناية هي قوله تعالى بالمصالح و المفاسد و قيل خزائن اللّه مقدوراته فكأنّه قال و ليس من شئٍ إلاّ و اللّه تعالى قادرٌ على ما كان من جنسه الى ما لا نهاية له.

وَ أَرْسَلْنَا ٱلرِّيٰاحَ لَوٰاقِحَ فَأَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَسْقَيْنٰاكُمُوهُ وَ مٰآ أَنْتُمْ لَهُ بِخٰازِنِينَ

الرّياح جمع رِيح بكسر الرّاء و الرِّيح معروف و قيل هي الهواء المتحرك و عامّة المواضع الّتي ذكرها اللّه تعالى بلفظ الواحد فعبارةٌ عن العذاب وكلّ موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرّحمة فمن الأوّل:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰآ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فىٓ أَيّٰامٍ نَحِسٰاتٍ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمّٰا عٰادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عٰاتِيَةٍ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ فى عٰادٍ إِذْ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ**[٥].

من الثّاني:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذى يُرْسِلُ ٱلرِّيٰاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيٰاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ**[٧] والآيات كثيرة.

١- القمر = ٤٩
٢- القَمر = ١٩
٣- فصّلت = ١٦
٤- الحاقّة = ٦
٥- الذّاريات = ٤١
٦- الأعراف = ٥٧
٧- النّمل = ٦٣

و أمّا اللّواقح فهي جمع لاقح و هو فاعل من لقح و قد تطلق اللّواقح على الإناث الّتي في بطونها أولادها و قد يعبّر عنها بالملاقح أو لملاقيح فقوله: **وَ أَرْسَلْنَا ٱلرِّيٰاحَ لَوٰاقِحَ** أي ذات لقاح و اللّقاح ماء الفحل إذا عرفت معنى الرّياح و اللّواقح فمعنى الآية أنّ اللّه تعالى أرسل الرّياح لواقح لتلقح السَّحاب حتّى يحمل الماء أي تلقى اليه ما يحمل به الماء.

و الحاصل أنّ الرّياح كالفحل للسّحاب و لواقح في موضع ملاقح.

و قال بعضهم أنّ الريّاح تلقح السّحاب الماء.

و قال إبن مسعود أنّها لاقحة يحملها الماء بإلقاءها أيّاه الى السّحاب.

و أمّا قوله: **فَأَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً** يعني غيثاً و مطراً، فأسقيناكموه، أي جعلته سقياً لكم و لأرضكم و من المعلوم أنّ الماء ممّا لابدّ منه لكلّ موجود حيٍّ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مِنْ مٰاءٍ فَأَحْيٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ كُلِّ شَىْءٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰا مِنَ ٱلْمٰاءِ كُلَّ شَىْءٍ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰاءِ مٰاءً طَهُورًا**(۵) والآيات كثيرة.

و محصّل الكلام أنّ الماء منشأ الحياة وبه بقاءها و لذلك ينبغي للإنسان العاقل أن يشكر اللّه بهذه النعّمة:

١- البقرة = ١۶۴ ٢- الأنعام = ٩٩
٣- النّحل = ١٠ ۴- الأنبياء = ٣٠
۵- الفرقان = ۴٨

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَعِينٍ**(١).

و قوله: **وَ مَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** أي لا تقدرون على إيجاده و فيه تنبيهٌ على عظيم قدرته و إظهارٌ لعجزهم و قيل المراد بخازنين، أي بمانعين من نزول المطر و قيل معناه حافظين له بالشُّكر.

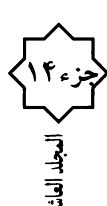
أقول الخزن ضربٌ من المنع فلا يبعد أن يكون المعنى المراد ما أنتم له أي للماء بمانعين عن غيركم و ذلك لأنّ الخازن يقال لمن يحفظ ما في الخزينة عن تصّرف الغير فيها بغير إذن خازنها و لذلك يقال أنّ خازن بيت المال مسؤلٌ بالنسبة الى ما في الخزينة فأن كانت الخزينة ملكاً لخازنه فهو يتّصرف فيها كيف يشاء و أن كانت ملكاً لغيره فلا يتّصرف فيها إلاّ بإذن المالك إذا عرفت هذا.

فنقول قوله تعالى: **وَ مَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** يحتمل أن يكون المراد أنّكم لا تقدرون على أن تجعلوا الماء في خزينتكم فتمنعون غيركم عن الإستفادة به و يحتمل أن يكون المراد أنّ خزينة كلّ شئ عند اللّه كما قال: **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَآئِنُهُ** فهو الّذي يعطي و يمنع لا غيره، و الى هذا ينظر قول من قال أنّ المراد بخزائن اللّه مقدوراته الّتي منعها النّاس لأنّ الخزن ضربٌ من المنع.

وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ

هذا الكلام في الحقيقة تفسير لما سبق أي إنّا نحيي الأرض بالمطر و نميتها بعدمه و الأحسن حمل الآية على العموم أي أنّ الحياة و الممات في كلّ الأشياء تحت قدرتنا و لا يقدر على الإحياء و الإماتة غيرنا سواء كانت الحياة و

١- الملك = ٣٠



الإماتة في الأرض و غيرها من الجمادات أم كانتا في الموجودات ذوي الأرواح كالإنسان و الحيوان فأنّ الحياة و الممات في كلّ شيءٍ بحسبه و هذا ممّا لا كلام فيه.

و قوله: **وَ نَحْنُ ٱلْوٰارِثُونَ** إشارة الى أنّ الدنيّا فانية لا بقاء لها و إذا كان كذلك فاللّه تعالى هو الّذي يبقى بعد فناء كلّ شيءٍ، فلا محالة هو الوارث لها و ما فيها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا لَكُمْ أَلاّٰ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُنّٰا نَحْنُ ٱلْوٰارِثِينَ**(٣).

و أنّما يتّحقق ذلك عن قوله تعالىٰ: **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلّٰهِ ٱلْوٰاحِدِ ٱلْقَهّٰارِ**(٤).

وَ لَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ

قيل المراد بالمستقدمين الأموات و بالمتأخرين الأحياء و قيل المستقدمين في الخلق و المستأخرين الّذين لم يخلقوا بعد.

و قال مجاهد المستقدمين الأمم السّالفة و المستأخرين أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

و قال الحسن، المستقدمين في الطّاعة و المستأخرين في المعصية.

و قال إبن جبير المستقدمين في صفوف الحرب و المستأخرين فيها.

و قيل من قتل في الجّهاد و المستأخرين من لم يقتل و هكذا فأنّ الإحتمالات كثيرة قال بعض المفسّرين أنّ سبب نزول الآية أنّه كانت إمرأة

١- آل عمران = ١٨٠
٢- الحديد = ١٠
٣- القصص = ٥٨
٤- غافر = ١٦

تصّلي خلف النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حسناء من أحسن النّاس فكان بعض القوم يتقّدم حتّى يكون في الصَّف الأوّل لئّلا يراها و يتأخّر بعضهم حتّى يكون في الصَّف المؤخّر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل اللّه عزّ وجلّ و لقد علمنا المستقدمين.

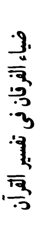
أقول ما ذكره هذا المفّسر في شأن نزول الآية لا دليل عليه و على فرض صحّته لا كلام لنا فيه و الّذي يستفاد منها هو أنّ اللّه تعالى أخبر بأنّه عالمٌ بالمستقدمين منكم و المستأخرين و هو ثابتٌ عقلاً ونقلاً لما ثبت من عموم علمه و قدرته فقوله: **إِنَّ اللّٰه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم** يشمل الكّل و المستقدمين و المستأخرين منهم سواءً أريد بهما في الصّلاة أم في الجهاد فأنّ الجميع تحت الكُّل فأنّه تعالى قد أحاط بكّل شيءٍ علماً.

وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

و الحشر جمع الحيوان الى مكان أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يحشر الخلق في مكانٍ واحد بعد إماتتهم ثمّ يبعثهم اللّه يوم القيامة و قوله حكيمٌ عليمٌ، معناه واضح.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وَ ٱلْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ ٱلسَّمُومِ

أخبر اللّه تعالى عن كيفيّة خلق الإنسان و الجّان فقال في الإنسان و لقد خلقنا الإنسان و المراد به آدم أبو البشر من صلصالٍ أي الطّين اليابس الّذي يسمع له عند النَّقر صلصلة قاله إبن عبّاس و الحسن و قتاددة مجاهد هو الخزف الّذي يصلصل و قيل الصَّلصال المنتن لأنّه مشتق من صلّ اللّحم و أصلّ، إذا أنتن و ردّ هذا القول بأنّه تعالى قال: **خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**[١].





١- الرّحمٰن = ١۴

و الفَّخار هو الطِّين اليابس و ما يبس منه كالفّخار فليس بمنتنٍ.

و نقل عن الفرّاء أنّه قال الصِّلصال طين الحرار اذا خلط بالرَّمل، فاذا جفّ كان صلصالاً و اذا طبخ كان فخّاراً، و أصل الصّلصلة الصَّوت.

قال فی المفردات أصل الصّلصال تردّد الصَّوت من الشّئ اليابس و منه قيل صلّ المسمار و سمّي الطّين الجاف صلصالاً الى أن قال وكان أصله صلاّل فقلّبت إحدى اللاّمين انتهی.

قال بعضهم اللاّم في قوله: **وَ لَقَدْ** لام القسم و قال الآخرون لام التّوكيد و المقصود أنّ الخالق هو اللّه تعالی لا غيره و كلمة الخلق في الأصل التّقدير المستقيم و هو قد يستعمل في إبداع الشّئ من غير أصلٍ و يعبّر عنه بالخلق الإبدّاعي حيث أنّه غير مسبوقٍ بأصلٍ و لا إحتذاءٍ و منه قوله تعالیٰ: **خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ**[١] أي أبدعهما بدلالة قوله: **بَدِيعُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**[٢] يستعمل في إيجاد الشّئ من شئٍ و يعبّر عنه بالخلق الإيجاديلكونه مسبوقاً بشئٍ أخر:

قال اللّه تعالیٰ: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها**[٣].

قال اللّه تعالیٰ: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلًا**[٤].

قال اللّه تعالیٰ: **وَ ٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**[٥].

اذا عرفت هذا فنقول:

الخلق الإبدّاعي منحصرٌ به تعالی و لا يقدر أحد على الإبداع غيره تعالی و أمّا الخلق الإيجادي فقد يوجد من غيره تعالی و الى الفرق بين الخلقين:

١- الأعراف = ٥٤
٢- البقرة = ١١٦
٣- الأعراف = ١٨٩
٤- الأنعام = ٢
٥- فاطر = ١١

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ**[١].

و المعنى أفمن يخلق بالخلق الإبداعي كمن لا يخلق و لا يقدر عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبـابًا وَ لَـوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ**[٢].

و الى الخلق الإيجادي الّذي قد يوجد من غيره تعالى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللّٰهِ وَ أُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَوَ ٱلْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ ٱلْمَوْتىٰ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ**[٤].

ثمّ أنّ قوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** ليس من الخلق الإبداعي بل هو من قسم الثّاني و هو الإيجادي لأنّه تعالى خلق الإنسان من شئٍ أي من مادّةٍ أخرى فتارةً عبَّر عنها بالصَّلصال كما في هذه الآية و تارةً عبَّر عنها بالماء:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمٰآءِ بَشَرًا**[٥].

و تارةً بالسُّلالة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلٰالَةٍ مِنْ طينٍ**[٦].

و تارةً بالنُّطفة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشٰاجٍ نَبْتَليهِ**[٧].

و قد يعبّر عنها بالطّين اللاّزب:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِنْ طينٍ لاٰزِبٍ**[٨].

١- النّحل = ١٧ ٢- الحجّ = ٧٣
٣- المائدة = ١١٠ ٤- أل عمران = ٤٩
٥- الفرقان = ٥٤ ٦- المؤمنون = ١٢
٧- الإنسان = ٢ ٨- الصّافات = ١١

و المأل في جميع الآيات الى شيءٍ واحدٍ و هو أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان من شيءٍ إلاّ أنّ التّعابير مختلفة و المعنى واحد.

عباراتنا شتّى و حسنك واحدُ و كلٌّ الى ذاك الجمال يشيرُ

و قد بيّنا معنى الصّلصال بما لا مزيد عليه.

و أمّا قوله: **مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** فالحمأ طينٌ منتنٍ و المسنون قيل في معناه المصبوب من قولهم سننت الماء على الوجه و غيره اذا صببته.

و عن إبن عبّاس أنّه الرَّطب فعلى هذا يكون رطباً مصبوباً ثمّ يبس فيصير كالفّخار و قيل المسنون المتّغير فمعنى الآية لقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من طينٍ أسود منتنٍ، فهذه مادّة خلقة الإنسان الذّي يقول أنّا ربّكم الأعلى، فإعتبروا يا أولي الأبصار و سيأتي منّا الكلام في الإنسان في المستقبل بوجهٍ أبسط إن شاء اللّه تعالى.

و قوله: **وَ ٱلْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ ٱلسَّمُومِ** قيل المراد به إبليس خلقه اللّه قبل أدم من نار السّموم أي من النّار الحارّة.

و قيل هذه السّموم جزء من سبعين جزء من السُّموم التّي خرج منها الجانّ مأخوذ من دخولها بلطفها في مسام البدن و منه السَّم القاتل قاله في التّبيان.

و قال الزّمخشري، الجانّ للجنّ كأدم للنّاس و قيل هو إسمٌ لجنس الجنّ.

و قال إبن عبّاس السَّموم الرّيح الحارّة التّي تقتل و قيل أنّه نارٌ لا دخان لها منها تكون الصّواعق و قيل أضاف الموصوف الى صفته أي النّار السَّموم.

و قوله: **مِنْ قَبْلُ** أي من قبل خلق أدم، و ذلك لأنّه خلق قبله.

قال القرطبي بعد نقله الأقوال المذكورة ما هذا لفظه: .

و عن إبن عبّاس كان إبليس من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خلقوا من نار السّموم من بين الملائكة ثمّ قال فيه نظر فأنّه يحتاج الى سندٍ ليقطع العذر اذ مثله لا يقال من جهة الرّأي.

و قد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت: قال رسول اللّه ﷺ خلقت الملائكة من نور و خلق الجانّ من مارجٍ من نارٍ و خلق أدم ممّا وصف لكم.

أقول أن كان ما نقله القرطبي عن إبن عبّاس لا دليل عليه فيحتاج الى سندٍ يقطع العذر فما ذكره القرطبي أيضاً بعنوان السّند لا يقطع العذر فأنّ الحديث الذّي رواه مع قطع النّظر عن سنده مخدوش الدّلالة اذ لو خلقت الملائكة من نور و خلق أدم ممّا وصف أي من صلصالٍ من حمأٍ مسنون فكيف يكون أدم مسجوداً للملائكة أليس هذا من تفضيل المفضول على الفاضل و هو قبيحٌ عقلاً و أمّا أنّ الملائكة ممَّ خلقوا فللبحث فيه مقام أخر و هذا الحديث مردودٌ من أصله فنقول:

لا شكّ أنّ أصل الجنّ ستر الشّيء عن الحاسّة يقال جنَّه اللّيل و أجنَّه و جنَّ عليه فجنَّه ستره و على هذا فالجنّ يقال على وجهين:

أحدهما: للرّوحانيين المستترة عن الحوّاس كلّها بأزاء الإنس فتدخل فيه الملائكة و الشيّاطين فكلّ ملائكة جنٌّ و ليس كلّ جنّ ملائكة.

و قيل بل الجنّ بعض الرّوحانيين و ذلك أنّ الرّوحانيين ثلاثة، أخيار و هم الملائكة، و أشرار و هم الشيّاطين و أوساطٌ فيهم أخيارٌ و أشرارٌ و هم الجنّ و يدلّ على ذلك:

قال اللّه تعالى: **قُلْ أُوحِىَ إِلَـىَّ** الى قوله **وَ أَنّا مِنّا اَلْمُسْلِمُونَ وَ مِنّا اَلْقاسِطُونَ**[1].

و الجنّة جماعة الجنّ:

قال اللّه تعالى: **مِنَ الْجِنَّة وَالنّاس.**



١- الجنّ = ١٤

اذا عرفت الجنّ فإعلم أنّ الجانّ نوعٌ من الجنّ لإشتراكهم في الإستتار فقوله تعالى: **وَ ٱلْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ ٱلسَّمُومِ** معناه أنّ هذا النّوع مِن الجنّ خلقناه كذلك قبل خلق أدم و أمّا التّخصيص بإبليس و أنّ المراد بالجانّ في الآية هو إبليس كما عليه المفّسرون لا نعلم وجهه.

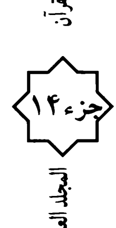
نعم إبليس داخل فيهم و هذا لا كلام فيه و أنّما الكلام في وجه الحصر به و أنّي أظنّ ظنّاً قوّياً قريباً بالقطع أنّ المراد بالجانّ في هذه الآية هو طائفة بني الجانّ الذّين كانوا ساكنين في الأرض قبل أدم فأهلكهم اللّه تعالى لفسادهم و شرارتهم على ما يستفاد من الأخبار.

روى المجلسي قدّس سرّه بأسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن أباءه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: أنّ اللّه تبارك و تعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده و ذلك بعد ما مضى من الجنّ و النّسناس في الأرض سبعة ألاف سنة و كان من شأنه خلق أدم كشط عن أطباق السّموات و قال للملائكة أنظروا الى أهل الأرض من خلقي من الجنّ و النّسناس فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي و سفك الدّماء و الفساد في الأرض بغير الحقّ عظم ذلك عليهم و غضبوا للّه و أسفوا على أهل الأرض و لم يملكوا غضبهم فقالوا ربّنا أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشّأن و هذا خلقك الضّعيف الذّليل يتّقلبون في قبضتك و يعيشون برزقك و يستمتعون بعافيتك و هم يعصونك بمثل هذه الذّنوب العظام ولا تأسف عليهم و لا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم و ترى و قد عظم ذلك علينا و أكبرناه فيك فلمّا سمع ذلك من الملائكة قال إنّي جاعل في الأرض خليفة يكون حجّة لي في أرضي على خلقي فقالت الملائكة سبحانك أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدّماء و ساق

الحديث الى أن قال إنّي أعلم ما لا تعلمون موضع الحاجة منه[1].

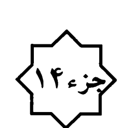
و يظهر من هذا الحديث و أمثاله أنّ المراد بالجانّ بنو الجانّ لا إبليس فقط و أنّ الآية بصدد بيان المخلوق الذّي كانوا قبل أدم و ليست بصدد بيان خلق إبليس كما زعموه هذا ما فهمناه من الآية و العلم عند اللّه تعالى.

■



۱- بحار الأنوار كُمباني ج ۵ ص ۲۸.

وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿۲۸﴾ فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ ﴿۲۹﴾ فَسَجَدَ اَلْمَلاٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿۳۰﴾ إِلاّٰ إِبْلِيسَ أَبىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ اَلسّٰاجِدِينَ ﴿۳۱﴾ قٰالَ يٰا إِبْلِيسُ مٰا لَكَ أَلاّٰ تَكُونَ مَعَ اَلسّٰاجِدِينَ ﴿۳۲﴾ قٰالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿۳۳﴾ قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿۳۴﴾ وَ إِنَّ عَلَيْكَ اَللَّعْنَةَ إِلىٰ يَوْمِ اَلدِّينِ ﴿۳۵﴾ قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿۳۶﴾ قٰالَ فَإِنَّكَ مِنَ اَلْمُنْظَرِينَ ﴿۳۷﴾ إِلىٰ يَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُومِ ﴿۳۸﴾ قٰالَ رَبِّ بِمٰا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي اَلْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۳۹﴾ إِلاّٰ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِينَ ﴿۴۰﴾ قٰالَ هٰذٰا صِرٰاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿۴۱﴾ إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اِتَّبَعَكَ مِنَ اَلْغٰاوِينَ ﴿۴۲﴾ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۴۳﴾ لَهٰا سَبْعَةُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿۴۴﴾



◀ اللّغة

بَشَراً: البَّشرة ظاهر الجلد و الأدمة باطنة و جمعها بشر و إبشار، عبّر عن الإنسان بالبشر إعتباراً بظهور جلده من الشّعر بخلاف الحيوانات الّتي عليها

الصُّوف أو الشَّعر أو الوبر و إستوى في لفظ البشر الواحد و الجمع و خصَّ في القرآن كلّ موضع أعتبر من الإنسان جثّة و ظاهره بلفظ البشر.

مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ: قد فسَّرناه مفصّلاً.

سَوَّيْتُهُ: التَّسوية جعل واحدٍ من الشّيئين على مقدار الآخر و قد يسوّى بينهما في الحكم.

نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي: النَّفخ الإجراء للرّيح في الشّئ بإعتمادٍ و الرُّوح جسمٌ رقيق روحاني فيها الحياة.

إِلَّا إِبْلِيسَ: هو مشتّق من الإبلاس و هو اليأس من روح اللّه.

فَأَنْظِرْنِي: أي فأمهلني فأنّ الإنكار الإمهال.

أَغْوَيْتَنِي: الإغواء الإضلال و قيل المراد به الخيبة من رحمة اللّه.

الْغَاوِينَ: الضّالين المنحرفين عن طريق الحقّ و هو فاعل من غوى.

◀ الإعراب

فَقَعُوا له اللاّم تتعلّق بقعوا و بساجدين **أَجْمَعُونَ** تأكيد ثانٍ عند الجمهور **إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ** يجوز أن يكون معمول اللّعنة و أن يكون حالاً منها و العامل الإستقرار فى عليك **إِلَّا عِبَادَكَ** إستثناء من الجنس **عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ** قيل علَّي بمعنى إلَّي، فيتعلّق بمستقيم أو يكون وصفاً لصراط **إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ** إستثناء من غير الجنس لأنّ متّبع الشّيطان غير موحدٍ و قيل هو من الجنس لأنّ عبادي جميع المكلّفين **أَجْمَعِينَ** هو توكيد للضّمير المجرور و قيل هو حال منه و العامل فيه معنى الإضافة **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ** يجوز أن يكون خبراً ثانياً و أن يكون مستأنفاً و لا يجوز أن يكون حالاً من جهنّم لأنّ، أن، لا تعمل في الحال **مِنْهُمْ** في موضع حال من الضّمير الكائن في الظّرف و هو قوله، لكلّ باب، و يجوز أن يكون حالاً من **جُزْءٌ** صفة له ثانية قدّمت عليه و لا يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في مقسوم لأنّ الصفّة لا تعمل في الموصوف و لا فيما قبله و لا يكون صفة، لباب، لأنّ الباب ليس من النّاس.



◀ التّفسير

وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي خٰالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ

قد مرَّ الكلام في معنى الصّلصال و حمأ مسنون بما لا مزيد عليه في الآية السّابقة عند قوله: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** لكن في هذه الآية قال أنّي خالقٌ بشراً و لم يقل إنساناً كما قال هناك مشعراً بأنّ المراد بالإنسان هناك هو البشر أعني به جثّة الإنسان لا روحه و ذلك لأنّ جثّة الإنسان و جسده هي الّتي خلقت من صلصالٍ من حمأ مسنون لا روحه الّتي هي من عالم الملكوت لأنّ الإنسان مرّكب من الجسد و الرُّوح.

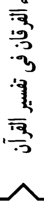
أمّاالجسد والجسم والجثّة أو ماشئت فسمَّه فهومخلوق من تراب بلاكلام.

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فيهٰا نُعيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرٰى**[1].

أمّا الرُّوح فليس كذلك كما سيأتي الكلام فيه.

فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدينَ

الضّمير في سويّته عائد الى البشر أي إذا صوّرت صورته الإنسانية من حيث الأعضاء و الأجزاء التركيبية من الرأس و اليد و الرِّجل و غيرها من أعضاء بدنه و بعبارةٍ أخرى جعلت كلّ عضوٍ في موضعه كما هو المفهوم من التَّسوية و نفخت فيه أي في جسده من روحي، نسب الرّوح اليه تعالى تشريفاً و تكريماً، فقعوا له ساجدين، أمرهم اللّه بالسُّجود بعد التّسوية و نفخ الرُّوح فيه فالكلام يقع تارةً في التَّسوية و أخرى في نفخ الرّوح فيه و ثالثة في السُّجود و المراد به فالبحث يقع في ثلاث مقامات.





١- طه = ٥٥

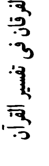
المقام الأوّل: مقام التسوية و معناها واضحٌ لأنّها عبارة عن جعل واحدٍ من الشّيئين مقام الآخر أن كانت في الموضوعات و بين الشّيئين في الحكم أن كانت في الأحكام فحقيقة التّسوية بين الأجزاء هي وضع الشّئ في محلّه و إعطاء كلّ جزءٍ من أجزاء المرّكب حقّه و يدلّ الكلام على أنّ التّسوية كانت قبل تعلّق الرُّوح بالجسد و هو كذلك لأنّ الجسد بعد التّسوية بقي أربعين صباحاً أو أقلّ أو أكثر بلا روح ثمّ تعلّق الرُّوح به و قد مرَّ الكلام فيه في سورة البقرة.

و هذا أي تعلّق الرُّوح بالجسد كان بعد تسويته وتعديله ممّا لا كلام فيه و صريح الآية مشعرٌ به.

و أمّا كيفيّة التَّسوية في جسم آدم فهو ممّا لا يعلمه إلاّ اللّه تعالى فلا يهمّنا البحث فيها.

أمّا المقام الثّاني: أعني تعلّق الرُّوح بالبدن فأعلم أنّ الرُّوح بضمّ الرّاء و الرَّوح بفتحها في الأصل واحد و جعل الرُّوح إسماً للنّفس قال الشّاعر في صفة النّار:

فقلت له إرفعها اليك و أحيها بروحك و أجعلها لها فيئة قدراً



و ذلك لكون النّفس بعض الرُّوح كتسمية النّوع بإسم الجنس نحو تسميته الإنسان بالحيوان ثمّ أنّه جعل إسماً للجزء الّذي به تحصل الحياة و التَّحرك و إستجلاب المنافع و إستدفاع المضّار و هو المذكور:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ مَآ أُوتيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**(١).



فقوله: **وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي** حيث أضاف الرُّوح الى نفسه فهي ملك و تخصيصه بالإضافة تشريفاً له و تعظيماً: كقوله: **وطَهِّرَ بيتى** و **يا عِبادي** و

١- الإسراء = ٨٥

سمّي أشراف الملائكة أرواحاً لتجردّها عن المادّة العنّصرية و لمّا كان الرُّوح منشأ للحياة و لذلك سمّي به يطلق على القرآن أيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنا**(١).

و ذلك لكون القرآن سبباً للحياة الآخرويّة الموصوفة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلدّٰارَ ٱلْاٰخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**(٢).

و تمام الكلام في الرُّوح يأتي في سورة الإسراء:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ**.

و حاصل الكلام أنّ اللّه تعالى أحيى جسد آدم بروحه فصار حيّاً به المعلوم المسلم عند الكلّ أنّه أي الرُّوح ليس موجوداً ماديّاً من سنخ الجسد و أن كانت حقيقته غير معلومة للبشر.

المقام الثّالث: أمره تعالى الملائكة بالسُّجود لآدم و قد إتّفقوا على أنّ السَّجدة كانت سجدة الخضوع لا سجدة العبادة فأنّها لا يجوز لأحدٍ غير اللّه تعالى لأنّه المستّحق للمعبوديّة في عالم الوجود و أمّا غيره كائناً ما كان فهو مخلوق له و المخلوق يعبد و لا يعبد و قوله: **فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ** أمرٌ من وقع يقع أمرهم اللّه تعالى بالسَّجدة لآدم أي الخضوع في جنب عظمته و أنمّا صار سجوداً لهم ببركة روحه لا بسبب حسده العنصري الّذي خلق من التّراب و حيث أنّ الشّيطان غفل عن هذه النّكتته و زعم أنّ الأمر بالسُّجود بسبب حسده لم يسجد و قال: **خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ**(٣).

غرضه أنّ النّار أشرف من الطّين لنورانيّتها و ظلمته و العقل يحكم بتقديم الفاضل على المفضول و على هذه القاعدة ينبغي أن يكون آدم خاضعاً للشيطان، ولم يعلم أنّ الخضوع له ببركة روحه الّتي أضافها اللّه الى نفسه

١- الشورىٰ = ٥٢
٢- العنكبوت = ٦٤
٣- الاعراف = ١٢

تشريفاً و تكريماً و ما نسب اليه تعالى أشرف و أفضل ممّا لم ينسب اليه هـذا مع أنّ لنا دلائل كثيرة على أنّ التّراب أيضاً أفضل من النّار و كيف كان لم يسجد له كما قال تعالى:

فَسَجَدَ ٱلْمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ

أي إمتنع هو وحده عن السُّجود له و الظّاهر أنّ الأشياء متصل و إنّ إبليس كان منهم.

و قيل هو منقطع و قد تكّلمنا فيه سابقاً في سورة البقرة فلا نعيد الكلام فيه حذراً من الإطالة و التكرار.

روى المجلسي بأسناده عن أبي الصَّلت الهرّوي عن الرّضا عليه السلام عن أباءه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنّ اللّه فضَّل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقرّبين و فضَّلني على جميع النَّبيين و المرسلين و الفضل بعدي لك يا علّي و للأئمّة من بعدك و ساق الحديث الى أن قال أنّ اللّه تبارك و تعالى خلق أدم فأودعنا صلبه و أمر الملائكة بالسّجود له تعظيماً لنا و إكراماً و كان سجودهم للّه عزّ وجلّ عبوديّة و لأدم إكراماً و طاعةً لكوننا في صلبه فكيف لا نكون أفضل من الملائكة و قد سجدوا لأدم كلّهم أجمعون الخبر[١].



و إعلم أنّ الأقوال في معنى السّجود ثلاثة بعد إجماع الأمّة على أنّ ذلك السّجود لم يكن سجود عبادة لأنّ سجود العبادة لغيره تعالى شرك و كفر.

الأوّل: أنّ ذلك السّجود كان في في الحقيقة للّه تعالىٰو أنّ أدم كان قبلة.

١- ج ٥ ص ٣٧

الثّانی: أنّ السّجود في أصل اللُّغة هو الإنقياد و الخضوع و منه قوله: **وَ ٱلنَّجْمُ وَ ٱلشَّجَرُ يَسْجُدانِ**(١).

الثّالث: أنّ السّجود كان تعظيماً لآدم و كان تكرمةً له و هو في الحقيقة عبادة اللّه لكونه بأمره و هو مختار جماعة من المفّسرين.

روي أنّه لما خلق اللّه آدم بقي أربعين سنة مصّوراً و كان يمُّر به إبليس فيقول لأمرِ ما خلقت فقال إبليس لئن أمرني اللّه بالسّجود لهذا لعصيته قال عليه السلام ثمّ نفخ فيه فلّما بلغت فيه الرّوح الى دماغه عطس فقال اللّه له يرحمك اللّه قال عليه السلام فسبقت له من اللّه الرّحمة ثمّ قال تبارك و تعالى: (للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا له) فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد فقال عزّ و جل: **قالَما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنيِ مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ**(٢).

قال الصّادق عليه السلام فأوّل من قاس إبليس و أستكبر و الإستكبار هو أوّل معصية عصى اللّه بها فقال إبليس يا رّب إعفني من السّجود لأدم و أنا أعبدك عبادةً لم يعبدها ملك مقرّب و لا نبيّ مرسل فقال اللّه تعالى لا حاجة لي الى عبادتك أنّما أريد أن أعبد من حيث أريد لا من حيث تريد فأبى أن يسجد فقال اللّه تعالى أخرج منها فأنّك رجيم و أنّ عليك لعنتي الى يوم الدّين قال إبليس يا ربّ فكيف و أنت العدل الذّي لا تجور فثواب عملي بطل قال لا ولكن سلني من أمر الدنيّا ما شئت ثواباً لعملك الحديث(٣).

قالَ يآ إِبْليسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسّاجِدينَ

١- الرحمن = ۶
٢- الاعراف = ١٢
٣- ج ۵ ص ٢٨

أي ما علّة قعودك عن السّجدة لأدم و الملائكة كلّهم سجدوا له.

قٰالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصٰالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

أجاب الشّيطان عن سؤال اللّه تعالى بأنّي لم أسجد لبشرٍ كذا وكذا و لم يعلم الشّيطان أنّه كان مأموراً بالسّجود لأدم بعد نفخ الرّوح فيه لا قبله و على هذا فكان مأموراً بالسّجود لروحه لا لجسده و جثته و لو كان مأموراً بالسّجود للبشر لكان الأمر بالسّجود قبل تعلّق الرّوح بالحسد و حيث أنّ اللّه تعالى لم يأمرهم بالسّجود قبله يعلم منه انّ السّجود لم يكن إلاّ للرّوح و هو ليس من البشر قطعاً فالجواب غير مطابقٍ للسّؤال و لذلك لم يقبل اللّه جوابه بل قال مخاطباً إيّاه، فأخرج منها أي من الجنّة أو من السّماء فأنك رجيمٌ، أي مرجوم بالذّم و الشّتم مطرودٌ من الخير و الكرامة.

وَ إِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلٰى يَوْمِ ٱلدِّينِ

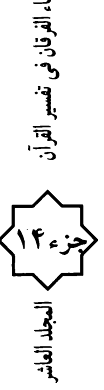
هذا الطّرد و الإبعاد الى يوم الدّين يوم الجزاء فأنّه منتهى أمد اللّعن.

قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنيٓ إِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

أي إمهلني الى ذلك اليوم.

قٰالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ، إِلٰى يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُوم

لمّا طرده اللّه و لعنه و أخرجه من الجنّة أو من السّماء طلب منه تعالى أن يمهله الى أخر الدنيّا و اللّه تعالى أمهله كذلك فقد روي أنّه لمّا سأل البقاء الىٰ يوم الجزاء فقال اللّه أعطيتك قال سلّطني على ولد أدم قال سلّطتك قال أجرني فيهم مجرى الدّم في العروق قال قد أجريتك قال لا يولد لهم ولدٌ واحد إلاّ ولد لي أثنان و أراهم و لا يروني و أتّصور لهم في كلّ صورةٍ شئت قال قد أعطيتك قال يا ربّ زدني قال قد جعلت لك و لذريّتك صدورهم أو طاناً قال ربّ حسبي قال إبليس عند ذلك فبعزتك لأغوينّهم أجمعين الآية.



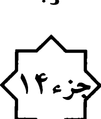
و يظهر من الأخبار أنّ الإمهال و الإنظار منه تعالى له كان جزاء عمله و عبادته في الدنيّا قبل أن يطرد.

فقد روى زرارة عن أبي عبد اللّه عليه السلام لمّا أعطى اللّه تبارك و تعالى إبليس ما أعطاه من القوّة قال: أدم عليه السلام يا ربّ سلّطت إبليس على ولدي و أجريته فيهم مجرى الدّم في العروق و أعطيته ما أعطيته فمالي و لولدي قال لك و لولدك السّيئة بواحدة و الحسنة بعشرة أمثالها قال أدم يا ربّ زدني قال التّوبة مبسوطة الى أن تبلغ النَّفس الحلقوم قال ياربّ زدني قال أغفر و لا أبالي قال أدم حسبي قال قلت جعلت فداك بماذا إستوجب إبليس من اللّه أن أعطاه ما أعطاه فقال بشيءٍ منه كان شكره اللّه عليه.

قلت و ما كان منه جعلت فداك قال ركعتين ركعها في السّماء أربعة ألاف سنة انتهى[١].

و أنّما أمهله اللّه الى يوم الوقت المعلوم لأنّه أخر أيّام التّكليف و قد قيل أنّ الشّيطان سأل الإنظار الى يوم القيامة لأن لا يموت اذ يوم القيامة لا يموت فيه أحد فلم يجبه اللّه الى ذلك و قيل له الى يوم الوقت المعلوم و هو أخر أيّام التّكليف.

أنّما قلنا سأل الإنظار الى يوم القيامة لأنّ قال فأنظرني الى يوم يبعثون و يوم يبعثون يوم القيامة و المعلوم أي ما هو معلومٌ له تعالى في علمه لا يعلمه إلاّ هو.



و قال بعضهم أنّ يوم الوقت المعلوم أيضاً يوم القيامة و المعنى أنّك من المنظرين الى يوم القيامة لا حتّى يوم القيامة.

١- ج ٥ ص ٣٨

و قد ثبت أنّ ما بعد حتّى، داخل في ما قبله بخلاف الى، فقول القائل أكلت السَّمكة حتّى رأسها أيضاً و أمّا قوله أكلت السَّمكة الى رأسها معناه أكلت السَّمكة الى الرّأس و أمّا رأسها فقد تركته و هذا في المقام فأنّ اللّه تعالى لم يقل حتّى يوم الوقت المعلوم ليدخل يوم القيامة في الإنظار بل قال الى يوم الوقت المعلوم فاليوم المعلوم ليس داخلاً في الإنظار فالمطلوب ثابت.

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ

نسب الغواية الى اللّه تعالى و قال بما أغويتني، لأنّه تعالى أمره بالسّجود لأدم عليه السلام و أنّه لم يسجد فطرد و لعن و لو لم يأمره به أي بالسّجود لما وقع الطَّرد و اللَّعن ففي الحقيقة أفضى ذلك الأمر الى غيّه.

و أن شئت قلت أنّ الأمر بالسّجود صار سبباً لغيّه و حيث أنّ الأمر هو اللّه فهو سبب لغيّه و لذلك قال بما أغويتني و لم يعلم أنّ الأمر بالسّجود كان حسناً و تعريضاً للثّواب بالتّواضع و الخضوع لأمر اللّه تعالى كما كان كذلك بالنسبة الى الملائكة و لكنّه إختار الأباء و الإستكبار بسوء سريرته و خبث ذاته أو حسده و إستكباره فهلك و طرد و اللّه تعالى بريءٌ من غيّه و من إرادته و الرّضا به.

و قال الرّازي و غيره من الأشاعرة القائلين بالجبر أنّ الآية تدلّ على أنّه تعالى قد يريد الكفر فيخلقه في الكافر و يصُده عن الدّين و يغويه عن الحقّ و إستدلّ الرّازي على ما إدّعاه بما قد مرَّ منه مراراً في أمثال هذه الموارد من خَلق الدّاعي في العبد و أنّه مجبورٌ في فعله بسبب وجوده فيه و قد أجبنا عنه بما لا مزيد عليه غير مرّةٍ فلا نعيد الكلام بذكره و لكن نقول:

أنّ اللّه تعالى أمر جميع الملائكة بالسّجود لأدم و هذا مسلّمٌ لا كلام لأحدٍ فيه، ولا شكّ أنّ هذا الأمر كان عن مصلحة رأها اللّه تعالى فيه و هذا أيضاً مسلّمٌ لا خلاف فيه عند من يعرف اللّه و يعلم أنّه حكيمٌ لا يفعل لغواً و لا عبثاً،

فسجد الملائكة كلّهم إلاّ إبليس و هذا أيضاً ثابت بنصّ القرآن، فهذه الأمور الثّلاثة ممّا إتّفق عليه الكلّ فلا خلاف فيها بيننا و بين الأشاعرة و أنّما الخلاف بيننا و بينهم أنّهم يقولون أنّ اللّه قدير يريد خلق الكفر في الكافر و نحن لا نقول به لأنّ خلق الكفر في الكافر و الإيمان في المؤمن لا يخلو أمّا أن يكون مسبوقاً بمصلحةٍ رأها اللّه في كلّ واحدٍ منهما أو لا يكون لا سبيل الى الثّاني لمنافاته الحكمة في الخالق الحكيم.

و لا سبيل الى الأوّل أيضاً لأنّ المفروض أنّهما أي المؤمن و الكافر من عبيده و لا رجحان لأحدهما على الآخر فللكافر أن يعترض على ربّه و يقول لم خلقت الكفر في و الإيمان في غيري ألسنا من عبيدك و أنت خالقنا الحكيم العادل و أيّ ذنبٍ صدر منّي، و العجب من الأشاعرة مع أنّهم يعترفون بقبح التّرجيح بلا مرجّح كيف يقولون أنّ اللّه رجّح زيداً على عمر و بخلق الإيمان فيه هذا كلّه مع أنّا نقول بين الدّاعي و الفعل واسطة هي الإختيار بمعنى الدّاعي ليس علّة تامّة لوجود الفعل.

و محصلّ الكلام هو أنّ اللّه تعالى لم يخلق الكفر في إبليس بل هو كان كغيره ممّن أمروا بالسّجود فسجد كلّهم و أبى إبليس و ليس هذا إلاّ معلولاً لسريرته و خبث طينته و حسده و لذلك ذمّه اللّه تعالى على تركه السُّجود و قال له ما لك أن لا تكون مع السّاجدين، فلو كان الكفر و الطّغيان مخلوقاً فيه من قبل اللّه لم يحسن الذّم اذ له أن يقول أنت خلقتني للكفر و سلبت عنّي القدرة على الإيمان فكيف تقول ما لك ألاّ تكون مع السّاجدين هذا فقول إبليس، ربّ بما أغويتني لأزينّن لهم في الأرض كلام بلا محصلّ لا طائل تحته.

و أمّا قوله: **لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ** فلاشكّ أنّه بصدد الإغواء الى يوم الوقت المعلوم إلاّ أنّه أيضاً بمقتضى شرارته و خبث ذاته و ذلك لأنّ العبيد لا ذنب لهم و بعبارةٍ أخرى لو كان اللّه أغواه كما زعمه فما ذنب عبيده و لا يبعد أن تكون الباء في قوله: **بِمَآ أَغْوَيْتَنِي** باء البدل و

المعنى أنّ إغوائي العبيد بدل من إغواءك إيّاي ثمّ إستثنى بعضهم و قال إلاّ عبادك منهم المخلصين كالأنبياء و الأوصياء الذّين أخلصوا للّه تعالى نيّاتهم و أعمالهم و عصمهم اللّه عن الزّلل و الخطأ و أمّا غيرهم:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ عِبٰادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى الَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ عِبٰادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ وَ كَفٰى بِرَبِّكَ وَكيلًا**[٣].

ثمّ أنّ المشهور هو فتح اللاّم في المخلصين و قد قرئ بكسر اللاّم أيضاً فمن فتحها أراد أنّ اللّه أخلصهم بأن وفّقهم لذلك و لطف لهم فيه.

و من كسرها فلقوله تعالى: **وَ أَخْلَصُوا دينَهُمْ لِلّٰهِ**[٤].

و أنّما فسّرنا المُخلَصين بالأنبياء و الأوصياء لأن الإخلاص بمعناه الواقعي لا يوجد في غيرهم كاملاً و ذلك لأنّ الإخلاص ضدّ الرّياء و هو تجريد القصد عن الشّوائب كلّها و المخلص من يكون عمله لمحض التّقرب الى اللّه سبحانه من دون قصد شيٍ أخر أصلاً ثمّ أعلى مراتب الإخلاص و هو الإخلاص المطلق و إخلاص الصديقين إرادة محض وجه اللّه سبحانه من العمل دون توّقع غرض في الدّارين.

و من المعلوم أنّ هذا لا يتّحقق إلاّ لمحبّ اللّه تعالى مستغرق الهمّ بعظمته و جلاله بحيث لم يلتفت الى الدنيّا بل الى ما سوى اللّه مطلقاً و الإخلاص بهذا المعنى لا تصدر إلاّ من النّبي و الوَّصي فالمأمون عن شرّ الشّيطان هو الأنبياء و الأوصياء و أمّا غيرهم فعلى مراتب إخلاصهم.

١- الحجر = ٤٢ ٢- النّحل = ٩٩

٣- الإسراء = ٦٥ ٤- النّساء = ١٤٦

و قد ورد في الحديث القدسي، الإخلاص سرٌّ من أسراري إستودعته قلب من أحببت من عبادي.

وقال رسول اللّه ﷺ: أخلص العمل يجزك منه القليل.

وقال رسول اللّه ﷺ: ما من عبدٍ يخلص العمل للّه تعالى أربعين يوماً إلاّ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

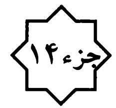
وقال أمير المؤمنين عليه السلام طوبى لمن أخلص للّه العبادة و الدُّعاء ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه و لم ينس ذكر اللّه بما تسمع أذناه و لم يحزن صدره بما أعطي غيره.

و من تأمّل في هذه الأخبار و غيرها ممّا لم تذكره حذراً من الإطناب و خوفاً من الملالة يعلم أنّ الإخلاص رأس الفضائل و رئيسها و هو المناط في قبول الأعمال و صحتها و لا عبرة بعمل لا إخلاص معه و لا خلاص من الشّيطان إلاّ به لقوله تعالى: **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**[1].

قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ

قرأ يعقوب، عليٌّ، بالتّنوين و رفعه على أنّه صفة، صراط، بمعنى رفيع و به قال إبن سيرين و قتادة و الباقون بفتح الياء بغير تنوينٍ على الإضافة الى الياء و عليه المصاحف و هو الأشهر.

قال الزّمخشري معناه هذا طريق حقٌّ علَيّ أن أراعيه و هو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلاّ من إختار أتباعك منهم لغوايته و قرئ علِيٌّ و هو من علُو الشّرف و الفضل.



و قال غيره أنّ ذلك على وجه التّهديد كقولك لمن تتّهدده و تتّوعده على طريقك و الى مصيرك كما قال تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**[2].

١- جامع السّعادات ج ٢ ص ٣٩٩

٢- الفجر = ١٤

و قيل أنّه يراد به الدّين المستقيم و أنّ اللّه يبيّنه و ينفي الشّبهة عنه بهداية المستدلّ على طريق الدّليل.

و قال صاحب اللّوامح أي هذا صراطٌ عهدة إستقامته علَّي و هو مستقيمٌ غير معوج.

و قال الحسن معناه، إلَّي، فقوله علّي، بمعنى إلَّي.

و قال القرطبي معنى الكلام، هذا طريقٌ مرجعه إلَّي فأجزي كلاًّ بعمله يعني طريق العبوديّة و الأقوال كثيرة.

و الذّي يختلج بالبال هو قراءة يعقوب و المعنى هذا طريقٌ عال لإرتفاع شأنه غير معوج و عليه فقوله هذا إشارة الى ما مضى من خلق إبليس و سلطانه على أتباعه فأنّ هذا المسلك في العبوديّة من أحسن المسالك إذ فيه إختيار العبد و ترجيحه أحد المسلكين أعني بهما طريق الحقّ و طريق الشيطان، على الآخر و وجه الحسن، ظاهر فأنّ العبادة على أساس الإختيار و الإنتخاب أحسن منها على أساس الإضطرار و الجبر و هذا المعنى لا يتَّحقق إلاّ بوجود الشّيطان فأنّ الإنسان لو كان مخلوقاً للعبادة ولم يقدر على المعصية فكان من سنخ الملائكة الّذين لا يعصون اللّه طرفة عينٍ أبداً و تلك العبادة لا قيمة لها بالنسبة الى العبادة التّي يختارها العبد بميله و إرادته مع قدرته على المعصية بإغواء الشيطان إيّاه و توضيحه أنّ العبادة الّتي هي مطلوبة للّه تعالى لا تحصل إلاّ من طريقين:

أحدهما: أن يعبد اللّه من غير مانعٍ في طريق العبادة و هو طريق الملائكة فأنّهم يعبدون اللّه و لا مانع لهم فيها لأنّهم خلقوا لها و ليس لهم شئ يمنعهم عنها من الشيّطان و النّفس الأمّارة بالسُّوء و حبّ الأولاد و المال و الجاه و أمثال ذلك من العوائق المانعة في طريق العبادة.

ثانيهما: أن يعبد اللّه مع وجود الموانع من الشّيطان و النّفس الأمّارة ذلك و هذا طريق الإنسان في عبادته و اللّه تعالى خلق الصنّفين و أمرهما بالعبادة.

و من المعلوم عقلاً ونقلاً أنّ عبادة الإنسان أفضل من عبادة الملائكة يكون الإنسان أشرف و أفضل منهم و سيأتي البحث في هذا الباب إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ قوله تعالى: **هٰذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ** معناه ما ذكرناه و أنّما وصف الصّراط بالإستقامة للدّلالة على أنّ هذه الطّريقة لا عوج فيها لأنّه تعالى إختاره لعبيده و ما إختاره حقٌّ لا عوج فيه و ممّا ذكرناه ظهر وجه علوّه و إرتفاعه قال اللّه تعالى مخاطباً لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم:

قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْتَقِمْ كَمٰآ أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَكَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمٰآ أُمِرْتَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واٰحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ**[٣].

إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلّٰا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بعدم تسلّط الشّيطان على جميع عباده و لذلك قسّم العباد على قسمين:

قسمٌ منهم ليس له عليهم سلطان و هم المخلصون المشار اليهم بقوله: **إِلّٰا عِبٰادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**.

و قسمٌ آخر له سلطان عليه و هم أتباعه و أشياعه و عبّر عنهم بالغاوين، أي الضّالين المضلّين و قد مرَّ الكلام منّا أنّ القدر المتيّقن ممّن ليس له عليهم سلطان هو الأنبياء و الأوصياء و أمّا غيرهم من الصلحاء فبحسب مراتبهم في الإخلاص.

قال القرطبي قال العلماء يعني على قلوبهم و قال إبن عينية أي في أن يلقيهم ذنبٌ يمنعهم عفوي و يضيقه عليهم و هؤلاء الّذين هداهم اللّه و إجتباهم و إختارهم و إصطفاهم انتهى.

١- هُود = ١٢ ٢- الشّورىٰ = ١٥
٣- فصلت = ۶

أقول ما ذكره لا يتمّ إلاّ على مسلكه من أنّ الأنبياء قد يذنبون إلاّ أنّ اللّه تعالى يعفو عنهم بالتَّوبة و لم يعلم أنّ الأنبياء لو كانوا كذلك فما الفرق بينهم وبين غيرهم من آحاد النّاس أليس اللّه يعفو عن التّائب عن الذّنب من غير الأنبياء و قد صرَّحت الآيات به.

و أمّا ما نقله عن العلماء و هو قوله يعني على قلوبهم، فلقائلٍ أن يقول، إذا كان الشّيطان ليس له تسلّطٌ على قلوبهم فعلى أيّ شيءٍ مسلّطٌ هو.

و الحاصل أنّ هذا القول لا معنى له إذ الأمر دائرٌ بين النّفي و الإثبات فإذا ثبت التسلّط ثبت على القلب و إلاّ فلا تسلّط أصلاً إذ التسلّط على الأعضاء و الجوارح مع قطع النّظر عن القلب الّذي تكون الأعضاء تحت إختياره لا يفهمه إلاّ القرطبي و أمثاله.

و أمّا قوله: **إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ** الظّاهر أنّ الإستثناء متّصِل لدخول الغاوين تحت العباد و المعنى أنّ سلطانك على أتباعك و أشياعك من الغاوين المنحرفين عن طريق الحقّ و هو كذلك فأنّ من يتّبع إبليس على إغواءه و ينقاد له و يقبل منه فأنّه أسير الشّيطان و لا نعني بالتسلّط إلاّ هذا.

ثمّ هدَّد اللّه من تبعه بقوله: **وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** أي التّابع و المتبوع.

أمّا المتبوع فظاهر لإضلاله غيره و أمّا التّابع فلأنّه تابعه بإختياره و إرادته.

و قيله عن علم، فالتّقصير ثابتٌ لهما و يظهر من بعض المفسّرين أنّ الضّمير في قوله: **لَمَوْعِدُهُمْ** عائدٌ على التّابعين أي أنّ جهنّم موعد من يتبه إبليس على إغواءه.

و هذا التّخصيص لا دليل عليه.

أمّا أوّلاً: فلأن كلمة أجمعين، تدلّ على التّابع و المتبوع جميعاً و لو كان المراد التابعين فقط لكفى قوله: **لَمَوْعِدُهُمْ** و هذا ظاهر على المتأمّل.

ثانياً: كيف يعقل أن يكون التّابع في جهنّم لمتابعته و المتبوع ليس فيها.

ثالثاً: أن لم يكن المتبوع أعني به الشيطان في جهنّم، فأين يكون و يدلّ على ما ذكرناه:

قوله تعالىٰ: **وَ قٰالَ اَلشَّيْطٰانُ لَمّٰا قُضِيَ اَلْأَمْرُ إِنَّ اَللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ اَلْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مٰا كٰانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوٓا أَنْفُسَكُمْ مٰآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مٰآ أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ**(١) و قد فسرّناها.

و من المعلوم أنّ هذا السؤّال و الجواب ليس إلاّ في جهنّم.

لَهٰا سَبْعَةُ أَبْوٰابٍ لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ

الضّمير في لها عائد على جهنّم و هي لا تنصرف لأنّها معرفة مؤّنثة أخبر اللّه تعالى أنّ لها سبعة أبواب و قوله: **لِكُلِّ بٰابٍ مِنْهُمْ** أي من أتباع الشّيطان، جزءٌ مقسوم على قدر إستحقاقهم من العقاب في القلّة و الكثرة بحسب كثرة معاصيهم و قلّتها و فيه إشارة الى أنّ أتباع الشّيطان مع كثرتهم ليسوا على حدّ سواءٍ و هو كذلك فأنّ فرعون مثلاً من أتباع الشّيطان و نحن أيضاً من أتباعه و الفرق واضح و الوجه فيه هو أنّ العقاب لا يكون إلاّ على المعصية فهو يدور مدارها قلّةٍ و كثرةً و شدّةً و ضعفاً و هذا أمرٌ معقول لا يحتاج الى البرهان لكونه على أساس العدل و لولا ذلك يلزم الظُّلم القبيح على اللّه تعالى و أمّا أنّ أبوابها سبعة كما هو نصّ الكتاب.



فلما رواه المجلسيقدّس سرّه بأسناده عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّهصلّى الله عليه و آله و سلّم لما أسري بي الى السّماء قال لي جبرائيل قد أمرت الجنّة و النّار أن تعرضا عليك قالصلّى الله عليه و آله و سلّم فرأيت الجنّة وما

١- إبراهيم = ٢٢

فيها من النّعيم و رأيت النّار و ما فيها من العذاب و الجنّة فيها ثمانية أبوابٍ على كلّ بابٍ منها أربع كلمات كلّ كلمةٍ خيرٌ من الدنيّا و ما فيها لمن يعلم و يعمل بها و للنّار سبعة أبواب على كلّ بابٍ منها ثلاث كلمات كلّ كلمةٍ خيرٌ من الدنيّا و ما فيها لمن يعلم و يعمل بها فقال جبرائيل يا محمّد إقرأها على الأبواب فقرأت ذلك.

أمّا أبواب الجنّة فعلى أوّل بابٍ منها مكتوب لا إلٰه إلاّ اللّه محمّدٌ رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه لكلّ شئٍ حيلة و حيلة العيش أربع خصالٍ.

القناعة، و بذل الحقّ، و ترك الحقد، و مجالسة أهل الخير.

و على الباب الثّاني: مكتوب لا إله إلاّ اللّه محمّدٌ رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه، لكلّ شئٍ حيلة و حيلة السُّرور في الآخرة أربع خصالٍ.

مسح رؤوس اليتامى، و التّعطف على الأرامل، و السّعي في حوائج المؤمنين، و التّفقد للفقراء و المساكين.

و على الباب الثّالث: مكتوب لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه لكلّ شئٍ حيلة و حيلة الصحّة في الدّنيا أربع خصالٍ.

قلّة الكلام، قلّة المنام، و قلّة المشي و قلّة الطّعام.

و على الباب الرّابع: مكتُوبٌ لا إلٰه إلاّ اللّه محمّدٌ رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر فليكرم ضيفه، و من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر فليكرم والديه من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت.

و على الباب الخامس: مكتوب لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه، من أراد أن لا يظلم فلا يظلم، و من أراد أن لا يشتم فلا يشتم، و من أراد أن لا يذل فلا يذّل، و من أراد أن يستمسك بالعروة الوثقى في الدنيّا و الآخرة فليقل لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه.

و على الباب السّادس: لا إله إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه عّليٌ ولّي اللّه، من أراد أن يكون قبره وسيعاً فسيحاً فليبن المساجد، و من أراد أن تأكله الدّيدان تحت الأرض فليسكن المساجد، و من أحبّ أن يكون طريّاً لا يبلى فليسكن المساجد و من أحبّ أن يرى موضعه في الجنّة فليكسي المساجد بالبسط.

و علىٰ الباب السّابع: مكتوب لاإلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه، بياض القلب في أربع خصالٍ.

عيادة المريض و إتباع الجنازة، و شراء الأكفان، و ردّ القرض.

و على الباب الثّامن: مكتوبٌ لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّيٌ ولّي اللّه من أراد الدُّخول من هذه الأبواب فليتّمسك بأربع خصال.

السّخاء، و حسن الخلق، و الصّدقة، و الكفّ عن الأذى (عن أذى عباد اللّه) و رأيت على أبواب النّار مكتوب:

على الباب الأوّل: ثلاث كلمات، من رجا اللّه سعد، و من خاف اللّه أمن، و الهالك المغرور من رجا غير اللّه و خاف سواه.

و على الباب الثّاني: من أراد أن لا يكون عرياناً يوم القيامة فليكس الجلود العارية في الدنيّا، ومن أراد أن لا يكون عطشاناً يوم القيامة فليسق العطاش في الدنيّا، و من أراد أن لا يكون يوم القيامة جائعاً فليطعم البطون الجائعة في الدنيّا.

و على الباب الثّالث: مكتوبٌ لعن اللّه الكاذبين، لعن اللّه الباخلين، لعن اللّه الظّالمين.

و على الباب الرّابع: مكتوبٌ ثلاث كلمات أذلّ اللّه، من أهان الإسلام أذلّ اللّه من أهانَ أهل البيت، أذلّ اللّه، من أعان الظّالمين على ظلمهم للمخلوقين.

و علىٰ الباب الخامس: مكتوبٌ ثلاث كلمات، لا تتّبعوا الهوى فالهوى يخالف الإيمان و لا تكثر منطقك فيما لا يعنيك فتسقط من رحمة اللّه، و لا تكن عوناً للظّالمين.

و على الباب السّادس: مكتوبٌ أنا حرامٌ على المجتهدين أنا حرامٌ على المتّصدقين، أنا حرامٌ على الصّائمين.

و على الباب السّابع: مكتوب ثلاث كلمات، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و وبّخوا نفوسكم قبل أن توَّبخوا، و أدعوا اللّه عزّ وجلّ قبل أن ترَّدوا عليه و لا تقدروا على ذلك [1].

أقول إنّما نقلنا الحديث بطوله مع أنّ صدر الحديث متعلّق بالجنّة و أبوابـها و ليس كلامنا فيها فعلاً، لما فيه من الفوائد كما لا يخفى على الناظر فيه بـعين البصيرة و يستفاد منه أنّ الكلمات الّتي كانت مكتوبة عـلى أبـواب جـهّنم هـي مداخل الشّيطان و مجاري نفوذه و قال بعضهم أنّ الطّبقات السَّبعة هـي بـعينها أبوابها و قيل أنّ الأبواب غير الّطبقات و العلم عند اللّه فأن الأمور المربوطة بما وراء الطبيعة لا سبيل الى الوقوف بها إلاّ النَّص.

■

١- بحار الأنوار ج ۴ ط كمپانى ص ٣٣٢

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَ أَتَيْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَ ٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ ٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

◀ اللّغة

عُيُونٍ: بضمّ العين وكسرها فالضّم على الأصل و الكسر مراعاةً للياء و هى جمع عين.

غِلٍّ: بكسر الغين الحقد و العداوة.

سُرُرٍ: جميع سرير مثل جددٍ و جديد و هو من السُّرور و قيل هو المجلس الرّفيع موطأً للسُّرور.

نَصَبٌ: أي تعب و مشقّة.

نَبِّئْهُمْ: أي أخبرهم و هو من النَّبأ و هو الخبر.

ضَيْفِ: يقع على الواحد و الأثنين و الجمع ومعناه واضح.

وَجِلُونَ: الوجل الخوف.

ٱلْقَٰانِطِينَ: القنوط اليأس.

ٱلْغَٰابِرِينَ: الغابر الباقى.

يَمْتَرُونَ: أي يشّكون فيه و الإمتراء الشّك.

بِقِطْعٍ: قيل هي جمع قطعة و قيل بقطعٍ من اللّيل أي ببعض اللّيل.

دابِرَ هَٰؤُلاَءِ: عقب الرَّجل دابره و قيل دابر هم أخر هم.

◀ الإعراب

إِخْوانًا هو حال من الضّمير في الظَّرف و قيل من الفاعل في، إدخلوهامن الضّمير في أمنين مُتَقَٰابِلِينَ صفة لإخوان و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في الجارّ لَا يَمَسُّهُمْ حال من الضّمير في متقابلين أَنَا ٱلْغَفُورُ قيل أنّه توكيدٌ للمنصوب إِذْ دَخَلُوا في، إذ، وجهان:

أحدهما: هو مفعول أي أذكر.

الثّانى: أن يكون ظرفاً.

عَلَىٰٓ أَنْ مَسَّنِيَ هو في موضع الحال أي بشّرتموني كبيراً مَنْ يَقْنَطُ مبتدأ و خبر و اللّفظ إستفهام و معناه النّفي فلذالك جاءت بعده، إلاّ، و فى يقنط لغتان كسر النّون و ماضيه بفتحها و فتح النّون و ماضيه كسرها إِلآَّ آلَ لُوطٍ هو إستثناء من غير الجنس لأنّهم لم يكونوا مجرمين (إلاّ إمرأته هو مستثنى من أل لوطٍ مستثنى من ضمير المفعول في، منجّوهم.

◄ التّفسير

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ لمّا ذكر اللّه تعالى ما أعدَّ لأهل النّار ذكر ما أعدَّ لأهل الجنّة ليظهر تباين ما بين الفريقين و لمّا كان حال المؤمنين معتنى به أخبر أنّهم في جنّات و عيون و المتّقون هم في الدنيّا أهل الفضائل يتّقون اللّه بإجتناب معاصيه و فعل طاعته.

و قوله: **فِي جَنّٰاتٍ** أي في البساتين التّي تنبع فيها المياه كما تفور من الفوارة ثمّ يجري في مجاريه و هذا هو المراد بالعيون، فأنّها جمع عين و هى محلّ ينبوع الماء و فى هذا الكلام تشويقٌ من اللّه تعالى الى الثّواب بالجنان لأنّها من أسباب لذّات الدنيّا المؤديّة اليها كما أنّ النّار من أسباب الألام لمن حصل فيها و قد وعد اللّه تعالى المتّقين بالجنَّة في كثيرٍ من الآيات.

اُدْخُلُوهٰا بِسَلاٰمٍ اٰمِنِينَ

أي يقال لهم إدخلوا الجنَّة بسلامٍ أي بسلامةٍ البراءة من كلّ أفةٍ و مضَّرةٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ ٱلْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰمًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدّٰارِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **خٰالِدِينَ فِيهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ**[٣].

١- الفرقان = ٦٣ ٢- الرّعد = ٢٤
٣- إبراهيم = ٢٣

قال اللّه تعالىٰ: **يَقُولُونَ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[١].

من الآيات و حيث أنّ السّلام من السُّلم و هو التّعري من الآفات الظّاهرة و الباطنة فلا جرم لا تحقّق للسّلامة الحقيقية إلاّ في الجنّة اذ فيها بقاء بلا فناء و غنىً بلا فقر و عزٌّ بلا ذلّ و صحّة بلا سقم كما قال تعالىٰ: **لَهُمْ دٰارُ ٱلسَّلاٰمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ**[٢] أي السّلامة.

و قيل السَّلام إسمٌ من أسماء اللّه تعالى قيل وصف بذلك من حيث لا تلحقه العيوب و الافات التّي تلحق الخلق ثمّ أنّ السّلام قد يكون بالقول و قد يكون بالفعل فهو من الخلق بالقول و من اللّه بالفعل و هو إعطاء ما تقدّم ذكره ممّا يكون في الجنّة من السّلامة.

وَ نَزَعْنٰا مٰا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوٰانًا عَلٰى سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ

النَّزع القلع و فى هذه الآية أخبر اللّه تعالى بنزع الأحقاد التّي في صدور أهل الدنيّا عن صدور أهل الجنَّة فيصبحون فيها إخواناً متّحابين بمعنى أنّ قلوبهم تكون صافية عن هذه الأرجاس التّي كانت مشغولة بها في الدنيّا و أنت ترى أنّ الحقد و الحسد و العداوة و ما شابهها هي التّي تكون منشأ الإختلافات في دار الدنيّا و حيث أنّ أهل الجنّة فارغون عنها فلا محالة تكون المحبّة حاكمة على القلوب.

و في قوله: **عَلٰى سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ** إشارة الى أنّ سرير كلّ واحدٍ منهم مقابل لصاحبه و محاذٍ لأخيه و بعبارةٍ أخرى يجلس كلّ واحدٍ منهم على سريره المختّص به مقابل الآخر و هو كناية عن محبّتهم و إختلفوا في أنّ نزع الغلّ قبل دخولهم الجنَّة أو بعده و هذا النّزاع لا ثمرة فيه.

١- النّحل = ٣٢ ٢- الانعام = ١٢٧

لاٰ يَمَسُّهُمْ فيهٰا نَصَبٌ وَ مٰا هُمْ مِنْهٰا بِمُخْرَجينَ

أي لا يمّس أهل الجنّة تعب و لا مشّقة و لا يخرجون منها أبداً، و فيه إشارة الى خلودهم فيها و أنّما ذكره بعد نفي التَّعب عنهم مشعراً بأنّ النِّعمة اذا علم زوالها فهي تعبٌ في الحقيقة كما في نعم الدُّنيا فأنّ عيبها في زوالها و فناءها و لذلك يقال لا عيش إلاّ عيش الآخرة و لا نعمة إلاّ نعمتها و حيث أنّ اللّه تعالى حكم بأنّه لا يمَّسهم فيها نصب نفى عنهم الخروج منها و بذلك تصير النّعمة كاملة و الى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

لا طيب للعيش ما دامت مَّنغصةً لذّاته بإدّكار الموت و الهرم

و الدنيّا و ما فيها كذلك ففي هذه الآيات أعطى اللّه المتّقين أنواعاً من النِّعم:

أحدها: كونهم في جنّات و عيون.

ثانيها: السّلامة و الأمن.

ثالثها: إخلاء صدورهم من الغلّ أي الحقد و العداوة.

رابعها: إيجاد المحبّة بينهم.

خامسها: رفع التَّعب عنهم بالكليّة.

سادسها: خلودهم في الجنّة دائماً أبداً.

و من تمَّت له تلك النِّعم الجليلة فقد فاز فوزاً عظيماً و أظنّ أنّ أسباب العيش منحصرة في هذه المذكورات فأن فقد واحدٌ منها نقص العيش بنسبته و حيث أنّ هذه الأمور لا تحصل في الدُّنيا لأحدٍ لأنّها دارٌ بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة فلا يتحقق العيش فيها أبداً.

نَبِّئْ عِبادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ

أي أخبر عبادي يا محمّد أنّي أنا الّذي أعفو و أستر على عبادي معاصيهم و فى هذا الكلام ترغيبٌ لهم في طاعته و تخويفٌ عن معصيته.

قال بعض المحقّقين في تفسير الآية أنّه قد روي أنّ بعض الصحابة كانوا يضحكون فمَّر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم بهم فقال أتضحكون و النّار بين أيديكم فحزنوا جدّاً ثمّ رجع القهقرى فقال جاءني جبرئيل عليه السلام و قال يقول اللّه تعالى لم تقنط عبادي من رحمتي نبّئ عبادي أنّي أنا الغفور الرّحيم و فيها لطائف:

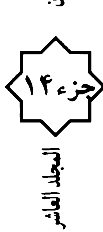
أحدها: قال علّيّ عليه السلام حروف القرأن ثلاث مائة ألف و خمسة و عشرون ألفاً و ثمانية و سبعون حرفاً فلو لم يكن في القرأن بشارة لأمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم سوى هذا الحرف الواحد و هو الياء في قوله: **عِبَادِيٓ** لكفتهم فكما أنّه ليس بين الدّال و الياء في قوله: **عِبَادِيٓ** حجابٌ فكذا ليس بين المؤمن العاصي و بين رحمة اللّه حجابٌ.

ثانيها: قوله: **نَبِّئۡ عِبَادِيٓ** خطاب للرّسول و عبادي كناية عن المؤمنين و الياء في عبادي كناية عن الرّب فاللّه تعالى ذكر الرّسول أولاً، و العصاة ثانياً و ذكر نفسه ثالثاً و الإشارة فيه شفاعتك من قدام المذنبين و رحمتي من خلفهم و هم بين الشّفاعة و الرّحمة فكيف يمكن أن يضيّعوا.

ثالثها: التّكرير في قوله: **أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** و مثله قول يوسف، إنّي أنا أخوك و السِّر فيه أنّ المذنب يكون في وحشة الذّنب فقال الرّب أنّي أنا الغفور الرّحيم على سبيل التّكرير لتذهيب عنه الوحشة و يحصل الفرح بالرَّحمة انتهى كلامه.

إن قلت ما وجه إتّصاف الغفور بالرَّحيم، فلو قال أنّي أنا الغفور لكفى في تبيين المقصود و هو كونه غافراً.

قلت لعلّ الوجه فيه إفادة أنّ اللّه تعالى سبقت رحمته غضبه فلا ينبغي أن تظّنوا أنّه أنّما شرع المغفرة في حقّكم بل هذه عادتة لأنّه كان رحيماً قبل أن يغفر فهو نظير قوله: **ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا**[1] لَم يَقُل أنّه غفّار بل كان غفّاراً من الأزل الى الأبد.



۱- نُوح = ۱۰

و يحتمل أن يكون الوجه فيه الإشعار بأنّ المغفرة لا تحصل إلاّ ممّن يرحم فالرَّحمة هي الأصل لتّحقق المغفرة فيرجع المعنى الى أن يقال، هو غفورٌ لأنّه رحيمٌ.

وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ ٱلْعَذابُ ٱلْأَلِيمُ

الأليم مبالغة في الألم وصف اللّه عذابه بشّدة الألم، فجعل اللّه تعالى الأليم مقابلاً للغفور، الذّي هو أيضاً للمبالغة فالمعنى نبّئ عبادي يا محمّد أنّي كثير المغفرة و شديد العذاب و قد أشار اللّه تعالى بذلك في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **فَحاسَبْناها حِسابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْناها عَذابًا نُكْرًا**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذابًا أَلِيمًا**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا مَنْ تَوَلّىٰ وَ كَفَرَ، فَيُعَذِّبُهُ ٱللّٰهُ ٱلْعَذابَ ٱلْأَكْبَرَ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ**[5] والآيات كثيرة.

والسِّر في ذلك هو أنّ الواجب تعالى ذاتاً و صفةً غير متناه فكما لا يكون لذاته حدٌّ محدودٌ كذلك ليس لصفاته حدٌّ محدود و هذا ثابت عقلاً و شرعاً و لم يخالف فيه أحد من الموَّحدين و على هذا نقول، لا شكّ أنّه تعالى متّصف بالرَّحمة و الغضب:

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ**[6].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ رَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ**[7].

١- آل عمران = ۵۶
٢- الطّلاق = ٨
٣- الفتح = ١٧
۴- الغاشية = ٢۴
۵- البقرة = ١٠
۶- الأنعام = ۵۴
٧- الأنعام = ١٣٣

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واٰسِعَةٍ**(١) و غيرها من الأيات.

و أصرح منها قوله: **وَ رَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ**(٢). فمعنى قوله: **وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ** أنّه لا حدَّ لها و لا نهاية و هذا هو المدّعى في المقام.

و أمّا أنّه تعالى يغضب مكا أنّه يرحم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰابًا عَظيمًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ لَعَنَهُ اَللّٰهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ اَلْقِرَدَةَ وَ اَلْخَنٰازيرَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ**(٥).

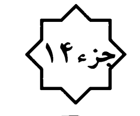
قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَدْ بٰآءَ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ مَأْويٰهُ جَهَنَّمُ**(٧).

فهذه الأيات ممّا لم نذكره تدلّ على أنّ اللّه يغضب كما أنّه يغفر و حيث أنّه قد ثبت عدم تناهي صفاته كذاته فلا حدٌّ و لا نهاية لرحمته و غضبه و حيث أنّ الرّحمة منشأ المغفرة و الغضب منشأ العذاب فلا جرم لا يكون لغفرانه حدّ و لا نهاية و لا لعذابه حدٌّ و نهاية و لأجل ذلك وصف نفسه بالغفور و عذابه بالأليم مبالغةً كمّاً و كيفاً.

و لذلك نقول أعوذ باللّه من غضب الجبّار و الى هذه الدّقيقة أشار أميرالمؤمنين عليه السلام:

حيث قال فكيف إحتمالي لبلاء الآخرة و جليل وقوع المكاره فيها و هو بلاءٌ تطول مدّته و يدوم مقامه و لا يخفّف عن أهله لأنّه لا يكون الاّ عن



١- الأنعام = ١٤٧
٢- الأعراف = ١٥٦
٣- النّساء = ٩٣
٤- المائدة = ٦٠
٥- الفَتح = ٦
٦- الأعراف = ٧١
٧- الأنفال = ١٦

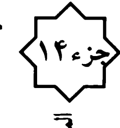
غضبك و إنتقامك و سخطك و هذا ما لا تقوم له السّموات و الأرض الى أن قال عليه السلام لأيّ الأمور إليك أشكو و لما منها أضجُّ و أبكي لأليم العذاب و شدّته أم لطول البلاء و مدّته الخ...

و الحاصل أنّ اللّه تعالى أرحم الرّاحمين في موضع الرّحمة و أشدّ المعاقبين في موضع النّكال و النّقمة، و لذلك قال و إنّ عذابي هو العذاب الأليم أعاذنا اللّه منه فينبغي للعبد أن يكون راجياً خائفاً و بعبارةٍ أخرى أن يكون بين الخوف و الرّجاء فأنّ اليمين والشّمال مضّلة، و خير الأمور أوسطها.

وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرٰاهِيمَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقٰالُوا سَلاٰمًا قٰالَ إِنّٰا مِنْكُمْ وَجِلُونَ

لمّا أمر اللّه تعالى نبيّه في الآية السّابقة أن يخبر الأمّة بأنّه تعالى هو الغفور الرّحيم و أنّ عذابه هو العذاب الأليم أمره في هذه الآية بأمرٍ أخر و هو أن يخبرهم عن ضيف إبراهيم، **الضَّيف** بفتح الضّاد في الأصل الميل و الضّيف من مال اليك نازلاً بك و صارت الضّيافة متعارفة في القرى و أصل الضّيف مصدر و لذلك استوى فيه الواحد و الجمع في عامّة كلامهم و قد يجمع فيقال أضياف و ضيوف و ضيفان و المراد بالضَّيف في الآية الملائكة الذّين دخلوا على إبراهيم الخليل بصورة البشر و قد مرَّ الكلام فيه عند قوله تعالى: **وَ لَقَدْ جٰآءَتْ رُسُلُنٰآ إِبْرٰاهِيمَ بِالْبُشْرٰى قٰالُوا سَلاٰمًا قٰالَ سَلاٰمٌ فَمٰا لَبِثَ أَنْ جٰآءَ بِعِجْلٍ حَنيذٍ**[١] فراجع إن شئت.





و كان إبراهيم الخليل يكنّى أبا الضَّيفان و كان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد و سمّي الضّيف ضيفاً لأضافته اليك و نزوله عليك و كفى في فضيلة الضّيافة و قوله صلى الله عليه و آله و سلم **أكرموا الضَّيف ولو كان كافراً، وقوله من كان يؤمن**

١- هُود = ٦٩

باللّه واليوم الآخر فليكرم جاره و من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر فليكرم ضيفه.

و قد نقل المفسّرون أنّ الملائكة الّذين دخلوا على إبراهيم بصورة البشر و كانوا ضيف إبراهيم، كانوا ثلاثة، جبرائيل، و ميكائيل، و إسرافيل، إذ دخلوا، أي الملائكة، عليه، أي على إبراهيم فقالوا سلاماً، أي سلّموا سلاماً، و فيه إشعار بأنّ من يدخل على غيره ينبغي له أن يسلم على من يدخل عليه و لأجل ذلك قالوا أي الملائكة، سلاماً، قال، إبراهيم، إنّا منكم وجلون، الوجل الخوف أي إنّا خائفون منكم و أنّما قال إبراهيم هذا بعد أن قرَّب العجل ورأهم لا يأكلون على ما تقدَّم في هود.

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ

أي قالت الملائكة في جواب إبراهيم، لا تخف إنّا نبشرك بغلامٍ عليم، و هو إسحاق من سارة و ذلك لأنّ إبراهيم لم يكن لم ولد من سارة.

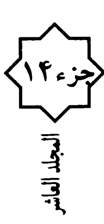
قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ

أن مصدريّة و المعنىٰ أبَشّرتمُوني على مَّس الكبر إيّاي و زوجتي سارة فبم تبشّرون، أي فبأيّ شئٍ تبشّرون تقديره، تبشّرونني، فأدّغم النُّون في النُّون و قد قرئ، تبشرون بنصب النّون بغير إضافة.

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْقَانِطِينَ

أي قالت الملائكة لإبراهيم بشّرناك بالحقّ، أي بما لا خلف فيه و أنّ الولد لابدّ منه فلا تكن من القانطين اليائسين من الولد و قد كان إبراهيم أيس منه لفرط الكبر قال اللّه تعالى حكايةً عن سارة إمرأة إبراهيم:

قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ،



قٰالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ رَحْمَةُ ٱللّٰهِ وَ بَرَكٰاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ[١].

قٰالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِٓ إِلَّا ٱلضّآلُّونَ

أي قال إبراهيم للملائكة و من يقنط و ييأس من رحمة ربّه إلاّ الضّالون المكذّبون، فقوله: **مَنْ** إستفهام على سبيل الإنكار أي لا يقنط منها إلاّ الضّال و فى هذا الكلام إيماء الى عدم يأسه من رحمة ربّه و أنّ ما قال أبشّرتموني أنّما هو على مجرى العادة لا على سبيل الإنكار و اليأس و هذا يقوّي قول من قال أنّه راجعهم في ذلك على سبيل الإستفهام دون الشكّ في أقوالهم.

قٰالَ فَمٰا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ

أنّما قال لهم ذلك بعد البشارة بالولد فقال إبراهيم لهم و ما خطبكم، أي ما الأمر الجليل الذّي بعثتم له فأنّ الخطب الأمر الجليل العظيم.

قٰالُوٓا إِنّآ أُرْسِلْنآ إِلىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ

أي أرسلنا اللّه تعالى لنهلكهم و ننزل بهم العقوبة و أستثنى من ذلك، أل لوط، و أخبر اللّه أنّهم ينّجونهم كلّهم كما قال:

إِلاّ اٰلَ لُوطٍ إِنّٰا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ

ثمّ إستثنى عن ذلك أي من أل لوط إمرأته فقال:

إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنآ إِنَّهٰا لَمِنَ ٱلْغٰابِرِينَ الهالكين

و إعلم أنّه لا خلاف بين أهل اللّسان و غيرهم أنّ الإستثناء من النّفي إثبات الاثبات نفيٌ فاذا قال رجلٌ، له علّي عشرة دراهم إلاّ أربعة إلاّ درهماً ثبت

١- هُود = ٧٣ /٧٢

الإقرار بسبعة لأنّ الدّرهم مستثنى من الأربعة و هو مثبّت لأنّه مستثنى من منّفي و كانت الأربعة منفيّة لأنّها مستثنى من موجب و هو العشرة فعاد الدّرهم الى الستّة فصارت سبعة و كذلك لو قال علّي خمسة دراهم إلاّ درهماً الاّ ثلثيه كان عليه أربعة دراهم و ثلث و كذلك اذا قال لفلان علّي عشرة إلاّ تسعة إلاّ ثمانية إلاّ سبعة كان الإستثناء الثّاني راجعاً الى ما قبله و الثالث الى الثّاني فيكون عليه درهمان لأنّ العشرة إثبات و الثّمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر و التسعة نفي و السّبعة نفي فيكون ستّة عشر تسقط من ثمانية عشر و يبقى درهمان و هو القدر الواجب بالإقرار لا غير اذا عرفت هذا فقوله سبحانه و تعالىٰ: **إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ، إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** إلاّ إمرأته، فإستثنى أل لوط من القوم المجرمين ثمّ قال إلاّ إمرأته فإستثناها من أل لوط فرجعت في التّأويل الى القوم المجرمين كما بيّنا و ذلك لأنّ قوله إلاّ أل لوط إستثناء من مثبت المجرمون و مقتضى القاعدة أن أل لوط ليسوا من المجرمين ثمّ إستثنى إمرأته من أل لوط و قال إلاّ إمرأته فهو إستثناء من المنّفي فيثبت أنّ إمرأته كانت من المجرمين كما هو مقتضى القاعدة فثبت بذلك أنّها من الغابرين الهالكين لكونها داخلة في المجرمين و هو المطلوب.

تذنيبٌ

قالوا أكثر ما يستثنى ما هو أقلّ من النِّصف و لم يسمع أكثر من النِّصف إلاّ بيت أنشده الكسائي وهو:

أدّووا الّتي نقصصت سبعين من مأئةٍ ثمّ أبعثوا حكماً بالعدل حكّاماً

فجعلها مائة إلاّ سبعين و هو يريد ثلاثين و ضعّف المبّرد الإحتجاج بهذ البيت و لم يجز إستثناء الأكثر من الجملة و لا نصفها و أنّما جاز إستثناء ما دون النِّصف من الجملة حتّى قال لا يجوز أن يقال له عندي عشرة إلاّ نصف و لا عشرة إلاّ واحد و على هذا النَّحو بني هذا الباب و الصّحيح ما ذهب اليه المشهور قاله في التّبيان.

فَلَمَّا جٰاءَ اٰلَ لُوطٍ اَلْمُرْسَلُونَ، قٰالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّ الملائكة الّذين أرسلهم اللّه لإهلاك قوم لوط و إستئصالهم لمّا جاءوا لوطاً و قومه قال لوط لهم إنّكم قومٌ منكرون، أي إنّي لا أعرفكم و إنّما قال لهم لوط ذلك لأنّهم كانوا في صورةٍ لا يعرفهم بها لوط و قيل كانوا شباباً و رآى لوط جمالاً فخاف عليهم لوط من فتنة قومه فهذا هو الإنكار فلّما أخبروه بأنّهم رسل اللّه جاءوا بعذاب قومه و سؤاله الأمر عرفهم حينئذٍ كما قال تعالىٰ:

قٰالُوا بَلْ جِئْنٰاكَ بِمٰا كٰانُوا فيهِ يَمْتَرُونَ

أي يشّكون أنّه نازلٌ بهم و هو العذاب و فيه إشارة الى أنّهم أي قوم لوط كانوا شاكين في نزول العذاب بهم كما هو شأن أكثر النّاس و إلاّ كان لوط قد أخبرهم بنزول العذاب غير مرّةٍ في صورة عدم التّوبة عمّا كانوا عليه كما قيل:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً و لكن لا حياة لمن أنادي

وَ أَتَيْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ

أي إنّا جئناك بالحّق فيما أخبرناك به من عذاب قومك و نحن صادقون فيه فقوله بالحّق إشارة الى أنّ العذاب حقٌّ لهم فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد و ذلك لأنّ الحجّة قد تمّت على القوم بواسطة لوط مضافاً الى الحجّة الباطنة و هى العقل و لكنّهم أصّروا على إنكارهم و طغيانهم و لم يرجعوا عمّا كانوا عليه و ظنّوا أنّ اللّه غافلٌ عمّا يعمل الظّالمون كما هو شأن كلّ متكّبرٍ جبّار و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى شاهدٌ و ناظر على أعمالهم و إنّما يمهلهم مدّة في دار الدنيّا إرفاقاً بهم.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اَللَّيْلِ وَ اَتَّبِعْ أَدْبٰارَهُمْ وَ لاٰ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ اَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ

حكى اللّه تعالى أنّ الملائكة قالوا للوط فأسر بأهلك بقطعٍ من اللّيل، و الإسراء سير اللّيل، قال الشاعر:

سريت بهم حتّى لكّل مطيهم   و حّق الجياد ما يقدن بأرسانٍ

و معنى بقطعٍ من اللّيل، أي بقطعةٍ منه (و أتّبع آثارهم) أي كن من راء أهلك لئلا يتخلّف منهم أحد فيناله العذاب و بعبارةٍ أخرى إقتف آثار الأهل في السَّير

وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أي لا يلتفت الى ما خلف قيل نهوا عن الإلتفات ليجِّدوا في السَّير و يتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصُّبح و قيل المعنى، لا يتَّخلف.

وَ اَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أي حيث تؤمرون بالمصير اليه قال إبن عبّاس يعني الشّام.

و قال، مقاتل يعني صفد، قرية من قرى لوط و قيل أنّه مضى الى أرض الخليل بمكانٍ يقال له اليقين قيل إنّما سمّي المكان باليقين لأنّ إبراهيم عليه السلام لمّا خرجت الرُّسل من عنده شيَّعهم فقال لجبرئيل من أين تخيف منهم قال من هاهنا، وحَّد له حّداً و ذهب جبرئيل فلمّا جاء لوط جلس عند إبراهيم و إرتقبا ذلك العذاب فلمّا إهتَّزت الأرض قال إبراهيم أيقنت باللّه فسمّي اليقين و العلم عند اللّه.

وَ قَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذٰلِكَ اَلْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ

و الدّابر الأصل و قيل دابرهم أخرهم و عقب الرّجل دابره و قوله مصبحين، نصب على الحال أي في حال دخولهم الصُّبح و المعنى أوحينا الى لوط أنّ القوم يهلكون وقت الصُّبح فقوله دابر هؤلاء كناية عن الهلاك.

■



وَ جٰآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿۶۷﴾ قٰالَ إِنَّ هٰٓؤُلآٰءِ ضَيْفِي فَلاٰ تَفْضَحُونِ ﴿۶۸﴾ وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ ﴿۶۹﴾ قٰالُوٓا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿۷۰﴾ قٰالَ هٰٓؤُلآٰءِ بَنٰاتِيٓ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ ﴿۷۱﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿۷۲﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿۷۳﴾ فَجَعَلْنٰا عٰالِيَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ حِجٰارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿۷۴﴾ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿۷۵﴾ وَ إِنَّهٰا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴿۷۶﴾ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿۷۷﴾ وَ إِنْ كٰانَ أَصْحٰابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظٰالِمِينَ ﴿۷۸﴾ فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمٰا لَبِإِمٰامٍ مُبِينٍ ﴿۷۹﴾ وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحٰابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿۸۰﴾ وَآتَيْنٰاهُمْ آيٰاتِنٰا فَكٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ ﴿۸۱﴾ وَ كٰانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبٰالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿۸۲﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿۸۳﴾ فَمٰآ أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ ﴿۸۴﴾

◄ اللّغة

يَسْتَبْشِرُونَ: الإستبشار الفرح و السُّرور.

فَلاٰ تَفْضَحُونِ: الفضيحة ظهور السّيئة التّي يلزم العار بها عند من عملها.

وَ لاٰ تُخْزُونِ: الخزي الإنقماع بالعيب الذّي يستحيا.

لَعَمْرُكَ: قيل معناه و حياتك و قيل و مدّة بقاءك واللاّم للقسم.

سَكۡرَتِهِمۡ: السَّكرة غمور السَّهو للنّفس.
يَعۡمَهُونَ: العمه التَّحير أي يتَّحيرون.
سِجِّيلٍ: أي من طينٍ و قيل أنّها حجارة معدّة عند اللّه للمجرمين.
لِلۡمُتَوَسِّمِينَ: أي المتَّفرسين فأنّ التَّوسم التَّفرس و قيل معتبرين.
أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ: الأيكة الشَّجرة.

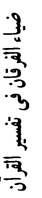
◀ الإعراب

هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ قيل هو مبتدأ و خبر و فى الكلام حذف أي فتَّزوجوهنّ، و يجوز أن يكون، بناتي بدلاً عن المبتدأ و هو هؤلاء، و الخبر محذوف أي أطهر لكم كما جاء في الآية الاخرى و يجوز أن يكون هؤلاء في موضع نصب بفعلٍ محذوف أي تزَّوجوا هؤلاء يَعۡمَهُونَ حال من الضمير في الجارّ أو من الضّمير المجرور في سكرتهم و العامل السَّكرة أو معنى الإضافة.

◀ التّفسير

وَ جَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ

إخبار من اللّه تعالى أنّه حين بلغ أهل مدينة لوط نزول من هو في صورة الأضياف و هم الرُّسل واقعاً بلوط جاءوا الىٰ لوط مستبشرين فرحين طمعاً منهم في أن ينالوا الفجور و ذلك لأنّهم أي الملائكة كانوا في صورة البشر بأحسن وجهٍ و هذا هو الّذي صار باعثاً و محرّكاً لشهوتهم و فرحهم.



قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ

أي قال لوط لأهل المدينة أنّ هؤلاء أي الملائكة الذّين كانوا في صورة البشر، ضيفي فلا تفضحون أي فلا تفضحوني حذفت اليّاء و بقيت الكسرة للدّلالة عليه و أنّما قال لوط ذلك لأنّ الإهانة بالضَّيف إهانةٌ بصاحب البيت واقعاً.

وَ ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ لاٰ تُخْزُونِ

أي و إتّقوا اللّه بإجتناب معاصيه و لا تخزون أي و لا تخزوني حذفت الياء كما مرَّ أي و لا تهينوني و لا تذّلوني عندهم و ذلك لأنّ الضَّيف ذمامٌ كانت العرب تراعيه و تحافظ عليه و تعيب من عنده ضيف و لم يقم بحقّه فقالوا أي قال أهل المدينة في جواب لوط ما حكى اللّه عنهم:

قٰالُوٓا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعٰالَمِينَ

أي أو لم نهيناك إن تستضيف أحداً من الخلق أو تنزله عندك فالتّقدير عن ضيافة العالمين و عند ذلك قال لوط لهم.

قٰالَ هٰٓؤُلآٰءِ بَنٰاتِىٓ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ

قيل إنّهنَّ كنَّ بنات لوط لصلبه بنات قومه و عرَّضهنّ عليهم بالتَّزويج و الإستغناء بهنّ عن الذّكران.

و قال الحسن و قتادة أراد لوط هؤلاء بناتي فتَّزوجوهنّ إن كنتم فاعلين، كناية عن طلب الجماع.

و قال الجبائي قد كان يجور في تلك الشّريعة تزويج المؤمنة بالكافر و قد كان في صدر شريعتنا أيضاً جائزاً ثمّ حرِّم، و قيل أراد نساء أمّته فهم بناته في الحكم.

أقول لا يبعد أن يكون قوله: **إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ** إشارة الى نكتة أخرى و هى أنّ الفعل لما علّق على الشّرط فلا محالة وجوده مشروطٌ بوجود شرطه فالمعنىٰ في قوله: **إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ** يفيد الشكّ في قبولهم ذلك كأنّه قال لوط لهم إن فعلتم ما أقول و ما أظّنكم تفعلون و ذلك لأنّ الضَّيف في حكم الأهل و الأولاد.

و قيل معناه أن كنتم تريدون قضاء الشَّهوة فبما أحلّ اللّه دون ما حرَّم.

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

قيل اللاّم في، لعمرك لام الإبتداء و الكاف خطاب للوط و التّقدير قالت الملائكة للوط لعمرك أي و حياتك و قيل هو مدّة حياته و بقاءه حيّاً فالمعنى في لعمرك، و مدّة بقاءك حيّاً و هو في الحقيقة قسم و هذا هو الفرق بين العمر بفتح العين و العمر بضمّها و إلاّ فالمعنى فيهما واحد غير أنّه لا يجوز في القسم إلاّ الفتح.

و قوله: **لَفِي سَكْرَتِهِمْ** أي تحيَّرهم في غفلتهم و ضلالتهم منعهم عن إدراك الصّواب الذّي يشير به لوط من ترك البنين الى البنات فالسَّكرة كناية عن الضّلالة و الغفلة و السِّر في ذلك أنّ الشَّهوة اذا كانت غالبة على العقل فلا حكم له في مقابلها سواء كانت الشّهوة جنسيّة كما فيما نحن فيه أعني به قوم لوط أم غير جنسيّة كشهوة المال و شهوة المقام و شهوة الرّئاسة و الشُّهرة و بالجملة شهوة الدنيّا و ما فيها فأنّ هذه الشّهوات أيضاً مانعة عن حكم العقل و لذلك ترى السّلاطين و الأمراء و القضاة و الحكّام و أرباب الثّروة و المال و كلّ من كان أسيراً لشهواته لا يقبلون الموعظة و النّصيحة و الإرشاد من أحدٍ حتّى من الأنبياء و الأوصياء فضلاً عن العلماء و الصُّلحاء بل ينظرون الى الدّين و أحكامه بنظر الإستهزاء و ليس هذا لسكرتهم و غفلتهم و إنغمارهم في الشَّهوات و لذلك.

قال رسول اللّه ﷺ حبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة



فأنّ المراد بحبّ الدّنيا ليس مطلق الحبّ قطعاً بل المراد بحبّها هو إفراط الإنسان فيه بحيث كانت الدنيّا و ما فيها هي الغاية القصوى و المقصد الأسنى له و الحبّ اذا وصل الى هذا الحدّ فهو رأس كلّ خطيئة و إلاّ فكلّ إنسانٍ بمقتضى فطرته و جبّلته يحبّ حياته و ماله و أولاده و هذا ممّا لا إشكال فيه و أنّما قلنا ذلك لأنّ الشَّهوة ليست إلاّ الحبّ المفرط و قد زعم بعض النّاس أنّ

السُّكر و السّكرة مختّصٌ بموردٍ خاصّ و ليس كذلك و الى هذا الّذي ذكرناه أشير بقوله: **يَعْمَهُونَ** أي يتّحيرون لا يبصرون طريق الرُّشد فكأنّ الملائكة قالوا للوط لا تنصحهم ترشدهم الى الحقّ اذ لا فائدة فيه بل ذرهم في خوضهم يلعبون و سيعلم الذّين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ

الصَّيحة صوتٌ يخرج من الفم بشّدةٍ و قيل أنّه جاء صوتٌ عظيم من فعل اللّه كالصَّيحة فعلى الأوّل معنى الكلام أخذتهم صيحة جبرئيل.

و على الثّاني أخذتهم الصَّيحة السماويّة و أخذ الصَّيحة إيّاهم معناه إهلاكهم بها و قوله: **مُشْرِقِينَ**، فأن الإشراق ضياء الشّمس بالنّهار يقال شرقت الشّمس اذا طلعت و أشرقت إشراقاً اذا أضاءت و عليه فمعنى قوله: **مُشْرِقِينَ** أي داخلين في الإشراق و بعبارةٍ أخرى أخذتهم الصّيحة حال كونهم داخلين في طلوع الشّمس و هو أوّل النّهار.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى ما فعلت بهم الصَّيحة أي كيفية موتهم و هلاكهم.

فَجَعَلْنٰا عٰالِيَهٰا سٰافِلَهٰا وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ حِجٰارَةً مِنْ سِجّيلٍ

سِجّيل بكسر السّين و هكذا السِّجين الصَّلب من الحجارة الشّديدة و قيل حجارة من طينٍ طبخت بنار جهنّم مكتوبٌ فيها أسماء القوم و قيل كانت طيوراً بيضاء مع كلّ طائرٍ حجرٌ في منقاره و حجران في رجليه أكبر من العدسة و أصغر من الحمصَّة.

و قيل و كانت طيوراً خضراً لها مناقير صفر فكان الحجر يقع على رأس الرّجل فيخرج من دبره، و المعنى فجعلنا علي القرية سافلها أي قلّبناها و المراد بالقرية هو قرية قوم لوط و لم نقنع بتقليبها فقط بل أمطرنا عليهم بعد ذلك حجارةً من سجّيل و فى قوله: **أَمْطَرْنٰا** إشارة الى أنّ إرسال الحجارة عليهم كان كقطرات المطر و هو كناية عن تتابع الأحجار علىٰ قوم لوط.

قال قومٌ أنّه أمطرت الحجارة أوّلاً ثمّ إنقلبت المدينة و قال الآخرون أنّ الحجارة أخذت قوماً منهم خرجوا من المدينة بحوائجهم قبل الفجر.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ

أي للمتّفكرين، أو للنّاظرين قال الشّاعر:

أو كلّما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الى عرّيفهم يتّوسم

و قال أبو عبيدة للمتّبصرين و قيل للمعتبرين.

و قال إبن عبّاس أي لأهل الصّلاح و الخير.

أقول و هذا التّوسم هو الذّي سمّاه قوم، الزّكانة و قوم الفراسة و قوم الفطنة قال عليه السلام **إتّقوا فراسة المؤمن فأنّه يَنظُر بنور اللّه** و الفراسة التّوسم و على فالمعنى أنّ فيما ذكرناه لك يا محمّد من نزول العذاب على العصاة بعد تماميّة الحجّة لآيات و علامات على قدرة اللّه و أنّه أشدُّ المعاقبين في موضع النّكال و النّقمة للمتّوسمين المتّفرسين بنور العقل و الإيمان و أمّا غيرهم من البلهاء و الحمقاء و أبناء الدُّنيا الذّين إتغمروا في شهواتهم و صاروا عبيد الدُّنيا فلا يعتبرون يتّعظون بالحوادث و كأنّهم يظّنون أنّ البلاياء ليست لهم و أنّهم في فسحةٍ منها و لم يعلموا أنّ العذاب في الدُّنيا و الآخرة مسَّببٌ عن أسباب خاصّة و اذا وجد السَّبب يتّرتب عليه المسَّبب قهراً و هذا لا يختّص بقومٍ دون قومٍ و لذلك قال تعالى:



وَ إِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ

و الهاء في قوله: **وَ إِنَّهَا** عائدة على المدينة التّي جعل عاليها سافلها و هى مدينة قوم لوط و المعنى أنّ هذا الطريقة ظاهرة بيّنةٌ للمعتبر و هى على ممَرٍّ ثابت بحيث يراها النّاس و يعتبرون بها و هى لم تندرس بل باقية على ما كانت الى أخر الدّهر و لا شكّ أنّ فيها آية و دلالةً للمؤمن في إيمانه و إنّ وعد اللّه

حقّ و أنّه لا يخلف الميعاد و وجه إضافة الآية الى المؤمن لأنّه هو الّذي يصلح أن يستدلّ بها على إيمانه و أمّا الكافر فليس كذلك ثمّ أشار اللّه تعالى بعد قصّة قوم لوط الى أصحاب الأيكة فقال:

وَ إِنْ كٰانَ أَصْحٰابُ اَلْأَيْكَةِ لَظٰالِمِينَ

الأيكة الغيضة و أصحاب الأيكة هم أهل الشّجر و هم قوم شعيب.

قيل في وجه إضافتهم الى الأيكة و هى الشّجر أنّه كانت في قريتهم و هي، مدين، شجر الدّوم، و قيل المقل، و قيل السّدر، و قيل الأيكة إسم النّاحية فيكون علماً و كيف كان، قد أرسل اللّه اليهم شعيب النّبي عليه السلام فلم يطيعوه و إتّخذوا طريق الكفر و العصيان فأهلكوا أيضاً بالصَّيحة و قيل أهلكوا بعذاب الظِّلة و يأتي تفصيل ذلك في سورة الشّعراء إن شاء اللّه.

فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمٰا لَبِإِمٰامٍ مُبِينٍ

أي فإنتقمنا من أصحاب الأيكة لظلمهم بأن أهلكناهم و دمَّرنا عليهم كما فعلناه بقوم لوط و قوله: **وَ إِنَّهُمٰا** يعني قوم لوط و قرية أصحاب الأيكة و بعبارةٍ أخرى كلتا القريتين، لبإمامٍ مبين، قيل في معناه أي بطريقٍ واضح في نفسه يعني مدينة قوم لوط و بقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمُّر عليهما.

و قيل الضّمير في، و أنّهما، يعود على شعيب و لوط أي و أنّهما لبإمامٍ مبين بطريق من الحقّ واضح و الإمام الطّريق.

و قيل أنّهما أي الحكم بهلاك قوم لوط و أصحاب الأيكة لفي مكتوبٍ مبين و هو اللّوح المحفوظ.

أقول ظاهر الكلام أنّ الضّمير في قوله: **وَ إِنَّهُمٰا** يرجع الى قوم لوطٍ و أصحاب الأيكة و قوله لبإمامٍ مبينٍ إشارة الى لوط و شعيب و ذلك لأنّ النّبي إمام القوم و المعنى فإنتقمنا منهم أي من العصاة و الحال أنّ الطّائفتين أعني

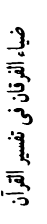
عصاة قوم لوط و عصاة أصحاب الأيكة لهم إمامٌ مبين أي ظاهر و هو لوط و شعيب و أنّما قال إمام و لم يقل إمامين بإعتبار الطّائفتين فأنّ لكلّ طائفة من هؤلاء العصاة إمام واحد لوط في إحدايهما و شعيب في الأخرى و فيه إشارة الى أنّ إهلاكهم كان بعد إرسال الرُّسل و إتمام الحجّة لا قبله و على ما ذكرناه فالمراد من الإمام في قوله: **لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ** و هو نفس النّبي في قوم لوط و شعيب.

و أمّا القول بأنّ المراد به اللّوح المحفوظ فهو بعيدٌ عن سياق الآية و الدّليل على ما ذكرناه هو قوله تعالى: **وَ ما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً**(١) و اللّه أعلم.

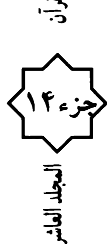
وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ

الحِجر بكسر الحاء ديار ثمود و هي ما بين مكّة و تبوك و هو الوادي الّذي فيه ثمود و هم قوم صالح عليه السلام.

و قال الطّبري هي أرض بين الحجاز و الشّام و المعنى أنّ أصحاب الحجر كذّبوا نبيّهم و هو صالح ولكن من كذّب نبيّاً من الأنبياء فقد كذّب الأنبياء كلّهم لأنّهم على دينٍ واحدٍ في الأصول و الإرشاد الى الحقّ فلا يجوز التّفريق بينهم أتى بصيغة الجمع و لم يقل كذّب أصحاب الحجر رسوله.



وَ اٰتَيْناهُمْ اٰياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ



أخبر اللّه تعالى أنّه آتاهم اللّه الدّلالات و المعجزات الدّالة على توحيده و صدق أنبياءه و كانوا يعرضون عنها و الإعراض كناية عن عدم القبول هذا إذا كان الإعراض قلبيّاً و أمّا إذا كان الإعراض عمليّاً فالمعنى أنّهم كانوا معرضين عن الآيات عملاً و أن كانوا مقّرين بها قلباً كما هو شأن كثير من النّاس و أمّا

١- الإسراء = ١٥

مقامنا هذا فمن القسم الأوّل لأنّهم لم يؤمنوا بصالح و كانوا كافرين فهم أعرضوا عن آيات اللّه مطلقاً و بذلك صاروا مستّحقين للعذاب في الدّنيا.

وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ

النَّحت في كلام العرب البري و البّخر يقال نحته ينحته نحتاً أي براه و النّحاتة البراية و المنحت ما ينحت به:

قال اللّه تعالىٰ: **أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ**[1] أي تبخرون و تصنعون.

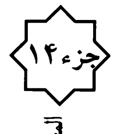
قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا**[3].

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ، فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

أي جاءتهم الصَّيحة وقت دخولهم في الصّباح ولم يغنهم ما كانوا يكسبون، و قد مرَّ الكلام في قصّة قوم صالح مفصّلاً و بيّنا هناك كيفيّة تكذيبهم للآيات و ما وقع بهم من العذاب فلا نحتاج الى الإعادة ثانياً.

■



١- الصّافات = ٩٥
٢- الشّعراء = ١٤٩
٣- الأعراف = ٧٤

وَ مٰا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ ٱلسّٰاعَةَ لَاٰتِيَةٌ فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلّٰاقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰاكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثٰانِي وَ ٱلْقُرْاٰنَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لٰا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلٰى مٰا مَتَّعْنٰا بِهِۦٓ أَزْوٰاجًا مِنْهُمْ وَ لٰا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ ٱخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَ قُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْاٰنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنّٰا كَفَيْنٰاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمٰا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ ٱلسّٰاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَ ٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتّٰى يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

◄ اللّغة

فَاصْفَحِ: الصَّفح العفو و أخفض، خفض الجناح كناية عن التّواضع.

عِضِينَ: بكسر العين أي سحرٌ و كناية، و قيل متّصرفاً بالإيمان ببعضه و الكفر ببعضه.

فَاصْدَعْ: أي فرّق بين الحّق و الباطل.

ٱلْيَقِينُ: قيل عوضاً الموت.

◀ الإعراب

كَمَآ أَنْزَلْنَا الكاف في موضع نصب نعتاً لمصدرٍ محذوف تقديره سبعاً من المثاني إيتاء كما انزلنا، أو إنزالاً كما أنزلنا بِمَا تُؤْمَرُ ما مصدريّة و قيل بمعنى الّذي و عليه فهي موصولة و العائد محذوف أي بما تؤمر به و الأصل بما تؤمر بالصّدع به ثمّ حذف للعلم به.

◀ التّفسير

وَ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَاٰتِيَةٌ فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن خلق السّموات و الأرض أوّلاً.

و أنّ السّاعة أعني بها القيامة آتية لا ريب فيها ثانياً.

ثمّ أمر رسوله بالعفو عن المذنبين ثالثاً.

فالبحث في ثلاث فصول.

الفصل الاوّل: في خلق السّموات و الأرض و ما بينهما و هذا ممّا تكلّمنا فيه غير مرّةٍ و قلنا أنّ الخلق فيهما إبدّاعيّ بمعنى أنّ اللّه تعالى أوجدهما من غير أصلٍ إحتذاء بدليل قوله: **بَدِيعُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(١) وأمّا خلق ما بينهما من الإنسان و الجماد و الحيوان و النّبات فهو من إيجاد الشّئ من شئٍ و هذا ممّا لا كلام فيه.



و أمّا قوله: **إِلَّا بِالْحَقِّ** فالإستثناء من النّفي إثبات أي خلقناهما و ما بينهما بالحقّ لا بالباطل و يدلّ عليه العقل و النّقل.

أمّا العقل: فلأنّ الباطل يعدّ عبثاً و لغواً و اللّه تعالى منزّهٌ عنه لأنّ الخالق الحكيم لا يفعل العبث و قد يثبت أنّه تعالى هو الحقّ المطلق أي الثّابت الّذي

١- البقرة = ١١٧

لا يتّغير يتبدّل، أو لا سبيل للبطلان اليه على إختلاف التّفسيرين في الحقّ ظاهراً فهو حقّ لأنّه لا يتغير و حقّ لأنّه لا سبيل للبطلان الى فلو فعل باطلاً لا يكون حقّاً بقولٍ مطلق ضرورة أنّ فاعل الباطل باطل فثبت و تحّقق عقلاً أنّ فعله حقّالمطلوب.

أمّا النقل:

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلًا سُبْحٰانَكَ فَقِنٰا عَذٰابَ اَلنّٰارِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰآءَ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلًا**(٢).

الفصل الثّاني: قوله: **وَ إِنَّ اَلسّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ** المراد بالسّاعة القيامة و لا شكّ أنّها آتية و الدّليل عليه أيضاً من العقل و النّقل.

أمّا العقل: فلأنّ اللّه تعالى عادلٌ ليس بظالم و هذا ثابتٌ لا كلام فيه و لا شكّ أيضاً أنّه تعالى كلّفنا في الدنيّا بالتّكاليف الشّرعية بواسطة الأنبياء، و لا شكّ أيضاً أنّ العمل بمقتضى التّكليف يتّرتب عليه الثّواب كما أنّ تركه يقتضي العقاب و أنّما قلنا ذلك لأنّ العدل يقتضي ذلك فلو كان العاصي و المطيع على حدٍّ سواء يقتضي الظُّلم على المطيع و هذا خلاف العدل إذا ثبت هذا فنقول نحن نرى بالوجدان بل بالحّس و العيان أنّ الدُّنيا ليست بدار الجزاء فأنّ الظّالم يظلم في مدّة عمره حتّى يموت و الغاصب يغصب مال الغير و لا يردّه الى صاحبه حتّى يموت و هكذا نرى المحسن و العادل يحسن و يعدل حتّى يموت فأين عقاب الظّالم و أين ثواب المحسن و المفروض أنّ الظّالم و المظلوم مثلاً مخلوقات للّه تعالى و اللّه تعالى أقدر الظّالم على ظلمه ولم يقدر المظلوم على الدّفاع عن نفسه و قد ماتا على ذلك.

و حيث أنّ الدّنيا ليست للجزاء كما ذكرناه فلامحالة يكون الثّواب و العقاب في دارٍ آخر غير الدّنيا و هو الّذي عبّر عنه بالآخرة أو القيامة أو ما شئت فسمّه

١- آل عمران = ١٩١
٢- ص = ٢٧

إذ لو لم يكن كذلك لبطل الثّواب و العقاب و الجزاء على العمل و هو كما ترى فثبت أنّ السّاعة آتية قطعاً و هو المطلوب.

أمّا النّقل: فالآيات و الأخبار الدالة عليها متواترة بل لا يبعد أن يكون الإعتقاد بها من ضروريّات الإسلام:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْهُوَ أَقْرَبُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ**(٤).

و الأيات كثيرة جدّاً.

نعم علمها عند ربّى:

قال اللّه تعالىٰ: **يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللَّهِ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**(٦).

و مع وجود الآيات و صراحتها فيما نحن بصدده لا حاجة الى ذكر الأخبار.

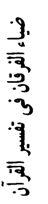
الفصل الثّالث: في قوله: **فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ** قلنا أنّ الصَّفح العفو أمر اللّه تعالى نبيّه بالصفح و هو على ما قال في المفردات ترك التّثريب و هو أبلغ من العفو و أعلى منه و بينهما من النّسب العموم، و الخصوص مطلقاً و ذلك لأن الصّفح يستلزم العفو و لا عكس و بعبارةٍ أخرى كلّ صفحٍ عفو و ليس كلّ عفوٍ صفح و لذلك قال بعضهم قد يعفو الإنسان و لا يصفح ألا ترى أنّ

١- النّحل = ٧٧
٢- الكهف = ٢١
٣- طه = ١٥
٤- الحجّ = ١
٥- الأحزاب = ٦٣
٦- الزّخرف = ٨٥

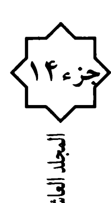
يوسف عليه السلام قال لأخوته: **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ**[١] و قال بعض أرباب اللّغة الصَّفح في الأصل الإعراض و قوله: **فَاصْفَحِ** عنهم أي أعرض عنهم و أصل الصَّفح أن تنحرف عن الشّئ فتوليّه صفحة وجهك أي ناحية وجهك و كذلك الإعراض و على هذا: فقوله تعالى: **فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ** اي أعرض عن الكفّار إعراضاً جميلاً.

أقول قال القولين الىٰ معنىً واحدٍ فأنّ العفو أيضاً إعراض عن الإنتقام في الحقيقة و هو ظاهر.

قال بعض المفسّرين و الصَّفوح من أبنية المبالغة و هو من صفاته تعالى العفو عن ذنوب العباد المعرض عن عقوبتهم و الصَّفح من أسماء السّماء و منه ملائكة الصَّفح الأعلى أي ملائكة السّماء العلياء و كيف كان لا شكّ عقلاً و نقلاً أنّ الصّفح و العفو من أحسن الصّفات و هو من أوصاف الكرام و خصال الأشراف و أنّما وصفه بالجميل و قال فأصفح الصَّفح الجميل لأنّ الصَّفح و العفو ليس في جميع الموارد حسناً جميلاً بل قد يكون قبيحاً كما إذا كان العفو عن مذنبٍ ظالم صار سبباً و باعثاً لتضييع حقّ الغير أو صار سبباً لتّجريّ الظّالم في ظلمه ففي أمثال هذه الموارد لا يحسن العفو بل يقبح فقوله تعالى: **فَاصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ** إشارة الى العفو الّذي يقع في موضعه ثمّ أشار اللّه تعالى الى مسألة أخرى قوله:



إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ



و الخّلاق بفتح الخاء واللاّم المشدّدة على وزن فعّال مبالغة في الخلق كما أنّ العليم، أيضاً مبالغة في العلم أي أنّه تعالى كثير الخلق و العلم فلا نهاية لخلقه و لا لعلمه لأنّه قادر على خلق كلّ شئ كما أنّه عالم بكلّ شيءٍ.

١- يوسف = ٩٢

و قال الزّمخشري **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ** الّذي خلقك و خلقهم و هو العليم بحالك و بحالهم فلا يخفى عليه ما يجري بينكم و هو يحكم بينكم أو أنّ ربّكم هو الّذي خلقكم و علم ما هو الأصلح لكم و قد علم أنّ الصّفح اليوم أصلح الى أن يكون السّيف أصلح انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثَانِي وَ ٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ

المشهور عندهم أنّ المراد بالسّبع المثاني الطّوال من السّور و هى البقرة، و آل عمران، و النّساء و المائدة و الأنعام و الأعراف و الأنفال.

و قيل المراد به فاتحة الكتاب لما روي عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: **السّبع المثاني أُمّ القرآن**، و هي سبع آيات بلا خلاف في جملتها و أنّما سمّيت مثاني لأنّها تثنى في كلّ صلوةٍ و قراءةٍ.

و قيل لأنّها نزلت أوّلاً بمّكة و ثانياً بمدينة، قال الشّاعر:

نشدتكم بمنزل القرآن أمّ الكتاب السّبع من مثاني
ثنتين من آيٍ من القرآن و السّبع سبع الطّوال الدّوانّي

و عن إبن عبّاس في قوله تعالى: **سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثَانِي** قال السّبع الطّوال و سميّت مثاني لأنّ العبر و الأحكام و الحدود تثنّيت فيها و أنكر قومٌ هذا، و قالوا أنزلت هذه الآية بمكّة و لم ينزل من الطّوال شئ إذ ذاك، و أجيب عنه بأنّ اللّه تعالى أنزل القرآن الى السّماء الدنيّا ثمّ أنزله منها نجوماً فما أنزله على السّماء الدنيّا فكأنّما أتاه محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و أن لم ينزل عليه بعد قاله القرطبي في تفسيره ثمّ قال و ممّن قال أنّها السّبع الطّوال عبد اللّه بن مسعود و عبد اللّه بن عمر و سعيد بن جبير و مجاهد و قال جرير.

جزى اللّه الفرزدق حين يمسى مضيفاً للمفصّل و المثانى.

و قيل المثاني القرآن كلّه كما قال تعالى: **كِتَابًا مُتَشَابِهًا**[١].

١- الزّمر = ٢٣

و قيل له المثاني لأنّ الأنباء و القصص تثنيّت فيه.

و قالت صفيّة بنت عبد المطّلب ترثي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان نوراً ساطعاً يهتدى به يخصّ بتنزيل المثاني المعظّم أي القرآن فهذه الأقوال و غيرها ممّا لم نذكره نقلوها في تفاسيرهم.

أقول و الّذي يظهر لنا من الأخبار الواردة عن أهل البيت في هذا الباب هو أنّ المراد بقوله سبعاً من المثاني، سورة الحمد و هى سبع آيات منها: **بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ** و أنّما سميّت مثاني لأنّها تثنى في الرّكعتين.

فعن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: إذا كانت لك حاجة فأقرأ المثاني و سورة أخرى و صلّ ركعتين و أدع اللّه قلت أصلحك اللّه و ما المثاني قال عليه السلام فاتحة الكتاب بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم الحمد للّه ربّ العالمين، الخ... .

و قد نقل المجلسي رحمه الله في المقام أخباراً كثيرة تدّل على أنّ المراد بالسَّبع المثاني هو الأئمة عليهم السّلام وله رحمه الله في المقام بيانٌ أيضاً إن شئت الإطلاّع على الأخبار و الوقوف على بيانه فعليك بمراجعة البحار(١).

و في المقام إشكال يجب التنبّيه عليه و هو أنّ اللّه تعالى ذكر بعد ذلك و القرآن العظيم و قال: **وَ لَقَدْ آتَيْنٰاكَ سَبْعًا مِنَ اَلْمَثٰانِي وَ اَلْقُرْآنَ اَلْعَظِيمَ** وقد إتّفقوا على أنّ المعطوف لا بدّ له من المغايرة للمعطوف عليه و إلاّ يلزم عطف الشّئ على نفسه و هو ممّا لا فائدة فيه فإذا قلنا جاءني زيد و عمروٌ، فعمر و غير زيد و إلاّ يصير المعنى جاءني زيد و زيد و هو كما ترى لا ينفع فلا يجوز إذا عرفت فائدة العطف فقوله تعالى: **وَ لَقَدْ آتَيْنٰاكَ سَبْعًا مِنَ اَلْمَثٰانِي** هو المعطوف عليه ثمّ عطف عليه قوله و القرآن العظيم فمقتضى القاعدة هو أن

١- البحار ج ٧(إمامت) ط كمپاني ص ١١٣

يكون القرآن العظيم غير السَّبع المثاني فعلى قولهم أن السَّبع هو السُّور الطُّوال أو القرآن كلّه أو سورة الحمد أو غير ذلك من الأقوال يلزم أن يكون المعطوف و هو القرآن العظيم عين المعطوف عليه فأنّ جميع ما ذكروه في المعطوف عليه داخل تحت المعطوف و هو القرآن العظيم فلا فائدة في العطف و إذا إنتفت الفائدة يصير الكلام عبثاً و لغواً فالأحسن أن يقال لقد آتيناك سبعاً من المثاني الّتي هي القرآن العظيم ليستقيم الكلام و بعبارةٍ أخرى عطف العآم على الخّاص لا يجوز لدخول الخاّص تحت العاّم بدون العطف و العجب أنّ أكثر المفسّرين فيما رأينا في تفاسيرهم لم يتنبّهوا لهذا الإشكال و لذلك لم يجيبوا عنه و من تنبّه منهم كصاحب الكشّاف أجاب عنه بما لا يغني و لا يفيد و نحن ننقل عين عباراته لتعلم صدق ما قلناه.

قال فأن قلت كيف صحَّ عطف القرآن العظيم على السَّبع و هل هو إلاّ عطف الشّئ على نفسه.

قلت إذا عني بالسَّبع الفاتحة أو الطُّوال فما وراءهنّ ينطلق عليه إسم القرآن لأنّه إسمٌ يقع على البعض كما يقع على الكلّ ألا ترى الى قوله: **بِمَا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرآن** يعني سورة يوسف و إذا عنيت الأسباع فالمعنى و لقد آتيناك ما يقال له السَّبع المثاني و القرآن العظيم الجامع لهذين النعتَّين و هو الثّناء و التَّنبيه و العظم انتهى.

أقول ليس البحث في أنّ القرآن يطلق على غير الفاتحة أو الطُّوال أو لا يطلق إذ لا شكّ لأحدٍ أنّ الكلّ يطلق على الجزء و أنمّا الكلام في أنّ الفاتحة و الطُّوال من القرآن أو لا فلى الأوّل كما إعترف به فأيّة فائدة في العطف و المفروض أنّ الجزء داخل تحت الكلّ و على الثّاني و هو أن لا تكون الفاتحة أو الطَّول منه يلزم إختصاص القرآن بضمير الفاتحة و الطّول و هو خلاف إجماع المسلمين أليس قول الزّمخشرىس بجواز هذا العطف على ما قرَّره هو، صحّة قول القائل و لقد آتيناك المجلّد الأوّل من الكشّاف و الكشّاف العظيم،

بدليل أنّ الكشّاف يطلق على غير المجلّد الأوّل أيضاً كما يقع على الكُل و أمّا إستدلاله بقوله تعالى: **بِمَا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هٰذا الْقُرآن** يعني سُورة يُوسف، فهو أوّل الكلام و أيّ دليل دلّ عنده على أنّ المراد بالقرآن سورة يوسف فهذا الإستدلال منه كإستدلالهم على صحّة خلافة أبي بكر بدليل أنّ أبا بكر صار خايفة و النّاس قالوا له خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و أيّ دليلٍ دلّ على أنّ المراد بالقرآن في الآية سورة يوسف غير قول القائل به و أعجب منه ما ذكره الرّازي في تفسيره و قال و الجواب الصحيح أنّ بعض الشّئ مغاير لمجموعه فلم لا يكفي هذا القدر من المغايرة من حسن العطف إنتهى.

و أنت ترى أنّه أخذ الكلام عن صاحب الكشّاف ثمّ غيّر العبارة و لم يأت بشئٍ من عند نفسه كما هو دأب جميع مفسّري العّامة، ولم يعلم الرّازي أنّ هذا القدرَ من المغايرة بحسب المفهوم أي مغايرة مفهوم البعض لمفهوم الكُل لو كان مصّححاً لصحّة العطف لصَّح قول القائل جاءني زيدٌ و الإنسان أو جاءني بعض القوم و كلّهم لأنّ مفهوم البعض و هو المعطوف عليه مغاير لمفهوم الكُل المعطوف و لا أظَّن أنّ العاقل يقول به و كأنّه غفل عن نكتة و هى أنّ مغايرة المفهوم في الكُل و البعض ليست في أصل الحكم و هو المجئ و إنّما هي ثابتة في مفهوم لفظ الكُل و البعض و هو خارج عن البحث و إنّما اللاّزم في التّغاير في باب العطف هو التّغير الحكمي و هو مفقود في المقام فتأمّل.

أن قلت أن كان الأمر على هذا المنوال فالإشكال باقٍ على حاله فما الجواب عنه.

قلت يحتمل أن تكون الواو في قوله: **وَ ٱلْقُرْاٰنَ ٱلْعَظِيمَ** بمعنى مع، أي مع القرآن العظيم لا للعطف و يحتمل أن تكون من قوله: **مِنَ ٱلْمَثَانِي** بمعنى، مع، أو تعليليّة، و يستفاد من الأخبار أنّ المراد من السَّبع هو الأئمة عليهم السّلام الّذين جعلهم اللّه عدلاً للقرآن في كلام رسوله حيث قال: **إنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي**.



و يدلّ عليه ما رواه المجلسي قدس سره في البحار بأسناده عن سماعة قال سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ آتَيْنٰاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثٰانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.**

فقال عليه السلام: لي نحن واللّه السَّبع المثاني و نحن وجه اللّه نزول بين أظهركم من عرفنا ومن جهلنا فأمامه اليقين.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال نحن المثاني الّتي أعطاها اللّه نبيّنا و نحن وجه اللّه ننصلب في الأرض بين أظهركم عرفنا من عرفنا و من جهلنا فأمامه اليقين.

و قال الصّدوق رضي الله عنه - معنى قوله نحن المثاني أي نحن الّذين قرَّبنا النَّبي الىٰ القرآن و أوصى بالتَّمسك بالقرآن و بنا و أخبر أمّته أن لا نفترق حتّى يزد عليه عوضه.

و بأسناده عن هارون بن خارجة قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام نحن المثاني الّتي أوتيها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و نحن وجه اللّه ننقلب بين أظهركم فمن عرفنا ومن لم يعرفنا فأمامه اليقين و معنى اليقين فيها الموت[1].

و الأحاديث بهذا المضامين كثيرة ذكرها المجلسي قدس سره شطراً منهانقلنا شطراً ممّا ذكره و محّصل الكلام هو أنّ اللّه امتّن على نبيّه بإعطائه إيّاه العترة و الكتاب و جعل أحدهما عدلاً للآخر و هذا تأويل الآية لا تفسير الفاظها و اللّه أعلم.

لٰا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مٰا مَتَّعْنٰا بِهِ أَزْوٰاجًا مِنْهُمْ وَ لٰا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ في الآية ثلاث مسائل:

١- بحار الأنوار ج ٧ ص ٥ ط كمباني

الأولىٰ: قوله: **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ** الى قوله: **مِنْهُمْ** قيل الخطاب للنّبي و المراد به الأمّة نهاهم اللّه أن يمدّوا أعينهم الى ما تسع هؤلاء الكفّار به من نعيم الدنيّا و معنى أزواجاً منهم، أمثالاً من النعم قاله في التّبيان.

و قيل معنى الكلام لا تتّمن ما فضّلنا به أحداً من متاع الدنيّا أزواجاً منهم أي رجالاً مع نسائهم أو أمثالاً في النّعم و قال الزّمخشري أزواجاً منهم أي أصنافاً من الكفّار فأن قلت كيف وصل هذا بما قبله.

قلت ليقول اللّه لرسوله ﷺ قد أوتيت النّعمة العظمى الّتي كلّ نعمةٍ و أن عظمت فهي اليها حقيرة ضئيلة و هى القرآن العظيم فعليك إن تستغني به تمُّدن عينيك الى متاع الدنيّا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول و الّذي نفهم من الكلام هو أنّ قوله و لا تمُّدَن عينيك الى ما متّعنا به أزواجاً منهم، كناية عن التّعجب فيما أعطى اللّه الكفّار و ذلك لأنّ **المَدّ** بفتح الميم و سكون الدّال المشّددة مصدر مَدَّ يَمُدُّ مَدّاً معناه الجرّ و منه المدّة للوقت الممتّد و مددت عيني الى كذا و قال بعض أهل اللّغة هو من مدَّ النّظر أي تطويله و أن لا يكاد يردُّه إستحساناً للمنظور اليه و إعجاباً بهو عليه فالمعنى و لا تطيلَّن النّظر الى ما متَّعنا به هؤلاء الكفّار من الأموال و النِّعم أي لا تتَّعجب منه و لا تقل لم أعطى اللّه هؤلاء الكفّار كذا و كذا.

قال بعض أهل المعرفة يجب غضّ البصر عن أبنية الظَّلمة و ملابسهم المحرّمة لأنّهم إتّخذوا ذلك لعيون النُّظارة فالنّاظر اليها محصلّ لغرضهم و كأنّهم يحملونهم على إتّخاذها.

و أمّا من فسَّر الكلام بأنّه لا تتَّمن ما فضَّلنا به أحداً، فهو من سوء التَّعبير اذ كيف يعقل أن يتَّمن النّبي ذلك نعم هذا بالنسبة الى أفراد الأمّة جائز ولكن تخصيص الآية بالأمّة و إخراج النّبي عنها لا دليل عليه فأنّ النّبي ﷺ في رأس الأمّة يستحيل أن يتَّعجب النّبي ممّا أعطاه اللّه الكفّار فأنّ التَّعجب من شئون الفطرة في البشر في باديء الأمر ألا ترى أنّ موسى عليه السلام على ما حكى:



قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُۥ زِينَةً وَ أَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَ ٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ**(١).

و قد أجاب اللّه تعالى عن هذا في موضع أخر من الكتاب:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**(٢).

و قال في موضع أخر:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا**(٤).

المسألة الثّانية: قوله: **وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** قال الجبائي معناه لا تحزن لما أنعمت عليهم دونك.

أقول هذا المعنى لا يناسب شأن الرّسول الذّي لا يزن الدنيّا و ما فيها عنده جناح بعوضة وكيف يعقل أن يحزن لما أنعم اللّه به على الكفّار و هو يعلم ما يعلم و الحقّ أنّ المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم و بقاءهم على الكفر و أنّهم يصيرون الى النّار لا محالة و أنّما قلنا ذلك لأنّ الرّسول بالنسبة الى أمته كالأب الشّفيق بالنسبة الى ولده بل هو أشفق من الأب و لا سيّما نبيّنا نبيّ الرّحمة الذّي لم يدع عليهم بل قال **اللّهم أهدِ قومي فأنّهم لا يعلمون**، و قد صحّ من الأخبار أنّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان يقول عند إحتضاره أمّتي أمّتي حتّى قال اللّه تعالى تسليةٌ له **وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**(٥) و لذلك كان مدّة عمره محزوناً على عدم إيمان الكفّار و لا سيّما أقاربه و عشيرته و من المعلوم أنّ حزنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان

١- يونس = ٨٨
٢- أل عمران = ١٧٨
٣- الحجّ = ٤٤
٤- الرّعد = ٣٢
٥- الضّحى = ٥

ناشئاً عن شفقته و رحمته و محبّته لمن أمن بالله و اليوم الأخر و لمّا كان المشركون و المعاندون لخبث ذاتهم و سوء سريرتهم و عنادهم للحقّ مصّرين على كفرهم و إيذاءهم فقال تعالى تسليةً له و لا تحزن عليهم.

لأنّ ذلك أي البقاء على الكفر بإختيارهم و إرادتهم و من كان كذلك فلا يلومّن إلاّ نفسه و قد أشار اللّه تعالى الى ذلك في كثيرٍ من الآيات في الكتاب:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **و لا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ**(٤).

والسِّر في النّهي عن الحزن علهيم هو أنّ النّبي أدّى وظيفته بالنّسبة اليهم كغيرهم من المؤمنين ولم يجبرهم أحدٌ على عدم قبول الإيمان كما لم يجبر أحادٌ هؤلاء المؤمنين على قبولهم الإيمان فالنّبي دعا الى اللّه و أرشد الى الهدى و لم يفرّق في دعوته الى الحقّ بين النّاس و أنّما أجاب من أجاب و أنكر من أنكر بإختياره و إرادته و اذا كان الأمر على هذا المنوال فما ذنب اللّه و رسوله في بقاء الكفر على كفره بعد تماميّة الحجّة عليه فقوله تعالى و لا تحزن عليهم في بقاءهم على الكفر بمنزلة قوله ذرهم في خوضهم يلعبون فأنّ الحزن عليهم لا أثر له لإستحقاقهم العذاب بما كسبت أيديهم و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

المسألة الثّالثة: وَ ٱخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ اخفض الجناح كناية عن التّواضع و حسن الخلق والمداراة معهم و أنّما خصَّ الخفض بالمؤمنين لأنّ

١-النّمل = ٧٠ ٢- المائدة = ٤١
٣- لقمان = ٢٣ ٤- أل عمران = ١٧٦

تواضع المسلم للكافر مذمومٌ فأنّ الإسلام يعلوا و لا يعلىٰ عليه قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَخْفِضْ جَنٰاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ**(١) و الخفض في الأصل الدّعة و السّير اللّين و هو ضدّ الرّفع و اللّه يخفض من يشاء و يرفع من يشاء أي يضع و يرفع و الخافض من أسماء اللّه تعالى و هو الذّي يخفض الجبّارين و الفراعنة و المتكبرين أي نضيعهم و يهينهم أمر اللّه نبيّه بخفض الجناح للمؤمنين لأجل إيمانهم فكأنّه قيل و أخفض جناحك للإيمان.

في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية ولا تمُّدن عينيك الى قوله للمؤمنين قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، من لم يتَّعز بعزاء اللّه إنقطعت نفسه على الدنيّا حسرات و من رمى ببصره الى ما في أيدي غيره كثر همّه ولم يشف غيظه و من لم يعلم أنّ للّه عليه نعمة إلاّ في مطعمٍ أو ملبسٍ فقد قصر علمه و دنا عذابه و من أصبح على الدنيّا حزيناً أصبح على اللّه ساخطاً و من شكى مصيبةً نزلت به فأنّما يشكو ربّه ومن دخل النّار من هذه الأمّة ممّن قرأ القرأن فهو ممّن يتَّخذ أيات اللّه هزواً و من أتى ذا ميسرة فتخشع له طلباً لما في يديه (طلب ما في يديه) ذهب ثلثا دينه انتهى.

ولذلك ورد في الحديث المتّفق عليه من تواضع للّه رفعه اللّه و التّواضع للّه ليس إلاّ ما في هذه الآية و هو التّواضع لأجل الإيمان و لذلك لا يجوز التّواضع للكافر و المتَّكبر و صاحب المال لأجل ماله فأنّ التّواضع في هذه الموارد ليس للإيمان بل هو للشّيطان.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أفضل العبادة التَّواضع و قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا ترفعوني فوق قدري فتقولوا ما قالت النّصارى في المسيح فأنّ اللّه

١- الشّعراء = ٢١٥

عزّ وجلّ إتّخذني عبداً قبل أن يتّخذني رسولاً، و أتاه ﷺ رجل فكلّمه فأخذته رعدة فقال رسول اللّه ﷺ هوّن عليك فأنّي لست بملكٍ أنّما أنا إبن إمرأةٍ من قريش تأكل القديد و كان ﷺ يرقع ثوبه و يخصف نعله و يخدم في مهنة أهله ولم يكن متكبراً و لا متّجبراً أشدَّ النّاس حياءً و أكثرهم تواضعاً و كان اذا حدَّث بشئٍ ممّا أتاه اللّه تعالى قال و لا فخر كما قال أنا سيّد ولد أدم ولا فخر.

و قال ﷺ: أنّ العفو لا يزيد العبد إلاّ عزّاً فأعفوا يعزّكم اللّه و أنّ التّواضع لا يزيد العبد إلاّ رفعة فتواضعوا يرفعكم اللّه و أنّ الصّدقة لا تزيد المال إلاّ نماءً فتتّصدقوا يزدكم اللّه.

قال اللّه تعالىٰ لموسى عليه السلام هل تعرف لم كلّمتك بين النّاس قال لا يا ربّ قال لأنّي رأيتك تتّمرغ بين يدي في التّراب تواضعاً لي.

و ليعلم أنّ التّواضع ممدوحٌ اذ كان للّه و أمّا اذا كان للدنيّا و الوصول اليها كتواضع أكثر النّاس لأرباب المال و الجاه فلا مدح فيه أصلاً بل هو مذموم بمعنى أنّ تركه أولى من فعله بل قد يكون فعله حراماً.

وَ قُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ

أي قل يا محمّد أنّي أنا النّذير المبين و التّأكيد في الكلام لإفادة الحصر أي أنّ الإنذار ينحصر بي و فى قوله مبين إشارة الى أنه ﷺ كان مظهراً له و الإنذار إخبارٌ فيه تخويف كما أنّ التّبشير إخبار فيه سرورٌ وصف اللّه نبيّه ﷺ بهذه الصّفة في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ**[٢].

١- الأنعام = ٥١ ٢- مَريم = ٣٩

قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓ أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**[٢] والآيات كثيرة.

كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ

قيل الكاف تتّعلق بقوله: **وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰاكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثٰانِي** أي أنَزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب و هم المقتسمون.

اَلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْاٰنَ عِضِينَ

حيث قالوا بعنادهم و عداوتهم بعضه حقّ موافق للتّوراة و الإنجيل و بعضه باطل مخالف لهما فإقتسموه الى حقٍّ و باطلٍ و عضوه أي فرَّقوه و قيل كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لي و يقول الأخر سورة أل عمران لي، و يجوز أن يراد بالقرأن في قوله جعلوا القرأن، ما يقرأونه من كتبهم و قد إقتسموه بتحريفهم و بأنّ اليهود أقرَّت ببعض التّوراة وكذبت ببعض النّصارى فكأنّه تسلية لرسول اللّه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن ضيع قومه بالقرأن و تكذيبهم و قولهم أنّه سحرٌ و شعر و أساطير بأنّ هذا ليس أوّل قارورةٍ كسرت و ذلك لأنّ اليهود و النّصارى فعلوا بالتّوراة و الإنجيل ما فعل المسلمون بالقرأن.

و قيل أنّ الكاف تتّعلق بقوله: **وَ قُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ** أي وأنَذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين يعني اليهود و هو ما جرى على قريظة و النَّضير جعل المتّوقع بمنزلة الواقع و هو من الاعجاز لأنّه إخبار بما سيكون، يبعد أن يكون، الذّين جعلوا القرأن عضين، منصوباً بالنّذير أي أنذر المعضين الذّين يجزأون القرأن الى سحرٍ و شعرٍ و أساطيرِ مثل ما أنزلنا على المقتسمين و هم الأثنى عشر الّذين إقتسموا مداخل مكّة أيّام الموسم فقعدوا

١- المُدّثر = ١/٢
٢- الحجّ = ٤٩

في كلّ مدخلٍ متّفرقين لينفروا النّاس عن الإيمان برسول اللّه يقول بعضهم لا تغتّروا بالخارج منّا فأنّه ساحر ويقول الأخر كذّاب و يقول الأخر شاعر فأهلكهم اللّه يوم بدر و قبله بأفات كالوليد بن المغيرة و العاصي بن وائل و الأسود بن المطّلب و غيرهم أو مثل ما أنزلنا على الرّهط الذّين تقاسموا على أن يبيّتوا صالحاً عليه السلام و الإقتسام بمعنى التّقاسم.

و الأحسن أن يقال في معنى الكلام، أنّي أنذركم بما أنزل بالمقتسمين و هم اليهود و النّصارى حيث فعلوا بالتّوراة و الإنجيل ما فعلوا من التّحريف فالإقتسام كناية عن التّحريف أو عن الإيمان ببعض الكتاب و الكفر ببعضٍ أخر.

فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

الواو للقسم أقسم اللّه تعالى بقوله: **فَوَرَبِّكَ** يا محمّد لنسألنّهم أجمعين، يوم القيامة و فى ذلك تشريف للنّبي و تعظيمٌ و تنبيهٌ على عظم منزلته و المسئول عنهم في الآية هم الكفّار.

و قال بعض المفسّرين يحتمل أن يكون راجعاً الى المقتسمين و المعنى لنسألنَّ المقتسمين الّذين جعلوا القرأن عضين لأنّ عود الضّمير الى الأقرب أولى من عوده الى الأبعد و يحتمل أن يكون الضّمير راجعاً الى الجميع أي الى جمعى المكلفين من المقتسمين و غيرهم و ذلك لأنّ السّؤال ليس عن الكفر و الإيمان فقط بل السّؤال عنهما و عن جميع الأعمال و الأقوال و الحاصل أنّ اللّفظ عامّ فيتناول الكلّ.



أقول هذا هو الحقّ و يدلّ عليه قوله أجمعين و الآيات الدالّة على أنّ السّؤال يوم القيامة عامٌّ يشمل الكلّ و لا إستثناء فيه كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَنَسْئَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ**[1].

١- الأعراف = ٦

فإذا كان النّبي مسئولاً يوم القيامة فما ظنّك بغيره:

قال اللّه تعالىٰ: **لا يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**[٣].

عَمّا كٰانُوا يَعْمَلُونَ عَمّا كٰانُوا يَعْمَلُونَ

أي نسألهم عن أعمالهم التّي عملوا بها في الدُّنيا.

فَاصْدَعْ بِمٰا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ

يقال صدع الأمر أي فصله و أصل الصَّدع الشَّق في الأجسام الصُّلبة كالزّجاج و الحديد و نحوهما و عنه أستعير الصَّدع في الفصل و المعنى فأفرق بين الحقّ و الباطل بما تؤمر به.

و قال مجاهد معناه فأجهر بما تؤمر لم يقل بما تؤمر به لدلالة الكلام عليه كما قال الشّاعر:

اذا قالت حذام فصدِّقوها ... فأنّ القول ما قالت حذام

و قال الأخر:

أمــــرتك حـــازماً فـــعصيتني ... و أصبحت مسلوب الإمارة نادماً

و التّقدير قالته، و فعصيتني به وقوله: **وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ** قيل أي لا تخاصمهم الى أن نأمرك بقتالهم.

إِنّٰا كَفَيْنٰاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ

و كانوا خمسة نفر من قريش الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و أبو زمعة، و الأسود بن عبد يغوث و الحرص بن عيطلة و قيل الأسود المطلب

١- الأنبياء = ٢٣
٢- النّحل = ٩٣
٣- الصّافات = ٢۴

أهلكهم اللّه جميعاً و قال إبن عبّاس هم كانوا ثمانية و قال الشّعبي سبعة قالوا أنّ جبرائيل عليه السلام قال لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أمرت أن أكفيكهم فأهلكهم و كيف كان فالأمر سهلٌ ثمّ عرّفهم اللّه فقال:

ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

أي إنّ المشركين المستهزئين الّذين كفيناكهم هم الّذين يجعلون مع اللّه إلهاً آخر فسوف يعلمون غداً في القيامة جزاء شركهم مضافاً الى ما وقع عليهم من العذاب في الدنيّا و يعبرّ عن هذا الشّرك بالشِّرك العظيم المشار اليه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰالًا بَعِيدًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰآءُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**[۴].

و غيرها من الآيات و لعلّ المراد بهم كفّار قريش و الحقّ أنّ الآية عامّة تشمل جميع الكفّار و المشركين في كلّ عصرٍ و زمانٍ الى يوم القيامة.

وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمٰا يَقُولُونَ

ضيق الصّدر كناية عن الحزن و الغمّ و المعنى لقد نعلم أنّك يا محمّد تحزن على ما قالوا و يقولون فيك من أنواع الأكاذيب و التُّهم كقولهم أنّك ساحر أو مجنونٌ أو كاذب و أمثال ذلك من الأراجيف.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ ٱلسّٰاجِدِينَ

١- النّساء = ۴٨
٢- النّساء = ١١۶
٣- النّساء = ١١۶
۴- لقمان = ١٣

أي لا تغتم بما قالوا فيك وكن من الحامدين لربّك و السّاجدين له لأنّ ألسنة النّاس لا تضبط و لا يمكن لأحدٍ أن يخلص من شرّ لسان الجاهل الأحمق الكافر الّذي يقول بما يشاء و يجري به لسانه و لو كان:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ**(٢).

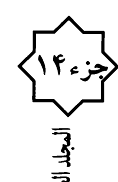
قال اللّه تعالىٰ: **وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ**(٣).

قوله: **وَ كُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ** فالسجود في الأصل الخضوع أي كن خاضعاً لربّك في جميع شئونك و قيل المعنى إسجد للّه تعالى و هو كناية عن الصّلاة.

وَ ٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ

قالوا أي الموت أي و أعبد ربّك حتّى يأتيك الموت و فيه إشارة الى أنّ العبادة لا تختصّ بزمانٍ دون زمان بل هي ثابتة لازمة للملّك من بدو التّكليف الى إنقضاء العمر ألا ترى أنّ الصّلاة لا تسقط بحالٍ حتّى حال الإحتضار هذا تمام الكلام في تفسير سورة الحجر و الحمد للّه ربّ العالمين.

■

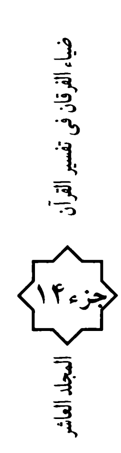


١- الصّف = ٧
٢- النّحل = ١١٦
٣- طٰه = ٦١

سورة النّحل

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتٰىٓ أَمْرُ ٱللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالٰى عَمّٰا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلآٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلٰى مَنْ يَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهِٓ أَنْ أَنْذِرُوٓا أَنَّهُ لآٰ إِلٰهَ إِلآّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالٰى عَمّٰا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَ ٱلْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ وَ مَنٰافِعُ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَ لَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلٰى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَ ٱلْخَيْلَ وَ ٱلْبِغٰالَ وَ ٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَ عَلَى ٱللّٰهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَ مِنْهٰا جٰائِرٌ وَ لَوْ شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً لَكُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ ٱلزَّرْعَ وَ ٱلزَّيْتُونَ وَ ٱلنَّخِيلَ وَ



ٱلْأَعْنٰابَ وَ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرٰاتِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهٰارَ وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ وَ ٱلنُّجُومُ مُسَخَّرٰاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَ مٰا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

◄ اللّغة

نُطْفَةٍ: بضّم النُّون قطرةٌ من الماء يقال نطف رأسه ماءً أي قطر.

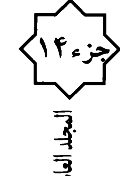
دِفْءٌ: الدفء إسم لما يدنا به أي يسخن قال الجوهري الدّفء نتاج الإبل و ألبانها و ما ينتفع به منها.

تَسْرَحُونَ: السُّروح خروج الماشية الى المرعى بالغداة و الإراحة رجوعها من المرعى عشيّاً.

تُسِيمُونَ: أي ترعون.

ذَرَأَ: أي خلق.

◄ الإعراب



بِالرُّوحِ في موضع نصب على الحال من الملائكة مِنْ أَمْرِهِ حال من الرُّوح أَنْ أَنْذِرُوٓا يجوز أن تكون، أن، مصدريّة في موضع جرٍّ بدلاً من الرُّوح أو بتقدير حرف الجّر على قول الخليل أو في موضع نصب على قول سيبويه أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّآ أَنَا الجملة في موضع نصب مفعول، أنذروا وَ ٱلْأَنْعٰامَ هو منصوب بفعل محذوف وَ لَكُمْ هي متعلّقة بخلق، و عليه فيكون فِيهٰا دِفْءٌ جملة في

موضع الحال من الضّمير المنصوب و قيل يتَّعلق بمحذوف و عليه، فدفٌ، مبتدأ و لكن خبره بٰالِغيهِ الهاء في موضع جرٍّ بالإضافة عند الجمهور.

و أجاز الأخفش أن تكون منصوبة و إستدلّ بقوله تعالى: **إنّا مُنَجُّوك و أهلَك إلّا بِشِقِّ** في موضع الحال من الضّمير المرفوع في بالغيه أي مشقوقاً عليكم و الجمهور على كسر الشّين و قرئ بفتحها و هى لغة **وَ ٱلْخَيْلَ** معطوف على الأنعام **زِينَةً** مصدر لفعل محذوف أي لتتَّزينوا بها زينة و يجوز أن يكون مفعولاً لأجله أي و للزيّنة و قيل التّقدير و جعلها زينة **وَ مِنْهٰا جٰآئِرٌ** الضّمير يرجع الىٰ السّبيل تذّكر و تؤنّث **مِنْهُ شَرٰابٌ** من هنا للتّبعيض و من الثّانية، للسّببية **وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ** بالنّصب عطفاً على ما قبلها و بالرّفع على الإستئناف **وَ ٱلنُّجُومُ** كذلك **مُسَخَّرٰاتٌ** على القراءة الأولى حال و على الثّانية خبر **وَ مٰا ذَرَأَ لَكُمْ** في موضع نصب بفعل محذوف أي و خلق و **مُخْتَلِفًا** حال منه.

◀ التّفسير

أَتىٰٓ أَمْرُ ٱللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ

لمّا قال اللّه تعالى في الآية السّابقة: **فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** و كان ذلك تنبيهاً على حشرهم يوم القيامة و سؤالهم عمّا أجرموه في دار الدنيّا فقال أتى أمر اللّه فلا تستعجلوه فكأنّه قيل متى يوم القيامة و متى نسأل فقيل في الجواب أتى أمر اللّه و أنّما قال أتى و لم يقل يأتي لأنّ المستقبل المحقّق الوقوع في حكم الماضي و حيث أنّ السّاعة ممّا لا ريب فيها فكأنّها أتت و مضت.

و قيل المراد بالأمر في الآية هو نصر رسول اللّه ﷺ و ظهوره على الكفّار و على هذا فلا ربط لها بالقيامة.

و إختار الزّمخشري الأوّل و قال كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام السّاعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر إستهزاءً و تكذيباً بالوعد.

و إختار الثّاني إبن جريح فأنّه قال المراد بالأمر هنا ما وعد اللّه نبيّه من النّصر و ظفره بأعداءه و إنتقامه منهم بالقتل و السّبي و نهب الأموال و الإستيلاء على منازلهم و ديارهم.

و قال الضّحاك الأمر هنا مصدر أمر و المراد به فرائضه و أحكامه، و قيل، الأمر بعض أشراط السّاعة، و أتى، باقٍ على معناه من المضّي و المعنى أتى أمر اللّه وعداً فلا تستعجلوه وقوعاً.

و قيل أتى أمر اللّه، أي أتت مبادئه و إماراته و قوله: **سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالٰى عَمّٰا يُشْرِكُونَ** سُبحان بضّم السّين مصدر نحو غفران و هو من الأسماء التّنزيهية أي أنّ اللّه تعالى منّزهٌ عن الشّريك في ذاته و صفاته فهو الواجب الوجود الّذي لا ثاني له و لا مثل له و لا ضدّ له فهو منّزه عن جميع هذه الأمور كما ثبت في محلّه و قيل، سبحان، مصدر بمعنى الأمر و المعنى سبّحوا اللّه تعالى عن الشّرك أي نزّهوه و تقدّم الكلام في معنى الشّرك مراراً.

يُنَزِّلُ ٱلْمَلاۤئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلٰى مَنْ يَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ أَنْذِرُوٓا أَنَّهُ لاۤ إِلٰهَ إِلاّۤ أَنَا فَاتَّقُونِ

الباء في قوله: **بالرُّوح** بمعنى، مع، و قيل أنّها للحال فعلى الأوّل معنى الكلام ينّزل اللّه الملائكة مع الرُّوح و على الثّاني أي ملتبسةً بالرّوح و المراد بالملائكة قيل هو جبرئيل وحده و عليه الجمهور و قيل هو و غيره.

و في الرُّوح أقوالٌ:

أحدها: أنّ الرُّوح الوحي قاله إبن عبّاس تنزل به الملائكة على الأنبياء عليهم السّلام، و نظيره قوله: **يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلٰى مَنْ يَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهِ**(١).

ثانيها: هو القرأن بدليل قوله: **وَ كَذٰلِكَ أَوْحَيْنآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنٰا**(٢).

١- غافر = ١٥ ٢- الشّورىٰ = ٥٢

ثالثها: ما قاله مجاهد و هو أنّ المراد به أرواح الخلق لا ينزل ملك إلاّ و معه روحٌ.

رابعها: أنّ المراد به الرَّحمة.

خامسها: أنّ المراد به الهداية لأنّها تحيى بها القلوب كما تحيى الأرواح بالأبدان.

سادسها: أنّ المراد به جبرئيل عليه السلام و يدُّل عليه قوله: **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ**(١).

سابعها: أنّ الرّوح إسم ملكٍ من أعظم الملائكة و هو الذّي قال اللّه تعالى في سورة القدر: **تَنَزَّلُ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ ٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**(٢).

و هذا القول الأخير ممّا خطر ببالي و لم أره في كلماتهم و اللّه أعلم.

و الظّاهر من قوله: **مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ** أنّ المراد بالعباد هو الأنبياء عليهم السّلام و ذلك لأنّ الملائكة تنزل الأمر عليهم بلا واسطة و على غيرهم مع الواسطة و قوله على من يشاء، يدلّ على ذلك و فى هذا الكلام ردٌّ في الحقيقة على منكري البعث في حقّ من بعث اليهم قال اللّه حكايةً عن المنكرين المكذّبين.

قال اللّه تعالىٰ: **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَآئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **مَا لِهَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِى ٱلْأَسْوَاقِ**(٥).

١- الشعراء = ١٩٣
٢- القدر = ٤
٣- التّغابن = ٦
٤- فصّلت = ١٤
٥- الفرقان = ٧

ذلك من الآيات الدّالة علىٰ أنّهم أنكروا الرُّسل و قالوا أنّهم بشر مثلنا يأكلون و يشربون و ينكحون و ليس لهم فضلٌ علينا ولو كان اللّه أرسل الينا رسولاً لأرسل فلان و فلان أو ملك من الملائكة و غير ذلك من الأقوال فكأنّ اللّه تعالى أجابهم في هذه الآية و أمثالها بأنّ الرّسالة من أعظم الأمور و أهمَّها و النّبي هو الإنسان المؤيّد من عند اللّه له من الصّفات و الملكات النّفسانية ما ليس لغيره و ليس كلّ أحدٍ لائقاً بها و اللّه تعالى أعرف بعباده فهو أعلم حيث يجعل رسالته كما في موسىٰ عليه السلام:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَيٰهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَ ٱلْجِسْمِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ ٱلنَّاسِ**(٤)

والآيات كثيرة.

و محصّل الكلام هو أنّ تعيين الرّسول بيد اللّه و بإرادته و مشيّئته.

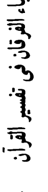
ثمّ أشار اللّه تعالى الى أهمَّ وظائف النّبي في مقام البعثة و قال: **أَنْ أَنْذِرُوٓا أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاتَّقُونِ** أي أنذروا النّاس عن عذاب اللّه و سخطه و قولوا لهم لا إله إلاّ أللّه، فلا تعبدوا الأصنام و الأوثان و لا الشَّمس و القمر و الكواكب و النّار و غيرها، **فَاتَّقُونِ** بكسر النّون أي فأتّقوني حذفت الياء لدلالة الكسرة على الحذف و يستفاد من هذا الكلام أنّ اللّه تعالى أرسل الرُّسل الى الخلق ليدعوهم الى اللّه الّذي ليس له شريك و لا مثلٌ و لا نظير و لا ضَّد و لا عديل فهو المتَّفرد في إلوهيّته و ما سواه كائناً ما كان مخلوقٌ له و ما أقبح بالإنسان

١- الأعراف = ١٤٤
٢- البقرة = ٢٤٧
٣- فاطر = ٣٢
٤- الحجّ = ٧٥

العاقل أن يعبد مخلوقاً مثله و فيه إشارة الى أنّ شعار الأنبياء في دعوة الخلق كان ذلك الكلام كما كان الرّسول ﷺ في بدء دعوته يقول قولوا **لا إله إلاّ اللّه تُفلحُوا** و الوجه فيه واضح فأنّ التّوحيد أساس الدّين و النُبوة فرعٌ عليه كما ورد في الدّعاء (اللّهم عرّفني نفسك فأنّك أن لم تعَرّفني نفسك لم أعرف رسولك) ألخ.

فقوله تعالىٰ: **لَآ إِلٰهَ** فيه نفي الالهة و قوله: **إِلَّآ أَنَا** فيه إثبات الألوهيّة له تعالى فالكلام يدلّ على أنّه ليس في عالم الوجود إلهٌ إلاّ اللّه تعالى و ذلك لما قلنا مراراً أنّ الإستثناء من النّفي يفيد الاثبات كما أنّه من الاثبات يفيد النّفي، و إنّما قال فأتّقون و لم يقل و أتّقون لأنّ الطّاعة و العصيان من العبد قبل المعرفة غير معقولٍ و بعبارةٍ أخرى التّقوى عبارة عن فعل الطّاعات و ترك المعاصي و هو فرعٌ على معرفة المطاع و لذلك أتى بفاء التّفريع و قال فأتّقون، أي إذا ثبت أنّه لا إله إلاّ أنا، فَأتّقون، فالتّقوى فرعٌ على المعرفة و لما كانت هاهنا مظنته سؤال للكفّار و هو أنّه أيّ دليلٍ دلَّ على أنّه لا إله إلاّ هو و هو المستحقّ للمعبوديّة لا غيره أشار اللّه تعالى الى شطرٍ ممّا يدلّ على المقصود و هو أنّ الإلوهيّة منحصرة به من المحسوسات الّتي لا تقبل الإنكار و لم يستدلّ بالمعقولات لأنّهم أي المنكرين من الكفّار لم يكونوا من أهلها و أمّا المحسوسات فهي المدركات بالحسّ.

و إن شئت قلت إستدلّ على المطلوب بالأثار فأنّها أسهل طريق الى معرفة المؤثّر من خلق السّموات و الأرض و خلق الإنسان و الحيوان الى أخر ما ذكره اللّه تعالى في الآيات.



فمنها، خلق السّموات و الأرض كما قال: **خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**

و قد مرَّ الكلام في خلق السّموات و الأرض و أنّه كان بالحقّ عند قوله: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ**[١].

بقى الكلام في قوله: **تَعٰالٰى عَمّٰا يُشْرِكُونَ** ففيه إشارة الى أنّ الّذي خلقهما مع ما فيهما و ما بينهما من عجائب الخلقة ما لا يعلمه إلاّ هو.

و قد ثبت أنّ الخلق فيهما كان إبداعيّاً أي لا من شيءٍ، و هذا ممّا لا يقدر عليه إلاّ اللّه تعالى فكيف يشركون به أي كيف يجعلون غيره تعالى شريكاً له مع عجزه و ضعفه أو كيف يجعل الضّعيف الّذي لا يقدر على خلق بعوضة شريكاً للذّات الواجب الوجود الّذى هو على كلّ شيءٍ قدير فقوله: **تَعٰالٰى عَمّٰا يُشْرِكُونَ** معناه أنّ اللّه أعلى و أشرف من مقايسته الى غيره فضلاً عن كونه شريكاً له و السّر في ذلك هو أنّ الشّريك له تعالى غير معقول من جهات:

الأُولىٰ: أنّ فلسفة إتّخاذ الشّريك ليست إلاّ الإستعانة به في الأمور و الإستعانة بالغير لا تكون إلاّ للضَّعيف الذّي لا يقدر على الوصول الى مقصوده لولاه اذ لو كان ما تحصل بسبب الشّريك حاصلاً له بأن يكون قادراً عليه لا يحتاج الى الشّريك بل هو من تحصيل الحاصل و هو ظاهر فثبت أنّ إتّخاذ الشّريك أنّما هو لرفع النّقص و العجز و حيث قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّ الّله تعالى قادرٌ على كلّ شيءٍ فلا يحتاج الى الشّريك لأنّ وجوده كعدمه.

ثانياً: أنّ الضَّعف و النَّقص و العجز و أشباهها من صفات الممكن المخلوق و الخالق منّزهٌ عنها اذ لو كان ناقصاً في ذاته يكون مخلوقاً لغيره لأنّ كلّ ناقصٍ ممكن و كلّ ممكنٍ مخلوق فلا يكون عاجزاً ناقصاً و اذا كان كذلك فلا يحتاج الى شريكٍ.

ثالثاً: أنّ الشّريك لابدّ و أن يكون من سنخ شريكه و جنسه، و الممكن لا يكون من سنخ الواجب فلا يكون شريكاً له.

١- إبراهيم = ١٩

قال اللّه تعالىٰ: **لَوْ كانَ فيهِمآ الِهَةٌ إِلَّا ٱللّٰهُ لَفَسَدَتا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ فِى ٱلْمُلْكِ**[٢].

و منها: خلق الإنسان فقال: **خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ**

المراد بالإنسان في المقام هو جسده و جسمه لا روحه و نفسه و إن شئت قلت المراد به البشر النّاسوتي و هذا الخلق ليس إبداعياً لأنّه خلق من نطفةٍ و هى الماء الصّافي و يعبّر بها عن ماء الرّجل و هذا ثابت في أولاد أدم و أمّا هو نفسه فلم يخلق من النُّطفة كما مرّ الكلام فيه و هكذا عيسى عليه السلام فالحكم بإعتبار الأغلب أو يقال عامٌّ خرج عنه ما خرج ليعلم أنّ اللّه قادر على كلّ شيءٍ.

و قوله: **فَإِذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ** **خَصيم** بفتح الخاء و كسر الصّاد على وزن فعيل و هو صيغة المبالغة كعليم و شريف و مرجع الضّمير في قوله، هو، الإنسان، و المبين المظهر و المعنى أنّ الإنسان الّذي خلقناه من نطفةٍ هو ظاهر الخصومة أو مظهرها و الظّاهر أنّ سياق هذين الوصفين سياق ذمٍّ لما تقدّم من قوله: **سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ** و قوله: أن أنذروا أنّي أنا اللّه و عني به مخاصمته لأنبياء اللّه و أولياءه بالحجج الدّاحضة و قال قوم سياق الوصفين سياق المدح لأنّه تعالى قوّاه على منازعة الخصوم و جعله مبين الحقّ من الباطل و نقله من تلك الحالة الجماديّة و هو كونه نطفة الى الحالة العالية الشريفة و هى حالة النّطق و الإبانة، و إذا، هنا للفاجأة و بعد خلقه منِ النُّطفة لَم تقع المفاجأة بلا مخاطبة إلاّ بعد أحوالٍ تطّور فيها فتلك الأحوال محذوفة و تقع المفاجأة بعدها.

١- الأنبياء = ٢٢ ٢- الإسراء = ١١١

أقول الحقّ أنّ الوصفين في الآية للذّم لا للمدح و ذلك لأنّ الخصومة للحقّ مذمومة و حيث أنّ المخالف للحقّ في الحقيقة خصمٌ له فصَح أن يقال المنكر للحقّ خصيمٌ له أي كثير الخصومة له فمن أنكر اللّه الّذي خلقه و جعل له شريكاً في الملك و عبد المخلوق و أعرض عن الخالق فهو خصيمٌ مبين، خصيمٌ لخصومته و عداوته مبينٌ لإظهاره الخصومة قولاً و عملاً.

و من المعلوم أنّ جميع النّاس ليسوا كذلك فالحكم بإعتبار الأغلب.

و يحتمل أن يكون المعنى أنّ الإنسان خصيمٌ لنفسه و هو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه.

و منها، خلق الأنعام فقال: **وَ ٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعُ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ**

بعد خلق السّموات و الأرض و الإنسان أشار اللّه تعالى الى خلق الحيوان فقال و الأنعام جمع نعم و هى الإبل و البقر و الغنم قيل سميّت بذلك لنعومة مشيها بخلاف ذات الحافر الّذي يصلب مشيها و نصب بفعل مقدّر يفسّره ما بعده و التّقدير و خلق الأنعام خلقها لكم أي لمنافعكم ثمّ أخبر فقال فيها دفٌ و منافع، أي في الأنعام دفٌّ و الدِّف ما إستدفأت به و قيل يريد ما إستدفئ به من أوبارها و أصوافها و أشعارها و المقصود أنّ اللّه تعالى لمّا ذكر خلق الإنسان ذكر ما إمتَّن به عليه في قوام معيشته فقال و الأنعام خلقها أي خلق الأنعام كأنّه قيل لم خلقها قال خلقتها لكم واللاّم في **لكُم**، لام الإنتفاع و قوله: **فِيهَا دِفْءٌ** الدِّف كحمل ما إستدفئ به من الأكسية و غير ذلك.

و قيل الدِّف نسل كلّ دابّة و عن الأموي نتاج الإبل و الإنتفاع بها.

و قال الجوهري **الدِّف** بكسر الدّال ما يدفئك و الجمع الإدفاء.

و قال قتادة دفٌّ و منافع، معناه منفعة تحصل منها من الألبان و ركوب ظهرها **وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ** أي و من لحومها تأكلون و حيث إنجّر البحث في تفسير

الآية بالأنعام التّي خلقها اللّه للإنسان و ذكر أنّ فيها دفء و منافع فلا بأس بالإشارة الى شطرٍ ممّا ذكروها في الإبل و البقر و الغنم من المنافع و ما أودع اللّه فيها من عجائب الخلقة فأنّ الشّكر على النّعمة فرعٌ على معرفتها.

فنقول أمّا **الإبِل** بكسر الباء الموحدّة و قد تسكن للتّخفيف، الجمال و هو إسم واحدٌ يقع على الجمع و ليس بجمعٍ و لا إسم جمع أنّما هو دالٌ على الجنس.

و قال الجوهري ليس لها واحد من لفظها و هى مؤنّث لأنّها أسماء الجموع التّي لا واحد لها من لفظها اذا كانت لغير الأدمَّيين فالتّأنيث لازمٌ لها و اذا صغرَّتها أدخلت عليها الهاء فقلت أبيلة و ربّما قالوا للإبل، إبـل، بإسكان الباء كما تقدّم و الجمع أبال و النسبة، أبَلي، بفتح الباء.

و قد روى عروة البارقي عن النّبيﷺ أنّه قال: الإبل عزٌّ لأهلها و الغنم بركة و الخير معقودٌ في نواصي الخيل الى يوم القيامة.و الإبل من الحيوانات العجيبة و أن كان عجبها سقط من أعين النّاس لكثرة رؤيتهم لها و هو أنّها حيوانٌ عظيم الجسم سريع الإنقياد و ينهض بالحمل الثّقيل و يبرك به و تأخذ زمامه قائده فيذهب به الى حيث شاء و يتّخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع مأكوله و مشروبه و ملبوسه و ظروفه و وسائده كأنّه في بيته و يتَّخذ للبيت سقف يمشي بكلّ هذه و لهذا قال تعالى: **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** و قد جعلها اللّه طوال الأعناق لتثور بالأثقال، و ربّما تصبر الإبل عن الماء عشرة أيّام و أنّما جعل اللّه تعالى أعناقها طوالاً لتستعين بها على النُّهوض بالحمل الثّقيل و منافعها كثيرة جدّاً و سيأتي تفصيل الكلام فيها عند قوله تعالى:[1] إن شاء اللّه تعالىٰ.

ثمّ أنّ منافع الإبل لا تختّص بركوبها و حمل الأثقال عليها و إنتقالها من بلدٍ الى بلدٍ بل يؤكل لحمها و يستفاد من شعرها و جلدها و جميع أعضاءها.

١- الغاشية = ١٧

و أمّا البقر فهو إسم جنس يقع على الذّكر و الأنثى و أنّما دخلت الهاء و قيل بقرة، للدّلالة على الوحدة و الجمع بقرات و أهل اليمن يسمّون البقرة باقورة و إشتَّق هذا الإسم من بقر اذا شقّ لأنّها تشقّ الأرض بالحراثة.

و حاصل الكلام أنّ البقر أيضاً كثير المنافع فأن لحومها تؤكل و هكذا ألبانها.

و قد روي أنّ ألبانها شفاء و سمنها دواء و لحمها داء و عن إبن مسعود عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: عليكم بألبان البقر و أسمانها و إيّاكم و لحومها فأنّ ألبانها و أسمانها و لحومها.

و عنه صلى الله عليه و آله و سلم قال: ما أنزل اللّه داءً إلاّ و أنزل له دواء جهله من جهله و علمه من علمه و في ألبان البقر شفاء من كلّ داءٌ فعليكم بألبان البقر، و خواصّه أيضاً كثيرة.

نقل صاحب حياة الحيوان شطراً منها أن شئت الإطّلاع على أكثر ممّا ذكرناه فعليك بمراجعتها فأنّ ما نقلناه في الإبل و البقر أنّما نقلناه من حياة الحيوان للدّميري.

و أمّا الغنم أعني به الشّاة فقيل لا واحد له من لفظه و الجمع أغنام و غنوم.

و قال الجوهري الغنم إسمٌ مؤنّث موضوع للجنس يقع على الذّكور و الأناث و عليهما جميعاً و اذا صغّرتها تقول غنيمة و الغنم كالإبل في جميع ما ذكرناه فالتّأنيث لها لازم كما في الإبل و قد مرَّ الكلام فيه.

و قد روى الدّميري في حياة الحيوان عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إفتخر أهل الإبل و أهل الغنم عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فقال عليه السّلام السكينة و الوقار في أهل الغنم و الفخر و الخيلاء في أهل الإبل و قد ذكر في الكتاب المذكور كثيراً من منافع الغنم إلاّ إنّا أعرضنا عن نقلها خوفاً من الإطالة و أنّه لا إعتماد على ما ذكره و كيف كان لا شكّ في منافع الغنم أيضاً فأنّها من المحسوسات التّي



لا نحتاج الى الإستدلال عليها فأن جميع النّاس من العالم و الجاهل عارفون بالمنافع التّي للإبل و البقر و الغنم بل نقول منافعها لا تحصى لكثرتها.

و قد أشار اللّه تعالى الى بعضها فقال: **وَ لَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ تُريحُونَ وَ حينَ تَسْرَحُونَ**

الجمال بفتح الجيم مصدر جمل بضّم الميم و الرّجل جميل و المرأة جميلة و قد يطلق الجمال و يراد به التَّجمل كأنّه مصدر على إسقاط الزّوائل.

ثمّ أنّ الجمال قد يكون في الصُّورة و قد يكون في الأخلاق و هو في الأوّل يحصل بحسن التَّركيب في الاعضاء و الجوارح و اللّباس و المركب و أمثالها ممّا يدركه البصر و يلقيه في القلب فتتَّعلق به النّفس من غير معرفةٍ.

و أمّا الجمال في الأخلاق فهو يحصل للإنسان بإشتماله على الصّفات المحمودة كالعلم و العفّة و الحلم و الجود و فى الأفعال بوجودها ملائمة لمصالح الخلق و صرف الشّر عنهم و جلب المنفعة اليهم اذا عرفت هذا.

فإعلم أنّ الجمال الذّي لنا في الأنعام هو خارج عن هذه الأنواع الثّلاثة أعني بها الجمال الصُّوري و النَّفساني و الأفعالي، فالمراد به في الآية هو أنّ لنا فيها جمالٌ و عظمة عند النّاس بإقتنائها و دلالتها على سعادة الإنسان في الدنيّا و كونه فيها من أهل السّعة و العيش فمَّن اللّه تعالى بالتَّجمل بها كما منَّ بالإنتفاع الضّروري لأن التَّجمل بها من أغراض أصحاب المواشي و مفاخر أهلها والعرب تفتخر بذلك ألا ترى الى قول الشّاعر حيث يقول:

لعمري لقوم قد نرى أمس فيهم مرابط للإمهار و العكر الدّثر
أحبَّ الينا من أناسٍ بقنةٍ يروح على أثار شأنهم النّمر

و العكرة من الإبل ما بين السّتين الى السّبعين و الجمع عكر و الدّثر الكثير.

أمّا قوله: **حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ** فقالوا الإراحة رجوعها من المرعى عشيّاً و السُّروح خروج الماشية الى المرعى غدوةً قال الشّاعر:

كأنّ بقايا الأثر فوق متونه مدّب الدِّبا فوق النُّقا و هو سارحُ

و سرحت يكون متّعدياً و لازماً و أكثر ما يكون ذلك أي الإراحة و السَّرح في المواشي هو أيّام الرَّبيع اذا سقط الغيث و كثر الكلاء و قدّم الإراحة على السَّرح لأنّ الجمال فيها أظهر اذا أقبلت ملئ البطون حافلة الضُّروع ثمّ أوت الى الحظائر بخلاف وقت سرحها و أن كانت في الوقتين تزّين الأفنية و تجاوب فيها الرّغاء و الثّغاء فيأتنس أهلها و تفرح أربابها و تجلّهم في أعين النّاظرين اليها و تكسبهم الجاه و الحرمة:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْمٰالُ وَ اَلْبَنُونَ زِينَةُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **زُيِّنَ لِلنّٰاسِ حُبُّ اَلشَّهَوٰاتِ مِنَ اَلنِّسٰاءِ وَ اَلْبَنِينَ وَ اَلْقَنٰاطِيرِ اَلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ اَلذَّهَبِ وَ اَلْفِضَّةِ وَ اَلْخَيْلِ اَلْمُسَوَّمَةِ وَ اَلْأَنْعٰامِ وَ اَلْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتٰاعُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا وَ اَللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ اَلْمَآبِ**[٢].

وَ تَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ اَلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

يعني هذه الأنعام تحمل أثقالكم، و هو جمع ثقل المتاع الذّي يثقل حمله و جمعه أثقال.

و قال بعضهم الأثقال، الأجساد و الأجسام لقوله تعالىٰ: **وَ أَخْرَجَتِ اَلْأَرْضُ أَثْقٰالَهٰا**[٣] أي أجساد بني أدم، و لا إشكال فيه لأنّ الثِّقل في اللّغة يطلق علىٰ جسد بني أدم أيضاً كما يطلق على غيره.

١- الكهف = ٦٤
٢- أل عمران = ١۴
٣- الزلزال = ٢

قال في المفردات الثّقل و الخفّة متقابلان فكلّ ما يتّرجح على ما يوزن به أو يقدّر به هو ثقيل و أصله في الأجسام انتهى.

فقوله تعالىٰ: **وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ** يشمل حمل كلّ ثقيلٍ فكما أنّ الأمتعة تحمل على البعير مثلاً من بلدٍ الى بلدٍ كذلك أجساد الأدَّميين تحمل بها من بلدٍ الى بلدٍ و هو واضح و أمّا الإستدلال بقوله تعالى: **وَ أَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** فليس في محلّه و سيأتي الكلام في الآية و أنّ المراد ليس أجساد بني أدم فقط.

و قوله: **لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ** فيه إشارة الى أنّه لو لم تكن الأنعام لإضطررتم في حمل أثقالكم الى أن تحملوها على ظهوركم و فيه مشّقة عظيمة و فى بعض الموارد غير ممكن.

و قوله: **إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** فمن رحمته خلق الأنعام للإنتفاع بها، و الفرق بين الرّأفة و الرّحمة بالشّدة و الضّعف فأنّ الرّحمة اذا إشتّدت يقال لها الرّأفة شديد الرّحمة و هى أرق من الرّحمة أيضاً و لا تكاد تقع في الكراهة بخلاف الرّحمة فأنّها قد تقع في الكراهة لأجل المصلحة و الرّؤوف من أسماءه تعالى فهو الرّحيم بعباده العطوف عليهم بألطافه.

وَ ٱلْخَيْلَ وَ ٱلْبِغَالَ وَ ٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

تقدير الآية و خلق الخيل لأنّها معطوفة على التّي قبلها و هو قوله و الأنعام خلقها فتقدير الكلام خلق الأنعام و خلق الخيل و البغال الخ ثمّ أنّ الخيل بفتح الخاء و سكون الياء واللّام هي الدَّواب التّي تركب و قيل الخيل جماعة من الأفراس لا واحد له من لفظه كالقوم و الرّهط و النَّفر.

و قال الرّاغب في المفردات و الخيل في الأصل إسمٌ للأفراس جميعاً و يستعمل في كلّ منفرداً نحو ما روي، يا خيل اللّه إركبي، فهذا للفرسان عفوت لكم عن صدقة الخيل يعني الأفراس.

والبغال البغل، بفتح الباء المتّولد من بين الحمار و الفرس و جمعه بغال، و الحمير بفتح الحاء و كسر الميم جمع حمار، و يقال لها بالفارسيّة، (أسب، و أستر، ألاغ)، و المعنىٰ أنّ اللّه تعالى خلق لكم الخيل و البغال و الحمير، لتركبوها في أسفاركم و زينة أي و خلقها زينةً و يمكن أن يكون قوله: **وَ زِينَةً** حالاً من هاء في خلقها أي و خلقها لتركبوها و هى زينة و جمال.

قال بعضهم و النّصب حينئذٍ على الحال من الهاء في تركبوها و الظّاهر نفي العلم عن ذوات ما يخلق تعالى في قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** أي و يخلق اللّه ما لا علم لكم به و قيل معناه أنّ اللّه يخلق من أنواع الحيوان و الجماد و النبات لمنافعكم و أنتم لا تعلمون و أيضاً يخلق من أنواع الثّواب للمطيعين و أنواع العقاب للعصاة و أنتم لا تعلمون.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** يجوز أن يريد به ما يخلق فينا و لنا ممّا لا نعلم كنهه و تفاصيله و يمُن علينا بذكره كما منَّ بالأشياء المعلومة مع الدّلالة على قدرته و يجوز أن يخبرنا بأنّ له من الخلائق ما لا علم لنا به ليزيدنا دلالة على إقتداره بالأخبار بذلك و أن طوي عنّا علمه لحكمةٍ له في طيّه و قد حمل على ما خلق في الجنّة و النّار ممّا لم يبلغه و هم أحد و لا خطر على قلبه انتهى كلامه.

أقول ما ذكره صاحب الكشّاف غير مرتبطٌ بالآية فأنّ البحث في خلق الخيل و البغال و الحمير و خلق ما لا تعلمون لأجل الرُّكوب و الزّينة و ليس البحث في أنّ اللّه قادر على أن يخلق ما لا تعلمون مطلقاً ممّا في الجنّة و النّار ليزيدَنا على إقتداره اذ لا كلام لنا في إثبات قدرته تعالى في المقام و كأنّه زعم أنّ **الواو** في قوله و يخلق ما لا تعلمون، للإستئناف و هو تعالى بصدد بيان قدرته في أخر الآية و لم يعلم أنّ **الواو** للعطف و قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** معطوف على قوله: **وَ ٱلْخَيْلَ وَ ٱلْبِغٰالَ** و تقدير الآية و خلق الخيل و البغال و الحمير و يخلق في المستقبل ما لا تعلمون للرُّكوب و الزّينة فما ذكره صاحب الكشّاف خارجٌ عن مورد الآية.

و أمّا ما ذكروه من أنّه تعالى يخلق من أنـواع الحيوان و الجماد و النّبات لمنافعكم أو يخلق من الثّواب للمطيعين و أنواع العقاب للعصاة و أنتم لا تعلمون، فهو أيضاً خارج عن مورد الآية كما أوضحناه مضافاً الى أنّ الثّواب و العقاب ليسا ممّا يخلق.

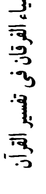
و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

و إعلم أنّه تعالى لمّا ذكر أوّلاً أحوال الحيوانات التّي ينتفع الإنسان بها إنتفاعاً ضروريّاً.

ثانياً: أحوال الحيوانات التّي ينتفع الإنسان بها إنتفاعاً غير ضرّوري بقي القسم الثّالث من الحيوانات و هى الأشياء التّي لا ينتفع الإنسان بها في الغالب فذكرها على سبيل الإجمال فقال و يخلق ما لا تعلمون و ذلك لأنّ أنواعها و أصنافها و أقسامها كثيرة خارجة عن الحدّ و الإحصاء ولو فاض الإنسان في شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبة المجلّدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان أحسن الأحوال ذكرها على سبيل الإجمال كما ذكر اللّه تعالى في هذه الآية انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و يظهر أنّ قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** هو الموجودات الكثيرة على إختلاف أصنافها و أنواعها إلاّ أنّها ممّا لا ينتفع بها الإنسان في الغالب هذا ملخّص كلامه و حاصله الإقرار بالعجز عن فهم قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ**.

و قال صاحب تفسير الميزان و هو من المعاصرين في معناه، أي يخلق ما لا علم لكم به من الحيوان و غيره و سخّرها لكم لتنتفعوا بها و الدَّليل على قدَّرناه هو السياق انتهى كلامه.



و قال القرطبي: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ**، قال الجمهور من الخلق و قيل من أنواع الحشرات و الهوامّ في أسافل الأرض و البّر و البحر ممّا لم يره البشر ولم يسمعوا به.

و قيل و يخلق ما لا تعلمون ممّا أعدَّ اللّه في الجنّة لأهلها و فى النّار لأهلها ممّا لم يره عين و لم تسمع به أذنٌ و لا خطر على قلب بشرٍ.

و قال قتادة و هو خلق السُّوس في الثّياب و الدُّود في الفواكه.

و قال إبن عبّاس عينٌ تحت العرش انتهى موضع الحاجة من كلام القرطبي.

أقول بعد ما تفَحصنا التّفاسير التّي هي موجودة عندنا لم نر فيها ما يشفي المريض فأنّهم ذكروا في تفاسيرهم ما شاءوا من عند أنفسهم من غير أن يكون له ربطٌ بما نحن بصدد إثباته في الآية و الإنصاف أنّهم لم يتَّدبروا في كلام اللّه حقّ التَّدبر أو تدّبروا و تفكّروا فيه و لم يفهموا غير ما ذكروه و لذلك تمَّسك بعضهم في فهم المراد من قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** بالسُّوس في الثّياب أو الحشرات و الهوامّ في أسافل الأرض كما قاله القرطبي ولم يعلم أنّ السُّوس و الحشرات و الهوامّ و غير ذلك ممّا ذكره كانت موجودة عند نزول الآية فلو كان المراد من قوله: **مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** ما ذكره القرطبي و أمثاله هو الحيوانات بأنواعها و أصنافها لقال تعالى و خلق ما لا تعلمون أو قال و زينةً و ما لا تعلمون، بتقدير الخلق فيه، بمقتضى العطف و لم يقل ذلك بل قال و يخلق ما لا تعلمون بصيغة المضارع أي يخلق في المستقبل ما لا تعلمون.

و يستفاد من هذا الكلام عدم وجود ذلك المخلوق عند نزول الآية و اذا كان كذلك فليس المراد ما ذكروه و هو ظاهر لا خفاء فيه عند التّأمل و التَّدبر، و الّذي نفهم من الآية و اللّه أعلم هو أنّ الدَّواب التّي تركب و تكون زينة في كلّ زمانٍ بحسبه و بعبارةٍ أخرى ليست الدَّواب أعني بها الخيل و البغال و الحمير ممّا يركب الى أخر الدَّهر بل اللّه تعالى يخلق في كلّ زمانٍ ما تركبون عليه و تحملون أثقالكم من بلدٍ الى بلدٍ بسببه و لتوضيح ذلك نقول:

أنّ اللّه تعالى إمتَّن بهذه الآيات على عباده حيث أنّه تعالى خلق لهم من الأنعام ما خلق لينتفعوا بها في جميع الشّئون من الرُّكوب عليها و حمل الأثقال بها و غيرها من الإنتفاعات و هذا ممّا لا كلام فيه.

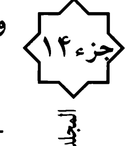
ثمّ خصَّ اللّه تعالى بالذّكر الخيل و البغال و الحمير و قال خلقها اللّه لكم لتركبوها و تكون زينة لكم و هذا أيضاً مسلّم لا بحث فيه ثم قال تعالى: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** و هذا هو محلّ البحث و حيث أنّه تعالى جعل الخيل و البغال و الحمير ممّا خلق بدليل العطف أي و خلق الخيل و البغال فيما مضى قبل نزول الآية و جعل، ما لا تعلمون، ممّا سيخلق في المستقبل نستكشف منه أنّ المراكب مختلفة بحسب إختلاف الازمنة كغيرها من الأشياء التّي ينتفع بها في كلّ زمانٍ بحسبه و لمّا كانت الخيل و البغال و الحمير من المراكب المتداولة بين النّاس وقت نزول الآية فخصّها بالذّكر و لمّا كان اللّه تعالى عالماً بأنّ هذه المراكب لا تدوم بل يبطل الرُّكوب عليها غالباً في المستقبل قال: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** في المستقبل لأجل إنتفاع النّاس به و فيه إشارة الى تبَّدل الموضوعات و غيرها بحسب مقتضيات الزّمان و أمّا الأحكام الثّابتة عليها لا تتَّغير و لا تتَّبدل.

ألا ترى أنّ المراكب و هى الخيل و البغل و الحمار تغيَّرت و تبَّدلت بالسّيارة و القطار و الطّيارة و أمّا الحكم و هو الرُّكوب ثابتٌ لم يتَّغير و لذلك نقول أنّ اللّه تعالى قد منَّ على البشر بالحكم أعني الإنتفاع لا بالموضوع و هو الخيل مثلاً و لذلك قال ليركبوها، فأنّ اللاّم لام الغاية أو لام التّعليل أي خلقناها للرُّكوب عليها والإنتفاع بها و هذا هو الّذي أوجب الشّكر على العبد و هو أي الحكم و الإنتفاع ثابت في كلّ عصرٍ و زمانٍ و إن تغيرّ الموضوع و لولا قوله تعالى: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** في أخر الآية لكان المستفاد منها أنّ اللّه خلق الخيل و البغال و الحمير، للرُّكوب الى يوم القيامة و لازم ذلك عدم جواز الرُّكوب على غيرها و هو كما ترى.

و محصّل الكلام هو أنّ قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** الى المراكب الموجودة في عصرنا هذا التّي كان اللّه تعالى عالماً بها وقت نزول الآية و أمّا

المخاطبون بها لم يكن لهم علمٌ بها و هذا الأصل ثابت لنا و لمن بعدنا الى يوم القيامة فكأنّ الآية تعلمنا بلسان حالها أنّ هذه المراكب الموجودة خلقها الّله لكم لتنتفعوا بها و يخلق لمن بعدكم ما لا تعلمون و إنّي أعتقد إعتقاداً جازماً أنّ قوله: **وَ يَخْلُقُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** من معجزات القرأن و أنّه تعالى أخبر بقوله هذا عمّا نراه و نشاهد في زماننا هذا من المراكب التّي لم تكن موجودة عند نزول الآية و ستوجد بعدنا منها ما ليس بموجودٍ فعلاً ممّا لا نفهمه و لا نعقله و هذا نظير قوله تعالى في جواب الملائكة: **إِنّيٓ أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** حيث: **قٰالُوٓا أَتَجْعَلُ فيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فيهٰا وَ يَسْفِكُ ٱلدِّمٰآءَ**[١] فأنّ الملائكة لمّا لم يكن لهم عِلمٌ بحقيقة أدم قالوا ما قالوا و العجب من معاصرينا من المفسّرين حيث أنّهم رأوا ما نراه من المراكب الجديدة و مع ذلك لم يتّفطنوا لهذه الدَّقيقة و فسّروا قوله تعالى بأنّه يخلق ما يشاء من الخلق ولم يعلموا أنّ البحث في المراكب التّي ينتفع بها الإنسان و ليس البحث في قدرته تعالى فأنّه مفروغٌ عنه هذا ما فهمناه من الآية و لعلَّ يأتي بعدنا من لا يحكم بصحّة ما إستفدناه منها فأنّ الإنسان في معرض الخطأ و هو مع ذلك قليل العلم قال الّله تعالىٰ: **وَ مآ أُوتيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلّا قَليلاً**[٢] و قد قيل، كم ترك الأوائل للأواخر.

و حاصل الكلام أنّي ذكرت في المقام ما فهمته من الآية و الّله تعالى أعلم بحقيقة كلامه و مراده.



وَ عَلَى ٱللّٰهِ قَصْدُ ٱلسَّبيلِ وَ مِنْهٰا جٰآئِرٌ وَ لَوْ شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ أَجْمَعينَ

قال إبن عبّاس معناه بيان قصد السَّبيل أي بيان الهدى من الضّلال و منها جائر، أي عادلٌ عن الحقّ فمن الطّريق ما يهدي الى الحقّ و منها ما يضلّ عن الحقّ.

١- البقرة = ٣٠ ٢- الاسراء= ٨٥

و قال بعضهم، قوله: **قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ** القصد مصدر يقصد الوجه الذّي يؤمّه السّالك لا يعدل عنه و السبيل هنا مفرد اللّفظ و قيل مفرد المعلول والّلام فيه للعهد و هي سبيل الشّرع و ليست للجنس اذ لو كانت له لم يكن منها جائر و المعنى و على اللّه تبيين طريق الهدى و ذلك بنصب الأدّلة و بعثة الرُّسل.

و قال إبن عطيّة أنّ المعنى أنّ من سلك الطّريق القاصد فعلى اللّه رحمته و نعيمه و طريقه و الى ذلك مصيره و على أن يكون، اللاّم للعهد فالضّمير في قوله، منها جائر عائد على السَّبيل التّي يتَّضمنها معنى الآية كأنّه قيل و من السّبيل جائر فأعاد عليها و أن لم يجر لها ذكر لأنّ مقابلها يدُّل عليها إنتهى.

و قال الزّمخشري و معنى قوله: **وَ عَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ** أنّ هداية الطّريق الموصل الى الحقّ واجبة عليه لقوله أنّ علينا للهدى، فأن قلت لم غيرّ إسلوب الكلام في قوله: **وَ مِنْهَا جَآئِرٌ**.

قلت ليعلم بما يجوز إضافته اليه من السَّبيلين و ما لا يجوز ولو كان كما تزعم المجبّرة لقيل و على اللّه قصد السَّبيل و عليه جائرها أو و عليه الجائر.

و قرأ عبد اللّه و منكم جائر عن القصد بسوء إختياره و الّله بريءٌ منه ولو شاء لهدايكم أجمعين قسراً و إلجاء انتهى.

و قيل الضّمير في **وَ مِنْهَا** يعود على الخلائق أي و من الخلائق جائرٌ عن الحقّ و يؤّيده قراءة عيسى و منكم جائرٌ و قرأ بعضهم، فمنكم جائر بالفاء.

أقول القراءة المشهورة، و منها، و عليها المصاحف فعلاً.

و أمّا القراءة، و منكم، أو فمنكم، فهي شاذّة و أن كان المعنى عليها أوضح و أصلح و على المشهور ففي الكلام إضطرابٌ لا يخفى على المتأمل لأنّ قوله: **وَ عَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ** و أن كان واضحاً لا خفاء فيه إلاّ أنّ في قوله: **وَ مِنْهَا جَآئِرٌ** نوع غموض و خفاء لأنّهم إتّفقوا على أنّ الضّمير في، و منها، يرجع الى السَّبيل و هذا ممّا لا إشكال فيه أيضاً إلاّ أنّ إتّصاف السّبيل بكونها جائراً

مشكل جدّاً لأنّ السّبيل بمعنى الطّريق و لا يقال طريقٌ جائر أو عادلٌ ولكن يقال زيدٌ عادلٌ أو جائر و أن شئت قلت أنّما يوصف بالجور و العدل زيد و عمرو مثلاً و أمّا الطّريق فلا توصف بهما إلاّ بإعتبار سالكها مجازاً لا حقيقةً و من المعلوم أنّ حمل اللّفظ على الحقيقة أولى من حمله على المجاز و عليه فلا يبعد أن تكون القراءة الشّاذة أولى بالقبول ممّا عليه المصاحف فعلاً أي و منكم جائر و اللّه تعالى أعلم.

و أمّا قوله: **وَ لَوْ شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ أَجْمَعِينَ** أي و لو شاء اللّه لهداكم بالإلجاء و الإضطرار لأنّه قادرٌ على ذلك و هو ممّا لا خلاف فيه فأنّه تعالى قادرٌ على كلّ شيءٍ إلاّ أنّه لم يشاء و لذلك جعلكم مختارين في أفعالكم و أقوالكم.

قال الرّازي قوله: **وَ لَوْ شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ أَجْمَعِينَ** يدلّ على أنّه تعالى ما شاء هداية الكفّار و ما أراد منهم الإيمان لأنّ كلمة، لو، تفيد إنتفاء شيءٍ غيره فقوله: **وَ لَوْ شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ** معناه لو شاء هدايتكم لهداكم و ذلك يفيد أنّه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم و ذلك يدلّ على المقصود انتهى كلامه.

و الجواب أنّ المشيّئة الإلهيّة تارةً تتّعلق بإيجاد الشّيء على سبيل القهر و الجبر كما في التّكوينيّات و أخرى تتعلّق بإيجاد الشّيء لا كذلك كما في التّشريعيّات حيث أنّ الإختيار فيها واسطة بين المشّيئة و الفعل و على هذا فبين المشيّئتين فرق واضح مثلاً إذا أراد إيجاد زيد أوجده شاء زيد أم لم يشاء و أمّا إذا أراد منه الصّلاة و الصّوم مثلاً فتحقّق المشيّئة منوطٌ بفعله و عدمها بعدمه فقول الرّازي أنّه ما شاء هداية الكفّار و ما أراد منهم الإيمان، كلام بلا محصّل لأنّ الهداية و الكفر ليسا من التكويّنيات من قبيل خلق السّموات و الأرض بل هما من التّشريعيات فالإرادة المتّعلقة بهما لا تكون على سبيل الإلجاء و الإضطرار و عليه فمعنى قوله تعالى: **وَ لَوْ شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ** إلجاءً و إضطراراً كما في الخلق التّكويني و لكنّه لم يشاء ذلك أي الإلجاء و هو ممّا لا

كلام فيه هذا مضافاً الى أنّ الإيمان و الكفر من المفاهيم المنتزعة و الإيـجاد لا يتعلق بهما أصلاً بالذّات، و أنّما يتَّعلق الإيجاد بمن يتّصف بهما و هو الإنسان و بين المقامين فرق واضح.

و قال بعضهم معناه، ولو شاء لهداكم الى الجنّة إبتلاءً عـلى سـبيل التّـفضل ولكّنه لم يشاء ذلك بل شاء أن يكون الدّخول فيها بسبب الأعمال.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً لَكُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه ينّزل من السّـماء مـاءً يـعني غـيثاً و مـطراً لمنافع خلقه ثمّ أفاد أنّ من ذلك الماء شرابٌ تشربونه و من ذلك نبات الشَّجر و مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة لأنّه تعالى لما إمتَّن عـليهم بـإيجادهم بـعد العدم و إيجاد ما ينتفعون به من الأنعام و غيرها من الرّكوب عليها و كونها زينة لهم ذكر بعد ذلك ما إمتَّن به عليهم من إنزال الماء الّذي به قوام حياتهم و حياة الحيوان و ما يتَّولد عنه من أقواتهم و أقواتها من الزَّرع و ما عطف عليه.

و قال بعضهم أنّ أشرف المخلوقات العالم العلوي من السّموات و ما فـيها من الملائكة ثمّ بعد ذلك العالم السّـفلي و هـو الأرض و أشـرف المـوجودات فيها الإنسان، ثمّ الحيوان، ثمّ النّـبات ثـمّ الجـماد، فأشـار اللّـه تـعالى الى خـلق السّموات و الأرض.



أوّلاً: قوله: **خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ** و الى الإنسان.

ثانياً: بقوله: **خَلَقَ ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ**.

و الىٰ الحيوان ثالثاً قوله: **وَ ٱلْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ** ألخ.

و الىٰ النّبات رابعاً: و هو هذه الآية وكيف كان لاشكّ أنّ الماء ممّا أنزله اللّه تعالى لمنافع خلقه و قوله: **مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ** كلمة من للـتّبعيض أي بعض الماء للشّرب و بعضه لإنبات الزَّرع و هو مـن المـحسوسات لإنّـا نـرى

بعض المياه لا يصلح للشّرب و لكّنه يصلح للزّرع، **والشَّجر** بفتح الجيم ما ينبت من الأرض و قام على ساق و له ورق و جمعه أشجار و منه المشاجرة لتداخل بعض الكلام في بعضٍ كتداخل ورق الشَّجر.

و قال الأزهري: يطلق الشَّجر على كلّ ما ينبت من الأرض قام على ساقٍ أو لم يقم ترعاه الإبل و الأنعام كلّها و الى ذلك أشار بقوله: **مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ** أي في الشَّجرة ترعون مواشيكم يقال أسمعت الإبل إذا خلّيتها ترعى و سامت هي تسوم سوماً إذا رعت حيث شاءت قيل أخذ ذلك من السُّومة و هى العلامة و تأويلها أنّها تؤثّر في الأرض برعيها علامات و فى هذه الآية أشار الى أنّ قوام حياة الإنسان و الحيوان بالماء و قد أشير الى ذلك في كثير من الآيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَعِينٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ**(٣) والآيات كثيرة.

و الّذي يفهم من الآية أنّ الماء، أنزل من السّماء بصورة المطر و الغيث فقول بعضهم أنّ المراد بالماء هو الموجود على سطح الأرض و أمّا الموجود في قعرها فهو خارج عن مفاد الآية، كلام يدلّ على قلّة فهم قائله لأنّ حقيقة الماء واحدة و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ صرف الحقيقة لا تكثّر فيه و إنّما التكثر بالإضافات.

فقوله تعالىٰ: **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً** أي أنزل حقيقة الماء إينما وجدت و هو ظاهر.

١- الأنبياء = ٣٠ ٢- المُلك = ٣٠
٣- الواقعة = ٦٨

يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ

أي ينبت اللّه لكم به أي بالمطر أو الماء الزَّرع و الزَّيتون و النَّخيل و الأعناب، **الزَّرع** بفتح الزّاء و سكون الرّاء و العَين مصدر تقول زَرَع يَزرَع زَرعاً و معناه الإنبات و حقيقة ذلك تكون بالأُمور الإلهيّة دون البشريّة و إذا نسب الى العبد فلكونه فاعلاً للأسباب الّتي هي سبب الزَّرع و الى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله: **ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ**(١) مَعَ أنّ الحَرث للبشر قطعاً كما قال تعالى في صدر الآية: **أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ، ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ**(٢) الخ فالمعنى أنّ الحرث لكم و الزَّرع لنا، و الوجه فيه واضح لأنّ الإنبات خارجٌ عن قدرة البشر و لذلك قد يحرث الإنسان و لا إنبات هناك فلا زرع و قد يكون الزَّرع بلا حرث من البشر في النبّاتات الّتي تنبت في مجاري الأنهار و غيرها بقدرة اللّه تعالى و لا سيّما في فصل الرَّبيع بل الزَّرع الّتي لا حارث لها من البشر على وجه الأرض أكثر ممّا له حارث من البشر و هو واضح محسوس لكلّ أحدٍ فقوله: **يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ**، إشارة الى أنّ الزَّرع له تعالى و لذلك أسنده الى نفسه أي ينبت اللّه لكم بسبب الماء و المطر الزَّرع.

و أمّا **الزَّيتُون** بفتح الزّاء و سكون الياء و ضمّ التّاء جمع زيتونة.

قال بعضهم يقال للشَّجرة نفسها زيتونة و للثمرة أيضاً زيتونة قاله القرطبي و الحقّ أنّها شجرة خاصّة بين الأشجار و هى معروفة و هى كسائر الأشجار إلاّ أنّ ثمرتها تسّمى بالزَّيتون قال بعضهم أنّ الزَّيتون فاكهة من وجهٍ و إدام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدُّهن و منافع دهنه كثيرة جدّاً.

أقول ما ذكره حقٌّ و ذلك لأنّ دهن الزّيتون في زماننا هذا من أعلى الأدهان و أنفعها للأكل و غيره من المنافع و هو من أثمار الجنّة و الأخبار الواردة في

١- الواقعة = ٦٤ ٢- الواقعة = ٦٣/٦٤

مدحه كثيرة و هو أي دهن الزَّيتون مضافاً الى أنّه ممّا يؤكل كان النّاس في سالف الزّمان يستصبحون به في اللّيل و الحاصل أنّ الزَّيتون لا يعلم منافعه إلاّ اللّه تعالى.

و النّخيل و النَّخل بمعنى و الواحدة نخلة و تسمّى العجوة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلنَّخْلَ باسِقٰاتٍ لَها طَلْعٌ نَضيدٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فيها فٰاكِهَةٌ وَ ٱلنَّخْلُ ذاتُ ٱلْأَكْمٰامِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ ثَمَراٰتِ ٱلنَّخيلِ وَ ٱلْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰا فيها جَنّٰاتٍ مِنْ نَخيلٍ وَ أَعْنٰابٍ**[٤].

و أمّا الأعناب فهي جمع عنب و هو من الفواكه المشهورة المحسوسة و أنّما خصّ اللّه تعالى هذه الثّلاثة أعني بها الزَّيتون و النَّخيل و الأعناب، بالذِّكر مع أنّها داخلة في الزَّرع لما فيها من الخّواص و المنافع ما ليس لغيرها.

ثم قال تعالى: **وَ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَراٰتِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** العلامة و المعنى أنّ المتفكِّر في هذه الأشجار و الثّمرات و الزُّروع لا يبقى له شكّ في وجود خالقها و توضيح ذلك على ما ذكره بعض المحقّقين هو أنّ الحبَّة الواحدة تقع في الطِّين فإذا مضت على هذه الحالة مقادير معيّنة من الوقت نفذت في داخل تلك الحبَّة أجزاء من رطوبة الأرض و نداوتها فتنفتخ الحَّبة فينشّق أعلاهاو أسفلها فتخرج من أعلى تلك الحبَّة شجرة صاعدة من داخل الأرض الى السَّماء و من أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الأرض و هذه الغائصة هي المسّماة بعروق الشَّجرة لا تزال تزداد و تنمو و تقّوى ثمّ تخرج منها الأوراق و الأزهار و الأكمام و الثّمار ثمّ أنّ تلك الثَّمرة تشتمل على

١- ق = ١٠
٢- الرّحمٰن = ١١
٣- النّحل = ٦٧
٤- يٰس = ٣٤

أجسام مختلفة الطّبائع مثل العنب فأنّ قشره و عجمه باردان يابسان كثيفان و لحمه و ماءه حارّان رطبان لطيفان إذا عرفت هذا.

فنقول نسبة الطّبائع السّفلية الى هذا الجسم متشابهة و نسبة التأثيرات الفلكيّة و التّحريكات الكوكبيّة الى الكلّ متشابهة و مع تشابه نسب هذه الأشياء ترى هذه الأجسام مختلفة في الطّبع و الطّعم و اللّون و الرّائحة و الصِّفة فدلّ صريح العقل على أنّ ذلك ليس إلاّ لأجل فاعلٍ قادرٍ حكيم فهذا تقديره هذه الدّلالة و لا يحصل هذا إلاّ بالتّفكر و التأمل انتهى.

أقول ما ذكره حقّ لا مرية فيه و الى هذا المعنى أشار الشّاعر حيث قال:

تفكَّر في نبات الأرض و أنظر ... الى آثار ما صنع المليك
ففي ورق الزَّبرجد شاهداتُ ... بأنّ اللّه ليس له شريكُ

و قال السّعدي بالفارسية:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار ... هر ورقش دفترى است معرفت كردگار

و أعلم أنّ التّفكر في ذرّات العالم مفتاح التّوحيد و أساس المعرفة و اللّه تعالى جعل للإنسان هذه القوّة لأجل وصول الإنسان بها الى تلك الغاية العظمى و المقصد الأسنى فمن لا يتّفكر في الأمور و عواقبها فهو من جملة الحيوانات بصورة الإنسان و لذلك ترى الحثّ عليه في كثير من الآيات قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **تفكرّ ساعةٍ خيرٌ من عبادة ستيّن سنة**، إذ به يعرف الإنسان خالقه و أنّه لم يخلقه عبثاً وبه يعلم الإنسان أنّ ما لا بقاء و لا يعتمد عليه كالدّنيا و مافيها، و أنّ الحساب يوم القيامة لابُّد منه لأنّه مقتضى العدل و هكذا.

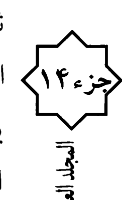
قال بعض العرفاء، التّفكر في الأصل التّأمل و هو أشرف العبادات و المقربات الى الحّق و وجهه أنّ الفكر يوصلك الى اللّه، و العبادة توصلك الى ثواب اللّه و الموصل اليه تعالى أفضل و أشرف من الموصل الى غيره، و أنّ الفكر عمل القلب و الطّاعة عمل الجوارح و كما أنّ القلب أشرف من الجوارح كذلك عمله.

و قال أمير المؤمنين عليه السلام في وجه كونه أفضل أنّ التّفكر يدعوا الى البرّ و العمل به، و التّفكر في إصطلاح العرفاء هو تلمّس البصيرة لإستدراك البغية، أي تطلب العقل الّذي هو للقلب بمنزلة البصر للنّفس مطلوبه ليدركه و هو على ثلاثة أنواع:

فكرة في عين التّوحيد، و فكرةٌ في لطائف الصَّنعة، و فكرة في معاني الأعمال و الأحوال و المراد بالتَّوحيد هاهنا هو تنزيه اللّه تعالى عن الشّريك و المراد بلطائف الصَّنعة محاسنها و إتقانها في مخلوقاتها، و المراد بحقائق الأعمال و معانيها هو شرائطها الّتي يتّوقف عليها و كونها موافقة للأمر الإلهي و معاني الأحوال حقائق الواردات و الهيئات الفائضة على القلب، كالمَّحبة و الشُّوق و الوجد و تفصيل الكلام في هذه الأقسام موكولٌ الى محَّله و الّذي نشير اليه فعلاً بمناسبة المقام هو القسم الثّاني منها أعني به التّفكر في لطائف الصَّنعة.

قالوا و أمّا الفكرة في لطائف الصَّنعة فهي ماءٌ يسقى زرع الحكمة، أي زرع الحكمة في القلب و ذلك لأنّ الحكمة على ما فسَّروها هي العلم بحقائق الأشياء و الموجودات بقدر الطّاقة البّشرية و فيه إشارة الى أنّ العلم بحقائقها و كنهها فهو مختّصٌ بخالقها فأنّ البشر لا يقدر على الإحاطة بكنه الأشياء و الأسرار المودَّعة فيها و لكّن الميسور لا يترك بالمعسور، ثمّ أنّ العلم بها من ثمرات التَّفكر فهو أي التّفكر بمنزلة الماء لسقي الزّرع فكما أنّ الزّرع بدون السَّقي بالماء لا يحصل كذالك العلم بلطائف الصَّنعة بدون التّفكر فيها لا يحصل فحياة العلم بالتَّفكر كما أنّ حياة الزّرع بالسَّقي فالماء يحي الأرض و التَّفكر يحي أرض القلب و بالماء ينبت الزّرع و بالتَّفكر ينبت العلم و المعرفة.

و هذا هو السّر في التّرغيب و التّحريص اليه في الآيات و الأخبار و هذا معنى قوله تعالى أنّ في ذلك لأيةٌ لقومٍ يتَّفكرون فإفهم و إغتنم.



وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ وَ ٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

قال صاحب الكشّاف معنى تسخيرها للنّاس تصييرها نافعة لهم حيث يسكنون باللّيل و يبتغون من فضله بالنّهار و يعلمون عدد السّنين و الحساب بمسير الشّمس و القمر و يهتدون بالنّجوم فكأنّه قيل و نفعكم بها في حال كونها مسخّرات لما خلقن له بأمره و يجوز أن يكون المعنى أنّه سخَّرها أنواعاً من التَّسخير جمع مسخّر بمعنى تسخير من قولك سخَّره اللّه مسخَراً كقولك سرحه مسرحاً كأنّه قيل و سخَّرها لكم تسخيرات بأمره.

و قرئ بنصب اللَّيل و النّهار وحدهما و رفع ما بعدهما على الإبتداء و الخبر و قرئ و النّجوم مسخّراتٌ بالرّفع و ما قبله بالنَّصب انتهى.

أقول أصل الإشكال في أنّ اللّيل و النّهار و الشّمس و القمر و النّجوم كلّها مسخّرات بأمر اللّه تعالى فما معنى قوله في الأوّل الآية: **وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ** و من المعلوم أنّ اللّيل و النّهار و الشّمس و القمر ليست تحت تسخير الإنسان فعلى قول صاحب الكشّاف التّسخير بمعنى التّصيير فقوله سخَّرها لكم أي صيَّرها نافعة لكم.

و أمّا ما إحتمله ثانياً و هو أن يكون المعنى و سخَّرها لكم تسخيرات بأمره فهو بعيدٌ.

و قال بعض المفسّرين وجه التّسخير أنّ اللّيل و النّهار أنّما يكون بطلوع الشّمس و غروبها فما بين غروب الشّمس الى طلوع الفجر و هو غياب ضوء الشّمس فهو ليلٌ و ما بين طلوع الفجر الى غروب الشّمس فهو نهار فاللّه تعالى سخَّر الشّمس على هذا التّقدير لا تختلف لمنافع خلقه و مصالحهم ليستدّلوا بذلك على أنّ المسخّر لذلك و المقدِّر له حكيمٌ ثمّ بيَّن أنّ في ذلك التّسخير لدلالات لقومٍ يعقلون عن اللّه و يتَّبينون مواضع الإستدلال بأدّلته انتهى كلامه.

و تبعه على ذلك الطّبرسيﷺ في تفسيره إلاّ أنّه زاد في أخر كلامه أنّ إجراء التّسخير على اللّيل و النّهار على سبيل التّجوز و الإتّساع.

و قال الرّازي بقي في الآية سؤالات:

الأوّل: التّسخير عبارة عن القهر و القسر و لا يليق بذلك إلاّ بمن هو قادر يجوز أن يقهر فكيف يصّح ذلك في اللّيل و النّهار و فى الجمادات و الشّمس و القمر و الجواب من وجهين:

الأوّل: أنّه تعالى لمّا دبَّر هذه الأشياء على طريقةٍ واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطيع فلهذا أطلق على هذا النّوع من التّدبير لفظ التّسخير.

عن الوجه الثّاني: في الجواب و هو لا يستقيم إلاّ على مذهب علم الهيئة و حاصل ما ذكره في هذا الوجه هو أنّه لمّا كانت الحركات فيها قسريّة ورد فيها لفظ التّسخير.

أقول ما ذكروه في الجواب ناظرٌ الى كون التّسخير بمعنى القهر و القسر و ليس كذلك بل التّسخير سياقةٌ الى الغرض المختص قهراً و عليه فلا إشكال جواب و على هذا المعنى فاللّيل و النّهار و الشّمس و القمر و النّجوم تحت تسخيرنا و أن كانت مسخَّرات للّه تعالى واقعاً و ذلك لأنّ كلّ واحدٍ منها يسوق الى الغرض المختّص به قهراً.

و قد أشار اللّه تعالى الى ذلك في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ**[٣].

١- الرّعد = ٢ ٢- النّحل = ١٤

٣- العنكبُوت = ٦١

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٓ أَجَلٍ مُسَمًّى**(١).

و غيرها من الآيات التّي أسند التّسخير الى اللّه تعالى و قد أسند الينا أيضاً في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ ٱلطَّيْرَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ**(٥).

ففي هذه الآيات و غيرها ممّا لم نذكره أسند التّسخير تارة الى اللّه و تارةً الى الخلق و هو دليل على أنّ التّسخير قد يكون بمعنى القهر و القسر و إنقياد المسخَّر للمسخِّر بلا قيد و شرط فهو لا يكون إلاّ لخالق السّموات و الأرض و قد يكون سياقة الى الغرض المختّص به فهو لنا اذا عرفت هذا فقد علمت أنّ قوله: **وَ سَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ** الخ...معناه أنّها تساق الى الغرض المختّص به و قوله: **مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِٓ** تعالى أي مقهورات في جنب عظمته فأنّ كلّ مخلوقٍ مقهورٌ مغلوبٌ لخالقه.

ثمّ قال: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَأٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** أي أنّها علامات دالآت علىٰ أنّ لها خالق حكيمٌ و مدّبر عليمٌ لمن يعقل ذلك أي يفهم و يتّدبر فيه.

وَ مَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَأٰيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ

و ما ذرأ معطوفٌ على اللّيل و النّهار أي و سخَّر لكم اللّيل و النّهار و ما ذرأ في الأرض و الذَّرء في الأصل إيجاد الشّيئ بإظهاره و قيل أنّ ذرأ بمعنى خلق

١- لقمان = ٢٩
٢- الجاثية = ١٣
٣- الأنبياء = ٧٩
٤- الحجّ = ٣٦
٥- إبراهيم = ٣٣

بلغة قريش أي و خلق لكم ما في الأرض مختلفاً ألوانه من الدّواب و الشّجر و الثّمار و ذلك لإختلافها من حيث اللّون من البياض و السّواد و غير ذلك.

و قيل مختلفاً ألوانه أي أصنافه، و قيل المراد به المعادن و اللّفظ عامّ يشمل الكلّ و ما في ما ذرأ، موصولة بمعنى، الّذي و موضعه النّصب و التّقدير و خلق لكم، ما، و هو واضح.

■

وَ هُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ
تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى ٱلْفُلْكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَ أَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ
تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَارًا وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾
وَ عَلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ
يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَ إِنْ
تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ
﴿١٩﴾ وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ
﴿٢٣﴾ وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا
أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ
عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتَيٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ

يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَآقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَ ٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

◀ اللّغة

طَرِيًّا: من الطّراوة و اللّحم الطّري غير الفاسد.

حِلْيَةً: بكسر الحاء اللّؤلؤ و المرجان الذّي يخرج من البحار.

ٱلْفُلْكَ: بضّم الفاء السُّفِن.

مَواخِرَ: جمع مأخرة.

رَواسِيَ: بفتح الرّاء جمع راسية و هى الجبل العالي الثّابت.

تَميدَ: الميد الميل يميناً و شمالاً و هو الإضطراب.

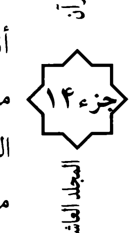
لا تُحْصُوهآ: الإحصاء العدّ.

أَساطيرُ ٱلْأَوَّلِين: أساطير جمع أسطورة و هى الحديث.

أَوْزارَهُمْ: جمع وزر أي أثقالهم من المعاصي والوِزر بكسر الواو الإثم.

◀ الإعراب

مِنْهُ لَحْمًا من لإبتداء الغاية أَنْ تَميدَ أي مخافة أن تميد وَ أَنْهارًا أي و شقَّ أنهاراً وَ عَلامَاتٍ أي وضع علامات أَمْواتٌ خبر، هم، أي هم أمواتٌ أَيّانَ منصوب بيبعثون لا يشعرون ماذآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ما، إستفهاميّة و، ذا، بمعنى الذّي محذوف أي أنزله أَساطِيرُ خبر مبتدأ محذوف تقديره، ما، إدَّعيتموه منزلاً، أساطير الأوّلين و يقرأ، بالنَّصب و التّقدير و ذكرتم، أساطير، أو أنزل أساطير لِيَحْمِلُوٓا و هي لام العاقبة مِنَ ٱلْقَواعِدِ أي من ناحية القواعد و التّقدير أتى أمر اللّه مِنْ فَوْقِهِمْ حال أي كائناً من فوقهم.



◄ التّفسير

وَ هُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

الواو للعطف و مرجع الضّمير، اللّه تعالى أي أنّ اللّه تعالى هو الّذي سخّر لكم البحر و قد مضى الكلام في معنى التّسخير بما لا مزيد عليه فمعنى تسخير البحر لنا هو أنّا نتّمكن من الإنتفاع به للرُّكوب في المصالح و للغوص في استخراج ما في البحر للإصطياد بما فيه و البحر جنس يشمل الملح و العذب و بدأ أوّلاً من منافعه بما هو الأهمّ الأكل فقال لتأكلوا منه و(منه) على حذف مضاف و التّقدير لتأكلوا من حيوانه لحماً طريّاً، و أنّما وصف اللّحم بالطّراوة لأنّ الفساد يسرع اليه فيسارع الى أكله خيفة الفساد عليه و المقصود من اللَّحم ليس مطلق اللّحم لأنّ بعض اللُّحوم بل كثيراً منها لا يجوز أكله فأنّ الحيوانات البحريّة على قسمين: حلال اللّحم و حرامه حتّى أنّ السَّمك أيضاً منه حلالٌ و منه حرامٌ في مذهبنا كما هو مذكور في الفقه فقوله لتأكلوا منه لحماً طريّاً أي لحماً طريّاً ممّا يجوز أكله و هو واضح.

وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا

أي من البحر و فيه إشارة الى انّ الإنتفاع بالبحر لا يختّص بالأكل فقط بل تنتفعون به فميا تلبسون أيضاً فأنّ **الحِلية** بكسر الحاء هي اللُّؤلؤ و المرجان و المراد بلبسهم لبس نساءهم لأنّهنّ من جملتهم و لأنّهن أنّما يتَّزين بها من أجلهم فكأنّها زينتهم و لباسهم فاللّبس هو غاية الحلية، فاللّحم الطَّري من الملح و العذب و الحلية من الملح فقط.

قال بعض المفسّرين أنّما أسند اللّبس الى الذّكور دون النّساء في الآية لأنّ النّساء أنّما تتَّزين بالحلية من أجل رجالهنّ فكأنّها زينتهم و لباسهم.

أقول لا نحتاج الى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ الرّجال لباسٌ لهنّ و هنّ لباسٌ لهم:

قال اللّه تعالىٰ: **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**[١].

و قد بيّنا هناك وجه كون أحدهما لباساً للأخر و أنّما قلنا اللّحم الطّري من الملح و العذب و بعبارةٍ أخرى قسَّمنا البحر الى قسمين البحر لأنّ اللّه تعالى قال:

وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَ هَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٢].

و قد ثبت أنّ القرأن بعضه يفّسر بعضاً الى أنّ الحسّ أيضاً شاهدٰ له لأنّا نرى السَّمك في الملح و العذب و أمّا قوله: **وَ تَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ** فقد أشار اللّه تعالى بعد الأكل و اللّبس الى نعمةٍ أخرى و هى تصَّرف الفلك و السّفينة في البحر مأخرةً أي شاقّةً فيه، أو ذات صوتٍ لشّق الماء لحمل الأمتعة و الأقوات للتّجارة و غيرها و أسند الرُّؤية الى المخاطب المفرد فقال، و ترى، و جعلها معترضة بين التَّعليلين:

تعليل الإستخراج و تعليل الإبتغاء فلذلك عدل عن جمع المخاطب.

وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الظّاهر أنّ قوله و لتبتغوا عطف على التّعليل قبله فيصير المعنى إنّا سخرّنا البحر لكم لستخرجوا منه كذا و كذا و لتبتغوا أي لتكسبوا أو لتطلبوا من فضل اللّه و نعمه و لعلّكم تشكرون، فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و لا شكّ أنّ أصل النِّعم من اللّه تعالى بل نقول لا منعم في عالم الوجود في الحقيقة إلاّ اللّه تعالى و ما سواه من قبيل الأسباب و الوسائط.

١- البقرة = ١٨٧ ٢- فاطر = ١٢

و قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: **من لَم يشكر المخلوق لَم يَشكُر الخـالق**، أمـر الرّسول بشكر المخلوق فهو واجب و إذا كان شكر المخلوق واجباً لازماً عقلاً فما ظَّنك بشكر الخالق الّذي أوجد المخلوق و قـد مـرَّ البـحث فـي الشكّـر و وجوبه مراراً فلا نطول الكلام في المقام ثمّ أشار اللّـه تـعالى الى نـعمةٍ أخـرى فقال:

وَ أَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَارًا وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

قوله: **وَ أَلْقَى** أي جعل في الأرض و الدّليل عليه قوله تعالى حيث قال: **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا، وَ ٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا**(١).

قال بعض المفسّرين خلق اللّه الأرض فجعلت تمور فقالت الملائكة ما هي بمقَّر أحدٍ على ظهرها فأصبحت و قد أرسيت بـالجبال لم تـدر المـلائكة مـمّ خلقت إنتهى.

و اللّه أعلم بذلك فأنّ هذه الأحاديث مـمّا لا يـعتمد عـليه و الّـذي نـرى و نشاهد هو أنّ في الأرض رواسي و أمّا أنّها كيف خلقت فاللّه أعلم و الرَّواسي جمع راسية و هي الجبل العالي الثّابت و قوله: **أَنْ تَـمِيدَ بِكُـمْ** أي أن تـميد الأرض بكم و الميد الميل يميناً و شمالاً فالمعنى جعلنا في الأرض جبالاً لئَـلا تضطرب الأرض إضطراباً كما.



قال تعالى: **وَ ٱلْـجِبَالَ أَوْتَـادًا** و تـفصيل الكـلام فـيه مـوكولٌ الى مـوضعه (**أَنْهَارًا**) معطوف عـلى رواسـي أي جـعل فـي الأرض رواسـي و أنـهاراً فـهو منصوب بفعل مقّدر أي و جعل أو خـلق فـي الأرض أنـهاراً و هكـذا قـوله: **وَ سُبُلًا** أي أنهاراً و سبلاً، و هى جمع سبيل و هو الطّريق **لَعَلَّكُمْ تَـهْتَدُونَ** أي

١- النبأ = ٧/ ۶

لكي تهتدوا بها في سلوككم و إنتقالكم في أغراضكم أو لكي تهتدوا بالنَّظر الى هذه المصنوعات على صانعها لدلالة كلّ أثرٍ على مؤّثره.

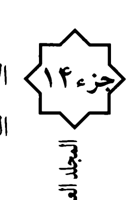
وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ

و هذه نعمة أخرى قد مَّن اللّه بها علينا أي و جعل لكم علامات، قيل أنّـها الجبال يعني الجبال يهتدى نهاراً و بالنَّجم يهتدى به ليلاً.

و قيل المراد بالعلامات هو معالم الطُّرق وكّل ما يستَّدل به السّابلة من جبلٍ و سهلٍ و غير ذلك و قيل العلامة صورة يعلم بها ما يراد من خطٍّ أو لفظٍ أو إشارة أو هيئةٍ.

و قال مجاهد هي النُّجوم و هو غريب و ذلك لأنّ النُّجوم قد ذكرت في الآية و لم يقل و علاماتٍ هي النُّجوم بل قال و بالنَّجم يهتدون و أحسن الأقوال هو القول الأوّل و هو أنّ المراد بها الجبال يهتدي بها نهاراً كما أنّ النَّجم يهتدى به ليلاً و أمّا الهداية فالظّاهر أنّ المراد بها الهداية التَّكوينيّة في البراري و الصّحاري و يحتمل أن يكون المراد بها الهداية التَّشريعيّة لأنها من الآثار الدّالة على توحيد اللّه و معرفته بمعنى أنّ الإنسان لو تدَّبر في هذه الآثار يجد خالقها فيها و أيّ هداية في التَّشريع أحسن منها و العلامة أيضاً قد تكون وضعيّة كما في العلائم الموضوعة في الطُّرق و الشّوارع و قد تكون برهانيّة أي إستدلاليّة عقليّة فالأولى للوصول الى المقاصد و الأهداف الكَّونية.

الثّانية: للوصول الى الحّق و اللّفظ عّام يشمل الجميع هذا كلّه تفسير ألفاظ الآية و أمّا تأويلها فالنَّجم هو رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و العلامات الأئمّة عليهم السّلام عليه السلام و قد ورد بذلك أخبار كثيرة منها.



ما عن أصول الكافي بأسناده عن داوود الحصّاص قال: سمعت أبا عبد اللّه يقول: وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ.

قال عليه السلام: النَّجم رسول اللّه و العلامات الأئمة عليهم السّلام.

و بأسناده عن أسباط بن سالم قال: سأل الهيثم أبا عبد اللّه و أنا عنده عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ.
فقال عليه السلام الرّسول (رسول اللّه) النَّجم و العلامات الأئمّة.
و بأسناده عن الوشا قال سئلت الرّضا عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ.
قال عليه السلام: نحن العلامات والنَّجم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.
و عن المناقب بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ.
قال عليه السلام: نحن النَّجم.
و عن تفسير علّي بن إبراهيم قوله: وَ عَلاٰمٰاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ.
و بأسناده عن معلّى إبن خنيس عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: النَّجم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و العلامات الأئمّة عليهم السّلام.

أقول الأحاديث نقلناها عن(١) و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و لاشكّ أنّ الأئمة عليهم السّلام من أكبر العلامات و الأسباب الى معرفة الخالق لأنهم المثل الأعلى له تعالى لكونهم مظاهر أسمائه و صفاته على وجه الأتم و الأكمل.



قال أمير المؤمنين عليه السلام معرفتي بالنُورانيّة معرفة اللّه و للبحث فيه موضع آخر.

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ



الهَمزَة للإستفهام الإنكاري أي ليس كذلك و المعنى أفمن يخلق ما ذكرناه من السّموات و الأرض و الشّمس و القمر و النَّجوم و الأنعام و البحار و ما فيها

١- تفسير نُور الثّقلين ج ٣ ص ٤٥

من الموجودات و هو اللّه تعالى كمن لا يخلق، أي لا يقدر على خلق شيٍ من الأشياء.

قيل المراد به الأصنام و الأوثان فالآية في الحقيقة رَدٌّ على عبدة الأصنام الّذين كانوا يعبدون الجمادات و فى قوله: **أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ** أي مثل هذا لا ينبغي أن تقع فيه الغفلة ممّن يدّعي العقل و الفهم و فيه إشارة الى أنّ لو تفّكر و تدَّبر في هذه الآثار الموجودة في الخارج لم يبق له شكّ في أنّ الخالق هو اللّه و هو الّذي يستّحق أن يعبد إلاّ أنّهم لم يتّدبروا حّق التّدبر و غفلوا عمّا لا ينبغي عنه فوقعوا في الحيرة و الضّلالة و ذلك هو الخسران المبين فالآية أمرهم بالتّفكر و التّدبر في الحقيقة لأنّ الفكر مفتاح السّعادة كما أنّ الغفلة مفتاح الشّقاوة و ما أقبح بالرَّجل العاقل أن يعبد الخشب و الجماد و يترك الخالق المدَّبر الحكيم و أعلم أنّ الخلق في الآية بمعنى الإبداع و الايجاد من غير أصلٍ بدليل قوله: **بَدِيعُ اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ**(١) و قد مرَّ الكلام فيه و قلنا أنّه تارّةً يقال و يراد به إبداع الشّئ من غير أصلٍ و تارّةً يقال و يراد به إيجاد الشئ.

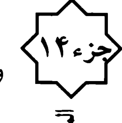
قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ**.

اللّه تعالى هو الخالق بالمعيين

وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰآ إِنَّ اَللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

في هذه الآية أخبر اللّه تعالى أنّ نعمه لا تحصى لكثرتها و هو حّقٌ بلا كلام و النّعمة للجنس تقال للقليل و الكثير و الأنعام إيصال الإحسان الى الغير و لا يقال إلاّ إذا كان الموصل اليه من جنس النّاطقين و لذلك لا يقال أنعم فلان على فرسه و حماره ولكن يقال أنعم على عبده و لا منعم في عالم الوجود إلاّ اللّه



١- البقرة = ١١٦ ٢- الأعراف = ١٨٩

تعالى و ما سواه كائناً من كان من قبيل الوسائط و الأسباب و الوجه في ذلك هو أنّ النّعمة له تعالى لا لغيره لأنّه تعالى هو الموجد و إذا كان الإيجاد مختصّاً به فكّل ما وجد أو يوجد في الخارج فهو له فمن أحسن الى غيره أيّ إحسانٍ كان فقد أحسن ممّا أنعمه اللّه عليه إذ لا موجود في الخارج إلاّ و هو مخلوق له و إذا كانت النّعمة له تعالى فما سواه ليس إلاّ سبباً لإيصالها الى الخلق و لا يطلق المنعم على السَّبب إلاّ مجازاً و هذا معنى قولنا لا منعم في الحقيقة إلاّ هو.

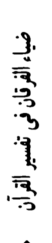
ثمّ أنّ العقل يحكم بوجوب شكر المنعم و هو متّوقف على معرفة المنعم أوّلاً فيجب معرفته أوّلاً ثمّ الشُّكر على ما أنعم به و لذلك نقول أوّل الدّين معرفته.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** مبالغة في الغُران و الرَّحمة لمن تاب عمّا كان عليه من الذَّنب حتّى الكفر فمن آمن به و عمل صالحاً فأنّ اللّه يغفر ذنبه لأنّه رحيمٌ بعباده ذو شفقةٍ عليهم.

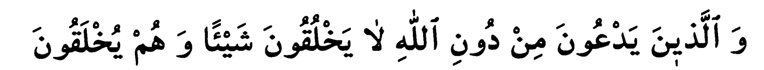
وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مٰا تُسِرُّونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ

و ذلك لأنّ علمه محيطٌ بجميع ما سواه في الظّاهر و الباطن و ذلك لأنّ العلّة حاويةٌ لجميع مراتب المعلول و إلاّ لاتكون علّة.

ثانياً: نقول، لو لم يكن عالماً بجميع ما سواه فهو جاهلٌ بالنّسبة الى ما لا علم له به و الجهل نقصٌ و النَّقص من شئون الممكن و المفروض أنّه واجب الوجود.



ثالثاً: أنّ العلّة عالم بذاتها و العلم بالعلّة يستلزم العلم بالمعلول كاملاً فثبت و تحقَّق أنّه تعالى عالم بالسّر و العلن و الظّاهر و الباطن و هو المطلوب في المقام.



أي والّذين يدعون هؤلاء الكفّار من الأصنام و الأوثان و غيرها لا يخلقون شيئاً و هم مخلوقون لغيرهم و من المعلوم أنّ المخلوق لا يكون خالقاً.

أنّ قلت أنّ المخلوق قد يكون خالقاً لبعض الأشياء و هو مشاهدٌ محسوس.

قلت ليس الأمر كذلك فأنّ المخلوق حيث أنّه موجودٌ بغيره لا يقدر على شيءٍ من قبل نفسه نعم قد يقدر على خلق بعض الأشياء بحول اللّه و قوّته و ما كانَ كذلك فهو يرجع الى خلق اللّه واقعاً فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و هو ظاهرٌ.

أَمْوٰاتٌ غَيْرُ أَحْيٰآءٍ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ

جمهور المفسّرين على أنّ قوله أمواتٌ، رفع بأنّه خبر إبتداء و التّقدير، هُن أمواتٌ، و عليه فمعنى الآية أنّها أي الأصنام و الأوثان أموات غير أحياء لأنّها لو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحيا إذ الآلة لا يكون من الأموات و لا يجوز عليه الموت و حيث نرى أنّها أموات لا حياة لها فلا تكون آلهة هكذا قيل.

أقول لا يبعد أن يكون قوله: **أَمْوٰاتٌ** خبراً عن، الّذين، في قوله: **وَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ** أي و الّذين يدعون من دون اللّه أمواتٌ، غير أحياء إذ لو كانوا أحياء واقعاً ما عبدوها و عليه فالمراد بالموت الجهل و بالحياة العلم و نسبتهما اليهم على سبيل المجاز.

و أمّا على القول الأوّل فالنّسبة حقيقيّة لأنّ الأصنام أموات واقعاً و الّذي يقوى فى نفسي هو المعنى الثّاني أي أنّ المراد بالأموات هو عبدة الاوثان و يؤيّده قوله بعد ذلك و ما يشعرون أيّان يبعثون.وجه التّأييد أنّ قوله: **وَ مٰا يَشْعُرُونَ** ألخ يناسب حال الإنسان أي يشعرون هؤلاء الكفّار أيّان يبعثون.

و أمّا على القول الأوّل فيصير المعنى و ما يشعرون هؤلاء المعبودين من الأصنام و الأوثان أيّان يبعثون، و هذا معلومٌ اذ الجماد لا شعور له فلا يحتاج بالذّكر و بعبارةٍ أخرى أثبت اللّه تعالى الذّم على عدم شعورهم و هو دليل على

كونهم أمواتاً غير أحياء اذ لو كانوا أحياءً كانوا شاعرين فلو كان المراد بقوله: **أَمْوٰاتٌ** الأصنام مثلاً فالذّم بعدم الشُّعور يتّوجه اليها أي أنّ الأصنام لا يشعرون أيّان يبعثون و هذا غير معقول لأنّ الجماد فاقدٌ للشُّعور و ما كان كذلك لا يذَّم على فقدانه فكيف يقول اللّه و ما يشعرون و هو لم يجعل له شعوراً.

ثانياً: أنّ البعث للجزاء و الحساب و الجماد بمعزلٍ عن ذلك فلا بعث له فما معنى قوله: **أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ** و محصّل الكلام هو أنّ الأصنام و الأوثان و لا تتَّصف بالموت و الحياة و لا بالشُّعور والبعث و ما كان كذلك لا ذمَّ عليه.

و العجب أنّ المفسّرين غفلوا عن هذه النُّكتته و فسّروا الكلام علىٰ ما تقتضيه ظاهر الألفاظ و لم يعلموا أو لم يتَّدبروا أنّ الجماد الّذي خلقه اللّه ولم يجعل له عقل و لا شعور و لذلك لم يجعله مكّلفاً بالتّكاليف الشرعيّة فلا حَشر له و لا نشر و لا حساب له و لا كتاب فكيف يذّمه على عدم الشُّعور و يقول فيه أو فيهم يشعرون أيّان يبعثون.

ثمّ بعد ذلك كلّه أي ذنبٍ للصّنم مثلاً حتّى يذّم عليه و أنّما الذّم يتّوجه على من يعبده و يتّخذه معبوداً لنفسه فهو يستّحق للذّم لأنّه كان قادراً على التّفكر و التّدبر و أعمال الشُّعور ولم يفعل هذا ما نفهم من الآية و اللّه أعلم.

ثمّ إنّي بعد ذلك وقفت على كلامٍ للرّازي في المقام و لا بأس بالإشارة اليه يقول:

قوله: **وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ** الضّمير في قوله: **وَ مٰا يَشْعُرُونَ** عائد الى الأصنام و فى الضّمير في قوله: **يُبْعَثُونَ** قولان:

أحدهما: أنّه عائد الىٰ العابدين للأصنام يعني أنّ الأصنام لا يشعرُون متىٰ تبعث عبدتهم و فيه تهكّمٌ بالمشركين و أنّ ألهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم.

الثّاني: أنّه عائد الىٰ الأصنام يعني أنّ هذه الأصنام لاتعرف متى يبعثها اللّه.

قال إبن عبّاس أنّ الّه يبعث الأصنام و لها أرواح و معها شياطينها فيؤمر بها الى النّار، فأن قيل الأصنام جمادات و الجمادات لا توصف بأنّها أموات و لا توصف بأنّهم لا يشعرون كذا و كذا.

و الجواب عنه من وجوهٍ:

الأوّل: أنّ الجماد قد يوصف بكونه ميتاً قال اللّه تعالى: **يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ**.

الثّانى: أنّ القوم لمّا وصفوا تلك الأصنام بالإلٰهيّة و المعبوديّة قيل لهم ليس الأمر كذلك بل هي أمواتٌ لا تعرفون شيئاً فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم.

الثّالث: أن يكون المراد بقوله و الذّين يدعون اللّه و الملائكة و كان ناسٌ من الكفّار يعبدونهم فقال اللّه أنّهم أموات لابدّ لهم من الموت غير أحياء أي غير باقية حياتهم و مايشعرون أيّان يبعثون أي لاعلم لهم بوقت بعثهم انتهى كلامه.

و أنّما نقلنا كلامه بألفاظه و عباراته حفظاً للأمانة كما هو دأبنا في جميع الموارد و بعد ما ذكرناه سابقاً لا نحتاج الى الجواب ثانياً حذراً من الإطناب ولكن إجمالاً نقول: كيف يقول هذه الكلمات من يدّعي التّوغل في العقليّات و كيف يجوز له التّمسك بحديثٍ رواه عن إبن عبّاس من أنّ اللّه يبعث الأصنام الى أخره و لم يعلم أنّ هذا الحديث من المجعولات و الموهومات و هو بالإسرائيليّات أشبه منه بالحديث و على فرض صحّة نقله هو مخالف للعقل السّليم و إبن عبّاس ليس معصوماً حتّى يتّمسك بكلامه.

و العجب من الرّازي حيث تمّسك في إثبات مدّعاه به و أمّا قوله: **و يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ** فهو لا يدلّ على ما إدّعاه قطعاً لأنّ إطلاق الميت على الأرض مجاز لا حقيقة و ليس كلامنا في صحّة إطلاق اللّفظ و عدمها و لو مجازاً بل البحث في أنّ الجماد لا شعور له ذاتاً فكيف قال: **و لا يَشْعُرُونَ**.

و الحاصل أنّ المراد بالآية هو عبدة الأصنام و الضّمائر كلّها يرجع اليهم يقول غير ذلك فعليه الإثبات.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى المعبود الذّي يستّحق أن يعبد فقال:

إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واٰحِدٌ فَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

يقال أله، فلانٌ يأله، عبَد و عليه فالأله هو المعبود و لذلك جعلوه إسماً لكلّ معبودٍ لهم و سمّواً الشّمس ألهاً لإتّخاذهم إيّاها معبوداً.

و قيل هو من أَلِهَ بكسر اللاّم أي تحَّير و ذلك أنّ العبد اذا تفكَّر في ذاته و صفاته تحَّير فيها و لهذا روي، تفَّكروا في ألاء اللّه و لا تفكَّروا في اللّه، و لعلَّه لذلك قال و إلهكم إلهٌ واحد، ولم يقل أنّ اللّه واحد مثلاً لأنّ مشركي العرب كانوا يُسمُّون معبودَم بالإله دون اللّه و أن كان المعنى فيهما واحدٌ لأنّ اللّه قيل أصله أله فحذفت همزته و أدخل عليه الألف واللاّم فخصّ بالبارئ تعالى و لذلك قال تعالى: **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**(١).

و قد إتّفقوا على أنّ اللّه، علمٌ للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة، و الحاصل أنّ هذا الإسم أعني به (اللّه) لم يكن قبل الإسلام و أنّما كان الموجود عندهم في محاوراتهم هو الإله و لأجل ذلك لم تكن كلمة اللّه، معروفاً عند مشركي العرب أيضاً و لذلك كانوا يقولون ما نعرف، اللّه، ورد أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لمّا كتب في صلح الحديبيّة بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، أنكر عليه سهيل إبن عمرو و قال ما نعرف، اللّه، و لكن أكتب بإسمك اللّهم و المقصود أنّ اللّه تعالى قال في هذه الآية و إلهكم إلهٌ واحدٌ، و لم يقل اللّه واحد مثلاً جرياً على مصطلح المشركين و عليه فالمعنى أنّ الإله الذّي تقولون به

١- مريم = ٦٥

أيضاً واحدٌ لا ثاني له فأنّ المعبود سواءٌ سمّي بالإله، أو اللّه، واحدٌ لا شريك له اذ ليس البحث في اللّفظ و أنّما المهمّ هو المعنى الذّي يدلّ اللّفظ عليه و هو الّذي يحصل به التّوحيد.

إن قلت ما الدّليل على أنّ اللّه أو الإله واحد لا ثاني له و لا شريك كما هو مفاد الآية الشريفة.

قلت الدّليل عليه أمّا من النّقل فهو معلومٌ كما في هذه الآية و غيرها من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا ٱللّٰهُ إِلٰهٌ واحِدٌ سُبْحٰانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما مِنْ إِلٰهٍ إِلّآ إِلٰهٌ واحِدٌ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنى بَرِىٓءٌ مِمّا تُشْرِكُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّما يُوحىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ**(٧).

و الآيات كثيرة و مع صراحة الآيات بذلك لا نحتاج الى ذكر الأخبار الواردة في الباب.

و أمّا الإجماع فقد أجمع المسلمون على أنّ الإله واحد لا شريك له و العمدة في إثبات المدّعى هو دليل العقل فأنّ المسألة من الإعتقاديّات و قد إتّفقوا على أنّ أصول الإعتقادي كالتّوحيد و النّبوة و المعاد لا يجوز التقليد فيها بل لابدّ للمكلّف أن يحصّلها بالعقل قبل النّقل فنقول:

١- البقرة = ١٦٣
٢- النّساء = ١٧١
٣- المائدة = ٧٣
٤- الأنعام = ١٩
٥- إبراهيم = ٥٢
٦- الأنبياء = ١٠٨
٧- الحجّ = ٣٤

لو كان له تعالى شريكٌ في ألوهيّته فـلا مـحالة هـو مـوجوداً اذ المـعدوم لا يكون شريكاً للموجود و اذا كان موجوداً.

أمّـا إن يكـون واجـباً أو مـمكناً لإنـحصار الوجـود فـيهما لا سـبيل الى الثّاني الإمكان، لأنّ الممكن لا يكون شريكاً للواجب.

أمّا أوّلاً: فلأنّه حادث متَّغير أمّا حدوثه فلكونه مسبوقاً بالعدم أو العلّة و أمّا تغيّره فهو معلوم اذ لا نعني بالتَّغير إلاّ عدم بقاءه على حالةٍ واحدة و هو كـذلك مضافاً الى كونه معروضاً للوجود تارةً و للعدم أخرى.

ثانياً: أنّ الممكن في خروجه عن حدّ الإستواء محتاج الى العـلّة و الواجب منّزهٌ عن ذلك.

ثالثاً: الممكن يعدم و يفنى و الواجب منّزهٌ عنه فثبت أنّ الممكن لا يكـون شريكاً في وجوب الوجود فكيف يكون ثانياً فقوله تعالى إلهٌ واحد أي لا ثاني له لأنّ الوحدة من الأعداد و الواحد مقابل للثّاني و الثّـاني فـي الحـقيقة واحـدٌ أخر فهو كالواحد في الذّات و الصّفات و إلاّ لا يكون ثانياً له فأنّ الأثنين ليس إلاّ واحداً و واحداً و اذا إمتنع كونه ممكناً فلا محالة يكون واجباً لما ذكرناه من أنّ الموجود منحصرٌ فيهما و هذا هو الأصل في هذا الباب اذ لا يصدق الشّريك له تعالى إلاّ على الواجب و هو الّذي يطلق عليه الثّاني أيضاً.

و هذا أيضاً محالٌ لأنّ الواجبين أمّـا أن يكـونا بـحسب الذّات و الصّـفات مختلفين أو يكونا متَّحدين.

فعلى الأوّل: أعني بـه كـونها مـختلفين لا يـمكن حـمل الوجـوب عـليهما معاًواضح لأنّ الموجودين المختلفين بحسب الذّات و الصّفات كيف يـتَّصفان بوجوب الوجود و المفروض أنّ أحدهما غير الأخر فلو كـان أحـدهما واجب الوجود لزم أن لا يكون الغير متّصفاً به و السِّر فيه أنّ وجوب الوجود ينتَّزع عن مقام ذاتهما فاذا كانا مختلفين بحسب الذّات فما ينتزع عن مقام ذات أحـدهما غير ما ينتزع عن مقام ذات الأخر لأنّ المـفهوم الواحـد لا يـنتزع عـن الذّاتـين المختلفين بما هما كذلك.



على الثّاني: و هو كونهما متّحدين ذاتاً وصفةً فهو أيضاً محال لأنّهما إمّا أن يكونا موجودين بوجودٍ واحدٍ بمعنى أنّ وجود أحدهما عين وجود الأخر فلازم ذلك إرتفاع الأثنيّة بالكلّية لأنّ المفروض أنّ ذاتهما و صفاتهما و وجودهما واحد فلا يصدق على أحدهما أنّه ثاني الأوّل أو شريك له لأنّ الأثنينيّة مستلزمة للتّغاير أمّا بالذّات أو بالصّفة و ما ليس كذلك فهو واحد، و أن كان موجود بوجودين مختلفين لزم، أن يكون أحدهما موجوداً بالوجود الواجبي الإمكاني و من المعلوم أنّ الموجود بالوجود الإمكاني مخلوق للموجود بوجوب الواجبي فلا شريك في المقام و لا ثاني للواجب فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه أنّ اللّه تعالى واحد لا شريك له في ألوهيّته و هو المطلوب.

أمّا قوله: **فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** فالمعنى أنّ الّذين لا يصدّقون بالآخرة و البعث و النُّشور و الثّواب و العقاب قلوبهم منكرة أي قلوبهم تجحد ما ذكرناه و هم مع ذلك يستكبرون و يمتنعون من قبول الحقّ هكذا قيل و الّذي نقول به توضيحاً لما ذكروه هو أنّ اللّه أخبر في هذه الآية أنّ إله العالم واحد لا ثاني له و لا شريك و أنّ الّذين لا يؤمنون بالجزاء بعد وضوح بطلان أن تكون الالوهيّة لغيره مستّمرون على شركهم منكرون وحدانيّته مستكبرون عن الإقرار بها لإعتقادهم الإلهيّة لأصنامهم و أوثانهم.

أن قلت أليس قوله تعالى: **قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ** يكفي عن قوله: **وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**.

قُلت لا و ذلك لأنّ الإنكار القلبي لا يلازم الإستكبار حتّى يكون ذكره مغنيّاً عنه فأنّ الإستكبار هو طلب التّرفع بترك الإذعان للحقّ، فالمستكبر قد يكون عالماً عارفاً بالحقّ قلباً و مع ذلك يترك الإذعان بالحقّ طلباً للتّرفع و قد لا يكون عالماً به فهو أعمّ من المنكر ألا ترى أنّ المنافق منكراً بالقلب و قد لا يستكبر

ظاهراً بل يدّعي الإيمان بلسانه فمعنى الآية أنّ هؤلاء المشركين أو الكافرين، الّذين لا يؤمنون بالأخرة لأنّ قلوبهم منكرة للحقّ لا يقنعون به بل يزيدون على إنكارهم الحقّ إستكبارهم بسبب عدم إذعانهم به و بعبارةٍ أخرى أنّهم يقدرون على الإذعان و لكنّهم يعرضون عنه إستكباراً منهم و عناداً للحقّ و هو داءٌ عظيمٌ لا دواء له من جانب الخلق.

لا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ

المشهور بين المفسّرين، أنّ، بفتح الألف و قرأ عيسى الثّقفي، بكسر الهَمزة على الإستئناف و القطع عمّا قبله، و المعنى لا جرم، أي حقّ و وجب أنّه تعالى يعلم ما يسرّون، أي يبطنون و ما يعلنون أي يظهرون و أنّه لا يحبّ المستكبرين لأنّهم تجاوزوا عن حدودهم و دخلوا فيما لا ينبغي للمخلوق الكبر.

أمّا أنّه يعلم ما يسرّون و ما يعلنون: فالوجه فيه واضح و هو أنّه تعالى خالق الأشياء و الخالق لا يكون جاهلاً بخلقه.

ثانياً: أنّه تعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً، فلو لم يعلم شيئاً سواء كان ظاهراً أم باطناً لزم الجهل و الجهل نقص و هو من شئون الممكن و الواجب تعالى منزّه عن النّقائص و قد مرّ البحث في هذا الباب غير مرّةٍ و قوله: **إِنَّهُ لا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ** و ذلك لأنّ الكبر آفة عظيمة و غائلة هائلة و به هلك خوّاص الأنام فضلاً عن غيرهم من العوام و هو الحجاب الأعظم للوصول الى أخلاق المؤمنين إذ فيه عزٌّ يمنع عن التّواضع و كظم الغيظ و قبول النُّصح و الدّوام على الصِّدق و ترك الغضب و الحقد و الحسد و الغيبة و الأزراء بالنّاس و غير ذلك فما من خلقٍ مذمومٌ إلاّ و صاحب الكبر مضطرٌّ اليه ليحفظ به عزّه و ما من خلقٍ محمود إلاّ عاجزٌ عنه خوفاً من فوات عزّه و لذلك ورد في ذمّه ما ورد من الآيات و الأخبار.

قال اللّه تعالىٰ: **سَأَصْرِفُ عَنْ اٰيٰاتِيَ اَلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **اُدْخُلُوٓا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا فَبِئْسَ مَثْوَى اَلْمُتَكَبِّرِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ**[٣].

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردلٍ من كبرٍ.**

و قال الباقر عليه السلام: **الكبر رداء اللّه و المتكّبر ينازع اللّه رداءه انتهى.**

و قال عليه السلام: **العزّ رداء اللّه و الكبر أزاره فمن تناول شيئاً منه أكبّه اللّه في جهنّم** و الأحاديث كثيرة[۴].

ثمّ أنّ التّكبر قد يكون على اللّه كما كان لنمرود و فرعون و سببه الطّغيان و محضّ الجهل و هو أفحش أنواع الكبر إذ هو أعظم أفراد الكفر و اليه الإشارة بقوله تعالىٰ:

إِنَّ اَلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دٰاخِرِينَ.

و قد يكون على الرسّل من حيث تعزّز النّفس و ترفّعها عن إنقيادهم و اليه الإشارة بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخٰاسِرُونَ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا اَلْمَلاٰئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنٰا لَقَدِ اِسْتَكْبَرُوا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا**[۶].

و قد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم و أن كان دون

١- الأعراف = ١۴۶
٢- الزّمر = ٧٢
٣- غافر = ۶٠
۴- جامع السّعادات ج ١ ص ٣۴٩
۵- المؤمنون = ۴٣
۶- الفرقان = ٢١

الأوّلين إلاّ أنّه من المهلكات العظيمة من حيث أنّـه يـؤّدي الى مـخالفة اللّـه و يكفيك في ذّم التّكبر إجماع جميع العقلاء على ذمّه و أنّ المتكبّر منفورٌ مطرودٌ في الجامعة و هو واضح.

وَ إِذاٰ قيِلَ لَهُمْ ماٰذآٰ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قاٰلُوٓا أَساٰطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ

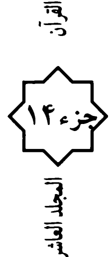
أي اذا قيل لهؤلاء الكفّار على وجه الإستفهام ما الّذي أنزل ربّكم على بـيّنةِ محمّد صلى الله عليه و آله و سلم أجابوا بأن قالوا أنزل أساطير الأوّلين يعني أحاديثهم الكاذبة.

الأساطير واحدها أسطورة سمّي بذلك لأنّهم كـانوا يسـطرونها فـي الكـتب قيل سبب نزول الآية أنّ النّضر بن الحرث سافر عن مكّة الى الحيرة و كان قـد إتّخذ كتب التّواريخ و الأمثال فجاء الى مكّة فكان يـقول أنّـما يـحدّث مـحمّد بأساطير الأوّلين و حديثي أجمل من حديثه، و مـاذا، كـلمة، إستفهام مـفعول، بأنزل، أو مبتدأ، خبره ذا، بمعنى الذّي و عائدة في أنزل، محذوف أي أيُّ شـئٍ أنزله.

و قيل قائل ذلك، الذّين تقاسموا مداخل مكّة ينفرون عـن الرّسـول صلى الله عليه و آله و سلم اذا سألهم وفود الحاجّ ماذا أنزل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قالوا أحاديث الأوّليـن و أنّما قالوا ذلك لما حكى اللّه عنهم بقوله:

لِيَحْمِلُوٓا أَوْزاٰرَهُمْ كاٰمِلَةً يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ وَ مِنْ أَوْزاٰرِ اَلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاٰ سآٰءَ ماٰ يَزِرُونَ

و اللاّم في قوله: **لِيَحْمِلُوٓا** لام الأمر على معنى الحتم عليهم أو لام التّـعليل من غير أن يكون غرضاً كقولك خرجت من البلد مخافة الشّر و هى التّي يـعبّر عنها بلام العاقبة لأنّهم لم يقصدوا بقولهم أساطير الأوّلين أن يحملوا الأوزار إلاّ أن قولهم هذا صار سبباً لحمل الأوزار في عـاقبة الأمـر و حـاصل المـعنى فـي الآية هو أنّهم حملوا الوزر أوّلاً بقولهم أساطير الأوّلين و حـملوه ثـانياً بـالنّسبة



الى من أضّلوهم من النّاس و أبناءهم لإقتدائهم بهم في الكفر و الإستهزاء بكتاب اللّه فصار حمل الأوزار كاملاً لهم يوم القيامة.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **كَامِلَةً** معناه حمل المعاصي تامّةً على أقبح وجوهها من غير اخلالٍ بشئٍ منها، و من أوزار الّذين يضّلونهم بغير علم، معناه أنّهم يتّحملون مع أوزارهم أوزار من أضلُّوه عن دين اللّه و أغووه عن إتّباع الحقّ بغير علم منهم بذلك بل كانوا جاهلين و المعنى أنّهم كانوا يصُّدون من أراد الإيمان بالنّبيّ فعليهم أثامهم و أثام أبناءهم لإقتدائهم بهم انتهى.

و أنت ترى أنّ تفسيره هذا يرجع الى ما ذكرناه فقوله: **كَامِلَةً** منصوب على الحاليّة أي و الحال أنّ حملهم الأوزار في حدّ الكمال و التّمام لا ينقص منها شئ.

و قوله: **وَ مِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ** الخ كلمة، من للتّبعيض أي أنّهم يحملون من وزر كلّ من أضلُّوه أي بعض وزر من ضلَّ بضلالهم و هو وزر الأضلال لأنّ المضّل و الضّال شريكان هذا يضلّه و هذا يطاوعه على إضلاله فيتحاملان الوزر، و أنّما قال من أوزار الّذين يضّلونهم، و لم يقل و أوزار الّذين يضلّونهم فأتى بكلمة من الدّالة على التَّبعيض، لأنّهم حملوا بعض أوزارهم لا كلّها اذ كان الأتباع قادرين على عدم قبول المضّلين و لكنّهم مع ذلك قبلوه فهم مقصّرون أيضاً و على هذا فالأوزار تنقسم الى قسمين:

منها للمضّلين و قسمٌ أخر للمطيعين و هذا هو السِّر في الإتيان بكلمة، من، التَّبعيضية.

و توضيح ذلك اجمالاً هو أنّ المبدع و الرّئيس اذا وضع سنّةً قبيحة عظم عقابه حتّى أنّ ذلك العقاب يكون مساوياً بعقاب كلّ من إقتدى به في ذلك كما أنّ من سنَّ سنَّةً حسنة فله ثواب من عمل بها و من سنَّ سنَّةً سيّئة فعليه وزر من عمل بها و هؤلاء الكفّار لمّا قالوا ما قالوا من كلمة الكفر إقتدى بهم من بعدهم من أبناءهم و أتباعهم الى يوم القيامة فعليهم وزر الإضلال و على أتباعهم وزر

الطّاعة و الإنقياد و هذا لا يختّص بالكفّار فقط بل هو حكمٌ عامٌ يشمل الكافر و المسلم و العالم و الجاهل اللّهم إلاّ أن يكون جاهلاً قاصراً و لا كلام لنا فيه فعلاً.

و قد روى في مجمع البيان عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذه الآية أنّه قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: أيّما داعٍ دعى الى الهدى فأتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئ و أيّما داعٍ دعى الى ضلالةٍ فأتبع عليه فأنّ عليه مثل أوزار من إتَّبعه من غير أن ينقص من أوزارهم.

فقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أيّما داعٍ دعى الى كذا عامّ يشمل كلّ داعٍ مسلماً كان أو كافراً.

في تفسير القمّي (علّي بن إبراهيم) قال حدَّثني أبي عن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام خطب أمير المؤمنين عليه السلام بعد ما بويع له بخمسة أيّام خطبة فقال فيها.

و إعلموا أنّ لكلّ حقٍّ طالباً ولكلّ دمٍ ثائراً و الطّالب بحقّنا كقيام الثّائر بدمائنا و الحاكم في حقّ نفسه هو العادل الذّي لا يحيف و الحاكم الذّي لا يجور و هو اللّه الواحد القهّار و إعلموا أنّ على كلّ شارعٍ بدعةٍ وزره و وزر كلّ مقتدٍ به من بعده من غير أن ينقص من أوزار العاملين شيئ و سينتقم اللّه من الظّلَمة مأكلاً بمأكلٍ و مشرباً بمشربٍ من لقم العلقم و مشارب الصّبر الأدهم فيشربوا بالصّب من الرّاح السَّم المذاق و ليلبسوا دثار الخوف دهراً طويلاً و لهم بكلّ ما أتوا و عملوا من أفاويق الصَّبر الأدهم فوق ما أتوا و عملوا أمّا أنّه لم يبق إلاّ الزّمهرير من شتاءهم و مالهم من الصّيف إلاّ رقدة ويحهم ما تزَّودوا و جمعوا على ظهورهم من الأثام فيا مطايا الخطايا و زاد الأثام مع الذّين ظلموا، إسمعوا و إعقلوا و توبوا و أبكوا على أنفسكم فسيعلم الذّين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون.

فأقسم ثمّ أقسم ليتّحملنها بنو أمّية من بعدي و ليعرفنّها في دار غيرهم عمّا قليل فلا يبعد اللّه إلاّ من ظلم و على البادئ (يعني الأوّل) ما سهل لهم من سبيل الخطايا مثل أوزارهم و أوزار كلّ من عمل بوزرهم الى يوم القيامة و من أوزار الذّين يضّلونهم بغير علمٍ ألا ساء ما يزرون.

و فيه أيضاً في قوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ قال: يحملون أثامهم يعني الذّين غصبوا حقّ أمير المؤمنين عليه السلام.

وأثام كلّ من إقتدى بهم و هو قول الصّادق عليه السلام و اللّه ما أهريقت محجمةٌ من دمٍ و لا قرع عصا بعضا و لا غصب فرج حرام و لا أخذ مال من غير حلٍّ إلاّ و وزر ذلك في أعناقهم من غير أن ينقص من وأزار العاملين شئ انتهى.

أقول و يؤيّد ذلك ما روته العامّة و الخاصّة عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **أنّه قال ستفترق أمّتي على ثلاث و سبعين فرقة كلّها في النّار إلاّ فرقة واحدة،** الحديث ممّا إتّفق على صحّته جميع المسلمين ولم يخالف فيه أحد و أن إختلفوا في تعيين الفرقة الواحدة اذا عرفت هذا فنقول:

يظهر من هذا الحديث أنّ جميع الفرق في النّار إلاّ واحدة منها و لا كلام لنا فعلاً في أنّ الواحدة من هي و أنّما الكلام في غيرها من الفرق التّي هي في النّار فلقائلٍ أن يقول لم تكون الفرق في النّار و المفروض أنّهم من المسلمين.

و الجواب واضح و هو أنّهم كانوا من المنحرفين عن طريق الحقّ فأن قيل من أضلّهم، يقال رؤوساء القوم و أئمّتهم الذّين إقتدوا بهم فثبت و تحقّق أنّ أئمّة الفرق التّي هي من أهل النّار هم الّذين يحملون أوزار الذّين أضلّوهم أو يضلّونهم يوم القيامة فالآية تشمل جميع أهل البدع من الكفّار و المسلمين بل مصاديقها في الإسلام بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أكثر منها في الكفّار و يؤيّده قول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إفترقت اليهود على واحدة و سبعين فرقة و النّصارى على

أثنين و سبعين و أمّتي على ثلاث و سبعين أو ستفترق أمّتي على ثلاث و سبعين و هو دليل على أنّ أهل البدع في الإسلام أكثر من سائر الملل، و لتفصيل الكلام في هذا الباب موضع أخر.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتَيٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ

المكر بفتح الميم و سكون الكاف و الراء الفتل و الحيلة الى جهةٍ منكرة، و المعنى أنّ الذّين من قبل هؤلاء الكفّار قد مكروا و إحتالوا على رسلهم.

ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا فيهم، فمنهم من قال المراد بهم نمرود بنى صرحاً ليصعد بزعمه الى السّماء و أفرط في علّوه و طوله في السّماء فرسخين و قيل طوله في السّماء خمسة ألاف ذراع و عرضه ثلاثة ألاف ذراع فبعث الّله تعالى ريحاً فهدمته و خَّر سقفه عليه و على أتباعه و قيل هدمه جبرئيل بجناحه.

و قال الكلبي المراد بهم المقتسمون المذكورون في سورة الحجر.

و قال بعضهم المراد بهم بخت نصر و أصحابه.

و قال الضّحاك قريات قوم لوط و هكذا.

و قال إبن الأنباري المعنى فأتى الّله مكرهم من أصله أي عاد ضرره عليهم و بهم و ذكر الأساس مثلاًكما ذكر السَّقف مع أنّه لا سقف ثمّ و لا أساس.

قال بعض المفسّرين بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه:

و هذا الذّي ذكره يليق بكلام العَرب و يشبهه.



أقول و الذّي يقوّي في النّظر هو أنّ الّله تعالى لم يرد بهؤلاء الكفّار الّذين كانوا من قبلهم قوماً خاصّاً بل المراد جميع الكفّار الّذين بقوا على كفرهم و ماتوا عليه بسبب العذاب الّذي نزل بهم و حيث أنّهم كانوا مكروا و إحتالوا بأنواع المكر و الحيلة للوصول الى مقاصدهم و بقاءهم و صدَّهم عن سبيل الّله و إيذائهم الأنبياء فأهلكهم الّله و لم يبق منهم أثر في الدنيّا و فى الآخرة إلاّ

الفضيحة و الخزي فقوله فأتى اللّه بنيانهم فخَّر عليهم السَّقف الخ كناية عمّا ذكرناه.

و قوله: وَ أَتيٰهُمُ ٱلْعَذاٰبُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ أي أتاهم العذاب و هم في غفلةٍ عنه ثمّ أشار اللّه تعالى الى عذاب الآخرة و قال:

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكاٰئِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشاٰقُّونَ فِيهِمْ

أي إتّخذتموهم ألهة فعبدتموهم و كنتم تشّاقون فيهم اللّه و تخرجون عن طاعة اللّه و المشّاقة المخاصمة للمؤمنين.

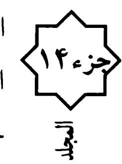
قاٰلَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَ ٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكاٰفِرِينَ

إختلفوا في المراد بقوله تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ** من هم فقيل هو عامّ فيمن أوتي العلم من الأنبياء و أممهم الذّين كانوا يدعونهم الى الإيمان و يعظونهم فلا يلتفتون اليهم بل ينكرون عليهم.

و قيل هم الملائكة و قيل الحفظة منهم و قيل من حضر الموقف من ملك و إنسي و قيل هم المؤمنون و قيل غير ذلك من الأقوال.

و أنا أقول لا يبعد أن يكون المراد بهم علماءهم الذّين أضلُّوهم في الدنيا و أنّما قلنا به لأنّ سياق الآية يقتضي ذلك فأنّ علماء السُّوء الّذين وضعوا البدع و أضلّوا كثيراً من النّاس حتّى أوقعوهم في العذاب لا مخلص لهم أيضاً منه بل هم الأصل و عذابهم أشدّ فلا محالة لما رأوا العذاب قالوا كذلك قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم اذا فسد العالم فسد العالم و أنت اذا تأمّلت و أنصفت لعلمت أنّ الإضلال في الدّين لا يكون ولم يكن إلاّ من ناحيتهم و العوام لا ذنب لهم إلاّ جهلهم.

■



ٱلَّذِينَ تَتَوَفّيٰهُمُ ٱلْمَلاۤئِكَةُ ظَالِمِيۤ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا
ٱلسَّلَمَ مٰا كُنّٰا نَعْمَلُ مِنْ سُوٓءٍ بَلٰىۤ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ
بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوۤا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ
خٰالِدِينَ فِيهٰا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَ
قِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مٰاذٰآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قٰالُوا خَيْرًا
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيٰا حَسَنَةٌ وَ لَدٰارُ
ٱلْاٰخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دٰارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنّٰاتُ
عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ لَهُمْ
فِيهٰا مٰا يَشٰآءُونَ كَذٰلِكَ يَجْزِي ٱللّٰهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾
ٱلَّذِينَ تَتَوَفّيٰهُمُ ٱلْمَلاۤئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاٰمٌ
عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ
يَنْظُرُونَ إِلاّٰ أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلاۤئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ
رَبِّكَ كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ
ٱللّٰهُ وَ لٰكِنْ كٰانُوۤا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾
فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ
شٰآءَ ٱللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لاۤ
اٰبٰآؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلاَّ
ٱلْبَلاٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِي كُلِّ أُمَّةٍ
رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَ ٱجْتَنِبُوا ٱلطّٰاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللّٰهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

◀ اللّغة

ٱلسَّلَمَ: بفتح السّين و اللاّم الإستسلام و هو الإنقياد و الطّاعة.

مَثْوَى: المثوى المكان.

طَيِّبِينَ: أي الصّالحين بأعمالهم.

حَاقَ: أي حلَّ أو أحاط.

◀ الإعراب

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ موضع، الّذين، الجرّ على أنّه صفة للكافرين، و النّصب بتقدير أعني و الرّفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف أي هم الّذين فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ معطوف على، قال الّذين أوتوا العلم، و قيل على تتوَّفاهم، و يجوز أن يكون مستأنفاً مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ما، في موضع نصب بأنزل جَنَّٰتُ عَدْنٍ هي المخصوصة بالمدح مثل زيد، في نعم الرّجل زيدٌ يَدْخُلُونَهَا حال منها و يجوز أن يكون مستأنفاً و يدخلونها، الخبر و يجوز أن يكون الخبر محذوفاً، أي لهم جنّات عدنٍ كَذَٰلِكَ يَجْزِى الكاف في موضع نصب نعتاً لمصدرٍ محذوف طَيِّبِينَ حال من المفعول يَقُولُونَ حال من الملائكة أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ يجوز أن يكون، أن، بمعنى، أي، و أن يكون مصدريّة مَنْ هَدَى من، نكرة موصوفة قبلاء و ما قبلها الخبر، أُمَّةٍ الأمّة الجماعة.



◀ التّفسير

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ

مرتبطة بما قبلها فقوله: **ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ** صفة أو بيان للكافرين في قوله: **إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَ ٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**[١] كأنّه قيل مَن هُم فقال تعالى: **ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنْفُسِهِمْ** أي حال كَونهم كذلك و قيل: **ٱلَّذِينَ** بدلٌ من الكافرين و هو في موضع الجّر على البَّدلية قيل إنّما قال ذلك ليعلم به أنّ الوعيد يتناول من مات على كفره لأنّه أن تاب لم يتَّوجه الوعيد اليه و على ما أخترناه من أنّ، الّذين تتَّوفاهم الملائكة، صفة فيكون ذلك داخلاً في القول فأن كان القول يوم القيامة فيكون قوله: **تَتَوَفَّيٰهُمُ** حكاية حالٍ ماضية و أن كان القول في الدّنيا لما أخبر تعالى أنّه يخزيهم يوم القيامة ويقول لهم ما يقول و قال بعضهم، الّذين، خبر مبتدأ محذوف و يكون منصوباً على الذَّم و كيف كان فقوله: **تَتَوَفَّيٰهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنْفُسِهِمْ** إشارة الى أنّ اللّه ليس بظّلام للعبيد و أنّ الملائكة تُقبض أرواح النّاس بإذن اللّه و فيه أي قوله: **ظَالِمِىٓ أَنْفُسِهِمْ** أيضاً إشارة الى أنّ العبد مختار في فعله خلافاً للأشاعرة القائلين بالجبر و الإضطرار و الوجه فيما ذهبنا اليه واضح إذ لو كان مضطراً مجبوراً في فعله فقوله تعالى: **ظَالِمِىٓ أَنْفُسِهِمْ** لا معنى له إذ للعبد أن يقول ما ظلمت نفسي ولكن ظلمني من خلقني مضطَراً في الفعل، و يلزم أيضاً أن يكون اللّه في قوله: **ظَالِمِىٓ أَنْفُسِهِمْ** كاذباً نعوذ باللّه منه و ذلك لأنّ اللّه تعالى خلقه مجبوراً ظالماً ثمّ قال أنّه ظالم على نفسه، و إنّما قلنا أنّه مختار لأنّه كان قادراً على الإيمان و لم يؤمن و به صار مستَّحقاً للذَّم و قوله: **فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ** قيل السَّلم الإستسلام للحّق و الإنقياد به و معنى الكلام أنّهم لّما رأوا العذاب يوم القيامة يستسلمون للحّق و لا ينفعهم السَّلم بعد الموت و يقولون: **مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوٓءٍ** فكذَّبهم اللّه و قال: **بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**.

١- النحجل = ٢٧

قال الجبائی: معناه ما كنّا نعمل من سوءٍ عند أنفسنا لأنّهم في الآخرة ملجئون الى ترك القبيح و الكذب.

أقول ما ذكره لا دليل عليه من الكتاب و السُّنة و العقل بل الحّق أنّهم يكذبون في الآخرة زعماً منهم أنّ الكذب ينفعهم و لم يعلموا أنّ الآخرة غير الدنيّا.

فَادْخُلُوٓا أَبْوٰبَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهٰا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ

يظهر من الآية أنّ للنّار أبواب كما للجنَّة أبواب و هو كذلك و قد ثبت من الأخبار أنّ للجنَّة ثمانية أبواب و للنّار سبعة أبواب و قد أشرنا الى أبواب الجنَّة فيما مضى و الآن نشير الى أبواب النّار.

قال رسول اللّه ﷺ: عند رؤيته الجنَّة والنّار لما أسري الى السّماء و رأيت على أبواب النّار مكتوب على الباب الأّول.

ثلاث كلمات من رجا اللّه سعد و من خاف اللّه أمن و الهالك المغرور من رجا غير اللّه و خاف سواه.

و على الباب الثّانی: من أراد أن لا يكون عرياناً يوم القيامة فليكس الجلود العارية في الدنيا و من أراد أن لا يكون عطشاناً يوم القيامة فليسق العطاش في الدّنيا و من أراد أن لا يكون يوم القيامة جائعاً فليطعم البطون الجائعة في الدنيّا.

و على الباب الثّالث: مكتوبٌ، لعن اللّه الكاذبين، لعن اللّه الباخلين، لعن اللّه الظّالمين.

و على الباب الرّابع: مكتوبٌ، ثلاث كلمات، أذّل اللّه من أهان الإسلام، و أذَّل اللّه من أهان أهل البيت، أذّل اللّه من أعان الظّالمين على ظلمهم للمخلوقين.

و على الباب الخامس: مكتوب، ثلاث كلمات، لا تتبَّعوا الهوى



فالهوى يخالف الإيمان، و لا تكثر منطقك فيما لا يعنيك فتسقط من رحمة اللّه، فلا تكن عوناً للظّالمين.

و على الباب السّادس: مكتوبٌ، ثلاث كلمات أنا حَرامٌ على المجتهدين، أنا حرامٌ على الصّائمين انا حرامٌ المتصدّقين.

و على الباب السّابع: مكتوبٌ، ثلاث كلمات، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا و وبَّخوا نفوسكم قبل أن توبَّخوا و أدعوا اللّه عزّ و جّل قبل أن تردّوا عليه و لا تقدروا على ذلك[١].

إذا عرفت هذا فقوله: **فَادْخُلُوٓا أَبْوٰابَ جَهَنَّمَ** ظاهر الكلام يدلّ على التَّخيير و أنّه لا فرق فيها فأنّ الأبواب كلّها ينتهي الى النّار و قوله: **خٰالِدِينَ فِيهٰا** إشارة الى خلودهم فيها و أنّه لا مخلص لهم عنها فأنّ الكافر مخلَّد فيها دائماً كما أنّ المؤمن مخَّلد في الجَنَّة دائماً و قوله فلبئس مثوى المتَّكبرين، المثوى المكان و انّما قال مثوى المتَّكبرين و لم يقل مثوى الكافرين مع أنّ البحث في الكافر لا في المتَّكبر، لانّ منشاء و هي أنّ منشأ الكفر هو التَّكبر ألا ترى أنّ إبليس كفر باللّه لإستكباره.

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبىٰ وَ اَسْتَكْبَرَ وَ كٰانَ مِنَ اَلْكٰافِرِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَاهْبِطْ مِنْهٰا فَمٰا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهٰا**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَكُلَّمٰا جٰآءَكُمْ رَسُولٌ بِمٰا لاٰتَهْوىٰٓ أَنْفُسُكُمُ اَسْتَكْبَرْتُمْ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ اَلَّذِينَ اَسْتَكْبَرُوٓا إِنّٰا بِالَّذِيٓ اٰمَنْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدِ اَسْتَكْبَرُوا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا**[٦] و الآيات كثيرة.

١- بحار الأنوارج ٣ ط قديم (كمباني) ص ٣٣٢

٢- البقرة = ٣٤ ٣- الأعراف = ١٣

٤- البقرة = ٨٧ ٥- الأعراف = ٧٦

٦- الفرقان = ٢١

و أنت إذا تأمّلت فيها لعلمت أنّ جميع الكفّار كانوا من المستكبرين في الحقيقة و لعّل السّر فيه أنّ الحّق واضح لا خفاء فيه عند العاقل فمن ينكره بعد وضوحه فهو مستكبرٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**[١].

و على هذا لا يبعد أن يكون الكافر الّذي لا يكون كفره ناشئاً عن الإستكبار غير مخلّدٍ في النّار أو يكون أهون عذاباً من الكافر المستكبر و ذلك كالجاهل القاصر الّذي لا يقدر على التفحّص و تحصيل المعرفة و هم كثيرون في الإسلام أيضاً و الحاصل أنه فرقٌ واضح بين المقّصر و القاصر و اللّه أعلم.

وَ قِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ لَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ

لمّا قال اللّه تعالىٰ فيما مَضىٰ: **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**[٢] قال في هذه الآية **وَ قِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا** و هذا هو الفرق بين المستكبر و الكافر و المؤمن المتّقي مع أنّ الكتاب واحد و الرّسول واحد و الأحكام واحدة و صاحب الكلام هو اللّه تعالى فكيف يعقل هذا الإختلاف في الجواب فأنّ الكتاب المنزل ليس إلاّ أساطير الأوّلين فهو شّرٌ إذ لا شّر أفحش من المكذوبات الّتي عبَّر عنها بأساطير الأوّلين و إن كان خيراً كما في هذه الآية و هو كذلك فلا يكون شّراً و لا شكّ أنّ المنزل من اللّه لا يكون إلاّ خيراً لأنّه تعالى خيرٌ و الخير المحض لا يوجد منه إلاّ الخير و لا يعتقد بذلك إلاّ المؤمن و لذلك قال: **وَ قِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ** أي تُكتَب حسنة و هى خيرٌ و لدار الآخرة خيرٌ كلّها للمتّقين و لا شّر فيها أبداً فالمنزل عنه خيرٌ كلّه

١- الصّافات = ٣٥ ٢- النّحل = ٢٤

للكافر و المؤمن إلاّ أنّ الكافر لا ينصف و يستكبر و يعرض عنه و المؤمن ليس كذلك و من قال أنّه شرٌّ للكافر و خيرٌ للمؤمن كلامه ناظرٌ الى ما ذكرناه و إلاّ لا يعقل أن يكون الشّيئ الواحد متّصفاً بهما معاً لإستحالة إجتماع النّقيضين مضافاً الى أنّ كلام اللّه خيرٌ محضٌ و لا يتّصف بالشّر أصلاً.

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ

أي هي جنّات عدنٍ و على هذا فقوله: **جَنَّٰتُ عَدۡنٖ** خبر إبتداء محذوف قالوا في وجهه كأنّ قائلاً قال ما هذه الدّار فقيل هي جنّاتُ عدنٍ و قال بعضهم، جنّاتٌ عدنٍ و قال بعضهم، جنّات عدنٍ مبتدأ و خبره، نعم دار المتّقين ثمّ وصف هذه الجنّات بما فيها و قال تجري من تحتها الأنهار و قوله عدنٍ، أي إستقرارٍ و ثباتٍ يقال عدن بمكان كذا، إستقر، و منه المعدن لمستّقر الجواهر و قوله: **لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ** من المأكولات و المشروبات و المنكوحات و بالجملة فيها ما تشتهيه الأنفس و تلّذ الأعين قال: **كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ**.

روي في البحار بأسناده عن أبي بصير قال: قُلت لأبي عبد اللّه جعلت فداك يا بن رسول اللّه شوّقني فقال عليه السلام يا أبا محمّد أنّ الجنّة توجد ريحها من مسيرة ألف عاّم و أنّ أدنىٰ أهل الجنّة منزلاً لو نزل به الثّقلان من الجنّ والإنس لوسعهم طعاماً و شراباً و لا ينقص ممّا عنده شيئاً و أنّ اسّير أهل الجنّة منزلةً من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج و الخدم و الأنهار و الثّمار ما شاء اللّه فإذا شكر اللّه و حمده قيل له إرفع رأسَك الىٰ الحديقة الثّانية ففيها ما ليس في الأولىٰ فيقول يا ربّ إعطني هذه فيقول لعلّي أن أعطيتكها سألتني غيرها فيقول ربّ هذه فإذا هو

دخلها و عظمت مسرّته شكر اللّه و حمده فيقال إفتحوا له باب الجنّة و يقال له إرفع رأسك فيقول ربّ أدخلني الجنّة و أنجني من النّار قال أبو البصير فبكيت و قلت له جعلت فداك زدني قال عليه السلام: يا أبا محمّد أنّ في الجنّة نهراً في حافيته جوار نابتات و اذا مرَّ المؤمن بجاريةٍ أعجبته قلعها و أنبت اللّه مكانها أخرىٰ قلت جعلت فداك زدني قال عليه السلام المؤمن يزَّوج ثمان مائة عذراء و أربعة ألاف ثيّب و زوجتين من الحور العين قلت جعلت فداك ثمان مائة عذراء قال عليه السلام: نعم ما يفترش منهنّ شيئاً إلاّ وجدها كذلك قلت جعلت فداك من أيّ شيءٍ خلقن الحور العين قال عليه السلام: من الجنّة و يرى فخّ ساقيها من وراءٍ سبعين حلّة قلت جعلت فداك ألهنّ كلامٌ يكلّمن به في الجنّة قال نعم كلام يكلّمن به لم يسمع الخلائق بمثله قلت ما هو قال عليه السلام: يقلن نحن الخالدات فلا نموت و نحن النّاعمات فلا نئوس و نحن المقيمات فلا نظعن و نحن الرّاضيات فلا نسخط طوبىٰ لمن خلق لنا و طوبى لمن خلقنا له نحن اللّواتي لو أنّ قرن أحدانا علّق في جوّ السّماء لأغشىٰ نوره الأبصار[١].

و سيأتي الكلام في أوصاف الجنّة و ما أعَدَّه اللّه فيها للمتّقين في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ.



ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

قوله: **ٱلَّذِينَ** بيان للمتّقين كأنّه قيل و من المتّقون قيل الّذين تتوّفاهم الملائكة بقبض أرواحهم حين الموت، طيّبين، أي حال كونهم طيّبين لحسن

١- ج ٣ ص ٣٢٦ ط كمباني

سريرتهم و قيل معناه صالحين بأعمالهم الجميلة و الطَّيب الّذي لا خبث فيه و منه قوله طبتم فأدخلوها خالدين، يقولون سلامٌ عليكم، أي يقولون الملائكة سلامٌ عليكم أدخلوا الجنَّة بما كنتم تعملون، في الدُّنيا جزاءً علىٰ أعمالكم فيها من الطّاعات و يستفاد من هذا الكلام أنّ الإيمان لا يتحقّق إلاّ بالعمل و ذلك لأنّ الجنّة للمؤمنين فلو كان الإيمان عبارة عن مجرّد الإعتقاد لقال تعالىٰ جزاءً بما كنتم تعتقدون و لم يقل ذلك بل قال بما كنتم تعملون، و هو دليلٌ علىٰ أنّ الإعتقاد اذا لم يقرن بالعمل لا خير فيه و بعبارةٍ أخرىٰ أنّ الجنّة جعلت جزاءً للعمل و هو المطلوب.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ ٱللّٰهُ وَ لٰكِنْ كٰانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

وإعلم أنّ اللّه تعالىٰ لمّا طعن الكفّار في القرأن بقولهم أساطير الأوّلين ثمّ أتبع ذلك بوعيدهم و تهديدهم أخبر في هذه الآية أنّ أولئك الكفرة لا يرتدعون عن حالهم إلاّ أن تأتيهم الملائكة بالتّهديد أو أمر اللّه بعذاب الإستئصال فالإستفهام للإنكار أي لا ينظرون و حاصل المعنىٰ في الآية هو أنّ حال هؤلاء الكفّار حال الماضين منهم في عدم الإعتبار بمواضع العبرة و العِناد للحقّ فكما أنّهم لم يعتبروا و لم يتّعظوا بالمواعظ فكذلك هؤلاء طابق النَّعل بالنَّعل و ما ظلمهم اللّه بنزول العذاب عليهم في الدّنيا و الخزي و العقاب في الآخرة و لكن كانوا أنفسهم يظلمون، لأنّهم كانوا قادرين على دفع العذاب من أنفسهم بسبب الإيمان و لكن لم يؤمنوا فوقعوا فيما وقعوا في الدّنيا و الآخرة و هذه الآية صريحةٌ في الإختيار بدليل قوله تعالىٰ: **وَ مٰا ظَلَمَهُمُ ٱللّٰهُ وَ لٰكِنْ كٰانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** و هذا أنّما يصّح اذا كان الإنسان قادراً علىٰ دَفع الظّلم عن نفسه و لا نعني بالإختيار إلاّ هذا.

فَأَصٰابَهُمْ سَيِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

الفاء في قوله: **فَأَصٰابَهُمْ** للتّفريع أي لمّا تبعوا من قبلهم من الكفّار فأصابهم سيّئات ما عمِلوا و ذلك لأنّ سبب العذاب موجود فيهم كما كان موجوداً فيمن قبلهم من الكفّار و وجود السَّبب يستلزم وجود المسبّب و حاق بهم أي أحاط بهم ما كانوا به يستهزؤن أي أحاط بهم جزاء إستهزاؤهم و فيه إشارة الىٰ أنّ الجزاء يترتّب علىٰ نفس العمل و حيث أنّ العمل تحت إختيار الإنسان و قدرته بحيث أن شاء فعل و إن لم يشاء لم يفعل فلا جرم يكون الجزاء أيضاً بيده و تحت قدرته إلاّ أنّ القدرة على العمل تكون بلا واسطة و على الجزاء بواسطة العمل و هذا هو السِّر في قوله تعالىٰ و ما ظلمهم اللّه و لٰكن أنفسهم كانوا يظلمون و من ظلم نفسه لا يلومَّن إلاّ نَفسه و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد.

وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ ٱللّٰهُ مٰا عَبَدْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لاَ آبٰاؤُنٰا وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلاَّ ٱلْبَلاٰغُ ٱلْمُبِينُ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ المشركين أجابوا شركهم و كفرهم و كفر أباءهم باللّه تعالىٰ و رسوله الى اللّه تعالىٰ و قالوا لو شاء اللّه ما عبدنا من دُونه من شئٍ من الأصنام و الأوثان نحنُ و لا أباءنا لأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فلا يقولُ و لا يفعل و لا يعتقد إلاّ بما شاء و أراد اللّه تعالىٰ و قوله: **وَ لاٰ حَرَّمْنٰا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ** أي و لا حرَّمنا من قبل نفوسنا شيئاً فما أشركنا و لا حرَّمنا شيئاً إلاّ بمشيّئة اللّه و اذا كان كذلك فلا ذنب علينا بل الذّنب علىٰ من خلقنا و شاء منّا الشِّرك.

و قوله: **كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** إشارة الىٰ أنّ تلك المقالة الفاسدة لا تنحصر بهم بل قال بها من كان قبلهم من الكفّار و المشركين ثمّ قال تعالىٰ: **فَهَلْ**

عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ الإستفهام للإنكار أي ليس علىٰ الرُّسل إلاّ البلاغ الواضح الذّي لا خفاء فيه إتماماً للحجّة هذا تفسير ألفاظ الآية و البحث في الآية في مسائل:

الأُولىٰ: إنتساب الشّرك الىٰ مشيّئة اللّه.

الثّانية: تقليد الكفّار عن أباءهم في الكُفر.

الثّالثة: وظيفة الرّسول في هذا الباب.

أمّا المسألة الأُولىٰ: لا شكّ أنّ للّه تعالىٰ مشيّئة و إرادة و علمٌ و قدرة الىٰ غير ذلك و هذا يعني أصل وجود المشّيئة فيه تعالى ممّا لا خلاف و كثير من الآيات مصّرحة بها و لم يخالف في هذه المسألة أحد و أنّما الكلام في أنّ المشيّئة فيه تعالىٰ واحدة أو لا و الحقّ أنّ للّه تعالىٰ مشيّئتين.

الأُولىٰ: المشيّئة الحتّمية و قد يعبّر عنها بالفعليّة أيضاً.

الثّانية: المشيّئة العزميّة و قد يقال المشيّئة المشروطة.

أمّا الأُولىٰ: و هى الحتميّة فتختصّ بالتّكوينات بمعنى أنّها لا تتعلّق إلاّ بالإيجاد.

الثّانية: أعني بها العزميّة أو المشروطة فتختصّ بالتّشريعيّات أعني بها التّكاليف المقّررة للعباد في الشّرعيات و الأديان من الوجوب و الحرمة و الإباحة و غيرها، و الفرق بين المشيّئتين أنّ الأولىٰ لا تخلّف فيها فاذا أراد اللّه شيئاً أنّ يقول له كن فيكون.

أمّا الثّانية: فليست كذلك بل هي تابعة لمتعلّقها نفياً و إثباتاً اذا عرفت هذا فنقول:

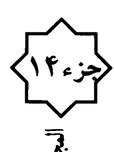
المشيّئة في هذه الآية و نظائرها هي بالمعنىٰ الأوّل ممّا لا كلام فيه عند جميع العقلاء و ذلك لأنّه تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شئٍ فاذا أراد و شاء فعل و عليه فاذا أراد اللّه أن يخلق الإنسان مؤمناً أو كافراً لا مردّ له اذ الأمر في الإيجاد بيَده

و هو علىٰ كلّ شئٍ قدير ألا ترىٰ أنّ اللّه خلق الملائكة للعبادة و نزَّههم عن المعصية و الكفر و شهد في كتابه بأنّهم معصومون عن الذّنب فلو شاء أن يخلق الإنسان كذلك لقدر عليه و لم يقدر أحدٌ علىٰ منعه إلاّ أنّه تعالى لم يرد ذلك بل شاء أن يخلق الإنسان علىٰ ما ترى من إيجاد القدرة على الفعل و التَّرك فيه.

و إن شئت قلت أراد منه العبادة الإختياريّة لا الإضطراريّة و هذا بحسب التّكوين و الإيجاد لا بحث فيه و لا كلام لنا و لا لغيرنا في هذا القسم.

و أمّا بالنّسبة الىٰ التّكاليف الشّرعية كما هي مورد البحث فعلاً فلا يمكن القول بالإيجاد كما في التّكوينيات اذ المَشيّئة فيها ليست حتميّة فعليّة بل هي مشروطة عزميّة و معناها أنّها تابعة لفعل المكلّف فأن فعل الفعل شاء اللّه وإن لم يفعل لم يشاء مثلاً أنّ اللّه تعالىٰ أمَرنا بالصّلاة و الصَّوم و الحجّ و غيرها مِن الأحكام الشَّرعية فأن صلّىٰ العبد و صام و حجَّ شاء اللّه ذلك و إن لم يصلّ و لم يصم لم يشاء اللّه بالمشيّئة الحتميّة إذ لو شاء الصّلاة منه بها أي قهراً و حتماً لخلقه كذلك كما خلق الملائكة و من منعه من خلق الإنسان بحيث لا يقدر على العصيان مختار في فعله و حيث إنّا نرىٰ أنّه لم يجبرنا علىٰ الصّلاة و الصَّوم و معرفة اللّه و هكذا أي لم يخلقنا مجبوراً على الفعل نعلم أنّه تعالىٰ لم يشاء منا العبادة و المعرفة على سبيل الحتم و الجبر و لعمري هذا واضح لا خفاء فيه و العجب من الأشاعرة كيف خلطوا إحدى المشيئتين بالأخرىٰ و لم يقدروا على الفرق بينهما و لم يتوجّهوا أنّ اللّه تعالى كذَّبهم في إدّعاءهم هذا و لو كان ما قالوه حقّاً لمّا كذَّبهم.

قال اللّه تعالىٰ: **سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَ لَآ ءَابَآؤُنَا وَ لَاحَرَّمْنَا مِنْ شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**[١].



١- الأنعام = ١٤٨

فهذه الآية كما ترى تنادي بكذب الأشاعرة وكلّ من قال بمقالتهم أوّلاً فقال كذّب الذّين من قبلهم فهم أيضاً كذلك، و هدّدهم علىٰ مقالتهم ثانياً فقال حتّىٰ ذاقوا بأسَنا و عذابنا و هو دليل علىٰ بطلان القول و أنّه من قبيل الكفر لأنّ البأس و العذاب لا يكون إلاّ على المعصية و فى رأسها الكفر، و حكم بجَهل من قال أو يقول بتلك المقالة.

ثالثاً: بقوله: **هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ** أي هل عندكم علم بما تقولُون و تدَّعون فأن كان لكم علم فتخرجوه لنا، و المقصود أنّكم تقولون بألسنتكم ما لا علم لكم به و من كان كذل فهو يعدّ كاذباً مفترياً علىٰ اللّه.

رابعاً: حكم بأنّهم كانوا يتبعون ظنونهم الفاسدة و أوهامهم الكاذبة في قولهم هذا و مِن المعلوم أنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً بل أنّ بعض الظَّن إثمٌ.

خامساً: حكم عليهم بالخرص و الكذب و قال: **وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ** أي لَستُم إلاّ من الخّراصين الكاذبين الذّين قال تعالىٰ في حقّهم **قُتِلَ الْخَرّٰاصُونَ**(١) و لو لم يكن في رَدِّ هؤلاء الملاحدة إلاّ هذه الآية لكَفىٰ.

و محصّل الكلام هو أنّ الآيات الواردة في القرأن بهذه المضامين و أن كانت كثيرة إلاّ أنّها تحمل على المشيّئة الحتّمية التّكوينية بمعنىٰ أنّه تعالىٰ لو شاء أن يخلق الإنسان مؤمناً أو كافراً لقدر عليه و هذا مسلّم لا كلام فيه لنا إلاّ إنّا نقول أنّه لم يشاء فلم يفعل و لا ربط لها بالتّشريعيات أصلاً و من المعلوم أنّ الإيمان و الشّرك و الطّاعة و العصيان كلّها خارجة عن التّكوينيات بل داخلة في التّشريعيات فالآية و أمثالها أجنبيّة عمّا نحن فيه و هو المطلوب.

و أمّا المسألة الثّانية: و هى تقليدهم عن أباءهم، فنقول:

قد ثبت أنّ التّقليد في الإعتقاديات باطلٌ وأنّ الأمور الإعتقادية لا يجوز بل لا ينبغي التّقليد فيها و ما أقبح بالرّجل العاقل أن يقول أنّا أعبد الصّنم و الوثن و

١- الذاريات = ١٠

الشّمس و القمر و غيرها فاذا سأل عنه قال لأنّ أبائي و أسلافي كانوا يعبدونها مع العلم بأنّ الإنسان جائز الخطأ و اذا جاء الإحتمال بطل الإستدلال بل الحقّ أن يقال أنّه خروج عن طور الإنسانيّة و دخولٌ في الشّهوات النّفسانية و مسالك البهيميّة.

ألا ترى أنّ الحيوانات يتّبع بعضها بعضاً في الطُّرق و الشّوارع فلو كان الإنسان تابعاً لغيره بلا قيد و لا شرط فما الفرق بينه و بين الحيوان الّذي لا عقل له واضح.

و أمّا المسألة الثّالثة: و هى وظيفة الرّسول فلا تحتاج الى بسط الكلام لقوله تعالىٰ: **وَ مَا عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاٰغُ ٱلْمُبِينُ** و المقصود أنّ الرّسول مبلّغ أحكام ربّه الى عباده و أمّا قبول العبد و عدم قبوله فهو خارج عن وظيفته و قدرته لقوله تعالىٰ: **إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ**[1] ولعّل ذكر هذا الكلام في آخر الآية إشارة الىٰ نكتة خفيّة و هى أنّ الكفّار ظنّوا أنّ للرّسول إجبارهم على القُبول فقال تعالىٰ ليس على الرّسول ذلك و الحاصل أنّ الآية تدلّ على أنّ الكفّار لا برهان لهم على كفرهم عقلاً و الى ما ذكرناه من وظيفة الرّسول أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَ ٱجْتَنِبُوا ٱلطّٰاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللّٰهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلاٰلَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ

بيَّن اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنه أرسل في كلّ أمّةٍ من الأمم السّالفة رسولاً كما هو مقتضى قاعدة اللُّطف و أمرهم بشيّئين.

أحدهما: إرشاد الأمّة الىٰ عبادة اللّه.

١- القصص = ۵۶

ثانيهما: الإجتناب عن الطّاغوت فمنهم أي من النّاس من قبل دعوتهم و أجاب و منهم من لم يقبل و أعرض، ثمّ أمر النّاس بالسّير في الأرض و النّظر الى آثار الكافرين المكذّبين للرّسل كيف أهلكهم اللّه بذنوبهم ليعتبر بذلك من يعتبر ففي الآية مباحث نشير اليها إجمالاً.

الأوّل: أنّ قوله: **وَ لَقَدْ بَعَثْنٰا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً** يَستفاد منه أنّ الأرض لا تخلو من حجّةٍ تكويناً و تشريعاً.

أمّا تكويناً فلقول الصّادق عليه السلام: **لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها**، و الحجّة هي الرّسول و بعد الرّسول وصّيه، والوجه فيه أنّ بوجود الحجّة تثبت الأرض و السّماء و ببركة وجودها رزق الورىٰ.

أمّا تشريعاً فلأنّ الإنسان يحتاج الىٰ مُرشدٍ وهادٍ يرشده الىٰ ربّه و يعلمه ما هو خيرٌ له في الدّنيا و الآخرة و فيه كمال اللُّطف من جانب ربّه حيث أنّ خالقه بعد خلقه أيّاه لم يتركه سدىٰ كما قال: **أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسٰانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**[١].

الثّانى: أنّ قوله: **أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ** فيه إشارة بأنّ الأنبياء و الرّسل أنّما بُعثُوا ليدعوا النّاس الى مَعرفة ربّهم وعبادته قال أمير المؤمنين عليه السلام: **فـي وَصـفهم، فأستودعهم في أفضل مستودع، وأقرّهم في خير مستّقرّ تاسختهم كرائم الأصلاب الىٰ مطّهرات الأرحام كلمّا قضىٰ منهم سلف قام منُهم بدين اللّه خلفٌ.**

و أنّما بَعَثهم اللّه الىٰ خَلقه لأنقاذهم الخَلق عن الحيرَة والضّلالة وإرشادهم الىٰ سعادة الدّارين و فيه لَطفٌ عَظيم من الخالق علىٰ المَبعُوث اليهم.

و قد أشار أمير المؤمنين حيث قال في وصف الرّسُول صلّى الله عليه وآله وسلّم: **بعثه و النّاس ضّلال في حيرةٍ و خاطبون في فتنةٍ قد إستهوتهم الأهواء و إستزّلتهم الكبرياء و إستخفتهم الجاّهلية الجهلاء حيارى في**

١- القيامة = ٣٦

زلزالٍ من الأمر و بلاء من الجهل فبالغ ﷺ في النَّصيحة و مضى على الطّريقة و دعا الىٰ الحكمة و الموعظة الحسنة

إن قُلت أن كان الأمر علىٰ هذا المِنوال و أنّ اللّه تعالى بعث أنبياءه الى الخلق ليستنقذوهم من الضّلالة و الجهالة فلم خالَفهم أكثر النّاس و لم يقبلوا قولهم.

قُلتُ أنّما خالفهم من خالفهم لأمرين:

أحدهما: أنّ النّاس أسير الشَّهوات و الأنبياء دعوهم الىٰ ترك الشَّهوات.

ثانيها: جهلهم بفلسفة البِعثة بمعنى أنّهم أي الخلق كانوا جاهلين بها و النّاس أعداءهم ما جهلوا به ألا ترى أنّ الصَّبي يمتنع عن شرب الدَّواء مع أنّه نافعٌ بحاله لجهله و هكذا أكثر النّاس خالفوا الأنبياء لجهلهم.

الثّالث: أنّ قوله تعالىٰ: **وَ ٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ** إشارٌ الىٰ أنّ الغرض من بعث الأنبياء ليس مجّرد معرفة اللّه و عبادته إذ يمكن معرفته و عبادته و عبادة غيره أيضاً بل الغرض هو أن يعرف العبد ربّه و يعبده على أساس المعرفة و يترك ما سواه كائناً ما كان في مقام العبوديّة و بعبارةٍ أُخرى معرفته بأنّه واحد لا شريك له و هو المعبود فقط و لازم ذلك هو الإجتناب عن متابعة الشّيطان فأنّ التّوحيد الخالص لا يحصل إلاّ بترك الغير في مقام الطّاعة و العبادة و قد يعبّر عنه بالتَّبري و المراد بالطّاغوت كلّ من يدعوا النّاس الىٰ غيره تعالى سواء يدعوهم الى غير اللّه و ذلك لأنّ المعبود الحقيقّي الّذي لا معبود سواه هو اللّه تعالىٰ فكلّ موجودٍ يدعوا النّاس الىٰ غير اللّه فهو من مصاديق الطّاغوت و أن كان مصداقه الأتمّ و الأكمل هو الشّيطان و ذلك لأنّ الطّاغوت من الطّغيان و الطّغيان تجاوز الحدّ في العصيان.

و لذلك قال بعض المحقّقين أنّ الطّاغوت عبارة عن كلّ متعدٍّ و كلّ معبودٍ من دون اللّه و يستعمل في الواحد و الجمع و حاصل الكلام أنّ التّوحيد الواقعي يستدعي الإجتناب عن جميع ما سوىٰ اللّه في العبوديّة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّٰغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهٰا وَ أَنٰابُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرىٰ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّٰاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقىٰ لَا ٱنْفِصٰامَ لَهٰا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطّٰاغُوتُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحٰاكَمُوٓا إِلَى ٱلطّٰاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوٓا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ**[٤].

و يظهر من الآيات والأخبار أنّ الطّاعة و الإنقياد في أحكام الشّريعة ممّن لا يدعو الىٰ اللّه لا يجوز فمن تبعه على ذلك فقد عبد الطّاغوت.

الرّابع: قوله **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللّٰهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلٰالَةُ** و في هذا الكلام إشارة الى أنّ النّاس علىٰ صنفين:

صنفٌ منهم يقبلون دعوة الحقّ.

صنفٌ أخر ينكرون على الأنبياء.

فالأوّل: ممّن هداهم اللّه و الأخر ممّن حقّت عليهم الضّلالة فقوله: **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللّٰهُ** ليس معناه أنّه تعالى خلقه للهداية كما أنّ قوله: **فَمِنْهُمْ** مَن حقّت عليه الضّلالة ليس معناه أنّ الّله خلقهم للضّلالة بل مَعناه**إِنّٰا هَدَيْنٰاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمّٰا شٰاكِرًا وَ إِمّٰا كَفُورًا**[٥] فقوله: **مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلٰالَةُ** معناه أنّه بسبب معصيته كان كذلك فأنّ العاصي اذا أصرَّ علىٰ طغيانه وعصيانه فقد حقّت عليه الضّلالة.

الخامس: قوله **فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ**

١- الزّمر = ١٧
٢- البقرة = ٢٥٦
٣- البقرة = ٢٥٧
٤- النّساء = ٦٠
٥- الإنسان = ٣

اَلْمُكَذِّبِينَ ففيه إشارة بل هدايةٌ و إرشادٌ الى أمرٍ محسوسٍ فيه خير الدّنيا و الآخرة و هو الإعتبار في موارد العبرة و ذلك لأنّ النّاس في كلّ زمانٍ على صنفين: مؤمنٌ و كافرٌ، و لكلّ منهما أثارٌ في الأرض بعد موتهم فمن كان مؤمناً بقي منه أثار الايمان و من كان كافراً بَقي منه أثار الكفر و فى كلّ واحدٍ منهما إعتبارٌ للمعتبر و الى هذا المعنى أشار الشّاعر حيث قال:

أنّ أثارنا تَدُّل عَلَينا فأُنظرُوا بَعدنا الىٰ الأثار

و لذلك حثَّ اللّه تعالىٰ في كتابه جميع النّاس الىٰ النّظر الىٰ أثار السّلف ليعتبروا بها.

قال اللّه تعالى: **فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُفْسِدِينَ**[١].

قال اللّه تعالى: **فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّٰا دَمَّرْنٰاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ، فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ**[٣].

قال اللّه تعالى: **وَ أَغْرَقْنَا اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنٰا فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُنْذَرِينَ**[٤] والآيات كثيرة.

■

١- النّمل = ١۴
٢- النّمل = ۵١
٣- الصّافات = ٧٢/٧٣
۴- يُونس = ٧٣

إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَيٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ‹٣٧› وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ‹٣٨› لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ‹٣٩› إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ‹٤٠› وَ ٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ‹٤١› ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ‹٤٢› وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ‹٤٣› بِالْبَيِّنَاتِ وَ ٱلزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ‹٤٤› أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ‹٤٥› أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ‹٤٦› أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ‹٤٧›

◄ اللّغة

إِنْ تَحْرِصْ: الحرص بكسر الحاء فرط الشَّره و فرط الإرادة.

لَنُبَوِّئَنَّهُمْ: مِن تبوأتُ له منزلاً إتّخذته له.

ٱلزُّبُرُ: بضّم الزّاء والباء الكتب.
تَقَلُّبِهِمْ: التّقلب التّصرف.

◀ الإعراب

فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي بفتح الياء علىٰ تسمية الفاعل و لا يهدي، خبر، إنّ و مَنْ يُضِلُّ مفعول يهدي و قد قرئ بضمّ الياء أيضاً و هو شاذّ ٱلَّذِينَ هَاجَرُوا مبتدأ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ الخبر حَسَنَةً مفعول ثانٍ، لنبّوئنهم ٱلَّذِينَ صَبَرُوا في موضع رفع على إضمار، هُم، أو نصب بتقدير أعني بِالْبَيِّنَاتِ الباء تتّعلق، بنوحي بمحذوف تقديره بعثوا بالبيّنات عَلَىٰ تَخَوُّفٍ في موضع الحال من الفاعل أو المفعول في قوله أو يأخذهم.

◀ التّفسير

إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

الخطاب للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول اللّه تعالىٰ لنبيّه إن تحرص يا محمّد على هداهم أي علىٰ أن يؤمنوا و يهتدوا الىٰ طريق الجنّة فهم بسوء إختيارهم لا يرجعون عن كفرهم و اللّه تعالىٰ قد حكم بكفرهم فلا أحد يقدر علىٰ خلاف ذلك.

قال صاحب الكشّاف حرص رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ إيمان قريش و عرفه أنّهم مِن قِسم من حقّت عليهم الضّلالة و أنّه لا يهدي من يضّل، أي لا يلطف بمن يخذل لأنّه عبث و اللّه تعالى متعالٍ عن العبث لأنّه من قبيل القبائح التّي لا تجوز عليه انتهىٰ.

أقول أمّا قوله: **إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ** فهو ممّا لا كلام فيه فأنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان حريصاً على إيمان جميع النّاس و جميع الأنبياء كانوا كذلك

بحسب مراتبهم و الوجه فيه واضح لأنّ النّبي في كلّ زمان أنّما بعث لأن يؤمنوا باللّه و لازم ذلك أن يكون حريصاً على إيمان القوم و هو ممّا لا إشكال فيه لأنّه أدّى وظيفته و الحرص على عمل الخير ممدوحٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**[١].

و يستفاد من الآية أنّ العلّة هي الرّأفة أي أنّه حريص علىٰ إيمانكم لِرأفته و رحمته بكم و أنّه لا يرضىٰ في نفسه أن تدخلوا النّار بسبب الكُفر فأنّ النّبي علىٰ أمّته أشفق و ألطف من الأب في أولاده و قد قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: **أنا وعليٌّ أبوا هذه الأُمّة.**

و أمّا قوله: **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ** فللأشاعرة في هذه الآية و نظائرها أبحاث كثيرة و ذلك لأنّ الأشاعرة القائلين بالجبر أنّما قالوا بالجبر لأنّهم رأوا أنّ هذه الآيات بظاهرها تفيد الجبر و الإضطرار في العمل حيث أنّ اللّه تعالىٰ نسب الضّلالة في العبد الىٰ نفسه لا الىٰ العبد فقال: **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ** أي من يضلّه اللّه و لم يتفطّنوا أنّ نسبة الهداية و الضّلالة الىٰ اللّه أنّما هي بإعتبار الأسباب المؤدّية اليها و حيث أنّ الأسباب مخلوقة له تعالىٰ فكأنّ المسّببات أيضاً مخلوقة له و ليس الأمر كذلك فأنّ وجود المسُّبب عند وجود السَّبب ممّا لابدّ منه و لا مناص لأحَدٍ منه في عالم التّكوين فمن أوجد السَّبب كأنّه أوجد المسبّب و توضيحه إجمالاً.

هو أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان و جعل فيه العلم و الإرادة و الغضب و غيرهما من الصّفات و كلّ هذه الصّفات من أسباب الفعل فأنّ الإنسان يريد الإيمان أو يريد الكفر و لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي أعطاه الإرادة والإرادة سبب لإختيار الكفر و الإيمان و هذا القدر ممّا لا خلاف فيه و أنّما الخلاف في

١- التّوبة = ١٢٨

أنّ اللّه الّذي أعطاه الإرادة أجبره على إختيار الكفر و الإيمان أو أعطاه الإرادة و جعله مختاراً في إختياره أحدهما فالقائل بالجبر يقول بالأوّل و لا دليل له على إثبات مدّعاه بل الدّليل على خلافه و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ أعطاه العقل كما أعطاه الإرادة و الغضب و ليس كلّ ما يريده الإنسان يفعله بل يريد ثمّ يتّفكر فأن حكم العقل بصّحة ما أراد فهو و إلاّ لا يفعل ما أراد.

و محصّل الكلام هو أنّ إيجاد السّبب لا ربط له بإيجاد المسَّبب في الحقيقة لأنّ الإختيار واسطة بين العبد و فعله فنسبة الإضلال اليه تعالىٰ في جميع الآيات تكون على سبيل المجاز بمعنىٰ أنّه ذكر المسَّبب و أراد به السَّبب فمعنى قوله: **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ** أنّ اللّه لا يهدي بالجبر و الإضطرار من يضلّ أي من إختار الضّلالة بسوء إختياره هذا بناء على قراءة الفَتح في الياء في قوله: **يُضِلُّ**.

و أمّا علىٰ قراءة الضَّم فالمعنى أنّ اللّه لا يهدي من أوجد فيه أسباب الضّلالة و الهدى و هو إختار الضّلالة على الهدى بإختياره و إرادته و كان قادراً علىٰ العكس

و قوله: **وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** أي ليس لهؤلاء معينٌ و لا ناصر لا في الدّنيا و لا في الأخرة، هذا.

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

أخبر اللّه في هذه الآية عن هؤلاء الكفّار أنّهم حلفوا باللّه على قدر طاقتهم و جهدهم أنّه لا يحشر اللّه أحداً يوم القيامة لأنّ من يموت لا يصلح أن يحيى فكذّبهم اللّه بقوله بلى، أي أنّه يبعثهم غداً يوم القيامة فأنّه تعالىٰ وعدهم به و أنّه لا يخلف الميعاد و لكنّ أكثر النّاس لا يعلمون، صحّة ذلك لكفرهم و عنادهم.

رأيت في بعض تفاسير العامّة ما هذا لفظه:

و أمّا قول الشّيعة أنّ الإشارة بهذه الآية أنّما هي لعلّى بن أبىطالب و أنّ اللّه سيبعثه في الدُّنيا فسخافة من القول و القول بالرَّجعة باطل و إفتراء علىٰ اللّه على عادتهم ردَّه إبن عبّاس و غيره انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و لقائلٍ أن يقول أين قالت الشّيعة أنّ الإشارة فيها هي لعلّي بن أبي طالب فهذه تفاسير الشّيعة بين أيدينا موجودة و لا نرى ممّا ذكره عينٌ و لا أثر و أمّا القول بالرّجعة فسيأتي الكلام فيها في موضعه و قوله هو إفتراء علىٰ اللّه على عادتهم ردَّه إبن عبّاس و غيره.

نقول في جوابه الإفتراء علىٰ اللّه تعالى ليس عادة الشّيعة فأنّ أوّل من إفترى علىٰ اللّه في الإسلام هو من روى عن رسول اللّه نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ردّاً علىٰ كتاب اللّه:

قال اللّه تعالى: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**(١).

قال اللّه تعالى: **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**(٣).

و غيرها من الآيات ثمّ أنّه فتح باب الإفتراء فإفترىٰ بعده و بعده و بعده الى ما لا يحصى عدده و العجب أنّهم غيَّروا أحكام الإسلام و إبتدعوا في الدّين بما شاءوا و أرادوا و مع ذلك يتّهمون غيرهم بأنواع التُّهم و ليس ذلك إلاّ لقلّة حياءهم و من لا حياء له لا دين له.

ثمّ قال وردَّه إبن عبّاس وغيره، فيقال له و من إبن عبّاس حتّىٰ يستشهد بكلامه و هو كغيره من أحاد العلماء في صدر الإسلام و عليه فإثباته الرّجعة أو نفيها سيّان لا فرق فيهما و سيأتي البحث فيه إن شاء اللّه.

١- الانفال = ٨٥ ٢- النساء = ١١
٣- النمل = ١٦

و الحاصل أنّ الآية نزلت في البعث و أنّه من المسلّمات الّتي لا مجال للشكّ فيه كما سيأتي.

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ

إختلفوا في متعلّق اللاّم في قوله اللاّم في قوله: **لِيُبَيِّنَ** فقال قوم أنّها متّعلقة بالفعل المقدّر بعد، بلى، و التّقدير بلى نبعثهم ليبيّن لهم الّذي كانوا يختلفون فيه في الدّنيا و ذلك كما يقول الرّجل ما ضربت أحداً فيقول، بلى زيداً أي ضربت زيداً و عليه فيعود الضّمير في، يبعثهم المقدّر، و في، لهم، على معنى، من، في قوله من يموت و هو شامل للمؤمنين و الكفّار.

و قال بعض المفسّرين أنّ اللاّم في، **وليُبيّن،** متّعلقة بقوله: **وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا** أي لقد بعثنا في كلّ أمّةٍ رسولاً ليبيّن لهم الّذي يختلفون فيه، الوجه عندي أحسن و أتقن.

أمّا أوّلاً: فلأنّ دار الآخرة ليست بدار تكليفٍ لأنّه تعالى يخلق فيهم العلم الضّروري الّذي يزول معه التّكليف و يزول خلافهم فيه و يعلم كلّ كافرٍ أنّه كان كاذباً في الدّنيا و على هذا فلا معنى الحمل التّبيّن على الآخرة.

ثانياً: أنّ التّقدير خلاف الأصل لا يصار اليه إلاّ لضرورةٍ و لا ضرورةٍ في المقام.

أمّا علىٰ الوجه الثّانى، فالكلام مستقيم لايحتاج الىٰ التّأويل و التّقدير واللّه أعلم.



إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

إعلم أنّ هذه الآية تدلّ على كمال قدرته تعالىٰ و أنّه اذا أراد إيجاد شيءٍ لم يقدر أحدٌ على منعه و لذلك صدّر الكلام بكلمة، إنّما، الّتي تفيد الحصر بمعنىٰ أنّ هذا النّوع من الإيجاد منحصر به تعالىٰ و لا يقدر غيره علىٰ ذلك و

حاصله أنّا إذا أردنا إيجاد شيئ نقول له كن فيكون و قد يعبّر عن كلمة، كن، هذه بكلمة كُن الوجودّية و المقصود أنّه تعالىٰ اذا أراد وجود شيئ فهو يوجد بعد تعلّق الإرادة به و هذه الإرادة هي الّتي لا يتخلّف المُراد عنها أبداً و يعبّر عنها بالإرادة التّكوينية و يقابلها إرادة التّشريعية الّتي قد يتخلّف المراد عنها و قد لا يتخلّف و السِّر فيه هو أنّ الأمر في الإرادة التّكوينية تعلّق بنفس المراد فلا محالة يُوجد لأنّ القدرة كاملة تامّة و المانع مفقود فلا عذر للمراد و هذا كما في تعلّق الأمر الإيجادي بخلق السّموات و الأرض و ما بينهما و هو ظاهر.

و أمّا في الإرادة التّشريعية فالأمر لم يتعلّق بنفس المراد بل تعلّق بما هو سببٌ له و ذلك لأنّ المراد فيها هو فعل الغير ألا ترىٰ أنّ اللّه تعالىٰ يقول: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ، وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ** و هكذا في جميع الأوامر التَّشريعية و الصّلاة و الصّوم و الجهاد فعل الغير فالأمر تعلّق بالمكّلف في الحقيقة.

و أن شئت قلت أنّ اللّه أمر زيداً بأن يصلّي و لم يأمر بإيجاد الصّلاة نفسها اذ هي لا توجد في الخارج بنفسها ليتعلّق الأمر بها اذ ليست الصّلاة إلاّ أمراً منتزعاً عن الأفعال و الحركات المخصوصة المترتّبة وجودها على فاعلها و هكذا الصّوم و الجهاد و غيرهما من التّشريعيات و هذا هو السِّر في جواز تخلّف الإرادة عن المُراد فأنّ المراد اذا لم يكن بنفسه متعلّق الأمر بل يكون متعلّقاً بواسطة الغير فلاجرم قد يتخلّف عن الإرادة و قد لا يتخلّف.

و أمّا الأشاعرة حيث لم يقدروا علىٰ الفرق بين المقامين ظنُّوا أنّ الإرادة في المقامين لا تتخلّف عن المراد فكما أنّ المخلُوق بعد تعلّق الإرادة يوجد قهراً كذلك أفعال العبد من الإيمان و الكفر و الصّوم و الصّلاة و غيرها فعدم وجودها من العبد يكشف عن عدم تعلّق إرادة اللّه بفعلها كما أنّ وجودها منه يكشف عن تعلّق الإرادة من اللّه بها و هذا ظنٌّ فاسد و توَهمٌ باطل لوجود

الفرق بين الإرادتين و لنرجع الىٰ البحث حول الآية في الإرادة التّكوينية فنقول:

إتّفقت الفلاسفة على أنّ الشّيئية تساوق الوجود بمعنى أنّ الوجود شئ و الشّئ وجود فأحد اللّفظين مساوقٌ للأخر قال السّبزواري في منظومته:

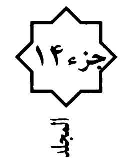
ما ليس موجوداً يكون ليساً قد ساوق الشّئ لدينا أيساً

و الأيس هو الوجود واذا كان كذلك فقوله تعالىٰ: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ** مَعناه أنّما قولنا لوجودٍ اذا أرَدناه أن نقول له كن فيكون، و هل هذا إلاّ من تحصيل الحاصل و بعبارةٍ أخرى الخطاب أن كان للمعدوم فهو محال لعدم تعلّق الخطاب بما هو معدُوم و لا وجود له مضافاً الىٰ أنّ الشّئ لا يطلق عليه و أن كان للموجود كما هو معنىٰ الشّئ فهو من تحصيل الحاصل و هو كما ترىٰ.

والجواب: أنّ هذه الألفاظ أعني بها كلمة الشّئ، و كلمة **كُن** و كلمة **فيَكُون** كلّها تمثيلات و تشبيهات من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريب المعنى الىٰ ذهن المستمع بسبب هذه الألفاظ و إلاّ فليس هناك لفظ أصلاً اذ من المعلوم أنّ اللّه تعالىٰ لا يقول، كن، مثلاً فأن التّلفظ بهذه الحروف الّتي تأديتها لابدّ من أن تكون باللّسان معتمداً على مقطع الفم لا يعقل في حقّه تعالىٰ و هو ظاهر.

قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في نهج البلاغة ما هذا لفظه:

لَيْسَ فِى الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ وَلاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ يُخْبِرُ لاَ بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ وَيَسْمَعُ لاَ بِخُرُوقٍ وَأدَوَاتٍ يَقُولُ وَلاَ يَلْفِظُ وَيَحْفَظُ وَلاَ يَتَحَفَّظُ وَيُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ يَقُولُ لِمَا أرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ وَإنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ اَنْشَاَهُ وَمَثَّلَهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ اِلٰهاً ثَانِياً الىٰ أخر الخطبة[١].



١- خ ١٨٦

و قد بسطنا الكلام في شرح هذه الكلمات بما لا مزيد عليه في شرحنا المبسوط علىٰ نهج البلاغة و لم أر أحداً من الفلاسفة تكلّم بهذه الكلمات و فسرّ الآية بهذا النّمط كيف و هو كلام من قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فيه **أنا مَدينة العِلم وعَلّيٌ بابها.**

فقوله علیه السلام: لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ وَاِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ اَنْشَاهُ وَمَثَّلَه.

جوابٌ عن أصل الإشكال و لا يحتاج الىٰ التّفسير والتّوضيح.

ٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

الهجر و الهجران في الأصل مفارقة الإنسان غيره أمّا بالبدن أو باللّسان أو بالقلب و المهاجرة في الأصل مصارمة الغير و متاركته و قوله في اللّه إشارة الىٰ أنّ المهاجرة قد تكون لغير اللّه و فى غير سبيل اللّه و هو معلوم فأنّ أكثر المهاجرين بل كلّهم إلاّ ما شذَّ و نذر تكون هجرتهم من مكانٍ الىٰ مكانٍ أخر أو من بلدٍ الىٰ بلدٍ أخر لأجل أغراض و أهداف خاصّة.

و في قوله: **مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** إشارة الىٰ أنّ المهاجر عن وطنه مثلاً تارةً يكون مظلوماً فيه و لأجل ذلك يترك وطنه و أخرى لا يكون كذلك و أن كانت مهاجرته لِلّه و فى اللّه و ذلك كما نرىٰ في حال المهاجرين في صدر الإسلام لمّا هاجروا من مكّة الىٰ المدينة فمنهم من كان مظلوماً في مكّة مثل عمّار بن ياسر و منهم من لم يكن كذلك كأكَثر المهاجرين و لذلك قيل أنّ الآية نزلت في حقّ المظلومين من المهاجرين الذّين كانوا معذّبين في مكّة ففيهم قال تعالىٰ: **لَنُبَوِّئَنَّهُمْ** أي لنحسننّ اليهم أو لنعطينَّهم في الدّنيا حسنة يقال بوَّأت للرّجل منزلاً هيأته له أو مِن تبوأت له منزلاً إتَّخذته له و أصله الرّجوع من باء اذا رجع و

سمّي المنزل مباًة لكون صاحبه يرجع اليه اذا خرج منه و مثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم:
مَن كذَّب علّي متعمّداً فليتَّبوأ مقعده من النّار.

و قال بعضهم لنبَّوئنهم حسنة أي مباًة حسنة و كيف كان فالمعنى واضح و هو أنّ المهاجرين المظلومين الّذين هاجروا بعد ما ظلموا لنعطينّهم في الدّنيا حسنة و لأجر الآخرة أكبر من أجر الدّنيا لو كانوا يعلمون.

قال قتادة نزّلت الآية في مُهاجري أصحاب الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنّهم كلّهم كانوا مظلومين في مكّة و عن إبن عبّاس نزلت في صهيب و بلال و حباب بن الأرت و أظربهم عذّبهم المشركون بمكّة فبّوأهم اللّه المدينة و قيل نزلت في الّذين هاجروا الىٰ أرض الحبشة والّذي نقول هو أنّ نزول الآية و أن كان في حقّ هٰؤلاء المهاجرين إلاّ أنّ المعنىٰ المراد منها عامٌّ لا يختصّ بهم فأنّ الآية بصدد بيان حكم كلّي و هو أنّ المهاجر في اللّه أي في طريق طاعة اللّه حفظاً لدينه حكمه كذا ففي قوله: **فِى ٱللَّهِ** إشارة الىٰ إخلاص العمل له و من هاجر لغير اللّه هجرته لما هاجر اليه.

و أمّا الضّمير في قوله: **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.**

قيل أنّه عائد علىٰ الكفّار أي لو كان للكفّار علمٌ بأنّ اللّه يجمع لهٰؤلاء المستضعفين المظلومين في أيديهم، خير الدّنيا والآخرة لرغبوا في دينهم و تركوا الظُّلم عليهم و قيل يعود على المؤمنين أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في إجتهادهم و صبرهم كما قال تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** و عليه فالتّقدير هم الّذين صبروا و أعني الّذين صبروا على العذاب و مفارقة الوطن و فراق الأحّبة و هذا أي عود الضّمير على المؤمنين المهاجرين هو الحّق لأنّ الآية نزلت تسليةً لهم فكأنّ اللّه تعالىٰ سلاّهم بذلك بشرطين:

أحدهما: أن يصبروا علىٰ الأذى و مفارقة الوطن.

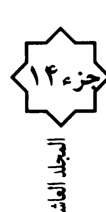
ثانيهما: أن يتوكّلوا على اللّه فمن لم يصبر و لم يتوكّل ليس له ما ذكر في الآية من الخير.

وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

قيل نزلت الآية في مشركي مكّة حيث أنكروا نبوّة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وقالوا اللّه أعظم أن يكون رسوله بشراً فهلاّ بعث إلينا ملكاً.

فقال تعالىٰ: (لِنَّبيه إنّا لم نرسل من قبلك إلاّ رِجالاً أمثالك من البشر و ليس من دأبنا أن نرسل ملكاً إليهم لعدم السَّنخية بين المبعوث و المبعوث اليهم حينئذٍ فأنّ الملك لا يأنس بالبشر و البشر لا يأنس بالملك و إذا إنتفت السَّنخية إنتفت فائدة البعثة).

فقولهم هذا دليل علىٰ جهلهم و حماقتهم أو عنادهم للحّق و لذلك أمرهم بالسّؤال عن أهل الذّكر في صورة الجهل و المراد بأهل الذّكر قيل علماء اليهود و الذّكر هو التّوراة بدليل قوله: **وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ** و قيل المراد بأهل الذّكر أهل الكتاب من اليهود و النّصارىٰ و قيل المراد أهل القرآن و قيل المراد أهل العلم بأخبار الماضيين سواء كانوا من أهل الإيمان أم كانوا كفّاراً و لذلك قال: **بِالْبَيِّنَاتِ وَ ٱلزُّبُرِ** أي بالدّلالات الواضحات و الكتب المنزلة و الزُّبر الكتب واحدها زبور و عليه فقوله: **بِالْبَيِّنَاتِ وَ ٱلزُّبُرِ** متعلّقٌ بأهل الذِّكر



و قال بعض المفسّرين أنّ قوله: **بِالْبَيِّنَاتِ وَ ٱلزُّبُرِ** متعلّق بمضمر يدلّ عليه ما قبله كأنّه قيل بم أرسلوا.

قال: (أَرسَلناهم بالبَّينات والزُّبر) و قيل أنّ الذِّكر بمعنى العلم و التقدير فأسئلوا أهل العلم بالبَّينات و الزُّبر أن كنتم لا تعلمُون.

و قيل أنّ التّقدير في الآية، أن كنتم لا تعلمون بالبيّنات و الزُّبر فأسئلوا أهل الذِّكر و أمّا قوله: **وَ أَنْزَلْنآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.**

فالمراد بالذِّكر في الآية هو القرآن و منه يظهر أنّ الذِكر يطلق على جميع الكتب السّماوية من التّوراة و الإنجيل و الزَّبور و القرآن فقوله في الآية السّابقة فأسئلوا أهل الذّكر أي علماء الأمم و أمّا في هذه الآية فالمراد به القرآن بقرنية الحال لأنّ الخطاب للرّسول و من المعلوم أنّ الكتاب المنزل عليه هو القرآن فى قوله: **لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** فاللاّم للتّعليل.

و قيل لام العاقبة و الأوّل أولى لأنّ علّة الإنزال هي بتبيين ما فيه للنّاس من الأحكام من العبادات و المعاملات و النّكاح و الطّلاق و الإرث و غيرها.

و إنّما قال تعالىٰ في صدر الكلام و أنزلنا اليك ثمّ قال لتبيّن للنّاس ما نزّل اليهم و لم يقل ما نزّل اليك للإشارة الى أنّ القرآن أنزله اللّه علىٰ رسوله لأجل تبيين أحكامه للنّاس كما أنّ الرّسول إنّما بعث اليهم فالقرآن و إن أنزل ظاهراً على الرّسول إلاّ أنّه نزّل واقعاً لهداية النّاس و إرشادهم الى سعادة الدّارين إلاّ أنّ الرّسول واسطة بين الخالق و المخلوق و لذلك قال تعالىٰ: **وما عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاغُ** ثمّ أنّ التّبيين بعد الرّسول وظيفة خليفة الرّسول و وصّيه و بعدهما وظيفة العلماء الّذين قال رسول اللّه فيهم العلماء و ورثة الأنبياء و من المعلوم أنّ تبيين الأحكام للنّاس بعد العلم بها فأنّ الجاهل بالحكم كيف يبيّن الحكم فكما أنّ الرّسول كان عالماً بأحكام القرآن بتمامها و كمالها ينبغي أن يكون وصّيه أيضاً كذلك و إلاّ يلزم تعطيل الأحكام أو إيقاع النّاس في الضّلالة و كلاهما خلاف المقصود من البعثة و إنزال الكتاب لإنتفاء التّبيين في صورة جهل الوصّى بالأحكام و هذا أحد الدّلائل على أنّ الوّصي لابدّ من أن يكون أعلم النّاس بالقرآن بعد الرّسول و لا شكّ عند المخالف المنصف و الموافق

أنّ أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب كان أعلم النّاس بالفرائض و السُّنن بعد رسول اللّه و قد شهد بذلك كلّ منصفٍ غير معاندٍ وصيّه لا غير كما.

قال الشّاعر في ذلك في صدر الإسلام:

جامع وحي اللّه إذ فرّقه | مِن رام جمع آية فما ظَبط
أشكله لشكله بجهله | فأستعجمت أحرفه حين نقط

و قال الأخر في جمع القرآن:

لمّا رآىٰ الأمر قبيح المَدخل | حَرَّد في جمع الكتاب المُنزَل

و قال الصّاحب:

هل مثل جمعك للقرآن تَعرفه | نظماً و معنىً و تأويلاً و تبييناً

و قال الأخر:

حبرُ عليمُ بالّذي هو كائنُ | واليه في علم الرّسالة يرجع
أصفاه أحمد من خفّي علومه | فهو البطين من العلوم الأنزع

فقوله: **وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** لا يَبعُد أن يكون إشارة الىٰ ما ذكرناه و اللّه أعلم.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ

قال الزّمخشري في قوله: **مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ** أي المكرات السّيئات و إنّما قال ذلك لأنّ السّيئات جمع سيّئة و الصِّفة لابدّ لها من مطابقتها للموصوف و به قال المفسّرون بعده.

أنا أقول لا يبعد أن يكون تقدير الكلام بالسّيئات و إنّما حذفت من اللّفظ لدلالة الكلام عليه وإذا كان كذلك فلا حاجة الى تقدير المكرات و كيف كان فمعنى الآية أنّ هٰؤلاء الكفّار الّذين مكروا السّيئات أعمالهم و هم أهل مكّة برسول اللّه أفأمنوا و أطمّأنوا من عذاب اللّه بأن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، كما فعل بقوم لوط و

غيرهم و من المعلوم أن الإستفهام إنكاريّ أي ليس كذلك و الأمن في الأصل طمأنينّة النّفس و زوال الخوف، و الأمن و الأمانة و الأمان في الأصل مصادر و أنّما قال تعالىٰ: **أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ** علىٰ سبيل الإنكار لأنّ العقل يحكم بأن المذنب خائف و حيث أنّهم مكروا برسول اللّه و هو من أفحش المعاصي و أقبحها فكيف يكونون أمنين من العذاب ألم يعلموا أنّ إيذاء الرّسول هو إيذاء اللّه بعينه و اللّه تعالىٰ شاهد و ناظرٌ علىٰ أعمالهم فكيف أمنوا من عذابه.

ثمّ أشار اللّه تعالىٰ الى أنواع العذاب و قال أن يخسف بهم الأرض يقال خسف اللّه به الأرض خسوفاً أي غاب به فيها و منه قوله تعالىٰ في قارون **فَخَسفنٰا بِه وَ بِداره الْأَرض** و قيل الخسف بلع الأرض المخسوف به و قوله: **أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ** إشارة الى أنواع العذاب فأنّ العذاب لا ينحصر بالخسف و قد أهلك اللّه الكفّار بأنواع العذاب كالغرق في قوم نوح و فرعون.

و الصَّيحة في قوم لوط و أصحاب الأيكة و قوم شعيب و قوم صالح و هكذا الآية تنبيهٌ علىٰ أنّ الإنسان ينبغي أن لا يكون غافلاً عمّا يعمل فأن الغفلة منشأ الشّرور و الآفات و هذا لا يختصّ بالكفّار في صدر الإسلام بل هو حكمٌ عامّ صدر من اللّه تعالىٰ في عباده و هو ثابتٌ لا يتغيّر أبداً.

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ

أي في أسفارهم و تصّرماتهم أو في منامهم و قيل في ليلهم و نهارهم أي حالة ذهابهم و مجيئهم فيهما، يأخذهم العذاب في مكرهم و حيلهم.

و قال الزّجاج يأخذهم العذاب في جميع ما يتقلّبون فيه فيما هم بمعجزين أي فما هم بسابقين اللّه و لا فائيته والمراد بالأخذ هنا الإهلاك كقوله: **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ**[١].

١- العنكبوت = ٤٠

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ

يعني يأخذهم العذاب على تَخَوفٍ أي على تنَّقصٍ من أموالهم و مواشيهم و زروعهم و قيل على تنَّقصٍ من الأموال و الأنفس و الثّمرات حتّى أهلكهم كلّهم و قيل هو من الخوف و المعنى يأخذ طائفة و يدع طائفة فتخاف الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها.

و قال الحسن، على تَخَّوفٍ، أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى هذه كلماتهم حول التَّخوف.

أقول الذّي ظهر لي من الآية أنّ التَّخوف يقابل الأمن في قوله: **أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ** فأنّ الخوف ضدّ الأمن.

قال في المفردات الخوف توّقع مكروه عن إمارةٍ مظنُونةٍ أو معلومةً كما أنّ الرّجاء و الطَّمع توَّقع محبوبٍ عن إمارةٍ مظنونة أو معلومة و يضّاد الخوف الأمن الى أن قال في أخر كلامه، و التَّخوف ظهور الخوف من الإنسان انتهى.

و عليه فقوله: **عَلَىٰ تَخَوُّفٍ** إشارة الى ظهور الخوف منهم فالآية من حيث المعنى مرتبيطة بما قبلها و المعنى أفأمن الذّين مكروا السّيئات أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب، أي حال كونهم أمنين، أو يأتيهم العذاب في تقلُّبهم، أو يأتيهم العذاب على تخَّوفٍ أي بعد ظهور الخوف منهم و الحاصل أنّ جزاء الماكر العذاب في جميع الأحوال و لا فرق في نزول العذاب بين الأمن و الخوف و التَّقلب، فالمراحل ثلاثة: مرحلة الأمن، مرحلة التَّقلب، مرحلة الخوف.

فالتَّقلب مصدر باب التَّفعل و هو لازم بخلاف التَّقليب الذّي هو مصدر باب التَّفعيل و هو متَّعدٍ فاذا قيل، فلان يتّقلب، معناه أنّه يتَّصرف في الشّئ و اذا قيل فلانٌ يقلَّب معناه أنّ يقلّب الأمر أي يجعله على خلاف ما كان عليه، و الّله تعالى لم يقل في تقلّيبهم بل قال في تقَّلبهم و عليه فمعنى الكلام في تصَّرفهم

فقولهم على تنَّقصٍ من أموالهم لا يساعده اللّغة و لا العرف، و توضيح ذلك إجمالاً.

هو أنّ المأمون من العذاب بزعمه يتَّصرف في أموره من المكر و الحيلة أي يديم على مكره لزعمه أنّه مأمونٌ من العذاب ثمّ يظهر أثار العذاب على خلاف تصَّوره فيظهر فيه الخوف و لا فائدة فيه، فيأخذه العذاب في حالاته الثّلاثة، حالة الأمن و حالة التَّصرف و الإشتغال و حالة ظهور الخوف هذا ما فهمنا من الآيات.

و في قوله: **فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** إشارة الى مقام رأفة اللّه و رحمته بالنّسبة الى عباده و أنّه تعالى لا يظلمهم بل كانوا أنفسهم يظلمون، فأن تابوا و رجعوا عمّا كانوا عليه من المكر و إيذاء النّبي شملتهم الرَّحمة و الرَّأفة و هو واضح لأنّ اللّه تعالى لم يخلق الخلق للعذاب بل خلقهم لتحصيل الكمال و المعرفة.

■

أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلٰى مٰا خَلَقَ ٱللّٰهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ ٱلشَّمٰآئِلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَ هُمْ داٰخِرُونَ ﴿۴۸﴾ وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ داٰبَّةٍ وَ ٱلْمَلآٰئِكَةُ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿۴۹﴾ يَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ ﴿۵۰﴾ وَ قٰالَ ٱللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوٓا إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمٰا هُوَ إِلٰهٌ واٰحِدٌ فَإِيّٰاىَ فَارْهَبُونِ ﴿۵۱﴾ وَ لَهُ مٰا فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لَهُ ٱلدِّينُ واٰصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللّٰهِ تَتَّقُونَ ﴿۵۲﴾ وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللّٰهِ ثُمَّ إِذاٰ مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿۵۳﴾ ثُمَّ إِذاٰ كَشَفَ الضُّرَّ عَـنْكُمْ إِذاٰ فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿۵۴﴾ لِيَكْفُرُوا بِمٰآ اٰتَيْناٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿۵۵﴾ وَ يَجْعَلُونَ لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمّٰا رَزَقْناٰهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿۵۶﴾ وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ ٱلْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَ لَهُمْ مٰا يَشْـتَهُونَ ﴿۵۷﴾ وَ إِذاٰ بُشِّـرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثٰى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ ﴿۵۸﴾ يَتَواٰرٰى مِنَ ٱلْقَوْمِ مِنْ سُوٓءِ مٰا بُشِّرَ بِهِۤ أَيُمْسِكُهُ عَلٰى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّراٰبِ أَلاٰ سٰآءَ مٰا يَـحْكُمُونَ ﴿۵۹﴾ لِـلَّذِينَ لاٰ يُـؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَ لِلّٰهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلٰى وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿۶۰﴾

◀ اللّغة

يَتَفَيَّؤُا: من الفيئ و هو الرّجوع يقال فاء الظلّ اذا رجع.
ظِلالُهُ: الظّلال جمع ظلّ.
الشَّمائِلِ: جمع شمال.
داخِرُونَ: أي خاضعون يقال دَخَر دَخراً اذا ذلّ و خضع.
دابَّةٍ: كلّ ما يدّب على الأرض.
فَارْهَبُونِ: الرّهب الخوف.
واصِباً: الوصب الألم و قيل معناه الشّدة و التّعب.
تَجْئَرُونَ: أي تضّرعون.
يَتَوارى: التّواري الإختفاء يقال يتوارى من القوم أي يختفى.
هُونٍ: الهون بفتح الهاء الرّفق.
يَدُسُّهُ: الدّس الدّفن في التّراب.

◀ الإعراب

أَوَ لَمْ يَرَوْا يقرأ بالياء و التّاء و قبله غيبة و خطاب يصحّحان الأمرين يَتَفَيَّؤُا بالياء و التّاء فمن قرأ بالتّاء فهي على تأنيث الجمع الذّي في الفاعل و من قرأ بالياء لأنّ التّأنيث غير حقيقي عَنِ الْيَمِينِ وضع الواحد موضع الجمع و عن حرف جرٍّ موضعها نصب على الحال وَ الشَّمائِلِ جمع شمال سُجَّداً حال من الظّلال وَ هُمْ داخِرُونَ حال من الضّمير في سجّداً مِنْ فَوْقِهِمْ حال من ربّهم اثْنَيْنِ هو توكيد واصِباً حال من الدّين وَ ما بِكُمْ ما بمعنى الّذي و الجار صلته من نِعْمَةٍ حال من الضّمير في الجارّ فَمِنَ اللّٰهِ الخبر إِذا فَرِيقٌ هو فاعل لفعل محذوفٍ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ ما، مبتدأ و، لهم، خبره وَ هُوَ كَظِيمٌ حالٌ من صاحب الوجه يَتَوارى حال من الضّمير في كظيم أَيُمْسِكُهُ في موضع الحال عَلى هُونٍ حال.

◀ التّفسير

أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلىٰ ما خَلَقَ ٱللّٰهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَ ٱلشَّمٰآئِلِ سُجَّدًا لِلّٰهِ وَ هُمْ داٰخِرُونَ.

الظّاهر أنّ المراد بالرُّؤية هو الرُّؤية بالبصر و الإستفهام للإنكار أي بل يرونه بأعينهم.

قرأ حمزة و الكسائي **أَوَ لَم تَرَوا** بالتّاء على أنّ الخطاب لجميع النّسا و الباقون بالياء و عليه المصاحف، خبراً عن الذّين يمكرون السّيئات و هو المختار فمعنى الآية أو لم يروا هؤلاء الّذين مكروا السّيئات الى ما خلق اللّه من شيءٍ، أي من جسمٍ قائم له ظلّ من شجرة أو جبل أو غيرهما من الأجسام القائمة و يتَّفيئوا ظلاله، أي يرجع عن اليمين و الشّمال سجّداً للّه و هم داخرون أي خاضعون متّذللون في جنب عظمة اللّه تعالى.

و قال بعضهم الرُّؤية هنا رؤية القلب الّتي يقع بها الإعتبار و لكنّها بواسطة رؤية العين و الإستفهام هنا معناه التّوبيخ و قيل معناه التّعجب و التّقدير تعجّبوا من إتّخاذهم مع اللّه شريكاًو قد رأوا هذه المصنوعات الّتي أظهرت عجائب قدرته و غرائب صنعه مع علمهم بأنّ آلهتهم الّتي إتّخذوها شركاء لا تقدر على شيءٍ ألبّتة و الجملة من قوله: **يَتَفَيَّؤُا** فى موضع الصّفة و هو قول الحوفي و ظاهر قول الزّمخشري، و قيل قوله: **مِنْ شَىْءٍ** لفظٌ عامّ في كلّ ما إقتضته الصِّفة في قوله: **يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ** لأنّ ذلك صفلة للعبرة في جميع الأشخاص الّتي لها ظلّ.

و قال الزّمخشري، ما، موصولة بخلق و هو مبهم بيانه، من شئ يتّفيؤ ظلاله و قال غير هؤلاء، المعنى من شيءٍ له ظلّ من جبلٍ و شجرٍ و بناءٍ و جسمٍ قائم و قوله: **يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ** إخبار عن قوله: **مِنْ شَىْءٍ** وصفٌ له و هذا الإخبار يدّل على ذلك الوصف المحذوف الّذي هو له ظلّ و يتّفيؤا من الفيءِ و هو الرّجوع

لازم فإذا عدّى فبالهَمزَة كقوله تعالى: **وَ مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ**(١) و بالتّضعيف نحو فيّأ اللّه الظِّل و قد إستعمله أبو تمام متعدياً حيث قال:

طلبت ربيع ربيعة الممهي لها و تــفيأّت ظــلالها مــمدوداً

و قال الأزهرى: تفيّؤا الظّلال رجوعها بعد إنتصاف النّهار فالتّفيّؤ لا يكون إلاّ بالعشي و ما إنصرفت عنه الشّمس و الظلّ ما يكون بالغداة و هو ما لم تنله، قال الشّاعر:

فلا الظلّ من برد الضحّى تستطيعه و لا الفــيء مـن بـرد العشّـي تـذوق

و قيل، ما كانت عليه الشّمس فزالت عنه فهو فيئ و ما لم تكن عليه فهو ظلّ، و المشهور أنّ الفيئ لا يكون إلاّ بعد الزّوال، و الإعتبار في هـذه الآيـة مـن أوّل النّهار الى آخره فمعنى يتفيّؤا ينتقل و يميل و أضاف الظّلال و هـى جـمع الى ضمير مفرد لأنّه ضمير، ما، و هو جمع من حيث المعنى لقوله تعالى: **لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ**(٢).

أن قلت ماالمراد باليمين و الشّمائل ثمّ ما الحكمة فى افـراد اليـمين و جـمع الشّمائل.

قلت أمّا الأوّل فقالوا يمين الفلك و هو المشرق و شماله هو الغرب و خصّ هذان الإسمان بهذين الجانبين لأنّ أقـوى جـانبي الإنسـان يـمينه و مـنه تـظهر الحركة الفلكيّة اليوميّة آخذةً من المشـرق الى المـغرب لا جـرم كـان المشـرق يمين الفلك و المغرب شماله فـعلى هـذا نـقول الشّـمسس عـند طـلوعها الى وقت إنتهاءها الى وسط الفلك يقع الظّلال الى الجانب الغربي فأن إنحدرت من وسط الفلك عن الجانب الغربي وقعت الظّلال في الجانب الشّرقي فهذا المراد من تفيّؤا الظّلال من اليمين الى الشّمال.

و أمّا الجواب عن الثّانى: أعني به إفراد اليمين و جـمع الشّـمائل، فـاليمين

١- الحشر = ٦ ٢- الزخرف = ١٣

بمعنى الإيمان فجعله و هو مفرد بمعنى الجمع فطابق الشّمائل من حيث المعنى كما قال تعالى: **وَ يُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ**(١) يريد الإدبار.

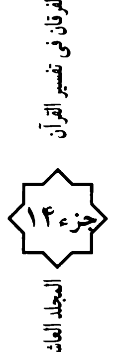
و قال الفرّاء كأنّه إذا وجد ذهب الى واجد من ذوات الظّلال و إذا جمع ذهب الى كلّها لأنّ قوله: **مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** لفظه واحد و معناه الجمع فعبّر عن أحدهما بلفظ الواحد:

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَ ٱلنُّورَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ**(٣).

و قيل إذا فسّرنا اليمين بالمشرق وكانت النقّطة الّتي هي مشرق الشّمس واحدة بعينها فكانت اليمين واحدة و أمّا الشّمائل فهي عبارة عن الإنحرافات الواقعة في تلك الظّلال بعد وقوعها على الأرض و هى كثيرة فلذلك عبّر عنها بصيغة الجمع و الأقوال في الباب كثيرة و أحسن الأقوال أن يقال إفرد و جمع بالنّظر الى الغايتين، اللّفظ و المعنى، لأنّ ظلّ الغداة يضمحّل حتّى لا يبقى منه إلاّ اليسير فكأنّه في جهةٍ واحدة و هو بالعشّي على العكس لإستيلائه على جميع الجهات هذا من جهة المعنى.

و أمّا من جهة اللّفظ فلأجل المطابقة لأنّ سجداً جمعٌ فطابقه جمع الشّمائل لإتّصاله به فحصل في الآية مطابقة اللّفظ للمعنى و لحظهما معاً و تلك الغاية في الإعجاز و لنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول: **أَوَ لَمْ يَرَوْا** هؤلاء الكفّار، بناء على قراءة الياء أو، أولم تروا، فالخطاب لجميع النّاس بناء على قراءة، التّاء الى ما خلق اللّه و أوجده من شئ، أيّ شئ كان من الأجسام، يتفيّؤا أي يرجع، ظلاله عن اليمين و الشّمائل أي في أوّل النّهار و آخره **سُجَّدًا لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ** معناه خاضعة للّه ذليلة بما فيها من الدّلالة على الحاجة



١- القمر = ٤٦
٢- الانعام = ١
٣- البقرة = ٧

الى واضعها و مدبّرها بما لولاه لبطلت و لم يكن لها قوام طرفة عينٍ فهي في ذلك كالسّاجد الخاضع بفعله فأنّ منشأ الخضوع الإحتياج و المخلوق محتاج الى خالقه في جميع شئونه فلا محالة يكون خاضعاً لربّه تكويناً أو تشريعاً علم بذلك أو لم يعلم فأنّ الخضوع للمخلوق قهريّ لا مناص له عنه.

ثانياً: التّغيير في الظلّ في أوّل النّهار و آخره دليل على حدوثه لأنّ كلّ متّغيرٍ حادث وكلّ حادثٍ محتاج الى محدث لأنّ الحادث ممكنٌ و الممكن نسبته الى الوجود و العدم على حدٍّ سواء فلابدّ له في خروجه عن حدّ الإستواء الى موجود آخر و هو أن كان حادثاً أيضاً يلزم التّسلسل و إذا لم يكن حادثاً فهو قديم إذا الموجود منحصر بهما أعني القديم و الحادث فإذا إنتفىٰ الحدوث وجب القدم و هو المطلوب.

ثالثاً: أنّ الظلّ تزيد و تنقص و هذه الحركة فيه محتاج الى محرّكٍ خارج عن ذاته إذ لو كان المتّحرك هو ذات المتّحرك فكانت حركاته الى جهة واحدة إنّا نرى التّفاوت و التّغاير، في الحركات نعلم أنّ له محّركاً آخر يحّركه كيف يشاء و هو اللّه تعالى إذا علمت هذا فما أقبح بالإنسان الّذي أعطاه اللّه العقل أن لا يخضع لربّه و يتّخذ له شريكاً في إلٰهيّته و يتّكبر عن عبادته و يعبد الوثن و الصَّنم و الشَّمس و القمر و غيرها و لا يعبد ربَّه و الى هذا السّر أشار اللّه تعالىٰ في هذه الآية فكأنّه قال إذا كان الجماد خاضعاً لربَّه تكويناً فما بالك أيّها الإنسان أن لا تكون خاضعاً مطيعاً و أنت ترى خضوع الجمادات له و لذلك قال بعد ذلك.

وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ دٰآبَّةٍ وَ ٱلْمَلآٰئِكَةُ وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ

قال الزّمخشرى، في تفسير الآية ما هذا لفظه قوله: **مِنْ دٰآبَّةٍ** يجوز أن يكون بياناً لما في السّموات و ما في الأرض جميعاً على أنّ في السّموات خلقاً للّه

يدّبون فيها كما يدّب الإناسي في الأرض و أن يكون بياناً لما في الأرض وعده و يراد بما في السّموات الخلق الّذي يقال له الرُّوح أو يراد بما في السّموات الملائكة و كرَّر ذكرهم على معنى و الملائكة خصوصاً من بين السّاجدين لأنّهم أطوع الخلق و أعبدهم و يجوز أن يراد بما في السّموات ملائكتّهن و بقوله و الملائكة ملائكة الأرض من الحفظة و غيرهم إنتهى موضع الحاجة من كلامه و عندي فيه نظر.

و هو أنّ قوله: **مِنْ دٰآبَّةٍ** وقع بعد ما في الأرض فهو بيان، لما، في ما في الأرض من فقط و ليس بياناً، لما، في السّموات ليقال أنّ فيها خلقاً للّه يدّبون فيها و إنّما قلنا ذلك أمّا أوّلاً فلأنّ الأقرب يمنع الأبعد.

ثانياً: بقرنيّة السّياق إذ من المعلوم أنّ في السّموات ليس ما يدُّب فيها لأنّها مأوى الملائكة فقط و أمّا سائر الإحتمالات الّتي ذكرها فهي أيضاً لا دليل عليها من العقل و النَّقل و إنمّا هي من مستنبطاته الشّخصية و أعجب من ذلك ما قاله في الفرق بين، ما و من، و أنّه لم جئ، بما، في الآية دون، من، فقال: **لِلّٰهِ يَسْجُدُ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ** و لم يقل من يسجد تغليباً للعقلاء من الدّواب على غيرهم فقال ما لفظه.

قلت لأنّه لو جئ بمن، لم يكن فيه دليل على التّغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصّة فجئ بما هو صالح للعقلاء و غيرهم إرادة العموم انتهى كلامه.

و لقائلٍ أن يقول لم لم يكن فيه دليل على التّغليب و كان متناولاً للعقلاء خاصّة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ وَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ وَ ٱلنُّجُومُ وَ ٱلْجِبٰالُ وَ ٱلشَّجَرُ وَ ٱلدَّوَآبُّ**[2].

١- الرّعد = ١٥ ٢- الحجّ = ١٨

و لنعم ما قاله بعض المفسّرين حيث قال أنّه ليس بجواب لأنّه أورد السّؤال على التّسليم ثمّ ذكر الجواب على غير التّسليم فصار المعنى أنّ من يغلب بها و الجواب لا يغلب بها.

و أمّا تفسير الآية فقوله للّه، اللاّم للإختصاص لأنّ السّجود مختصّ به تعالى: **يَسْجُدُ مٰا فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مٰا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دٰآبَّةٍ** تدّب على الأرض و الملائكة أي و من الملائكة فالدّابة بيان لما في الأرض، و الملائكة بيان لما في السّموات فالتّقدير من دابّةٍ و من الملائكة كما هو مقتضى العطف و قوله: **وَ هُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ** حال من الملائكة أي حال كونهم غير مستكبرين و يحتمل أن يكون حالاً من الدّابة و الملائكة جميعاً و أن يكون المراد بالسّجود معناه العامّ الشّامل للتّكوين و التّشريع و المعنى أنّ جميع الخلائق لا يستكبرون عن عبادته تشريعاً أو تكويناً و أنّما يتخلّف من يتّخلف تشريعاً لا تكويناً.

فعلى الأوّل: قوله **هُمْ** يرجع الى الملائكة فقط.

على الثّانى: يرجع الى الجميع.

والأوّل: أولى بالقبول بدليل قوله بعد ذلك **يَخٰافُونَ رَبَّهُمْ** الخ و على هذا.

فقوله تعالىٰ: يَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ

ناظر الى الملائكة و المعنى أنّ الملائكة الّذين لا يستكبرون عن عبادته يخافون ربّهم من فوقهم قيل أي يخافون عقابه به تعالى و قوله: **مِنْ فَوْقِهِمْ** إشارة الى أنّ العقاب يأتي من فوق، و قيل من فوقهم إشارة الى قدرة اللّه اذ هو القاهر فوق عباده والمعنى أنّه تعالى في أعلى مراتب القادرين بل لا تقاس قدرة بقدرته.

و قوله: **وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ** إشارة الى كمال طاعتهم و إنقيادهم و أنّهم لا يعصون اللّه طرفة عين كما قال تعالى: **لاٰ يَعْصُونَ ٱللّٰهَ مٰآ أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مٰا يُؤْمَرُونَ**[1].

١- التّحريم = ۶

وَ قَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَارْهَبُونِ

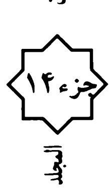
نهى اللّه تعالى عباده أن يتّخذوا إلٰهين أثنين فتشركوا بينهما في العبادة فقوله: **ٱثْنَيْنِ** تأكيد لإلٰهين و قد تكلّمنا في إستحالة وجود إلٰهين عقلاً و أقمنا عليه البراهين العقليّة عند قوله: **إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**[1].

و قوله: **فَإِيَّٰيَ فَارْهَبُونِ** معناه اذا كان الإلٰه واحداً كما هو المفروض فإيّاي فإرهبون، أي أرهبوا عقابي و سخطي فلا تتّخذوا معي إلٰهاً أخر و أنّما خوّفهم عن عقابه لأنّ الشّرك باللّه من أعظم المعاصي و اذا كان كذلك فلا جرم يكون عقابه أشدَّ و أصعب من عقاب سائر المعاصي و أنّما قدّم النّفي على الإثبات فقال أوّلاً لا تتّخذوا ثمّ قال هو إلٰهٌ واحد ولم يعكس أي لم يقل أنّما هو إلٰهٌ واحد فلا تتّخذوا إلٰهين لأنّ إثبات الألوهيّة لموجودٍ واحدٍ لا يمكن إلاّ بعد نفي الشّريك أوّلاً ألا ترى أنّه تعالى قال في كلمة التّوحيد لا إله إلاّ اللّه، نفى جنس الإله أوّلاً بقوله لا إله ثمّ أثبت الألوهيّة لذاته المقدّسة بقوله لا إله إلاّ اللّه لأنّ الإستثناء من النّفي يفيد الإثبات فقوله: **لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ** نهيٌ عن إتّخاذ الإله اذا كان موصوفاً بالأثنينيّة لا مطلقاً فقوله: **ٱثْنَيْنِ** وصفٌ لقوله: **إِلَٰهَيْنِ** لا تأكيدٌ له و كيف فالمقصود واضح.

وَ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ

اللاّم في، له، للملك أو الأختصاص أي أنّ الإله الواحد هو مالك السّموات الأرض و أيضاً **لَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا**.

قال مجاهد الدّين الإخلاص و قيل العبادة و قيل كلمة التّوحيد و إقامة الحدود و الفرائض و قيل الطّاعة و قوله: **وَاصِبًا** قيل الوصب الألم الّذي يكون عن الإعياء بدوام العمل مدّة قال الشّاعر:



١- النّحل = ٢٢

لا يغمز السّاق من أين و لا وصب ولا يعضّ على شرسوفه الصّغر

فالمعنى له الدّين واصباً أي و أن كان فيه التّعب و الوصب فقوله: **واصِبًا** حال من الدّين أي حال كونه واصباً و الوجه فيه واضح فأنّ العمل بأحكام الدّين كما هو حقّه مشكل جدّاً و قوله أفغير اللّه تتّقون، للإستفهام الإنكاري و فيها توبيخٌ و تهديدٌ أي اذا كان ملك السّموات و الأرض و الدّين له أفغير اللّه من الأوثان و الأصنام تتّقون و أنتم تعلمون أنّها لا تقدر على شيءٍ مضافاً الى كونها داخلين في السّموات و الأرض، و اذا ثبت مخلوقيّتهما و ما فيهما، فكلّ ما تعبدونه غير اللّه هو مملوك له لأنّه داخل في السّموات و الأرض فكيف يكون إلٰهاً و خالقاً.

وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّكُمُ اَلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ، ثُمَّ إِذٰا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ

ما، في قوله: **مٰا بِكُمْ** موصولة و النّعمة الحالة الحسنة و الإنعام إيصال الإحسان الى الغير و لا يقال إلاّ اذا كان الموصل اليه من جنس النّاطقين فأنّه لا يقال أنعم فلان على فرسه أو حماره فقوله: **وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ** معناه أنّ المنعم عليكم هو اللّه لا غيره و ذلك لأنّ ما سوى اللّه كائناً ما كان مخلوقٌ و مملوك له لقوله: **وَ لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ** و اذا كان كذلك فكلّ منعمٍ غيره تعالى، مع ما في يده و تحت قدرته مخلوق له فأنّ العبد و ما في يده كأنٍ لمولاه و اذا كان المنعم و المنعم مملوك له فالمنعم الحقيقي في عالم الوجود منحصرٌ به.

و قوله: **ثُمَّ إِذٰا مَسَّكُمُ اَلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ** أي تضّرعون اليه بالدُّعاء، **والضُّر** بضّم الضّاد البلاء و الألم فالمعنى اذا لحقكم البلاء و السُّوء تضّرعون اليه ليرفع البلاء عنكم ثمّ اذا كشف الضُّر عنكم اذا فريقٌ منكم، أي طائفة منكم بربّهم يشركون، أي يشركون بربّهم في العبادة.

لِيَكْفُرُوا بِمَآ اٰتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

و اللاّم في قوله: **لِيَكْفُرُوا** و أن كانت للتّعليل و لكنّ المعنى أنّ إشراكهم باللّه سببه كفرهم به أي جحودهم أو كفران نعمته، و بما أتيناهم، أي من النّعم أو كشف الضُّر و أن كانت للصّيرورة فالمعنى صار أمرهم ليكفروا و هم لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا بل آل أمر ذلك الجوار و الرّغبة الى الكفر بما أنعم عليهم أو الى الكفر الذّي هو جحوده و الشِّرك به و أن كانت للأمر فمعناه التّهديد و الوعيد.

و قال الزّمخشري ليكفروا فتّمتعوا يجوز أن يكون من الأمر الوارد في معنى الخذلان و التخليّة واللاّم، لام الأمر إنتهى.

و قوله: **فَتَمَتَّعُوا** فالتّمتع هنا هو بالحياة الدُّنيا و مألها الى الزّوال.

أقول في هذه الآيات أشار اللّه تعالى الى أمور ثلاثة:

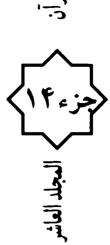
أحدها: أنّ النِّعم كلّها من اللّه.

ثانيها: أنّ عند الضُّر و البلاء لا ملجأ غيره تعالى.

ثالثها: أنّ بعد كشف الضُّر و رفع البلاء يكفرون به و لم يعلموا أنّ من كفر فأنّ اللّه غنّيٌ عن العالمين.

وَ يَجْعَلُونَ لِمٰا لاٰ يَعْلَمُونَ نَصيبًا مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ

ذكر اللّه تعالى في هذه الآية نوعاً أخر من جهالة الكفّار و هو أنّهم كانوا يجعلون لما لا يعلمون أنّه يضُّر و ينفع و هى الأصنام شيئاً من أموالهم يتّقربون به اليه و قيل هي للأوثان و جرى **بالواو** و **النُّون** مجرى من يعقل بزعم الكفّار فهو ردٌّ على، ما، و مفعول، يعلم، محذوف و التّقدير و يجعل هؤلاء الكفّار للأصنام التّي لا تعلم شيئاً نصيباً ممّا رزقناهم من النّعم و قد مضى البحث فيه في سورة



الأنعام عند قوله تعالىٰ: **فَقالُوا هٰذا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذا لِشُرَكائِنا**[1] وقُلنا هناك أنّهم جعلوا للّه جزءً و لشركاءهم جزءً فاذا ذهب ما لشركاءهم بالإنفاق عليها و على سدنتها عوَّضوا منه ما للّه و اذا ذهب ما للّه بالإنفاق على الضّيفان و المساكين لم يعوَّضوا منه شيئاً و قالوا، أنّ اللّه مستغنٍ عنه و شركائنا فقراء و كان هذا من جهالتهم ممّا رزقناهم إشارة الى نكتةٍ و هى أنّ النِّعم كانت منّا و الأوثان و الأصنام التّي كانوا يتّقربون بها الى اللّه و جعلوها بزعمهم شركاء للّه كانت من سنخ الجماد و هو لا يعلم شيئاً و هؤلاء الكفّار لفرط جهالتهم و غوايتهم جعلوا نصيباً ممّا رزقناهم لها و قالوا هذا لشركاء اللّه، هذا.

و قال بعض المفسّرين معنى الآية أنّ هؤلاء الكفّار يجعلون لما لا يعلمون أنّه يضُّر و لا ينفع نصيباً ممّا رزقناهم و عليه فالضّمير في، لا يعلمون، الى الكفّار.

و أمّا على الأوّل فالضّمير الى الأصنام و الأوثان و جعل ما لا يعقل مكان ما يعقل بزعم الكفّار و المعنى يجعلون للجماد مثلاً نصيباً و هو لا يعلم شيئاً و على التّقديرين فالكلام يدّل على جهل الكفّار فمآل التّفسيرين الى معنى واحدٍ و قوله: **تَاللّٰهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ** سؤال التّوبيخ لا سؤال الإستفهام، أي لتسئلَّن يوم القيامة عمّا كنتم تفترون، أي تكذبون على اللّه بجعلكم الأصنام شركاء له تعالى و فى الآية عدولٌ عن الغيبة الى الخطاب و هو من محسنات علم البلاغة و يسّمى عندهم بالإلتفات و حاصل المعنى، أقسم بذاتي أنّكم مستولون عن إفتراءكم هذا.



وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ ٱلْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ

هذا نوعٌ أخر من جهالة هؤلاء الكفّار أقبح ممّا مضى و هو أنّهم جعلوا للّه البنات تعالى منّزه عنه و قوله: **وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ** أي لهؤلاء الكفّار ما يشتهون من البنين هكذا فسَّروا الكلام.

١- الأنعام = ١٣٦

قال صاحب الكشّاف **وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ** يعني البنين و يجوز في ما يشتهون الرّفع على الإبتداء و النّصب على أن يكون معطوفاً على البنات، أي و جعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذّكور انتهى.

و أجاز الفّراء، في، ما، وجهين:

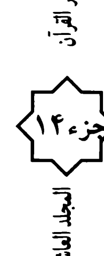
أحدهما: أن يكون في محلّ النّصب عطفاً على البنات اى و يجعلون لأنفسهم ما يشتهون.

الثّانى: أن يكون رفعاً على الإبتداء كأنّه تمّ الكلام عند قوله: **سُبْحٰانَهُ** ثمّ إبتدأ و قال و لهم ما يشتهون يعني البنين انتهى و هو ما قاله الزّمخشري بعينه و لا يبعد أن يكون الزّمخشري أخذ الكلام عنه و على هذا فالكلام من قبيل قوله تعالى: **أَمْ لَهُ اَلْبَنٰاتُ وَ لَكُمُ اَلْبَنُونَ**(١).

ثمّ إختار الفّراء الوجه الثّاني و هو الرّفع على الإبتداء و قال لو كان نصيباً لقال و لأنفسهم ما يشتهون لأنّك تقول جعلت لنفسك كذا و كذا و لا تقول جعلت لك.

و قال الزّجاج، ما، في موضع رفع لا غير و التّقدير و لهم الشّئ الذّي يشتهونه و لا يجوز النّصب لأنّ العرب تقول جعل لنفسه ما تشتهي و لا تقول جعل له ما يشتهي و هو يعني نفسه انتهى.

أقول لا فرق بين النّصب و الرّفع في المعنى فأنّ المأل فيهما الى شئ واحدٍ فقول الزّجاج، لا يجوز له النّصب لا معنى له و إستدلاله بأنّ العرب تقول كذا تقول كذا في غير محلّه فأنّ الأصل المتّبع في لسان العرب هو القرأن فالحقّ إنطباق كلام العرب على القرأن لا القرأن على كلام العرب و على فرض التّسليم فالمعنى واحد لا فرق فيه و هو أنّ اللّه و بّخهم على قولهم هذا و الذّي نفهم من قوله: **وَ لَهُمْ مٰا يَشْتَهُونَ** هو أنّ اللّه تعالى أشار بذلك الى أنّ الإنسان بمقتضى فطرته البشريّة يقول ما يشتهي و يحبّ على أساس هواه من غير تدّبرٍ



١- الطور = ٣٩

فيه كما أنّه يفعل ما يشاء فهو في قوله و فعله مختار في حدّ نفسه و لا يجبر على الفعل أو التّرك في قولٍفي عملٍ، و أنّما يمنعه عن القبائح عقله و دينه و حيث أنّ الكافر لا دين له و عقله أسيرٌ لشهوات نفسه فلا جرم يقول و يفعل و أن كان قبيحاً و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ هؤلاء الكفّار الّذين كانوا يجعلون لما لا يعلمون نصيباً ممّا رزقناهم، لا يبعد منهم أن يجعلوا للّه البنات و ذلك لأنّهم لم يعرفوه و من لم يعرف شيئاً يقول فيه ما شاء فأنّ من عرف اللّه يعلم بأنّه منّزه عن صفات المخلوقين و التّوالد و التّناسل من صفات المخلوق الذّي كان له جسم فمن ليس بجسم و لا جسماني كيف يكون له ولدٌ ذكراً كان أو أنثى، أليس الولد يوجد من الموجود الّذي له شهوة و الشّهوة من شئون الجسم فكيف قال في حقّه تعالى هذه الأباطيل و هو هُو.

وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ

أخبر اللّه تعالى بهذه الآية عمّا كانوا عليه في عهد الجاهليّة و هو أنّه اذا بشّر أحدهم بالأنثى أي أخبر أحدهم بولادة بنت ظلَّ أي صار متّغيراً و هو كناية عن غمّه بالبنت لا أنّ وجهه صار مسّوداً حقيقتاً و العرب تقول لمن لقى مكروهاً، قد إسوَّد وجهه غمّاً و حزناً و لا يبعد أن يكون المراد بسواد الوجه سواد لونه قيل هو قول الجمهور و قوله: **كَظِيمٌ** أي ممتلئٌ من الغمّ.

و قال إبن عبّاس أي حزين و قال الأخفش هو الذّي يكظم غيظه فلا يظهره و قيل هو المغموم الّذي يطبق فاه فلا يتّكلم من الغمّ مأخوذ من الكظامة و هى شدَّ فم القربة و هذه الآية بمنزلة الدّليل و البرهان على جهلهم و حماقتهم و ذلك لأنّ جعلهم البنات و البنين لأنفهسم لأنّ البنين أحسن من البنات في زعمهم جعلوهم لأنفسهم و جعلوها للّه تعالى فأن كان هذا حقّاً فهم ظلموا على اللّه حيث جعلوا الأحسن لأنفسهم و الأخسّ للّه تعالى و أن كان باطلاً بمعنى أنّ البنات أشرف من البنين و لذلك جعلوها للّه تعالى، فكيف اذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوَّداً و هو كظيم فهم قوم لا يعلمون ما يقولون.

يَتَوٰارىٰ مِنَ اَلْقَوْمِ مِنْ سُوٓءِ مٰا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى اَلتُّرٰابِ أَلاٰ سٰآءَ مٰا يَحْكُمُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عمّا فعلوه بالبنات بعد الولادة و أنّهم لم يقنعوا، بكظم الغيظ و تغيّر اللّون بل يتوارى كلّ واحدٍ منم أي يختفي و يتّغيّب من سوء ما بشّر به، أي من سوء العار و الحزن و الحياء الذّي يلحقه بسبب البنت، أينسكه، و هو كناية عن الحياة و البقاء و تذكير الضّمير لأنّه مردودٌ على، ما، أي أيمسك ما بشّر به، على هونٍ، أي هوان البلاء و المشّقة و هى لغة قريش قال الشّاعر:

فلّما خشيت الهون و العير ممسكُ على رغمه ما أثبت الخيل حافره

أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى اَلتُّرٰابِ أَلاٰ سٰآءَ مٰا يَحْكُمُونَ أي يدفنه فيه **أَلاٰ سٰآءَ مٰا يَحْكُمُونَ** حكم اللّه تعالى بقبح فعلهم أي بئس الحكم الذّي يحكمون به من جعلهم البنات للّه، و دفنها في الأرض حيّاً.

قال قتادة كان مضر و خزيمة يدفنون البنات أحياء و أشدّهم في هذا تميم، زعموا خوف القهر عليهم و طمع غير الأكفاء فيهنّ قيل أنّ العرب كانوا يحضرون حفيرة و يجعلون البنت فيها حيّاً حتّى تموت.

و روي عن قيس بن عاصم أنّه قال: يا رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم إنّي و اريت ثماني بنات في الجاهليّة فقال عليه السلام: أعتق عن كلّ واحدةٍ منهنّ رقبة فقال: يارسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم إنّي ذو إبلٍ فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم أهد عن كلي واحدةٍ منهنّ هدياً.

و روي أنّ رجلاً قال: يا رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت فقد كانت لي في الجاهليّة إبنة فأمرت إمرأتي أن تزينها فأخرجتها فإنتهيت بها الى وادٍ بعيد العقر فألقيتها فيه فقالت يأبت قتلتني فكلّما ذكرت قولها لم ينفعني شئ فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم: ما كان في

الجاهليّة فقد هدمه الإسلام و ما في الإسلام يهدمه الإستغفار انتهى.

و يظهر من الأثار أنّهم كانوا مختلفين في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفيرة و يدفنها فيها الى أن تموت و منهم من يرميها من شاهق جبلٍ و منهم من يغرقها و منهم من يذبحها الى غير ذلك من أنواع القتل.

أقول المعتمد في كيفيّة القتل هو ما نقله اللّه في الكتاب و هو أنّهم كانوا يدّسُّونها في التُّراب حياً أو ميتاً و أمّا سائر الأقوال لا دليل عليه يعتمد عليه وكيف كان فالأمر سهل بعد كون القتل ممّا لا خلاف و أمّا كيفيّة القتل فلا يهمّنا البحث فيها.

و أمّا العلّة و السَّبب في القتل فقد إختلفوا فيها، فمنهم من قال كان سببه الفقر و منهم من قال كان السَّبب العار و منهم من قال كان السَّبب أن لا يوجد لها كفواً و منهم من قال غير ذلك و كلّ هذه الوجوه إستحسانات و إستخراجات من عند أنفسهم.

نعم يظهر من الآية حيث قال: **ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ** أنّهم بعد ولادة البنت كانوا يظهرون النِّفرة و الإنزجار من سوء ما بشَّروا به و هذا القدر مسلّم لا خلاف فيه و لعلّ هذا هو السَّبب في قتلهم إيّاهن و اللّه أعلم.

و قد ردَّ اللّه تعالى عليهم بقوله: **أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** في قتلهم البنات أو في إنتسابهنّ الى اللّه في قوله و يجعلون للّه البنات.

أقول و قد ردَّ اللّه تعالى عليهم تكويناً أيضاً لو كانوا يعقلون حيث أعطى لنبيّه و حبيبه فاطمة الزّهراء سلام اللّه عليها بل منَّ اللّه تعالى على نبيّه بإعطائها إيّاه حيث قال: **إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**(١) و أعجب منه أنّه جعل نسل رسوله منها فلو كان الإبن خيراً من البنت لأعطاه رسوله لأنّه تعالى كان قادراً عليه.

١- الكوثر = ١

و الحاصل لمّا كانت البنت في عهد الجاهليّة مبغوضته عندهم على ما حكى اللّه تعالى في الآية أعطى رسوله البنت و جعل نسله منها و سمّاها بالكوثر ليعلم النّاس و لا سيّما أعراب الجاهليّة أنّهم ساء ما يحكمون في ترجيحهم الإبن على البنت و هو ظاهر.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

قال الرّازي و للّه الأعلى أي الصِّفة العالية المقدسة و هى كونه تعالى منزهاً عن الولد إنتهى موضع الحاجة من كلامه و هو أعلم بما قال و ذلك لأنّ المثل الأعلى لا ربط له بكونه تعالى منَزّهاً عن الولد.

و قال بعض المفسّرين، أي لهم بذلك وصف سوء و للّه الوصف الأعلى من إخلاص التّوحيد و لا ينافي هذا قوله: **فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ**[1] لأنّه بمعنى الأمثال الّتي توجب الأشباه و أمّا الأمثال الّتي يضربها اللّه للنّاس لما فيها من الحِكمة من غير تشبيهٍ له تعالى بخلقه فحَقٌ و صوابٌ كما قال تعالى: **وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**[2].

قاله الشّيخ في التّبيان و أخذ عنه الرّازي في تفسيره لهذه الآية و كم له من نظير.

و قال بعضهم أنّ المثل في الآية بمعنى الصِّفة فقوله: **مَثَلُ السَّوْءِ** و هي الحاجة الى الأولاد الذّكور و كراهة الإناث و للّه المثل الأعلى أي الصِّفة العلياء و هي الغنى عن العالمين و النَّزاهة عن سمات المحَدثين، و قيل مثل السُّوء هو وصفهم اللّه تعالى بأنّ له البنات و سمّاه مثل السُّوء لنسبتهم الولد الى اللّه و خصوصاً على طريق الأنوثة الّتي هم يستنكفون منها.



۱- النّحل = ۷۴ ۲- العنكبوت = ۴۳

و قال إبن عبّاس، مثل السُّوء النّار و قال قتادة المثل الأعلى، لا إله إلاّ اللّـه و الأقوال كثيرة لا فائدة في ذكرها.

أقول المثل بفتح الميم و الثّاء عبارة عن قولٍ في شئ يشبه قولاً في شئ آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر و يصّوره نحو قول العرب في الصَّيف ضيَّعت اللّبن فأنّ هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الأمكان أمرك، و على هذا الوجه ما ضرب اللّه تعالى من الأمثال فقال: **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**(١) و فى أخرى و ما يعقلها إلاّ العالمون إذا عرفت معنى المثل و المراد به فأعلم أنّ المثل يقال على وجهين:

أحدهما: بمعنى المثل بكسر الميم و سكون الثّاء و اللاّم نحو شبه و شبه و نقض بكسر النون و نقض بفتحها قال بعضهم و قد يعَّبر بهما عن وصف الشّئ نحو قوله تعالى: **مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ**(٢).

الثّانى: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان و هو أعّم الألفاظ الموضوعة للمشابهة و ذلك أنّ النِّد يقال فيما يشارك للجوهر فقط و الشِّبه يقال فيما يشارك في الكَّيفيّة فقط و المساوي يقال فيما يشارك في الكميّة فقط و الشِّكل يقال فيما يشاركه في القدر فقط و المثل عامّ في جميع ذلك و لهذا لما أراد اللّه تعلى نفي التَّشبيه من كلّ وجهٍ خصَّه بالذِّكر فقال ليس كمثله شئ و لنرجع الى تفسير الآية فنقول بعونه و توفيقه.

قوله: **لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ** يعني للكفّار المنكرين للبعث و القيامة مثل السُّوء أي لهم الصّفات الذّميمة من البخل و الحسد و الكبر و الكذب والكفر و هو الأصل فيهم و مفهوم هذا الكلام أنّ المؤمنين بالآخرة ليسوا كذلك لأنّ إيمانهم يمنعهم عن الإتّصاف بالصّفات الرَّذيلة و اذا كان كذلك فالكافر لا يبالي بما يقول من الكذب و الإفتراء و التُّهمة و غير ذلك



١- الحشر = ٢١ ٢- الرعد = ٣٥

فيجعل تارةً لما لا يعلم نصيباً ممّا رزقه اللّه و أخرى يجعل للّه البنات و هكذا و لم يعلم أنّه تعالى منزّه عن هذه الأوصاف و أنّه لا يشبه المخلوقات أصلاً و ذلك لأنّ اللّه تعالى له المثل الأعلى على الإطلاق فلا يشبه شئ تنزّه عن صفات المخلوقين و تعالى عن وصف الواصفين.

قال الصّادق عليه السلام: كلمّا فيزّتموه بأوهامكم فهو مخلوقٌ مثلكم مردودٌ اليكم.

وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ الذّي يضع الأشياء مواضعها قادرٌ قاهرٌ عليها هذا ما فهمناه و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

و قد ورد في أخبارنا أنّ الأئمّة المعصومين بعد رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كلّ واحدٍ منهم مثل الأعلى لخالقه قال الإمام الهادي عليه السلام في فقرات الزّيارة الجامعة، السّلام على أئمّة الهدى و مصابيح الدجّى و أعلام التُّقى و ذوي النُّهى و أولي الحجى و كهف الورى و ورثة الأنبياء و المثَل الأعلى الخ.

و أنّما قال عليه السلام: ذلك أمّا لأنّهم كانوا موصوفين بالصّفات الإلٰهيّة و أمّا لأنّ الصّفات ظهرت فيهم بحسب وسعهم كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: معرفتي بالنّوارنية معرفة اللّه و قوله من رأني فقد رأى اللّه، و هذا ثابت فيهم بلا كلام.

■

وَ لَوْ يُؤاخِذُ ٱللّٰهُ ٱلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دٰآبَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰآءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنىٰ لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنّٰارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنٰآ إِلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَ مٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ إِلاّٰ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا فيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَ ٱللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَحْيٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰآ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَ إِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خٰالِصًا سٰآئِغًا لِلشّٰارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَ مِنْ ثَمَرٰاتِ ٱلنَّخيلِ وَ ٱلْأَعْنٰابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَ أَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذى مِنَ ٱلْجِبٰالِ بُيُوتًا وَ مِنَ ٱلشَّجَرِ وَ مِمّٰا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلى مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرٰاتِ فَاسْلُكى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهٰا شَرٰابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوٰانُهُ فيهِ شِفٰآءٌ لِلنّٰاسِ إِنَّ فى ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

◀ اللّغة

دٰآبَّةٍ: ما يدُّب على الأرض حيواناً كان أو إنساناً.

فَرْثٍ: الفرث الثّقل الّذي ينزل الى الكرش.

سٰآئِغًا: أي مريئاً.

سَكَرًا: السَّكر حبس الماء.

يَعْرِشُونَ: أي سقوف البيت.

ذُلُلًا: الذُّلل جمع ذلول و هى الطّرق الموطأة للسُّلوك.

◀ الإعراب

تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ بالنّصب على أنّه مفعول، تصف، أو هو بدلٌ ممّا يكرهون فعلى هذا في قوله أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنٰى وجهان:

أحدهما: هو بدل من الكذب.

الثّانى: تقديره، بأنّ لهم، و لمّا حذفت الباء صار في موضع نصب عند الخليل و في موضع جرٍّ عند سيبويه و يقرأ الكذب بضمّ الكاف و الذّال و الباء على أنّه صفة للالسنة و هو جمع واحده كذوب مثل صبور و صبر وَ هُدًى وَ رَحْمَةً معطوفان على، لتبيّن أي للتَّبين و الهداية و الرَّحمة بُطُونِهِ الهاء ترجع الى الأنعام لأنّها تذّكر و تؤنّث و فيها إحتمالات كثيرة سيأتي الكلام فيها.

مِنْ ثَمَرٰاتِ الجار يتَّعلق بمحذوف تقديره و خلق لكم أو و جعل أَنِ ٱتَّخِذِي أي إتَّخذي و قيل أن مصدريّة ذُلُلًا حال من السُّبل أو من الضّمير في أسلكي و الباقي واضح بحمد اللّه.

◀ التّفسير

وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ ٱللّٰهُ ٱلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دٰآبَّةٍ.

أخبر اللّه في هذه الآية أنّه تعالى لو كان ممّن يؤاخذ الكفّار و العصاة بسبب

ذنوبهم التّي أتوا بها و يعاجلهم بعقوباتهم التّي إستّحقوا بها، لما ترك عليها أي على الأرض من دابّةٍ قالوا أي أحد ممّن يستّحق ذلك من الظالمين و لقائلٍ أن يقول أنّ الدّابة تطلق على الحيوان و الإنسان لأنّ كلّ ما يدُّب على الأرض فهو دابّة.

قال الرّاغب في المفردات، الدَّب و الدَّبيب مشيٌ خفيفٌ و يستعمل ذلك في الحيوان و فى الحشرات أكثر و يستعمل في كلّ حيوان و إن أختّصت في التّعارف بالفرس انتهى.

و على هذا لا وجه لإختصاصها في تفاسيرهم بالظّالمين فقط بل الحقّ أن يقال ما ترك عليها أي على الأرض من موجودٍ يدُّب على الأرض سواء كان من الحيوان أو من الإنسان و الحشرات و أنّما قلنا ذلك.

أمّا أوّلاً: فلإطلاق الدابّة على الجميع و لا دليل على التّخصيص.

ثانياً: أنّ العذاب في الدُّنيا اذا وقع لا يبقى في الأرض من الأحياء شئ كما كان كذلك في قصّة نوح و لوط و صالح و غيرهم و هذا ظاهر.

وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ

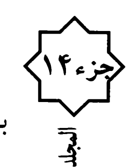
فيه إشارة الى أنّ تأخير العذاب عن الظّالمين أنّما هو تفضّلٌ منه تعالى و رحمة و ذلك لأمرين:

أحدهما: التَّوبة.

ثانيهما: أنّ في تأخير العذاب قد يكون مصلحة لباقي المككّلفين و الإعتبار بهم و عليه فينبغي للظّالمين أن لا يغتّروا بإمهال اللّه إيّاهم في دار الدُّنيا.

فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ أي المدّة المضروبة لهم في الدُّنيا التّي يعبّر عنها بالعمر.

لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ أي لا يتّقدمون عليه لحظة يتّأخرون و فى الآية مباحث لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:



الأوّل: أنّ العذاب في الدُّنيا و الآخرة من ثمرات الظُّلم فأنّ ربّك ليس بظلّامٍ للعبيد و ذلك لأنّ الظّالم يستّحق العذاب بظلمه.

و أن شئت قلت الظُّلم سببٌ للعذاب فاذا وجد السّبب وجد المُسبَّب اللّهم إلاّ أن يمنع مانعٌ عنه أو يحول بين السَّبب و المسَّبب حائلٌ و هو اللّه تعالى بفضله و رحمته و لذلك يقال أنّ دفع العذاب أو رفعه تفضّلٌ منه و رحمة.

الثّاني: أنّ قوله: **مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا** أي على الأرض من دابّةٍ، في معناه إحتمالان:

أحدهما: أنّ الإهلاك و أن عمَّهم فهو عذاب الظّالم دون المؤمن لأنّ المؤمن يعوَّض عليه.

الثّاني: أن يكون ذلك خاصّة و التّقدير ما ترك عليها من دابّةٍ من أهل الظُّلم و قيل أنّ المعنى لو هلك الأباء بكفرهم لم يوجد الأبناء.

و الحقّ ما ذكرناه و هو أنّ العذاب اذا عمَّهم لا يبقى على الأرض من دابّةٍ كما في قصّة الطّوفان.

الثّالث: أنّ قوله: **وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى** و فيه إشارةٌ الى أنّ تأخير العذاب ليس لأجل الغفلة بل المقصود منه بلوغ الأجل المحتوم في اللّوح المحفوظ و ذلك فأنّ لكلّ أجلٍ كتاب و هو واضح.

و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى يقول أنّا لا نأخذكم بأعمالكم القبيحة الشّنيعة في دار الدُّنيا تفضّلاً منّا عليكم بل نمهلكم أيّاماً إتماماً للحجّة عليكم و لولا ذلك أي لو عذَّبناكم بظلمكم بلامهلةٍ لما بقى على وجه الأرض أحد.

وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ مٰا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنىٰ لاٰ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنّٰارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ

أي يجعلون هؤلاء الكفّار للّه ما يكرهون، و هو قولهم للّه البنات، و ذلك لأنّهم كانوا يكرهون البنات لأنفسهم و لذلك كانوا اذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلَّ

وجـهه مسـوَّداً، و تـصف ألسـنتهم الكـذب أنّ لهـم الحسـنى أي لهـم الجـزاء الحسنى و قيل المراد بالحسنى هو الذّكور من الأولاد و المعنى أنّ لهـم البـنين مع جعلهم للّه البنات التّي يكرهونهنَّ و كيف كان لا شكّ أنّهم كانوا كاذبين ومع ذلك كانوا يزعمون أنّهم يحسنون صنعاً.

ثمّ قال تعالى: **لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ** أي حقّاً لهم النّار بسبب كـذبهم و إفترائهم على اللّه تعالى و قوله: **وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ** بالتّخفيف و التشديد فَمَن قرأ بالتّخفيف جعله من الإفراط في الشّئ أي الإسراف و المعنى أنّهم مسرفون في قولهم هذا و من شدَّد الرّاء جعله من التَّفريط في الواجب و قرئ بفتح الرّاء و التّخفيف و معناه أنّهم متركون في النّار منسيُّون فيها و هـى الأشـهر و عـليها المصاحف فعلاً و لكلّ واحدٍ منها وجهٌ وجيه.

و قال الزّمخشري في قوله: **وَ مَا يَكْرَهُونَ** أي ما يكرهون لأنـفسهم مـن البـنات و مـن شـركاء فـي رئـاستهم و مـن الإسـتخفاف بـرسلهم و التَّـهاون برسالاتهم و يجعلون له أرذل أموالهم و لأصنامهم أكرمها و تصف ألسنتهم مع ذلك أنّ لهم الحسنى عند اللّـه كـقوله **وَ لَـئِنْ رُجِـعْتُ إِلَـى رَبِّـىَ إِنَّ لـى عِـنْدَهُ لَلْحُسْنٰى**[1] انتهى.

و قال مجاهد الحسنى قولُ قريش لنا البنون يـعنى قـالوا لّـله البـنات و لـنا البنون، و قيل، الحسنى الجنَّة و يؤيِّده لا جرم أنّ لهم النّار.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

أقسم اللّه تعالى في هذه الآية لنبيّه أنّ هـذه السِّيرة الرَّديـئة الخـبيثة كـانت مستَّمرة في هؤلاء الكفّار في طول الزّمان أنّا أرسلنا رسلنا مـن قـبلك الى أممٍ

١- الفصلت = ١٥

فزَّين لهم الشّيطان أعمالهم كما زيَّنها لهؤلاء فهو يعني الشّيطان ولّيهم اليوم أي يوم القيامة و لهم عذابٌ أليمٌ، أي مؤلمٌ موجعٌ.

و يحتمل أن يكون مرجع الضّمير في وليّهم، الكفّار في زمن النّبي و أن يكون المراد باليوم هو اليوم الحاضر في الدُّنيا و عليه فالمعنىٰ أنّ الشيطان الّذي كان يزَّين أعمال الكفّار في الأمم السّالفة هو ولّي هؤلاء الكفّار الموجودين في زمن النّبي أيضاً في دار الدُّنيا و هم تابعوه الأن كما أنّ أسلافهم كانوا كذلك.

و قوله: **وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ** أي لجميع الكفّار عذابٌ مؤلمٌ يوم القيامة جزاءٌ بما كانوا يكسبون.

وَ مٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ إِلاّٰ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

المراد بالكّتاب في الآية هو القرأن بإتّفاق المفسّرين و كلمة، ما، في، ما أنزلنا للنّفي واللاّم في، لتبيّن للغاية و المعنى ما أردنا من القرأن الّذي أنزلناه عليك إلاّ لتبيّن لهم أي للنّاس و قيل لهؤلاء الكفّار موارد الإختلاف في التّوحيد و العدل وصدق الرُّسل و ماأوجبت فيه من الحلال و الحرام و يظهر من الآيـة أنّ الرّسول هو المبيّن للكتاب مادام حيّاً و بعده أوصياءه و خلفاءه و أنّما قلنا ذلك مع أنّه ليس في الآية ذكرٌ منهم لأنّ الإختلاف في الأصول و الفروع ثابت الى أخر الدُّنيا فلو إنحصر بيان موارد الإختلاف بالرّسول فقط يلزم تعطيل البيان بعد موته و المفروض بقاء الدّين و الأحكام بعده فالإحتياج الى المبيّن ثابت المطلوب.

و أمّا قوله: **وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** فهو صفة للكتاب أي أنّ الكتاب الّذي أنزلنا عليك متّصفٌ بالهدايةً و الرّحمة و يحتمل أن يكون هدىً، حال من الكتاب أي حال كون الكتاب كذلك و لا إشكال فيه فأنّ الحال أيضاً من الأوصاف كما قال إبن مالك في ألفيّته: الحال وصفٌ فضلة منتصبٌ الخ...

و أمّا تخصيصه الهداية و الرّحمة بالمؤمنين حيث قال: **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** فلأن المؤمن يهدي به فهو رحمة له أيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **يَهْدِي بِهِ ٱللّٰهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلاٰمِ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ جَعَلْنٰاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِنٰا**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرٰى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ ٱلْحَكِيمِ، هُدًى وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰامًا وَ رَحْمَةً**[۶].

و السِّر فيه أنّه لا يستضيئ بنور القرأن و لا يهتدي به إلاّ من كان قلبه منوّراً بنور الإيمان و ذلك لأنّ شرط تأثير العلّة في المعلول قابليّته للتّأثر و قد يعبّر عنه بالسّنخية بين العلّة و المعلول و إلاّ يلزم أن يؤثّر كلّ شيئ في كلّ شيئ ألا ترى أنّ النّار لا تحرق الحجر و تحرق الخشب و ليس ذلك إلاّ لعدم قابليّة الحجر لا لعدم قابليّة النّار فالنّار في عليّتها لا نقص فيها و أنّما النّقص في جانب المعلول القرأن فأنّه في هدايته و إرشاده و كونه رحمةً لمن تبعه لا نقص فيه إلاّ أنّ المهتدي بنوره لابدّ له من القابليّة و الإستعداد للإهتداء و لأجل هذه الدّقيقة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَزِيدُ ٱلظّٰالِمِينَ إِلّا خَسٰارًا**[۷].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّهُ لَهُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**[۸].

قال اللّه تعالىٰ: **بَصٰآئِرَ لِلنّٰاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**[۹] و الآيات كثيرة.

۱- الإسراء = ۹
۲- المائدة = ۱۶
۳- الشّوریٰ = ۵۲
۴- العنكبوت = ۵۱
۵- لقمان = ۲/۳
۶- الأحقاف = ۱۲
۷- الإسراء = ۸۲
۸- النّمل = ۷۷
۹- القصص = ۴۳

وَ ٱللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

أخبر اللّٰه تعالى في هذه الآية أنّه أنزل من السّماء ماءً أي غيثاً و مطراً، فأحيا به الأرض، أي أحيا بذلك الماء الأرض بعد موتها و قد مرَّ الكلام منّا مراراً أنّ لكلّ مخلوق موتٌ و حياة و هذا ممّا لا كلام فيه لأنّ المخلوق كائناً ما كان داخل في سلسلة الممكنات و قد ثبت أنّ الممكن من علته أن يكون أيساً أي موجوداً و من شأنه أن يكون ليساً فهو يوجد و يفنى و هذا مسلّمٌ إلاّ أنّ الحياة في كلّ شيءٍ بحسبه بخلاف أصل الوجود فأنّه في الجميع على حدّص سواء ألا ترى أنّ إطلاق الموجود في جميع الممكنات على نمطٍ واحد فيقال الملك موجود و العرش موجود و السّماء موجود و الأرض موجود و الإنسان موجود و الجماد و النّبات و الحيوان و هكذا جميع الأشياء الموجودة في الخارج حتّى أنّ لفظ الموجود يطلق على اللّه تعالى أيضاً و ذلك لأنّ الوجود يقابل العدم فكلّ ما ليس بمعدوم فهو موجود و كلّ ما ليس بموجودٍ فهو معدوم و هذا في الوجود ممّا لا كلام فيه.

و أمّا الحياة فليست كذلك و ذلك فأنّ الحياة في كلّ موجودٍ بحسبه لا من جهة إطلاق اللّفظ بل من حيث المعنى فاذا قلنا الإنسان حيٌّ معناه أنّه يأكل و يشرب و يمشي و يتّعقل و يتّفكر و هكذا و اذا قلنا الملك حيٌّ ليس معناه كذلك لأنّه لا يأكل و لا يمشي و لا يشرب و لا يتّفكر و هكذا اذا قلنا أنّ اللّه تعالى حيٌّ ليس معناه أنّه حيٌّ بحياة المخلوق فالحقّ أنّ الحياة عبارة عن الأثار المتّرتبة على الموجود كما أنّ الموت عبارة عن قطع الأثار فالموت و الحياة متقابلان كما أنّ الوجود و العدم متقابلان و من زعم أنّ الحياة تساوق الوجود بمعنى أنّ كلّ موجودٌ حيٌّ و كلّ حيّ موجود فقد أخطأ و ذلك لأنّ الجماد موجود و ليس بحيّ حقيقةً فالوجود أعمّ من الحياة اذا عرفت هذا فنقول:

الأرض من سنخ الجماد و لا حياة لها واقعاً إلاّ أنّه قد يطلق عليها أنّها حيّة بإعتبار أثارها من النّباتات كما أنّه قد يطلق عيلها أنّها ميتة بإعتبار عدم الأثار

و إن شئت قلت أنّها بإعتبار ذاتها ميتة لا حياة لها و بإعتبار أثارها لها حياة مجازاً و هكذا في الموت و الحاصل أنّ الموت و الحياة من الأمور الإعتباريّة التّي تحصل لها في الخارج فالأرض التيّ تنبت يقال أنّها حيّة و التّي لا تنبت يقال أنّها ميتة و الأرض هي فقوله تعالىٰ: **فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ** يشير الى ما ذكرناه و أنّها كانت ميتة بحسب ذاتها فلمّا أنبتت صارت حيّة بسبب الإنبات و المحي هو اللّه تعالى لأنّه أنزل السَّبب أعين به الغيث و المطر و لذلك نسب الإحياء الى نفسه و فيه إشارة الى أنّ الحياة في كلّ موجودٍ تحت قدرته فهو مفيض الوجود و الحياة و لذلك قال أنّ في ذلك لأيةً لقومٍ يسمعون الحقّ و يتّفكرون فيه و يعتبرون به كما قيل:

تفَّكر في نبات الأرض و أنظر الى أثار ما صنع المليك

ففي رأس الزّبرجد شاهدات بأنّ اللّه ليس له شريك

و قال السّعدي بالفارسيّة:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار هر ورقش دفترى است معرفت كردگار

وَ إِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنْۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِينَ

إعلم أنّ اللّه تعالى إمتَّن على عباده في هذه الآيات بأنواع النِّعم التّي أعطاها إيّاهم و هى على قسمين:

قسمٌ منها تتّعلق بالرُّوح و هو الّذي ينشأ منه المعرفة و الإتّصاف بالكمالات النفسانيّة.

و قسمٌ منها تتعلق بالبدن و الجسم العنصري الّذي هو مركبٌ للرُّوح و لمّا كان بقاء الإنسان و بلوغه الى مقام القرب بهما معاً أشار اللّه اليها في هذه

الآيات فمن القسم الأوّل الآيات الواردة في بعث الرُّسل و جعل الأحكام الشرعيّة التّي بها تحصل الكمالات:

قال اللّه تعالى: **تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ**[1].

وَ مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا فيهِ و أمثال هذه الآيات كثيرة في القرأن و أنّما قدَّمها اللّه تعالى في المقام لأنّ الرُّوح أشرف و أفضل من الجسم فما يتعلّق به أيضاً أفضل و أقدم.

من القسم الثّاني: قوله تعالى: **وَ ٱللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ**[2] ففي هذا القسم في الحقيقة إشارة الى أنّ الجماد و النّبات و الحيوان خلق لكم لتنتفعوا به فقوله: **أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ** إشارة الى النّبات و الجماد أي فأحيا به الأرض الميتة التّي هي جماد بسبب الغيث و المطر فأنبتت الأرض ما أنبتت من أنواع النِّعم كالأشجار و الفواكه و الزُّروع بأنواعها ثمّ أشار الى الحيوان بهذه الآية و ما بعدها و ذكر فيها ما يتَّرتب على وجود الحيوان و ينتفع الإنسان به فقال: **وَ إِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً**.

قال الرّاغب في المفردات، النَّعم مختّصٌ بالإبل و جمعه أنعام و تسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمةٍ لكن الأنعام تقال للإبل و البقر و الغنم و لا يقال لها أنعام حتّى يكون في جملتها الإبل فالأنعام عامّ في الإبل و غيرها و قوله: **لَعِبْرَةً** فالعبرة هي الحالة التّي يتَّوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهدٍ.

و أن شئت قلت العبرة هي التَّفكر في المحسوسات للبلوغ الى المعقولات و هى في الحقيقة مورد الإعتبار و موضعه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار.**

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ إختلفوا في مرجع الضّمير في قوله: **بُطُونِهِ** فقيل



١- النحل = ٦٣ ٢- النحل = ٦٤

أنّه عائد الى الأنعام أي ممّا في بطون الأنعام و عليه فكان الواجب أن يقال ممّا في بطونها و قد تفصّوا عن الإشكال بوجوهٍ:

أحدها: أنّ الأنعام لفظ مفرد وضع لإفادة الجمع كالرَّهط و القوم و البقر و الغنم فهو بحسب اللّفظ لفظٌ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد و هو و التّذكير.

و بحسب المعنى جمعٌ فيكون ضميره ضمير الجمع و هو التّأنيث فلهذا السَّبب قال هاهنا في بطونه و فى سورة المؤمنين في بطونها.

الثّانى: أنّ الضّمير يرجع الى ما ذكرنا و المعنى في بطون ما ذكرنا قاله الكسائي.

و قال الفّراء و المبّرد هذا شائع في القرأن قال تعالىٰ: **فَلَمّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بازِغَةً قال هذا ربّي** يعني هذا الشّئ الطّالع ربّي انتهى.

و ردَّ هذا الإستدلال بأنّ هذا يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقي كالشّمسس و أمّا في غيره فلا.

الثّالث: أنّ فيه إضمار و التّقدير نسقيكم ممّا في بطونه اللّبن اذ ليس كلّها ذات لبنٍ.

و قال صاحب الكشّاف ذكر سيبويه، الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم ثوبٌ أكياش و لذلك رجع الضّمير اليه مفرداً و أمّا في بطونها، في سورة المؤمنين فلأنّ معناه الجمع انتهى موضع الحاجة منه.

أقول لا نحتاج الى هذه التّكلفات في تبيّن مرجع الضّمير و الحقّ أنّه يرجع الى ما، في قوله: **مِمَّا** و على هذا فلا إشكال أصلاً فأنّ لفظة، ما، مذّكرٌ مفردٌ و أن كان معناه الجمع.

مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشّارِبِينَ أي يخلق اللّه اللّبن وسطاً بين الفرث و الدَّم يكتنفانه و بينه و بينهما برزخ من قدرة اللّه لا يبغي أحدهما عليه و لا بلونٍ و لا طعمٍ و لا رائحةٍ بل هو خالصٌ من ذلك كلّه.

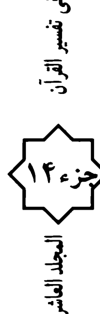
و عن إبن عبّاس أنّه قال إذا إستّقر العلف في الكرش صار أسفله فرشاً يبقى فيها و أعلاه دماً يجري في العروق و أوسطه لبناً يجري في الضّرع.

و قال إبن جبير الفرث في أوسط المصارين و الدَّم في أعلاها و اللَّبن بينهما و الكبد يقسم الفرث الى الكرش و الدَّم الى العروق و اللَّبن الى الضُّروع.

و قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال فيها ما هذا لفظه.

و لقائلٍ أن يقول الدَّم و اللَّبن لا يتولّدان ألبتّة في الكرش و الدّليل عليه الحسّ فأنّ الحيوانات تذبح ذبحاً متوالياً و ما رأى أحد في كرشها لا دماً و لا لبناً ولو كان توَّلد الدَّم و اللَّبن في الكرش لوجب أن يشاهد ذلك في بعض الأحوال و الشّئ الّذي دلَّت المشاهدة على فساده لم يجز المصير اليه ثمّ شرع الرّازي في تحقيق ذلك و أطال الكلام فيه بما لا مزيد عليه فمن أراد الوقوف على ما ذكره في المقام فعليه بمراجعة ما حقّقه و أثبته الى أن قال المراد من الآية هو أنّ اللَّبن أنّما يتَّولد من بعض أجزاء الدَّم أنّما يتّولد من الأجزاء اللَّطيفة الّتي في الفرث و هو الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش و هذا اللَّبن متّولدٌ من الأجزاء الّتي كانت حاصلة فيما بين الفرث أوّلاً ثمّ كانت حاصلة فيما بين الدَّم ثانياً فصَّفاه اللّه تعالى عن تلك الأجزاء الكثيفة الغليظة و خلق فيها الصّفات الّتي بإعتبارها صارت لبناً موافقاً لبدن الطِّفل فهذا ما حصَّلناه في هذا المقام و اللّه أعلم انتهى.

أقول ما ذكره الرّازي أيضاً فيه ما فيه و ليس كتابنا هذا موضوعاً لتفصيل الكلام في أمثال هذه المباحث و الحقّ أنّ كلّ ما ذكره الرّازي و غيره من المفسّرين ليس بمعتمدٍ ليعوّل عليه فأنّ مورد البحث من العويصات الّتي لا تبلغ اليها عقولنا القاصرة فالأحسن أن يقال إنّا نرى و نشاهد اللَّبن الخارج من الضُّروع بأعيننا ولكن لا نعلم كيّفية تخليقه في بدن الحيوان فأنّ إخراج اللَّبن من بين فرثٍ و دمٍ، من الأسرار العجيبة الّتي لا يطّلع عليها أحد و ذلك لأنّه لا يحصل إلاّ بتدبير الفاعل الحكيم و المدّبر الرَّحيم و التَّوجه بهذا المعنى يكفينا في المقام بل هو المراد من ذكر هذه الآيات.



و أمّا قوله: **خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ** فمعناه أنّ اللّبن يجري في حلوقهم لذيذاً هنيئاً و يقال له بالفارسيّة، گوارا، و هذا لا يحتاج الى التّفسير و التّوضيح لكونه من المحسوسات فإنّا نجد اللّبن بعد الشُّرب كذلك ثمّ أنّه تعالى بعد ذلك أشار الى ثمرات النّخيل و الأعناب من بين الثّمرات فقال:

وَ مِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَ ٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَاٰيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى ما منَّ به من بعض منافع الحيوان ذكر ما منَّ به من بعض منافع النّبات و الظّاهر تعّلق، من ثمرات، تتّخذون، و كرّرت، من للتّأكيد و كان الضّمير مفرداً راعياً لمحذوف أي و من عصير ثمرات أو على معنى الثّمرات و هو الثّمر أو بتقدير، من، المذكور و قيل تتّعلق، بنسقيكم، فيكون معطوفاً على، ممّا في بطونه، أو بنسقيكم محذوفة دلَّ عليها نسقيكم المتقدمة فيكون من عطف الجمل و الّذي قبله من عطف المفردات إذا إشتركا في العامل و قيل معطوف على الأنعام أي و من ثمرات النّخيل و الأعناب عبرة ثمّ بين العبرة بقوله: **تَتَّخِذُونَ**.

و قال الطّبري التّقدير و من ثمرات النّخيل و الأعناب ما تتّخذون، فحذف، ما، و هو لا يجوز على مذهب البصريين

و قال الزّمخشري أنّه صفة لموصوفٍ محذوف تقديره و من ثمرات النّخيل و الأعناب، ثمرٌ تتّخذون منه و الثّمرات جمع واحدها ثمرة و واحد النّخيل النّخل و واحد الأعناب العنب.

قال أهل اللّغة الثّمر بالتّحريك الرُّطب ما دام في رأس النّخل فإذا قطع فهو الرُّطب و يقع على كلّ الثّمار أكلت أو لم تؤكل كثمر الأراك و العوسج و المعنى واضح.

و أنّما الخلاف في قوله: **تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا** أي من عصير الثّمرات سكراً، ما المراد بقوله سكراً، فقال قوم السَّكر في اللّغة الخمر قال الشّاعر:

بئس الصّحاة و بئس الشُّرب شربهم إذا جرى منهم المزاء و السَّكر

و قال الزّمخشري سميّت بالمصدر من سكر سكراً و سكراً نحو رشدٌ رشداً و رشداً قال الشاعر:

و جاؤنا بهم سكرهُ علينا فأجلى اليوم و السّكران صاحي

و به قال إبن مسعود و الحسن و مجاهد و الشّعبي و النّخعي و غيرهم من المفسّرين و بالجملة هو قول الجمهور قالوا هذه الآية مكيّة نزلت قبل تحريم الخمر ثمّ حرمت بالمدينة فهي منسوخة.

قال الحسن ذكر اللّه نعمته في السّكر قبل تحريم الخمر و قال إبن عبّاس هو الخلّ بلغة الحبشة، و قيل العصير الحلو الحلال و سمّي سكراً بإعتبار ماله إذا ترك، و قال أبو عبيدة السَّكر الطَّعم يقال هذا سكرٌ لك أي طعمٌ و إختاره الطّبري السَّكر في كلام العرب ما يطعم و أنشد أبو عبيدة:

جعلت أعراض الكرام سكراً، أي تنَقلت بأعراضهم.

و قيل هو من الخمر و أنّه إذا يترك في أعراض النّاس فكأنّه تخمَّر بها.

و قال الزّجاج يصف أنّه يخمر بعيوب النّاس و على هذه الأقوال لا نسخ.

و قال قوم السَّكر ما لا يسكر من الأنبذة، و قيل السكر النَّبيذ و هو عصير العنب و الزّبيب و التمر إذا طبخ حتّى يذهب ثلثاه ثمّ يترك حتّى يشتَّد و هو حلال عند أبي حنيفة الى حدّ السّكر.

قال بعضهم إذا أريد بالسَّكر الخمر فقد تقدّم أنّ ذلك منسوخ و إذا لم نقل بنسخ فقيل جمع بين العتاب و المنّة يعني بالعتاب على إتّخا ما يحرم و بالمنّة على إتّخاذ ما يحلّ و هو الخلّ و الرب و الزّبيب و التّمر.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية عند قوله: **سَكَرًا** السَّكر ما يسكر هذا هو المشهور في اللّغة.

قال إبن عبّاس نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر و أراد بالسَّكر الخمر و بالرّزق الحسن ما يؤكل و يشرب حلالاً من هاتين الشّجرتين ثمّ أطال القرطبي الكلام بنقل الأقوال بما لا نحتاج الى نقله و هكذا الطّبري و غيره من مفّسري العامّة قد أطنبوا في المقام و أكثرهم بل قاطبتهم على أنّ المراد به الخمر إلاّ أنّ الآية قد نسخت.

قال الرّازي منهم لا حاجة الى إلتزام النّسخ و ذلك لأنّه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع و خاطب المشركين بها و الخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقّهم ثمّ أنّه تعالى نبّه في هذه الآية أيضاً على تحريمها و ذلك لأنّه ميَّز بينها و بين الرّزق الحسن في الذّكر فوجب أن لا يكون السَّكر رزقاً حسناً و لا شكّ أنّه حسنٌ بحسب الشّهوة فوجب أن يقال الرّجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة و هذا أنّما يكون كذلك إذا كانت محرّمة انتهى كلامه.

أقول ما ذكره الرّازي لا يصّح.

أمّا أوّلاً: فلأنّ اللّه لم يرد بها الخطاب الى المشركين فقط بل الخطاب عامّ لجميع المسلمين و ذلك لأنّ المنّة في إعطاء اللّه النِّعم لا تختّص بهم و هو ظاهر.

ثانياً: أنّ الرّجوع عن كونه حسناً بحسب الشريعة لا يدلّ على حرمة الخمر بل يدلّ على عدم حسنه و أنّ فيه منقصة و هو أعمّ من الحرمة و الكراهة.

و أمّا القول بالنّسخ فنحن أيضاً لا نقول به لا لما ذكره الرّازي بل لعدم ما يدلّ على نسخ الآية.

و قال الشّيخ في التبيان و قوله: **تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا** قيل في معنى السّكر قولان:

أحدهما: تتّخذ منه ما حلَّ طعمه من شرابٍ أو غيره ذكره الشّعبي و غيره الى أن قال و السّكر في اللغّة على أربعة أقسام.

أحدها: ما أسكر.

الثّاني: ما طعم من الطّعام كما قال الشّاعر:

جعلت عيب الأكرمين سكراً، أي طعماً

الثّالث: السّكون قال الشّاعر:

و جـعلت عـينُ الحـرور تسكـر

الرّابع: المصدر من قولك سكر سكراً و أصله إنسداد المجاري بما يلقى فيها و منها السِّكر، و قوله: **مِنْهُ** الكناية، راجعةٌ الى المحذوف تقديره و من ثمرات النّخيل و الأعناب ما تتّخذون منه كذا وكذا **فالهاء** كناية عن، ما، المحذوفة.

و قال قوم تقديره، شيء، أي شيء تتّخذون منه.

ثمّ قال و قد إستدلّ بهذه الآية قومٌ على تحليل النَّبيذ بأن قالوا أمنَّن اللّه علينا به وعدَّه من جملة نعمه علينا أن خوّلنا الثّمار نتّخذ منها السَّكر و الرّزق الحسن و هو لا يمّن بما هو محرّم و هذا لا دلالة فيه لأمور:

أحدها: أنّه خلاف ماعليه المفسرون لأنّ أحداً منهم لم يقل ذلك بل كلّ التّابعين من المفسّرين قالوا أراد ما حرَّم من الشّراب.

و قال الشّعبي منهم أنّه أراد ما حلَّ طعمه من شرابٍ و غيره.

الثّاني: أنّه لو أراد بذلك تحليل السَّكر لما كان لقوله: **وَ رِزْقًا حَسَنًا** معنى أنّ ما أحلَّه و أباحه فهو أيضاً رزقٌ حسنٌ، فلم فرّق بينه و بين الرِّزق الحسن، و الكلّ شيءٌ واحد و أنّما الوجه فيه أنّه خلق هذه الثّمار لتنتفعوا بها فإتخذّتم أنتُم منها ما هو محرّمٌ عليكم و تركتم ما هو رزقٌ حسن.

و أمّا وجه المنّة، فبالأمرين واضح لأنّ ما أباحه و أحلَّه فالمنّة به ظاهرة لتّعجل الإنتفاع، و ما حرَّمه اللّه فوجه المنّة أيضاً ظاهر له لأنّه إذا حرّم علينا و أوجب الطّعم وجب أن يتوّقف فيه و لا يحمل على أحدهما إلاّ بدليل و ما ذكرناه مجمعٌ على أنّه مراد و ما ذكروه ليس عليه دليل على أنّه كان يقتضي أن يكون ما أسكر، منه يكون حلالاً و ذلك خلاف الإجماع لأنّهم يقولون القدر



الّذي لا يسكر هو المباح و كان يلزم على ذلك أن يكون الخمر مباحاً و ذلك لا يقول به أحد و كذلك كان يلزم أن يكون النّقيع حلالاً و ذلك خلاف الإجماع انتهى كلام الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان و أنّما نقلناه بطوله لما فيه من الفوائد هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

أقول قال في لسان العرب، السَّكر الخمر نفسها، و السَّكر شرابٌ يتّخذ من التَّمر و الكشوف و الأس و هو محرمٌ كتحريم الخمر و قال أبو حنيفة السَّكر يتّخذ من التَّمر و الكشوف يطرحان سافاً و يصّب عليه الماء.

و قال المفسّرون في السَّكر الّذي في التّنزيل أنّه الخَّل و هذا شئ لا يعرفه أهل اللّغة.

قال الفرّاء في قوله: **تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا** هو الخمر قبل أن تحرم و الرّزق الحسن الزَّبيب و التَّمر و ما أشبههما و ساق الكلام الى أن قال السَّكر بفتح السّين والكاف الخمر المعتصر من العنب و قيل السَّكر بالتّحريك الطّعام و أنكر أهل اللّغة هذا و العرب لا تعرفه ثمّ أنّ صاحب اللّسان أطال الكلام في نقل الأقوال فيه إن شئت الوقوف عليه فعليك بمراجعة اللّسان[١] و هذا أي الإختلاف في معنى اللّفظ هو الّذي صار باعثاً لإختلاف المفسّرين و على هذا فلا يمكن الإعتماد على قولٍ واحدٍ من تلك الأقوال و الّذي نقول به و نعتمد عليه هو أنّه إن ثبت النَّسخ فلاكلام لنا فيه و أن لم يثبت كما هو الأقوى في النّظر فالمراد به ما لا يسكر من الشّراب و الطّعام و أما ما يسكر فهو حرامٌ قليله و كثيره بالإجماع فلا يمكن رفع اليد عن الإجماع و الأخذ بظاهر الكتاب كما ثبت في الأصول و اللّه تعالى أعلم بما أراد من كلامه.

وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ ٱلشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ

١- اللّسان ج ۴ مادّة السَكَر

قال في المجمع، النَّحل كفلس ذباب العسل، الواحدة نحلة كنخلة سميّت نحلة لأنّ اللّه تعالى نحل النّاس العسل الّذي يخرج منها إذ النَّحلة العطيّة و فى الحديث نهى رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم عن قتل ستّة وعدَّ منها النَّحل لأنّها تأكل طيباً و تضع طيباً و هى الّتي أوحى اللّه اليها و من ألقاب أمير المؤمنين عليه السلام أمير النَّحل و القّصة في ذلك مشهورة انتهى.

و الوحي هاهنا الإلهام أي ألهمنا الى النَّحل و قيل جعل ذلك في غرائزها أي ما يخفى مثله عن غيرها و ذلك إيحاء في اللّغة و عن أبي عبيدة الوحي على وجوهٍ في كلام العرب.

منها وحي النُّبوة.

و منها الإلهام.

و منها الإشارة.

و منها الكتاب.

و منها الأسرار فالوحي في النبّوة ما يوحي اللّه الى الأنبياء:

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ**(١).

و الوحي بمعنى الإلهام مثل هذه الآية: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ**(٢).

وقوله في الأرض:

قال اللّه تعالىٰ: **بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا**(٣).

و وحي الإشارة كقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا**(٤).

١- الشّورىٰ = ٥١
٢- القصص = ٧
٣- الزّلزال = ٥
٤- مَريم = ١١

أي أشار اليهم و وحي الأسرار:

قال اللّه تعالىٰ: **يُوحي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا**[١].

و أصل الوحي هو إلقاء الإنسان الى صاحبه ثياباً للإستتار و الإخفاء إذا عرفت هذا فقوله:

وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ

أي ألهم اللّه تعالى اليها سواء كان الإلهام بمعنى الإلقاء في القلب أم بمعنى جعل ذلك في الغريزة.

أَنِ ٱتَّخِذي مِنَ ٱلْجِبالِ بُيُوتًا وَ مِنَ ٱلشَّجَرِ وَ مِمّا يَعْرِشُونَ

أي ألهم اللّه اليها بإتّخاذ المنازل و الإدكار و البيوت في الجبال و فى الشَّجر و غير ذلك و مّما يعرشون، أي سقوف البيوت، فعلى هذا، أن، في قوله أن إتّخذي، مفسّرة لما في الوحي من معنى القول هذا قول جمهور المفسّرين.

قال الرّازي بعد نقله ما ذكرناه عنهم و فيه نظر لأن الوحي هنا بإجماع منهم هو الإلهام و ليس في الإلهام معنى القول كيف و قد قّرر اللّه تعالى في أنفسها الأعمال العجيبة الّتي يعجز عنها العقلاء من البشر منها:

بناءها البيوت المسّدسة من أضلاعٍ متساوية بمجّرد طباعها و لا يتّم مثل ذلك للعقلاء إلاّ بالآلات، و منها:

أنّ لها أمير أكبر جثّةٌ منها نافذ الحكم يخدمونه و إذا نفرت عن وكرها الى موضع آخر و أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطُّبول و الآلات الموسيقيا و بواسطة تلك الألحان تعود الى وكرها فلّما إمتازات بهذه الخّواص العجيبة و ليس إلاّ على سبيل الإلهام و هى حالة تشبه الوحي قال تعالى: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ** إنتهى ملخّصاً.



١- الأنعام = ١١٢

و كلمة، مِن للتّبعيض لأنّها لا تبنى في كلّ جبلٍ و كلّ شجرٍ و كلّ ما يعرش في مكانٍ منها قيل الظّاهر أنّ البيوت هنا عبارة عن الكوى الّتي تكون في الجبال وَ في متجوّف الأشجار و أمّا، من، في ممّا يعرشون، فالخلايا الّتي يصنعها للنَّحل إبن آدم و الكوي الّتي تكون في الحيطان.

قال الزّمخشري، و هلاّ قيل في الجبال و فى الشَّجر.

قلت أريد معنى البعضيّة و أن لا تبني بيوتها في كلّ جبلٍ و كلّ شجرٍ و كلّ ما يعرش و لا في كلّ مكانٍ منها.

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

اي إبني البيوت ثمّ كلي من كلّ ثمرةٍ تشتهينها فإذا أكلتها فأسلكي سبل ربك، أي الطُّرق الّتي ألهمك و أفهمك في عمل العسل أو فأسلكي ما أكلت في سبل ربّك أو إذا أكلت الثّمار في المواضع البعيدة من بيوتك فأسلكي الى بيوتك راجعة سبل ربّك لا تتوّعر عليك و لا تضلّين فيها، ذللاً، جمع ذلول و هى حالٌ من السُّبل لأنّ اللّه ذللّها لها و وطّأها و سهَّلها كقوله تعالى: **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا**[1].

أو من الضّمير في فأسلكي أي و أنت ذللٌ منقادة لما أمرت به غير ممتنعةٍ، يخرج من بطونها شراب، يريد العسل لأنّه ممّا يشرب، مختلفٌ ألوانه، بياضاً و سواداً، فيه شفاء للنّاس، أي في الشّراب الّذي هو العسل شفاء للنّاس لأنّه من جملة الأشفية و الأدوية المشهورة النّافعة و ليس المقصود أنّه شفاء لكّل مرض كما أنّ كلّ دواء كذلك بل الغرض وجود الشّفاء فيه في بعض الأحيان و هو كذلك و قد ثبت ذلك بالتَّجربة.

١- الملک = ١٥

قيل أنّ المَّقر الّذي يخرج منه العسل و هو بطونها هو مبدأ الغاية الأولى و الجمهور على أنّه يخرج من أفواهها و هو مبدأ الغاية الأخيرة و لذلك قال الحريري:

تقول هذا مجاج النَّحل تمدحه و إن ذممت تقل قيء الزّنابير

و المجاج و القيء لا يكونان إلاّ من الفم و نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في تحقير الدّنيا: **أشرف لباس إبن آدم فيها لعاب دودةٍ و أشرف شرابه رجيع نحلة** و ظاهر هذا الكلام أنّ العسل يخرج من غير الفم و هو موافق لظاهر الكتاب وقد خفي هذا على النّاس هل يخرج العسل من الفم أم من أسفل و حكي أنّ سليمان عليه السلام و الأسكندر و أرسطاطا ليس صنعوا لها بيوتاً من زجاج لينظروا كيفَّية صنعها و هل يخرج العسل من فيها أم من أسفلها فلم تصنع من العسل شيئاً حتّى لطّخت باطن الزّجاج بالطّين بحيث يمنع المشاهدة.

قيل من بطونها أي من أفواهها سمّي الفم بطناً لأنّه في حكم البطن و لأنّه ممّا يبطن و لا يظهر و إختلاف ألوانه بالبياض و الصَّفرة و الحمرة و السّواد إنّما هو لإختلاف طبائع النَّحل و إختلاف المراعي و قد يختلف طعمه لإختلاف المرعى و تنكير الشّراب و الشّفاء للّعظيم فيكون المعنى يخرج من بطونها شرابٌ، أيّ شراب، و فيه شفاء، أيّ شفاءٍ و قوله: **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** أي أنّ في النَّحل و بنائها تلك البيوت المسّدسة و فى أكلها من أنواع الأزهار و الأوراق الحامض و المُّر و الضّار و فى طواعيتها لأميرها و لمن يملكها في النَّقلة معه ذلك من العجائب المودّعة فيها لأيةً و علامةً على توحيد اللّه و أنّه حكيمٌ عليمٌ لمن يتّفكر فيها حّق، التّفكر و ذلك لأنّ هذا النَّظم الخّاص الّذي أوجب الحيرة و أدهش العقول من أدَّل الدّلائل على أنّ لها خالقٌ عليمٌ **لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**[1] و حيث أنجَّر الكلام الى النّحل لا بأس بالإشارة الى شطرٍ ممّا ذكروه في خواصّها.

١- آل عمران = ٧

فنقول قال مؤلّف حياة الحيوان في مادّة، نحل، النَّحل ذباب العسل و الجمهور على إسكان الحاء فيها و قرأ يحيى بن وثاب و أوحى ربّك الى النَّحل بفتح الحاء.

قال سميّت نحلاً لأنّ اللّه نحل النّاس العسل الّذي يخرج منها إذ النَّحلة العطيّة و كفاها شرفاً قوله تعالىٰ: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ** فأوحى اللّه سبحانه اليها و أثنى عليها فعلمت مساقط الأنوار من وراء البيداء فتقع هناك على كلّ حرارةٍ عبقة و زهرة أنفة ثمّ تصدر عنها بما تحفظه رضاباً و تلفظه شراباً.

قال في عجائب المخلوقات أنّ في النَّحل أعظم إعتبار و هو حيوان فهيم ذو كيس و شجاعةٍ و نظرٍ في العواقب و معرفةٍ بفصول السَّنة و أوقات المطر و دبير المرتع و المطعم و الطّاعة الكبيرة و الإستكانة لأميره و قائده و بديع الصَّنعة و عجيب الفطرة.

قال أرسطو النَّحل تسعة أصنافٍ ستّةٌ أوى بعضها الى بعضٍ و غذائها من الفضول الحلوة و الرّطوبات الّتي يرَّشح بها الزَّهر و الورق و يجمع ذلك كلّه و يدخَّره و هو العسل و أوعيته و يجمع مع ذلك رطوبات دسمة يتَّخذ منها بيوت العسل وهذه الدَّسومات هي الشَّمع و هو يلقطها بخرطومه و يحملها على فخذيه و ينقلها من فخذيه الى صلبه و هكذا.

و القرآن يدلّ على أنّها ترعى الزَّهر فيستحل في جوفها عسلاً و تلقيه من أفواهها فيجتمع منها القناطير المقنطرة الى أن قال.

و من شأنه في تدبير معاشه أنّه إذا أصاب موضعاً نقيتاً بنى فيه بيوتاً من الشَّمع أوّلاً ثمّ بنى البيوت الّتي تأوى فيها الملوك ثمّ بيوت الذّكور الّتي لا تعمل شيئاً و الذّكور أصغر جرماً من الإناث و هى تكثر المادّة داخل الخلية و إن طارت فهي تخرج بأجمعها و ترتفع في الهواء ثمّ تعود الى الخليّة و النَّحل



تعمل الشّمع أوّلاً ثمّ تلقي البزر لأنّها بمنزلة العش للطّير فإذا إلقته قعدت عليه و حضنته كما يحضن الطّير الى أن قال و من عادتها أنّها إذا رأت فساداً من ملكٍ إمّا أن تعزله و أمّا أن تقتله و أكثر ما يقتل خارج الخلية و من خصائص الملوك أنّه ليس لها حمة تلسع بها و أفضل ملوكها الشّقر و أسرأها الرقط و النّحل تجتمع فتقسم الأعمال فبعضها يعمل العسل و بعضها يعمل الشّمع و بعضها يسقي الماء و بعضها يبني البيوت و بيوتها من أعجب الأشياء لأنّها مبنيّة على الشّكل المسدّس الّذي لا ينحرف كأنّه إستنبط بقياسٍ هندسي ثمّ هو في دائرة مسّدسة لا يوجد فيها إختلاف فبذلك إستعلت حتّى صارت كالقطعة الواحدة و ذلك لأنّ الإشكال من الثّلاث الى العشر إذا جمع كلّ واحدٍ منها الى أمثاله لم يتّصل و جاءت بينها فروج إلاّ الشّكل المسّدس فأنّه إذا جمع الىٰ أمثاله إتّصل كأنّه قطعة واحدة و كلّ هذا بغير مقياسٍ منها و لا آلة و لا بركار بل ذلك من أثر صنع اللّطيف الخبير و إلهامه إيّاها كما قال تعالىٰ: و **أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ** و العجب أنّك لا ترى للنّحل بيتاً في غير هذه الأمكنة الثّلاثة المشار إليها بالآية و هى الجبال و الشّجر و ما يعرشون، و حيث أنّ أكثر بيوتها في الجبال ثمّ في الأشجار ثمّ فيما يعرش النّاس قدّم في الآية الجبال ثمّ الأشجار و أخّر قوله: **مِمَّا يَعْرِشُونَ** لأنّ بيوتها فيه قليلةً جدّاً ثمّ أنّك لو تأمّلت عجائب أمرها في تناولها الأزهار و الأنوار و إحترازها من النّجاسات و الأقذار و طاعتها لواحدٍ من جملتها و هو أكبرها شخصاً و هو أميرها ثمّ ما سخّر اللّه لأميرها من العدل و الإنصاف بينها حتّى أنّه ليقتل منها على باب المنفذ كلّ ما وقع منها على نجاسة لقضيت من ذلك العجب أن كنت بصيراً في نفسك و فارغاً من هّم بطنك و فرجك و شهوات نفسك في معادات أقرانك و مولات إخوانك ثمّ دع عنك جميع ذلك و أنظر الى بنيانها بيتاً من الشّمع و إختيارها من جميع الأشكال الشّكل المسّدس (فلا تبني بيتها مستديراً و لا مربعاً و لا مخمساً) بل

تبني مسّدساً لخاصيّته فيه يقصر فهم المهندس عن درك ذلك و هو أنّ أوسع الأشكال و أحواها المستديرة و ما يقرب منه فأنّ المربع تخرج منه زوايا ضائعة و شكل النَّحل مستدير و مستطيل فترك المرّبع حتّى لا تبقى الزّوايا فارغة ثمّ لو بناها مستديراً لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فأنّ الأشكال المستديرة إذا إجتمعت متّراصة و لا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الإحتواء المستدير فأنظر كيف ألهم اللّه تعالى النَّحل على صغر جرمه ذلك لطفاً به و عنايةً بوجوده فيما هو محتاج اليه ليهنأ عيشه فسبحانه ما أعظم شأنه و أوسع لُطفه و إمتنانه و لنختم الكلام في النَّحل و من أراد الوقوف على أسرار خلقتها و عجائب صنعها فعليه بمراجعة كتاب حياة الحيوان و غيره من الكتب الموضوعة لهذه المباحث و لا سيّما الكتب المدوّنة فيها الّتي هو مخصوصيّته بمورد البحث.

■

وَ ٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰيكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿۷۰﴾ وَ ٱللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلىٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوٰآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللّٰهِ يَجْحَدُونَ ﴿۷۱﴾ وَ ٱللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبٰاتِ أَفَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ ٱللّٰهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿۷۲﴾ وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ شَيْئًا وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ ﴿۷۳﴾ فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ ٱلْأَمْثٰالَ إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ ﴿۷۴﴾ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنٰاهُ مِنّٰا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ ﴿۷۵﴾ وَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمٰآ أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلٰيهُ أَيْنَمٰا يُوَجِّهْهُ لاٰ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿۷۶﴾

◀ اللّغة

أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ: أي أرداه و أوضعه يقال رذل الشّئ يرذل رذالةً.
يَجْحَدُونَ: من الجَحد و هو الإنكار.
حَفَدَةً: قيل هم الخدم و قيل هم الأعوان وأصل الحَفَدة التّي هي جمع حافد، من الإسراع يقال حَفَد حَفداناً اذا مَرَّ يسرع في سيره والحَفد الإسراع في العمل.

◀ الإعراب

لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا شيئاً منصوباً بالمصدر على قول البصرّيين و، بيَعلَم، علىٰ قول الكوّفيين فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ مبتدأٌ و خبرٌ رِزْقًا بكسر الرّاء إسم المرزوق و قيل هو إسم للمصدر بفتح الرّاء شيئاً، منصوب برزق أو بَدَل منه عَبْدًا هو بَدَل من مثل وَ مَنْ في موضع نصل نكرة موصوفة سِرًّا وَ جَهْرًا مصدران في موضع الحال أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ يُقرأ بكسر الجيم و فَتحها.

◀ التّفسير

وَ ٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰيكُمْ.

الخلق هاهنا ليس من الابداع بل بمعنىٰ إيجاد الشّئ وأنّما قلنا ذلك لأنّ الخلق قد يكون بمعنى الإبداع و هو الخلق من غير أصلٍ و لا إحتذاءٍ كخلق السّموات و الأرض و لذلك قال: بَدِيعُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ[1] و قد يكون بمعنىٰ إيجاد الشّئ من الشّئ كخلق الإنسان و الحيوان و النّبات:

قال اللّه تعالىٰ: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ[2].

قال اللّه تعالىٰ: خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ[3].

١- البقرة = ١١٦ ٢- الأعراف = ١٨٩
٣- الإنسان = ٢

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِنْ مٰارِجٍ**[1].

قوله: **ثُمَّ يَتَوَفّٰيكُمْ** فالتَّوَفي كناية عن المَوت أي ثمّ يُميتكم و فى هـذين الكلامين أعني بهما الخلق والتَّوفي الذّي هو كناية عن الموت إشارة أصلين.

أحدهما: أنّ اللّه تعالىٰ هو المحي و المميت.

ثانيهما: أنّ ما يوجد بعد أن لم يكن فهو يموت بعد أن كان.

أمّا الأصل الأوّل: فلا كلام فيه لأحَد من النّاس لأنّ الإماتة فرعٌ علىٰ الإحـياء فَمن كان الإحياء بيده فلا محالة تكون الإماتة بيده فأنّ الرَّفع تابع للوَضع.

أمّا الأصل الثّانى: فلأنّ ما يوجد بعد العدم فهو حادث و كلّ حادثٍ مصيره الىٰ الفناء و إلاّ يلزم خروج الحادث عن كونه محدثاً و السِّر فيه أنّ الموجود الحادث يكون معروضاً للوجود فالوجود عارضٌ عليه و كلّ عرضٍ يزول و إلاّ لا يكون عرضاً فثبت و تحقق أنّ اللّه الّذي خلق الخلق هو الّذي يتوفّاهم و هو المطلوب.

وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ

في هذا الكلام إشارة الىٰ أنّ التَّوفي قد يكون في أيّام الشّباب قبل أن يصل الإنسان الىٰ أرذل العمر و قد لا يكون كذلك و هـو أمـرٌ مـحسوسٌ لنا نـراه و نشاهده و الحقّ أنّ أرذل العمر لا يتقيّد بسنٍّ مخصوص و ذلك لأنّه يتفاوت في أفراد البشر فمنهم من يصير كذلك عند بلوغه ستّين أو سبعين أو ثـمانين سـنة أو أقلّ أو أكثر.



و قد روي عن عليٍّ عليه‌السلام: أنّه خمس و سبعون سنة و البـحث فـي تعيين السِّن لا فائدة فيه لما ذكرناه من إختلاف الطّبائع فيه.

لِكَىْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ

١- الرحمن = ١٥

اللاّم في قوله: **لِكَيْ** مشعرة بالتّعليل **وكَي** حرف مصدّري و اللاّم جارّة وكي، ناصبة قيل يشبه أن تكون لام الصّيرورة و المعنىٰ ليصير أمره بعد العلم بالأشياء أن لا يعلم شيئاً و هذه عبارةٌ عن قلّة علمه لا أنّه لا يعلم شيئاً البتّة.

و قال الزّمخشري ليصير الىٰ حالةٍ شبيهة بحالةِ الطُّفوليّة في النّسيان و أن يعلم شيئاً ثمّ يسرع في نسيانه فلا يعلمه عنه.

و قيل في معناه، لئّلا يعقل من بعد عَقله الأوّل شيئاً، و قيل لئّلا يعلم زيادة علم علىٰ علمه.

أقُول المقصود من هذا الكلام هو ما يعرض عليه في الهرم من ضعف القوى و القدرة و غلبة النّسيان و فى قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ عليمٌ بمَصالح عباده قادرٌ علىٰ ما يشاء من تدبير أمورهم و تغيير أحوالهم:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ**(١).

فهذه التّطورات في الإنسان دليلٌ علىٰ أنّه ضعيف في حدّ نفسه و أنّه تحت إختيار خالقه فأنّ العَبد و ما في يده كان لمولاه فسبحان الذّي بيده الأمر و هو علىٰ كلّ شيئٍ قدير.

وَ ٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ لمّا ذكر اللّه تعالىٰ خلقنا و إماتتنا و تفاوتنا في السِّن ذكر تفاوتنا في الرِّزق و أنّ رزقنا أفضَل من رِزق المماليك و هم بشر مثلنا و ربّما كان المملوك خيراً من المولى في العقل والدّين و التَّصرف.

قال الزّمخشري في تفسير الآية، أي جعلكم متفاوتين في الرّزق فرزقكم أفضل ممّا رزق مماليككم و هم بشر مثلكم و إخوانكم فكان ينبغي أن تردُّوا

١- الرّوم = ٥۴

أفضل ما رزقتموه عليهم حتّىٰ تتساووا في الملبس و المطعم كما يحكى عن أبي ذرّ أنّه سمع النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول **إنّما هُم إخوانكم فإكسوهم ممّا تلبسون وأطعموهم ممّا تطعمون فما روئي بعد ذلك عَبده إلاّ و رداءه رداءه وإزاره إزارُه من غير تفاوتٍ** كما قال تعالىٰ: **فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ**.

و عن إبن عبّاس و قتادة أنّ الأخبار بقوله: **فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ** علىٰ سبيل المثل أي أنّ المفضّلين في الرِّزق لا يصّح منهم أن يساهموا مماليكهم فيما أعطوا حتّىٰ تستوي أحوالهم فاذا كان هذا في البشر فيكف تنسبون أنتم أيّها الكفرة الىٰ اللّه تعالىٰ أنّه يشرك في ألوهيّة الأوثان و الأصنام و من عبد من الملائكة و غيرهم عبيده و خلقه.

و قيل أنّ الآية مشيرة الىٰ عيسىٰ بن مريم عليه السلام.

و قال بعض المفسّرين هذه الآية كقوله: **ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ**(١).

و قيل المعنى أنّ الموالي و المماليك أنا رازقهم جميعاً فهم في رزقي سواء فلا تحسبن الموالي أنّهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرّزق فأنّما ذلك أجريه اليهم على أيديهم و على هذا القول يكون، فهم فيه سواء، جملة إخبار عن تساوي الجميع في أنّ اللّه هو رازقهم و على القولين الأخرين تكون الجملة في موضع جواب النّفي كأنّه قيل فيستووا.

و قيل هي جملة إستفهامية حذف منها الهَمَزة و التّقدير، أفهم فيه سواء، أي ليسوا مستوين في الرِّزق بل التَّفضيل واقعٌ لا محالة ثمّ إستفهم من جحودهم نعمةً، إستفهام إنكار و أتى بالنّعمة الشّاملة للرّزق و غيره من النِّعم الّتي لا تحصى أي أنّ من تفضّل عليكم بالنّشأة أوّلاً ثمّ ممّا فيه قوام حياتكم جديرٌ بأن تشكر نعمه و لا تكفر بها.

و قال القُرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

١- الرّوم = ٢٨

و اللّه فضلّ بعضكم على بعضٍ في الرِّزق، أي جعل منكم غنّياً و فقيراً و حرّاً و عبداً **فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا** أي في الرِّزق **بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** أي لا يردّ المولىٰ علىٰ ما ملكت يمينه ممّا رزق شيئاً حتّىٰ يستوي المملوك و المالك في المال و هذا مثل ضربه لعبدة الأصنام أي اذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء فلمّا لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا اللّه تعالىٰ في عبادة غيره من الأوثان و الأنصاب و غيرهما ممّا عبد كالملائكة و الأنبياء و هم عبيده و خلقه حكى معناه الطّبري و قاله إبن عبّاس و مجاهد و قتادة و غيرهم.

و عن إبن عباس أيضاً أنّها نزلت في نصارىٰ نجران حين قالوا عيسىٰ إبن اللّه فقال اللّه لهم **فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** أي لا يردّ المولىٰ على ما ملكت يمينه ممّا رزق حتّى يكون المولىٰ والعبد في المال شرعاً سواء فيكف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم فتجعلون لي ولداً من عبيدي و نظيرها قوله: **ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ**(١) هذا ما قالوه في تفسير الآية.

أقُول يظهر ممّا ورد عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد بقوله ما ملكت أيمانهم، أعمَّ من المماليك فيشمل كلّ من يكون تحت عائلته من المماليك والأولاد والزّوجة و غيرهم.

فعن تفسير علّي بن إبراهيم في قوله تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** قال عليه السلام لا يجوز للرّجل أن يخصّ نفسه بشيئ من المأكول دون عياله انتهىٰ.

و من المعلوم أنّ حمل الآية علىٰ المعنى العامّ أولى من حملها علىٰ الخاصّ ما لم يدّل دليلٌ على الخاصّ و ما نحن فيه كذلك و الأمر سهلٌ.



١- الرّوم = ٢٨

وَ ٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبٰاتِ أَفَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ إمتنانه بالإيجاد أوّلاً في قوله: **وَ ٱللَّهُ خَلَقَكُمْ** و بالرِّزق المفضّل فيه ثانياً بقوله: **وَ ٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ** ذكر إمتنانه ثالثاً بما يقوم بمصالح الإنسان ممّا يأنس به و يستنصر به و يخدمه فقال **وَ ٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا** فقوله: **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** يحتمل أن يكون المراد به من جنسكم و نوعكم و يحتمل أن يكون ذلك بإعتبار خلق، حوّاء من ضلعٍ من أضلاع أدم و المعنى الأوّل أصّح و قد مَرَّ البحث فيه في سورة البقرة و غيرها.

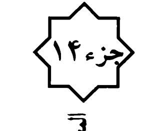
و قلنا أنّ خلق حوّاء من ضلع أدم لا معنىٰ له و لا يساعده العقل و النّقل الصّحيح و المعنى أنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي خلق لكم من أنفسكم أي من جنس البشر أزواجاً لتسكنوا اليها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْهٰا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فٰاطِرُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا وَ مِنَ ٱلْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجًا**(٣).

و حيث أنّ الأولاد من أحسن النِّعم:



١- الرّوم = ٢١
٢- فاطر = ١١
٣- الشّورىٰ = ١١

قال تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً** و أنّما قال من أزواجكم و لم يقل منكم أو منكما، مثلاً مع أنّ الولد ينتسب بهما و لا يوجد من الأزواج فقط للإشارة الىٰ أنّ الأمّهات هي الأصل في الأولاد فأنّ الولو يولد من الأمّ لا من الأب و أن كانت النّطفة منه و لذلك يقال أنّ سبّبيتها له أقوىٰ من سببيّة الأب.

و في المقام إحتمال أخر و هو أنّ الولد قد يُوجد من الأُمّ فقط بدون الزّوج من البشر كما في عيسىٰ إبن مَريم و أمّا عكسه و هو وجود الإبن بدون الأمّ فهو غير ممكنٍ و لهذا قال من أزواجكم و قوله حفدة قيل هم الخدم والأعوان كما قال الشّاعر:

حفد الولائد حولها وإستمسكت ... بأكــــفهنّ أزِّمـــة الإجـــمال

و قيل الحفدة البنون و بنو البنين.

و قيل أنّهم بنوا إمرأة الرّجل من غيره.

و قال الحسن من أعانك فقد حَفَدك من البنين و بني البنات والأعوان و الأهل و قيل هم الأختان و هم أزواج البنات والحَفَدة جمع، حافد مثل كامِل و كملة.

أقول الحقّ أنّ الحفدة ولد الولد و أن سفلوا كما يشهد به قوله ﷺ تقتل حفدتي بأرض خراسان، يعني علّي بن موسىٰ الرّضا، وقولنا ولد الولد أعمّ من ولد الإبن و ولد البِنت لأنّ البِنت أيضاً ولدٌ ولذلك قال رسول الّه ﷺ للحسن بن علّي عليه السلام أنّ إبني هذا سَيّدٌ الخ و قال للحسن و الحسين ُ هذان إبناي، و هذا هو الأصل في هذا الباب لا شعر الشّاعر حيث قال:

بـــنونا بــنُو أبــنائنا وبــناتنا ... بنوهنّ أبناء الرّجال الأباعد

و الحفد في اللّغة يقال حفدته أي حملته علىٰ الحفد و الإسراع و لعلّ

الوجه في إطلاق الحفدة علىٰ الأولاد هو سرعة إجابتهم اذا دعوا الىٰ الطّاعة و حيث أنّ الإنسان في بقاءه يحتاج الىٰ الغذاء قال تعالىٰ: **وَ رَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ** من المأكولات و المشروبات أي جعل لكم أشياء تستطيبونها وأباحها لكم.

قيل أنّما دخلت، مِن، فقال من الطّيبات و لم يقل و رزقكم الطيّبات لأنّه ليس كلّ ما يستطعمه الإنسان رزقاً له وأنّما رزقه ما له التّصرف فيه و ليس لغيره منعه منه و عليه فكلمة من، تبعيضيّة أي من بعض الطّيبات هكذا قيل.

و لقائلٍ أن يقول الأحسن أن تكون كلمة، مِن، بيانيّة لا تبعيضيّة و المعنى و رزقكم من الطّيبات لا من الخبيثات و ذلك لأنّ الطَّيبات لا تطلق على ما لا يجوز التّصرف فيه فلا تحتاج الى كلمة، من، و إعلم أنّ الطّيب يقال لمعانٍ:

الأوّل: المستَّلذ.

الثّانى: ما حلَّله الشّارع.

الثّالث: ما كان طاهراً.

الرّابع: ما خُلي عن الأذى في النّفس و البدن، و هو حقيقة في الأوّل لتبادره الىٰ الذّهن عند الاطلاق و الخبيث يقابل الطّيب بمعانيه.

و المراد بالطَّيبات في الآية ما حلَّله الشّارع قطعاً و الرِّزق إسمٌ للمرزوق به و الجمع أرزاق و الرِّزق عند الأشاعرة كلّ ما إنتفع به مباحاً كان أو حراماً.

و عند المعتزلة هو كلّ ما صحَّ الإنتفاع به بالتَّغذي و ليس الحرام رزقاً عندهم و تمسّكوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم **أنّ اللّه قسَّم الأرزاق بين خلقه حلالاً و لم يقسّمها حراماً**.

و الأشاعرة تمسّكوا بقول عمر بن قترة حيث قال يا رسول اللّه أنّ اللّه كتب علَّي الشّقوة فلا أراني أرزِق إلاّ من دَفِّي بكفّي أتأذن لي في الغناء فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بعد كلامٍ أي عدُّو اللّه أنّ اللّه قد رزقك طيّباً فإخترت ما حرَّم

اللّه عليك من رزقه، وجه الإستدلال هو أنّ الرّسول أطلق الرِّزق على الحرام و هو دليل على أنّ الرِّزق كما يكون في الحلال كذلك يكون في الحرام.

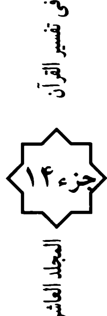
و أجيب عنه بأنّ الإطلاق للمشاكلة في قوله فلا أراني أرزق، و الحقّ أنّ الّله تعالى قسّم الأرزاق حلالاً و لم يقسّمها حراماً و ذلك لأنّه تعالى نهانا عن أكَل المحرّمات و توَّعد عليه فكيف يكعقل أن يرزق العبد حراماً ثمّ يعاقب عليه و للبحث فيه مقام أخر ثمّ أنّا لو قلنا بأن المخاطبين بهذه الآية هم الكفّار كما عليه أكثر المفسّرين فالمراد بالطَّيبات هنا المستلذّات لا ما حلَّله الشّرع لأنّ الكفّار لا يتلبّسون بشرعٍ و أن قلنا بأنّ المخاطبين في الآية هم المسلمون فالمراد بها ما حلَّله الشّارع و هو واضح.

و أمّا قوله: **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** قال بعضهم المراد بالباطل الشّيطان و نعمة اللّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و قيل المراد بالباطل هو عبادة الأصنام و الأوثان و ما حرَّم عليهم الشّيطان من البحائر و السّائبة و الوسيلة والمراد بنعمة اللّه ما عدَّده لهم.

و قيل طاعة الشّيطان في الحلال و الحرام و الإحتمالات كثيرة و المعنىٰ واضح لا خفاء فيه.

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ شَيْئًا وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ

أخبر اللّه في هذه الآية عن هؤلاء الكفّار الجاحدين لنعمة الّله و الكافرين بها، بأنّهم يعبدون من دون اللّه ما لا يملك لهم رزقاً في السّموات و الأرض، يعني بها الإصنام و الأوثان الّتي لا تقدر لهم على نعمةٍ و لا على ما يستحقّ به العبادة و ذلك لأنّ الرِّزق بيد اللّه الّذي لا إله إلاّ هو خالق كلّ شيٍء، والأصنام و غيرها لا تقدرون على إعطاء الرِّزق لكونها من الجمادات و الرّازق الحقيقي هو الّذي يكون خالقاً للنِّعم و المنعم عليه عالماً حكيماً مدّبراً و هذه الشّرائط لا



توجد للمخلوق كائناً ما كان و العجب من هؤلاء الكفّار حيث تركوا الإلٰه الّذي خلقهم و رزقكم و عبدوا الأصنام الّتي لا تقدر على شئ البتّة.

و قال بعض المفسّرين أراد بقوله مِن السّموات رزقاً، المطر و أطلق عليه الرّزق لأنّ الرِّزق ينشأ عنه و أراد بالأرض، الشّجر و الثّمر و الزّرع و الظّاهر عود الضّمير في يستطيعون، علىٰ، ما، على معناها لأنّه يراد بها ألهتهم.

و قال إبن عبّاس و لا يستطيعون أن يرزقوا أنفسهم فضلاً عن غيرهم.

فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ

نهى اللّه تعالى عن ضرب الأمثال للّه، و ضرب الأمثال تمثيلها و المقصود هنا تمثيلٌ للإشراك باللّه و التّشبيه به لأنّ من يضرب الأمثال شبّه حالاً بحالٍ و قصّةً بقصّةٍ.

و قال إبن عبّاس معناه لا تشبّهوه بخلقه، و قال بعضهم معناه لا تجعلوا للّه الأشباه و الأمثال للعبادة فأنّه لا شبه له و لا مثيل و لا أحد يستحقّ معه العبادة.

و قوله: **إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** أي أنّه يعلم أنّه لا تحقّ العبادة إلاّ لَه و أنتم لا تعلمون ذلك بل تجهلونه و قيل أنّ اللّه تعالىٰ أثبت العلم لِنفسه و المعنى أنّ اللّه يعلم ما تفعلون من عبادة غيره والاشراك بـه و عبَّر عـن الجـزاء بالعلم و أنتم لا تعلمون كنه ما أقدمتم عليه و لا وبال عاقبته فعدم علمكم بذلك جرَّأكم فهو كالتّعليل للنّهي عن الإشراك.

و قال الزّمخشري و يجوز أن يراد إنّ اللّه يعلم كيف نضرب الأمثال و أنتم لا تعلمون حسن ذلك من قبحه و لا صوابه من خطأه.

أقول يحتمل أن يكون المعنىٰ في قوله: **فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ ٱلْأَمْثَالَ** لا تجعلوا للّه تعالىٰ مثلاً في العبادة فأنّه تعالى متفرّدٌ بها و لا تقولوا أنّ اللّه يضرب الأمثال في كتابه فنحن أيضاً نضرب الأمثال، و ذلك لأنّه تعالىٰ يعلم كيف يضرب المثل و أنتم لا تعلمون و أنّما قلنا ذلك لقوله تعالىٰ:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

قال المفّسرون مناسبة ضرب هذا المثل أنّه لمّا بيّن تعالىٰ ضلال الكفّار في إشراكهم باللّه غيره و هو لا يجلب نفعاً و لا ضرّاً لنفسه و لا لعابده و ضرب لهم مثلاً قصّة عبدٍ في ملك غيره و هو عاجزٌ عن التّصرف، و حرٌ غنّيٌ متصرّف في ملكه ما يشاء فيما آتاه اللّه فإذا كان هذان لا يستويان عندكم مع كونها من جنسٍ واحدٍ و مشتركين في الإنسانّية فكيف تشركون باللّه و تسّوون به مَن هو مخلوقٌ له مقهورٌ بقدرته من آدّميٍ و غيره مع تباين الأوصاف و أنّ الخالق الموجد لكّل شيٍ لا يمكن أن يشبهه شئ من خلقه و لا يمكن لعاقل أَن يشّبه غيره به.

قال مجاهد، هذا مثلٌ لِلّه وللأصنام، و قال قتادة للمؤمن والكافر فالكافر العبد المملوك لا ينتفع بعبادته في الآخرة و من رزقناه المؤمن، و قال إبن جبير مثل للبخيل والسَّخي، و لمّا كان لفظ العبد قد يطلق على الحُر خصصّ بمملوكٍ و لمّا كان المملوك قد يكون له التّصرف و القدرة كالمأذون له و المكاتب خصَّص بقوله: **لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ** من التّصرف في المال لا مطلقاً لأنّه يقدر علىٰ أشياء من حركاته كالقيام و القعود و الأكل و الشُّرب و النُّوم و غير ذلك (ومَن) في قوله: **وَ مَنْ رَزَقْنَاهُ** موصولة أي والّذي رزقناه و دّلت الصِّلة و ما عطف علىٰ أنّه يراد به الحُر.

و قيل أنّها موصوفة و أختار صاحب الكشّاف و عليه فكأنّه قال و حرّاً رزقناه ليطابق، عبداً، و قال بعضهم أنّه مثل للكافر والّذي لا خير عنده و المؤمن الّذي يَكسب الخير للدّاعا الى حال المؤمن و الصَّرف عن حال الكافر و هو قول إبن عبّاس.



و قال مجاهد، أنّه مثلٌ ضربه لعبادتهم الأوثان الّتي لا تملك شيئاً و العدول عن عبادة الّذي يملك كلّ شيءٍ، و المعنى أنّ الإثنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما قادراً علىٰ الإنفاق مالكاً و الآخر عاجزاً لا يقدر على الإنفاق لا يستويان فكيف سوّي بين الحجارة الّتي لا تتحرّك و لا تعقل و بين اللّه تعالىٰ القادر علىٰ كلّ شيءٍ الرّازق لجميع خلقه فبيّن بذلك لهم أمر ضلالتهم و بعدهم عن الحقّ في عبادة الأوثان انتهىٰ.

و أنّما جمع الضّمير في يستون و لم يبيّن لسبق أثنين لأنّ كلمة، من، يحتمل أن يراد به الجمع فيصير اذ ذاك جمع الضّمير لإنتظام العبد المملوك و الأغنياء في الجمع كأنّه قيل عبداً مملوكاً و المرزوقين المنفقين.

و يحتمل أن يكون المراد بالعبد الملوك الجِنس فيصلح عود الضّمير جمعاً عليه و على جنس الأغنياء.

و يحتمل أن يعود علىٰ العَبيد و الإحرار وأن لم يجر للجمعين ذكرٌ لدلالة عبد مملوك و من رزقناه عليها وقوله: **الحَمدُ لِلّه**، الظّاهر أنّه خطاب للرّسول صلّی الله علیه و آله و سلّم خطابٌ لمن رزقه اللّه أمره أن يحمد اللّه علىٰ أن ميَّزه بهذه القدرة علىٰ ذلك الضّعيف.

و قيل الحمد للّه، أي هو المستحقّ للحمد دون ما يعبدون من دونه اذ لا نعمة للأصنام عليهم فتحمد عليها أنّما الحمد الكامل للّه لأنّه المنعم الخالق.

و قال إبن عبّاس الحمدُ للّه علىٰ ما فعل بأولياءهم و أنعم عليهم بالتّوحيد و الظّاهر نفي العلم عن أكثرهم لأنّ منهم من بان له الحقّ و رجع اليه أو أكثر الخلق لأنّ الأكثر هم المشركون.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية في قوله: **الحَمْدُ لِلّٰه**، معناه أنّ اللّه سبحانه هو المحمود بكلّ حمدٍ اذ ما من نعمةٍ إلاّ و هی مِن خلقه فله كلّ ثناء جميل و ما يعبدون من دونه مملوكٌ لا يقدر على شيءٍ فهو سبحانه الرَّب

وحده دون غيره و قال في قوله: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** أي أكثر المشركين لا يعلمون أنّ النّعمة كلّها للّه لا يملك غيره شيئاً و لا يقدر علىٰ شئٍ بل يثبتون لأولياءهم شيئاً من الملك و القدرة علىٰ سبيل التّفويض فيعبدونهم طمعاً و خوفاً انتهىٰ كلامه.

أقُول الذّي يستفاد ممّا ذكروه في تفسير الآية هو أن العاجز ليس كالقادر على كلّ شئٍ فكما أنّ العبد المملوك لغيره يكون عاجزاً عن التّصرف لأن العبد و ما في يده كان لمَولاه بخلاف الحرّ الّذي يتصرّف في ملكه كيف يشاء كذلك الأصنام و الأوثان لا قدرة لها علىٰ شئٍ بخلاف الخالق القادر علىٰ كلّ شئٍ فكما أنّ العبد و الحرّ لا يَتساويان كذلك الأصنام و الأوثان بالنّسبة الىٰ الخالق المُتعال.

و من المعلوم أنّ عجزها لكونها مخلوقاً كغيرها محتاجاً اليه والمخلوق المحتاج لا يكون معبوداً و هو المطلوب.

وَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَيٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ



قال الرّاغب في المفردات، الأبكَم هو الذّي يولد أخرس فكلّ أبكم أخرس و ليس كلّ أخرس أبكم، و يقال بكم عن الكلام اذا ضعف عنه لضعف عقله كالأبكم انتهىٰ.

و قال أبو زيد رجلٌ أبكم و هو العّي المفحم و أيضاً الأبكم الأقطع اللّسانالّذي لا يحسن الكلام.

و قيل هو الّذي لا يعقل، و قيل هو المطبق الذّي لا يسمع و لا يبصر، اذا عرفت هذا.

فاعلم أنّ اللّه تعالیٰ ضرب في هذه الآية مثلاً أخر لنفسه و للوثن، فالأبكم الّذي لا يقدر علی شئ هو الوثن و الّذي يأمر بالعدل و الإحسان هو اللّه تعالیٰ، و قيل الأبكم أبوجهل والذّي يأمر بالعدل هو عمّار بن ياسر و كان أبوجهل يعذّبه على الإسلام و يعذّب أمّه سمّية و كانت مولاة لأبي جهل و قال لها ذات يوم أنّما أمنت بمحمّد لأنّك تحبّينه لجماله ثمّ طعنها بالرّمح فماتت فهي أوّل شهيد مات في الإسلام.

و قال عطاء الأبكم أمّية بن أبي خلف (أُبي بن خلف) و كان لا ينطق بخير.

أقول الحقّ أنّ المقصود منه كلّ عبدٍ موصوف بهذه الصّفات المذمومة و كلّ حرٍّ موصوف بتلك الصّفات الحميدة و أنّهما لا يستويان عند العقل فكذلك من يأمر بالعدل و هو علیٰ صراطٍ مستقيم و هو اللّه تعالى لا يساوي الأبكم الأخرس الذّي لا يقدر على التكلّم فضلاً عن الأمر بالعدل و هو الصّنم و الى هذا ينظر قول من قال أنّ المراد بالأبكم الكافر، و الّذي يأمر بالعدل المؤمن جملة بجملة كلٌّ علی مولاه.

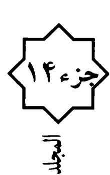
أي علیٰ ولّيه **أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ** أي أينما يرسله لا يأت بخيرمن صفات الأبكم و المعنى أنّ الأبكم الّذي لا يقدر على شٍ يعجزه و هو كلٌّ على ولّيه أينما يرسله الوّلي لا يأت بخير هل يستوي هو و من يأمر بالعَدل و هو علیٰ صراطٍ مستقيم.

و من المعلوم أنّهما لا يستويان عند العقل فكيف يستوي اللّه القادر الصَّنم العاجز عند هؤلاء الكفّار بَل يرجّحون الصَّنم على اللّه فيعبدون الصَّنم دونه دليلٌ على جهلهم و ضلالتهم عن طريق الحقّ و خروجهم عن زيّ العقلاء بل عن حدود الإنسانيّة.

■

وَ لِلّٰهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰآ أَمْرُ ٱلسّٰاعَةِ إِلّٰا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَ ٱللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ لٰا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّراٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمٰآءِ مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللّٰهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَ ٱللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْـعٰامِ بُـيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهٰا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْواٰفِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰآ أَثٰاثًا وَ مَتٰاعًا إِلٰى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَ ٱللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبٰالِ أَكْنٰانًا وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ ٱلْـبَلاٰغُ ٱلْـمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللّٰهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهٰا وَ أَكْثَرُهُمُ ٱلْكٰافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لٰا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لٰا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَ إِذٰا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذٰابَ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لٰا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَ إِذٰا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكٰآءَهُمْ قٰالُوا رَبَّنٰا هٰؤُلٰآءِ شُرَكٰآؤُنٰا

ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿۸۶﴾ وَ أَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿۸۷﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿۸۸﴾ وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿۸۹﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ ٱلْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَ يَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ وَ ٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿۹۰﴾ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَ لَا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿۹۱﴾ وَ لَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿۹۲﴾ وَ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿۹۳﴾ وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا



ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

◀ اللّغة

كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ: اللَّمح النَّظر بسرعةٍ.

جَوِّ ٱلسَّمَآءِ: الجَوّ بفتح الجيم و تشدّيد الواوُ ما بين السّماء والأرض.

ظَعْنِكُمْ: الظَّعن سير البادية في الإنتجاع و التَّحول من موضع الىٰ موضع، والظَّعن الهودج أيضاً.

ظِلَٰلًا: الظّلال كلّ ما يستظل به من البيوت و الشّجر.

أَكْنَٰنًا: الأكنان جمع، كِنّ، و هو الحافظ من المطر و الرّيح و غير ذلك و هى هنا الغيران في الجبال.

سَرَٰبِيلَ: القُمص واحدها سربال.

يُسْتَعْتَبُونَ: أي يسترضون.



◀ الإعراب

لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا الجملة حال من الضّمير المنصوب في، أخرجكم مَا يُمْسِكُهُنَّ الجملة حال من الضّمير في مسخّرات، أو من الطّير، و يجوز أن يكون مستأنفاً ظَعْنِكُمْ بسكون العين و فتحها و هما لغتان مثل النّهر و هو مصدر، ظعن أَثَٰثًا معطوف على سكناً.

◀ التّفسير

وَ لِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ

الغيب بفتح الغين مصدر غابت الشّمس وغيرها اذا إستترت عن العين يقال غاب عنّي كذا و إستعمل في كلّ غائبٍ عن الحاسّة و عمّا يغيب عن علم الإنسان بمعنىٰ الغائب و يقال للشّئ غيب و غائبٌ بإعتباره بالنّاس لا باللّه تعالىٰ فأنّه لا يغيب عنه شئ كما لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في السّموات و لا في الأرض فمعنىٰ قوله: **وَ لِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** ولِلّه ما غاب عن حواسّكم في السّموات و الأرض أي أنّه تعالىٰ عالم به.

و قال بعضهم الغيب القرأن و قيل هو القدر و لعلّه إشارة منهم الىٰ ما يقتضيه لفظه.

و قال بعض المفسّرين الغيب هنا ما لا يدرك بالحسّ و لا يفهم بالعَقل.

و قال الزّمخشري أي يختصّ به علم ما غاب فيهما من العباد و خفي عليهم علمه أو أراد بغيب السّموات و الأرض يوم القيامة علىٰ أنّ علمه غائب عن أهل السّموات و الأرض لم يطّلع عليه أحد منهم انتهىٰ.

و أنّما لا يخفىٰ عليه شئ و أنّه عالمٌ بالظّاهر و الباطن لأنّ الجهل نقصٌ و النّقص من شئون الممكن، والواجب منّزهٌ عنه.

ثانياً: أنّه تعالٰى عالم بذاته و ذاته علّة إيجاد الكلّ فهو عالم بكلّ شئ المطلوب.

وَ مَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ هذا تَمثيل للقُرب كما تقول ما السَّنة إلاّ لحظة.

و قال الزّجاج لم يرد أنّ السّاعة تأتي في لمح البصر و أنّما وصف سرعة القدرة علىٰ الإتيان بها أي يقول للشّئ كن فيكُون.

و قيل لمّا كانت السّاعة أتية قطعاً جعلت من القرب كلمح البصر.

أقول المراد أنّ هو أي أمر السّاعة عنده دان و هو عندكم بعيدٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**[١].

و قوله: **أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** الحقّ أنّ، أو، هُنا لِلإبهام علىٰ المخاطب:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَتَيٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا**[٣].

و هو تعالىٰ قد علم عددهم و متىٰ يأتيها أمره كما علم أمر السّاعة لكنّه أبهم على المخاطب لمصلحةٍ لا يعلمها إلاّ هو، و الغرض أنّ، أو، في الآية ليس لإفادة الشكّ أو التّخيير في حقّه تعالىٰ.

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** بمنزلة التّعليل لما ذكره فكأنّه قيل كيف يكون أمر السّاعة كلمح البصر أو هو أقرب، فقال تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** و عموم القدرة يقتضي أعمالها كيف يشاء و هو ظاهر.

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ أمر السّاعة و أنّها كائنة لا محالة فكان في ذلك دلالة علىٰ النَّشأة الآخرة و تقدّم وصفهم بإنتفاء العلم ذكر اللّه تعالىٰ النَّشأة الأولىٰ إخراجهم من بطون أمّهاتهم غير عالمين شيئاً تنبيهاً علىٰ وقوع النَّشأة الآخرة فقال:

وَ ٱللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

قرأ الأعمش و إبن و ثّاب و حمزة، أمّهاتكم، بكسر الهَمزَة والميم وأمّا الكسائي فكسر الهَمزَة و فتح الميم و الباقون بضمّ الهَمَزة و فتح الميم علىٰ الأصل، و أصَل الأمّهات، أمّات، فزيدت الهاء تأكيداً كما زادوها في أهرقت الماء و أصله أرقت الماء و المعنى أنّ اللّه تعالىٰ أخرجكم من بطون أمّهاتكم

١- الحجّ = ٤٧ ٢- الصافات = ١٤٧
٣- يونس = ٢٤

الیٰ الدُّنيا فالمخرج منها هو اللّه و فيه إشارة الى أنّه لولا إخراجه إيّاكم لم تقدروا على الخروج منها و هو كذلك.

و قوله: **لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا** إشارة الیٰ أنّ العلم ممّا أفاضه اللّه على عباده و هو من أحسن النِّعم بعد نعمة الوجود و فی قوله و جعل لكم السَّمع و الأبصار و الأفئدة إشارة الیٰ أمرين:

احدهما: أنّ حصول العلم لِلإنسان أنّما هو بسبب السَّمع و الأبصار فبالسَّمع يسمع و بالبصر يبصر فيحصل له العلم بالمعقولات و المحسوسات و توضيحه إجمالاً:

أنّ العلم ينقسم الیٰ قسمين، حصوليّ و حضورّي و العلم الحصولي عبارة عن الصُّورة الحاصلة من الشّئ عند العاقل و الحضورّي عبارة عن حضور المدرك لدى المدرك و لا تحصيل فيه، لا كلام لَنا فعلاً في العلم الحضورّي لأنّه مختصّ باللّه تعالى و أنبياءه و أوصياءه إلاّ أنّه في الواجب ذاتّي غير عارضّي لأنّ العلم عين ذاته تعالیٰ كما ثبت في محلّه و أمّا في المخلوق الممكن عارّضي لأنّه من إفاضات اللّه تعالیٰ على نفوسهم القدّسية بحسب إستعدادها و للحبث فيه مقام آخر.

وأمّا العلم الحُصوّلي الّذي هو عبارة عن الصُّورة الحاصلة عند العاقل فحصوله من طريقين:

أحدهما: من طريق السّمع.

ثانيهما: من طريق البصر و ذلك لأنّ الصُّور على قسمين، صورة عقلّية، و صورة حسّية، فالصُّور العقلّية تحصل للإنسان من طريق السَّمع و إستماع كلمات العلماء و الآيات و الأخبار و الآثار و غير ذلك.

و أمّا الصُّور الحسّية فهي تحصل بالنّظر اليها بحاسّة فمن لا يسمع و لا يبصر كيف يحصل له العلم فقوله: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ** بعد قوله: **لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا** إشارة الیٰ ما ذكرناه.

الثّانی: أن يكون قوله: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ** إشارة الیٰ عظم منزلتهما في الإنسان من بين النِّعم و أنّهما أرفع مكاناً و أعظم شأناً من الذّائقة و اللاّمسة و الشّامة و لذلك إختلف أهل العقول في أفضّلية أحدهما علیٰ الآخر بعد إتفّاقهم على أفضّليتهما علیٰ سائر القویٰ فمنهم من قال بأفضّلية السَّمع على البصر و منهم من قال بالعكس و حيث كان كذلك فتخصيصهما بالذّكر إشارة الیٰ فضلهما و شرفهما علیٰ سائر القوی و كيف كان لا شكّ أنّ العلم يحصل بهما كما لا شكّ أنّ الإنسان ينتفع بهما أكثر من سائر القوی و أمّا قوله: **وَ ٱلْأَفْئِدَةَ** بعد قوله: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ** فهو إشارة الیٰ نكتة خفّية و هی أنّ مجرّد الإستماع والنّظر لا فائدة فيه إذا لم يكن عن تفقُّهٍ و تدبّرٍ ألا تریٰ أنّ السَّمع و البصر موجودان في أكثر أفراد البشر و مع ذلك لا يحصل لهم العلم بهما لعدم تدبّرهم و تفكّرهم و إن شئت قلت أنّ وظيفة السَّمع و البصر ليست إلاّ الإدراك المجّرد الإستماع و الرؤّية و أمّا أنّ المسموع ما هو و المرئّي ما هو فهو وظيفة القلب فالحّواس بمنزلة الأنهار الجارية و القلب بمنزلة البحر و لذلك يقال أنّ القاضي في المدّركات هو القلب لأنّه الحاكم بحسن المسموع و المنظور أو قبحه و الحاصل أنّ جميع الحّواس من السّامعة و الباصرة و اللاّمسة و الذّائقة و الشّامة وظيفتها الإدراك فقط و أمّا الحكم بكيفيّة المدرك فهو من وظائف القلب فمن لا تفقّه فيه لا خير فيه و هذا هو السرّ لبيان الأفئدة بعد السَّمع والأبصار و فی قوله: **تَشْكُرُونَ** إشارة الیٰ القاعدة العقّلية المسّلمة عند الكلّ و هی وجوب شكر المنعم عقلاً و المعنی أنّما أنعمنا عليكم بهذه النِّعم الجليلة لعلّكم تشكرون فأنّ الشّكر علی النِّعمة يوجب زيادتها كما أنّ كفرانها يوجب زوالها في الدّنيا و العقاب في الأخرة:

قال اللّه تعالیٰ: **وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ**[١].

١- إبراهيم = ٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦوَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللّٰهُ لَكُمْ اٰيَاتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**[٣] والآيات كثيرة.

اللّهم إجعلنا من الشّاكرين آمين ربّ العالمين.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللّٰهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ مدارك العلم الثّلاثة من السّمع و النّظر و العقل و أنّ الأوّلين مدرك المحسوس و الثّالث مدرك المعقول إكتفى في هذه الآية من ذكر المحسوس بذكر النّظر فقط فأنّه أغرب لما نشاهد به من عظيم المخلوقات على بعدها المتفاوت كمشاهدة النيّرات الّتي في الأفلاك و جعل هنا موضع الإعتبار و التّعجب الحيوان الطّائر فأنّ طيرانه في الهواء مع ثقل جسمه ممّا يعجب منه و يعتبر به و تضّمنت الآية أيضاً ذكر مدرك المعقول في كونه لا يسقط إذ ليس تحته ما يدعمه و لا فوقه ما يتعلّق به فيعلم بالعقل أنّه له ممسك قادر علىٰ إمساكه و هو اللّه تعالىٰ كما قال في موضع آخر من الكتاب:

قال اللّه تعالىٰ: **أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ**[٥].

١- النّمل = ٤٠
٢- القَمَر = ٣٥
٣- المائدة = ٨٩
٤- الملك = ١٩
٥- النّور = ٤١

و معنى مسخّرات، مذّللات و بني للمفعول دلالة علىٰ أنّ له مسخِّرٌ.

و قال الرّازي هذا دليل علىٰ كمال قدرته و حكمته فأنّه تعالىٰ خلق الطّائر خلقة معها يمكن الطّيران خلقه خلقةً لطيفة يسهل بسببها خرقه و النّفاذ فيه و لولا ذلك لما كان الطّيران ممكناً انتهىٰ.

أقُول كلامه مُنتزع من كلام القاضي قال أنّما أضاف الإمساك الىٰ نفسه لأنّه تعالى هو الّذي أعطىٰ الآلات الّتي لأجلها تمكّن الطّائر من تلك الأفعال.

و قال بعض المفسّرين ردّاً عليه أنّه كان يمكنه أن يطيروا ولو لم يخلق له جناح و أنّه كان يمكنه خرق الشّئ الكثيف و ذلك بقدرة اللّه و أنّ الممسك له في جوّ السّماء هو اللّه تعالىٰ و قد قام الدّليل على أنّ جميع الأفعال كلّها بإرادة اللّه و مشيّئته و قام الدّليل أيضاً على أنّه تعالى هو الفاعل المختار فلا نقول أنّ لولا الجناح ولطف الجوّ ما أمكَن الطّيران و لا لولا الآلات ما أمكن.

و قال الزّمخشري في قوله: **مُسَخَّرَٰتٍ** أي مذلّلات للطيّران بما خلق لها الأجنحة و الأسباب المؤدتة لذلك، و الجوّ الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو.

و قال في قوله: **مَا يُمْسِكُهُنَّ** أي في قبضهنّ و بسطّهم و وقوفهنّ، إلاّ اللّه، بقدرته انتهىٰ.

و قال بعض المعاصرين في تفسير الكلام ما هذا لفظه، وإثبات الإمساك لِلّه سبحانه و نفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيّعية هناك مؤثّرة في ذلك و كلامه تعالىٰ يصدّق ناموس العلّية و المعلّولية أنّما هو من جهة أنّ توّقف الطَّير في الجوّ من دون أن تسقط كيفما كان و الىٰ أيّ سببٍ إستند هو و سببه و الرّابطة الّتي بينهما جميعاً مستندة الى صنعه تعالىٰ فهو الّذي يفيض الوجود عليه و علىٰ سببه و علىٰ الرّابطة الّتي بينهما فهو السّبب المُفيض بوجوده حقيقة وأن كان سببه الطّبيعي القريب معه يتوقّف هو عليه و معنى توّقفه في وجوده علىٰ

سببه ليس أنّ سببه يفيد وجوده بعد ما إستفاد وجود نفسه منه تعالىٰ بل أنّ هذا المسّبب يتوقّف في أخذه الوجود منه تعالىٰ الى أخذ سببه الوجود منه تعالىٰ قبل ذلك و قد تقدَّم بعض الكلام في توضيح ذلك من قريب و هذا معنىٰ توحيد القرآن و الدّليل عليه من جهة لفظه أمثال قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَ ٱلْأَمْرُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللّٰهُ خٰالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**(٣) انتهىٰ موضع الحاجة منه.

أقُول هاهنا إشكال لم يتنبّه القوم له و هو أنّ إمساك الطّير في جوّ السَّماء أي حفظهما عن السُّقوط لا يختصّ بالطّير فقط كما هُو واضح قال اللّه تعالىٰ في إمساكه السَّماء أن تقع علىٰ الأرض:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰآءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلّٰا بِإِذْنِهِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولا**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا يَفْتَحِ ٱللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلٰا مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلٰا مُرْسِلَ لَهُمِنْ بَعْدِهِ**(٦).

فهذه الآيات تدلّ على أنّ اللّه تعالىٰ هو الممسك لجميع ما في الجوّ:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱللّٰهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا**(٧).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا**(٨).

و اذا كانت السّموات مع ما فيها من الكرات مع ثقلها لا تسقط علىٰ الأرض و نعلم أنّ اللّه هو الممسك لها عليها نستكشف منه كمال قدرته، و اذا كان اللّه

١- الأعراف = ٥۴
٢- البقرة = ١۶٥
٣- الزّمر = ۶٢
۴- الحجّ = ۶٥
٥- فاطر = ۴١
۶- فاطر = ٢
٧- الرّعد = ٢
٨- لقمان = ١٠

تعالىٰ قادراً على إمساك الكرات في الجوّ فهو قادر علىٰ إمساك الطَّير بطريقٍ أولى بل نقول إمساك الطّير في الجوّ بالنّسبة الى الكرات العظيمة الثّقيلة ليس بشئٍ يعتنى به و علىٰ هذا فإن كان المراد بالآية ما ذكروه من أنّها تدُلّ علىٰ كمال قدرته تعالىٰ من حيث إمساكه الطّير في الجوّ فإمساك الكرات في الجوّ أدلّ و أشمل و أعظم من إمساك الطّير الحقير بالنّسبة اليها، فما وجه تخصيص الطّير بالذّكر في الآية و المفروض أنّ ما يمسكه اللّه في الجوّ لا ينحصر بالطَّير و قلنا أنّ القدرة له تعالىٰ ثابتة بغيرها أتمّ و أكمل منها بها و لم أر في التّفاسير الموجودة عندنا من العامّة و الخاصّة من تنّبه لهذا الإشكال بل جميع المفسّرين إعتمدوا في الآية علىٰ إثبات قدرته تعالى من حيث أنّه أمسك الطّير في الجوّ بقدرته و هو كما ترى لا يوجب تخصيص الطّير أو إمساكها بالذّكر.

اذا عرفت هذا فنقول الذّي ظهر لنا من كلامه تعالى و هو أعلم بما أراد منه، هو أنّ إثبات القدرة في الآية ليس من جهة إمساكه الطّير في الجوّ و منعها من السُّقوط كما قاله المفسّرون بل إثبات القدرة في الطَّير من جهة أنّه تعالى خلق فيها الإرادة دون غيرها من الأفلاك و ذلك لأنّ الطائر تطير بإرادتها و لذلك تراها تطير بأي نحوٍ شاءت فتارة تطير الىٰ الشَّرق و أخرى الى الغرب و لا تقف في موضع خاصّ في الكرات السّماوية الثّابتة أو المتحرّكة من غير إرادةٍ و هذا هو الفرق بين إمساك الطّير في الجوّ و غيرها و فيه دلالةٌ علىٰ كمال قدرته و أنّه يقدر على إمساك المخلوق في الجوّ كيف يشاء و من المعلوم أنّ حركة الطَّير في الجوّ بإرادةٍ منه دليل على قدرته فأنّ جعل الإرادة في الحيوان من أعظم الدّلائل علىٰ القدرة و لهذا خصَّص الطّير بالذّكر هذا ما خطر ببالنا و اللّه أعلم فقوله: **مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ** بسبب الإرادة الّتي جعلها لهنّ أنّ في ذلك لآيات لقومٍ يؤمنون، أي يصّدقون بتوحيد الّه و يصدّقون أنبياءه لأنّهم هم المنتفعُون بها دُون غيرهم فأنّ من لا يصدّق به تعالىٰ لا ينسبه الىٰ اللّه و هو ظاهر.

ثمّ أشار اللّه تعالىٰ الى نعمة أخرىٰ ممّا أنعمه اللّه علينا فقال:

وَ ٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتًا

لمّا ذكر اللّه تعالى ما منَّ به على العباد من خلقهم و ما خلق لهم من مدارك العلم و هو السَّمع و البصر و الأفئدة ذكر ما إمتنّ به عليهم ثانياً ممّا ينتفعون به في حياتهم من الأمور الخارجيّة عن دوابّهم من البيوت الّتي يسكنونها من الحجر و المدر و الأخشاب و غيرها و السَّكن فعل بمعنى مفعول كالقنص و النَّقص و أنشد الفرّاء:

جـاء الشّـتاء لمّـا إتّـخذ سكـناً يا ويح نفسي من حفر القرامـيص

و ليس السَّكَن بمصدر كما ذَهب اليه بعضهم كأنّه تعالىٰ ذكر أوّلاً ما غالب البيوت عليه و هى البيوت الّتي لا تنتقل بل ينتقل النّاس اليها كالبيوت الّتي تبنىٰ من الأحجار و الطّين و هى الأغلب فيها خصوصاً في المدن و القرىٰ.

و ذكر ثانياً ما منَّ به علينا من البيوت المتّخذة من جلود الأنعام و هو ما ينتقل من مكان الى مكانٍ أخر كالقباب و الخيام و الفساطيط الّتي تؤخذ من الأدم.

و قيل ذكر أوّلاً البيوت على طريق العموم و هو قوله: **وَ ٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا**.

و ذكر ثانياً البيُوت علىٰ طريق الخصوص و هي المتّخذة من جلود الأنعام و أشعارها و أوبارها و هو قوله: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتًا** و فيه تنبيهٌ على حال أكثر العرب فأنّهم لإنتجاعهم أنّما بيوتهم من الجلود.

قيل أنّ البيوت الّتي من الأشعار و الأصواف و الأوبار لا تدخل في الآية لكون المنصوص فيها هو جلُود الأنعام لا أشعارها و أصوافها و الحقّ دخولها في الآية و ذلك لأنّ الشّعر و الصَّوف و الوبر تؤخذ من جلد الحيوان فقوله: **مِنْ جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ** يشمل الكلّ و عليه فمعنىٰ الكلام، جعل لكم من جلود الأنعام

و ما يؤخذ منها من الشَّعر و الصّوف بيوتاً قابلة للإنتقال في أسفاركم كما قـال: **تَسْتَخِفُّونَهٰا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ** أي يخّف عليكم حَملها يـوم ظعنكم أي إرتحالكم من مكانٍ الى مكانٍ و يوم إقامتكم الذّي تـنزلون مـوضعاً تقيمون فيه.

وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰآ أَثٰاثًا وَ مَتٰاعًا إِلىٰ حِينٍ في هذا الكلام إشارة الى المنسوجات التّي تؤخذ منها الألبسة و غيرها و قوله: **أَثٰاثًا وَ مَتٰاعًا** قيل التّقدير جعل من أصوافها و أوبـارها و أشـعارها أثـاثاً و قـيل أثـاثاً منصوب علىٰ الحال، و لا واحد للأثاث و لا للمتاع و قوله الى حينٍ مـعناه الى وقتٍ يهلك فيه.

ثمّ أشار اللّه تعالىٰ الى نعمةٍ أخرىٰ فقال:

وَ ٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلٰالاً يعني من الشَّجر و غيره ما تسكنون فيه من أذى الحرّ و البرد **جَعَلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ** يعني قَميصاً من القطن و الكتان، و قيل هي الدُّرُوع قال كعب بن زُهير:

شـمّ العـرانـين أبـطالُ لبـوسهم ... من نسج داود في الهيجا سـرابـيل

و السّربال عام يقع على ما كان من حديد و غيره.

و قال الزّجاج كلّ ما لبسته فهو سربال (يَقيكم الحرّ) أي تقيكم السّرابيل من أذى الحرّ **وَ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ** البأس في أصل اللّغة الشّدة و هنا الحرب و المقصود منها الدُّروع.



كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ أي أنّ النِّعم لا تختّص بما ذكرناه بل هي أكثر من أن تحصى فكما أنعم اللّه علىٰ العباد بهذه النِّعم المشار اليها في الآية كذل ينعم عـليكم بـجميع مـا تـحتاجون اليـه و هـو إتـمام نـعمه عليكم في الدّنيا لعلّكم تسلمون، أي لكي تسلمون و فيه إشارة الىٰ أنّـه تـعالىٰ قد أفاضَ بها علىٰ النّاس ليسلموا.

و قرأ إبن عامر بفتح التّاء في تسلمون و المعنى لتسلموا بتلك الدُّروع من الجراحات و هى قراءة شاذّة و جمهور القُّراء على الضَّم و المعنى لكي تنقادون و تطيعون ربّكم الّذي أنعم عليكم ما أنعم فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و أنتم عقلاء.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ

أي فأن أعرضوا عن الحقّ مع وجود هذه الدّلائل الحسّية و العقليّة و توجّهوا الى الباطل فأنّما عليك، يا محمّد البلاغ المبين، أي البلاغ الظّاهر، و المقصود أنّ الرّسول ليس له إلاّ البلاغ و بذلك قد تمّت الحجّة عليكم في الدّنيا و صحَّت العقوبة في العقبى و ذلك لأنّهم عرفوا الحقّ ثمّ أنكروه كما:

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ

الظّاهر أنّ المراد بالنّعمة هنا جميع ما أنعم اللّه عليهم من خلق نفوسهم و أقدارهم و إكمال عقولهم و ما خلق اللّه لهم من أنواع المنافع التّي ينتفعون بها ثمّ أنّهم مع ذلك ينكرونها.

و يحتمل أن يكون المراد بالنّعمة نعمة الدّين أو نعمة الرّسالة و المعنى أنّهم عرفوا الحقّ أو عرفوا النّبي و أنّه صادق في رسالته و لم يؤمنوا به تعمُّداً و عناداً و الحاصل أنّ نعمة اللّه في الآية أعمّ من الظّاهرة و الباطنة و كذلك عرفانهم و إنكارهم.

و من المعلوم المسلّم عند العقل أنّ الإنكار بعد المعرفة أقبح و أشنع من الإنكار البدوي الّذي غير مسبوقٍ بالمعرفة و ذلك لأنّ الإنكار بعد المعرفة يدخل صاحبه في جملة المعاندين و لا شكّ أنّ المعاند أظلم من المنكر لأنّ المنكر قد يكون إنكاره بسبب جهله و عدم وضوح الحقّ له و المعاند ليس كذلك ولأجل هذه الدّقيقة قال تعالىٰ يعرفون نعمة اللّه ثمّ ينكرونها و لم يقل و

ينكرونها فأنّ العطف بكلمة، ثمّ، يفيد التّراخي وبالواو يفيد الجمع فالمعنىٰ يعرفون نعمة اللّه أوّلاً ثمّ أنّهم بعد المعرفة أنكروها و لا حجّة لهم فيه إلاّ العناد و اللّجاج و أكثرهم هم الكافرون مع أنّ جميعهم كفّار، فقيل أنّ المراد أكثر أهل مكّة لأنّ منهم من أبى و قيل معنى الكافرون الجاحدون المعاندون لأنّ فيهم من كان جاهلاً لم يعرف فيعاند.

و قيل لأنّ فيهم من لقنُّوه الكفر ممّن لم يبلغ حدّ التّكليف لصغره و لم تقم الحجّة عليه أو من هو ناقص العقل فلا يحكم عليهم بالكفر.

و قيل أنّ منهم من ينكر النّعمة في حالٍ لم يقم عليه حجّة للشّواغل في قلبه التّي تلهيه عن تأمُّل أمره و الفكر في حاله فيكون في حال حكم السّاهي و الصّبي و أن كان مكّلفاً بغير ذلك من الأمور فلا يكون كافراً بالإنكار في ذلك الحال ذكر هذين الوجهين الأخيرين في التّبيان.

أقول ما ذكروه لا بأس به أن كان المراد بالكفر في قوله: **وَ أَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ** و هو كفر الجحود بمعنى أن يجحد الجاحد و يعلم أنّه حقّ و إستّقر عنده كما قال تعالىٰ: **وَ جَحَدُوا بِهَا وَ ٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنْفُسُهُمْ**[١] لا بمعنىٰ إنكار الرّبوبية و أن لا جنّةنار.

و أمّا أن قلنا بالكفر في الآية كفر النّعمة فلا نحتاج الىٰ هذه التّكلفات و التّوجيهات البعيدة عن الأذهان بل المعنىٰ أنّ أكثر النّاس يكفرون بالنّعمة يشكرون عليها و هذا حكمٌ عامّ يشمل الكافر و المسلم و هو واضح.

فأنّ اللّه تعالىٰ يقول في كتابه: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**[٢] و مفهوم الكلام أنّ أكثرهم لا يشكرون فهم الكفرون بالنّعمة و هذا هو المراد في المقام.

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

١- النمل = ١۴   ٢- سبا = ١٣

الأمّة الجماعة و الشّهيد في كلّ أمّةٍ رسوله و قيل قومٌ من المؤمنين المرّضيين عند اللّه.

إن قُلت ما معنى الشّهادة عليهم واللّه تعالى عالمٌ بأحوالهم.

قُلتُ معناها أنّ الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء يوم القيامة فيطلب اللّه الأنبياء بالبيّنة علىٰ أممهم على أنّهم قد بلَّغوا أحكام اللّه اليهم بل تشهد عليهم جوارحهم أجيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تُكَلِّمُنٰآ أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّآ أَرْسَلْنٰآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شٰاهِدًا عَلَيْكُمْ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مٰا دُمْتُ فِيهِمْ**[٥].

و أمّا قوله: **لٰا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لٰا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** أي لا يُؤذن لهم في الإعتذار و قيل لا يؤذن لهم في الإعتذار بما ينتفعون و لا يعرضون للعتبىٰ الّذي هو الرّضا.

و قال الجبائي أنّ اللّه يخلق فيهم العلم الضّروري بأنّهم إن إعتذروا لم تقبل معذرتهم و إن إستعتبوا لم يعتبوا و لم يرد أنّهم لا يؤمرون بالإعتذار و لا يُمكّنون منه لأنّ الأمر و التّكليف قد زال عنهم.

وَ إِذٰا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذٰابَ فَلٰا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لٰا هُمْ يُنْظَرُونَ

١- النُّور = ٢٤ — ٢- يٰس = ٦٥
٣- المُزّمل = ١٥ — ٤- النّساء = ١٥٩
٥- المائدة = ١١٧

قيل لمّا كانت حالة العذاب في الدّنيا مخالفة لحالة الآخرة إذ من رأ العذاب في الدّنيا جاز يؤخّر عنه و إن وقع فيه أن يخّفف عنه أخبر اللّه تعالىٰ أَنّ عذاب الآخرة لا يكون فيه تخفيفف و لا نظرة و الظّاهر أنّ جواب، إذا، قوله: **فَلاَ يُخَفَّفُ** و هو على إضمار، هو، أي فهو لا يخفّف لأنّه لولا تقدير الإضمار لَم تدخل الفاء لأنّ جواب، إذا، إذا كان مضارعاً لا يحتاج الى دخول الفاء سواءٌ كان موجباً أم منفّياً.

أقول الوجه في عدم التّخفيف و عدم الإنظار هو أنّ الآخرة ليست بِدار التّكليف و لذلك لا يخفّف فأنّ وَقت التّوبة و النّدم قد فات و الإنظار الإمهال أي لا يمهلهم اللّه تعالىٰ:

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن حالة الكفّار و المشركين في الآخرة و أنّهم إذا رأوا شُركائهم الّذين كانوا يعبدونهم من دون اللّه في الدّنيا و هم الأصنام و الأوثان الّذين جعلوا لهم نصيباً في أموالهم، أو جعلوهم شركاء في العبادة، فيقولون ربّنا هؤلاء شُركائنا الّذين كنّا ندعوا من دونك و هذا إعتراف منهم بالشّرك، فألقوا اليهم القول، أي فألقىٰ المعبودون اليهم أي الىٰ المشركين القول و هو إنّكم لكاذبون في إنّا نستحقّ العبادة أو في قولكم إنّا دعوناكم الىٰ العِبادة و محصّل الكلام هو أنّ المشركين لما إعترفوا بشركهم و أحالوا الذّنب و التّقصير الى المعبودين فكذّبوهم و قالوا لهم أنّكم لكاذبون هكذا قيل في تفسير الآية بعيد لا يساعده العقل و لا النّقل و ذلك لأنّ الكفّار يعلمون علماً ضّرورياً في الآخرة أنّ العذاب سينزل بهم و لا نصرة و لا فدية و لا شفاعة و تقّدم الأخبار بأنّهم شركاء و الأخبار أنّهم كانوا يدعونهم أي يعبدونهم و على هذا لا يرجع التّكذيب من المعبودين الىٰ المشركين بل التّكذيب عائد للأخبار

الأوّل أي لسنا شركاء للّه في العبادة و لا آلهة فهم نزّهوا اللّه تعالىٰ عن أن يكونوا شركاء له و يحتمل أن يكون التّكذيب عائداً علىٰ الأخبار.

الثّاني: و هو العبادة لما لم يكونوا راضين بالعبادة جعلوا عبادتهم كلاّ عبادة أو لما لم يدعوهم الى العبادة ألا ترى أنّ الأصنام و الأوثان لا شعور لها بالعبادة فضلاً عن أن يدعوا و أن كان الشّركاء الشّياطين جاز أن يكونوا كاذبين في إخبارهم بكذب من عبدهم كما كذب إبليس في قوله إنّي كفرت بما أشركتموني من قبل الآية.

و قال الرّازي في تفسير الآية و إنّما وصفهم اللّه بكونهم شركاء لوجهين:

الأوّل: أنّ الكفّار كانوا يسمّونها بأنّها شركاء.

الثّاني: أنّ المراد بالشّركاء الشّياطين الّذين دعوا الكفّار الى الكفر و هو قول الحسن و إنّما ذهب الى هذا القول لأنّه تعالىٰ حكى عن هٰؤلاء الشّركاء أنّهم ألقوا الى الّذين أشركوا أنّهم لكاذبون و الأصنام جمادات فلا يصّح هذا القول فوجب أن يكون المراد بالشّركاء الشّياطين حتّى يصّح فهم هذا القول و هذا بعيد لأنّه تعالىٰ قادرٌ علىٰ خلق الحياة في تلك الأصنام و على خلق العقل و النّطق فيها و حينئذٍ يصّح منها هذا القول إنتهىٰ كلام الرّازي.

و أنت ترىٰ أنّ هذا الكلام لا يرجع الى محّصل أمّا أوّلاً فلأنّ الآية خالية عن ذكر الشّياطين.

ثانياً: لا دليل على خلق الحياة في الأصنام و خلق العقل و النّطق فيها وأن كان اللّه تعالىٰ قادراً علىٰ كلّ شيءٍ و قوله و الأصنام جمادات فلا يصّح منهم هذا القول. ففيه أنّ الآية لا تدّل علىٰ أنّ الأصنام قالوا شيئاً بل صريح الآية أنّ الشّركاء و هم الأصنام مثلاً ألقوا اليهم القول و الإلقاء غير القول و كيف كان فالمعنىٰ لا خفاء فيه و هو أنّ المعبودين يلقون الى العابدين يوم القيامة كذبهم في دعواهم واللّه أعلم.

وَ أَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

قيل معناه إستسلموا بالذّل لحكم اللّه و قوله: **وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** أي يضلّ ما كانوا يأملونه و يقّدرون من أنّ آلهتهم تشفع لهم، و الضّمير في قوله: **وَ أَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ** عائد على المشركين و السَّلم، الإستسلام و الإنقياد لحكم اللّه بعد الإباء و الإستكبار في الدنيّا فلم يكن لهم إذ ذاك حيلة و لا دفع، و الحّق أنّ الضّمير في قوله: **وَ أَلْقَوْا** فألقوا عائد على المشركين و الشُّركاء جميعاً و المعنى إستسلم العابد و المعبود و أنقادوا لحكم اللّه و أمّا الضّمير في ضَّلوا، فهو عائد على المشركين خاصّة.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ

الظّاهر أنّ الّذين مبتدأ و زدناهم الخبر و يحتمل أن يكون قوله: **ٱلَّذِينَ** بدلاً من الضّمير في، يفترون، و قوله: **زِدْنَاهُمْ** فعل مستأنف إخباره و معنى الآية أنّ الّذين كفروا باللّه و صدّوا أي منعوا سبيل اللّه أي منعوا غيرهم عن الإيمان باللّه و السّلوك على سبيله زدناهم عذاباً فوق العذاب أي زدناهم عذاباً فوق عذابهم على كفرهم بسبب ما كانوا يفسدون في الأرض و ذلك لأنّ الصدّ عن سبيل اللّه من أعلى مصاديق الفساد في الأرض فهم يعذّبون على كفرهم أوّلاً و على صدّهم عن سبيل اللّه ثانياً و فيه إشارة الى أنّ اللّه تعالى يضاعف في عذابهم فأنّ كلمة، فوق، تدلّ على شدّة العذاب و فى الآية إشارة الى أنّ الكفّار على صنفين:



صنفٌ منهم كفروا باللّه و لم يؤمنوا به و لكنّهم لم يصدّوا عن سبيل اللّه.

صنفٌ آخر كفروا و صدّوا عن سبيل اللّه فالصنّف الأوّل لهم عذابٌ يوم القيامة على كفرهم فقط و أمّا الصِّنف الثّاني فلهم عذاب على الكفر و عذاب على الصَّد عن سبيل اللّه و يعبّر عنه بالعذاب المضاعف و أنمّا عبّر عنهم

بالمفسدين لأنّ صدَّهم النّاس عن سبيل اللّه يوجب الإختلاف بين النّاس و قد ينتهي الى الجدال و المحاربة و القتال و أيّ فسادٍ أعظم منه ألا ترى أنّ الكفّار في صدر الإسلام كانوا كذلك فمنهم من لم يؤمن ولم يصدّ و منهم من لم يؤمن و كان صّاداً عن سبيل اللّه مثل أبي جهل و أبي سفيان و أتباعهماو بسبب ذلك وقعت المحاربة و القتال بين المسلمين و الكفّار و إذا كانت المعصية سبباً لإستحقاق العذاب فهناك معصيتان معصية الكفر و معصية الصَّد فالعذاب يضاعف قهراً و هو المطلوب.

و أمّا قول بعض المفسّرين أنّ هذا المزيد عقارب كأمثال النخّل الطّوال أو حيّات كأمثال الفيلة و عقرب كأمثال البغال و أمثال ذلك فهو ممّا لا دليل عليه من الأخبار فحمل كلام اللّه على أمثال هذه الأقوال من حمل الكلام على ما يرضي صاحبه و اللّه تعالى أعلم بنوع العذاب يوم القيامة.

و الّذي نفهم من الآية هو العذاب فوق العذاب و أمّا كيفيّة العذاب فلا يعلمها إلاّ اللّه تعالى:

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ في الآية مسائل:

الأولى: أنّ قوله: **وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** المراد باليوم هو يوم القيامة و الّذي يشهد عليهم من أنفسهم أي من جنس البشر و هو نبيّهم الّذي بعث اليهم و يجوز أن يكونوا مؤمنين عارفين باللّه و نبيّه فيشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي هكذا فسَّروا الآية.

و الحقّ أنّهم يشهدون عليهم بتبليغ الرّسالة و أنّ النّبي دعاهم الى الإيمان فلم يقبلوا و أنمّا قلنا ذلك لأنّ الشّهادة على المعاصي لا معنى لها بعد ضبط المعاصي و الحسنات في صحيفة الأعمال و هو واضح.

نعم أنّهم ينكرون تبليغ الأحكام من ناحية الأنبياء فكلّ نبّيٍ يشهد على أمّته بأنّه بلّغها اليهم.

الثّانية: قوله: **وَ جِئْنا بِكَ شَهيدًا عَلٰى هٰٓؤُلآءِ** الخطاب للرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم قيل الإشارة بهؤلاء الى أمّته و عليه فالمعنى جئنا بك يا محمّد شهيداً على هؤلاء الكفّار الّذين لم يؤمنوا بك و قد إتّفق المفسّرون على أنّ المراد، بهؤلاء، هو كفّار أمّته صلّى الله عليه و آله و سلّم أعني بهم قريشاً.

و هذا لا يستقيم و ذلك لأنّ المشار اليه بقوله هؤلاء، لم يذكر في الآية فكيف يشار، بهؤلاء، اليهم اللّهم إلاّ أن يقال قوله: **أُمَّةٍ** يشمل جميع الأمم فقوله: **وَ جِئْنا بِكَ شَهيدًا عَلٰى هٰٓؤُلآءِ** إشارة بمعنىٰ الأُمّة في الإسلام يعني كما أنّ كلّ نبّيٍ من أنبياء السّلف شهيدٌ على أمّته فكذلك أنت شهيدٌ على أمّتك، و يحتمل أن يكون المشار اليهم الأنبياء أي جئنا بك شهيداً على هؤلاء الشّهداء و يؤّيد ما إحتملناه ما ذكره القمي في تفسيره قال: **وَ يَوْمَ نَبْعَثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** يعني من الأئمة ثمّ قال لَنبّيه، وجئنا بك يا محمّد شهيداً على هؤلاء يعني على الأئمة فرسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم شهيداً على الأئمة و هم شهداء على النّاس أنتهى.

الثّالثة: **وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ ٱلْكِتابَ تِبْيانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرٰى لِلْمُسْلِمينَ** المراد بالكتاب القرآن بالإتّفاق لأنّه منزّلٌ على رسول اللّه بتّوسط جبريل في ظاهر الأمر ثمّ وصفه اللّه بأوصاف أربعة:

أحدها: أنّه تبيانٌ لكلّ شيئ أي مبيّن كلّ شيئٍ من الأحكام المتعلّقة بالدّين و الدُّنيا و بالجملة كلّ ما يحتاج النّاس اليه في أمر دينهم و دنياهم الى يوم القيامة.

إن قلت كيف يكون ذلك لأنّ أحكام الصّلاة و الزّكاة و الحجّ و الأرث و القصاص و الدّيات و غيرها لا توجد فيه و أنّما الموجود فيه بعض الأحكام ألا

ترى أنّ اللّه تعالى يقول في كتابه: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ**[1] الآية و هذا الحكم كلّيّ يثبت به أصل الأرث و أمّا تفصيل الحكم فلا و هكذا جميع الأحكام فلا يوجد في الكتاب مثلاً أنّ صلاة الصّبح ركعتان و هكذا الظّهر و العصر و المغرب و العشاء.

قلت المراد بكونه تبياناً لكلّ شئ ليس أنّ جميع الأحكام ظاهرة فيه بحيث يفهمه القارئ أي شخص كان بل المراد أنّ جميع الأحكام موجودة فيه واقعاً إلاّ أنّ إستنباط الأحكام يحتاج الى مستنبطٍ خاص عالم بظاهر القرآن و هو الرّسول و أوصياءه الأثني عشر الّذين جعلهم الرّسول مفسّراً و مبيّناً له قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **أنّي تاركُ فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي** الحديث لأنّهم أهل بيت النبّوة الّذين طهرّهم اللّه عن كلّ رجسٍ و علّمهم بالعلم الحضوري الإفاضي فأنّ القرآن لا يفهمه إلاّ أهله، فما ذكره الزّمخشري من الإحالة على السُّنة إن كان مراده بالسُّنة السُّنة الّتي بيّنها المعصوم بعد الرّسول فهو ممّا لا كلام فيه و أن كان مراده بها ما بيّنه أبو هريرة و أنس و سمرة بن جندب و أمثالهم فلا و العجب من الزّمخشري حيث أحال فهم القرآن بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الى أصحابه بقولٍ مطلق قال ما هذا لفظه.

فأن قلت كيف كان يكون القرآن تبياناً لكّل شئ، قلت المعنى أنّه بيّن كلّ شئ من أمور الدّين حيث كان نّصاً على بعضها و أحالة على السُّنة حيث أمر فيه بإتّباع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و طاعته و قيل و ما ينطق عن الهوى، و حثّاً على الإجماع في قوله و يتّبع غير سبيل المؤمنين و قد رضى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لأمّته إتّباع أصحابه و الإقتداء بآثارهم في قوله صلى الله عليه وآله وسلم **أصحابي كالنّجوم بأيّهُم إقتديتم إهتديتم** و قد إجتهدوا و تأسوا و وطئوا طريق القياس و الإجتهاد فكانت السُّنة و الإجماع و القياس و الإجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثمّ كان تبياناً لكّل شئٍ إنتهىٰ.

١- الانفال = ٨۵

أقول أنظروا يا أهل الإنصاف الى هذه التّحقيقات و التّخريجات الخالية الباردة الّتي نشأت عن الأوهام الباطلة و الوساوس الشيطانية في تفسير كلام اللّه تعالى و هذا الرّجل من أعلم علماء العامة و هو يقول قد رضي رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم لأمّته إتّباع أصحابه و الإقتداء بآثارهم في قوله: **أصحابي كالنّجوم بأيّهم إقتديتُم إهتَديتُم** و لم يعلم الزّمخشري أنّ ألفاظ هذا الحديث الّذي تمسّك هو و غيره به تشهد بكذبه و أنّه من الإسرائليات و المجعولات الّتي وضعت لهدم الإسلام الّذي جاء به محمّد بن عبد اللّه صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك لأنّ الإقتداء ببعض الأصحاب كالإقتداء بالشّيطان و إتّباعه فكيف يكون سبباً للهداية فمن الأصحاب بزعم الزّمخشري و غيره من العّامة معاوية أبى سفيان لأنّهم عرّفوا الصّحابي بمن رآى النّبي فمن كان مصاحباً له وكاتباً للوحي على قولهم فهو من أجّل اللأصحاب و أشرفهم المعلوم المسَّلم عند المنصف أنّه كان أضَّر على الإسلام من اليهود و النّصارى لأنّه قتل من الأخيار و الصُلحاء ما لا يحصى في حكومته على المسلمين و أشنع من ذلك كلّه سبّه لأمير المؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السلام و إجباره النّاس عليه فلو كان الحديث الّذي رواه الزّمخشري و أمثاله صحيحاً، فالنّاس إهتدوا بسبب متابعتهم لمعاوية في سبّ علّيٍ و قتل الأخيار و المؤمنين و لا ذنب لمن أعانه على الشّر أصلاً لأنّه إقتدى بمعاوية و هو من الأصحاب فالمعين على الظُّلم صار مهتدياً و لا أظنّ أنّ العاقل يقول به لولا العناد.

و هذا بسر بن أرطأة كان صحّابياً و فعل ما فعل بأمر معاوية من القتل و النّهب و الهتك ما يعجز البيان عن ذكره و أمثالهما كثيرة فكيف يقول الرّسول بأيّهم إقتديتم إهتديتم بل نقول أليس من لوازم صحّة الحديث أنّ الذّين إتَّبعوا أبا بكر و عمر في إحراق بيت فاطمة و غصب الإرث و ضربها و لطمها و قتلها على ما نطقت به الأخبار الصحيحة من العامّة و الخاصّة كلّهم من المهتدين

لأنّهم إقتدوا بأجلّ أصحاب الرّسول و أشرفهم و أفضلهم بزعم الزّمخشري و أتباعه، أليس من لوازمها إهتداء قومٍ إتّبعوا الزّبير و طلحة بن عبيد اللّه و غيرهما من أصحاب الجمل و قتلوا كثيراً من المسلمين و نهبوا أموالهم و فعلوا ما فعلوا بهم ألم يكن الزّبير و طلحة و مروان بن الحكم و غيرهم من رؤوساء الجمل من أصحاب النّبي بل كان الزّبير من حواري رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم على قولهم و من العشرة المبّشرة بالجنّة فجميع أصحاب الجمل كانوا من المهتدين لأنّهم إقتدوا بأصحاب الرّسول الّذين هم كالنّجوم و هكذا حرب النّهروان و أمثال ذلك كثيرة و اذا كانوا مهتدين فلا محالة يحكم الزّمخشري بعدم إهتداء علّي و فاطمة و من تبعهما اذ لا يعقل أن يكون الظّالم و المظلوم على حدٍّ سواءٍ.

و محصلّ الكلام هو أنّ في أصحاب الرّسول كان فاسقاً و مؤمناً و الحديث يقول الإقتداء بالمؤمن و الفاسق يوجب الإهتداء و هذا ممّا تضحك به الثّكلى و ينكره العقل السليم و من قال بهذا الحديث فهو مجنون أو مخبّط ثمّ نقول للزّمخشري و أمثاله من المفسّرين أهكذا يفسر كلام اللّه، أهذا معنى قوله: **تِبْيٰانًا لِكُلِّ شَيْءٍ** و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون، إنّا للّه و إنّا إليه راجعون و للبحث في أمثال هذه الأمور موضع أخر و الحمد للّه.

ثانيها: قوله: **وَ هُدًى** و فيه إشارة الى أنّ القرأن كما أنّه تبيان لكلّ شيءٍ كذلك يكون هادياً لمن تبعه و إستضاء به و هذا أيضاً ممّا لا شكّ فيه فأنّ القرأن بعد التّبيين و التّفسير بواسطة الرّسول أو الأئمّة المعصومين هادٍ للأمّة قطعاً لأنّه يهدي الى سعادة الدّارين و حلاوة النّشأتين.

و أمّا مع قطع النّظر عن تبيين أهل البيت فلا يكون هادياً بل قد يكون مضّلاً و لعلَّ الوجه في تقديم التّبيان على الهداية هو هذا أي اذا تحقّق التّبيان كما هو حقّه تحقّقت الهداية به:

قال اللّه تعالىٰ: **يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِـهِۦ كَـثِيرًا وَ مَا يُـضِلُّ بِـهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**(٢) والآيات كثيرة.

ثالثها: قوله: **وَ رَحْمَةً** أي أنّ القرأن رحمة من اللّه تعالى و هو أيضاً، ثابت عقلاً و شرعاً والرَّحمة بفتح الرّاء رقّة تقتضي الإحسان الى المرحوم و قد تستعل في الرِّقة المجّردة و تارةً في الإحسان المجّرد عن الرِّقة نحو رحم اللّه فلاناً و اذا وصف به البارئ فليس المراد به إلاّ الإحسان المجّرد اذا عرفت هذا فنقول:

وصف اللّه القرأن و هو كلامه تعالى بالرَّحمة و وصف الكلام وصف المتكلّم في الحقيقة لأنّ الكلام لا يوجد في الخارج إلاّ به فالمعنى أنّ القرأن إحسانٌ من اللّه تعالى الى خلقه و على هذا.

روي أنّ الرّحمة من اللّه إفضال و إنعام، و أيّ إحسانٍ أحسن من القرأن الّذي قال اللّه فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**(٤).

و قال أمير المؤمنين عليه‌السلام: وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ، الخ(٥).

١- البقرة = ٢٦
٢- الإسراء = ٩
٣- الإسراء = ٨٢
٤- الزّمر = ٢٧
٥- خ ١١٠

و قال عليه السلام: وَاعْلَمُوا اَنَّ هٰذَا الْقُرآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِى لَا يَغُشُّ وَالْهَادِى الَّذِى لَا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ الَّذِى لَا يَكْذِبُ.وَمَا جَالَسَ هٰذَا الْقُرآنَ اَحَدٌ اِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ اَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِى هُدىً وَنُقْصَانٍ مِنْ عَمىً الى ان قال عليه السلام: وَاعْلَمُوا اَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَقَائِلٌ مُصدَّقٌ وَاَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقِيَامَةِ يَوْمَشُفِّعَ فِيهِ الخ[1].

و الأخبار و الأثار بذلك كثيرة فهو رحمةٌ أيّ رحمة العمل بما فيه يوجب سعادة الدّارين و سيأتي الكلام في هذا الباب في المستقبل إن شاء اللّه

رابعها: قوله وَ **بُشْرٰى لِلْمُسْلِمِينَ** أي أنّ القرأن يبشّر المسلمين:

قال اللّه تعالىٰ: **لاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَ يَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ عَفَا ٱللّٰهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**[5].

و أمثالها من الآيات المبشرة بالرّحمة و العفو و أنّما قال و يبشّر المسلمين أي المنقادين المطيعين للّه و رسوله لأنّ القرأن رحمةٌ و بشرى لهم لا للكافرين و المنافقين و الفاسقين فأنّه يهدّدهم و يخوّفهم من عذاب اللّه يوم القيامة و يبشّرهم بعذاب أليم.

و المراد من المسلمين في المقام ليس من قال أو يقول بالشّهادتين فقط بل المراد ما ذكرناه فأن الإسلام في الأصل هو الإنقياد و هو ظاهر فحاصل الآية أنّا أنزلنا عليك الكتاب و هو القرأن يا محمّد و جعلناه تبياناً أي مبيّناً لكلّ شئٍ ممّا يحتاج اليه النّاس و جعلناه هادياً لهم و رحمةً لمن أسلم أي أطاع اللّه و رسوله و إنقاد للأوامر و النّواهي هذا.

١- خ ١٧٦
٢- الزّمر = ٥٣
٣- الحَجَر = ٥٦
٤- الشّورىٰ = ٢٥
٥- أل عمران = ١٥٥

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ ٱلْإِحْسٰانِ وَ ايتٰآءِ ذِى ٱلْقُرْبٰى وَ يَنْهٰى عَنِ ٱلْفَحْشٰآءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ وَ ٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ وَ لاٰ تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ

لمّا ذكر اللّه في الآية السّابقة أنّه يبعث في كلّ أمّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم و هو النّبي و ذكر أنّه نزّل عليه كتاباً تبياناً لكلّ شئ أشار في المقام ببعض الأوامر و النّواهي فقال: **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ ٱلْإِحْسٰانِ** ظاهر العطف المغايرة بين المعطوف و المعطوف عليه و هو كذلك فأنّ العدل غير الإحسان، قيل في تعريف العدل هو وضع الشّئ في محلّه كما أنّ الظّلم و هو ضدّه وضع الشّئ في غير محلّه.

و قال بعضهم العدل هو أن يعطي ما عليه و يأخذ ما له و أمّا الإحسان فهو يقال على وجهين:

الإنعام على الغير يقال أحسن الى فلان.

الثّاني: إحسانٌ في الفعل و ذلك اذا علم علماً حسناً أو عمل عملاً حسناً و على هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام **النّاس أبناء ما يحسنون**، أي منسوبون الى ما يعلمون و ما يعملونه من الأفعال الحسنة و الى هذا ينظر قول من قال الإحسان أن يعطي أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له.

اذا عرفت هذا فقد علمت أنّ الإحسان زائدٌ على العدل فتّحري العدل واجبٌ و تحّري الإحسان ندبٌ و تطّوعٌ و لعلّ الوجه في تقديم العدل على الإحسان هو ما ذكرناه فأنّ الواجب مقدّمٌ على النّدب لأنّ في ترك الواجب عقابٌ بخلاف النّدب ففي ترك العدل عقابٌ و لا عقاب في ترك الإحسان و حيث أنّ الإحسان فوق العدل.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ مع ٱلْمُحْسِنِينَ.**

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ.**

و أمثال هذه الآيات ولم يقل إنّ اللّه مع العدول مثلاً ولعلّ الوجه فيه أنّ العدالة من الوظائف المقّررة في الشّريعة في حقّ جميع المسلمين بمعنى أنّ المسلم لو لم يعدل عوقب عليه لأنّ ترك العدل ظلمٌ.

و أمّا الإحسان فأنّه من الفضائل و ليس من الواجبات التّي في تركها عقاب **وَ إِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ** الظّاهر أنّ المراد بهذا الكلام هو صلة الأرحام فيكون ذلك عامّاً في جميع الخلق و يحتمل أن يكون المراد قرابة النّبي في قوله تعالى: **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ**[١].

قال بعضهم المراد بإيتاء ذي القربى هو صلة الرَّحم و هو مندرج تحت الإحسان لكنّه نبَّه لعيه إهتماماً به و حضّاً على الإحسان اليه وكيف كان لا شكّ أنّ صلة الأرحام مطلوبة للشّارع و العقل أيضاً يحكم بحسنها و قبح تركها فأنّها ممّا أمر اللّه به أن يوصل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ**[٣].

عن كتاب المحاسن عن الباقر عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أوصي الشّاهد من أمّتي و الغائب منهم و من في أصلاب الرّجال و أرحام النّساء الى يوم القيامة أن يصل الرّحم و إن كانت منه على مسيرة سنة فأنّ ذلك من الدّين.

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ما من ذنبٍ أجدر أن يعجّل اللّه لصاحبه العقوبة في الدُّنيا مع ما إدَّخره في الأُخرة من البغي و قطيعة الرّحم انتهى.

١- الأنفال = ٤١
٢- البقرة = ٢٧
٣- الرّعد = ٢١

و قال الباقر عليه السلام: صلة الأرحام تزكي الأعمال و تدفع البلاء (البلوى) و تنمي الأموال و تيسّر الحساب و تنسئ في الأجل.

و عنه عليه السلام قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم برّ الوالدين و صلة الرّحم يهّونان الحساب ثمّ تلى وَ ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ.

و الأخبار في فضلها كثيرة[١].

وَ يَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَ ٱلْمُنكَرِ وَ ٱلْبَغْيِ لمّا أمر اللّه بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى نهى عن أمورٍ ثلاثة أيضاً، الفحشاء، و المنكر، و البغي.

أمّا الفحشاء، قال الرّاغب في المفردات الفحش و الفحشاء و الفاحشة، ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال.

و قال في المنكر، هو كلّ فعلٍ يحكم العقول الصّحيحة بقبحه أو تتّوقف في إستقباحه و إستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشّريعة.

و قال في البغي، البغي طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتّحرى تجاوزه أو لم يتّجاوزه الى أن قال، يقال بغيت الشّئ اذا طلبت أكثر ما يجب ثمّ قال، و البغي على حزبين أحدهما محمودٌ و هو تجاوز العدل الى الإحسان و الفرض الى التّطوع.

الثاني: مذمومٌ و هو تجاوز الحقّ الى الباطل أو تجاوزه الى الشّبه اذا عرفت هذا فنقول نهى اللّه تعالى عن الفحشاء في القول و العمل.

أمّا في القول كالفحش و السّب و بذاءة اللّسان فلا ريب في كونه صادراً عن خباثة النّفس.



قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ليس المؤمن بالطّعان و لا اللّعان و لا الفاحش و لا البذئ.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: إيّاكم و الفحش فأنّ اللّه لا يحبّ الفحش و التّفحش.

١- مشكاة الأنوار ص ١٦٥

و قال ﷺ: الجنّة حرامٌ على كلّ فاحشٍ أن يدخلها.

و قال ﷺ: أنّ الفحش و التّفحش ليسا من الإسلام في شيءٍ.

و قال ﷺ: البذاء و البيان شعبتان من شعب النّفاق (البيان كشف ما لا يجوز كشفه.

و قال ﷺ: أنّ اللّه حرَّم الجنّة على كلّ فحّاشٍ بذيٍ قليل الحياء لا يبالي ما قال و لا ما قيل له.

و قال ﷺ: سباب المؤمن فسوق و قتاله كفر و أكل لحمه معصية و حرمة ماله كحرمة دمه.

و قال ﷺ: سبّاب المؤمن كالمشرف على الهلكة.

و الأخبار كثيرة راجع جامع السّعادات(١).

و إعلم أنّ حقيقة الفحش هو التّعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصّريحة و يكثر ذلك في ألفاظ الوقاع و ألاته و ما يتّعلق بهما فأنّ لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه.

و أمّا الفحشاء في الفعل و العمل فأنواعه كثيرة فكلّ فعلٍ عظم قبحه فهو من الفحشاء كالزّناة و اللّواط و السّرقة و الظُّلم و أمثالها:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰاتِي يَأْتِينَ ٱلْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰآئِكُمْ**(٢).

أراد بها الزّناء وهكذا:

قال اللّه تعالىٰ: **إِلّآ أَنْ يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ**أ.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ**(٣).

أراد به مطلق المعاصي و القبائح ما ظهر منها و ما بطن و قد قيل أنّ كلّ سوءٍ جاوز حدَّه فهو فاحش و قد تكرر ذكر الفحش و الفاحشة و الفواحش و فى

١- ج ١ ص ٣١٥
أ- النّساء = ١٩
٢- النّساء = ١٥
٣- الأعراف = ٣٣

الحديث كلّها يشتدّ من الذّنوب قبحاً و هذا هو الملاك في تعيين مصداق الفحش و الفحشاء و الآية تدّل على أنّ اللّه تعالى عنه بقولٍ مطلق.

و أمّا المنكر و هو كلّ قولٍ أو فعلٍ يحكم العقل بقبحه فهو أيضاً منّهيٌ عنه نحتاج الى بسط الكلام فيه لوضوحه.

و أمّا البغي و هو طلب تجاوز الإقتصاد فهو أيضاً مذمومٌ منّهي عنه لأنّه خروجٌ عن حدّ الإعتدال و تجاوزٌ الى ما ليس له و هو أيضاً قد يتحقّق في القول و قد يتّحقق في العمل و الثّاني أكثر.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ قٰارُونَ كٰانَ مِنْ قَوْمِ مُوسٰى فَبَغٰى عَلَيْهِمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ بَسَطَ ٱللّٰهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبٰادِهِ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ**[٢].

و أمّا قوله: **يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** فمعناه واضح أي أنّ اللّه يعظكم لكي تذّكروا أي تستيقظون من نوم الغفلة و تّفكرون في أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها في الأخرة.

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ وَ لاٰ تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ ٱللّٰهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا تَفْعَلُونَ

أمر اللّه تعالى خلقه بأن يفوا بعهده اذا عاهدوا عليه قيل المراد بالعهد الذّي يجب الوفاء به هو كلّ فعلٍ حسنٍ اذا عقد عليه و عاهد اللّه ليفعله بالعزم عليه فأنّه يصير واجباً عليه و لا يجوز له خلافه و قال بعضهم عقد اللّه هو ما عقد الإنسان و إلتزمه ممّا يوافق الشريعة.

و قال الزّمخشري هي البيعة لرسُول اللّه ﷺ على الإسلام.

و قال قتادة و مجاهد، فيما كان من تحالف الجاهليّة في أمرٌ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ.

١- القصص = ٧٦ ٢- الشّورىٰ = ٢٧

و قال إبن مهران، الوفاء لمن عاهدته مسلماً كان أو كافراً فأنّما العهد للّهاليمين باللّه و لا تنقضوا العهود الموّثقة بالأيمان بعد توكيدها و توثيقها بإسم اللّه و كفالة اللّه و شهادته و مراقبته لأنّ الكفيل مراعٍ لحال المكفول به **إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** من الوفاء و عدمه.

أقول ذكر اللّه تعالى في الآية العهد و اليمين و هو القسم و أمر بالوفاء بهما و نحن نتّكلم فيهما إجمالاً.

أمّا العهد فهو في الأصل حفظ الشّيء و مراعاته حالاً بعد حالٍ و سمّي الموّثق الذّي يلزم مراعاته عهداً، و فيه أيات:

الأُولىٰ: في سورة بني إسرائيل و هو قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كٰانَ مَسْؤُلًا**[١].

الثّانية: في سورة الأنعام و هو قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ بِعَهْدِ ٱللّٰهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصّٰيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**[٢].

الثّالثة: في سورة المؤمنون:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ**[٣].

الرّابعة: في سورة أل عمران:

قال اللّه تعالىٰ: **بَلىٰ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ ٱتَّقىٰ فَإِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ**[٤].

الخامسة: في سورة البقرة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيّٰایَ فَارْهَبُونِ**[٥].

و هكذايدُّل على أنّ العهد ممّا يجب الوفاء به لأهميّته و عظم شأنه و أنّه لا رخصة لأحدٍ في تركه.

١- الاسراء = ٣٤ ٢- الانعام = ١٥٢
٣- المؤمنون = ٨ ٤- آل عمران = ٧٦
٥- البقرة = ٤٠

روي إبن بابويه في الخصال بأسناده عن الصّادق عليه السلام أنّه قـال: ثلاثة لم يجعل اللّه لأحدٍ من النّاس فيهنّ رخصة، منها الوفاء بالعهد للبرّ و الفاجر.

و في خبرٍ أخر أنّه قيل لعلّي بن الحسين عليه السلام أخبرني بجميع شرائع الدّين فقال عليه السلام: قولٌ بالعدل و الوفاء بالعهد هذه جميع شرائع الدّين إنتهى.

و الأصل في ذلك أنّ رعاية الأمانة و حفظها و أداءها الى أهلها واجب لا ريب في دلالة الآيات و الرّوايات على ذلك و اليه ذهب علماء الإسلام ولكن قيّدها البيان من معادن الوحي الإلهي بما لم يكن ما عاهد عليه مرجوحاً كالواجب و المندوب و إجتناب المحرّم و المكروة و دفع بليّةٍ و نحو ذلك فلو كان مرجوحاً لم ينعقد و تفصيل الكلام فيها في الفقه.

وَ قَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا أي حسيباً فيما عاهدتموه و أنّ اللّه يعلم ما تفعلون من نقض العهد و الوفاء به و ذلك تهديدٌ و وعيدٌ بأن يجازي على الطّاعة و يعاقب على المعصية و لا يخفى عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء.

وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

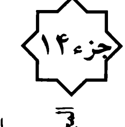
قال السُّدي و عبد اللّه بن كثير هي إمرأةٌ حمقاء كانت بمكّة.

و عن الكلبي و مقاتل هي من قريش خرقاء إسمها ريطة بنت سعد بن تيم تلقب بحفراء إتّخذت مغزلاً قدر ذراع و صنارة مثل إصبع و فلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي و جواريها من الغلاة الى الظّهر ثمّ تأمرهنّ فينقضن ما غزلن.

و عن مجاهد هذا فعل نساء أهل نجد تنقض أحداهنّ غزلها ثمّ تنفشه و تخلطه بالصُّوف فتغزله و الظّاهر أنّ المراد بقوله: **مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ** أي شدّةٍ حدثت من تركيب قوى الغزل ولو قدّرناها واحدة القوى لم تكن تنتقضّ أنكاثاً و النّكث في اللّغة الحبل و قيل كلّ شئٍ نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلاً كان أو غزلاً يقال منه نكث فلان الحبل فقولُه أنكاثاً نصب على الحال و المعنى و لا تكونوا أيّها المسلمون كالمرأة التّي نقضت غزلها من بعد إبرام و إستحكامٍ أنكاثاً أي أنقاضاً و المقصود من هذا الكلام النّهي عن العود الى الكفر بعد الإسلام بسبب كثرة الكفّار و كثرة أموالهم و هذه الآية مرتبطةٌ بالآية السّابقة التّي قال اللّه تعالى فيها: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ إِذٰا عٰاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمٰانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا...وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثًا** فأنّه دليل على جهل فاعله و أنّه من الحمقاء و المقصود من هذا التّشبيه هو حفظ الأيمان و عدم الرّجوع عنه الى الكفر ظاهراً أو باطناً بالنّفاق و الآية خطاب للمسلمين الذّي أسلموا و بايعوا رسول اللّه نهاهم اللّه عن الرّجوع الى ما كانوا عليه قبل الإسلام إعتقاداً أو عملاً في حياة الرّسول أو بعد موته:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مٰاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلٰىَ أَعْقٰابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلٰى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللّٰهَ شَيْئًا وَ سَيَجْزِى ٱللّٰهُ ٱلشّاكِرِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَرْتَدُّوا عَلٰىَ أَدْبٰارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خٰاسِرِينَ**[٢].



تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ الدَّخل بفتح الدّال والخاء و سكون اللاّم الدَّغل و الخديعة و الغش قال أبو عبيدة كلّ أمرٍ لم يكن صحيحاً فهو دخل و المعنى تتّخذون أيمانكم مكراً و خديعة للوصول الى مقاصدكم في الدنيّا.

١- أل عمران = ١٤٤ ٢- المائدة = ٢١

أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ أربى، أفعل، من الرّباء و هى الزّيادة قيل نزلت هذه الآية في العرب الّذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ثمّ جاءت احداهما قبيلة كثيرة قويّة فداخلها عذرت الأولى و نقضت عهدها و رجعت الى هذه الكبرى فقال اللّه تعالى: **لا تَنقَضُوا العُهُود** من أجل أنّ طائفة اكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالاً فتنقضون إيمانكم إذا رأيتم الكثرة و السّعة في الدنيّا لأعدائكم المشركين و المقصود النّهي عن العود الى الكفر بسبب كثرة الكفّار و كثرة أموالهم و قال الفّراء المعنى لا تعذروا بقوم لقّلتهم و كثرتكم أو لقلّتكم و كثرتهم و قد عزّرتموهم بالإيمان و الأمّة الجماعة، فالمعنى أن تكون جماعة أكثر من جماعةٍ **إِنَّمٰا يَبْلُوكُمُ ٱللّٰهُ بِهِ** أي يختبركم به **وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ مٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** أي ليبّينن اللّه لكم موارد الإختلاف يوم القيامة و هو اليوم الّذي تبلى السّرائر فيه هذا تفسير ألفاظ الآية.

و فيها لطائف لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً فأنّ الآية قابلة للدّقة و التّأمل و التّفكر فيها.

الأولىٰ: قوله **وَ لٰا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثًا** فيه إشارة الى أنّ حفظ النّعمة صعبٌ جدّاً فكلّما كانت النّعمة أجّل و أشرف كان حفظها أصعب و لا نعمة أشرف من نعمة الدّين لأنّه يوجب سعادة الدّارين و حلاوة النّشأتين و لذلك يكون في معرض الخطر دائماً فأنّ الشّياطين من الإنس و الجّن دائماً يترّصدون لأخذه من صاحبه بأنواع الحيل فينبغي للمؤمن أن لا يغفل عن ذلك و يكون مجّداً في حفظه و يعلم أنّ حصول الإيمان أو تحصيله أسهل من حفظه عن الآفات

الثّانية: قوله **تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ** فيه إشارة الى أن يكون العهد و اليمين للّه تعالى لا لغرض آخر فأنّ الدّخل، الدّغل و الخديعة، فمن كان عهده و يمينه مكراً و خديعة للوصول الى المقاصد الدنيويّة و الشّهوات النّفسانية فهو منافق لأنّ ظاهره مخالف لباطنه و هو كما ترى.

الثّالثة: قوله **أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبىٰ مِنْ أُمَّةٍ** و فيه إشارة الى أنّ الإنسان الّذي يدّعي الإيمان ينبغي أن يكون تابعاً للحّق لا للأكثر و الأزيد فأن أكثرهم لا يعلمون **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ ٱلشَّكُورُ**(١) فأنّ المتابعة لجماعةٍ لأجل الكثّرة و إزدياد المنافع دليل عدم المعرفة و جهل الإنسان بعواقب الأمور.

الرّابعة: قوله **إِنَّمٰا يَبْلُوكُمُ ٱللّٰهُ بِهِ** إشارة الى أنّ الدنيّا دار الإختبار و الإمتحان و اللّه تعالى من ورا القصد.

الخامسة: قوله **وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ** مؤكّداً بنون التّأكيد إشارة الى أنّ يوم الفصل لا شكّ فيه و القيامة أتيةٌ لا ريب فيها فلو أمهل اللّه تعالى العبد في الدنيّا ليس معناه أنّه تعالى غفل عنه و أهمله:

قال اللّه تعالىٰ: **الٓمٓ، أَحَسِبَ ٱلنّٰاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا اٰمَنّٰا وَ هُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنّٰارِ يُفْتَنُونَ**(٣).

اذا عرفت هذا فإعلم أنّ الآية قد أخبرت عن حال المسلمين في صدر الإسلام فأنّ أكثرهم لم يفوا بعهد اللّه و عهد رسوله و نقضوا العهد بعد الأيمان و ذلك لأنّهم أمنوا باللّه في ظاهر الأمر و أقرُّوا بالرّسالة و جميع ما جاء به النّبي من الأحكام و لكنّهم بعد موت النّبي كانوا كالتّي نقضت غزلها من بعد قوّةٍ أنكاثاً و إتّخذوا أيمانهم دخلاً أي مكراً و خديعة بينهم و إتّبعوا الباطل لكونه أربى لهم في الدُّنيا و لم يعلموا أنّ السّقيفة كانت محلاًّ و موضعاً للإختبار و الإمتحان كما كان السّامري كذلك في أمّة موسى عليه السلام و أنّما قلنا ذلك لأنّهم عاهدوا اللّه و رسوله، بمتابعة الدّين و قبول الأحكام و أنّ النّبي ممّن لا ينطق عن الهوى فلمّا أنزل اللّه على رسوله قوله: **يٰآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمٰا بَلَّغْتَ رِسٰالَتَهُ**(٤).

١- سبا = ١٣
٢- العنكبوت = ١/٢
٣- الذّاريات = ١٣
٤- المائدة = ٦٧

بلّغ الرّسول ما أنزله اللّه عليه و هو الإخبار و الإعلام بأنّ علّي بن أبي طالب عليه السلام خليفته و وصيّه بعد موته من قبل اللّه لا من قبل الرّسول و قد بلّغ الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم ما أمره اللّه بما لا مزيد عليه و خطب خطبةً جليلةً جامعةً فصيحةً عميقةً عجز عن الإتيان بمثلها البشر من الأوّلين و الأخرين و أكدَّ فيها الأمر بما لا مزيد عليه كقوله:

من كنت مولاه فهذا علّيٌ مولاه اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه و أنصر من نصره و أخذل من خذله الخ.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: فإعلموا معاشر النّاس أنّ اللّه قد نصبه لكم وليّاً و إماماً مفترضاً طاعته على المهاجرين و الأنصار و على التّابعين لهم بإحسانٍ و على البادئ و الحاضر و على الأعجمي و العربّي و الحرّ و المملوك و الصغير و الكبير و على الأبيض و الأسود و على كلّ موحدٍ ماضٍ حكمه جائزٌ قوله نافذٌ أمره ملعونٌ من خالفه مرحومٌ من تبعه مؤمنٌ من صدّقه فقد غفر اللّه له ولمن سمع فيه و أطاع له.

و قال في موضع أخر: معاشر النّاس أنّه إمامٌ من اللّه ولن يتوب اللّه على أحدٍ أنكر ولايته ولن يغفر اللّه له حتماً على اللّه أن يفعل ذلك ممّن خالف أمره فيه و أن يعذّبه عذاباً نكراً أبد الأباد و دهر الدُّهور فأحذروا أن تخالفوه فتصلوا ناراً وقودها النّاس و الحجارة أعدّت للكافرين.



و قال في موضع أخر، معاشر النّاس أنّ عليّاً و الطيبين من ولدي هم الثّقل الأصغر و القرأن هو الثّقل الأكبر فكلّ واحدٍ منبّئٍ عن صاحبه و موافقٌ له لن يفترقا حتّى يردا علّي الحوض الى أخر ما قال صلى الله عليه و آله و سلم.

و قال في موضع أخر: معاشر النّاس أنّما أكمل اللّه عزّ وجلّ دينكم بإمامته فمن لم يأتّم به و بمن يقوم مقامه من ولدي من صلبه الى يوم القيامة و العرض على اللّه عزّ وجلّ فأولئك الذّين حبطت أعمالهم وفي النّار هم خالدون لا يخفّف عنهم العذاب و لا هم ينظرون.

و قال في موضع أخر، معاشر النّاس إنّي أدعها إمامةً و وراثةً في عقبي الى يوم القيامة الى أن قال صلى الله عليه وآله وسلم: و سيجعلونها ملكاً و إغتصاباً ألا لعن اللّه الغاصبين و المغتصبين و عندها سنفرغ لكم أيّها الثّقلان فيُرسل عليكم شواظٌ من نارٍ و نحاس فلا تنتصران.

و قال: في موضع أخر، منها، إذكروا الممات و الحساب و الموازين و المحاسبة بين يدي ربّ العالمين و الثّواب و العقاب فمن جاء بالحسنة أثيب عليها و من جاء بالسَّيئة فليس له في الجنان نصيبٌ.

و ساق الكلام فيها صلى الله عليه وآله وسلم الى أن قال معاشر النّاس أنّكم أكثر من تصافقوني بكفٍّ واحدة وقد أمرني اللّه عزّ و جلّ أن أخذ من ألسنتكم الإقرار بما عقدت لعلّي من إمرة المؤمنين و من جاء بعده من الأئمّة منّي و منه على ما أعلمتكم أنّ ذريّتي من صلبه فقولوا بأجمعكم أنّا سامعون مطيعون راضون منقادون لما بلغت عن ربّنا و ربّك في أمر علّي عليه السلام و أمر ولده من صلبه من الأمّة نبايعك على ذلك بقلوبنا و أنفسنا و ألسنتنا و أيدينا على ذلك نحيى و نموت و نبعث و لا نغيّر ولا نبّدل ولا نشكّ و لا نرتاب ولا نرجع من عهدٍ ولا ننقض الميثاق و نطيع اللّه و نطيعك الى أخر ما قال.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: في أخر الخطبة معاشر النّاس السّابقون الى مبايعته و موالاته و التّسليم عليه بإمرة المؤمنين أولئك هم الفائزون.

أقول هذه الخطبة خطب بها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في يوم الغدير و هي مشهورة نقلتها الخاصّة و العامّة و أن شئت الإطّلاع على رواتها و أسانيدها فعليك بمراجعة شرحنا على الخطبة فقد إستوفينا الكلام في مقدّمة الشّرح في نقل رواة الخطبة و مصادرها بما لا مزيد عليه و قد إتّفق النّاقلون على أنّ البيعة لعلّي وقعت بعد كلام الرّسول و إشتهر من عمر أنّه قال يوم الغدير بعد البيعة، بخّ بخّ لك يا علّي أصبحت مولاي و مولى كلّ مؤمنٍ و مؤمنة.

و محصّل الكلام أنّ المسلمين بايعئا عليّاً عليه السلام و كان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم شاهداً عليها ألم تكن البيعة بأمر الرّسول من العهد الّذي يجب مراعاته فأن لم تكن البيعة منه لم تكن بيعتهم للرّسول في بدو البعثة أيضاً لعدم الفرق بين البيعة لرّسول على رسالته و البيعة لوصّيه و خليفته بأمره فأن قال قائلٌ من أهل العناد لم تثبت البيعة لعلّي عليه السلام.

يقال له مع أنّ هذا الإنكار خلاف الضّرورة حيث أنّه خلاف ما نقله أرباب الحديث لا يضّر بما نحن بصدد إثباته و هو أنّ الرّسول دعاهم الى متابعة علّيٍ بعد موت الرّسول و هذا القدر يكفينا في تحقّق العهد لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم **لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى**، فهو أي أمر الخلافة كسائر الأحكام التّي جاء بها الرّسول من الصّلاة و الصّوم و الزّكاة و الحجّ و غيرها.

فقد ثبت أنّ الرّسول أمرهم بمتابعة علّيٍ و أمره أمر اللّه اذا عرفت هذا فنقول:

أنّهم نقضوا العهد بعد موت الرّسول و بايعوا أبا بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان، أليس هذا منهم كالتّي أنقضت غزلها من بعد قوّةٍ أنكاثاً أليس مخالفة اللّه و رسوله نقضاً للعهد و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم في الخطبة: ملعونٌ ملعونٌ مغضوبٌ مغضوبٌ من ردَّ **قولي هذا ولم يوافقه ألا أنّ جبرئيل خبَّرني عن اللّه تعالى بذلك من عادى عليّاً ولم يتَّوله فعليه لعنتي فلتنظر نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ و إتّقوا اللّه أن تخالفوه فتزّل قدم بعد ثبوتها أنّ اللّه خبير بما تعملون.**



و من المعلوم أنّ من نقض العهد فهو ممَّن إتَّخذ أيمانه دخلاً و هؤلاء كانوا كذلك و لا شكّ أيضاً أنّ فيه إبتلاء للنّاس كما قال تعالى: **إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ** فثبت و تحقّق أنّ المسلمين في صدر الإسلام بسبب نقضهم البيعة لأمير المؤمنين في غدير خمّ و مكرهم و حيلتهم فيها كانوا من أعظم مصاديق الآية و أجلاها و إستّمرت السّيرة فيهم الى الأن فأنّا نراهم كذلك في زماننا هذا طابق النَّعل بالنَّعل إلاّ القليل منهم قال اللّه تعالى: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**[1] هذا ما ظهر لنا في تفسير الآية و اللّه أعلم.

وَ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

قال بعض المفسّرين في معنى الآية هذه المشيّئة مشيّئة إختيار على مذهب أهل السنّة إبتلى النّاس بالأمر و النّهي ليذهب كلٌّ الى ما يسّر له و ذلك لحقّ الملك لا يسأل عمّا يفعل و لو شاء لكانوا كلّهم على طريقٍ واحدٍ إمّا هدىً و إمّا ضلالة و لكنّه فرَّق، فناسٌ للسّعادة و ناسٌ للشّقاوة فخلق الهدى و الضّلال و توّعد بالسّؤال عن العمل و هو سؤال توبيخ لا سؤال تفَّهم و سؤال التَّفهم هو المنّفي في آيات و مذهب المعتزلة أنّ هذه المشيّئة مشيّئة قهرٍ انتهى كلامه.

و قال بعضهم المراد أنّه قادرٌ على أن يجمعكم على الإسلام قهراً فلم يفعل ذلك و خلقكم ليعذّب من يشاء على معصيته و يثيب من يشاء على طاعته يشاء شيئاً من ذلك إلاّ أن يستّحقه و يجوز أن يكون المعنى أنّه لو شاء خلقكم في الجنّة و لكن لم يفعل ذلك ليثيب المطيعين منكم و يعذّب العصاة ثمّ قال: **وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** يعني سؤال المحاسبة و المجازاة و فيه دليل على أنّ الإضلال في الآية العقاب ولكان الإضلال عن الّدين لم يكن لسؤاله أيّاهم معنى.

١- سبا = ١٣

و قال الزّمخشري وَ **لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً** أي حنيفةً مسلمةً على طريق الإلجاء والإضطرار و هو قادرٌ على ذلك، و لكن، الحكمة أن يضلّ من يشاء، و هو أن يخذل من علم أنّه يختار الكفر و يصمّم عليه، و يهدي من يشاء، و هو أن يلطف بمن علم أنّه يختار الإيمان يعني أنّه بنى الأمر على الإختيار و على ما يستّحق به اللُّطف و الخذلان و الثّواب و العقاب ولم ينبه على الإجبار الّذي لا يستّحق به شيئ من ذلك و حقّقه بقوله: وَ **لَتُسْئَلُنَّ عَمّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** و لو كان هو المضطر الى الضّلال و الإهتداء لما أثبت لهم عملاً يسئلون عنه انتهى كلامه.

أقول إختلافهم في تفسير الآية أنّما نشاء عن مذهبهم في الجبر و الإختيار فمن قال بالجبر و الإضطرار في أفعال العباد فسّر المشيّئة في قوله: وَ **لَوْ شٰآءَ ٱللَّهُ** على مذهبه و هو مشيّئة الإختيار بحكم الإلهيّة و مقتضى الملك و من قال بالإختيار و نفي الجبر فسّر المشيّئة بمشيّئة القهر و الإلجاء و المعنى أنّه لو شاء اللّه أن يلجئهم الى الإيمان أو الى الكفر لقدر عليه إلاّ أنّ ذلك يبطل التّكليف فلا جرم ما ألجأهم اليه و فوّض الأمر الى إختياره في هذه التّكاليف و على ما ذكرناه من إختلافهم في الجبر و الإختيار فتفسير الآية لا خفاء فيه و حيث إنّا لا نقول بالجبر لأنّه خلاف العقل و النّقل و المختار عندنا هو إختيار العبد ما شاء و أراد فمعنى الآية ليست مخالفة العباد في أوامر اللّه و نواهيه لأجل غلبتهم عليه تعالى و أنّه عاجز عن دفع المخالفة و ذلك لأنّه لو شاء اللّه أن يجعلهم على أمّةٍ واحدة في طريق الطّاعة و الإنقياد لقدر عليه كما فعل ذلك في حقّ الملائكة حيث لم يجعل فيهم الغضب و الشّهوة و حبّ الجاه و المال و الأولاد و غيرها من دواعي الشُّرور و لكنّه لم يفعل ذلك في الإنسان لمصلحةٍ إقتضاها التّكليف بل شاء أن يجتمعوا على الإيمان على وجهٍ يستّحقون به الثّواب مثله:

قال اللّه تعالى: **وَ لَوْ يَشٰآءُ اَللّٰهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لٰكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ**[١].

فقوله: **وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشٰآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ** ليس معناه أنّه تعالى يخلق الضّلالة و الهداية في العبد بحيث لا يقدر على خلافه كما قال الأشاعرة بل معناه أنّ قلب الإنسان بمقتضى الخلقة الأوليّة مستعد لقبول الحقّ لأنّه مفطورٌ عليه أعني به فطرة التّوحيد الّتي فطر النّاس عليها حيث قال: **فِطْرَتَ اَللّٰهِ اَلَّتِي فَطَرَ اَلنّٰاسَ عَلَيْهٰا**[٢] و أن شئت قلت أنّ القلب في بدو الأمر كالزّجاجة الصّافية القابلة لإنعكاس أشعة التَّوحيد و أنّما يكدره الإنسان بسبب المعصية فأن تاب عنها فهو و إلاّ يكله اللّه الى نفسه و يعرض عنه و من وكله اللّه الى نفسه فهو ضّال قطعاً لغلبة الشيطان عليه بعد إعراض الحقّ عنه و هذا هو المراد بإضلال اللّه أيّاه فقوله: **يُضِلُّ مَنْ يَشٰآءُ** معناه منع عنه أسباب الخير و وكله الى نفسه بسبب معاصيه.

و قوله: **يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ** معناه أنّه تعالى وفّقه و جعله تحت لطفه و عنايته بسبب الطّاعة و الإنقياد لربّه فالمسّبب لإسباب الهداية و الضّلالة هو العبد نفسه بسبب الطّاعة و المعصية و الى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله:

و أَمّٰا مَنْ خٰافَ مَقٰامَ رَبِّهِ وَ نَهَى اَلنَّفْسَ عَنِ اَلْهَوىٰ، فَإِنَّ اَلْجَنَّةَ هِيَ اَلْمَأْوىٰ[٣] هذا في الهداية.

و أمّا الإضلال:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمّٰا مَنْ طَغىٰ، وَ آثَرَ اَلْحَيٰوةَ اَلدُّنْيٰا،فَإِنَّ اَلْجَحِيمَ هِيَ اَلْمَأْوىٰ**[٤].

فلو كان الإضلال بيد اللّه فلا معنى لقوله: **وآثر الحياة الدّنيا** لأنّ الإيثار إختيار الدّنيا علىٰ الآخرة و هو فعل العبد لا فعل اللّه.

١- محمّد = ۴
٢- الروم = ۳۰
٣- النازعات = ۴۰/۴۱
۴- النّازعات = ۳۷/۳۸/۳۹

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَكُنِ ٱلشَّيْطٰانُ لَهُ قَرِينًا فَسٰآءَ قَرِينًا**[٢].

فهذه الآيات وأمثالها تدّل على أنّ الإعراض عن الحقّ يوجب تسلّط الشّيطان على القلب أي الإعراض الّذي يكون سبباً للضّلالة من فعل العبد فالضّلالة و الهداية من العبد لا من اللّه و هو المطلوب.

و يدُّل على ما ذكرناه قوله في آخر الآية: **وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمّٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** وجه الدّلالة أنّ السّؤال عمّا ليس تحت إختيار العبد غير معقول إذ للعبد أن يقول في جواب السّؤال، أنّك خلقت فيَّ الضّلالة ولم أقدر على رفعها عن نفسي و هذا ممّا لا جواب له، و قول الرّازي و غيره من الأشاعرة، أنّه لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون، لا يثبت مدّعاهم لأنّ معنى الكلام أنّه تعالى لا يسأل عمّا يفعل على أساس العدل و العقل لا مطلقاً و إن كان اللّه لا يفعل على خلاف العدل.

وَ لٰا تَتَّخِذُوٓا أَيْمٰانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا وَ تَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمٰا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ لَكُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ

نهى اللّه تعالى عباده أن يتّخذوا أيمانهم دخلاً و مكراً و خديعةً بينهم و قد مرَّ تفسير هذا الكلام في قوله: **وَ لٰا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهٰا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمٰانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ**[٣] و أنّما كرَّر ذلك إهتماماً به و مبالغةً في النّهي عنه لعظم موقعه في الدّين، و قيل أنّما كرَّر لإختلاف المعنيين لأنّ الأوّل نهي فيه عن الدّخول في الحلف ونقض العهد بالقلّة و الكثرة و هنا نهي عن

١- الزّخرف = ٣٦
٢- النّساء = ٣٨
٣- النّحل = ٩٣

الدّخل في الإيمان الّتي يراد به إقتطاع حقوق فكأنّه قال دخلاً بينكم لتتّوصلوا بها الى قطع أموال المسلمين.

و قال بعض المفسّرين لم يتّكرر النّهي عن إتّخاذ الأيمان دخلاً و أنّما سبق أخبار بأنّهم إتَّخذوا أيمانهم دخلاً معلّلاً بشيءٍ خاصّ و هو أن تكون أمّة هي أربى من أمّةٍ.

و أمّا في المقام فقد جاء النّهي بقوله و لا تتَّخذوا إستئناف إنشاء عن إتّخاذ الأيمان دخلاً على العموم فيشمل جميع الصُّور من الحلف و المبايعة و قطع الحقوق الماليّة و غير ذلك انتهى.

أقول ما ذكره حقٌّ فلا تكرار في الكلام لأنّ النّهي هناك تعلّق بالنَّقض أي نقض العهد و الميثاق و فى المقام تعلّق بالدَّخل و الدَّغل فالدَّخل هاهنا متعلّق النّهي و هناك تعليل لمتعلّق النّهي و الفرق واضح.

و قوله: **فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهٰا** فإنتصب، فتَّزل، على جواب النّهيإستعارة لمن كان مستقيماً و وقع في أمرٍ عظيمٍ و سقط لأنّ القدم اذا زلّت تقلب الإنسان من حال خيرٍ الى حال شرٍّ.

و قال الزّمخشري، فتَّزل أقدامكم عن محجّة الإسلام بعد ثبوتها عليها.

فأن قلت لم وحّدت القدم و نكّرت.

قلت لإستعظام أن تزّل قدمٌ واحدة عن طريق الحقّ بعد أن تثبت عليه فكيف بأقدامٍ كثيرة، هكذا قيل و الحقّ أنّ الجمع تارةً يلحظ فيه المجموع من حيث هو مجموعٌ و تارةً يلحظ فيه إعتبار كلّ فردٍ فاذا لوحظ فيه المجموع كان الإسناد معتبراً فيه الجمعيّة و اذا لوحظ كلّ فردٍ كان الإسناد مطابقاً للفظ الجمع كثيراً فيجمع ما أسند اليه و مطابقاً لكلّ فردٍ فردٍ فيفرد كقوله تعالى: **وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا**[۱] أفرد متّكأً لما كان لوحظ في قوله لهنّ، معنى كلّ واحدةٍ ولو جاء

۱- يوسف = ۳۱

مراداً به الجمعيّة أو على الكثير في الوجه الثّاني لجمع المتّكأ و على هذا المعنى ينبغي أن يحمل قول الشّاعر:

فأنّي وجدت الضّامرين متاعهم يموت و يفنى فإرضخي من و عائياً

أي رأيت كلّ ضامرٍ و لذلك أفرد الضّمير في يموت و يفنى، ولمّا كان المعنى في الآية لا يتّخذ كلّ واحدٍ منكم، فلوحظ فيه لكلّ فردٍ فردٍ لا المجموع من حيث المجموع جاء فتّزل قدمٌ، مراعاةً لهذا المعنى.

و هو في الحقيقة مثلٌ ضربه اللّه و المعنى النّهي عن الضّلالة بعد الهدى قومٌ أنّ الآية نزلت في الّذين بايعوا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم على الإسلام و النُصرة، نهوا عن نقض عهده و ترك نصرته.

أقول و قد مرَّ الكلام في الباب مفصّلاً و قلنا أنّهم نقضوا عهد اللّه و عهد رسوله بعد موت الرّسول فلا نحتاج الى الإعادة و قوله: **وَ تَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** الذَّوق بفتح الذّال و سكون الواو والقاف مصدر ذاقَ يَذُوق ذَوقاً، و هو في الأصل وجود الطَّعم بالضم و أصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر الذّي يقال له الأكل.

و أختير في القرأن لفظ الذَّوق في العذاب لأنّ ذلك و إن كان في التّعارف للقليل فهو مستصلحٌ للكثير فخصَّه بالذّكر ليعمّ الأمرين و كثر إستعماله في العذاب:

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**[4].

١- الأنفال = ١٤ ٢- الزّمر = ٢٤

٣- فاطر = ٣٧ ٤- أحقاف = ٣٤

قال اللّه تعالىٰ: **وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ ٱلنّارِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ**[١] والآيات كثيرة.

و قد جاء في الرّحمة أيضاً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذآ أَذَقْنَا ٱلنّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا**[٣].

و هكذا فقوله: **وَ تَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ** أي العذاب بما صددتم عن سبيل اللّه أي عن إتّباع سبيل اللّه و يحتمل أن يكون المراد بمنعكم غيركم عن متابعة الحقّ و لكم عذابٌ عظيمٌ ففي قوله: **بِما صَدَدْتُمْ** إشارة الى نكتة و هى أنّ الإنسان اذا إتَّخذ أيمانه دخلاً و مكراً، فأنّه يوجب إغفال العوام بل الخواصّ بمعنى أنّهم يظّنون أنّ الماكر على الحقّ فيتّبعونه على نفاقه و مكره و لا أفة و لا بليّة في الدّين أشدّ منه و هذا هو المراد بالصَّد في الآية.

وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّما عِنْدَ ٱللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

نهاهم اللّه تعالى ثانياً عن بيعهم ما عندهم من عهد اللّه و ميثاقه بثمنٍ قليلٍ و شيءٍ يسير تنالونه من حطام الدنيّا.

إعلم أنّ الشّراء و البيع يتلازمان فالمشتري دافع الثَّمن و أخذ المثمن و البائع دافع المثمن و أخذ الثَّمن هذا اذا كانت المبايعة و المشاراة بنّاضٍ و سلعةٍ فأمّا اذا كانت بيع سلعةٍ بسلعةٍ صحّ أن يتَّصور كلّ واحدٍ منهما مشترياً و بائعاً و من هذا الوجه صار لفظ البيع و الشّراء يستعمل كلّ واحدٍ منهما في

١- سبأ = ٤٢
٢- هُود = ٩
٣- الرّوم = ٣٦

موضع الأخر و شريت بمعنى بعت أكثر و إبتعت بمعنى إشتريت أكثر قال اللّه تعالى في قصّة يوسف عليه السلام **وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ**(١) أي باعُوه بثمنٍ بخسٍ و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **يَشْرُونَ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيا بِالْآخِرَةِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللّٰهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولٰئِكَ لا خَلاٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغٰآءَ مَرْضٰاتِ ٱللّٰهِ**(٤).

و المعنى من يبع نفسه إبتغاء مرضات اللّه و هو أمير المؤمنين عليه السلام حيث بات على فراش رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ليلة المبيت اذا عرفت هذا في لفظ البيع و الشّراء و أنّه يستعمل كلّ واحدٍ منهما موضع الأخر فقوله تعالىٰ:

وَ لَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللّٰهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أي لا تبيعوا عهد اللّه بثمنٍ قليلٍ تنالونه من حطام الدنيّا فيكون قد بعتم ما عند اللّه بالشّئ الحقير.

أن قلت مفهوم الكلام أنّ بيع عهد اللّه بثمنٍ كثير لا إشكال فيه لأنّه تعالى نهى عن بيعه بثمنٍ قليلٍ.

قلت أمّا أوّلاً: لا حجيّة لمفهوم الوصف.

ثانياً: على فرض حجيّته لا يوجد في المقام شئ كثير بالنسبة الى عهد اللّه فأنّ الدنيّا و ما فيها في جنب عهد اللّه أقلّ من القليل و بعبارةٍ أخرى اذا بعت عهد اللّه بأيّ شئٍ بعته فقد بعته بثمنٍ قليلٍ و المراد ببيعه أن تجعله سبباً وَ وسيلةً لأخذ الحطام الدُّنيوية من المال و المقام و ترضية المخلوق و أمثال ذلك.

١- يوسف = ٢٠ ٢- النساء = ٧٤

٣- أل عمران = ٧٧ ٤- البقرة = ٢٠٧

ثمّ علّل ذلك بقوله: **إِنَّمَا عِنْدَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** و المراد بقوله: **إِنَّمَا عِنْدَ ٱللَّهِ** هو العهد و الميثاق في أمر الدّين فبيّن اللّه تعالى أنّ الّذي عنده، و هو الإيمان خيرٌ، و يحتمل أن يكون المراد ما عند اللّه من الأجر و الثّواب يوم القيامة هو خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، من الحطام التّي تأخذونه في الدنيّا و ذلك لزوال الدنيّا و ما فيها و بقاء ما عند اللّه كما قال:

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هذه الآية بمنزلة البرهان على قوله تعالىٰ: **إِنَّمَا عِنْدَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** كأنّه قيل ما الدّليل علىٰ أنّ ما عند اللّه هو خيرٌ فقال تعالى: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ**.

و حاصل الكلام هو أنّ اللّه تعالى إستَّدل على ما قال في الآية السّابقة بأمرين:

أحدهما: عقلّيٌ.

الثّاني: نقلّيٌ.

أمّا الأوّل: فهو قوله **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ بَاقٍ** والباقي خير من الفاني عقلاً فما عند اللّه خيرٌ و هو المطلوب.

أمّا قوله: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ** فلا كلام فيه لأحدٍ من العقلاء و ذلك لأنّ ما سوى في معرض الفناء لقوله تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**(١) و لأنّ ما سواه حادث يفنى لا محالة فأنّ ما وجد بالغير يفنى به مضافاً الى أنّ فناء ما في أيدينا محسوسٌ أمّا بالزّوال و أمّا بالموت فثبت و تحقّق نفاد كلّ شيٍ سوى اللّه تعالى و هو المطلوب.

١- الرحمن = ٦

و أمّا قوله: **وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ بَاقٍ** فالوجه فيه أنّه لا زوال هناك و لا موت لقوله تعالى: **وَ يَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَ ٱلْإِكْرَامِ**[1] و بقاء اللّه يُوجب بقاء ما عنده، و أمّا أنّ الباقي خيرٌ من الفاني فلأن الوجود خيرٌ من العدم هذا بحسب العقل.

و أمّا النّقل فهو قوله: **وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** رتّب الجزاء يوم القيامة على الصّبر على ما عند اللّه لا على ما عند غيره و من المعلوم أنّ ما له جزاء يوم القيامة خيرٌ ممّا ليس له ذلك فيصير معنى الآية لا تبيعوا بعهد اللّه ثمناً قليلاً فأنّ هذا الثّمن القليل ينفد و لا يبقى لكم و ما عند اللّه و هو العهد و البقاء عليه لا فناء فيه بل هو محفوظٌ عند اللّه فأصبروا على مرارته و صعوبته في دار الدنيّا فأنّ اللّه يجزيكم غداً يوم القيامة أحسن الجزاء ففي الأيتين حثٌّ على الثّبات و الإستقامة في العهود و المواثيق و حفظ الأيمان.

قال صاحب الكشّاف في تفسير الآية و هو ما كانت قريش يعدونهم و يمنّونهم إن رجعوا، إنّما عند اللّه، من إظهاركم و تغنيمكم و من ثواب الآخرة (خيرٌ لكم) ما عندكم، من أعراض الدُّنيا ينفد و ما عند اللّه، من خزائن رحمته (باقٍ)، لا ينفد انتهى.

و قال في قوله تعالى: **ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا** على أذى المشركين و مشاقّ الإسلام انتهى.

و قال بعضهم في الآية نهيٌ عن الرّشاء و أخذ الأموال على ترك ما يجب على الأخذ فعله أو فعل ما يجب عليه تركه و بيّن اللّه الفرق بين حال الدنيّا و حال الآخرة بأنّ هذه تنفد و تنقضي عن الإنسان و ينقضي عنها و الّتي في الآخرة باقية دائمة.



١- الرحمن = ٢٧

أقـول حکـم الّـله تـعالی حکـماً عـامّاً لا إخـتصاص له بـزمانٍ خـاصّ و لا أشخاصٍ کذلك و یجب مراعاته علی کلّ مسلم الی یـوم القـیامة و قـد فسَّـرنا الآیة بما لا مزید علیه و الی ما ذکرناه من عموم الآیة أشار اللّه تعالی بقوله.

■



مَنْ عَمِلَ صٰالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثٰى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذٰا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ
فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ ٱلشَّيْطٰانِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ
لَهُ سُلْطٰانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمٰا سُلْطٰانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ
وَ ٱلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَ إِذٰا بَدَّلْنٰآ اٰيَةً
مَكٰانَ اٰيَةٍ وَ ٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ قٰالُوٓا إِنَّمٰآ أَنْتَ
مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لٰا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
ٱلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ
هُدًى وَ بُشْرٰى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسٰانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ
إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذٰا لِسٰانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ لٰا يُؤْمِنُونَ بِاٰيٰاتِ ٱللّٰهِ لٰا يَهْدِيهِمُ ٱللّٰهُ وَ
لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمٰا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ
ٱلَّذِينَ لٰا يُؤْمِنُونَ بِاٰيٰاتِ ٱللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ
ٱلْكٰاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ اِيمٰانِهِٓ إِلَّا
مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْاِيمٰانِ وَ لٰكِنْ مَنْ
شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللّٰهِ وَ
لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا
ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيٰا عَلَى ٱلْاٰخِرَةِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ لٰا يَهْدِي
ٱلْقَوْمَ ٱلْكٰافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللّٰهُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

◀ اللّغة

أَجْرَهُمْ: الأجر الثّواب.

سُلْطَانٌ: السّلطان الحجّة.

بَدَّلْنَآ: التَّبديل التّغيير.

مُفْتَرٍ: الإفتراء الكذب.

رُوحُ ٱلْقُدُسِ: جبرئيل.

يُلْحِدُونَ: الإلحاد الإعراض عن الحقّ.

ٱسْتَحَبُّوا: أي إختاروا.

طَبَعَ ٱللَّهُ: الطَّبع السِّمة و العلامة.

◀ الإعراب

مِنْ ذَكَرٍ هو حال من الضّمير في عَمِلَ وَ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ الجملة فاصلة بين اذا وجوابها فيجوز أن تكون حالاً و يجوز أن لا يكون لها موضع هُدًى وَ بُشْرَىٰ كلاهما في موضع نصب علىٰ المفعول له و يجوز أن يكونا في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف اي و هو هدىً و الجملة حال من الهاء في نَزَّله لِسَانُ ٱلَّذِي مبتدأ و خبره أَعْجَمِيٌّ، مَنْ كَفَرَ فيه وجهان:



أحدهما: هو بدل من قوله: ٱلْكَاذِبُونَ أي و أولئك هم الكافرون، و قيل هو بدل من، أولئك و قيل بدل من الّذين لا يؤمنون.

الوجه الثّاني: هو المبتدأ، و خبره **فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللّٰهِ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ** إستثناء مقدّم و قيل، من، شرطٍ و جوابها محذوف دلّ عليه قوله: **فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ** إلاّ من أكره، إستثناء متّصل لأنّ الكفر يطلق علىٰ القول و الإعتقاد، و قيل هو منقطعٌ لأنّ الكفر إعتقاد و الإكراه علىٰ القول دون الإعتقاد **مَنْ شَرَحَ** مُبتدأ **فَعَلَيْهِمْ** خبره.

◀ التّفسير

مَنْ عَمِلَ صٰالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ

الصَّلاح ضدّ الفساد و هما مختّصان في أكثر الإستعمال بالأفعال دون الأقوال و قوبل في القرآن تارةً بالفساد و تارةً بالسّيئة:

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَطُوا عَمَلًا صٰالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا**[٢].

و أنّما قال من ذَكرٍ و أنثىٰ مع أنّ كلمة، من، في قوله من عمل صالحاً تشمل الذّكر و الأنثىٰ لأن المتبادر الىٰ الذّهن منها هو الإفراد والتّذكير فبيّن بالنَّوعين ليعم الوعد كليهما و حيث أنّ الإيمان شرط في العمل الصّالح قال تعالىٰ: **وَ هُوَ مُؤْمِنٌ** حال كونه مؤمناًإشارة الىٰ أنّ العمل بدون الإيمان لا خير فيه و ليس مصداقاً للأية فأنّ معنىٰ الكلام من عمل صالحاً حال كون العامل مؤمناً ذكراً كان أو أُنثىٰ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً** إختلفوا في معناها فقيل أنّ ذلك في الدّنيا و هو قول الجَمهور **وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** في الآخرة و قال الحسن و مجاهد و إبن جبير و قتادة و إبن زيد، و ذلك في الجنّة، و قال شريك في القبر.

١- التّوبة = ١٠٢ ٢- الأعراف = ٥٦

و قيل هي القناعة، و قيل هي الرزّق الحلال و قيل هي السّعادة، و قيل الطّاعة، و قيل المراد بها الرِزّق الطّيب و العمل الصّالح، و قيل الرّضا بالقضاء.

و قال صاحب الكشّاف المؤمن مع العمل الصّالح أن كان موسراً فلا مقال فيه و أن كان مُعسِراً فَمَعه ما يطيب عيشه و هو القناعة و الرّضا بقسمة اللّه و الفاجر أن كان معسراً فلا إشكال في أمره و إن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهَّنأ بعيشه.

و قال إبن عطية طيب الحياة للصالّحين بإنبساط نفوسهم و نيلها و قوة رجاءهم و الرّجاء للنّفس أمرٌ ملِّذٌ و بأنّهم إحتقروا الدّنيا فزالت همومها عنهم فأن إنضاف الىٰ هذا مال حلال و صحّة و قناعة فذاك كمال و إلاّ فالطّيب فيما ذكرنا راتبٌ انتهىٰ.

أقول الحياة ضدّ الموت فمن كان موجوداً فهو حيٌّ ثمّ أنّ الإنسان تارةً يصرف حياته في جمع الأموال و الوصول الىٰ المشتّهيات النّفسانية في دار الدّنيا من الأكل و الشّرب و الجماع و غيرها ممّا هو من صفات البهائم و ذلك مثل كثيرٍ بل أكثر أبناء الزّمان الّذين لا يطلبون في الدّنيا غير الدّنيا و ما فيها من الزّخارف.

و تارةً يَصرف حياته في تحصيل الآخرة فقط من غير عنايةٍ له بالدّنيا و ذلك مثل كثيرٍ من الزّهاد في كلّ عصر و زمانٍ.

و تارةً يصرف حياته في تحصيل الدّنيا و الآخرة معاً و بعبارةٍ أخرىٰ النّاس علىٰ أصناف ثلاثة:

صنفٌ منهم من يفسد آخرته بدنياه.

و صنفٌ منهم من يفسد دنياه بآخرته.

و صنفٌ يجمع بينهما بأحسن وجهٍ، و هذا هو الحياة الطيّبة سواء أريد بها أي بالحياة حياة الدّنيوية أم حياة الأخروية لأنّه جمع بينهما على الفرض المعلوم أنّ الإنسان إذا كان كذلك فهو راضٍ بقضاء اللّه و قدره وتسليمٌ لأمره

تعالىٰ قانع بما رزقه اللّه و لا نعني بالحيّاة الطّيبة إلاّ هذا وقوله: **وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** إشارة الىٰ ما أعَدَّ لهم من الثّواب في الآخرة و يظهر من هذا الكلام أنّ المراد بالحياة الطّيبة الحياة الدنيويّة أي نجمع لهم الدّنيا و الآخرة معاً و هو الفوز العَظيم.

فَإِذٰا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ ٱلشَّيْطٰانِ ٱلرَّجِيمِ

أمر اللّه نبيّه ظاهراً وجميع الأمّة واقعاً بالإستعاذة باللّه من الشّيطان الرّجيم و المعنى إذا أردت قراءة القرآن فأستعذ باللّه كما قال تعالىٰ: **إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلٰوةِ فَاغْسِلُوا**[١].

و ذلك لأنّ بعد القراءة لا يجب الإستعاذة إلاّ عند من لا يعتدّ بخلافه كما لا يجب الغسل بعد الصّلاة و الوجه في ذلك هو أنّ الإستعاذة من الشّروط و الشّرط مقدّم علىٰ المشروط كما أنّ الطّهارة بالنّسبة الىٰ الصّلاة كذلك و الفرق بين المقامين بالوجوب و الإستحباب حيث أنّ قراءة القرآن من المستحبّات فكذلك الإستعاذة بخلاف الصّلاة فأنّها واجبة فشرطها و هو الطّهارة أيضاً واجبة ففي الواجبات ينتفي المشروط بإنتفاء شرطها بخلاف المندوبات فالصّلاة من غير طهارةٍ باطلة عاطلة بخلاف القراءة و محصّل الكلام هو أنّ الإستعاذة مستحبّة غير واجبة و لم يقل أحدٌ بوجوبها فيما نعلم، فعن الكافي بسأسناده عن فرات بن أحنف عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول أوّل كلّ كتابٍ نَزَل من السَّماء، **بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ** فإذا قرأت بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم، فلا تبالي ان إلاّ تستعيذ فإذا قرأت بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم، ستر بك فيما بين السَّماء و الأرض انتهىٰ.

و عن تفسير العياشي عن سماعة عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه وإذا قرأت القرآن فأستعذ باللّه من الشّيطان الرّجيم، قلت كيف

١- المائدة = ۶

أقول قال عليه السلام: تقول أستعيذ بالله السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم، و قال عليه السلام: إنّ الرّجيم أخبث الشّياطين قال قلت له، لم سميّ الرّجيم قال عليه السلام: لأنّه يرجم، قلت فأنفلت منها شئ قال عليه السلام: لا، قلت فكيف سمّي الرّجيم ولم يرجم بعد قال عليه السلام: يكون في العلم أنّه رَجيم.

و عن كتاب معاني الأخبار بأسناده الىٰ عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني قال: سمعت أبا الحسن علّي بن محمّد العسكري يقول معنى الرّجيم أنّه مرجومٌ باللّعن مطرودٌ من الخير لا يذكره مؤمنٌ إلاّ لعنه و أنّ في علم السّابق إذا خرج القائم لا يبقى مؤمنٌ في زمانه إلاّ رجمه بالحجارة كما كان قبل ذلك مرجوماً باللّعن.

و عن مصابيح الشّريعة قال الصّادق عليه السلام في كلامٍ طويل: فقارئ القرآن يحتاج الىٰ ثلاثة أشياء، قلبٌ خاشع، و بدن فارغٌ، وموضع خالٍ، فإذا خشع للّه قلبه فرَّ من الشّيطان الرّجيم قال اللّه تعالىٰ: فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ انتهىٰ.

قال في المجمع الإستعاذة عند التّلاوة مُستّحبة غير واجبة بلا خلاف في الصّلاة و خارجها.

إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَ ٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ

نفى اللّه تعالىٰ تسلُّط الشّيطان على المؤمنين المتوكّلين علىٰ اللّه و أثبت سلطانه علىٰ من يتولاّه و يتّبعه و علىٰ الّذين هم به أي باللّه مشركون فالأمور ثلاثة:

أحدها: أنّ الشّيطان ليس له سلطانٌ علىٰ المؤمنين المتوكّلين علىٰ اللّه في جميع أمورهم، و قيل المراد بالسُّلطان الحجّة أي لا حجّة له عليهم.

و قال بعض المفسّرين السُّلطان هنا التَّسليط و الولاية و المعنى أنّهم لا يقبلون منه و لا يطيعونه فيما يريد منهم من إتباع خطواته:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا**[٢].

و قد حكىٰ اللّه تعالىٰ عنه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**[٣].

أقول الحقّ أنّه تعالىٰ نفىٰ السلطان بقول مطلق علىٰ المؤمنين بشرط أن يتوكّلوا علىٰ اللّه و فى الكلام إشارة الىٰ أنّ مجرّد الإيمان لا يكفي في إنتفاء سلطنته بل لابدّ للمؤمن من التوكّل علىٰ اللّه و قد يتحقّق التّوكل بالإستعاذة باللّه تعالى أمر اللّه نبيّه و جميع أمتّه بها كما مرَّ الكلام في الآية السّابقة ففي الحقيقة قوله: **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ** الخ بمنزلة التّعليل لقوله فأستعذ باللّه فكأنّه قيل لم نستعيذ باللّه فقال تعالىٰ: **أنّ ليسَ له سُلطانٌ علىٰ المؤمنين** و لازم ذلك هو تحقق الإيمان والتوكل للمستعيذ به تعالىٰ من الشّيطان الرّجيم.

ثانيها: ثبوت السلّطان له علىٰ من يتولاّه و يتّبعه و ذلك واضح لأنّ الإمام مسلّطٌ علىٰ مأمومه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللّٰهُ هُوَ الْوَلِيُّ**[٥].

١- الحجر = ٤٢ ٢- الإسراء = ٦٥
٣- إبراهيم = ٢٢ ٤- النّساء = ١١٩
٥- الشّورىٰ = ٩

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ**[١].

ثالثها: قوله: **(والّذين هُم بربّهم مُشركُون)** إختلف المفسّرون في معنىٰ هذا الكلام و منشأ الإختلاف هو الإختلاف في تعيين مرجع الضّمير في (به) فقال قوم أنّه يرجع الىٰ الشّيطان و المعنىٰ أنّ الّذين يطيعونه فيما يدعو اليه من عبادة غير اللّه مشركون فلمّا كان من أطاعه من عبادة غير اللّه مشركاً، كان به مشركاً، و هو من الإيجاز الحسن.

أقول علىٰ هذا فالباء في، به، للسَّبب و المعنى أنّهم بسبب الشّيطان صاروا مشركين.

و قال بعض المفسّرين مرجع الضّمير في قوله، به، هو اللّه أي و الّذين هم باللّه مشركون.

أقول المعتمد هو القول الأوّل.

أمّا أوّلاً: فلأن الأقرب يمنع الأبعد فعود الضّمير الىٰ الشّيطان أولى و أقرب من عوده الىٰ اللّه.

ثانياً: ليس في الآية ذكرٌ من اللّه ليرجع الضّمير اليه.

ثالثاً: يرجع القول الثّاني الى القول الأوّل لأنّ المشركين باللّه أنّما أشركوا به تعالىٰ بإغواء الشّيطان و إضلاله أيّاهم ففي الحقيقة هو الباعث علىٰ شركهم باللّه و هو واضحٌ علىٰ المتأمّل في الكلام.

وَ إِذٰا بَدَّلْنٰآ اٰيَةً مَكٰانَ اٰيَةٍ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ قٰالُوٓا إِنَّمٰآ أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ

التَّبديل في اللّغة رفع الشّيئ مع وضع غيره مكانه تقول بدَّله تبديلاً و أبدله إبدالاً و المعنى متى بدّلنا آيةً مكان آيةٍ بأن رفعنا آيةً و نسخناها و آتينا بآيةٍ

١- الشّورىٰ = ٢١

أخرىٰ بدلها و من المعلوم أنّ اللّه تعالىٰ أعلم بما ينزّل من الآيات علىٰ أساس المصلحة ثمّ أنّ التبّديل قد يكون برفع حكم الآية مع ثبُوت تلاوتها يكون بالعكس و قد يكون برفعهما و قوله: **قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ** حكايةٌ عمّا قاله الكفّار للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و نسبتهم أيّاه بالكذبِ و الإفتراء في إدعاءه الرّسالة من اللّه تعالىٰ ثمّ أخبر اللّه تعالىٰ عنهم فقال: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** أنّك نبيّ حقّاً و ذلك لأنّهم لم ينظروا الىٰ معجزاتك بعين البصيرة أو لأجل الشُّبه، الدّاخلة عليهم و أن عِلمه بعضهم و كابر و أنكر ما يعلمه و قال بعض المفسّرين الظّاهر أنّ هذا التّبديل رفع آية لفظاً و معنىً و يحتمل أن يكون التّبديل لحكم المعنىٰ و إبقاء اللّفظ و وجد الكفّار بذلك طَعناً في الدّين و ما علموا أنّ المصالح تختلف بإختلاف الأوقات و الأشخاص و كما وقع نسخ شريعةٍ بشريعةٍ أخرىٰ كذلك يقع النّسخ في شريعةٍ واحدة ومفعُول **لَا يَعْلَمُونَ** محذوف لدلالة المعنى عليه أي لا يعلمون أنّ فيه حكمٌ و مصالح و هذه الآية دلّت على وقوع نسخ القرآن بالقرآن ثمّ قال اللّه تعالىٰ لنبيّه.

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ هُدًى وَ بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ

أمر اللّه تعالىٰ نبيّه أن يقول لهؤلاء الكفّار المنكرين للتنزّيل من ربّ العالمين أنّ القرآن نزّله روح القدس و هو جبرائيل من جانب اللّه بالحقّ و أضاف الرَّب الىٰ كاف الخطاب تشريفاً للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بإختصاص الإضافة و إعراضاً عنهم إذ لم يضف الرّب اليهم ولم يقل ربّهم و قوله: **بِالْحَقِّ** حال أي متّلبساً بالحقّ سواء كان ناسخاً و منسوخاً فكلّه مصحوبٌ بالحقّ لا يعتريه شئ من الباطل و ليثبّت معناه أنّهم لا يضطربون في شئٍ منه لكونه نسخ بل النّسخ مثبت لهم علىٰ إيمانهم لعلمهم أنّه جميعه من عند اللّه و ذلك لِصحّة.

إيمانهم وإطمئنان قلوبهم يعلمون أنّه حكيمٌ و أنّ أفعاله كلّها صادرة عن حكمةٍ فهي صوابٌ كلّها و أنّما خصّ الهداية و البشرىٰ بالمسلمين إشعاراً بأنّ الكفّار متّصفون بضدّه من لحاق الإضطراب لهم و تزلزل عقائدهم و ضلالهم، أو أنّهم أي الكفّار لكفرهم و إنكارهم الحقّ لا يستعدّون للإهتداء به لعدم قابلّيتهم و لمّا نسبوه الىٰ الإفتراء و هو الكذب علىٰ اللّه لم يكتفوا بذلك حتّى جعلوا ذلك الإفتراء الذّي نسبوه اليه ﷺ هو من تعليم بشر إيّاه فليس هو المختلق بل المختلق غيره و هو ناقل عنه و قيل ظاهر قولهم، أنّما أنت مفترٍ، أنّ معناه مختلق الكذب ينافي التّعليم من البشر.

وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ

يقول اللّه تعالىٰ و لقد نعلم أنّهم أي الكفّار يقولون أنّما يعلّمه أي الرّسول، بشرٌ مثله، فليس ما يقول من اللّه و أنّما هو من بشَر مثله و إختلفوا في معنىٰ المراد من البشر و أنّه من هو.

فقال بعض المفسّرين هو حبر غلام رومّي كان لعامر بن الحضرمي، عائش أو يعيش و كان صاحب كتب مولى حويطب بن عبد العزّي و كان قد أسلم فحسن إسلامه قاله الفرّاء والزّجاج.

و قيل المراد به أبو فكيهة أعجمي مولىٰ لمرأةٍ بمكّة، و قيل إسمه يسار و كان يهودياً قاله مقاتل و إبن جبير الاّ أنّه لم يقل كان يهودّياً.

و قال إبن زيد كان رجلاً حداداً نصّرانياً إسمه عنس و عن إبن عبّاس هو، بلعام، و كان قيناً بمكّة روميّاً نصّرانياً، و قيل أرادوا به سلمان الفارسي و هكذا من الأقوال فقال اللّه تعالىٰ ردّاً عليهم، لسان الذّي يميلون اليه أعجميّ، و هذا القرأن لسانٌ عربّيٌ مبين، و الأعجمي الذّي لا يفصح و العجمي منسوبٌ الى العجم، و الأعرابي البدوي، و العربي منسوبٌ الى العرب و قوله مبين، أي ظاهرٌ بيّنٌ لا يشكل.

و حاصل المعنىٰ أنّ ما قالوه لا أصل له وأنّما هو كذبٌ محضٌ و الدّليل على ذلك أنّ الأعجمي هو الذّي لا يفصح و القرأن في نهاية الفصاحة بحيث عجزت الفصحاء عن الإتيان بجميعه:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما كانَ هٰذَا الْقُرْاٰنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللّٰهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **قالَ الَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْاٰنٍ غَيْرِ هٰذآ أَوْ بَدِّلْهُ**[٣].

فقولهم: **إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ** كلام لا طائل تحته و لا يقول به من كان له أدنىٰ معرفة بلسان العرب و هو واضح.

إِنَّ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاٰياتِ اللّٰهِ لا يَهْديهِمُ اللّٰهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ

في الآية دلالة علىٰ أنّ شرط الإهتداء هو الإيمان فمن لا يؤمن لا يهتدي الىٰ الحقّ فلو كان الإيمان خارج عن إرادة البشر و قدرته و كان مخلوقاً لِلّه تعالىٰ في العبد كما يقول به الجبري لا معنى لهذا الكلام ألا ترىٰ أنّ اللّه تعالى علَّق الهداية على الإيمان أوّلاً و السرّ في ذلك أنّ القلب اذا لم يكن منوّراً بنُور المعرفة لا يستعدّ لقبول الحقّ لأنّ شرط تأثير العلّة في المعلول هو قابليّة المعلول للتأثر مع تماميّة العلّة فلو كان المعلول غير قابلٍ للتّأثر لا تُؤثّر العلّة فيه و أن كانت تامّة شكّ أنّ الإستعداد و القابليّة لا يحصل في القلب إلاّ بعد المعرفة و الإيمان.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما تُغْنِى الْاٰياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ**[٤].

١- الإسراء = ٨٨ ٢- يُونس = ٣٧
٣- يُونس = ١٥ ٤- يُونس = ١٠١

قال اللّه تعالىٰ: **فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَوآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**[٢].

و أمّا قوله: **وَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ** فلأن العذاب ثابت للكافر الّذي لا يؤمن باللّه لإستحقاقه العذاب بسبب كفره و هؤلاء الّذين بقوا علىٰ الكفر بإختيارهم و سوء سريرتهم و خبث باطنهم إستحقّوا بذلك العذاب في الآخرة.

إِنَّما يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاٰياتِ ٱللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكاٰذِبُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى نسبتهم الإفتراء الىٰ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنّ ما أتىٰ به مِن عند اللّه إنّما يعلّمه بشر كان ذلك تسجيلاً عليهم بإنتفاء الإيمان فأخبر اللّه عَنهُم أنّهم لا يهديهم اللّه ثمّ قال: **إِنَّما يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاٰياتِ ٱللّٰهِ** لا أنت يا محمّد ففي الآية نفى اللّه تعالى الإفتراء عن الرّسول و أثبته لهؤلاء الكافرين الّذين لا يؤمنون بأيات اللّه و صدر الكلام بكلمة، إنّما، الّتي تفيد الحصر إشعاراً بأنّ الإفتراء منحصرٌ بهم لكفرهم و أمّا المؤمن فلا يفتري على اللّه أصلاً و الى هذا المعنىٰ أشار بقوله: **وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكاٰذِبُونَ** لا غيرهم ففي الحقيقة في الآية تسلية للنّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكأنّه قال تعالىٰ لا تغتّم يا محمّد بما نسبوه اليك من الإفتراء الّذي نسبوه اليك و ختم الكلام بقوله: **وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكاٰذِبُونَ** الّذي هو بمنزلة التّأكيد لقوله: **إِنَّما يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** مشعراً بأنّه يقتضي الثّبوت و الدّوام لأنّ الكاذب إسم فاعلٍ يَقتَضي الثّبُوت فجاءَ قوله: **يَفْتَرِى** يقتضي التجدّد، و جاء الكاذبون يقتضي الثّبوت والدّوام.

١- النّحل = ٢٢

٢- يٰس = ١٠

مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ إِلاّٰ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمٰانِ وَ لٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ

قيل نزلت الآية في عمّار بن ياسر رضي الله عنه أكرهه المشركون بمكّة بأنواع العذاب و قيل أنّهم غطّوه في البئر على أن يلفظ بالكفر و كان قلبه مطمئناً بالإيمان فجاز من ذلك و جاء النّبي جزعاً فقال له النّبي كيف كان قلبك قال كان مطمئنّاً بالإيمان فأنزل اللّه فيه الآية.

ثمّ أخبر أنّ الّذين يكفرون باللّه بعد أن كانوا مصدّقين به بأن يرتّدوا عن الإسلام فعليهم غضبٌ من اللّه ثمّ إستثنى من ذلك من كفر بلسانه و كان مطّمئن القلب بالإيمان في باطنه فأنّه بخلافه فمعنى الآية من كفر باللّه بعد إيمانه بهالذّي يعبّر عنه بالإرتداد و إستثنىٰ من ذلك من تلفّظ بالكفر و قلبه مطّمئنٌ بالإيمان أي كفر باللّه لفظاً لا قلباً و إعتقاداً فأنّه لا إشكال فيه، و لكن من شَرَح بالكفر صدراً أي كفر باللّه قلباً و إعتقاداً فعليهم غضبٌ من اللّه أي علىٰ هؤلاء الكفّار غضب من اللّه و لهم عذابٌ عظيم يوم القيامة و فى الآية مسائل لابدّ مِن التّعرض لها.

الأُولىٰ: قوله **مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِهِ** مبتدأ لم يذكر خبرهإختَلَف المفسّرون فيه فقال الزّمخشري أنّه بدلّ **اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ** علىٰ أن يُجعل **وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْكٰاذِبُونَ** إعتراضاً بين البدل و المبدل منه و المعنىٰ أنّما يفتري الكذب من كفر باللّه من بعد إيمانه و إستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الإفتراء، و لكن من شرح بالكفر صدراً، أي طاب به نفساً و إعتقده فعليهم غضبٌ من اللّه و يجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الّذي هو أولئك، فالتّقدير و من كفر باللّه من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو يكون بدَلاً من الخبر الّذي هو الكاذبون فالتّقدير و أولئك هم من كفر باللّه من بعد إيمانه.

و يجوز أن ينتصب علىٰ الذّم و التّقدير و أولئك هم الكاذبون أعني من كفر باللّه من بعد إيمانه، و قد جوَّزوا أن يكون، من كفر باللّه شرطاً مبتدأ و يحذف

جوابه لأنّ جواب، من شرح، دالٌّ عليه كأنّه قيل من كفر باللّه فعليهم غضبٌ إلاّ من أكره و لكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ انتهىٰ كلامه.

الثّانية: أنّ قوله: **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ** ليس بإستثناء لأنّ المكره ليس بكافر فلا يصّح إستثناءه منه و أنّما يصّح هذا الإستثناء للمشاكلة لأنّ ما يظهر من المرتدّ بعد الإيمان مثل ما يظهر من الكافر طَوعاً فلأجل هذه المشاكلة صحَّ هذا الإستثناء.

الثّالثة: المراد بالإكراه في الآية الّذي يجوز عنده التّلفظ بكلمة الكفر هو أن يعذّبه بعذابٍ لا طاقة له به مثل التّخويف بالقتل و الضَّرب الشّديد و الإيلامات القوّية الّتي هي فوق الطّاقة هكذا قيل و الحقّ أنّ المناط في جواز التّلفظ بكلمة الكفر هو صدق الإكراه عقلاً و أن لم يكن فوق الطّاقة فأنّ مصاديق الإكراه متفاوتة بحسب الأشخاص و الأمكنة.

الرّابعة: هل يجب عليه التّكلم بكلمة الكفر بعد الإكراه بمعنى أنّه لو لم يتّكلم بها عصى أو لا يجب و بعبارةٍ أخرىٰ الآية تدلّ على الوجوب أو علىٰ الجواز فذهب كثير من المفسّرين الىٰ الوجوب حفظاً لنفسه و عرضه.

و قال الأخرون بالجواز و إستّدلوا علىٰ الجواز بأنّ بلالاً صبر على العذاب وّكان يقول أحدٌ أحدٌ و لم يقل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم له بئس ما صنعت بل عظّمه عليه كما لم يقل لعمّار بن ياسر الذّي تكلّم بكلمة الكفر بئس ما صنعت و هذا دليلٌ علىٰ الجواز.

و قد روي أنّ مسيلمة الكذّاب أخذ رجلين فقال لأحدهما ما تقول في محمّد فقال رسول اللّه فقال ما تقول فى قال أنت أيضاً فخّلاه و قال للأخر ما تقول في محمّد قال رسول اللّه قال ما تقول، فى، قال أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال صلى الله عليه وآله وسلم أمّا الأوّل فقد أخذ برخصة اللّه و أمّا الثّاني فقد صدع بالحقّ فهنيئاً له قالوا وجه الإستدلال بهذا الخبر من وجهين:

أحدهما: أنّه ﷺ سمّى كلمة الكفر رخصة.

الثّاني: أنّه ﷺ عظّم حال من أمسك عنه حتّىٰ قتل.

و زاد بعضهم قولاً ثالثاً و هو أنّ بَذل النَّفس في تقرير الحّق أشقّ فوجب أن يكون أكثر ثواباً لقوله ﷺ أفضل الأعمال أحمزها أي أشقّها و في المقام قولٌ رابع و هو أنّ الممسك عن كلمة الكفر طهر قلبه و لسانه عن الكفر و أمّا الّذي تلَّفظ بها و أن كان قلبه طاهراً عنه إلاّ أنّ لسانه في الظّاهر قد تلّطخ قبلك الكلمة الخبيثة فوجب أَن يكون حال الأوّل أفضل إنتهىٰ.

و الّذي نقول به و نعتقده هو أنّ المتكلّم بكلمة الكفر و قلبه مطمئن بالإيمان أفضل ممّن لم يتكلّم بها و قتل لأنّ حفظ النَّفس من أوجب الواجبات فإذا كان الشّارع أجاز التّكلم بكلمة الكفر في صورة الإكراه كما هو المفروض و فيه حفظ النَّفس أيضاً فلا يحكم العقل بإختيار القتل بسبب عدم التّكلم بها و أن كان جائزاً لدوران الأمر بين المهّم و الأهّم و من المعلوم أنّ حفظ النَّفس أَهّم فالأخذ به أولىٰ و قولهم أنّ أفضل العبادات أو الأعمال أحمزها، لا يدلّ على المدّعي إذ لم يثبت كون السّكوت من التّكلم بها من العبادات أو الأعمال إذ من المحتمل عدم جوازه واقعاً لقوله تعالىٰ: **وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ**[1] و كيف كان فالأمر سهلٌ ببعد وضوح المعنىٰ و هو أنّ الشّارع أجاز التّكلم بكلمة الكفر بعد تحقّق الإكراه و كون القلب مطمئناً بالإيمان سواءٌ كان علىٰ وجه الوجوب أم علىٰ وجه الجواز.

الخامسة: قوله: **وَ لَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا** الشَّرح البسط والصَّدر القلب و المعنىٰ من بسط الكفر في قلبه أي كان قلبه مملواً من الكفر فعليهم غضبٌ من اللّه و الضّمير في عليهم يرجع الى جميع الكفّار أي من كفر بعد إيمانه من غير إكراهٍ و من شرح قلبه بالكفر فعلىٰ جميعهم غضبٌ من اللّه و لهم عذابٌ عظيمٌ يوم القيامة.

١- البقرة = ١٩٥

قيل و لكن من شرح بالكفر صدراً، أي فتحه و وسعه لقبول الكفر و أنتصب صدراً علىٰ أنّه مفعول، شرح، والتّقدير و لكن من شرح بالكفر صدره فحذف الضّمير لأنّ البشر لا يقدر على شرح صدر غيره فهو فكرةٌ يراد بها المعرفة.

السّادسة: في الآية دلالة علىٰ أنّ محلّ الإيمان هو القلب و أمّا اللّفظ فهو مظهرٌ عنه و الى هذا المعنى أشير بقوله عليه السلام: أنّ اللّه لا ينظر الى صوركم و أعمالكم بل ينظر الى قلوبكم، فإذا كان القلب مطمئّناً بالإيمان لا يضُره التَّلفُظ والتَّكلم و التَّظاهر بخلافه في صورة الإكراه و أمّا أنّ الإيمان عبارة عن المعرفة أو عن التَّصديق بكلام النَّفس فهو بحث آخر.

نعم، مجرّد الإعتقاد القلبي لا يكفي في تحقُّق الإيمان في الخارج بل لابُد له من العمل فأنّ الثَّواب و العقاب يترتّبان علىٰ العمل النّاشئ عن الإيمان لا علىٰ العمل فقط و لا علىٰ الإعتقاد كذلك لأنّ الآثار تترتّب علىٰ الوجود الخارجي و أمّا الوجود الذّهني فلا أثر له إلاّ في وعاء الذَّهن و إنّما وصف العذاب بالعظمة فقال و لهم عذابٌ عظيمٌ، إذ العذاب على المعصية و لا معصية أشدَ و أعظم من الكفر فعذابه كذلك.

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيا عَلَى ٱلْاٰخِرَةِ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكٰافِرِينَ

هذه الآية بمنزلة التّعليل لقوله: **وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ** كأنّه قيل و لم يكون لهم عذابٌ عظيمٌ فقال تعالىٰ ذلك العذاب بسبب إختيارهم الحياة الدّنيا علىٰ الآخرة و فيه إشارة الى دقيقةٍ و هى أنّ سبب كفرهم باللّه أنّما هو لأجل طلبهم الدُّنيا و ما فيها دون طلب الآخرة فذكر السَّبب و أراد المسَّبب.

قال رسُول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **حُبّ الدُّنيا رأس كلّ خَطيئةٍ**، ومن أحبَّ شيئاً إختاره علىٰ غيره لا محالة ثمّ قال تعالىٰ: **أَنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكٰافِرِينَ** أي لا يَهديهم الىٰ طريق الجنّة و الثّواب لكفرهم، أو أنّه لا يحكم بهدايتهم لكونهم

كفّاراً و أمّا نصب الدّلالة فقد هدى اللّه جميع المكلّفين كما قال تـعالىٰ: **وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ**(١).

و يحتمل أن يكون المراد أن اللّه لا يهدي القـوم الكـافرين، مـاداموا عـلىٰ كفرهم و عنادهم، علىٰ طريق الإجبار و الإضطرار.

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ، لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ

أي أولئك الكفّار الّذين إستحبوا الحياة الدُّنيا علىٰ الآخـرة فـإختاروا الكـفر علىٰ الإيمان طبع اللّه على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم، الطَّبع في الأصـل أن تصوّر الشّيء بصورةٍ امّا كطبع السِّكة و طـبع الدّراهـم و هـو أعـمّ مـن الختم و أخصّ من النّقش و به إعتبر الطّبع و الطّبيعة التّي هي السَّجية فأنّ ذلك هو نقش النَّفس بصورة مّا إمّا من حيث الخلقة و إمّا من حيث العادة و هو فيما ينقش به من حيث الخلقة أغلب و لهذا قيل، و تأبى الطّباع عـلى النّـاقل، فـقوله تـعالىٰ طبع اللّه على قلوبهم معناه ختم عليها فلم توفّق للخَير.

و قال بعضهم الطَّبع بالسّكون الختم و بالتّحريك العيب و أصـله الدَّنس و الوسخ يغشيان السَّيف ثمّ إستعمل فـيما يشـبه الوسـخ و الدَّنس مـن الأثـام و الأوزار ذلك من العيوب و المقابح.

و قيل الطَّبع هو الرّين و قيل الرّين أيسر من الطَّبع و هو أيسر من الأقفال و الأقفال أشدَّ ذلك كلّه و هو إشارة الىٰ قوله تعالىٰ: **بَلْ رانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**(٢).

و قال بَعض المحقّقين معنىٰ قوله تعالىٰ: **طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** غشّاه و منعه ألطافه و هو كـما قـيل صـريحٌ فـي إضـلال اللّـه لبـعض عـباده مـن بـاب المجازات لا إبتداءً كما زعمته الأشاعرة انتهىٰ.

١- فصّلت = ١٧

٢- المُطففين = ١٤

مراده أنّ نسبة الإضلال اليه تعالىٰ مجازٌ لا حقيقة حتّىٰ لزم الجبر و قد مرّ الكلام فيه غير مرّةٍ و قلنا إضلاله تعالى معناه منعه ألطافه الخاصّة عن العبد و إيكاله الىٰ نفسه و قد كرّر الإضلال و الطَّبع و الختم على القلوب في كثير من الآيات والمعنىٰ ما ذكرناه.

أن قلت الطَّبع على القلب عرفنا معناه فما معنى الطَّبع على السَّمع و البصر.

قُلتُ أنّ اللّه تعالى جعل القلب في الإنسان للتَّفقه و السَّمع للإستماع ثمّ ترتيب الأثار عليه و البصر للرّؤية بالحدقة كذلك و لم يجعلها للإدراك فقط كيف إتّفق مع قطع النَّظر عمّا يترتّب عليها من الأثار الخارجيّة اذ لو كان الأمر علىٰ هذا المنوال لم كين بين الإنسان و الحيوان فرقاً من جهة الإدراك المجرّد.

ألا ترى أنّ الحيوان يدرك بقلبه و يرى ببصره و يسمع بأذنه إلاّ أنّه عاجز عن درك الكلّيات بمعنى أنّه لا يقدر على إستنباط حكم كلّيٍ ممّا أدركه بالحوّاس و ذلك لعدم وجود العقل فيه فأنّ المدرك للكلّيات هو العَقل و به يتميّز بين الحُسن و القبح و الخير و الشّر و الضرّ و النفع بعد الإدراك و هذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان.

و محصّل الكلام هو أنّ القوى الحسّية من السّمع و البصر و الشّم و اللمسّ و الذَّوق كلّها مشتركة بين الحيوان و الإنسان و هكذا القَلب و هذا ممّا لا كلام فيه فلا فضل للإنسان علىٰ الحيوان من هذه الجهة بل هي في بعض الحيوانات أقوىٰ و أشدّ منها في الإنسان و أنّما الفضل في العقل الحاكم على المدركات و لتوضيح ذلك نذكر مثلاً.

و هو أنّ الإنسان يرى بعينه الموجودات الخارجيّة من الجماد و النَّبات و الحيوان أيضاً يراها بعينه فلا فرق في تحقّق الرُّؤية في الإنسان و الحيوان إلاّ أنّ الإنسان بعد رؤيته إيّاها ينتقل منها الىٰ مؤثّرها و موجدها فيحكم بأنّ لها خالقاً مدّبراً حكيماً عالماً فيقول أشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أمّا الحيوان فلا يقدر على ذلك و هكذا في السّمع فأنّ الإنسان يسمع الكلام و الأصوات و الحيوان أيضاً

يسمع و الفرق أنّ الإنسان بعد الإستماع يحكم بحسن الكلام أو قبحه والحيوان لا يقدر علىٰ ذلك لأنّه لا عقل له فأن العقل هو الحاكم بذلك فثبت و تحقّق ممّا ذكرناه أنّ الإدراك بسبب الحواسّ و الحاكم بخير المدرَك أو شرّه بسبب العقل.

اذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ** ليس معناه أنّهم لا يدركون و لا يسمعون و لا يبصرون ضرورة أنّ الكافر يدرك و يسمع و يبصر بل المعنىٰ أنّهم يدركون و لكن لا يفقهون و يبصرون و يسمعون و لكن لا يعتبرون أي لا يترتّبون الأثار علىٰ ما يدركونه بالحواسّ لأنّهم إختاروا الدّنيا علىٰ الآخرة و من كان محبّاً للدُّنيا منغمراً في شهواتها و لذّاتها فهو غافلٌ عمّا خلق لأجله و قد ثبت أنّ الغفلة أساس الشّرور و الآفات و الىٰ هذا المعنىٰ أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْغٰافِلُونَ** أي أنّهم غافلون عن التّفكر و التّدبر الصَّحيح و ذلك لأنّهم إشتغلوا بالدُّنيا وزَخارفها فصارت عقولهم تابعة لشهواتهم و أميالهم و من كان عقله تابعاً لهواه فلا محالة يكون غافلاً عن التّفكر في نفسه فهؤلاء سلَّطُوا في الحقيقة على أنفسهم الغفلة بسبب حبّهم للدُّنيا و ما فيها و أنّما قلنا أنّ منشأ الغفلة هو حبّ لادّنيا لأنّ الأنبياء و الأوصياء و عباداللّه الصّالحين مبرّأون عنها لعدم وجود السَّبب فيهم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَ هُمْ في غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **إِقْتَرَبَ لِلنّٰاسِ حِسٰابُهُمْ وَ هُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا وَيْلَنٰا قَدْ كُنّٰا في غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا بَلْ كُنّٰا ظٰالِمِينَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰآءَكَ**[٤].

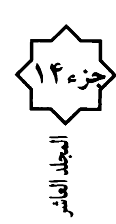
١- مريم = ٣٩
٢- الأنبياء = ١
٣- الأنبياء = ٩٧
٤- ق = ٢٢

و حيث أنّ الحرمان عن شمول الألطاف الإلٰهيّة هو بعينه الغفلة ترىٰ أنّ اللّه تعالىٰ يقول:

وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَوٰيهُ[1].

فأسند الإغفال الىٰ نفسه كما أسند الإضلال الىٰ نفسه في كثير من الآيات لأنّ العبد أوجد أسباب الإغفال و الإضلال بسبب المعصية و الإعراض عن الحقّ و إختار الدّنيا على الآخرة فلا محالة ترتّب علىٰ السّبب المسبّب و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد و اللّه أعلم بكلامه.

■



١- الكَهف = ٢٨

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هٰاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مٰا فُتِنُوا ثُمَّ جٰاهَدُوا وَ صَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا وَ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا قَرْيَةً كٰانَتْ اٰمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهٰا رِزْقُهٰا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللّٰهِ فَأَذٰاقَهَا ٱللّٰهُ لِبٰاسَ ٱلْجُوعِ وَ ٱلْخَوْفِ بِمٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَ لَقَدْ جٰآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذٰابُ وَ هُمْ ظٰالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ ٱللّٰهُ حَلاٰلًا طَيِّبًا وَ ٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّٰاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمٰا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَ ٱلدَّمَ وَ لَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَ مٰآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللّٰهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بٰاغٍ وَ لاٰ عٰادٍ فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَ لاٰ تَقُولُوا لِمٰا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هٰذٰا حَلاٰلٌ وَ هٰذٰا حَرٰامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ لاٰ يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتٰاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَ عَلَى ٱلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا مٰا قَصَصْنٰا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْراٰهِيمَ كاٰنَ أُمَّةً قاٰنِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شاٰكِرًا لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبٰيهُ وَ هَدٰيهُ إِلٰى صِراٰطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَ آتَيْناٰهُ فِى ٱلدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصّٰالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراٰهِيمَ حَنِيفًا وَ ماٰ كاٰنَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّما جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيماٰ كاٰنُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱُدْعُ إِلٰى سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جاٰدِلْهُمْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَ إِنْ عاٰقَبْتُمْ فَعاٰقِبُوا بِمِثْلِ ماٰ عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّٰابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَ ٱصْبِرْ وَ ماٰ صَبْرُكَ إِلّاٰ بِٱللّٰهِ وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّاٰ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللّٰهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

◄ اللّغة

هاٰجَرُوا: المهاجرة في الأصل مصارمة الغير و متاركته و المراد بها في الآية من هاجر من مكّة الىٰ المدينة مع الرّسول أو بعد هجرة الرّسول في الإسلام لا بقصدٍ أخر.

فُتِنُوا: الفتنة البليّة و الإمتحان.

تُوَفَّىٰ: أي تؤجر و تُجزىٰ.

رَغَدًا: يقال أرغَد القوم حصلوا في رَغدٍ من العيش و يقال عيشٌ رَغد و رَغيد، طيّبٌ واسعٌ.

أُمَّةً قَانِتًا: الأمّة الجماعة و القانت المطيع.

ٱجْتَبَىٰهُ: أي إختاره.

حَنِيفًا: الحنيف المستقيم علىٰ طريق الحقّ.

◀ الإعراب

إِنَّ رَبَّكَ خبر إنّ قوله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ و إنّ الثّانية و إسمها تكرير للتّوكيد مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا على صيغة المجهول و يقرأ بفتح الفاء و التّاء أي فتنوا أنفسهم أو فتنوا غيرهم يَوْمَ تَأْتِي يجوز أن يكون ظرفاً، لرحيم، و أن يكون مفعولاً به و التّقدير أذكر يوم يأتي وَ ٱلْخَوْفِ بالجرّ عطفاً علىٰ الجوع و بالنّصب عطفاً علىٰ، لباس، و قيل هو معطوف على موضع الجوع أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ منصوبٌ بتصف، و ما، مصدرّية و قيل هي بمعنى الذّي و العائد محذوف و الكذب بدلٌ منه و قيل هو منصوب بإضمار و يُقرأ بضمّ الكاف و الذّال و فتح الباء و هو جمع كذاب بالتّخفيف مثل كتاب و كتب و هو مصدر و هى في القراءة الأولىٰ ٱجْتَبَىٰهُ يجوز أن يكون حالاً، و قد، معه، مرادة و أن يكون خبراً ثانياً، لأنّ، و أن يكون مسأنفاً لِأَنْعُمِهِ اللاّم تتعلّق بشاكر، و قيل بإجتباه لَهُوَ خَيْرٌ الضّمير للصّبر أو للعفو و قد دلّ علىٰ المصدرين الكلام المتّقدم إِلَّا بِاللَّهِ أي بعون اللّه أو بتوفيقه عَلَيْهِمْ الضّمير يرجع الىٰ الشّهداء.

◀ التّفسير

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

قيل أنّ الآية نزلت في المستضعفين المفتنين بمكّة و هم عمّار بن ياسر و بلال و صهيب فأنّهم حملوا علىٰ الإرتداد عن دينهم وزاد بعضهم علىٰ هؤلاء خباب بن الأرت و ياسر و سميّة أبوا عمّار و سالم و حبر فأجابهم عمّار و حبر باللّفظ فخلّي سبيلهما و تمادى الباقون علىٰ الإسلام فقتل ياسر و سمّية و هما أوّل قتيلٍ في الإسلام و عذّب، بلال، و هو يقول أحد أحد، و عذّب خباب بالنّار ثمّ أنّ من سلم منهم عن القتل و هم عمّار و بلال و صهيب هاجروا من مكّة الىٰ المدينة بعد ما فتنُوا أي أختبروا بالبلاء و العذاب ثمّ جاهدوا بعد الهجرة.

قيل أنّ المسلمين كتبوا اليهم من المدينة أنّ اللّه قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتّى نجا من نجا و قتل من قتل فعلىٰ هذا يكون جهادهم مع الرّسول علىٰ الإسلام.

و روي أنّهم خرجوا و إتّبعوا و جاهدوا متبعيهم فقتل من قتل و نجى من نجىٰ فنزلت الآية و على هذا يكون المراد بجهادهم جهادهم لمتّبعيهم.

و قال إبن إسحاق نزلت الآية في عمّار و عياش بن أبي ربيعة و الوليد بن الوليد و الحقّ أنّ عمّار كان أرفع طبقةً و مقاماً منهم فذكره معهم لا يستقيم و ذلك لأنّ هؤلاء أعني الوليد و أمثاله كانوا من مصاديق من شرح بالكفر صدراً في بدء الأمر إلاّ أنّه تعالىٰ أفتح لهم باب التّوبة بعده و كيف كان لا شكّ أنّهم عذّبوا علىٰ الدّين و جاهدوا في اللّه بقدر وسعهم ثمّ أنّهم صبروا علىٰ العذاب ولم يرتدّوا عن دينهم و لذلك بشّرهم اللّه تعالى بالمغفرة و قال أنّ ربّك من بعدها أي بعد الفتنة الّتي فتنوا بها لغفورٌ رحيمٌ أي ساترٌ عليهم لأنّ ظاهر ما أظهروه يحتمل القبيح و الحسن فلمّا كشف اللّه عن باطن أمورهم و أخبر أنّهم كانوا مطّمئنين بالإمان كان في ذلك سترٌ عليهم.

قال الزّمخشري، قوله: **لِلَّذِينَ** في موضع خبر إنّ، و المعنىٰ أنّ ربّك لهم لا عَليهم أي أنّه وَلّيهم وناصِرهم لا عَدوّهُم وخاذلهم كما يكون المَلك للرّجل لا عليه فيكون مَحمّياً مَنفُوعاً غير مَضرُور انتهىٰ.

و قال أبو البقاء، خَبَر، إنّ، الأُولىٰ قوله: **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**. و أنّ الثّانية و إسمها تكرير لِلتّوكيد، وقيل، للّـذين متّعلق بـمَحذُوف علىٰ جهة البيان كأنّه قيل أعني للّذين أي الغُفران للّـذين الخ والضّمير فـي، بَـعدها، عائد علىٰ الفِتنَة أو الهجرة أو التّوبة والكلام يعطيها وإن لم يجر لها ذكرٌ صَريحٌ.

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجٰادِلُ عَنْ نَفْسِهٰا وَ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ

يوم منصوب علىٰ الظّرف و ناصبه، رحيمٌ، أو عـلىٰ المـفعول بـه و نـاصبه أذكر و الظّاهر عموم كلّ نفسٍ فيجادل لامؤمن و الكـافر و جـداله بـالكذب و الجحد فيشهد عليهم الرُّسل و الجوارح فحينئذٍ لا ينطقون.

و قالت فرقة الجدال قول كلّ أحدٍ من الأنبياء و غيرهم نفسي نفسي.

و قال صاحب الكشّاف فأن قلت ما معنى النّفس المضافة الىٰ النّفس.

قُلتُ يقال لعين الشّئ و ذاته نفسه و فى نقيضه غيره و النّـفس الجـملة كـما هي، فالنّفس الأولىٰ هي الجملة و الثّانية عينها و ذاتها فكأنّه قيل يوم يأتي كـلّ إنسانٍ يجادل عن ذاتـه لا يـهمّه شأن غـيره كـلٌّ يـقول نـفسي نـفسي و مـعنىٰ المجادلة عنها الإعتذار عنعها كقولهم هؤلاء أضلّونا، ما كنّا مشركين ونحو ذلك انتهىٰ.

و قال بعضهم المراد بقوله: **كُلُّ نَفْسٍ** أي كلّ إنسانٍ لأنّ الإنسان يسمّي نفساً تقول العرب ما جاءني إلاّ نفسٌ واحدة أي إنسان واحد فالنّفس في الحـقيقة لا تأتي لأنّها هي التّي يعيش بها الإنسان فالمعنى كلّ إنسانٍ تجادل عن نـفسه أي عن ذاته انتهىٰ.

أقُول ما ذكره لا بأس به بل هو الأقوى في النَّظر لأنّ المقصود من الآيـة أنّ يوم القيامة كلّ إنسانٍ يدافع عن نفسه لا عن غيره.



قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخيهِ،وَ أُمِّهِ وَ أَبيهِ، وَ صٰاحِبَتِهِ وَ بَنيهِ، لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنيهِ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ،ضٰاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ، أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ**[١].

و سيأتي تفسير هذه الكلمات في موضعه إن شاء اللّه ففي ذلك اليوم حقٌّ أن يجادل أي يدافع كلّ إنسانٍ عن نفسه و لا يعتنى بغيره و ذلك لشّدة العذاب و أهوال يوم القيامة فالمعنىٰ أنّ كلّ إنسانٍ يومئذٍ بصدد خلاص نفسه و هو كذلك على أساس الآيات و الأثار.

و الى ما ذكرناه أشار من قال في تفسير الكلام، معنى تجادل عن نفسها تخاصم كلّ نفسٍ عن نفسها و تحجّ بما ليس فيه حجّته عند الحساب فهم في الحقيقة يجادلون الملك السّائل لهم بين يدي اللّه، و قول من قال تحجّ عن نفسها بما تقدّر به إزالة العقاب عنها و حاصل الكلام أنّ كلّ إنسانٍ مشغولٌ بنفسه يوم القيامة و قوله: **وَ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ** أي يجزىٰ كلّ إنسانٍ جزاء ما عمله في الدّنيا من الطّاعة و المعصية إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و هم لا يظلمون فأنّ القاضي بينهم هو اللّه تعالىٰ و هو مُنّزه عن الجور و الظُّلم:

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِيَ ٱلَّذينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ بِالْقِسْطِ**[٢] أي بالعَدل.

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِيَ ٱلَّذينَ أَسٰـٓؤُا بِمٰا عَمِلُوا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَجْزِيَ ٱلَّذينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**[٥].

١- عَبَس = ٣٤ الىٰ ٤٢
٢- يُونس = ٤
٣- الجاثية = ١٤
٤- النَّجم = ٣١
٥- النَّجم = ٣١

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ**(١).

و الآيات كثيرة و محصّل الكلام في الآية أنّ السّاعة آتية لا ريب فيها، وأنّ اللّه تعالىٰ يحكم بينهم بالقسط.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

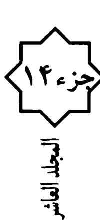
قيل المراد بالقَرية، مكّة المكرّمة لأنّها بهذه الصّفات الّتي ذكرها اللّه.

و قال آخرون أيّ قريةٍ كانت علىٰ هذه الصّفة فهذه صورتها.

و قال الزّمخشري يجوز أن يكون قرية من قرىٰ الأوّلين علىٰ هذه الصّفة فضرب اللّه بها مثلاً لمكّة إنذاراً من مثل عاقبتها، و يجوز أن يراد قرية مقدّرة علىٰ هذه الصّفة.

أقول يظهر من بعض الأخبار أنّ الآية نزلت في قوم كان لهم نهرٌ يقال له البليان (الثّرثار خ ل) و كانت بلادهم خصِبة كثيرة الخير و كانوا يستنجون بالعجين و يقول هذا إلٰهين فكفروا بأنعم اللّه و أستخفوا بنعمة اللّه فحبس اللّه عليهم البليان فجدبوا حتّىٰ أحوجهم اللّه الىٰ ما كانوا يستنجون به حتّىٰ كانوا يتقاسمون عليه و فى رواية اخرى عنه عليه السلام قال:

أنّ قوماً وسع اللّه عليهم في أرزاقهم حتّىٰ طغوا فأستخشنوا الحجارة فعمدوا الىٰ النّقي (الخُبز المعمول) و صنعوا منه كهيئة الأفهار فجعلوه في مذاهبهم فأخذهم اللّه بالسّنين فعمدوا الىٰ أطعمتهم فجعلوها في الخزائن فبعث اللّه علىٰ ما في الخزائن ما



١- طه = ١٥

أفسده حتّىٰ إحتاجوا الىٰ ما كانوا يستطيبون به في مذاهبهم فجعلوا يغسلونه و يأكلونه.

و في حديث أبي بصير نزلت فيهم هذه الآية الخ.

وعن تفسير العياشّي عن جَعَفر بن سالِم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إنّ قوماً من بني إسرائيل تؤتي لهم من طعامهم حتّىٰ جَعلوا منه تماثيل بمُدنٍ كانت في بلادهم لِيستَنجُون بها فَلم يَزل اللّه بهم حتّىٰ إضطّروا الىٰ التّماثيل يَبيعُونها ويأكلُونها وهو قول اللّه: وَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً.

و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين(١).

و يظهر من هذه الأخبار إنّ القرية كانت موجودة في الخارج لا أنّها فرضيّة مقدّرة والذّي نقول به في المقام هو أنّ البحث في القرية وجوداً و عدماً لا فائدة في لأنّ القرية ليست موضوعة للحكم و أنّما الموضوع له هو كفرانهم بنعمة اللّه و بعبارةٍ أخرىٰ أنّ اللّه تعالىٰ أخبر في هذه الآية أنّ من كفر بنعمة اللّه فحكمه كذا فالإعتناء بأهل القرية لا بنفسها إذا عرفت هذا.

فنقول دلَّت الآية علىٰ أنّ الكفر بأنعم اللّه يوجب سخط اللّه و إزالة النّعمة عن الكافرين بها آيّة قرية كانت فنسبة الكفر الىٰ القرية في قوله: **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ.**

و هكذا نسبة الأذاقة و الجوع و الخوف اليها مجاز كقوله تعالىٰ: **وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ** أي و أسأل أهلها فالمقصود أنّ المعصية و الطّغيان النّاشئان عن النِّعم يوجبان سلبها كما أنّ الطّاعة و الشّكر عليها يوجبان بقاءها و إزديادها:

قال اللّه تعالىٰ: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**(٢).

و قال تعالىٰ حكاية عن سليمان النّبي عليه السلام:

١- ج ٣ ص ٩١

٢- إبراهيم = ٧

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَىٰ وٰالِدَيَّ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فِيهٰا مَعٰايِشَ قَلِيلًا مٰا تَشْكُرُونَ**[٢].

والآيات كثيرة **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لا يَشْكُرُونَ**[٣].

ثمّ أنّ هذا المثل ضربه اللّه تعالىٰ لجميع النّاس و لا يختصّ بالكفار فقط من حيث عدم إيمانهم باللّه و رسوله كما توهّمه بعض المفسّرين تعالىٰ: **فَأَذٰاقَهَا ٱللّٰهُ لِبٰاسَ ٱلْجُوعِ وَ ٱلْخَوْفِ بِمٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ** فالباء في قوله بما للسبّب أي أنّما فعلنا بهم ما فعلناه من العذاب بسبب أعمالهم الّتي عملوا بها و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد و إذا تأمّلت في هذه الآية حقّ التّأمل لعلمت أنّ المسلمين في زماننا هذا من أظهر مصاديق الآية حيث أنّ اللّه تعالىٰ أذاقهم لباس الجوع و الخوف بما يصنعون.

أمّا الجوع فلأنّهم محتاجون الىٰ الكفّار في جميع شئونهم من الغذاء واللبّاس و السيّارات و الطّيارات و غيرها ممّا يحتاجون اليه في تعيشهم وبقاءهم.

و أمّا الخوف فلأنّهم لا قدرة لهم فمن إحتاج فى تحصيل الآت الحرب الىٰ الكفّار لا يقدر علىٰ الدّفاع عن نفسه فضلاً عن بيضة الإسلام.

و محصّل الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ أذاقهم لباس الجوع و الخوف هو سبب أعمالهم بعد ما كانوا سادات البشر في القرون السّالفة أنّ في ذلك لعبرة لمن إعتبر و عظةٌ لِمَن إتَّعظ فأعتبروا يا أولي الأبصار وللبحث فيه موضعٌ آخر و منشأ ذلك ما أشار اللّه تعالىٰ اليه بقوله:

وَ لَقَدْ جٰآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذٰابُ وَ هُمْ ظٰالِمُونَ

١- الأحقاف = ١٥ ٢- الأعراف = ١٠
٣- البقرة = ٢٤٣

أن **قلت** ظاهر هذه الآية أنّ المراد هو الكفّار لأنّهم كذّبوا رسل اللّه.

قلتُ التّكذيب على قسمين، قوليّ و عمليّ، فالكفّار كذّبوا الرسّل لفظاً وقولاً و لم يؤمنوا بهم و أمّا المسلمون فكذّبوا رسولهم عملاً و أن لم يكذّبوه لفظاً و الّدليل علىٰ ما ذكرناه أعمالهم الشّنيعة من الزّناء و شرب الخمر و غصب الأموال و هتك النّواميس و الكذب و البهتان و الظُّلم و غير ذلك من الفجور و أعظم من ذلك كلّه هو البدع تحت راية الإسلام و قوله فأخذهم العذاب أي العذاب المعهود و هو إذاقة الجوع و الخوف و هم ظالمون أي حال كونهم ظالمين علىٰ أنفسهم.

و حاصل الكلام هو أنّ ما ذكره في الآية من إذاقة لباس الجوع و الخوف حكمٌ كلّي يشمل جميع آحاد البشر و هو أنّ الكفران يوجب سلب النِّعمة في الدّنيا و العذاب في الآخرة مسلماً كان الكافر أو كافراً هذا.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَ ٱلدَّمَ وَ لَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَ مَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

كلمة، أنّما تفيد الحصر و المراد بالميتة كلّ حيوانٍ مأكول اللّحم أو مطلقاً فارقته الرّوح بغير ذكوٰةٍ شرّعية فيدخل في ذلك ذبائح الكفّار فأنّ ذكواتها غير شرّعية و كذا ما لم يستقبل به القِبلة و ما لم يسمّ عليه عمداً و يدخل في ذلك ما أبين من حيٍّ و نخرج من ذلك السّمك الّذي أخرج من الماء حيّاً ثمّ يموت خارجاً فأنّ تذكيته إخراجه منه حيّاً و كذا الجراد إذا أخذَه حيّاً و لو بآلةٍ ثمّ يموت و إستثنىٰ أيضاً الجنين الّذي يموت بتذكية أمّه لما روي أنّ ذكاته ذكاة أمّه و إستثنىٰ أيضاً الانفحة و البيض بل و اللّبن منها بعد مَوت الحيوان و هكذا الصُّوف و الشّعر وعظام الفيل و الجلد و البيض يخرج من الدّجاجة كلّ ذلك علىٰ مذهبنا و أمّا العامّة فيحرّم كلّ شيٍ من الميتة و لا يجيزون إستعماله علىٰ حالٍ هذا كلّه في الميتة و أمّا الدّم المحرّم فيتناول المسفوح و غيره قليله و

كثيره من الحيوان المأكول اللّحم و غيره نَجس العين و غيره و يدخل فيه الطّحال، و أستثنىٰ منه ما تخلّف.

في العروق و اللّحم بعد الذّبح و القذف فأنّه حلال لأنّ في التّكليف بإجتنابه مشقّة و حرج و أمّا لحم الخنزير فلا كلام في حرمته عند المسلمين و أنّما قيدّ الحرمة في الخنزير بلحمه مع أنّه يحرم شحمه و جميع أجزاءه لأنّه المقصود بالأكل غالباً و غيره تابع له فهو من قبيل التّغليب و قوله: **وَ مَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ** فالإهلال رفع الصّوت و المراد ما ذكر عليه غير إسم اللّه سواء كان الذّبح كافراً أم مسلماً فيفهم منه أنّ الّذي يذكر إسم اللّه عليه حلال سواءٌ كان الذّابح مسلماً أم كافراً فيدخل في الحلّية ذبائح أهل الكتاب و أن كان المشهور خلافه ثمّ أنّ الأمور المذكورة داخلة في الميتة لكن ذكرها مفردةً تنصيصاً عليها بخصوصها ردّاً علىٰ من كان يستحلّ ذلك في الجاهلّية و أمّا قوله: **فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** فالمراد بالمضطّر من يخاف التّلف لو لم يتناول ذلك و كذا لو خاف المرض بالتّرك أو عسر برئة أو خشي الضّعف المؤدي الى التّخلف عن الرّفقة مع ظهور أمارة العطب أو الضّعف عن الرّكوب المؤدّي الىٰ خوف التّلف و تفسير الإضطرار بهذا المعنى هو المشهور بين الأصحاب و يدلّ عليه ما ورد من أنّ الضّرورات تبيح المحظورات و عموم ما جعل عليكم في الدّين من حرج، و قوله ﷺ: **بُعثتُ الىٰ الشّريعة السَّمحَة السَّهَلة**، وقيل هو خوف تلف النّفس ذهب اليه الشّيخ(ره) و تبعه كثير من الفقهاء و الظّاهر الإكتفاء في هذا الحال على أقلّ ما تندفع به الضّرورة لأنّه المتيقّن في الرخصّة و ما عداه داخل في الممنوع منه.

و أمّا الباغي فهو الّذي يخرج علىٰ الإمام العادل، والّذي يخرج لَطَلب الصّيد لهواً و بطراً و لعلّ هذا هو المراد من الآية.

و العادي هو الّذي يخرج لقطع الطّريق أو للسِّرقة و فى حكم ذلك من خرج طلباً للعداوة و القتل و النَّهب من المسلمين و الآبق و نحوهم من العصاة في

سفرهم لأنّه متجانفٌ للإثم و مائلٌ و منحرفٌ اليه و على هذا فلا يجوز للمضطّر بالمعنىٰ الّذي بيّناه ترك الأكل إذا أدّىٰ ذلك الىٰ هلاك نفسه لأنّه إلقاءٌ لها بالتّهلكة المنّهي عنه.

و لما رواه في الفقيه عن الصّادق عليه‌السلام أنّه قال: من إضطّر الىٰ الميتة و الدَّم و لحم الخنزير فلم يأكل شيئاً من ذلك حتّى يموت فهو كافر.

قال و هذا في نوادر الحكمة لمحمّد بن أحمد بن يحيىٰ بن عمران الأشعرى.

نعم لو كان المضطّر باغ أو عاد فلا رخصة له و إن هلك لعموم الآيات و الرّوايات بمعنى أنّه لو أكل في هذه الحال من الميتة مثلاًكان عليه إثم الآكل مع إثم عدوانه و بغيه، و قيل يجب عليه في هذه الحال لأنّ الإثم المرتّب علىٰ إهلاك النّفس أشدّ من أكل المحرّم فيجب ارتكاب الأسهل و فيه نظر لمخالفة الحكم لإطلاق الآيات و الرّوايات اللّهم إلاّ أن يقال بأنّ دلالة العام أقوىٰ مِن دلالة المطلق و للبحث فيه مقام آخر و قوله: **فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** معناه أنّه لا يعاقب من تناول ما حرّم عليه في حال الضّرورة.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلاٰلاً طَيِّبًا وَ ٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

هذه الآية قدّمت في المَصاحف على الآية الّتي فسرّناها و هى قوله: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَ ٱلدَّمَ** الخ.

و الحقّ أنّ موضعها في الكتابة هو التأّخير و ذلك لمكان الفاء في قوله: **فَكُلُوا** فهذه الآية متضرّعةٌ علىٰ قوله: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَ ٱلدَّمَ** الخ.

و لذلك أخرّناها في التّفسير فكأنّه قيل فما نأكل بعد تحريم الميتة الخ.

فقال تعالىٰ: **فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلاٰلاً طَيِّبًا** وكيف كان فقد أخبر اللّه في هذه الآية أنّ المأكولات لا تَنحصر بالمحرّمات بلىٰ هي علىٰ قسمين:

قسمٌ حرام و قسمٌ حَلال: (فلا تأكلوا ممّا حرَّم اللّه عليكم) و كلوا ممّا رزقكم اللّه من المحلّلات و هى ما سوىٰ المحرّمات و أشكروا نعمت اللّه إن كنتم أيّاه تعبدون.

علّق الشُّكر على العبادة لأنّ المشّرك باللّه كيف يعقل أن يشكر له و هو كافر به و إذا كان كافراً باللّه فقد أنكر كونه منعماً عليه و إذا إنتفىٰ الإنعام إنتفىٰ الشُّكر قهراً و لذلك قال تعالىٰ: **إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**.

وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَ هَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ

الكذب و الصدّق أصلهما في القول ماضياً كان أو مستقبلاً وعداً كان أو غيره و لا يكونان بالقصد الأوّل إلاّ في القول و لا يكونان في القول إلاّ في الخَبر دون غيره من أصناف الكلام ثمّ أنّ الكذب قد يكون في الإعتقاد و قد يكون في المقال فقوله تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**[١] من الكذب في الإعتقاد لا في المقال فأنّ مقالهم كان صدقاً، إذا عرفت هذا فنقول لمّا بيّن اللّه تعالى ما حرَّم بالغ في تأكيد ذلك بالنّهي عن الزّيادة فيما حرّم كالبحيرة و السّائبة و فيما أحلّ كالميتة والدَّم و ذكر تحريم هؤلاء الأربع في سورة الأنعام و فى هذه السورة و هما مكّيتان بإداة الحصر ثمّ كذلك في سورة البقرة و المائدة بقوله: **أُحِلَّتْ لَكُمْ** و أجمعوا علىٰ أنّ المراد ممّا يتلى عليكم هو قوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ** و هما مدنيّتان فكان هذا التّحريم لهؤلاء الأربع مشرعاً ثانياً في أوّل مكّة و آخرها و أوّل المدنية و آخرها فنهى اللّه تعالىٰ أن يحرّموا و يحلّوا من عند أنفسهم و يفتروا بذلك علىٰ اللّه حيث ينسبون ذلك اليه و الخطاب في قوله و لا تقولوا، على قول الجمهور للكفّار في شأن ما أحلّوا و حرّموا مِن أمور

١- المنافقون = ١

الجاهلية و به قال صاحب الكشّاف و إبن عطيّة، و قيل الخطاب للمكلّفين كلّهم من الكفّار و المسلمين و المعنىٰ لا تسموا ما لم يأتكم حظره و لا إباحته عن اللّه و رسوله حلالاً و لا حراماً فتكونوا كاذبين على اللّه في إخباركم بأنّه حلَّله و حرَّمه.

أقول و هذا هو الظّاهر لأنّه خطاب معطوف على خطاب و هو فكلوا، أنّما حرّم عليكم، فهو شاملٌ لجميع المكلّفين واللاّم في قوله: **لتفترُوا**، لام التّعليل الّذين لا يتضّمن معنى الغرض و هى الّتي تسمّىٰ لام العاقبة و لام الصيّرورة و محصّل المعنى في الآية هو النّهي عن الحكم بالحلّية و الحرمة فيما ذكر اللّه في الآية من عند أنفسهم و الظّاهر إختصاص النّهي باللّحوم و أمّا في غيرها من المأكولات و المشروبات فالأصل فيها الإباحة فيمكن الحكم بالإباحة مالم يدّل عليه دليل علىٰ الحُرمة.

وأعلم أنّهم إختلفوا في، ما، في قوله: **لِمٰا** هل هي مصدّرية أو هي بمعنىٰ الّذي فهي موصولة، فعلى الأوّل يصير المعنىٰ و لا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ و هذا حرامٌ.

علىٰ الثّاني: أعني به كونها مَوصولة فهي بمعنىٰ الّذي والعائد مَحذُوف للّذي تصفه ألسنتكم، و إنتصب الكذب على أنّه معمول، لتقولوا، أي و لا تقولوا، أي تقولوا الكذب للّذي تصفه ألسنتكم من البهائم بالحّل و الحرمة من غير إستناد ذلك الوصف الى الوحي و عليه فقوله هذا حلال و هذا حرام، بدلٌ من الكذب أو على إضمار فعلٍ أي فتقولوا هذا حلال و هذا حرام و المشهور بينهم أنّ، ما، مصدّرية و إنتصب الكذب على المفعول به أي لوصف ألسنتكم الكذب و معمول و لا تقولوا، الجملة من قوله هذا حلال و هذا حرام، و المعنى و لا تحلّلوا تحرّموا لأجل قولٍ تنطق به ألسنتكم كذباً لا بحجّةٍ و لا بيّنةٍ و هذا معنى بديع جعل قولهم كأنّه عين الكذب و محضه فإذا نطقت بألسنتهم فقد

حلت الكذب بحليَّته و صورته بصورته كقولهم (وَجهه نَصف الجمال و عينها تَصف السَّحر) و بعد اللّيتا واللّتي.

يستفاد من الآيات أنّ المحُرمات من البهائم تنحصر بما ذكره في الآية **ٱلْمَيْتَةَ وَ ٱلدَّمَ وَ لَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَ مٰآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللّٰهِ** و ماسَوىٰ هذه الأربعة من البهائم داخلٌ في الحِّل و يدّل عليه قوله تعالىٰ: **أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعٰامِ إِلّٰا مٰا يُتْلٰى عَلَيْكُمْ**(١) فأباح الكُّل إلاّ ما يتلى عليهم وأجمَعوا علىٰ أنّ المراد بقوله ما يتلى عليكم هو قوله في تلك السُّورة حرّمت عليكم الميتَّة و الدَّم و لحم الخنزير أهّل به لغير اللّه فثبت المطلوب **مَتٰاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ** أي متاعهم متاعٌ قليل و قال إبن عبّاس بل متاع كلّ الدّنيا متاعٌ قليلٌ ثمّ يرّدون الى عذابٍ أليم و هو قوله لهم عذابٌ أليمٌ، أي مؤلم و من المعلوم أنّ المفتري على اللّه يستحقٌّ به العذاب و أيّ ذنبٍ أعظم بعد الشِّرك باللّه من الإفتراء علىٰ اللّه تعالىٰ.

وَ عَلَى ٱلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا مٰا قَصَصْنٰا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و لمّا بيَّن تعالى ما يحّل و ما يحّرم على أهل الإسلام إتَّبعه بما كان خصَّ به اليهود و قوله من قبل، إشارة الى ما تقَّدم ذكره في سورة الأنعام حيث قال:

وَ عَلَى ٱلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَ مِنَ ٱلْبَقَرِ وَ ٱلْغَنَمِ حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمٰآ إِلّٰا مٰا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمٰآ أَوِ ٱلْحَوٰايٰآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ(٢).

و هذا يدلّ على أنّ سورة الانعام نزلت قبل هذه السّورة إذ لا تصَّح الحوالة إلاّ بذلك فقوله: **مِنْ** قبل، يتَّعلق بقصصنا و قبل يتَّعلق، بجّرمنا، و المحذوف

١- المائدة = ١
٢- الأنعام = ١٤٦

الّذي في من قبل، تقديره مِن قبل تحريمنا على أهل ملّتك و قوله: **وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** فيه إشارة الى كفرهم بنعمة اللّه و إنكارهم لأنبيائه و إرتكابهم المعاصي بأكلهم المحرّمات و تركهم الواجبات و من المعلوم أنّ العاصي في الحقيقة يظلم على نفسه فأنّ اللّه تعالى غنيّ عمّا سواه فلا تضّره معصيته من عصاه كما لا تنفعه طاعة من أطاعه و في قوله: **وَ ما ظَلَمْناهُمْ** إشارة الى أنّ اللّه تعالى لا يحكم بشيءٍ إلاّ على أساس المصلحة و لا نعني بالعدل إلاّ هذا.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ العاصي إذا عصى بجهالةٍ ثمّ تاب بعده و أصلح نفسه فأنّ اللّه يغفر ذنبه و على هذا فمفهوم الآية أنّ من عمل السُّوء عن علم ثمّ تاب من بعده و أصلح لا يغفر اللّه له و إنّما قلنا ذلك لأنّه تعالى رتّب الغفران على التّائب من الذّنب الّذي صدر عنه بجهالةٍ و أمّا التّائب عن الذّنب الّذي صدر عنه عن علم فلا تشمله الآية بمقتضى المفهوم و هذا كما ترى لا يساعده العقل و النّقل فأنّ اللّه تعالى يقبل التّوبة عن العاصي جاهلاً كان أو عالماً عامداً كان أو غير متّعمدٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضّالُّونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اللّٰهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاءُ**(٣).

١- الزّمر = ٥٣ ٢- الحجر = ٥٦
٣- النّساء = ٤٨ و ١١٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**(٢).

فهذه الآيات وأمثالها لا تقييد فيها بصورة الجهل بل الإطلاق حاكم عليها فكيف يكون الجمع بينها، و يمكن التّفصي عن الإشكال بوجوهٍ:

أحدها: أنّ المراد بالجهل في الآية ليس ما يقابل العلم و يضادّه بل المراد به الغفلة و هى تشمل الجهل و العلم فأنّ العالم قد يكون غافلاً.

قال الشّيخ في التّبيان: **لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ** يعني المعصية، بجهالةٍ، أي بداعي الجهل لأنّه يدعوا الى القبيح كما أنّ دواعي العلم يدعوا الى الخير فقد يكون ذلك للجاهل بالشّئ و قد يكون للغافل الّذي يعمل عمل الجاهل بتغليب هواه على عقله إنتهى.

ثانيها: ما ذكره بعض المفسّرين من العّامة.

قال ليس المعنى أنّه يغفر لمن يعمل السُّوء بجهالةٍ و لا يغفر لمن عمله بغير جهالةٍ بل المراد أنّ جميع من تاب فهذا سبيله و إنّما خصَّ من يعمل السُّوء بجهالةٍ لأنّ أكثر من يأتي الذّنوب يأتيها بقّلةٍ فكّر في عاقبةٍ أو عند غلبة شهوةٍ أو في جهالة شبابٍ فذكر الأكثر على عادة العرب في مثل ذلك.

ثالثها: ما ذكره الرّازي في تفسيره قال و أعلم أنّ المقصود بيان أنّ الإفتراء على اللّه و مخالفة أمره لا يمنعهم من التّوبة و حصول المغفرة و الرَّحمة و لفظ السُّوء يتناول كلّ ما لا ينبغي و هو الكفر و المعاصي و كلّ من عمل السُّوء فإنّما يفعله بالجهالة أمّا الكفر فلأنّ أحداً لا يرضى به مع العلم بكونه كفراً فأنّه ما لم يعتقد كون ذلك المذهب حقّاً و صدقاً فأنّه لا يختاره و لا يرتضيه و أمّا

١- الشّورىٰ = ٢٥ ٢- النّور = ٣١

المعصية فما لم تصّر الشّهوة غالبة للعقل و العلم لم تصدر عنه تلك المعصية فثبت أنّ كلّ من عمل السُّوء فإنّما يقدم عليه بسبب الجهالة فقال تعالى إنّا قد بالغنا في تهديد أولئك الكفّار الّذين يحّللون يحّرمون بمقتضى الشّهوة و الفرية على اللّه ثمّ إنّا بعد ذلك نقول أنّ ربّك في حقّ الّذين عملوا السُّوء بجهالةٍ ثمّ تابوا من بعد تلك السّيئة و قيل من بعد تلك الجهالة ثمّ أنّهم بعد التّوبة عن تلك السّيئات أصلحوا أي آمنوا و أطاعوا اللّه و ساق الكلام الى أن قال و حاصل الكلام أنّ الإنسان و أن كان أقدم على الكفر و المعاصي دهراً دهيارً و أمداً مديداً فإذا تاب عنه و آمن و أتى بالأعمال الصّالحة فأنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ يقبل توبته و يخلّصه من العذاب إنتهى كلامه.

أقول يستفاد من كلامه أنّ الآية نزلت في تهديد الكفّار و أنّ الّذي يعمل السُّوء فإنّما يفعله بالجهالة لأنّ العالم لا يرضى بالكفر مع العلم بكونه كفراً و العاصي لا يعصي إلاّ بعد غلبته الشّهوة على عقله و الى هذا أشار بقوله فثبت أنّ كلّ من عمل السُّوء فإنمّا يقدم عليه بسبب الجهالة، و أنت ترى بعد التّأمل و الدّقة في كلامه أنّ قوله أنّ أحداً لا يرضى بالكفر مع العلم بكونه كفراً، لا دليل عليه فأنّ كثيراً من الكفّار اختاروا الكفر مع العلم بكونه كفراً:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذينَ اٰتَيْناٰهُمُ اَلْكِتاٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناۤءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذينَ اٰتَيْناٰهُمُ اَلْكِتاٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناۤءَهُمُ اَلَّذينَ خَسِرُوۤا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**[٢].

فقوله: **لَيَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** صريحٌ في أنّ العالم قد يعصي ربّه مع العلم بالعصيان، و أمّا قوله أنّها نزلت في الكفّار فهو أيضاً لا دليل عليه بل الآية عامة في جميع العصاة، فالإشكال باق على حاله و الحّق في الجواب أنّ الآية

١- البقرة = ١٤٦
٢- الأنعام = ٢٠

بصدد بيان من عمل السُّوء بجهالة ثمّ تاب من معصيته فقد حكم اللّه فيها بالغفران له و أمّا إذا عمل السُّوء عن علمٍ فهي ساكتة عنه فهو داخل في عموم قوله أنّ اللّه يقبل التَّوبة عن عباده و أنّه يغفر الذَّنوب جميعاً و قد ثبت في محلّه أنّ مفهوم الوصف لا حجيّة له.

و أمّا قولهم إنّها نزلت في الكفّار فهو أيضاً كما ترى لا دليل عليه و على فرض التَّسليم لقول خصُّوصيته المورد لا ينافي عموم المعنى.

قال بعض المفسّرين، إنّما شرط مع التّوبة فعل الصّلاح إستدعاً الى فعل الصلاح و لئّلا يغترّوا بما سلف من التّوبة حتّى يقع الإهمال لما يكون من الإستقبال انتهى.

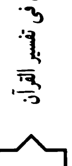
إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ

إبراهيم اسمٌ أعجّمي قال الجوهري فيه لغات، إبراهام، إبراهُم إبراهِم بحذف الياء و عن معاني إبراهيم، أنّه همٌ فبًر، و البراهمة قومٌ لا يجوَّزون على اللّه بعثة الرُّسل، و المراد به في الآية هو إبراهيم الخليل عليه السلام، و الأمّة بضّم الألف كلّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ مّا إمّا دينٌ واحدٌ أو زمانٌ واحدٌ و مكانٌ واحدٌ سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً و إختياراً و جمعها أمم قاله الرّاغب في المفردات.

قال في المجمع جاءت الأمّة في الكتاب العزيز على وجوهٍ:

منها، الجماعة و منه قوله تعالى: **وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ اَلنّٰاسِ يَسْقُونَ**(١) أي جماعة و سميّت بذلك لأنّ الفرق تأتها.

و منها، رجلٌ جامعٌ للخير يقتدى به و منه قوله تعالى: **إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتًا لِلّٰهِ**(٢).



١- القصص = ٢٣
٢- النّحل = ١٢٠

و منها، الدِّين ومنه قوله تعالىٰ: **إِنّٰا وَجَدْنٰآ اٰبآءَنٰا عَلٰىٓ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلٰىٓ اٰثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ**[١] أي وجدنا أبائنا على دينٍ واحدٍ.

و منها، الحين و الزّمان و منه قوله تعالى: **إِلىٰٓ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ**[٢] أي الى زمانٍ معدودة و منه أيضاً قوله: **وَ قٰالَ ٱلَّذِي نَجٰا مِنْهُمٰا وَ ٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**[٣] أي و إدّكر بعد زمانٍ و زاد بعضهم على ذلك النَّوع و منه قوله: **وَ مٰا مِنْ دٰآبَّـةٍ فِـى ٱلْأَرْضِ وَ لٰا طٰٓائِرٍ يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلّٰآ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ**[٤] أي كلّ نوع منها على طريقةٍ قد سخرَّها اللّه عليها بالطّبع.

و منها الصِّنف و منه قوله: **كٰانَ ٱلنّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً**[٥] أي صنفاً واحداً و علىٰ طريقةٍ واحدةٍ في الضّلال و الكفر و هكذا غيرها من الوجوه الّتي ذكروها فيها و المراد في المقام الرّجل الجامع للخير و عليه فالمعنى أنّ إبراهيم كان رجلاً جامعاً للخير قانتاً للّه أي مطيعاً و منقاداً له و معنى كونه جامعاً للخير أنّه كان جامعاً للصّفات الكماليّة قولاً و فعلاً و لأجل ذلك صار قدوةً لمن بعده و قال بعضهم معناه أنّه كان ذا أمّةٍ و قيل معناه أنّه إمام هدى و المعنى الأوّل أوفق بسياق العبارة.

و قال بعضهم معنى كونه قانتاً أنّه كان يدوم على العبادة و قيل قانتاً للّه، أي مقّراً له بالعبوديّة و مثله قوله: **وَ كٰانَتْ مِنَ ٱلْقٰانِتِينَ**[٦] أي المطيعين للّه الدّائمين على طاعته و قوله، حنيفاً، فالحنيف المستقيم على طريق الحقّ، و ذلك لأنّ الحنف هو ميلٌ عن الضّلال الى الإستقامة و الجنف بالجيم على خلافه أي هو ميلٌ عن الإستقامة الى الضّلال يقال تحنَّف فلان أي تحرّى طريق الإستقامة و سمَّت العرب كلّ من حجَّ أو إختتن، حنيفاً تنبيهاً على أنّه من دين إبراهيم و

١- الزّخرف = ٢٣
٢- هُود = ٨
٣- يُوسف = ٤٥
٤- الأنعام = ٣٨
٥- البقرة = ٢١٣
٦- التحريم = ١٢

قوله: وَ لَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ أي أنّه لم يشرك بربّه طرفة عينٍ و المراد بالشِّرك في المقام معناه العامّ الشّامل للشّرك الجلّي و الخفي كالرّياء و فيه إيماءٌ الى أنّه عليه‌السلام كان من الموّحدين الحقيقي و المخلصين الواقعي.

فعن الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام أنّه قال: و الأمّة واحدةٌ فصاعداً كما قال سبحانه و تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ.

و عن تفسير العياشي بأسناده عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه عليهما‌السلام عن قوله اللّه عزّ وجلّ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا قال عليه‌السلام: شيءٌ فضّله اللّه به.

و عن سماعة بن مهران قال: سمعتُ عبداً صالحاً يقول لقد كانت الدّنيا وما كان فيها إلاّ واحداً يعبد اللّه و لو كان معه غيره إذاً لأضافه اليه حيث يقول: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ فصبر بذالک ما شاء اللّه ثمّ أنّ اللّه تعالى آنسه بإسماعيل و إسحاق فصاروا ثلاثة.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا و ذلك أنّه كان على دين لم يكن عليه أحدٌ غيره فكان أمّةً واحدةً و أمّاً قانتاً فالمطيع، و أمّا الحنيف فالمسلم و هداه الى صراطٍ مستقيمٍ قال عليه‌السلام: الى الطّريق الواضح، و الأحاديث تقلناها عن البحار[1].

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَيٰهُ وَ هَدَيٰهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

لمّا وصف اللّه تعالى في الآية السّابقة بأنّه كان أمّةٍ أي جامعاً لجميع الخيرات قانتاً حنيفاً و نفى عنه الشِّرك مطلقاً وصفه في هذه الآية بأنّه كان

١- البحار و تفسير نور الثّقلين ج ٣ ص ٩٣

شاكراً لنعمه تعالى و لأجل إتّصافه بهذه الأوصاف إجتباه أي إختاره و إصطفاه من عباده بالخلّة و هداه الى صراطٍ مستقيم أي لطف له حتّى إهتدى الى طريق الحقّ و هو الفوز العظيم في الدّنيا و الأخرة و لذلك قال:

وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

فصار إبراهيم عليه السلام مصداقاً لقول القائل.

و آخرُ فاز بكلتيهما قد جمع الدنيّا مع الأخرة

ثمّ أنّه تعالى جعل إبراهيم الخليل بسبب إتّصافه، بتلك الأوصاف المذكورة في الآيات قدوةً لمن بعده من الأنبياء و غيرهم فأوحى الى نبّي الإسلام بإتباعه فقال:

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

أي أوحينا اليك يا محمّد أن إتّبع ملّة إبراهيم، و طريقته في التّوحيد وما كان إبراهيم من المشركين، فكن أنت كذلك.

فعن مصباح الشّريعة عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الإقتداء لأنّه المنهج الأوضح قال اللّه عزّ وجلّ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا فلو كان لِدين اللّه تعالى سلكٌ أقوم من الإقتداء لندب اليه أولياءه و أنبياءه.

و عن محاسن البرقي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: إنّ أولى النّاس بإبراهيم للذّين إتبّعوه و هذا النّبي و الّذين آمنوا، ثمّ قال عليه السلام أنتم و اللّه على دين إبراهيم و منهاجه و أنتم أولى النّاس أنتم على ديني و دين آبائي.

و بأسناده عن الصّادق عليه السلام قال: يا عباد بن زياد ما على ملّة إبراهيم أحد غيركم.

و عن تفسير العياشي عن عمر بن ميثم قال سمعت الحسين عليه السلام يقول: ما أحد على ملّة إبراهيم إلاّ نحن و شيعتنا و سائر النّاس منها براء(١).

قال القرطبي في تفسيره لقوله تعالىٰ: **ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ** ما هذا لفظه.

قال إبن عمير، أمر بإتّباعه في مناسك الحّج كما علّم إبراهيم جبرئيل عليه السلام.

و قال الطّبرى، أمر بإتّباعه في التّبرء من الأوثان و التّزين بالإسلام.

و قيل أمر بإتّباعه في جميع ملّته إلاّ ما أمر بتركه.

قال بعض أصحاب الشّافعي على ما حكاه الماوردي و الصّحيح الإتّباع في عقائد الشّرع دون الفروع لقوله تعالى: **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجًا**(٢).

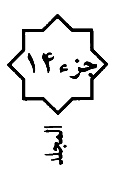
ثمّ قال القرطبي، مسئلة، في هذه الآية دليل على جواز إتّباع الأفضل للمفضول لما تقدّم و العمل به و لا درك على الفاضل في ذلك لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنبياء و قد أمر بالإقتداء بهم فقال: **فَبِهُدٰيهُمُ اقْتَدِهْ**.

و قال هنا: **ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ** إنتهى كلام القرطبي.

و أنا أقول أمّا قوله، أمر صلى الله عليه وآله وسلم بإتّباعه في مناسك الحّج فهو كلام قاله إبن عمر من عند نفسه و لا دليل عليه من العقل و النّقل.

و أمّا قول الطّبري، ففيه أنّ التّبرؤ من الأوثان و التّزين بالإسلام كان وظيفة جميع الأنبياء بل هو أساس دعوتهم الى اللّه.

و هكذا قول أصحاب الشّافعي عنه أنّ الإتّباع في العقائد دون الفروع لا دليل عليه و محصّل الكلام أنّ ما ذكروه لا معنى له فكأنّهم لم ينظروا في الآية بعين التّأمل و الإنصاف و لذلك قالوا من عند أنفسهم أليس قوله تعالى: **أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ** معناه إتّبع دينه و هو دين الإسلام و هو عامّ لا يقبل



١- نور الثّقلين ج ٣ ص ٩٤

٢- المائدة = ٤٨

التَّخصيص فتخصيص الكلام بهذا أو بذاك لا دليل عليه بل هو من التّفسير بالرّأي ففي الآية إشارة الى أنّ إبراهيم عليه السلام كان على دين الإسلام و هو الذي إرتضاه اللّه لرسوله و هذا واضح.

و أنّما الكلام في قول القرطبي في هذه الآية دليل على جواز إتّباع الأفضل للمفضول.

فنقول إتّباع الأفضل للمفضول قبيحٌ عقلاً بل نقلو هو من المستّقلات العقليّة بمعنى أنّ العقول حاكمة بقبحه و ذمّه و ذمّ من أمر به و اللّه تعالى أجلّ شأناً عن الحكم به و قول القرطبي أنّ النّبي أفضل الأنبياء و قد أمر بالإقتداء بهم أشبه شئٍ بكلام الغافلين فأنّ اللّه تعالى أمر نبيَّه بالإقتداء بدين إبراهيم لا بنفسه و لا شكّ أنّ الدّين أفضل من النّبي ففي الحقيقة أمر اللّه بإتّباع المفضول للفاضل.

ألا ترى أنّ اللّه يقول أن إتَّبع ملّة إبراهيم، و لم يقل أن إتَّبع إبراهيم، و الملّة هي الدين و الشّريعة و الطريقة المستقيمة و أمثال ذلك من التّعابير و هذا الّذي ذكرناه يظهر من ألفاظ الآية عند التَّدبر فيها و العجب من القرطبي و من تبعه من العامّة العمياء حيث لم يفرقوا بين إتّباع ملّته و دينه وبين إتّباع نفسه و أظُن أنّ غرضهم من هذا الكلام هو تصحيح خلافة أبي بكر مع أنّه كان مفضولاً على مذهب المعتزلة كما أشار الى هذا المعنى إبن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على النّهج حيث قال:

الحمد للّه الّذي قدّم المفضول على الفاضل لمصلحةٍ إقتضاها التّكليف.

و من المعلوم أنّ المراد بالمفضول في كلامه هو أبو بكر و بالفاضل أمير المؤمنين عليه السلام فأنكر القاعدة العقليّة عند جميع العقلاء لتصحيح خلافة أبي بكر ثمّ نسبه الى اللّه تعالى و اللّه تعالى يحكم بين عباده يوم القيامة و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

قيل في وجه إتّصال الآية بما تقدّم أنه لمّا أمر اللّه رسوله بإتّباع ملّة إبراهيم وكان الرّسول قد إختار يوم الجمعة فدّل ذلك على أنّه كان في شرع إبراهيم و اذا كان كذلك فلم إختار اليهود يوم السّبت للعبادة فأجاب اللّه تعالى عنه بقوله: **إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ** لا أنه ممّا إختاره إبراهيم عليه السلام و ذلك لما روي عن إبن عبّاس أنّه قال أمرهم موسى بالجمعة و قال تفّرغوا للّه في كلّ سبعة أيّام يوماً واحداً و هو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك و قالوا لا نريد إلاّ اليوم الّذي فرغ فيه من الخلق و هو يوم السّبت فجعل اللّه تعالى السّبت لهم و شدَّد عليهم ثمّ جاءهم عيسى عليه السلام أيضاً بالجمعة فقالت النّاصرى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا و إتّخذوا الأحد.

و عن أبي هريرة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: أنّ اللّه تعالى كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا فإختلفوا فيه و هدانا اللّه له فالنّاس لنا فيه تبع اليهود غداً و النّصارى بعد غدٍ.

اذا عرفت هذا فقوله تعالى: **إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ** أي إختلفوا على نبيّهم موسى فيه حيث أمرهم بالجمعة فلم يقبلوا و إختاروا السّبت فإختلافهم في اليوم كان إختلافاً على نبيَّهم في ذلك اليوم لأجله معنى قوله إختلفوا فيه أنّ اليهود إختلفوا فيه فمنهم من قال بالسّبت و منهم من لم يقل به لأنّ اليهود إتّفقوا على ذلك و أنّما إختلفوا فيه مع نبيّهم موسى عليه السلام.

و حاصل الكلام في الآية هو أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم إتّبع ملّة إبراهيم أي دينه و شريعته كاملاً كما أمره اللّه به ولمّا إتّخذ الرّسول يوم الجمعة للعبادة نستكشف منه أنّ إبراهيم عليه السلام أيضاً كان كذلك و أمّا يوم السّبت فهو ممّا إختاروه لأنفسهم

و لم يجعله إبراهيم و لا موسى و لا عيسى عيداً لهم هذا ما قيل في تفسير الآية.

و قال قوم معنى إختلفوا فيه أي خالفوه فيه لأنّهم نهوا عن الصَّيد فيه فنصبوا الشّباك يوم الجمعة و دخل فيه السّمك يوم السَّبت فأخذوه يوم الأحد.

و قال الزّمخشري و المعنى أنّما جعل و بال السَّبت و هو المسخ، على الّذين إختلفوا فيه، و إختلافهم فيه أنّهم أحلُّوا الصَّيد فيه تارةً و حرَّموه تارةً و كان الواجب عليهم أن يتَّفقوا في تحريمه على كلمةٍ واحدة بعد ما حتم اللّه عليهم الصّبر عن الصَّيد فيه و تعظيمه.

فأن قلت ما معنى الحكم بينهم اذا كانوا جميعاً محلّين أو محرّمين.

قلت معناه أنّه تعالى يجازيهم جزاء إختلاف فعلهم في كونهم محلّين تارةً و محرّمين أخرى.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فيجازي كلّ واحدٍ بما يستوجبه من الثّواب و العقاب.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، أي لم يكن في شرع إبراهيم و لا من دينه بل كان سمحاً لا تغليظ فيه، و كان السَّبت تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال و ترك التبسُّط في المعاش بسبب إختلافهم فيه ثمّ جاء عيسىٰ عليه السلام بيوم الجمعة فقال تفرَّغوا للعبادة في كلّ سبعة أيّامٍ يوماً واحداً فقالوا لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فأختاروا الأحد و قد إختلف العلماء في كيفيّة ما وقع لهم من الإختلاف.

فقالت طائفة أنّ موسى أمرهم بيوم الجمعة و عيَّنه لهم و أخبرهم بفضيلة على غيره فناظروه أنّ السّبت أفضل فقال اللّه له، دعهم و ما إختاروه لأنفسهم.

و قيل أنّ اللّه لم يعيّنه لهم و أنّما أمرهم بتعظيم يوم الجمعة فإختلف إجتهادهم في تعيينه فعيَّنت اليهود السَّبت لأنّ اللّه تعالى فرغ فيه من الخلق و

عيَّنت النّصارى يوم الأحد لأنّ اللّه تعالى بدأ فيه الخلق فألزم كلّ منهم ما أدَّى اليه إجتهاده و عيَّن اللّه تعالى لهذه الأمّة يوم الجمعة من غير أن يكلهم الى إجتهادهم فضلاً فيه و نعمة فكانت خير الأمم انتهى كلام القرطبي.

أقول يظهر من مجموع كلماتهم حول الآية في كيفيّة إختلافهم أنّ إختلافهم كان في الحقيقة مع نبيِّهم موسى حيث أنّه جعل الجمعة للعبادة فتبعه شرذمة قليلة على ذلك و خالفه أكثرهم و لم يقبلوا الجمعة بل إتّخذوا يوم السَّبت فإختلف إجتهادهم في تعيينه، ولم يعلموا أنّ ما ذكروه مستلزم للتّناقض لأنّ موسى عليه السلام جعل الجمعة و هم جعلوا السَّبت إجتهاداً منهم و الإجتهاد في مقابل النّص دليلٌ على الكفر و الإلحاد و لذلك هدَّدهم اللّه تعالى بقوله: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ** فقوله فإختلف إجتهادهم في تعيينه، لا معنى له اللّهم إلاّ أن يقال أنّ هذا الإجتهاد من قوم موسى مثل الإجتهاد في هذه الأمّة في مقابلة النَّص يوم الغدير حيث إختلف إجتهادهم في تعيين الخليفة بعده فتبعه شرذمةٌ قليلة و قالوا بخلافة علّي للنّص و خالفه أكثر المسلمين إجتهاداً منهم و المجتهد لا يؤاخذ على خطأه بل للمخطئ أجرٌ واحدٌ و للمصيب أجران على ما زعموه فلأيّ شيءٍ مسخ اللّه المجتهدين في قوم موسى و جعلهم القردة و الخنازير لا يعلمه إلاّ القرطبي و أمثاله و قد صدق اللّه تعالى حيث قال: **وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، فَانْتَظِرُوٓا إِنّى مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ**(١).



ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَ ٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَ جَٰدِلْهُمْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يدعو عباده المكلّفين بالحكمة و الموعظة الحسنة.

قيل المراد بالحكمة أفعالهم الحسنة التّي لها مدخل في إستحقاق المدح و

١- الاعراف = ٧١

الثّواب عليها لأنّ القبائح يزجر عنها و لا يدعو اليها و المباح لا يدعو الى فعله لأنّه عبث و أنّما يدعو الى ما هو واجبٌ أو ندبٌ لأنّه يستّحق بفعله المدح و الثّواب و الحكمة هي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن و القبح و الصّلاح و الفساد.

و قيل لها حكمة، لأنّها بمنزلة المانع من الفساد و ما لا ينبغي أن يختار و الأصل في الحكمة المنع و منه سميّت اللّجام حكمة الدّابة قال الشّاعر:

إبني حنيفة أحكموا سفهاؤكم أنّي أخاف عليكم أن أغضبا

أي إمنعوا سفهاؤكم.

و قال بعض المفّسرين أمر اللّه رسوله أن يدعو الى دين الّله و شرعه بتّلطفٍ و هو أن يسمع المدّعو حكمته و هو الكلام الصّواب القريب الواقع من النّفس أجمل موقعٍ.

و عن إبن عبّاس أنّ الحكمة القرأن و عنه الفقه و قيل النُّبوة و قيل ما يمنع من الفساد من أيات ربّك المرغبة و المرهبة و الموعظة الحسنة مواعظ القرأن الأدب الجميل الذّي يعرفونه.

أقول قال الرّاغب في المفردات الحكمة إصابة الحقّ بالعلم و العقل، فالحكمة من اللّه معرفة الأشياء و إيجادها على غاية الإحكام و من الإنسان معرفة الموجودات و فعل الخيرات انتهى.

و للرّازي في المقام تحقيق لا بأس بالإشارة اليه قال و أعلم أنّه تعالى أمر رسوله أن يدعو النّاس بأحد هذه الطّرق الثّلاثة، و هى الحكمة، و الموعظة الحسنة، و المجادلة بالطّريق الأحسن و قد ذكر اللّه تعالى هذا الجدل في أخرى فقال: **وَ لا تُجادِلُوٓا أَهْلَ ٱلْكِتابِ إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ**[1] ولمّ ذَكر اللّه تعالىٰ هذه الطّرق الثّلاثة و عطف بعضها على بعضٍ وجب أن تكون طرقاً متغايرة متباينة و ما رأيت للمفّسرين فيه كلاماً ملخصاً مضبوطاً.

١- العنكبوت = ٤٦

و إعلم أنّ الدَّعوة الى المذهب و المقالة لابدّ و أن تكون مبنيّة على حجّةٍ و بيّنةٍ و المقصود من ذكر الحجّة أمّا تقرير ذلك المذهب و ذلك الإعتقاد في قلوب المستمعين و أمّا أن يكون المقصود إلزام الخصم و إفحامه.

أمّا القسم الأوّل: فينقسم الى قسمين لأنّ تلك الحجّة أمّا أن تكون حجّة حقيقية يقيّنية قطعيّة مبّرأة عن إحتمال النَّقيض و أمّا أن لا تكون كذلك بل تكون حجّة تفيد الظَّن الظّاهر و الإمتناع الكامل فظهر بهذا التقسيم إنحصار الحجج في هذه الأقسام الثّلاثة.

أوّلها: الحجّة القطعيّة المفيدة للعقائد اليقينيّة و ذلك هو المسمّى بالحكمة و هذه أشرف الدّرجات و أعلى المقامات و هى التّي قال في حقيقتها **وَ مَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا**(١).

ثالثها: الدّلائل التّي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم و إفحامهم هو الجدل، و ساق الكلام في معنى الجدل الى أن قال، أهل العلم ثلاث طوائف الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية و العلوم اليقينيّة و المكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلاّ بالدّلائل القطعيّة و هى الحكمة.

و القسم الثّانى: تغلب على طباعهم المشاغبة و المخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية و العلوم اليقينيّة و المكالمة اللائقة بهؤلاء، المجادلة التّي تفيد الإفحام و الإلزام و هذان القسمان هما الطّرفان فالأوّل هو طرف الكمال و الثّاني طرف النّقصان.

أمّا القسم الثّالث: فهو الواسطة و هم الذّين ما بلغوا في الكمال الى حدّ الحكماء المحقّقين و فى النّقصان و الرّذالة الى حدّ المشاغبين المخاصمين بل هم أقوامٌ بقوا على الفطرة الأصليّة و السّلامة الخلقيّة و ما بلغوا الى درجة الإستعداد لفهم الدّلائل اليقينيّة و المعارف الحكمّية و المكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلاّ بالموعظة الحسنة و أدناها المجادلة، الى أن قال.



١- البقرة = ٢٦٩

و من لطائف هذه الآية أنّه قال أدع الى سبيل ربّك بالحكمة و الموعظة الحسنة فقصّر الدَّعوة على ذكر هذين القسمين لأنّ الدَّعوة أن كانت بالدّلائل القعطيّة فهي الحكمة و أن كانت بالدّلائل الظنيّة فهي الموعظة الحسنة.

و أمّا الجدل فليس من باب الدّعوة بل المقصود منه غرضٌ أخر مغاير للدّعوة و هو الإلزام و الإفحام فلهذا السَّبب لم يقل أدع الى سبيل ربّك بالحكمة و الموعظة الحسنة و الجدل الأحسن عن باب الدَّعوة تنبيهاً على أنّه لا يحصل الدّعوة و أنّما الغرض منه شئ أخر و اللّه أعلم انتهى كلام الرّازي و أنّما نقلناه بطوله لما فيه من الفوائد و أن كان أجنبيّاً عن تفسير الآية و ذلك لأنّ تفسير الآية لا يحتاج الى هذه التّكلفات فنقول:

أمر اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالدَّعوة كما أمر سائر الأنبياء قبله و ذلك لأنّ النُّبوة مبتنيةٌ عليها فأنّ النّبي المبعوث الى الخلق لابدّ له من إعلام نبُّوته و الإعلام هو الدَّعوة لأنّه يدعوهم الى ما أمر اللّه به قال عن نوح النّبى:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَاٰبِ**(٤).

و الآيات كثيرة في باب الدَّعوة في جميع الأنبياء و هكذا النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثمّ قيَّد الدَّعوة بكونها الى سبيل ربّك، لأنّ الدَّعوة قد تكون الى غير سبيل اللّه كما اذا كانت الدَّعوة الى شخصٍ أخر أو كانت الى نفس الدّاعي و لأجل ذلك قال الى سبيل ربّك أي أدعهم الى اللّه تعالى لا الى نفسك و لا الى غيرك من المخلوق:

١- نُوح = ٥
٢- يُوسف = ١٠٨
٣- غافر = ٤٢
٤- الرَّعد = ٣٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَدْعُ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ لآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلا تَدْعُ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ**(٢).

و حيث أنّ الدّعوة الى الحقّ لا تنفع مع الخشونة و الغلظة قيّدها بالحكمة و الموعظة الحسنة و الوجه في ذلك انّ الدّين من الأمور الإعتقاديّة و الأمر الإعتقادي لا يحصل للإنسان إلاّ بعد القبول بالطّوع و الرّغبة لا بالجبر و الكراهة و القبول كذلك موقوفٌ على التّلطف و حسن الكلام.

و أمّا قوله: **وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** فهو أمرٌ منه تعالى بحسن الجدال مع أهل الكتاب و محصّل الكلام في الآية هو أنّ اللّه تعالى بيَّن فيها كيفيّة الدَّعوة و أنّ الدَّعوة اذا لم تكن بهذه الشّروط لا نفع فيها و هذا أمرٌ معقول لا شكّ فيها و الآية و أن كانت في ظاهر الأمر خطاباً للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم إلاّ أنّها عامّةٌ شاملةٌ لجميع الدُّعاة من أمّته الى يوم القيامة فمن زعم أنّ الدَّعوة الى الحقّ تنفع بغير هذه الشّرائط فقد أخطأ.

و أمّا قوله: **هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ففيه إشارة الى أنّ الدّاعي وظيفته الدَّعوة و أمّا قبولها أو عدم قبولها من المخاطب فهو أمرٌ خارج عن قدرة الدّاعي اذ قد يقبل و قد لا يقبل و اللّه تعالى أعلم بحاله إلاّ أنّ فائدة الدَّعوة في صورة عدم القبول هي إتمام الحجّة على المخاطب و هو يكفي في باب الدَّعوة لقوله تعالى: **مٰا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاٰغُ**.

وَ إِنْ عٰاقَبْتُمْ فَعٰاقِبُوا بِمِثْلِ مٰا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّٰابِرِينَ

قال الرّاغب في المفردات العقوبة و المعاقبة و العقاب يختصّ بالعذاب، فالمعنى و أن عذّبتم فعذّبوا بمثل ما عذّبتم به و لئن صبرتم لهو أي الصَّبر خيرٌ للصّابرين من العقوبة و العذاب.

١- القصص = ٨٨ ٢- الشّعراء = ٢١٣

قيل أنّ الآية نزلت في أحد لمّا مثّل المشركون بقتلى أحد و قال المسلمون متى أظهرنا اللّه عليهم لنمثّلن بهم أعظم ممّا مثلُّوا بنّا.

و قيل نزلت في كلّ ظالم بغصبٍ أو نحوه فأنّما يجازى بمثل ما عمل.

و قالت فرقة هي منسوخة بأية القتال، و قالت فرقة هي محكمة غير منسوخة و الحقّ أنّها نزلت في شأن التّمثيل بحمزة سيّد الشّهداء عمّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في يوم أحد فما ذهب اليه النّحاس من أنّها مكيّة لا وجه له و ما ذهب اليه الجمهور أثبت.

و عن إبن سيرين و مجاهد و غيرهما ممّن تبعهما أنّها نزلت فيمن أصيب بظلمةٍ أن لا ينال من ظالمه اذا تمكّن إلاّ مثل ظلامته لا يتّعداها الى غيرها و سمّي المجازاة على الذّنب معاقبة لأجل المقابلة و المعنى قابلوا من صنع بكم صنيع سوء بمثله.

أقول روي أرباب السِّير عن وحشي الّذي كان عبداً لجبير بن مطعم أنّه قال، قال لي جبير بن مطعم أنّ عليّاً قتل عمّي يوم بدر فأن قتلت محمّداً فأنت حرٌّ و إن قتلت إبن عمّ محمّدٍ فأنت حرٌّ و إن قتلت عمّه حمزة فأنت حرٌّ فخرجت بحربة لي مع قريش الى أحد أريد العتق لا أريد غيره و لا أطمع في محمّدٍ و قلت لعلّي أصيب من علّي أو حمزة و كنت لا أخطئ في رمي الحراب تعلّمته من الحبشة في أرضها و كان حمزة يحمل حملاته ثمّ يرجع الى موقفه.

و في رواية أخرى أنّه قال أمّا محمّد فلا حيلة لي فيه لأنّ أصحابه يطيفون به و أمّا عليٌّ فأنّه اذا تأمّل كان أحذر من الذّئب و أمّا حمزة فأنّي أطمع فيه لأنّ اذا غضب لم يبصر بين يديه وكان حمزة يومئذٍ قد أعلم بريش نعامة في صدره فكمن له وحشي في أصل شجرة فرأه حمزة فبدر بالسّيف اليه فضربه ضربة أخطأت رأسه قال و حشيش و هززت ضربتي حتّى اذا تمكّنت منه رمية فأصبته في أربيّته (الأربيّة أصل الفخذ) و تركته حتّى اذا برد صرت اليه فأخذت حربتي و شغل عنّي و عنه المسلمون بهزيمتهم و جاءت هند زوجة

أبي سفيان فأمرت بشّق بطن حمزة و قطع كبده و التّمثيل بـه فـجدعوا أنـفه و أذنيه و مثلّوا به و رسول اللّه ﷺ مشغول عنه لا يعلم بما إنتهى اليه الأمر.

و في روايةٍ زرقه وحشي فوق الثّدي فسقط حمزة و شدّوا عليه فقتلوه فأخذ وحشي الكبد فشّد بها الى هند بـنت عـتبة فأخـذتها فطرحتها في فيها فصارت مثل الدّاعضبة فلفظتها قال وكان مليس بن علقمة نظر الى أبي سفيان و هو على فرسٍ و بيده رمحُ يجاء به في شدق حمزة فقال حليس، يا معشر بني كنانة أنظروا الى مـن يزعم أنّه سيّد قريش ما يصنع بإبن عمّه الذّي قد صار لحماً وكان أبو سفيان يقول ذق عقق، فقال أبو سفيان صدقت أنّما كانت منّي زلّـة فأكـتمها عـلّي، و سـاق الحـديث الى أن قـال فـطابت أنـفس المسلمين بذهاب العدّو فإنتشروا يتّتبعون قتلاهم فلم يجدوا قتيلاً إلاّ و قد مثلُّوا به إلاّ حنظلة بن أبي عامر كان أبوه مع المشركين فترك له و وجدوا حمزة قد شقّ بطنه و جدع أنفه و قطعت أذناه و أخذ كبده ثمّ قال رسول اللّه ﷺ من له علمٌ بعمّي حمزة فقال له الحارث بن الصّمة أنا أعرف موضعه فجاء حتّى وقف على حمزة فكره أن يرجع الى رسول اللّه فيخبره فقال ﷺ لأمير المؤمنين يا علّي أطلب عمّك فجاء علّيٌ فوقف على حمزة فكره أن يرجع الى رسول اللّه ﷺ فجاء رسول اللّه حتّى وقف عليه فلمّا رأى ما فعل به بكىٰ ثمّ قال ﷺ و اللّه ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ علّي من هذا المكان لأن أمكنني اللّه من قريش لأمثّلن بسبعين رجلاً منهم فنزل عليه جبرئيل فقال: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ.

فقال رسول اللّه ﷺ: بل أصبر فهذا شأن نزول الآية و يستفاد

منها أنّ الصَّبر على المصيبة له أجرٌ عـظيم بـل هـو أحسـن مـن المقابلة بالمثل فضلاً عن الزّيادة بل هي ممنوعة للمنافاتها العدل الّذي عليه بناء الدّين و الأصل فيه هو قوله تعالى: أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ ٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ ٱلْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ ٱلْأُذُنَ بِالْأُذُنِ[1].

و هذه الآية تنفي الزّيادة مُطلقاً و قوله و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عـوقبتم به مضافاً الى نفي الزّيادة سيتفاد منها أنّ المقابلة بالمثل أيضاً مرجـوع و الصَّبر أحسن منها و من هنا يعلم سِّر قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصّابرين.

وَ ٱصْبِرْ وَ مٰا صَبْرُكَ إِلّٰا بِاللّٰهِ وَ لٰا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لٰا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّٰا يَمْكُرُونَ

الخطاب ظاهراً للنّبي و المراد أمّته معه و أصبر يا محمّد صبرك إلاّ بـاللّه أي بتوفيقه إيّاك و لا تـحزن عـليهم أي عـلى المشـركين و لا تك فـي ضـيقٍ مـمّا يمكرون، أي لا يكن صدرك ضيّقاً ممّا يـمكر بك المشـركون مـن الخـديعة و الحيلة و ما فعلوا بقتلى أحد من المثلى و ذلك.

إِنَّ ٱللّٰهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

و من المعلوم أنّ المقتولين في أحد من المسلمين كانوا من أظهر مـصاديق المُتّقين و المحسنين فكان اللّه معهم و من كان اللّه معه فقد فاز فوزاً عظيماً في الدنيّا و الآخرة كيف لا وقد أمر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بالقتلى يـوم أحـد فـجمعوا فصلّى عليهم و دفنهم في مضاجعهم و كبّر على حـمزة سـبعين تكـبيرة وكـان عددالمقتولين من أصحاب رسول اللّه يوم أحد سبعون رجلاً من خيارالمسلمين.

و روي زيد بن وهب عن إبن مسعود قال إنهزم النّاس يوم أحد إلاّ عليّ عليه السلام وحده فقلت أنّ ثبوت علّيٍ في ذلك المقام لعجيبٌ قـال إن تـعجّبت مـنه فـقد

١- المائدة = ٤٥

تعجَّبت الملائكة أمّا علمت أنّ جبرئيل قال في ذلك اليوم و هو يعرج الى السّماء لا فتى إلاّ علّيّ و لا سيف إلاّ ذو الفقار.

و يقال أنّ النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم: نودي في هذا اليوم ناد عليّاً مظهر العجائب، تجده عوناً لك في النّوائب كلّ همٍّ و غمٍّ سينجلي، بولايتك يا علّى.

و لنختم الكلام بذكر علّي علیه السّلام و نقول هذا أخر الكلام في الجزء الرّابع عشر و به يتّم المقال في الجزء الرّابع عشر من القرأن و يتلوه الجزء الخامس عشر أوّله سورة الإسراء و أرجو من اللّه أن يوَّفقني لإتمام الأجزاء كلّها بحق محمدٍ صلّی الله علیه و آله و سلّم و آله الطّاهرين.

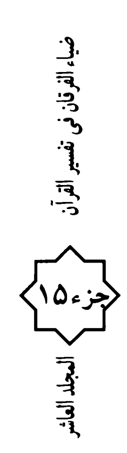
■

الجزء
الخامس عشر

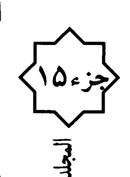
سُورة الإسراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحٰانَ ٱلَّذي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرٰامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذي بٰارَكْنٰا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ اٰيٰاتِنٰآ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّميعُ ٱلْبَصيرُ ﴿١﴾ وَ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ وَ جَعَلْنٰاهُ هُـدًى لِـبَنيٓ إِسْرٰآئيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُوني وَكيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كٰانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَ قَضَيْنٰآ إِلٰى بَنيٓ إِسْرٰآئيلَ فِى ٱلْكِتٰابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبيرًا ﴿٤﴾ فَإِذٰا جٰآءَ وَعْدُ أُوليٰهُمٰا بَعَثْنٰا عَلَيْكُمْ عِبٰادًا لَنٰآ أُولي بَأْسٍ شَديدٍ فَجٰاسُوا خِلٰالَ ٱلدِّيٰارِ وَكٰانَ وَعْدًا مَفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنٰا لَكُـمُ ٱلْكَـرَّةَ عَـلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْنٰاكُمْ بِأَمْوٰالٍ وَبَنينَ وَ جَعَلْنٰاكُمْ أَكْثَرَ نَفيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا فَإِذٰا جٰآءَ وَعْدُ ٱلْاٰخِرَةِ لِيَسُوٓءُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمٰا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبيرًا ﴿٧﴾ عَسٰـى رَبُّكُـمْ أَنْ



يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَ أَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَ يَدْعُ ٱلْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَ جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ ٱللَّيْلِ وَ جَعَلْنَآ آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَابًا يَلْقَيٰهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١۴﴾



◀ اللّغة

سُبْحَانَ: بضّم السّين مصدر نحو غفران، و التّسبيح تنزيه اللّه تعالى عن النّقائص الامكانيّة.

قَضَيْنَآ: القضاء الحكم.

فَجَاسُوا: أي تردّدوا و تخلّلوا بين الدُّور و قيل الجوس طلب الشّئ باستقصاءٍ.

تَتْبِيرًا: التّبار الهلاك.

حَصِيرًا: الحصير البساط المرمول و يسمّى البساط الصغير حصيراً.

◀ الإعراب

سُبْحٰانَ إسم واقعٌ موقع المصدر و إنتصابه على المصدر بفعلٍ محذوف تقديره سبَّحت اللّه تسبيحاً و معناه تنزّهت لَيْلًا ظرفٌ للاسرى حَوْلَهُ ظرفٌ لباركنا و قيل مفعول به مِنْ دُونِي يجوز أن يكون حالاً من وكيل أو معمولاً له ٱلْكَرَّةَ هي مصدر في الأصل يقال كرّ كرّاً و كرّةً نَفِيرًا[1] تمييز حَصِيرًا[1] أي حاصراً، ولذلك لم يؤنّثه و قيل التّذكير على معنى الجنس.

◀ التّفسير

سُبْحٰانَ ٱلَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرٰامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بٰارَكْنٰا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيٰاتِنٰآ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ.

قال بعض المحقّقين أنّ، سُبحان بضمّ السّين مصدر من قولهم سبَّح يسبّح تسبيحاً و سبحاناً فعلى هذا هو منصوب على المصدر و تقدير الكلام أسبّح الّذي أسرى بعبده سبحاناً ثمّ حذف و أضيف المصدر الى الفاعل و قيل أنه إسمٌ سدّ مسدّ المصدر نحو كفران قال الشّاعر:

سبحانه ثمّ سبحاناً يعود له　　　و قبلنا سبَّح الجوديّ و الحمد

و قيل أنّه نصب على النّداء و التّقدير يا سبحان اللّه.

روي عن طلحة بن عبيد اللّه أنه قال سألت رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن معناه قال صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معناه تنزيه اللّه عن كلّ سوءٍ، و قوله: **أَسْرٰى** فالإسراء هو السَّير في اللّيل قيل أنّه متعدٍّ من قولهم أسريت غيري و عليه فالباء في قوله: **بِعَبْدِهِ** زائدة.

و قيل أنّه لازم من سرى يسري أو أسرى يسري و هما لغتان و عليه فالباء للتعديّة و قوله: **لَيْلًا** نصب على الظَّرف و تنكيره دليل على أنّ الإسراء كان في بعض اللّيل و يؤيّده قراءة حذيفة و إبن مسعود، من اللّيل، و كلمة، من، في قوله من المسجد الحرام لإبتداء الغاية كما أنّ كلمة، إلى، لإنتهائها و ظاهر الآية أنّ إبتداء السّير كان من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى.



و قد روي أنّ إبتداء السّير كان من بيت أمّ هاني بنت أبي طالب و من قال بهذا القول أوّل الآية و قال أنّ المسجد يطلق على جميع الحرم، و هذا رواية الكلبي و أبو صالح كما أنّ القول الأوّل على رواية أنس و مالك بن صعصعة و المسجد الأقصى هو بيت المقدّس و أنّما سمّي بالأقصى لأنّه أبعد مسجد يزار.

و قوله: **ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ** قيل في تفسيره وجهان:

أحَدهما: باركنا حوله و أطرافه من أنواع النِّعم و الأشجار و القراء و البلاد المعمورة.

ثانيهما: باركنا حوله من قبور الأنبياء و الصُّلحاء و وجود الصَّخرة الّتي يحشر النّاس فيها يوم القيامة.

و قوله: **لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ** أي لنري الرّسول ﷺ من أياتنا، **إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**، أي انّ اللّه يسمع و يبصر و لا يخفى عليه شئ و على هذا فيصير معنى الآية أنّ اللّه سبحانه و تعالى أسرى عبده محمّد ﷺ في بعضٍ من اللّيل من المسجد الحرام أو من الحرم الى المسجد الأقصى و هو بيت المقدّس الّذي باركنا حوله و أطرافه بأنواع النّعم و الأشجار و الأثمار، أو بقبور الأنبياء و الصُّلحاء، ثمّ منه الى السّماء لنريه من أياتنا في السّموات انّه أي انّ اللّه هو السَّميع البصير.

أقول إتّفقوا على أنّ المراد بالمسجد الأقصى هو بيت المقدّس.

قال الزّمخشري في الكشّاف روي أنّه كان نائماً في بيت أمّ هاني بعد صلاة العشاء فأسري به من ليلته و قصّ القصّة على أمّ هاني و قال مثّل لي النَّبيون فصلّيت بهم و قام ليخرج الى المسجد فتشبّثت أمّ هاني بثوبه فقال ﷺ مالك قالت أخشى أن يكذّبك قومك إن أخبرتهم قال و إن كذَّبوني فخرج فجلس اليه أبو جهل فأخبره رسول اللّه ﷺ بحديث الإسراء فقال أبو جهل يا معشر بني كعب بن لؤي هلمّ فحدَّثهم فمن بين مصفقٍ و واضع يده على

رأسه تعجّباً و إنكاراً و إرتدّ ناسٌ ممّن كان أمن به و سعى رجال الى أبي بكر فقال أبو بكر قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدّقه على ذلك قال إنّي لاصدّقه على أبعد من ذلك فسمّي الصّديق و فيهم من سافر الى ماثم فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدّس فطفق ينظر اليه و ينعته لهم فقالوا أمّا النَّعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن غيرنا فأخبرهم بعدد جمالها و أحوالها و قال تقدم يوم كذا مع طلوع الشّمس يقدمها جمل أورقٌ فخرجوا يشتدُّون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه و اللّه الشّمس قد أشرقت و قال أخر هذه و اللّه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمّد ثمّ لم يؤمنوا و قالوا ما هذا إلاّ سحرٌ مبين و قد عرج به الى السّماء في تلك اللّيلة و كان العروج به من بيت المقدّس و أخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السّماء من العجائب و أنّه لقى الأنبياء و بلغ البيت المعمور و سدرة المنتهى إنتهى كلامه في هذا المقام.

ثمّ قال بعد أسطرٍ، و المسجد الأقصى بيت المقدّس لأنّه لم يكن حينئذٍ و راءه مسجد، باركنا حوله، يريد بركات الدّين و الدّنيا لأنّه متعبّد الأنبياء من وقت موسى و مهبط الوحي و هو محفوف بالأنهار الجارية و الأشجار المثمرة انتهى.و قال الرّازي ما هذا لفظه:

و قوله: **إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا** إتّفقوا على أنّ المراد به بيت المقدّس و سمّي بالأقصى لبعد المسافة بينه و بين المسجد الحرام ثمّ قال بعد سطرٍ و إعلم أنّ كلمة، إلى، لإنتهاء الغاية فمدلول قوله الى المسجد الأقصى أنّه وصل الى حدّ ذلك المسجد فأمّا أنّه دخل ذلك المسجد أم لا فليس في اللّفظ دلالة عليه انتهى كلامه.

أقول و الظّاهر انّه لا خلاف بينهم في أنّ الرّسول أسري به من المسجد الحرام أو من الحرم الى المسجد الأقصى و هو بيت المقدّس وبه قال جميع المفّسرين من العامّة و الخاصّة فيما نعلم ولم نر خلافاً في ذلك منهم.

قال الطُّبرسيقدس سره في تفسيره عند قوله: **إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا** يعني بيت المقدّس وأنّما قال الأقصى لبعد المسافة بينه و بين المسجد الحرام انتهى.

و تبعه على ذلك من جاء بعده من المفّسرين و محصّل الكلام هو إطباق العامّة و الخاصّة على أنّ المراد بالمسجد الأقصى هو بيت المقدّس و علّلوا الأقصى، لكونه أبعد مسجد بالنّسبة الى مكان النّبي و من معه من المخاطبين و لا نحتاج في ذكر أقوالهم أكثر ممّا ذكرناه من أقوال أساطين المفسرين من العامّة و الخاصّة اذ لا خلاف في ذلك بينهم و أمّا وقت الإسراء.

فقيل كان قبل الهجرة بسنة نقله الزّمخشري عن أنس و عن الحسن أنّه كان قبل البعث و إختلف في كونه في اليقظة أو في المنام.

فعن عائشة أنّها قالت و اللّه ما فقد جسد رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم ولكن عرج بروحه.

و عن معاوية انّما عرج بروحه و عن الحسن كان في المنام رؤياً رآها نقل هذه الأقوال في الكشّاف.

و عن الطّبري في تفسيره عن حذيفة أنّه قال ذلك رؤيا و أنّه ما فقد جسد رسول اللّه و انّما أسري بروحه.

و قال الألوسي في تفسيره، و قال الواحدي أنّها رؤية اليقظة ليلاً فقط.

و نقل عن المازري في شرح مسلم أنّه قال كان الإسراء بجسدهصلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة الى بيت المقدّس فكانت رؤيا عينٍ ثمّ أسري بروحه الشّريفة منه الى ما فوقه فكانت رؤيا قلب.

و نقل عن القاضي أبي بكر و البغوي أنّ الإسراء كان مرّتين:

أحدايهما: في نومهصلى الله عليه وآله وسلم قبل النُّبوة فأسري بروحه.

ثانيهما: بعد النُّبوة بروحه و بدنه قال في الكشف و هذا هو الحقّ و به يحصل الجمع بين الأخبار انتهى.

و قال البيضاوي و الأكثر على أنّه أسري بجسده الى بيت المقدّس ثمّ عرج به الى السّموات حتّى إنتهى الى سدرة المنتهى انتهى كلامه.

أقول يظهر من كلمات مفسّري العامّة أنّ المسألة خلافيّة بينهم إلاّ أنّ الأكثر على أنّ الإسراء كان بجسده كما نقله البيضاوي.

و أمّا شهره و ليلته فقال النّووي في الفتاوي كان في شهر ربيع الأوّل و قال في شرح مسلم تبعاً للقاضي عياض أنّه كان في شهر ربيع الأخر و قيل في رجب، وقيل في شهر رمضان و قيل في شوّال.

و أمّا اللّيلة فقيل في السّابعة و العشرين من شوّال وكان ليلة السَّبت و قيل ليلة الجمعة و هكذا و الكلّ لا دليل عليه من الأخبار مع أنّ البحث فيه لا فائدة فيه هذا محصّل كلمات المفَسرين في تفسير الآية.

أنا أقول يقع البحث حول الآية في أمورٍ لابدّ من التَّنبيه عليها لأنّ المسألة من أهمّ المسائل الإعتقاديّة:

الأمر الأوّل: في المسجد الأقصى و قد عرفت أنّهم إتّفقوا على أنّ المراد به بيت المقدّس و قد روي في بعض الأخبار من طريق أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد بالمسجد الأقصى هو بيت المعمور لأنّه أقصى المساجد و هو في السّماء السّابعة على ما قيل.

ففي تفسير عليّ بن إبراهيم بأسناده عن إسماعيل الجعفي قال كنت في المسجد قاعداً و أبو جعفر في ناحيةٍ فرفع رأسه فنظر الى السّماء مرّةً و الى الكعبة مرّة ثمّ قال عليه السلام سبحان الذّي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، و كرّر ذلك ثلاث مرّات ثمّ إلتفت إليّ فقال أيّ شئٍ يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي.



قلت يقولون أسرى به من المسجد الحرام الى البيت المقدّس فقال عليه السلام ليس كما يقولون و لكنّه أسري به من هذه الى هذه و أشار بيده الى السّماء و قال عليه السلام ما بينهما حرم و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة انتهى.

و روى في تفسير نور الثّقلين عن تفسير العيّاشي بأسناده عن أبي عبد اللّه قال: سألته عن المساجد التّي لها الفضل، فقال المسجد الحرام و مسجد الرّسول قلت و المسجد الأقصى جعلت فداك فقال عليه السلام ذلك في السّماء اليه أسري رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقلت أنّ النّاس يقولون أنّه بيت المقدّس فقال عليه السلام مسجد الكوفة أفضل منه.

أقول روي المجلسي قدس سره في المجلّد السّادس من البحار في باب المعراج ما نقلناه عن تفسير علّي بن عن إسماعيل الجعفي بطوله ثمّ قال قدس سره: في بيانه قوله عليه السلام من هذه الى هذه أي المراد بالمسجد الأقصى البيت المعمور لأنّه أقصى المساجد و لا ينافي ذهابه أوّلاً الى بيت المقدّس موضع الحاجة منه.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره بعد نقله ما نقلناه ما هذا لفظه:

أقول قوله عليه السلام و لكنّه أسري به من هذه الى هذه أي من الكعبة الى البيت المعمور و ليس المراد به نفي الإسراء الى بيت المقدّس و لا تفسير المسجد الأقصى في الآية بالبيت المعمور بل المراد نفي أن ينتهي الإسراء الى بيت المقدّس و لا يتجاوزه فقد إستفاضت الرّوايات بتفسير مسجد الاقصى بيت المقدس انتهى.

الثّانی: قال في المناقب إختلف النّاس في المعراج فالخوارج ينكرونه و قالت الجهميّة عرج بروحه دون جسمه على طريق الرُّؤيا، و قالت الإماميّة و الزّيدية و المعتزلة بل عرج بروحه و بجسمه الى بيت المقدّس لقوله الى المسجد الأقصى.

و قال أخرون بل عرج بروحه و بجسمه الى السّماوات روي ذلك عن إبن عبّاس و إبن مسعود و جابر و حذيفة و أنس و عائشة و أمّ هاني و نحن لا ننكر ذلك و قد جعل اللّه تعالى معراج موسى الى الطُّور و لإبراهيم الى السّماء

الدّنيا و لعيسى الي الرّابعة و لإدريس الىٰ الجَنّة ولمحمّدٍ فكان قاب قوسين أو أدنىٰ و ذلك لعلّو همّته و لذلك يقال المرء يطير بهمّته فتعجّب اللّه من عروجه، **سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ** و أقسم بنزوله و قال: **وَ ٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**(١) فيكون عروجه و نزوله بين تأكيدين.

الثّالث: قال الواقدي الإسراء كان قبل الهجرة بستّة أشهر بمكّة في السّابع عشر من شهر رمضان ليلة السَّبت بعد العتمة من دار أمّ هاني بنت أبي طالب.

و قيل من بيت خديجة و روي من شعب أبي طالب.

و قال الحسن و قتادة كان من نفس المسجد.

و قال إبن عبّاس كان المعراج في ليلة الأثنين من شهر ربيع الأوّل بعد النُّبوة بسنتين فالأوّل معراج العجائب و الثّاني معراج الكرامة.

قال الباخرزي:

طلبت وصاله دهراً طويلاً ... فولّده القضاء وراء ضدّه
فلمّا غبت عنه وغاب عنّي ... أتاني طارقاً من بعد بعده
مضت فقضت حوائجنا خيالاً ... فسبحان الذّي أسَرىٰ بعبده

و قال الأخر:

دنى فتدلّىٰ فإكتسى حلّة البهاء ... فقال له سلني فأعطيك ما تشاء

و قال الأخر:

قلت للبدر لا تغيب وزرني ... وأسمت الوصل بالرّضا لا التّجافي
قال انّي مع العشاء سَأتي ... فإرتقبني ولا تَخف من خلافي
قلت يا سيّدي فهلاّ نهاراً ... فهو أعلى لا رقبة الإئتلاف
قال لي لا أريد تغيير رسمٍ ... أنّما البدر في الظّلام يوافي

الرّابع: في كيفيّة المعراج:



١- النجم = ١

روي المجلسيّ في البحار أنّ جبرئيل أتىٰ النّبي و قال: أنّ ربّي بعثني اليك و أمرني أن أتيه بك فقم فانّ اللّه يكرمك كرامةً لم يكرم بها أحد قبلك و لا بعدك فأبشِر و أطب نفساً فقام فصلّىٰ ركعتين فاذا هو بميكائيل و إسرافيل و مع كلّ واحدٍ منهما سبعون ألف ملك فسلَّم عليهم فبشّروه فاذا معهم دابّة فوق الحمار دون البغل خدّه كخدّ الإنسان و قوائمه كقوائم البعير و عرفه كعرف الفرس و ذنبه كذنب البقر رجلاه أطول من يديه و لها جناحان من فخذيه خطوتها مدَّ البصر و اذا عليها لجام من ياقوتّة حمراء فلمّا أراد أن يركب، إمتنعت فقال جبرئيل أنّه محمّد فتواضعت حتّى لصقت بالأرض فأخذ جبرئيل بلجامها و ميكائيل بركابها فركب فلمّا هبطت إرتفعت يداها و اذا صعدت إرتفعت رجلاها فنفرت العير مِن دفيف البراق ينادي رجل في أخر العير يا فلان الإبل قد نفرت و أنّ فلانة ألَقت حملها و إنكسر يدها فلمّا كان ببطن البلقاء عطش فاذا لهم ماء في أنية فشرب منه و ألقى الباقي فبينا هو في مسيره اذ نُودي عن يمين الطّريق يا محمّد على رسلك ثمّ نودي عن يساره على رسلك فاذا هو بإمرأةً إستقبلته و عليها من الحُسن والجمال ما لم ير لأحدٍ و قالت قف مكانك حتّى أخبرك ففسَّر له إبراهيم الخليل لمّا رأه فقال منادي اليمين داعية اليَهُود فَلَو أجَبته لَتوهّدت أُمّتك و مُنادي اليسار داعية النّصارىٰ فلو أجبته لتنصّرت أمّتك و المرأة المتزيّنة هي الدّنيا تمَّثلت لك لو أجبتها لإختارت أمّتك الدّنيا علىٰ الآخرة فجاء جبرئيل الى بيت صخرة المقدّس فرفعها فأخرج من تحتها ثلاثة أقداح قدحاً من لبنٍ و قدحاً من عسلٍ و قدحاً من خمرٍ فناوله قدح اللَّبن فشرب ثمّ ناوله قدح العسل فشرب ثمّ ناوله قدح الخمر فقال قد رويتُ يا جبرئيل فقال أما أنّك لو شربته ضلَّت أمّتك.

و في خبرٍ عن إبن عبّاس، و هبط معه جبرئيل ملك لم يطأ الأرض قطّ، معه مفاتيح خزائن الأرض فقال: يا محمّد انّ ربّك يقرأوك السّلام و يقول هذه مفاتيح خزائن الأرض فأن شئت فكن نبيّاً عبداً و إن شئت فكن نبيّاً ملِكاً فقال صلى الله عليه وآله وسلم بل أكون نبيّاً عبداً فاذا سلّمٌ قوائمه من فضّة مرّكب باللؤلؤ و الياقوت يتلألأ الأنوار و أسفله علىٰ صخرة بيت المقدّس و رأسه في السّماء فقال لي أصعد يا محمّد فلمّا صعد السّماء رأىٰ شيخاً قاعداً تحت الشّجرة و حوله أطفال فقال جبرئيل هذا أبوك أدم اذا رأى من يدخل الجنّة من ذرّيته ضحِك و فرح و اذا رأىٰ من يدخل النّار من ذرّيته حزن و بكي، و رأى ملكاً باسر الوجه بيده لوحٌ مكتوبٌ بخطٍّ من النُّور و خطٍّ من الظّلمة فقال:

هذا ملك الموت ثمّ رأى ملكاً قاعداً علىٰ كرسّي فلم يرفيه من البشر ما رأىٰ من الملائكة فقال جبرئيل هذا مالك خازن النّار و كان طلقاً بشراً فلمّا أطلع علىٰ النّار لم يضحك بعده فسأله أن يعرض عليه النّار فرأىٰ فيها ما رأى ثمّ دخل الجنّة و رأى ما فيها و سمع صوتاً، أمنّا بربّ العالمين، قال هؤلاء سحرة فرعون و سمع لبيّك اللّهم لبيّك قال هؤلاء الحجّاج و سمع التّكبير فقال هؤلاء الغزاة و سمِع التَّسبيح فقال هؤلاء الأنبياء فلمّا بلغ الى سدرة المنتهىٰ فإنتهىٰ الىٰ الحجب فقال جبرئيل تقدَّم يارسول اللّه ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لإحترقت[١]

و حيث إنجّر الكلام الىٰ نقل الأخبار الواردة في كيّفية معراجه صلى الله عليه وآله وسلم و نقلنا ما نقلناه عن البحار فلا بأس بنقل ما رواه علّي بن إبراهيم القُمي قدس سره في تفسيره لهذه الآية فأنّه الأصل في باب المِعراج قال قدس سره: ما هذا لَفظه.

١- ج ٦ ص ٢٩٩ ط قديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ فحكى أبي عن محمّد بن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: جاء جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل بالبراق الىٰ رسول اللّه فأخذه واحد باللّجام و واحدٌ بالرّكاب و سوىٰ الآخر عليه ثيابه فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل ثمّ قال لها أسكني يا براق فما ركبك نبيٌّ قبله و لا يركبك بعده مثله قال فرّقت به و رفعته إرتفاعاً ليس بالكثير و معه جبرئيل يريه الآيات من السّماء والأرض قال صلى الله عليه وآله وسلم فبينا أنا في مسيري إذ نادى منادٍ عن يميني يا محمّد فلم أجبه و لم ألتفت اليه ثمّ نادى منادٍ عن يساري يا محمّد فلم أجبه و لم ألتفت اليه ثمّ إستقبلتني إمرأة كاشفة عن ذراعيها و عليها من كلّ زِينة الدّنيا فقالت يا محمّد أنظرني حتّىٰ أكلّمك فلم ألتفت اليها ثمّ سرت فسمعت صوتاً أفزعني فجاوزت به فنزل بي جبرئيل فقال صلّ فصّليت فقال أتدري أين صلّيت فقلت لا فقال صلّيت بطيبة واليها مهاجرتك ثمّ ركبت فمضينا ما شاء اللّه ثمّ قال لي إنزل وصلِّ فنزلت وصلَّيت فقال لي أتدري أين صلَّيت فقلت لا فقال صلّيت بطور سيناء حيث كلَّم اللّه موسى تكليماً ثمّ ركبت فمضينا ما شاء اللّه ثمّ قال لي إنزل فصلّ فنزلت و صلّيت فقال لي أتدري أين صلَّيت فقلت لا فقال صلَّيت في بيت لحمٍ بناحية بيت المُقدس حيث ولد عيسىٰ إبن مريم ثمّ ركبت فمضينا حتّى الىٰ بيت المقدس فربطت البراق بالحلقة الّتي كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد ومعي جبرئيل الىٰ جنبي فوجدنا إبراهيم و موسىٰ و عيسىٰ فيمن شاء اللّه من أنبياء اللّه قد

جمعوا إلّـى و أقـمت الصّـلاة (و أقـيمت الصّـلاة خ) ولا أشكّ أنّ جبرئيل إستقدمنا فلمّا إسـتووا أخـذ جـبرئيل، بـعضدي فـقدَّمني فأقمتهم و لا فخر، ثمّ أتاني الخازن بثلاث أواني إناء فيه لبن و إناء فيه ماء و إناء فيه خمر فسمعت قائلاً يقول إن أخَذ الماء غـرق و غرقت أمّته و ان أخذ الخمر غوى و غوت أمّته و أن أخذ اللَّبن هدىٰ و هديت أمّته فأخذت اللَّبن فشربت منه فقال جبرئيل هديت و هديت أمتّك ثمّ قال لي ماذا رأيت في مسيرك فقلت ناداني منادٍ عن يميني فقال لي أو أجبته فقلت لا ولم ألتفت اليه فقال ذاك داعي اليهود لو أجبته، لتهوّدت أمّتك من بعدك ثمّ قال ماذا رأيت فقلت ناداني منادٍ عن يساري فقال أو أجبته فقلت لا و لم ألتفت اليه فقال ذاك داعي النّصارىٰ لو أجبته لتنصّرت أمّتك من بعدك ثمّ قال ماذا إستقبلك فقلت لقيت إمرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينةٍ فقالت يـا محمّد أنظرني حتّىٰ أكلّمك فقال لي أفكلمتها فقلت لم أكـلّمها و لم ألتفت اليها فقال تلك الدّنيا ولو كلَّمتها لأخـتـار أمـتّك الدّنـيا عـلى الآخرة ثمّ سمعت صوتاً أفزعني فقال جبرئيل أتسمع يا محمّد قلت نعم قال هذه صخرة قذفتها عن شفير جهنّم منذ سبعين عاماً فهذا حين إستقرّت قالوا فما ضحك رسول اللّه حتّى قبض قال فصعد جبرئيل و صعدت معه الىٰ السّـماء الدّنـيا و عـليها مـلك يـقال له إسماعيل و هو صاحب الخطفة الّتي قال اللّه عزّ وجلّ، إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب، و تحته سبعُون ألف ملك تحت كلّ ملك سبعون ألف ملك فقال يا جبرئيل من هذا معك فقال محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال أوقد بعث قال نعم ففتح الباب و سلّمتُ عليه و سـلَّم عـلىّ و إستغفرت له و إستغفر لي و قال مرحباً بالأخ النّـاصح و تـلقتّني

الملائكة، حتّىٰ دخلت سماء الدّنيا فما لقيني ملك إلاّ كان ضاحكاً مستبشراً حتّىٰ لقيني ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقاً منه كَريه المنظر ظاهر الغضَب فقال لي مثل ما قالوا من الّدعاء إلاّ أنّه لم يضحك و لم أر فيه من الإستبشار و ما رأيت ممّن ضحك من الملائكة فقلت من هذا يا جبرئيل فأنّي قد فزعت فقال يجوز أن تفزع منه و كلّنا نفزع منه هذا مالك خازن النّار لم يضحك قطُّ و لم يزل منذ و لاّه اللّه جهنّم يزداد كلّ يومٍ غضباً و غيظاً علىٰ أعداء اللّه و أهل معصيته فينتقم اللّه به منهم و لو ضحك الى أحدٍ قبلك أو كان ضاحكاً لأحدٍ بعدك لضَحك اليك و لكنّه لا يضحك فسلَّمتُ عليه فردّ عليّ السّلام و بشَّرني بالجنّة فقلت لجبرئيل و هو بالمكان الّذي وصفه اللّه، مطاع ثمّ أمين، ألا تأمرني أن يريني النّار فقال له جبرئيل يا مالك أرِ محمّد النّار فكشف عنها غطاءها و فتح باباً منها فخرج منها لهبٌ ساطعٌ في السَّماء و فارت فإرتعدت حتّىٰ ظننت ليتناولني ممّا رأيت فقلت يا جبرئيل قل له فليردّ عليها غطاءها فأمرها فقال لها إرجعيفرجعت الىٰ مكانها الّذي خرجت منه، ثمّ مضيت فرأيت رجلاً أدماً جسيماً فقلتُ من هذا يا جبرئيل فقال هذا أبوك آدم فإذا هو يعرض عليه ذرّيته فيقول روحٌ طيّب و ريحٌ طيّبة من جسدٍ طيّب ثمّ تلا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم سورة المطفّفين علىٰ رأس سبعة عشر آية، كلاّ أنّ الأبرار لفي علّيين وما أدريٰك ما علّيون كتابٌ مرقومٌ الى آخرها، فسلَّمت علىٰ أبي آدم و سلَّم علىّ و إستغفرت له و إستغفر لي وقال مرحباً بالأبن الصّالح و النّبي الصّالح و المبعوث في الزّمن الصّالح، ثمّ مررت بملكٍ من الملائكة و هو جالس و إذا جميع الدّنيا بين ركبتيه و إذا بيده لوح من نور فيه

كتاب ينظر فيه و لا يلتفت يميناً و لا شمالاً مقبلاً عليه كهيئة الحزين فقلت من هذا يا جبرئيل فقال هذا ملك الموت دائب في قبض الأرواح فقلت يا جبرئيل أدنني منه حتّىٰ أكلّمه فأدناني منه فسلّمت عليه و قال له جبرئيل هذا محمّد نبّي الرّحمة الّذي أرسله اللّه الىٰ العباد فرحّب بي و حيّاني بالسّلام فقال أبشر يا محمّد فأنّي أرىٰ الخير كلّه في أمّتك فقلت الحمد للّه المنّان ذي النِّعم على عباده ذلك من فضل ربّي و رحمته علىّ فقال جبرئيل هو أشدّ الملائكة عملاً فقلت أكلّ من مات أو هو ميّت فيما بعد هذا تقبض روحه قال نعم.

قلت تراهم حيث كانوا و تشهدهم بنفسك فقال نعم قال ملك الموت ما الدّنيا كلّها عندي فيما سخرّها اللّه لي و مكنّني منها إلاّ كالدِّرهم في كفّ الرّجل يقلّبه كيف يشاء و ما من دارٍ إلاّ و أنا أتّصفحها كلّ يوم خمس مرّات و أقول إذا بكى أهل الميّت عليهم لا تبكوا عليه فانّ لي فيكم عودة و عودة حتّى لا يبقىٰ منكم أحدٌ فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كفى بالموت طامة يا جبرئيل فقال جبرئيل أنّ ما بعد الموت أطمّ و أطمّ من الموت، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم ثم مضيت فإذا أنا بقومٍ بين أيديهم موائد من لحمٍ طيّبٍ و لحمٍ خبيث يأكلون الخبيث و يدعون الطّيب فقلت من هؤلاء يا جبرئيل فقال هؤلاء الّذين يأكلون الحرام و يدعون الحلال من أمّتك يا محمّد فقال رسول اللّه ثمّ رأيت ملكاً من الملائكة جعل اللّه أمره عجباً نصف جسده نار و النّصف الأخر ثلج فلا النّار تذيب الثّلج و لا الثّلج يطفئ النّار و هو ينادي بصوتٍ رفيع يقول سبحان اللّه الّذي كفّ حرّ هذه النّار فلا تذيب الثّلج و كفّ برد هذا الثّلج فلا يطفئ حرّ هذه النّار اللّهم يا مؤلّف بين الثّلج و النّار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت من هذا يا جبرئيل

فقال هذا ملك و كلّه اللّه بأكناف السّماوات و أطراف الأرضين و هو أفصح ملائكة اللّه لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق و ملِكان يناديان في السَّماء أحدهما يقول اللّهم أعط كلّ منفقٍ خلفاً والآخر يقول اللّهم أعط كلّ ممسكٍ تلفا.

ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوامٍ لهم مشافر كمشافر الإبل يقرض اللّحم من جنوبهم و يلقىٰ في أفواهم فقلت من هؤلاء يا جبرئيل فقال هؤلاء الهمّازون اللّمازُون.

ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوامٍ ترضخ رؤوسهم بالصَّخر فقلت من هؤلاء يا جبرئيل فقال هؤلاء الّذي ينامون عن صلاة العشاء.

ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوامٍ تقذف النّار في أفواههم و تخرج من أدبارهم فقلت من هؤلاء فقال هؤلاء الّذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً أنمّا يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً، ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوامٍ يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر من عظم بطنه فقلت من هؤلاء يا جبرئيل قال هؤلاء الّذي يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الّذي يتخبّطه الشّيطان من المسّ فإذا هم مثل آل فرعون يعرضون علىٰ النّار غدوّاً و عشيّاً يقولون ربّنا متىٰ تقوم السّاعة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ مضيتُ فإذا أنا بنسوان معلّقات بثديهنّ فقلت من هنّ يا جبرئيل (هؤلاء يا جبرئيل) فقال هؤلاء اللّواتي يورثن أموال أزواجهّن أولاد غيرهم.

ثمّ قال رسول اللّه إشتدّ غضب اللّه علىٰ إمرأةٍ دخلت على قومٍ في نسبهم من ليس منهم فاطلع على عوراتهم و أكل خزائنهم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: ثمّ مدنا بملائكة من ملائكة اللّه عزّ وجلّ خلقهم كيف شاء و وضع وجوههم كيف شاء ليس شئ من أطباق أجسادهم إلاّ

و هو يسبّح اللّه و يحمده من كلّ ناحية بأصواتٍ مختلفة أصواتهم مرتفعة بالتّحميد و البكاء من خشية اللّه فسألت جبرئيل عنهم فقال كما ترى خلقوا أنّ المَلك منهم الىٰ جنب صاحبه ما كلَّمه قط و لا رفعوا رؤوسهم الىٰ ما فوقها و لا خفضوها الىٰ ما تحتهم خوفاً من اللّه خشوعاً.

فسلَّمت عليهم فردّوا علىّ إيماءً برؤوسهم لا ينظرون إلىّ من الخشوع فقال لهم جبرئيل هذا محمّد نبيّ الرّحمة أرسله اللّه الىٰ العباد رسولاً و نبيّاً و هو خاتم النبّيين و سيّدهم أفلا تكلّمونه قال صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا سمعوا من جبرئيل ذلك أقبلوا علىّ بالسّلام و أكرموني و بشّروني بالخير لي و لامّتي، قال صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ صعد بي الىٰ السّماء الثّانية فإذا فيها رجلان متشابهان فقلت من هذان يا جبرئيل فقال لي أبناء الخالة يحيىٰ و عيسىٰ بن مريم فسلَّمت عليهما و سلَّما علىّ و إستغفرت لهما و إستغفرا لي و قالا مرحباً بالأخ الصّالح و النّبي الصّالح و إذا فيها من الملائكة مثل ما في السّماء الأولىٰ و عليهم الخشوع قد وضع اللّه وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك إلاّ يسبّح اللّه و يحمده بأصواتٍ مختلفة.

ثمّ صعدنا الى السّماء الثّالثة فإذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر النّجوم فقلت من هذا يا جبرئيل فقال هذا أخوك يوسف فسلَّمت عليه و سلَّم علىّ و إستغفرت له و إستغفر لي و قال مرحباً بالنّبي الصّالح والأخ الصّالح و المبعوث في الزّمن الصّالح و إذا فيها ملائكة عليهم من الخشوع مثل ما وصفت في السّماء الأولىٰ و الثّانية و قال لهم جبرئيل ما قال للأخرين و صنعوا بي مثل ما صنع الأخرون.

ثمّ صعدنا الىٰ السّماء الرّابعة و إذا فيها رجل قلت من هذا يا جبرئيل قال هذا إدريس رفعه اللّه مكاناً عليّاً فسلّمت عليه و سلّم علىّ و إستغفرت له و إستغفر لي و إذا فيها من الملائكة مثل ما في السّموات فبشّروني بالخير لي و لأمّتي ثمّ رأيت ملكاً جالساً علىٰ سريرٍ تحت يديه سبعون ألف ملك تحت كلّ ملك سبعون ألف ملك فوقع في نفس رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه هو فصاح به جبرئيل فقال قم فهو قائم الىٰ يوم القيامة.

ثمّ صعدنا الىٰ السّماء الخامسة فإذا فيها رجل كهلٌ عظيم العين لم أر كهلاً أعظم منه حوله ثلّة من أمّة فأعجبتني كثرتهم فقلت من هذا يا جبرئيل قال هذا المحبّب في قومه هارون إبن عمران فسلّمت عليه و سلّم علىّ، و إستغفرت له و إستغفر لي و إذا فيها من الملائكة في الخشوع مثل ما في السّمٰوات.

ثمّ صعدنا الىٰ السّماء السّادسة فإذا فيها رجل ادم طويل عليه سمرة و لولا أنّ له قميصين لنفذ شعره منهما فسمعته يقول بنو إسرائيل انّي أكرَم ولد آدم علىٰ اللّه و هذا رجلٌ أكرم علىٰ اللّه منّي فقلت من هذا يا جبرئيل قال هذا أخوك موسىٰ بن عمران فسلّمت عليه و سلّم علىّ و إستغفرت له وإستغفر لي و إذا من الملائكة الخشوع مثل ما في السّمٰوات.

ثمّ صعدنا الىٰ السّماء السّابعة فما مرت بملك من الملائكة إلاّ قالوا يا محمّد، إحتجم و أمر أمّتك بالحجامة و إذا فيها رجل أشمط الرأس و اللّحية جالس على كرسيّ فقلت يا جبرئيل من هذا الّذي في السّماء السّابعة علىٰ باب بيت المعمور في جوار اللّه فقال هذا أبوك إبراهيم عليه السلام و هذا محلّك و محلّ من إتّقىٰ من أمّتك ثمّ قرأ رسول

اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ ٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ(١).

قال صلى الله عليه وآله وسلم فسلّمت عليه و سلّم عليّ و قال مرحباً بالنبيّ الصّالح و الأبن الصّالح و المبعوث في الزّمن الصّالح وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السّمٰوات فبشّروني بالخير لي و لامّتي قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و رأيت في السّمٰاء السّابعة بحاراً من نورٍ يتلألأ يكاد تلألؤها يخطف بالأبصار و فيها بحار مظلمة و بحارُ ثلج و رعد فلمّا فرغت و رأيت مارأيت سألت جبرئيل فقال أبشر يا محمّد و أشكر كرامة ربّك و أشكر اللّه بما صنع اليك قال صلى الله عليه وآله وسلم فثبّتني اللّه بقوّته و عونه حتّى كثر قولي لجبرئيل و تعجّبي فقال جبرئيل أتعظم ما ترى أنّما هذا خلقٌ من ربّك فكيف بالخالق الّذي خلق ما ترىٰ و ما لا ترىٰ أعظم من هذا من خلق ربّك انّ بين اللّه و بين خلقه سبعون (تسعون) ألَف حجاب و أقرب الخلق الىٰ اللّه أنا و إسرافيل و بيننا و بينه أربعة حجب، حجابٌ من نورٍ، و حجابٌ من ظلمةٍ، و حِجابٌ من الماء قال صلى الله عليه وآله وسلم و رأيت من العجائب الّتي خلق اللّـه سبحانه و سخّر به علىٰ ما أراده ديكاً رجلاه في تخوم الأرضين و رأسه عند العرش و ملكاً من ملائكة اللّه خلقه كما أراد رجلاه في تخوم الأرضين السّابعة ثمّ أقبل مصعداً حتّىٰ خرج في الهواء الى السّموات السّابعة و إنتهىٰ فيها مصعداً حتّى إستقرّ قرنه الى قرب العرش و هو يقول سبحان ربّي حيث ما كنت لا تدري أين ربُّك من عظم شأنه و له جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوز العرش و المغرب فإذا كان في السّحر ذلك الدِّيك نشر جناحيه و خفض بهما

١- آل عمران = ٦٨

و صرخ بالتَّسبيح يقول سبحان اللّه الملك القُّدوس سبحان اللّـه الكبير المتعال لا إله إلاّ اللّه الحّي القَّيوم و إذا قال ذلك سبَّحت ديوك الأرض كلّها و خفضت بأجنحتها و أخذت في الصّراخ فإذا سكت ذلك الدّيك في السّماء سكتت ديوك الأرض كلّها و لذلك الدّيك رغبٌ أخضر و ريش أبيض كأشدّ بياض ما رأيته قطُّ وله رغبٌ أخضر أيضاً تحت ريشه الأبيض كأشدّ خضرة ما رأيتها.

ثمّ قال ﷺ مضيت مع جبرئيل فدخلت البيت المعمور فصلّيت فيه ركعتين و معي أناس من أصحابي عليهم ثيابٌ جدد و آخرون عليهم ثيابٌ خلقان فدخل أصحاب الجدد و حبس أصحاب الخلقان ثمّ خرجت فأنقاد لي نهران نهرٌ يسمّى الكوثر و نهرٌ يسَّمىٰ الرَّحمة فشربت من الكوثر و أغتسلت من الرَّحمة ثمّ إنقاد الىّ جميعاً حتّىٰ دخلت الجنَّة فاذا على حافيتها بيوتي و بيوت أزواجي و إذا ترابها كالمسك فإذا جارية تنغمس في أنهار الجنَّة فقلت لمن أنت يا جارية فقالت لزيد بن حارثة فبشّرتُه بها حين أصبحت و إذا بطيرهما كالبُخت و إذا رمّانها مثل الدّلاء العظام و إذا شجرة لو أرسل طائر في أصلها ما دارها تسع مائة سنة و ليس في الجنَّة منزلٌ إلاّ و فيها فَرعٌ منها فقلت ما هذه يا جبرئيل فقال هذه شجرة طوبىٰ قال اللّه: (طُوبىٰ لَهُم وحُسن مآب) قال رسول اللّه فلّما دخلت الجنَّة رجعت الى نفسي فسألت جبرئيل عن تلك البحار و هولها و اعاجيبها قال هي سرادقات الحجب الّتي إحتجب اللّه بها ولولا تلك الحجب لهتك نور العرش كلّ شيٍ فيه و أنتهيت الى سدرة المُنتهىٰ فإذا الورقة منها تظلّ به أمّة منً الأمم فكنت منها كما قال اللّه تعالىٰ: (كتاب قَوسين أَو أَدنىٰ) فناداني آمن الرّسول بما أنزل اليه من ربّه و قد

كتبنا ذلك في سورة البقرة، فقال رسول اللّه يا ربّ أعطيت أنبياءك فضائل فأعطني فقال اللّه: (قد أَعطيتُك) فيما أُعطيتك كلمتين من تحت العرش، لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه و لا منجا منك إلاّ اليك، قال و علَّمتني الملائكة قولاً أقوله إذا أصبحت و أمسيت، اللّهم انّ ظلمي أصبح مستجيراً بعفوك و ذنبي أصبح مستجيراً بِمَغفرتك و ذلّي مستجيراً بعزّك و فقري أصبح مستجيراً بغناك و وجهي الفاني البالي أصبح مستجيراً بوجهك الدّائم الباقي الّذي لا يفنى، ثمّ سمعت الأذان فإذا ملكٌ يؤذّن لم ير في السّماء قبل تلك اللّيلة فقال اللّه أكبر اللّه فقال اللّه صدق عبدي أنا أكبر، فقال أشهد أن لا إله إلاّ اللّه أشهد أن لا إله إلاّ اللّه فقال اللّه صدق عبدي أنا اللّه لا إله غيري فقال أشهد أنّ محمّداً رسول اللّه فقال اللّه صدق عبدي أنّ محمّداً عبدي ورسولي أنا بعثته و أنتجبته، فقال حَيّ على الصّلاة، حَيّ على الصّلاة، فقال صدق عبدي و دعا الىٰ فريضتي فمن مشى اليها راغباً فيها محتسباً كانت له كفّارة ما مضىٰ من ذنوبه فقال حيّ على الفلاح، حيّ علىٰ الفلاح فقال اللّه هي الصّلاح و النَّجاح و الفلاح ثمّ قال اممت الملائكة في السّماء كما أممت الأنبياء في بيت المقدّس قال صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ غشيتني حبابة فحرزت ساجداً فناداني ربّي إنّي قد فرضت على كلّ نبّي قبلك خمسين صلوة و فرضتها عليك و علىٰ أمّتك فقم بها أنت في أمّتك فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فأنحدرت حتّىٰ مررت علىٰ إبراهيم فلم يسألني عن شئ حتّىٰتُ الىٰ موسىٰ عليه السلام فقال ما صنعت يا محمّد فقلتُ قال ربّي فرضت علىٰ كلّ نبيّ قبلك خمسين صلوة و فرضتها عليك و علىٰ أمّتك فقال موسىٰ يا محمّد أنّ أمّتك آخر الأمم و أضعفها و انّ ربّك لا يردّ عليك شيئاً و أنّ أمّتك

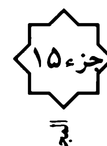
لا تستطيع أن تقوم بها فأرجع الیٰ ربّك فاسئله التَّخفيف لأمّتك فرجعت الى ربّي حتّى الى سدرة المنتهیٰ فخررت ساجداً ثمّ قلت فرضت عليّ و علیٰ أمّتي خمسين صلوة و لا أطيق ذلك و لا أمّتي فخفّف عنّي فوضع عنّي عشرة فرجعت الى موسى فأخبرته فقال إرجع لا تطيق فرجعت الیٰ ربّي فوضع عنّي عشراً فرجعت الى موسى فأخبرته فقال إرجع لا تطيق فرجعت الى ربّي فوضع عنّي عشراً فرجعت الى موسیٰ فأخبرته فقال إرجع و في كلّ رجعةٍ ارجع اليه أخّر ساجداً حتّیٰ رجع الى عشر صلوات فرجعت الیٰ موسیٰ فأخبرته فقال لا تطيق فرجعت الیٰ ربّي فوضع عنّي خمساً فرجعت الیٰ موسیٰ فأخبرته فقال لا تطيق فقلت قد إستحيت من ربّي و لكن أصبر عليها فناداني منادٍ كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كلّ صلوةٍ بعشرٍ، من همّ من أمّتك بحسنةٍ بعملها كتبت له عشرة و ان لم يعمل كتبت واحدة و من همّ من أمّتك بسيّئةٍ فعملها كتبت عليها بواحدة و إن لم يعملها لم أكتب عليه شيئاً.

فقال الصّادق عليه السلام جزیٰ اللّه موسیٰ عن هذه الآية خيراً وهذا تفسير قوله: سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إنتهیٰ.

و روي عن زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام أنّه قال: سألت أبي سيّد العابدين فقلت له أخبرني عن جدّنا رسول اللّه لمّا عرج به الیٰ السّماء و أمره ربّه عزّ وجّل بخمسين صلوة كيف لم يسئله التَّخفيف عن أمّته حتّى قال له موسى بن عمران ارجع الى ربّك فاسئله التَّخفيف فأنّ أمّتك لا تطيق ذلك فقال عليه السلام يا بنيّ انّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لا يقترح علیٰ ربّه عزّ وجّل و لا يراجعه في شئ يأمره به فلّما سأله موسیٰ عليه السلام ذلك و صار شفيعاً لأمّته اليه لم يجز له ردّ

شفاعته فرجع الىٰ ربَّه عزّ وّجل يسأله التَّخفيف الىٰ أن ردَّها الىٰ خَمس صَلوات.

قال فقلت له – يا أبة فلم يرجع الى ربّه عزّوجّل ولَم يسأله التَّخفيف عن خمس صلوات وقد سأله موسى أن يرجع الى ربّـه و يسأله التَّخفيف فقال يا بـنيّ أراد أن يـحصل لأمّـته التّـخفيف مـع أجـر خمسين صلوة لقول اللّه عـزّ وّجـل: **مَنْ جَآءَ بِـالْحَسَنَةِ فَـلَهُ عَشْـرُ أَمْثَالِهَا**[١] ألا ترى أنّه لمّا هبط الى الأرض نزل عليه جبرئيل فقال يا محّمد أنّ ربّك يقرؤك السّلام و يقول أنّها خمس بخمسين، ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلاّمٍ للعبيد، قال فقلت له يا أبة أليس اللّه جّل ذكره و لا يوصف بمكانٍ فقال عليه السلام بلىٰ تعالىٰ اللّه عن ذلك عـلوّاً كبيراً، قُلت فما معنى قول موسىٰ لرسول اللّه أرجع الىٰ ربّك قال معناه معنىٰ قول إبراهيم **إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ**[٢] ومعنىٰ قول موسىٰ **وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ**[٣] و معنىٰ قوله عزّ وجّل: **فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ** يعني حجُّوا الى بيت اللّه يا بنيّ أنّ الكعبة بيت اللّه فمن حجَّ بيت اللّه فقد قصد الى اللّه و المساجد بيوت اللّه فمن سعى اليـها فـقد سعى الىٰ اللّه و قصد اليه و المصلّي ما دام في صلاته فهو واقفٌ بين يدي اللّه فأنّ للّه عزّ وجّل بقاعاً في سمواته فمن عرج الى بقعةٍ منها فقد عرج به اليه ألا تسمع اللّه عزّ وجّل يقول: (يعرج الملائكة والرُّوح اليه) و يقول في قصّة عيسىٰ بن مريم عليه السلام بل رفعه اللّه اليه ويقول: **يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**[٤]»[٥].



١- الانعام = ١٦٠　٢- الصافات = ٩٩

٣- طه = ٨٤　٤- فاطر = ١٠

٥- نور الثّقلين ج ٣ ص ١١٣

أقول الأخبار الواردة في المِعراج كثيرة جدّاً و قد ذَكَر المَجلسي ﷺ شَطراً منها في البحار و حيث انجرّ الكلام الىٰ هاهنا فلا بَأس بالإشارة الىٰ حديثٍ رواه المجلسي ﷺ في الباب تظهر منها فَضائل أمير المؤمنين عليه السلام:

روى ﷺ بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام عن آبائه عن عليٍّ عليه السلام أنّه قال: لي رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يا عليّ أنّه لمّا أسري بي الىٰ السّماء تلقّتني الملائكة بالبشارات في كلّ سماءٍ حتّى لقيني جبرئيل في محفل من الملائكة فقال لو إجتمعت أمّتك علىٰ حُبّ عليٍّ ما خلق اللّه النّار يا عليّ انّ اللّه تعالىٰ أشهدك معي في سبعة مواطنٍ حتّى آنست بك أمّا أوّل ذلك فليلة أسري بي الى السّماء قال لي جبرئيل أين أخوك يا محمّد فقلت خلّفته ورائي فقال أدع اللّه عزّ و جّل فليأتك به فدعوت اللّه عزّ وجّل فإذا مثالك معي و إذا الملائكة وقوف صفوفاً فقلت يا جبرئيل من هٰؤلاء قال هٰؤلاء الّذين يباهي اللّه عزّ وجّل بهم يوم القيامة فدنوت فنطقت بما كان و بما يكون الىٰ يوم القيامة.

الثّانية: حين أسري بي الىٰ ذي العرش قال جبرئيل أين أخوك يا محمّد فقلت خلّفته ورائي فقال أدع اللّه عزّ وجّل فليأتك به فدعوت اللّه عزّ وجلّ فاذا مثالك معي و كشط لي عن سبع سوات حتّىٰ رأيت سكّانها عمّارها و موضع كلّ ملكٍ منها.

الثّالثة: حيث بعثت الىٰ الجنّ فقال لي جبرئيل أين أخوك فقلت خلّفته ورائي فقال أدع اللّه عزّ وجلّ فليأتك به فدعوت اللّه ماذا أنت معي فما قلت لهم شيئاً و لا ردّوا عليّ شيئاً إلاّ سمعته و وعيته.

الرّابعة: خصّصنا بليلة القدر و أنت معي فيها و ليست لأحدٍ غيرنا.

الخامسة: ناجيت اللّه عزّ وجلّ و مثالك معي فسألت فيك فأجابني اليها إلاّ النُّبوة فأنّه قال قد خصّصتها بك و ختمتها بك.

السّادسة: لمّا طفت بالبيت المعمور كان مثالك معي.
السّابعة: هلاك الأحزاب علىٰ يدي و أنت معي يا عليّ أنّ اللّه أشرف الىٰ الدّنيا فإختارني على رجال العالمين ثمّ إطّلع الثّانية فإختارك على رجال العالمين، ثمّ أطلع ثالثة فإختار فاطمة على نساء العالمين، ثمّ أطلع الرّابعة فإختار الحسن و الحسين و الأئمّة على رجال العالمين ياعليّ انّي رأيت إسمك مقروناً بإسمي في أربعة مواطن فأنست بالنّظر اليه، أنّي لما بلغت بيت المقدّس في معارجي الىٰ السّماء وجدت على صخرتها لا إلٰه إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه أيدّته بوزيره و نصرته به فقلت يا جبرئيل و من وزيري فقال عليّ بن أبي طالب، فلمّات الىٰ سدرة المنتهىٰ وجدت مكتوباً لا إلٰه إلاّ اللّه أنا وحدي و محمّد صفوتي من خلقي أيّدته بوزيره و نصرته به فقلت ياجبرئيل من وزيري فقال عليّ بن أبي طالب فلمّا جاوزت السَّدرة الى عرش ربّ العالمين وجدت مكتوباً على قائمةٍ من قوائم العرش لا إلٰه إلاّ اللّه أنا وحدي محمّد حبيبي وصفوتي من خلقي أيّدته بوزيره وأخيه و نصرته به يا عليّ انّ اللّه عزّ وجلّ أعطاني فيك سبع خصالٍ، أنت أوَّل من ينشقّ القَبر عنه و أنت أوّل من يقف معي على الصّراط فتقول للنّار خذي هذا فهو لك و ذري هذا فليس هو لك.

و أنت أوّل من يكسي اذا كسيت و أنت أوّل من يقف معي عن يمين العرش و أوّل من يقرع معي باب الجنّة و أوّل من يسكن معي في علّيّين و أوّل من يشرب معي من الرّحيق المختوم ختامه مسك و في ذلك فليتنافس المتنافسون[1].



١- ج ٦ص ٤٠١ ط كمپاني

اذا عرفت هذا فقد علمت أنّ المعراج حقّ لا خلاف في أصله و انّما الخلاف في كيفيّته و يمكن أن يستدلّ في إثباته بالأدلّة الأربعة.

أمّا الكتاب فظاهرٌ.

أمّا السنّة فقد عرفت.

أمّا الإجماع فقد أجمع جميع المسلمين علىٰ ثبوته و تحقّقه و لم يخالفه فيه أحد سواء كان بالرُّوح أم بالجسد و الرُّوح.أمّا المعراج فلا خلاف فيه.

و أمّا دليل العقل فهو الذّي صار معركة الأراء بين الفلاسفة و لابدّ لنا من التكلّم فيه اجمالاً فانّ المسألة من أمّهات المسائل الإعتقاديّة فنقول مستعيناً باللّه الأقوال في المسألة ثلاثة:

الأوّل: أنّ المعراج لم يقع أصَلاً في اليقظة والذّي وقع بحسب الآيات والأخبار انّما هو في النّوم كما قال به بعض المسلمين.

الثّاني: أنّه وقع في اليقظة إلاّ أنّه كان بروحه لا بجسده.

الثّالث: أنّه وقع بالرُّوح و الجسد معاً.

أمّا القول الأوّل، فهو باطلٌ من وجهين:

أحدهما: أنّ المعراج من معجزات النّبي و عروج الرُّوح في النَّوم الى أيّ مكانٍ ليس مِن المعجزات بل هو من الأمور الطَّبيعية التّي تحصل لكلّ أحدٍ فلا فضيلة للنّبي على غيره في المقام.

الثّاني: أنّ المشركين كذّبوا الرّسول بعد ما أخبرهم به و النّوم لا تكذيب فيه هذا مضافاً الىٰ قوله تعالىٰ في الآية: **لِنُرِيَهُ مِنْ اٰيٰاتِنَآ** و هو ظاهر في اليَقظة فأنّ إراءة الآيات في النّوم لا تختصّ بالنّبي مع أنّ القائلين بتلك المقالة شرذمةٌ قليلة من جهّال المسلمين.

أمّا القول الثّاني: و هو أنّه كان في اليقظة بروحه لا بجسده فهو غير معقولٍ لإستحالة إنفصال الرُّوح عن الجسد إلاّ بالموت فكيف يعقل أن يقال أنّ النّبي

فارق روحه جسده في حياته فهذا القول داخل في القول الأوّل فأنّ النّائم يفارق روحه جسده بعد النَّوم إجمالاً و لكن يبقىٰ للرُّوح تعلَّقٌ بالجسد حين النّوم و بعبارةٍ أخرى روح النّائم لا ينفكّ عن جسده بالكلّية و هذا هو الفارق بين النَّوم و الموت و اذا كان داخلاً في القول الأوّل فمرجعه الىٰ إنكار المعراج في اليقظة و علىٰ هذا فالبحث يقع في مقامين:

أحدهما: أنّه كان في النّوم.

الثّاني: أنّه كان في اليقظة و حيث أنّا أبطلنا القول الأوّل فثبت أنّه كان في اليقظة والذّي وقع في حال اليقظة وقع بالرُّوح و الجسد معاً لما قُلنا أنّ الرُّوح قبل الموت لا ينفكّ عن الجسد فثبت و تحقّق أنّ القول واحدٌ و هو أنّه ﷺ أسري به في حال اليقظة بروحه و جسده معاً و هو المطلوب.

و أمّا الدّليل من العقل فهو تارةً في إثبات جوازه العقلي و تارةً في إثبات وقوعه.

أمّا الجواز فيكفينا في إثباته عدم إستحالته و بعبارةٍ أخرىٰ اذا ثبت أنّ المعراج كذلك غير مستحيل فهو بعينه دليلٌ علىٰ جوازه لأنّ الأمر بين الجواز و الإستحالة و من المعلوم أنّ أحدهما ينفي الأخر فثبوت الجواز دليل علىٰ عدم الإستحالة كما أنّ الإستحالة دليل على عدم الجواز.

و إن شئت قلت الجمع بين الجواز و الإستحالة لا يمكن لأنّ الإستحالة معناها عدم الجواز و الجواز و عدم الجواز متناقضان لا يمكن إجتماعهما اذا عرفت هذا فَنقُول:

لا دليل من العقل علىٰ إستحالة المعراج بالجسد و الرُّوح معاً و ذلك لأنّ أقوىٰ دليل المانع هو لزوم الخرق و الإلتيام في الأجسام الفلكيّة و قد ثبت بالأدّلة القاطعة بل الحسيّة أنّ الأفلاك لا جسم لها أصلاً فأنّ الكرات السّماوية معلّقات في الفضاء و الأفلاك عبارة عن مدار حركاتها و لا وجود لها في الخارج



وجوداً مستّقلاً محسوساً فضلاً عن كونها ذا أجسام صلبة غير قابلة للخرق و الإلتيام و اذا كان كذلك فعروج الجسم الى الملاء الأعلىٰ لا مانع منه عقلاً و لا نعني بالجواز العقلي إلاّ هذا و بعبارةٍ أخرى اذا لم يَدُّل دليل علىٰ إستحالة عروج الجسم الىٰ السّماوات ثبت الإمكان اذ الأمر دائرٌ بين الإمكان و الإستحالة فاذا إنتفت الإستحالة بقي الجواز مساوق للإمكان فثبت و تحقّق أنّ عرُوج الجسم ممكنٌ و هو المطلوب.

ثمّ انّه قد ثبت عموم قدرة اللّه تعالىٰ على كلّ مقدورٍ ممُكنٍ و قد أخبر اللّه تعالىٰ في كتابه بأنّه فعل ذلك فالعقل يحكم بوقوعه و صحّته و هو المطلوب.

و إن شئت قلت الأصل العقلي يقتضي الجواز ما لم يمنع مانع عنه و اذا ثبت عدم المانع فالجواز بحاله قال إبن سينا في بعض كلماته، كلّما قرع سمعك فذره في بقعة الإمكان ما لم تقم على منعه قائمة البرهان، و هذا أصلٌ من الأصول العقليّة في جميع الموارد و أمّا ما ذكره الرّازي في المقام من الأدلّة العقليّة فهو مضافاً الى تفصيله الممل خارج عن موضوع البحث فأن شئت الإطّلاع عليه فعليك بتفسيره لهذه الآية و قد تحصَّل من جميع ما ذكرناه أنّ المعراج الجسماني للرّسول في اليقظة أمرٌ ثابتٌ عقلاً و شرعاً و أمّا أنّ المعراج كان من المسجد أو من بيت أمّ هاني أو مكانٍ أخر فلا يهمّنا البحث فيه فأنّ الآية أثبتت أصل المعراج و أنّه كان واقعاً و أمّا أنّه من أيّ مكانٍ و فى أيّ زمانٍ و أنّه كان مرّةً واحدةً أو مرَّتين فالبحث عنها غير لازم قطعاً فأنّ الّذي كلَّفنا الشّارع به هو الإعتقاد بأنّ المعراج الجسماني قد وقع منه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

و أمّا كيفيّته و أنّه كيف وقع و على أيّ نحوٍ كان فاللّه أعلم فانّ السّكوت في أمثال هذه الأُمور المرتبطة بما وراء الطّبيعة أولى و أصلح للدّين و الدُّنيا قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أُوتيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**[1].

١- الاسراء = ٨٥

و أمّا ما روته العامّة في تفاسيرهم و كتبهم من شقّ بطن النّبي و غسله و إنقاءه ثمّ حشوه إيماناً وحكمةً فلا نفهم معناه كما أنّ ما روته العامّة عن عائشة أنّها قالت ما فقدت جسد رسول اللّه و لكن اللّه أسرىٰ بروحه أيضاً لا نفهم معناه و ليت شعري أين كانت عائشة في قصّة المعراج فتأمّل.

روى الصّدوق رحمه الله في كتاب صفات الشّيعة بأسناده عن إبن عمارة عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء: المعراج و المسألة في القَبر (والمسائلة في القَبر خ) وخلق الجَنَّة والنّار و الشّفاعة.

و بأسناده عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: من كذَّب بالمعراج فقد كذَّب رسول اللّه.

و بأسناده عن الفضل بن شاذان عن الرّضا عليه السلام قال عليه السلام: من أقرَّ بتوحيد اللّه و ساق الحديث الىٰ أن قال و أمن بالمعراج و المسائلة في القبر وا لحوض و الشّفاعة و خلق الجنّة و النّار و الصَّراط و الميزان و البعث والنّشور و الجزاء و الحساب فهو مؤمن حقّاً و هو من شيعتنا أهل البيت.

روي المجلسي رحمه الله بأسناده عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: من أنكر ثلاثة أشياء فليس من شيعتنا، المعراج، و المسائلة في القبر، و الشّفاعة.

أقُول يظهر من هذه الأخبار و غيرها ممّا لم نذكره حذرا من الإطناب أنّ الإعتقاد بمعراج رسول اللّه ممّا يجب علىٰ كلّ من أمن باللّه و رسوله و أمّا الإعتقاد بما نقلوه في باب المعراج فلا يجب علىٰ المكّلف الإلتزام به.

قال في المقاصد و شرحه قد ثبت معراج النّبي بالكتاب و السنّة و إجماع الأمّة إلاّ أنّ الخلاف في أنّه في المنام أو في اليقظة و بالرُّوح فقط أو الرُّوح و الجسد و الىٰ المسجد الأقصىٰ فقط أو الى السّماء، و الحقّ أنّه في اليقظة

بالجسد الىٰ المسجد الأقصى بشهادة الكتاب و الإجماع و من بعده الى السّماء بالأحاديث المشهورة و المنكر مبتدعٌ ثـمّ الى الجنّة و العرش أو الى أطراف العالم على إختلاف الأراء بخبر الواحد انتهى.

و لنختم الكلام في باب المعراج فعلاً فانّ الأقوال فيه كثيرة و الأراء مختلفة و الأخبار متشتّتة والأصل في الباب هو ما ذكرناه و الحمد للّه علىٰ كلّ حالٍ.

وَ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ وَ جَعَلْنٰاهُ هُدًى لِبَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا

المراد بالكتاب في الآية التّوراة وقوله: **وَ جَعَلْنٰاهُ هُدًى لِبَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ** أي جعلنا الكتاب و هو التّوراة هادياً لقوم بني إسرائيل كما هو شأن جميع الكتب السّماويّة و قوله: **أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا** يحتمل أن تكون، أنّ تفسيرية و، لا، ناهية و يجوز أن تكون مصدريّة تعليلاً أي لأن لا تتَّخذوا، و لا، نافية.

و قيل، أن، زائدة و هو لا يصحّ اذ علىٰ هذا يلزم أن يكون قوله: **أَلَّا تَتَّخِذُوا**، معمولاً لقولٍ محذوف و هو خلاف الأصل و القاعدة فأنّ الموضع ليس من مواضع زيادة، أنّ، و الوكيل، فعيل من التَّوكّل أي متوكّلاً عليه.

و قال الزّمخشري، ربّاً تكلون اليه أموركم.

و قال إبن جرير حفيظاً لكم سواي، و محصّل الكلام في الآية هو أنّا أتينا الكتاب لموسىٰ لئلاّ يتَّخذ قومه وكيلاً لأنفسهم غير اللّه تعالىٰ و ذلك لأنّ العبد اذا تَوكّل علىٰ اللّه في جميع أموره فهو حسبه قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ**.

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنٰا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كٰانَ عَبْدًا شَكُورًا

إختلفوا في وجه النَّصب في قوله: **ذُرِّيَّةَ** قيل انه إنتصب علىٰ النّداء أي يا ذرّية و قيل علىٰ البدل من، وكيلاً، و قيل على المفعول الثّاني ليتَّخذوا وكيلاً في معنى الجمع أي لا يتَّخذوا وكلاء ذرّية.

و قيل على إضمار، أعنى و قرأ قوم، **ذُرّيةٌ** بالرّفع بناء على أن يكون بدلاً من الضّمير في، يتَّخذوا، على قراءة من قرأ بياء الغيبة و معنى الآية على النّداء، قلنا ياذرّية من حملنا مع نوح في سفينة وقت الطُّوفان أنّه أي نوح النّبي، كان عبداً شكوراً، أي شاكراً له تعالىٰ علىٰ نعمه، و أمّا على البدل من قوله، وكيلاً، فمعنىٰ الآية **أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا، ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ** ثمّ وصف اللّه نوحاً بأنّه كان عبداً شكوراً فوصفه أوّلاً بالعبوديّة و ثانياً، بكونه شكوراً.

إعلم أنّ الشّكور مبالغة من الشّاكر و الشّكر في أصل اللّغة هو الزّيادة يقال شكرت الأرض اذا كثر النّبات فيها، و ناقةٌ شكيرة اذا كانت ممتلئة الضَّرع مِن اللَّبن اذا عرفت هذا فنقول:

الشّكر في حقّ العباد تارةً يتحقّق بالعمل و تارةً بالقول، و يعبّر عن الأوّل بالشّكر العملي و عن الثّاني بالشكر اللِّساني.

فالشّكر العملي عبارة عن إتيان العبد بأفعالٍ موافقة لرضا الرَّب و قيل هو إتيان العبد بجميع ما أنعمه اللّه عليه في موضعه المقرّر في الشّريعة فاذا كان العبد أطاع ربّه ثمّ أنّ الرّب أعطاه الجزاء الأوفى كان ذلك شكراً للعبد و كلّما كان الجزاء أكثر كان الشّكر أتمّ و أكمل و لا شكّ أنّ اللّه تعالى هو الذّي يجازي العبد بالثّواب العظيم علىٰ العمل القليل ألا ترىٰ أنّ اللّه يعطي بالعمل في أيّامٍ معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة و قد ورد في الدُّعاء: يامن يعطي الكثير بالقليل.

بل الإنسان اذا بقى على الكفر سبعين سنة ثمّ أسلم و أمن باللّه و رسوله حقّاً و مات في الحال يعطيه اللّه الجنَّة أبداً سرمداً و أيضاً أنّ العبد يأتي بطاعات مخلوطة بالرّياء و الرّب يعطيه الثّواب الخالص عن الكدورة و الجفاء و أيضاً العبد عوّادٌ الىٰ الذّنوب واللّه عوّادٌ الىٰ المَغفرة و الرّحمة فثبت و تحقّق أنّ

الزّيادة في المجازاة علىٰ هذا الوجه لا يقدر عليها إلاّ اللّه فوجب أن يقال أنّه لا شكور في الحقيقة إلاّ اللّه تعالىٰ هذا اذا كان الشّكر في العبد مفسّراً بالعمل وأمّا إن كان مفسّراً بالثّناء لساناً الّذي يعبّر عنه بالشّكر اللّفظي فالرّب سبحانه وتعالىٰ يثنى عليه أيضاً فاذا أثنىٰ على عبده فقد شكره و لذلك قيل ان كان الذّي أخذ النِّعمة فاثنى عليه يكون شكوراً، فالّذي أعطاها و أثنى العبد علىٰ شكره فهو أولىٰ أن يكون شكوراً و الىٰ ذلك أشار من قال انّه تعالىٰ يجازي عن الشّكر فسمّىٰ جزاء الشّكر شكراً لأنّه حصل مقابلته كما سمّىٰ جزاء السّيئة سيئة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَزٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا**[١].

و الىٰ ما ذَكرناه في معنىٰ الشّكر سَمَّىٰ اللّه تعالىٰ نفسه شكُوراً:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ رَبَّنٰا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**[٢].

و شاكراً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كٰانَ ٱللّٰهُ شٰاكِرًا عَلِيمًا**[٣].

و حيث ثبت أنّه تعالىٰ شاكرٌ و شَكورٌ فالشّكور من أسماءه و هو يحبّ أن يتَّصف العبد به و لذلك أمر عباده بالإتّصاف به في كثير من الآيات و أثنىٰ أيضاً على المتَّصفين به فقوله تعالىٰ في نُوح: **إِنَّهُ كٰانَ عَبْدًا شَكُورًا**.مِن هذا القبيل واللّه أعلم بحقائق الأمور.

وَ قَضَيْنآ إِلىٰ بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ فِى ٱلْكِتٰابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا

قيل القضاء علىٰ أربعة أقسامٍ:

الأوّل:بمعنىٰ الخَلق والإحداث ومنه قوله تعالىٰ: **فَقَضٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ**[۴].

١- الشّورىٰ = ۴٠
٢- فاطر = ٣۴
٣- النّساء = ١۴٧
۴- فصّلت = ١٢

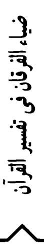
الثّاني: بمعنىٰ فصل الحُكم ومنه قوله تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ**[١].

الثّالث: بمعنىٰ الأمر ومنه قوله: **وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ**[٢].

الرّابع: بمعنىٰ الإخبار ومنه قوله: **وَ قَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ** وهو هذه الآية.

أقُول هذه الوجوه الأربعة ذكرها الشّيخ في التّبيان و نحن نقلناها منه و الحقّ أنّ الحصر ليس حقيقيّاً و ذلك لأنّ القضاء لا ينحصر بهذه الأمور الأربعة و كيف كان لا شكّ أنّ القضاء في الآية بمعنى الإخبار و الإعلام و عليه فمعنىٰ الآية أنّا أخبرنا بني إسرائيل و أعلمنا هم بما يكون من الأمر المذكور مِن أنّهم سيفسدون في الأرض مرّتين و يعلون علُّواً كبيراً أي عظيماً أي يتجبّرون على عباد اللّه و قوله: **فِي ٱلْكِتَابِ**، فالظّاهر أنّ المراد به هو التّوراة و يحتمل أن يراد به الجنس و لعلّه لذلك قرأ أبو العالية وإبن جبير في الكتب على صيغة الجمع.

و قوله: **لَتُفْسِدُنَّ** قرأ إبن عبّاس و جابر بن زيد و نصر بن علّي بضّم التّاء و فتح السّين مبنيّاً للمفعول أي يفسدكم غيركم فقيل من الإضلال و قيل من الغلبة.



و قرأ عيسىٰ بفتح التّاء و ضمّ السّين أي فسدتم بأنفسكم بإرتكاب المعاصي مرّتين أوليهما قتل زكرّيا عليه السلام قاله السُّدي عن أشياخه.

و نقل ذلك عن إبن مسعود و إبن عبّاس و ذلك أنّه لمّا مات ملكهم تنافسوا على الملك و قتل بعضهم بعضاً و لا يسمعون من زكرّيا فقال اللّه له قم في قومك أوح على لسانك فلمّا فرغ ممّا أوحىٰ اللّه اليه عدوا عليه ليقتلوه فهرب فإنفلقت له شجرة فدخل فيها و أدركه الشّيطان فأخذ هدبة من ثوبه فأراهم إيّاها فوضعوا المنشار في وسطها حتّىٰ قطّعوه في وسطها و قيل سبب قتل زكرّيا أنّهم إتّهموه بمريم و قيل غير ذلك و الأقوال في تفاسير العامّة كثيرة.



١- غافر = ٢٠
٢- الإسراء = ٢٣

و قال الشّيخ، في التّبيان، المبعوث اليهم في المرّة الأولى جالوت الىٰ أن قتله داوود و كان ملكهم طالوت و قال سعيد بن مسيب هو «بَخت نَصر» و قال سعيد بن جبير هو سنجاريب، و قال الحسن هم العمالقة و كانوا كفّاراً و الفساد الّذي ذكره هو قتلهم النّاس ظلماً و تغلّبهم على أموالهم قهراً و تخريب ديارهم بغياً إنتهى كلامه.

و قال البيضاوي في تفسير الآية ما هذا لفظه، و قضينا الىٰ بني إسرائيل، و أوحينا اليهم وحياً مقضيّاً مبتوتاً، في الكتاب، في التّوراة **لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ** جواب قسم محذوف (مَرَّتين) إفسادتين أولهما مخالفة أحكام التّوراة و قتل شعياء. ثانيهما، قتل زكرَّيا و يحيى و قصد قتل عيسىٰ عليهم السّلام وَ **لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا** و لتستَكبرنّ عن طاعة اللّه أو لَتَّظلمن النّاس إنتهىٰ.

أقول ظاهر الآية أنّ بني إسرائيل أفسدوا في الأرض مرَّتين و هذا ممّا لا كلام فيه و إنّما الكلام في معنى المراد بهما و حاصل الكلام فيه علىٰ ما يستفاد من أقوال المفسّرين هو قولان:

أحدهما: أنّ المراد بالمرَّة الأولىٰ قتلهم زكَّريا نبّي اللّه مع ما كان سلف منهم قبل ذلك و هو الّذي إختاره الطّبري و نقله عن إبن عبّاس من رواية السّدي و إبن زيد.

ثانيهما: أنّ المراد بالمَّرة الأولىٰ هو قتلهم شعياء بن أميصا نبيّ اللّه أختاره إبن إسحاق، و أمّا المرّة الثّانية فلا إختلاف بينهم أنّ المراد بها قتلهم يحيىٰ بن زكريّا و أمّا قوله: وَ **لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا** فمعناه واضح لا خفاء فيه لأنّ الظّالم المفسد متَّصف بالعلوّ بل قيل العلوّ هو الإفساد بعينه.

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَيٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً

أي فاذا جاء وعد أولىٰ المرَّتين، بعثنا عليكم عباداً لَنا، قيل هو جالوت، و قوله أولي بأسٍ شديد، إشارة الى بطشه في الحروب و قوله: **فَجَاسُوا خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً** قيل بعث اللّه عليهم جالوت فجاس خلال ديارهم و ضرب عليهم الخراج والذلّ فسألوا اللّه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون في سبيل اللّه فبعث اللّه طالوت فقاتلوا جالُوت فنصر اللّه بني إسرائيل و قتل جالوت بيدي داود و رجع اللّه الىٰ بني إسرائيل ملكهم.

أقُول يظهر منه أنّ الذّي سلَّطه اللّه عليهم في المَرَّة الأولىٰ هو جالوت حتّىٰ بعث اللّه طالوت و معه داود و قيل المسلَّط عليهم في المرَّة الأولىٰ هو سنجاريب من أهل أشور و نينوىٰ و قيل غير ذلك.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا أي ثمّ رددنا لكم الكرَّة عليهم بالرَّجعة و السّفرة، و أمددناكم بأموالٍ و بنين، أي أعناكم و كثّرناكم و جعلناكم أكثر نفيراً أي أكثر أنصاراً و الحاصل أنّكم بسبب علوّكم و إفسادكم في الأرض صرتم مغلوبين في المرة الأولى ثمّ صرتم غالبين في المرّة الثّانية بمشيئة اللّه و إرادته فرجعتم الىٰ حالكم الأولى من الظّهور بل أحسن منها و مع ذلك لم تتنبهوا و لم تستيقظوا عن نوم الغفلة فتقع منكم المعاصي و كفر النِّعم و الظّلم و القتل و الكفر باللّه من بعضكم فيبعث اللّه عليكم أمّةً أخرىٰ تخرب دياركم و تقتلكم و تجليكم جلاءً مبرحاً ودلَّ الوجود بعد ذلك علىٰ هذا الأمر كلّه قيل و كان بين آخر الأولىٰ و اوّل الثّانية سبعون سنة و قيل أكثر.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا

لما قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ رَدَدْنٰا لَكُمُ اَلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ** الىٰ أخر الآية قال في هذه الآية **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا** أي إن أطعتم اللّه كان ثواب الطّاعة لأنفسكم و إن أسأتم بمعصية كان عقاب الإساءة لأنفسكم لا يتعدّى الإحسان و الإساءة الىٰ غيركم و جواب، «إن أسَأتُم» قوله: **فَلَهٰا** علىٰ حذف مبتدأ محذوف تقديره فالإساءة لها، قيل جاء باللاّم دون على إزدواجاً يعني أنّه قابل قوله: **لِأَنْفُسِكُمْ** بقوله: **فَلَهٰا**.

و قال الطّبري اللاّم بمعنى، الىٰ، أي فإليها ترجع الإساءة و قيل بمعنى، على، أي فعليها، و المقصود من هذا الكلام هو إيقاظ بني إسرائيل من نوم الغفلة و إتّعاظهم بما وقع عليهم في المرّة الأولى و الإشعار بأنّ المرّة الأخرىٰ تكون أشدّ وأصعَب من الأُولىٰ و لذلك قال: **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهٰا** أي أنّا رددنا عليكم الكَرَّة و جعلناكم أكثَر عَدداً و أعطيناكم الأموال و الأولاد و غير ذلك من النِّعم فيجب عليكم الشّكر على هذه النِّعم عقلاً و شرعاً لئلاّ تزول النّعمة عنكم و من المعلوم أنّ فائدة الشّكر ترجع اليكم لا الىٰ غيركم فان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها، أي إن شكرتم شكرتم لأنفسكم و إن كفرتم فلها.

و الىٰ هذا المعنى أشار اللّه بقوله فاذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم، أي اذا جاء العذاب الذّي حصّلتموه لأنفسكم بسبب المعصية في المرّة الثّانية ليسؤوا وجوهكم و ليدخلوا المسجد، يعني المبعوثين عليكم، كما دخلوه أوّل مرّةٍ، أي في المرّة الأولى، فجواب اذا، محذوف يدلّ عليه جواب، إذ الأولى تقديره فاذا جاء وعد الآخرة بعثناهم عليكم ثانياً.

وَ لِيُتَبِّرُوا مٰا عَلَوْا تَتْبِيرًا فالتّبار الهلاك و معنى ما علوا تتبيراً، ما غلبوا عليه.

و قال الطّبري في تفسير الآية، يقول تعالىٰ ذكره لبني إسرائيل فيما قضىٰ اليهم في التّوراة إن أحسنتم يا بني إسرائيل فأطعتم اللّه و أصلحتم أمركم و لزمتم أمره و نهيه أحسنتم و فعلتم ما فعلتم من ذلك لأنفسكم لأنّكم أنّما تنفعون بفعلكم ما تفعلون من ذلك أنفسكم في الدّنيا، و الآخرة.

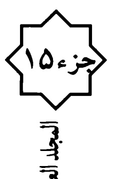
أمّا في الدّنيا فانّ اللّه يدفع عنكم من بغاكم سوءً و ينمي أموالكم و يزيدكم الىٰ قوّتكم قوّة.

و أمّا في الآخرة فأنّ اللّه يثيبكم به جنانه و إن أسأتم يقول و أن عصيتم اللّه و ركبتم ما نهاكم عنه فإلىٰ أنفسكم تسيئون و ساق الكلام الىٰ أن قال فاذا جاء وعد المرَّة الآخرة من مرَّتي إفسادكم يا بني إسرائيل في الأرض ليسؤوا وجوهكم يقول ليسوء مجيئ ذلك الوعد للمرَّة الآخرة وجوهكم فيقبحها، انتهىٰ.

و قد نقلنا عنه سابقاً أنّه قال و أمّا فسادهم في الأرض المرَّة الآخرة فلا إختلاف بين أهل العلم أنه كان قتلهم يحيىٰ بن زكريّا و هذا هو المراد في هذه الآية.

فنقول روىٰ الطّبري عن السّدي أنّ رجلاً من بني إسرائيل رأى في النّوم أنّ خراب بيت المقدس و هلاك بني إسرائيل على يدي غلامٍ يتيم بن أرملة من أهل بابل يدعى بخت نصر و كانوا يصدقون فتصدق رؤياهم، فأقبل و سألَ عنه حتّىٰ نزل علىٰ أمّة و هو يحتطب فلمّا جاء و على رأسه حزمة من حطب ألقاها ثمّ قعد في جانب البيت فضمّه ثمّ أعطاه ثلاثة دراهم فقال إشتر لنا بها طعاماً و شراباً فاشترى بدرهم لحماً و بدرهم خمراً فأكلوا و شربوا حتّىٰ إذا كان اليوم الثّاني و الثّالث فعل به ذلك ثمّ قال له انّي أحبّ أن تكتب لي أماناً إن أنتَ ملكت يوماً من الدّهر فقال أتسخر بي فقال أنّي لا أسخر بك و لكن ما عليك أن تتّخذ بها يداً فكلّمته أمّه فقالت و ما عليك أن كان ذلك و إلاّ لم ينقصك شيئاً فكتب له أماناً فقال له أرأيت ان جئت و النّاس حولك قد حالوا بيني و بينك

فاجعل لي آية تعرفني بها قال ترفع صحيفتك علىٰ قصبة أعرفك بها فكساه و أعطاه ثمّ انّ ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريّا و يدني مجلسه و يستشيره في أمره و لا يقطع أمراً دونه و أنّه هوى أن يتزوّج إبنة إمرأةٍ له فسأل يحيى عن ذلك فنهاه عن نكاحها و قالت لست أرضاها لك فبلغ ذلك أمّها فحقدت على يحيىٰ حين نهاه أن يتزوّج إبنتها فعمدت أمّ الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثياباً رقاقاً حمراً و طيّبتها و ألبستها من الحليّ و قيل انّها ألبستها فوق ذلك كساءً أسود و أرسلتها الى الملك و أمرتها أن تسقيه وأن تعرض له نفسها فأن أرادها على نفسها أبت عليه حتّى يعطيها ما سألته فإذا أعطاها ذلك سألته أن يأتي برأس يحيى بن زكرّيا في طست ففعلت فجعلت تسقيه و تعرض له نفسها فلمّا أخذ فيه الشّراب أرادها علىٰ نفسها فقالت لا أفعَل حتّى تعطيني ما أسألك فقال ما الّذي تسأليني قالت أسألك أن تبعث الىٰ يحيىٰ بن زكرّيا فأوتي برأسه في هذا الطَّست فقال ويحك سليني غير هذا فقالت له ما أريد أن أسألك إلاّ هذا فلمّا ألحّت عليه بعث اليه فأتى برأسه و الرّأس يتكلّم حتّى وضع بين يديه و هو يقول لا يحلّ لك ذلك فلمّا أصبح إذا دمه يغلي فأمر بترابٍ فألقى عليه فرقي الدّم فوق التّراب يغلي فلم يزل يلقي عليه التّراب حتّى بلغ سور المدينة و هو يغلي و بلغ صحابين فثار في النّاس و أراد أن يبعث عليهم جيشاً و يؤمّر عليهم رجلاً فأتاه بخت نصر فكلّمه و قال انّ الّذي أرسلته تلك المرّة ضعيف و انّي قد دخلت المدينة و سمعت كلام أهلها فأبعثني فبعثه فسار بخت نصر حتّى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّنوا منه في مدائنهم فلم يطقهم فلمّا إشتدّ عليهم المقام و جاع أصحابه أرادوا الرّجوع فخرجت اليهم عجوز من عجائز بني إسرائيل فقالت أين أمير الجند فأتى بها اليه فقالت انّه بلغني أنّك تريد أن ترجع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة قال نعم قد طال مقامي و جاع أصحابي فلست أستطيع المقام فوق الّذي كان منّي فقالت أريتك أن فتحت لك المدينة أتعطيني ما سألتك و قتل من أمرتك بقتله



و تكفّ إذا أمرتك أن تكفّ قال نعم قال إذا أصبحت فأقسم جندك أربعة ثمّ أقم على كلّ زاويةٍ ربعاً ثمّ ارفعوا بأيديكم الىٰ السّماء فنادوا إنّا نستفتحك يا اللّه بدم يحيى بن زكرّيا فانّها سوف تساقط ففعلوا فتساقطت المدينة و دخلوا من جوانبها فقالت له أقتل على هذا الدَّم حتّى يسكن و إنطلقت به الى دم يحيى و هو على تراب كثير فقتل عليه حتّى سكن سبعين ألفاً فلمّا سكن الدَّم قالت له كفّ يدك فأنّ اللّه تبارك و تعالى إذا قتل نبيٌّ لم يرض حتّى يقتل من قتله و من رضي بقتله و أتاه صاحب الصحيفة بصحيفة فكفّ عنه و عن أهل بيته و خرّب بيت المقدّس و أمر به أن تطرح فيه الجيف و قال من طرح فيه جيفة فله جزيته تلك السّنة و أعانه على خرابه الرّوم من أجل أنّ بني إسرائيل قتلوا يحيى فلمّا خرّبه بخت نصر ذهب معه بوجوه بني إسرائيل و اشرافهم انتهى موضع الحاجة من كلامه و الحديث طويل نقله الطّبري بتمامه إن شئت راجع الطّبري[١].

أقول يستفاد من قوله تعالىٰ: **وَ قَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ** الى قوله: **مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا** أمران ينبغي التّوجه اليهما و الإعتبار بها لكلّ قومٍ الى يوم القيامة.

الأوّل: أنّ الشُّكر على النّعمة يوجب إزديادها في الدنيّا و الثّواب عليه في الآخرة و أنّ الكفر بالنّعمة يوجب زوالها في الدنيّا و العذاب في الآخرة كما نطقت به الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ**[٣].

١- ج ١٥ ص ٢٦ ٢- إبراهيم = ٧
٣- النّمل = ٤٠

و في الحقيقة هذا أصلٌ من الأصول العقليّة فأنّ شكر المنعم واجبٌ عقلاً ثمّ أنظر الى قوم بني إسرائيل و تفكّر في أمرهم فأنّ اللّه تعالى أنجاهم من عذاب فرعون:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ نَجَّيْنٰاكُمْ مِنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ اَلْـعَذٰابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنٰآءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰآءَكُمْ وَ فِي ذٰلِكُمْ بَلآءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ، وَ إِذْ فَرَقْنٰا بِكُمُ اَلْبَحْرَ فَأَنْجَيْنٰاكُمْ وَ أَغْرَقْنآ اٰلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ اَلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَـلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى اَلْعٰالَمِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَغَيْرَ اَللّٰهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى اَلْعٰالَمِينَ**[٣].

ثمّ أنّهم لم يشكروا على النِّعم بل كفروا بها فانتهى أمرهم الى انّ سلّط اللّـه عليهم بخت نصر و غيره من الظّالمين ففعلوا بهم ما فعلوا من الظّلم و تخريب بيوتهم و إستئصالهم في الدنيا و العذاب الأليم في الآخرة و هذه سنّةٌ متبعة في تاريخ البشر و عبرةٌ لمن تأخّر فليعتبر بها من إعتبر فانّ سنّة اللّـه لا تـتغيّر و لا تتبدّل و هذا من أحسن المواعظ لمن يتّعظ به و استيقظ من نوم الغفلة قال اللّه تعالى فيهم.

وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اَلذِّلَّةُ وَ اَلْمَسْكَنَةُ وَ بٰآءُو بِغَضَبٍ مِنَ اَللّـهِ[۴] و هـو يكفيهم في الّدنيا و الأخرة.

الثّاني: أنّ اللّه تعالى جعل لمن قتل مظلوماً وليّاً و من لا ولي له من أولياء الدَّم فاللّه تعالى هو وليّه.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنٰا لِوَلِيِّهِ سُلْطٰانًا**[۵].

١- البقرة = ۵٠ / ۴٩
٢- البقرة = ۴٧
٣- الأعراف = ١۴٠
۴- البقرة = ۶١
۵- الإسراء = ٣٣

و لا شكّ أنّ يحيى عليه السلام قتل مظلوماً و حيث لم يكن له وليٌّ يأخذ بثاره أو كان ولم يقدر على أخذ الثّار من الملك الظّالم فقد أخذ اللّه بثاره و سلَّط على بني إسرائيل من لم يرحمهم فقتل منهم سبعين ألف أو أكثر حتّى سكن الدَّم.

إن قلت و ما ذنب النّاس فيه و القاتل لم يكن إلاّ واحداً منهم و هو الملك.

قلت لأنّهم سكتوا عن ذلك فكأنّهم كانوا راضين به و من رضي بفعل قومٍ فهو منهم.

و هذا كما أنّ اللّه أهلك قوم ثمود مع أنّ العاقر للنّاقة كان شخصاً واحداً و إذا كان قتل يحيى موجباً لهلاك بني إسرائيل و ذلّتهم في الدّنيا و عقوبتهم في الآخرة لأنّه قتل مظلوماً فما ظنّك بقاتل الحسين عليه السلام و هو إبن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و قد قتل مع جميع أصحابه و أولاده و أقرباءه من سادات الأمّة عطشاناً و أسر أهله و عياله و جاؤوا برأسه و رؤوس أولاد النبّي و أصحابه الى يزيد بن معاوية و إبن مرجانة و فعلوا بأولاد الرّسول ما فعلوا و لا شكّ أنّ الحسين عليه السلام كان أفضل و أقرب الى اللّه من يحيى بل من جميع الأنبياء سوى خاتم المرسلين و أنّي أعتقد إعتقاداً جازماً بأنّ المسلمين قد ذلّوا بقتله ولم تقم لهم قائمةٌ بعد قتل الحسين الى الآن و أمّا الآخذ بثاره فانتظروا انّي معكم من المنتظرين و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون إنّا للّه و إنّا اليه راجعون.

عَسٰى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنٰا وَ جَعَلْنٰا جَهَنَّمَ لِلْكٰافِرِينَ حَصِيرًا

في الآية دلالة على كمال لطف الرَّب بعباده و لذلك يقول اللّه تعالى مخاطباً لنبيّه بأن قل لبني إسرائيل **عَسٰى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ** إن أقمتُم على طاعته و ترك معاصيه و «عسىٰ» من اللّه واجبة و يجوز أن يكون بمعنى الإبهام على المخاطب، و قوله: **وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنٰا** معناه إن عدتم، الى معاصي اللّه و الكفر، عدنا، في عذابكم و التَّسليط عليكم كما فعلناه أوّل مرّةٍ، و عن إبن

عبّاس و قتادة أنّهم عادوا الى الكفر فبعث اللّه عليهم المسلمين يذلّونهم بالجزية و المحاربة الى يوم القيامة.

أقول هذا الّذي نقلوه عن إبن عبّاس لا دليل عليه و على فرض صحّة النّقل فهو قال ما قال بظنّه الباطل و وهمه الكاسد لا يساعده العقل و لا النّقل و ليست الآية ناظرة الى هذه الأمور فانّ اللّه تعالى لم يجعل الإسلام للإنتقام من اليهود بكفرهم و عصيانهم و انّما الآية بصدد بيان انّ الطّاعة و الإنقياد توجب السّعادة في الدّارين كما أنّ المعصية توجب الخسران فيهما.

و أمّا قوله: **وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** فالحصير السّجن قال لبيد:

و مقامه غلب الرّجال كأنّهم   جنّ لدى باب الحصير قيامُ

و قال الحسن يعني فراشاً، و الّذي يظهر أنّها أي جهنّم حاضرةٌ لهم محيطةٌ بهم من جميع جهاتهم فحصير معناه ذات حصرٍ أذ لو كان للمبالغة لزمته التّاء لجريانه على مؤنّث كما تقول رحيمة و عليمة و لكنّه على معنى النّسب كقوله السّماء منفطرٌ به أي ذات إنفطارٍ.

إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا

لمّا ذكر اللّه تعالى من إختصّه بالإسراء و هو محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و من أتاه التّوارة و هو موسى عليه السلام و ذكر أنّها أي التّوراة هدىً لبني إسرائيل و ذكر أيضاً ما قضى عليهم من تسليط الأعداء بسبب ذنوبهم ذكر في هذه الآية ما شرّف اللّه به رسوله من القرأن النّاسخ لحكم التّوراة و الإنجيل و كلّ كتاب إلهيّ و أنّه أي القرأن يهدي للتّي هي أقوم، أي للطّريقة أو الحالة التّي هي أقوم.



و قيل، التّي هي أقوم شهادة التّوحيد، و قال مقاتل هي الأوامر و النّواهي و إختلفوا في أنّ، أقوم، هل هو أفعل التّفضيل أو لا.

فقال الزّجاج أنّه أفعل التَّفضيل اذ قوم أقدر الحالات، أو أقوم ممّا عداها أو من كلّ حالٍ.

و قال بعضهم أنّه هنا لا يراد به التّفضيل اذ لا مشاركة بين الطّريقة التّي يرشد اليها القرأن و طريقة غيرها و فضّلت هذه عليها و أنّما المعنى التّي هي قيّمة أي مستقيمة كما قال تعالى و ذلك دين القيمّة، و فيها كتبٌ قيّمة أي مستقيمة الطّريقة قائمة بما يحتاج اليه من أمر الدّين.

و قال الزّمخشري، التّي هي أقوم للحالة التّي هي أقوم الحالات و أشدّها أو للملّة أو للطّريقة.

و قوله: **وَ يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** وصفٌ للقرأن أي إنّه يبشّر المؤمنين الذّين يعملون الصّالحات قيد في الإيمان الكامل اذ العمل هو كمال الإيمان و أن شئت قلت أنّ الإيمان الحقيقي لا يتحقّق بدون العمل و ليس الإيمان هو مجرّد الإعتقاد كما زعم من زعم من العامّة.

و أنّما هو عبارة عن الإعتقاد القلبي و الذّكر أعني به الإقرار اللّساني و العمَل بالأعضاء و الجوارح و قد تكلّمنا في معنى الإيمان غير مرّةٍ.

و في قوله: **أَجْرًا كَبِيرًا** إشارة الى ما يبشّر به القرأن و هو أنّ العمل الصّالح النّاشئ عن الإعتقاد السّالم عن الآفات يوجب الأجر و الثّواب يوم القيامة ففي الآية حثٌّ على التَّمسك بالقرأن و العمل به فأنّ القرأن لا يهدي إلاّ الى العمل الصّالح فكلّ عملٍ لا يوافق القرأن فهو غير صالح قال اللّه تعالى: **وَ إِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**(۱) و لا شكّ أنّ الإستماع و الإنصات بل عمل لا فائدة فيه و قال تعالى مخاطباً لنبيّه: **وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثَانِي وَ ٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ**(۲).



۱- الأعراف = ۲۰۴ ۲- الحجر = ۸۷

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

فَمٰا دَلَّکَ الْقُرآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ[۱].

و قال عليه السلام: وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ[۲].

و قال عليه السلام: وَاعْلَمُوا اَنَّ هٰذَا الْقُرآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِى لَا يَغُشُّ وَالْهَادِى الَّذِى لَا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ الَّذِى لَا يَكْذِبُ.وَمَا جَالَسَ هٰذَا الْقُرآنَ اَحَدٌ اِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ اَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِى هُدىً وَنُقْصَانٍ مِنْ عَمىً وَاعْلَمُوا اَنَّهُ لَيْسَ عَلَىَ اَحَدٍ بَعْدَ الْقُرآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرآنِ مِنْ غِنىً فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ اَدْوائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَىٰ لَأْوَائِكُمْ فَاِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ اَكْبَر الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَىُّ وَالضَّلَالُ الىٰ أخر كلامه[۳].

و قال عليه السلام: وَاِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ اَحداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ فَاِنَّهُ حَبْلُ اللّٰهِ الْمَتِينُ الخ[۴].

و قال عليه السلام: اوّه عَلَىٰ اِخْوانِى الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَاَحْكَمُوهُ[۵].

و قال عليه السلام: واللّٰهَ اللّٰهَ في الْقُرْآن لا يَسْبِقْكُمْ بالعُمَلِ بِهِ غيرُكُمْ[۶].

و قال عليه السلام: وتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ واسْتَنْصِحْهُ وأَحِلَّ حَلاٰلَهُ وحَرِّمْ حَرَامَهُ[۷].

و قال عليه السلام: يَأْتِي عَلَىَ النّٰاسِ زَمٰانٌ لاٰ يَبْقىٰ فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلاّ رَسْمُهُ[۸].

أقول و هذا الكلام الأخير و هو قوله: يَأْتِي عَلَىَ النّٰاسِ زَمٰانٌ الخ إشارة الىٰ زماننا هذا بعينه اذ لم يبق في هذا الزّمان من القرأن إلاّ رسمه و ذلك لأنّ قراءة

۱- نهج البلاغه خ ۹۰
۲- خ / ۱۰۹
۳- خ / ۱۷۶
۴- خ / ۱۷۶
۵- خ / ۱۸۱
۶- الكتاب / ۴۵
۷- الكتاب / ۶۷
۸- قصار الحكم / ۳۶۱

القرآن أختصّت بمجالس الفواتح و المقابر ومع ذلك يكون الإعتناء بكيفيّة القراءة و حسن الأصوات و الألحان فقط و أمّا العمل به فلا إعتناء به أصلاً و أمّا الإسلام فلم يبق منه إلاّ القول بالشّهادتين أعني بهما أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، و أشهد أنّ محمّداً رسول اللّه، نعوذ باللّه من سيّئات أعمالنا و شرور أنفسنا و نرجو من اللّه تعالى أن يجعل عاقبة أمرنا خيراً بحقّ محمّدٍ و آله الطّاهرين.

وَ أَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذاٰبًا أَلِيمًا

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة و ذلك لأنّ اللّه تعالى قال في الآية السّابقة: **وَ يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** الى قوله: **أَجْرًا كَبِيرًا** و الأجر الكبير لا يكون إلاّ في الأخرة موقوفٌ على الإعتقاد بها فقال في هذه الآية **وَ أَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذاٰبًا أَلِيمًا** أي مؤلماً موجعاً و فيه إشارة الى أنّ الأخرة ممّا لا شكّ فيه بحيث أنّ اللّه تعالى أعدّ لمنكرها من العذاب ما أعدّ و السّر فيه أنّ المنكر منكرٌ للبعث أعني به المعاد الجسماني الذّي لا خلاف فيه عقلاً ونقلاً.

أمّا العقل فلأنّ العدل يقتضي وجوده.

أمّا النّقل فللآيات و الأخبار الواردة فيه بحيث عدّ من الضّروريات التّي يحكم بكفر من ينكره كيف و هو من أصول الدّين عند المسلمين و سيأتي البحث فيه في أواخر الكتاب إن شاء اللّه.



وَ يَدْعُ ٱلْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ دُعٰآءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كٰانَ ٱلْإِنْسٰانُ عَجُولًا

قال إبن عبّاس و مجاهد و قتادة نزلت الآية ذامّة لما يفعله بعض النّاس من الدّعاء على أموالهم و أبناءهم في أوقات الغضب و الضّجر فيقول مثلاً اللّهم إلعنه و إغضب عليه و ما أشبه ذالک فيمنعه اللّه و لو أعطاه لشقّ عليه.

و قال قومٌ أنّه يطلب ما هو شرٌّ له لتعجيل الإنتفاع به مثل دعاءه لما هو خيرٌ له و يقوّي ذلك قوله: **وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا** و معنى قوله: **عَجُولًا** أنّه يعجّل بالدّعاء بما لا يجوز.

و عن إبن عبّاس أنّ العجلة من طبع الإنسان و ذلك لأنّ أدم عليه السلام لمّا نفخ فيه الرُّوح فبلغت الى رجليه قبل أن تجري فيهما رام النّهوض، و العجلة في الأصل طلب الشّيء قبل وقته الّذي لا يجوز تقديمه عليه أو ليس بأولى فيه و أمّا السُّرعة فهي عمل الشّيء في أوّل وقته الذّي هو أولى به، ثمّ أنّ الإنسان في الآية ليس المراد به واحداً معيّناً و المعنى في طباع الإنسان أنّه اذا ضجر و غضب دعا على نفسه و أهله و ماله بالشرّ أن يصيبه كما يدعو بالخير أن يصيبه و في ذلك إشارة الى عدم تثبّته و قلّة صبره.

و قالت فرقة هذه الآية ذمٌّ لقريش الّذين قالوا **إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً**(١).

و قالت فرقة، هي معاتبة للنّاس على أنّهم اذا نالهم الشّر و الضرّ دعوا و ألحوّا في الدّعاء و إستعجلوا الفرج مثل الدُّعاء الذّي كان يحبّ أن يدعوه في حالة الخير و على هذا فالباء في قوله: بالشّر و بالخير، بمعنى في، و المدعوّ به ليس الشّر الخير و يراد على هذا أن تكون حالتاه في الشّر و الخير متساويتين في الدّعاء و التضرُّع للّه و الرَّغبة و الذِّكر و قيل المعنى و يدع الإنسان في طلب المحرّم كما يدعو في طلب المباح هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

و في تفسير علّي بن إبراهيم ما هذا لفظه:

قال يدعو على أعداءه بالشّر كما يدعو لنفسه بالخير و يستعجل اللّه بالعذاب و هو قوله: **وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا**.

١- الانفال = ٣٢

و عن مصباح الشّريعة قال الصّادق عليه السلام: و أعرف طريق نجاتك و هلاكك كي لا تدعو اللّه بشيءٍ عسى فيه هلاكك و أنت تظنّ أنّ فيه نجاتك قال اللّه تعالىٰ: وَ يَدْعُ ٱلْإِنْسٰانُ بِالشَّرِّ الىٰ قوله: عَجُولاً.

أقول الظّاهر أنّ الآية بصدد بيان أنّ الإنسان جاهل بالمصالح و المفاسد الواقعيّة و لا يعلم إلاّ ما هو الظّاهر من الأشياء فربَّ شيءٍ يحبّه و هو شرٌّ له واقعاً لوجود المفسدة فيه واقعاً و ربَّ شيءٍ يبغضه و هو خيرٌ له واقعاً لوجود المصلحة فيه و العالم به هو اللّه تعالى و علىٰ هذا قد يطلب من اللّه شيئاً و هو لا يعلم أنّه شرٌّ له و بالعكس أيّ قد لا يطلب منه شيئاً لزعمه أنّه شرٌّ له و الحال أنّه خيرٌ له و دعاءه أيضاً على هذا المنوال و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتٰالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(١).

و لا شكّ أنّ الدُّعاء علىٰ أساس الحبّ و البغض فأنّ الإنسان يدعو على من يبغضه لا على من يحبّه كما أنّه يدعو لمن يحبّه و لا يدعو عليه و حيث أنّه جاهل بالمصلحة و المفسدة فقد يكون دعاءه بالشّر و هو خيرٌ له و قد يكون بالخير و هو شرّ له و لذلك قال تعالى: **وَ كٰانَ ٱلْإِنْسٰانُ عَجُولاً** أي عجولٌ في وصوله الى مطلوبه و محبوبه و إن كان في الواقع شرّاً له و لذلك كثيراً مّا ترى الدّاعي يندم بعد الوصول ألا ترى أنّ الإنسان عند غضبه يدعو على ولده بل على نفسه ثمّ يندم بعد ذلك بعد ما ظهر له خلاف ما علمه منه هذا ما ظهر لنا من الآية الشّريفة ففي الآية إشعار بأنّ العجلة مذمومة و لذلك قيل أنّ العجلة من الشّيطان فالأحسن التّأني في الأمور و الإجتناب عن العجلة بل ينبغي إيكال الأمر الى اللّه تعالى و اللّه أعلم بما أراد من كلامه.

و ما ذكروه في تفسير الآية أيضاً يرجع الى ما ذكرناه فتأمّل.



١- البقرة = ٢١٦

وَ جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱللَّيْلِ وَ جَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ وَ كُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا

لمّا ذكر اللّه تعالى القرأن و أنّه هادٍ الى الطّريقة المستقيمة ذكر ما أنعم به ممّا لم يكمل الإنتفاع إلاّ به في المحسوسات و ما دلَّ على توحيده من عجائب العالم العلوي و قيل لمّا ذكر عجلة الإنسان و إنتقاله من حالٍ الى حالٍ ذكر أنّ كلّ هذا العالم كذلك في الإنتقال و أنّه لا يبقى على حاله.

و الظّاهر أنّ اللّيل و النّهار في الآية مفعول أوَّل، لجعل، بمعنى صيَّر و أيتين ثاني المفعولين و هما في أنفسهما أيتان لأنّهما علامتان للنّظر و العبرة و تكون الإضافة في آية اللّيل و أية النّهار للتَّبيين كإضافة العدد الى المعدود أي فمحونا الآية التّي هي اللّيل و جعلنا الآية التّي هي النّهار مبصرة و قيل هو على حذف تقديره و جعلنا نيَّر اللّيل و النّهار أيتين أعني بهما الشّمس و القمر.

و قال بعضهم ليس، جعل، هنا بمعنى صيَّر لأنّ ذلك يقتضي حالاً تقدّم نقل الشّيء عنه الى حالةٍ أخرى.

ثمّ إنّا اذا قلنا أنّ الآيتين هما الشّمس و القمر فقيل محو القمر كونه لم يجعل له نوراً و قيل محوه طلوعه صغيراً ثمّ ينمو ثمّ ينقص حتّى يستر و قيل محوه نقصه عمّا كان خلق عليه من الإضاءة و أنّه جعل نور الشّمس سبعين جزءً و نور القمر كذلك فمحى من نور القمر حتّى صار على جزء واحدٍ و جعل ما محى منه زائداً في نور الشّمس قاله بعض مفسّري العامّة في تفسيره و نسبه الى إبن عبّاس و أنت ترى أنّ هذا الكلام لا يساعده العلم و العقل و ذلك لأنّ القمر ليس له نور في حدّ ذاته و انّما نوره من الشّمس على ما ثبت في علم الهيئة و اذا كان كذلك فمحو النُّور عنه هو إندكاكه في نور الشّمس و إضمحلاله فيه بمعنى أنّ الشّمس اذا طلعت فنور القمر مندك فيه إندكاك الجزء في الكلّ

فليس له نور مستقلاً مع وجود الشّمس لا أنّه زيد في نور الشّمس اذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **وَ جَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ** أي علامتين الدّالتين علىٰ وجود خالقهما الحكيم لمن تدبّر فيها هذا و الحقّ أنّ اللّه تعالى جعل نفس اللّيل و النّهار أيتين فمن قال من المفسّرين أنّ المراد بهما الشّمس و القمر فلابدّ له من القول بالمجاز في الآية فأنّ الشّمس و القمر سببان لوجود اللّيل و النّهار فذكر المسبّب و أراد السَّبب و لا نعني بالمجاز إلاّ هذا و أنت ترى أنّ ما ذكره هذا القائل لا دليل عليه مضافاً الى إنّ حمل الكلام على معناه الحقيقي أولى اللّهم إلاّ أن يكون هناك ما يمنع عنه و ما نحن فيه ليس كذلك.

إن قلت الكلام في كونهما آية و علامة و اللّيل و النّهار ليسا كذلك.

قلت لا فرق بين أن يكون الشّمس او و القمر آية و بين أن يكون اللّيل و النّهار أيةً و علامةً على وحدانيّته و حكمته و هو ظاهر.

و أمّا قوله: **فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱللَّيْلِ وَ جَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً** ففيه إشارة الى عدم بقاء اللّيل على حاله ويجى بعده النّهار و هو دليل على حدوثهما و كلّ حادثٍ فهو محتاج الى محدثٍ و موجدٍ فأن كان الموجد أيضاً حادثاً فهو محتاج الى موجدٍ أخر و هكذا و يتسلسل و قد ثبت بطلان التَّسلسل فلا محالة ينتهي الأمر الى موجدٍ غير حادث و هو لا يكون إلاّ قديماً لإنحصار الموجود في القديم و الحادث و اذا كان الموجد قديماً فهو المطلوب فثبت و تحقَّق أنّ الموجد القديم و هو الواجب تعالى اذ لا قديم سواه هو الجاعل في كون اللّيل أو النّهار آية فاللّيل و النّهار يدلاّن على وجود جاعلهما و لا نعني بالآية و العلامة إلاّ هذا.



و قوله: **لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ** أي لتطلبوا فضلاً منه تعالى في النّهار أو فيهما فأنّ اللّه تعالى جعل اللّيل سكناً و قراراً و هو من أحلى النِّعم على عباده و جعل النّهار للتكسُّب و تحصيل الرّزق و هو أيضاً فضلٌ منه و رحمة.

وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسابَ فيه إشارة الى ما يترتّب عليها من المنافع في تعيين عدد الشّهور و السِّنين و الحساب فأنّها تتوقّف على وجود اللّيل و النّهار فيكثر بذلك إنتفاع البشر.

وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفصيلاً أي ميَّزناه تمييزاً ظاهراً بيّناً لا يلتبس على أحد و ذلك لأنّها من المحسوسات الواضحات، و الذّي يستفاد من مجموع الآية هو أن الإنسان العاقل لو تفكَّر و تدبّر في الآثار لا يشكّ في أنّ لها مؤثّراً موجداً حكيماً خبيراً و هو المطلوب.

وَكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طآئِرَهُ في عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ كِتابًا يَلْقيٰهُ مَنْشُورًا، إِقْرَأْ كِتابَكَ كَفٰى بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيبًا

قالوا و نصب «كلّ إنسانٍ» بفعل مقدّر يفسّره الفعل المذكور و تقدير الكلام، ألزمنا كلّ إنسانٍ ألزمناه، كما قال تعالى: **وَ ٱلْقَمَرَ قَدَّرْناهُ**[١] أي قدَّرناه في قول من نصبه.

و معنى طائره قال صاحب الكشّاف أي عمله من خيرٍ أو شرّ عن إبن عبّاس و مجاهد و هو من قولك طار له سهمٌ إذا خرج يعني ألزمناه ما طار من عمله و قرأ أبوجعفر، و يخرج، بضمّ الياء و فتح الرّاء و قرأ يعقوب بفتح اليّاء و ضمّ الرّاء و الباقون بالنّون المضمومة و كسر الرّاء و عليه المصاحف و إتّفقوا على نصب، كتاباً، إلاّ الحسن فقرأ، كتابٌ، بالرّفع على أنّه فاعل، يخرج، و قرأ الجمهور، يلقاه بفتح الياء و سكون اللاّم و قرأ إبن عامر و أبو جعفر، يلقَّاه، بضمّ اليّاء و فتح اللاّم و تشديد القاف و منشوراً، بالنّصب على أنّه حال من مفعول يلقاه.

قال إبن عبّاس خاطب اللّه العرب في هذه الآية بما تعرف إذ كان من عادتها التيمُّن و التشأّم بالطّير في كونها سانحة و بارحة و كثر ذلك حتّى فعلته بالظّباء و

١- يٰس = ٣٩

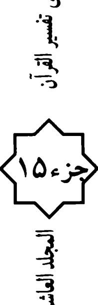
حيوان الفلاة و سمّي ذلك كلّه تطيُّراً و كانت تعتقد أنّ تلك الطِّيرة قاضية بما يلقى الإنسان من خيرٍ و شرٍّ فأخبرهم اللّه تعالى في أوجز لفظٍ و أبلغ إشارةٍ أنّ جميع ما يلقي الإنسان من خيرٍ و شرٍّ فقد سبق به القضاء و ألزم حظّه و عمله و مكسبه في عنقه فعبّر عن الحظّ و العمل بالطّائر إذ هما متلازمان قاله مجاهد و قتادة بحسب معتقد العرب في التَّطير و قولهم في الأمور على الطّائر الميمون و بأسعد طائر و منه ما طار في المحاصّة و السَّهم و منه فطار لنا من القادمين عثمان بن مظعون أي كان كذلك حظًّنا.

و عن السُّدي المراد بالطّائر كتابه الّذي يطير اليه.

و عن أبي عبيدة الطّائر عن العرب الحظّ و هو الّذي تسميّه البخت.

و عن الحسن يا بن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قدّرتها في عنقك و خصّ العنق لأنّه محلّ الزّينة و الشّين فأن كا خيراً زانه كما يزين الطَّوق و الحليّ و أن كان شرّاً كالغلّ في الرَّقبة، و قرأ مجاهد و الحسن و أبو رجاء، طيرة و قرئ في عنقه بسكون النّون و لعلّه لغة منه و كيف كان فمعنى الآية كلّ إنسانٍ ألزمناه أي قلَّدناه طائره أي صحيفة أعماله في عنقه يوم القيامة **ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ** أي يقال له إقرأ كتابك **كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** أي حسبك نفسك اليوم حاكماً عليك في عملك و ما تستحقّه من ثوابٍ على الطّاعة أو عقابٍ على المعصية و معنى حسيباً أي شاهداً و شهيداً.

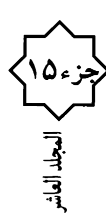
و قال الكلبي أي محاسباً يعني، فعيلاً بمعنى مفاعل كجليس و خليط بمعنى مجالس و مخالط وكيف كان فالمعنى واضح لا خفاء فيه.



و في تفسير علّي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: كُلَّ إِنْسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ يقول خيره و شرّه معه حيث كان لا يستطيع فراقه حتّى يؤتي كتابه يوم القيامة بما عمل.

و عن تفسير العياشي بأسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام و أبي عبد اللّه عليهما السلام عن قوله: كُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ قال عليه السلام: قدره الّذي قدر عليه.
و عن أبي عبد اللّه عليه السلام: في قوله: اِقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ اَلْيَوْمَ قال عليه السلام: يذكر العبد جميع ما عمل و ما كتب عليه حتّى كأنّه معه تلك السّاعة فلذلك قالوا: يا وَيْلَتَنا ما لِهٰذَا اَلْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلاّٰ أَحْصٰيها[1].

■



۱- الكهف = ۴۹

مَنِ ٱهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرٰى وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ وَ إِذٰا أَرَدْنٰا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا فِيهٰا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفٰى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَنْ كٰانَ يُرِيدُ ٱلْعٰاجِلَةَ عَجَّلْنٰا لَهُ فِيهٰا مٰا نَشٰاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلٰيهٰا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَ مَنْ أَرٰادَ ٱلْآخِرَةَ وَ سَعٰى لَهٰا سَعْيَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ وَ مٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ اُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلٰى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لاٰ تَجْعَلْ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً ﴿٢٢﴾

◀ اللّغة

وِزْرَ أُخْرٰى: بكسر الواو الإثم.
مُتْرَفِيهٰا: الترفّه التوسُّع في النعمة يقال أترف فلانٌ فهو مترف.
فَدَمَّرْنٰاهٰا: التَّدمير إدخال الهلاك على الشّئ.
ٱلْعٰاجِلَةَ: الدنيّا.

يَصْلٰيهٰا: أصل الصلي لإيقاد النّار.
مَدْحُورًا: الدّحر الطَّرد و الإبعاد.
نُمِدُّ: أصل المدّ الجرّ و منه المدّة للوقت الممتد.

◀ الإعراب

أَمَرْنٰا جواب إذا و قيل الجملة نصب نعتاً لقرية و الجواب محذوف وَ كَمْ أَهْلَكْنٰا كم، هنا خبر في موضع نصب بأهلكنا.
مَنْ كٰانَ من، مبتدأ و هى شرط و عَجَّلْنٰا جوابه، لِمَنْ نُرِيدُ هو بدل من، له، بإعادة الجار يَصْلٰيهٰا حال من جهنّم أو من الهاء في، له، و مَذْمُومًا حال من الفاعل في يصلى سَعْيَهٰا يجوز أن يكون مفعولاً به لأنّ المعنى عمل و لها من أجلها، و يجوز أن يكون مصدراً كُلًّا هو منصوب بنمدُّ و التّقدير كلّ فريق و قوله هٰٓؤُلآٰءِ وِ هٰٓؤُلآٰءِ بدل من، كلّ و مِنْ متعلّقة بنمدّ و العطاء، إسم للمعطي كَيْفَ منصوب به فَضَّلْنٰا على الحال أو الظّرف.

◀ التّفسير

مَنِ اهْتَدٰى فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا

التّاء في قوله: اهْتَدٰى تاءالقبول أي من قبل الهداية من اللّه و رسوله فأنّما يهتدي لنفسه أي نفع الإهتداء و يرجع اليه في الدّنيا و الآخرة كما أنّ من ضلّ و إنحرف عن طريق الحقّ فأنّما و بال ضلالته يرجع عليه أي على ضرره و فيه إشارة الى أنّ الإنسان مختار في قبول الهداية و عدمه في دار الدنيّا خلافاً للأشاعرة القائلين بالجبر حيث ذهبوا الى أنّ الإنسان لا إختيار له و أنّه مضطرٌّ فيه لأنّ الإهتداء و عدمه مسبوقان بالقضاء و القدر فأن قضي بالإهتداء يهتدي و إلاّ فلا و قد مرّ منّا مراراً في خلال الأبحاث و تفسير الآيات بطلان هذا المسلك عقلاً و شرعاً و هذه الآية صريحة في المدّعى فأنّ الهداية لو كانت

مسبوقة بالقضاء الالهي و كان الإنسان مسلوب الإختيار في قبولها و عدم قبولها، فلامعنى لقوله تعالىٰ: **مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** و ذلك لأنّ الإهتداء قبول الهداية و القبول و عدمه موقوفٌ على الإختيار عقلاً و أمّا المجبور و المضطرّ فلا يعقل في حقّه القبول فأنّ الأمور الإضطرارية الخارجة عن الإختيار لا معنى للقبول فيها فانّها واقعة قهراً شاء أو لم يشاء و لذلك قال الكعبي الآية دالّة على أنّ العبد متمكّنٌ من الخير و الشرّ و أنّه غير مجبورٍ على عملٍ بعينه أصلاً لأنّ قوله: **مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** يليق بالقادر على الفعل المتمكّن منه كيف شاء و أراد و أمّا المجبور على أحد الطّرفين الممنوع من الطَّرف الآخر فهذا لا يليق به إنتهى.

و يدلّك على ما ذكرناه من ثبوت الإختيار في الهداية و عدمه قوله: **لِنَفْسِهِ** في الإهتداء، و، عليها، في عدمه و ذلك لأنّ اللاّم في قوله: **لِنَفْسِهِ** لجرّ النَّفع كما أنّ، على، للضَّرر ألا ترى أنّ العرب تقول، هذا لك و هذا عليك ثمّ أنّ في الكلام إشارة الى أنّ نفع الهداية يرجع اليه كما أنّ ضرر الكفر أيضاً يرجع عليه و يمكن أن يستدلّ عليه بوجهين عقليّين:

أحدهما: أنّ أثر الفعل من النّفع و الضرّ يرجع الى فاعل الفعل لا الى غيره عقلاً بل حسّاً و لذلك إتّفق العقلاء على أنّ كلّ إنسانٍ مسئول عن فعله إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً، و هذا لا يحتاج الى بيان لأنّه من الواضحات.

الثّاني: أنّ اللّه تعالى هو الّذي أمر عباده بالإيمان و هو غنيّ عن جميع ما سواه فلو فرضنا أنّ نفع الإيمان راجع اليه تعالى يلزم منه إحتياجه اليه و هو ينافي غناه فأنّ الإحتياج هو الفقر و الفقر نقصٌ في الموجود و لذلك نقول أنّ الفقر من شئون الممكن و الخالق منزّهٌ عنه فثبت و تحقّق أنّ اللّه تعالى لا يحتاج الى إيمان العبد و ما يترتّب عليه من الآثار و اذا كان كذلك فلامحالة نفع الإيمان يرجع الى المؤمن العامل به و هو المطلوب.

و بعبارةٍ أخرى أنّ نفع الإيمان إمّا يعود الى غير المؤمن من أحاد الإنسان أو يعود الى نفسه، أو الى اللّه الأمر به لا سبيل الى الأوّل عقلاً لأنّه مخالف لبديهة العقل و الحسّ و لا سبيل الى الثّالث لما ذكرناه من الفقر و الإحتياج في حقّ اللّه تعالى و قلنا أنّه محال، فالعود الى نفس المؤمن هو الحقّ و كأنّه الى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ لٰا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ** أي لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، و الوزر بكسر **الواو** الإثم و قيل معناه لا يجوز لأحد أن يعمل الإثم لأنّ غيره عمله و الأوّل أقوى، ففي هذا الكلام بعد قوله: **مَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا يَضِلُّ عَلَيْهٰا** إشارة الىٰ ما ذكرناه

قال بعض المفسّرين أنّ هذه الآية دلّت على أنّ الوزر و الإثم ليس من فعل اللّه و بيانه من وجهين:

أحدهما: أنّه لو كان كذلك لإمتنع أن يؤخذ العبد به كما لا يؤاخذه بوزر غيره.

ثانيهما: أنّه كان يجب إرتفاع الوزر أصلاً لأنّ الوزر أنّما يصحّ أن يوصف بذلك اذ كان مختاراً يمكنه التّحرّز عنه و لهذا المعنى لا يوصف الصبيّ بهذا إنتهى.

أقول و يظهر من الآية كذب ما روى إبن عمر عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ الميّت ليعذّب ببكاء أهله و ذلك لأنّ تعذيب الميّت ببكاء أهله عليه يوجب حمله لوزر الغير و هو خلاف مفاد الآية و لذلك أنكرت عائشة ذلك الحديث و من هذا القبيل قولهم أنّ أطفال الكفّار يعذّبون مع أباءهم في النّار.

و أمّا قوله: **وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً** و هو أيضاً ممّا يحكم به العقل و الشّرع.

أمّا العقل فلأنّه يحكم بقبح عقاب بلا بيان و الرّسول هو المبيّن للإحكام فلو عذّب اللّه العباد قبل بيان الحكم بواسطة الرّسول لزم منه الظّلم و هو تعالى

منّزه عنه و أنّما قلنا أنّه مستلزم للظُّلم لأنّ الظُّلم عبارة عن وضع الشّئَ في غير محلّه كما أنّ العدل وضعه في محلّه و من المعلوم أنّ العقاب قبل البيان من أظهر مصاديق وضع الشّئَ في غير محلّه.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية فنقول في الآية قولان:

الأوّل: أن تجري الآية على ظاهرها و نقول العقل هو رسول اللّه ﷺ الى الخلق بل هو الرّسول الّذي لولاه لما تقررّت رسالة أحد من الأنبياء فالعقل هو الرّسول الأصلي فكان معنى الآية و ما كنّا معذّبين حتّى نبعَث رسول العقل.

الثّاني: أن نخصّص عموم الآية فنقول المراد و ما كنّا معذّبين في الأعمال التّي لا سبيل الى معرفة وجوبها إلاّ بالشّرع و تخصيص العموم و أن كان عدولاً عن الظّاهر إلاّ أنّه يجب المصير اليه عند قيام الدّلائل و قد بيَّنا قيام الدّلائل الثّلاثة على أنّا لو نفينا الوجوب العقلي لزمنا نفي الوجوب الشّرعي و اللّه أعلَم

ثمّ قال و إعلم أنّ الذّي نرتضيه و نذهب اليه أنّ مجرّد العقل سبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به و ترك ما يتضرّر به أمّا مجرّد العقل لا يدلّ على أنّه يجب على اللّه تعالى شئ و ذلك لأنّا مجبولون على طلب النّفع و الإحتراز عن الضّرر فلا جرم كان العقل وحده كافياً في الوجوب في حقّنا و اللّه تعالى منّزهٌ عن طلب النّفع و الهرب من الضّرر فامتنع أن يحكم العقل عليه بوجوب فعلٍ أو ترك فعل و اللّه أعلم انتهى كلامه.

أقول أمّا ما ذكره أوّلاً من حمل الرّسول في الآية على العقل فهو كما ترى لا يساعده العقل و لا النَّقل.

أمّا العقل فلأنّ الرَّسول يقال لمن أرسله اللّه الى الخلق ليبيّن لهم أحكام دينه و لا يصدق هذا على العقل فقط نعم هو شرط لصحّة تعلّق التّكليف و معرفة الرَّسول و هذا ممّا لا كلام فيه.

أمّا النَّقل فلأنّ الرّسول في الآيات و الأخبار و العرف عبارةٌ عن إنسانٍ خاصّ أرسله اللّه الى خلقه بالبيّنات من المعجزات و الكرامات و لا يطلق هذا على

العقل فقط فقوله في الآية و ما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسول العقل لا معنى له هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول لو كان المراد بالرّسول في الآية هو العقل فلا محالة يترتّب العذاب على ترك حكمه ولو في صورة عدم الرَّسول و هذا باطل فأنّ تارك الصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها من الأحكام و هكذا فاعل المعصية من الزّناء و شرب الخمر ذلك يشمله العذاب بعد وجود الرّسول و بيانه الأحكام له.

و أمّا في صورة عدم وجوده فلا يشمله العذاب قطعاً مع أنّه عاقل على الفرض و الحاصل أنّ مجرّد حكم العقل بوجوب شئ أو حرمة شئ لا يكفي في إستحقاق العذاب على تركه ما لم يكن فيه بيان من الشّارع فأنّ العقول فينا ناقصة مشوبة بالأوهام و الخيالات و الظّنون الفاسدة الكاسدة فليس كلّما حكم به هذا العقل حكم به الشّرع ألا ترى أنّ عقولنا قاصرة عن فلسفة أكثر الأحكام و لا سيّما التَّعبديّات منها فقولهم كلّما حكم به الشَّرع حكم به العقل و بالعكس أنّما هو بالنّسبة الى العقول الكاملة على فرض صحّة القاعدة لا كلّ ما يسمّىٰ بالعقل عند العرف و هو ظاهر و حاصل الكلام هو أنّ المراد بالرَّسول في الآية ليس العقل فقط.

و أمّا ما ذكره في الوجه الثّاني من تخصيص الآية بالأعمال التّي لا سبيل الىٰ معرفة وجوبها إلاّ بالشّرع و ففيه أنّ التَّخصيص بعد ثبوت العموم و أمّا قبله فلا معنى له و ليس في الآية عموم حتّى نحتاج الى تخصيصه و ذلك لأنّ الآية الشّريفة بصدد بيان قبح العقاب بلا بيان من قبل الشّارع و هو مختصّ بالأحكام الشّرعية التّي أتى بها الرّسول و لذلك رتَّب العذاب عليه و بالجملة لا عقاب إلاّ بعد بيان الحكم بواسطة الرَّسول و هذا لا يكون إلاّ في الأحكام الشرعيّة فحسب فلا تخصيص هناك بل الحكم مخصوصٌ بها من أوّل الأمر هذا ما خطر ببالي في فهم الآية و اللّه أعلم.

و أمّا أنّ شكر المنعم من الواجبات العقليّة أو الشرعيّة السَّمعية فلا كلام لنا فيه فعلاً.

وَ إِذَآ أَرَدْنَآ أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا

قرأ يعقوب، آمرنا، بمدّ الهَمَزة وعن الحسن، أمَّرنا، بالتّشديد و سيأتي الكلام في وجهه، و في الآية مباحث:

الأوّل: قوله **وَ إِذَآ أَرَدْنَآ** الإرادة في الأصل قوّة مركبة من شهوةٍ و حاجةٍ و أملٍ و جعل إسماً لنزوع النَّفس الى الشّيئ مع الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل ثمّ يستعمل مرّةً في المبدأ و هو نزوع الى الشّيئ و تارةً في المنتهى و هو الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل اذا عرفت هذا فنقول:

أنّ الإرادة اذا أستعملت في اللّه فأنّه يراد بها المنتهى دون المبدأ فأنّه يتعالى عن معنى النُّزوع فمتى قيل أراد اللّه كذا فمعناه حكم فيه أنّه كذا و ليس بكذا و الى هذا المعنى أشار اللّه بقوله:

إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً(١).

و قد تذكر الإرادة و يراد بها معنى الأمر كقولك أريد منك كذا أي أمرك بكذا.

قال اللّه تعالىٰ: **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ**(٢).

و قد يذكر و يراد بها القصد نحو قوله تعالى:

لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ(٣).

و حيث أنّ الإرادة قد تكون بحسب القوّة التّسخيرية و الحسيّة كما تكون بحسب القوّة الإختياريّة فتستعمل في الجماد أيضاً و هكذا في الحيوان:

١- الأحزاب = ١٧
٢- البقرة = ١٨٥
٣- القصص = ٨٣

قال اللّه تعالىٰ: **جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ**[١].

و يقال فرسي تريد التين و حمارى يريد أن يشرب الماء، فقوله تعالى إذا أردنا، أي إذا حكمنا أو قصدنا أن نهلك قريةً و إسناد الهلاك الى القرية مجازٌ أي نهلك أهل قريةٍ قال اللّه تعالى: **وَسْئَلِ اَلْقَرْيَةَ** أي أهلها.

و قال الزّمخشري في قوله إذا أردنا، أي و إذا دنا وقت إهلاك قومٍ و لم يبق من زمان إمهالهم إلاّ قليلٌ.

قال بعض المفسّرين فأن قيل أيُّ معنى لتّقدم الإرادة فأن كانت متعلّقة بإهلاك من يستحقّ بغير الفسق المذكور في الآية فلا معنى لقوله: **إِذٰآ أَرَدْنٰآ أَمَرْنٰا** لأنّ أمره بما يأمر به لا يحسن إرادته للعقاب المستّحقِ بما تقدّم من الأفعال، و إن كانت الإرادة متعلّقة بالإهلاك المستّحق بمخالفة الأمر المذكور في الآية فهو الذّي تأبونه لأنّه يقتضي أنّه تعالى مريدٌ لإهلاك من لم يستحقّ العقاب.

ثمّ أجاب عن الإشكال بقوله أنّ الإرادة لم تتعلّق إلاّ بالإهلاك المستحقّ بما تقدّم من الذّنوب و أنّما حسن قوله: **إِذٰآ أَرَدْنٰآ أَمَرْنٰا** انّ في تكرار الأمر بالطّاعة بالإيمان إعذاراً للعصاة و إنذاراً لهم و إيجاباً للحجّة عليهم و يقوّي ذلك قوله قبل هذه الآية، **وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً** منبّهاً بذلك أنّه أراد إثبات الحجّة و تكرّرها عليهم انتهى كلامه و هو متينٌ.

الثّانى: قوله **أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا فِيهٰا** الظّاهر أنّ هذا الأمر تشريعيّ لا تكوينّي و ذلك لأنّ العذاب معلولٌ للفسق الّذي هو عبارة عن المعصية و هى لا تكون إلاّ بتَرك الواجب أو فعل الحرام و لا نَعني بالتّشريع إلاّ هذا، ثمّ أنّ قراءة الجمهور، **أَمَرنا** بالتّخفيف و فى هذه القراءة قولان:

١- الكَهف = ٧٧

أحدهما: و هو الظّاهر أنّه من الأمر الّذى هو ضدّ النّهي و إختلفوا في متعلّق الأمر فذهب الأكثرون منهم إبن عبّاس و إبن جبير الى أنّ التّقدير أمرناهم بالطّاعة فعصوا و فسقوا، فإستحقّوا العقاب بذلك و عليه يكون الكلام على التّقديم و التّأخير و تقديره اذا أمرنا مترفي قريةٍ بالطّاعة فعصوا و إستحقّوا العقاب أردنا إهلاكهم و يشهد بهذا التّأويل:

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذاٰ قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلٰوةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**[١].

و من المعلوم أنّ الطّهارة تجب قبل القيام الى الصّلاة لا بعده:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذاٰ كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلٰوةَ فَلْتَقُمْ طآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ**[٢].

و قيام الطّائفة يجب أن يكون قبل إقامة الصّلاة لأنّ إقامتها هي الإتيان بجميعها على الكمال.

ثانيهما: ما ذهب اليه صاحب الكشّاف و هو أنّ الأمر تعلّق بالفسق أي أمرناهم بالفسق ففعلوا و الأمر مجاز لأنّ حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا و هذا لا يكون فبقي أن يكون مجازاً و وجه المجاز أنّه تعالى صبَّ عليهم النّعمة صبّاً فجعلوها ذريعة الى المعاصي و إتّباع الشّهوات فكأنّهم مأمورون بذلك لتسبّب إيلاء النّعمة فيه و أنّما خوَّلهم إيّاها ليشكروا و يعملوا فيها الخير و يتمكّنوا من الإحسان والبرّ كما خلقهم أصحّاء أقوياء و أقدرهم على الخير و الشرّ و طلب منهم إيثار الطّاعة على المعصية فآثروا الفسوق فلمّا فسقوا حقّ عليهم القول و هو كلمة العذاب فدَّمرهم.

فأن قلت: هلّا زعمت أنّ معناه أمرناهم بالطّاعة ففسقوا.



١- المائدة = ٦ ٢- النّساء = ١٠٢

قلت لأنّ حذف ما لا دليل عليه غير جائزٍ فكيف يحذف ما الدّليل قائم على نقيضه و ذلك أنّ المأمور به أنّما حذف لأنّ «فسقوا» يدلّ عليه و هو كلامٌ مستفيضٌ انتهى موضع الحاجة منه.

و هو أي صاحب الكشّاف قد أصرَّ على إثبات ما ذهب اليه من أنّ الأمر تعلّق بالفسق مجازاً و إن أردت الإطّلاع على تفصيل كلامه فعليك بمراجعة الكشّاف.

أقول و فى المقام قول ثالث وقفت عليه و هو أن يكون ذكر الإرادة في الآية مجازاً و إتساعاً و تنبيهاً على المعلوم من حال القوم و عاقبة أمرهم و أنّهم متى أمروا فسقوا و خالفوا و جرى ذلك مجرى قولهم اذا أراد التّاجر أن يفتقر أتته النّوائب من كلّ وجهٍ و جاء الخسران من كلّ طريقٍ و اذا أراد العليل أن يموت خلط في مأكله و معلوم أنّ أحداً ممّن ذكرناه لم يرد ذلك لكن لمّا كان المعلوم من حال هذا الخسران و من حال ذاك الهلاك حسن هذا الكلام و كان أفصح و أبلغ لما فيه من الإستعارة و المجاز الّذي لا يكون الكلام بليغاً من دونهما و يكون تلخيص الكلام.

اذا أردنا إهلاك قرية كقوله: **جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ**(۱) و من المعلوم أنّ الجدار لا إرادة له و أنّما أثبتت له مجازاً هذا ما قالوه في متعلّق الأمر و الحقّ أنّ المحذوف هو الطّاعة لا الفسق كما زعم الزّمخشري لأنّ اللّه تعالى لا يأمر بالفسق لا حقيقةً و لا مجازاً و الآية لا تحتاج الى هذه التّأويلات الباردة و التّوجيهات العليلة الرّكيكة فما قدّروه فيها و هو الطّاعة حقٌّ لا ريب فيه.



ألا ترى أنّ قول القائل أمرته فعصاني يدلّ على أنّ المأمور به شيءٌ غير المعصية لأنّها عبارة عن الإتيان بضدّ المأمور به فكونه فسقاً و معصيةً ينافي كونه مأموراً به و هو في غاية الظّهور فالمعنى أمرناهم بالأعمال الصّالحة و هى

۱- الكهف = ۷۷

الإيمان و الطّاعة و القوم خالفوا ذلك عناداً و أقدموا على الفسق و أن شئت قلت المأمور به هو الشّكر على النّعمة و القوم كفروا بها بدل الشّكر هذا كلّه على قراءة التّخفيف في أمرنا، كما عليه الجمهور.

و أمّا على قراءة التّشديد فالمعنى جعلنا المترفين على القرية أي على أهلها أميراً ففسقوا كما هو شأن المترف فوقعوا فيما وقعوا.

و قال قومٌ أنّ معنى أمّرنا، كثّرنا أي كثَّرنا مترفيها يقال أمَّر اللّه القوم أي كثَّرهم و إستدلّوا بما جاء في الحديث خير المال سكّة مأبورة و مهرة مأمورة، أي كثيرة النَّسل يقال أمر اللّه المهرة أي كثر ولدها و لا فرق في هذا المعنى بين التّشديد و التّخفيف.

و أمّا قوله تعالى: **فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنٰاهٰا تَدْمِيرًا** فالتَّدمير الإهلاك مع طمس الأثر و هدم البناء والهاء في قوله: **فَدَمَّرْنٰاهٰا** راجعة الى القرية و المقصود أهلها أي دمَّرناها و أهلكنا أهل القرية فلم يبق منهم عينٌ و لا أثرٌ.

و قوله: **فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ** الفاء للتّفريع و الحقّ هو الإستحقاق أي أنّهم بسبب العصيان صاروا مستحقّين للعذاب فوقعوا فيه و فى الآية إيماء الى أنّ سبب العذاب هو المعصية فاذا وجد السَّبب وجد المسبّب و أنّ الدنيّا هي دار الأسباب و قد أبى اللّه أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، و حيث أنّ إيجاد السَّبب و هو الفسق و العصيان بيد العبد فكأنّه أوقع نفسه في الهلاك و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد، و أنّما خصّ المترفون بذكر الأمر لأنّهم الرُّؤوساء الذّين من عداهم تبعٌ لهم كما أمر فرعون و من عداه من القبط تبعٌ له و من حمله على أنّ المراد به أكثر، قال لأنّ الأمر بالطّاعة ليس بمقصورٍ على المترفين بل هو عامٌّ لجميعهم فلذلك شدَّد الميم أو مدَّ الهَمَزة.

قال بعض المفّسرين و أنّما قال ففسقوا فيها، و لم يقل فكفروا، لأنّ المراد فتمرّدوا في كفرهم لأنّ الفسوق في الكفر الخروج الى أفحشه فكأنّه قال ففسقوا بالخروج عن الأمر الى الكفر انتهى.



وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيراً

كم، في موضع نصبٍ على المفعول بأهلكنا أي كثيراً من القرون أهلكنا و ذلك لأنّه يفيد التّكثير كما أنّ (ربَّ) يفيد التّعليل و القرون جمع قرن، و القرن على ما قيل مائة سنة و قيل مائة و عشرون سنة و قيل هو أربعون.

و قوله: **مِنَ ٱلْقُرُونِ** هو بيانٌ لكم، و تمييزٌ له قيل و القرون قوم عاد و ثمود و أنّما قال من بعد نوح و لم يقل من بعد أدم لأنّ نوحاً أوّل نبيّ بالغ قومه في تكذيبه و قومه أوّل من حلَّت بهم العقوبة العظمى و هى الإستئصال بالطُّوفان، و الباء في قوله: **بِرَبِّكَ** أنّما تجئ في الأغلب في مدحٍ او ذمٍّ و فى قوله: **بِذُنُوبِ** عباده، للسَّببية و فيه تنبيهٌ على أنّ الذّنوب هي أسباب الهلكة في الدنيّا و الآخرة.

و قوله: **خَبِيرًا بَصِيراً** أي أنّه تعالى عالمٌ بأخبار أعمالكم و قيل أي عالمٌ ببواطن أموركم، و قيل **خَبِيراً** بمعنى مخبر، أي أنّه يخبركم من أحوالكم الّتي كنتم عليها في دار الدنيّا.

و أمّا البصير فمعناه أنّه تعالى عالمٌ بالمبصرات و محصّل الكلام أنّه لا يخفى عليه شيئ.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا

العاجلة الدنيّا و المعنى من كان يريد الدنيّا و زخارفها عجَّلنا له فيها أي في الدنيّا القدر الذّي نريده لمن نريد لا على قدر ما يريدون لأنّ ما يريدونه ربما كانت فيه مفسدة لا يجوز إعطاؤهم إيّاها ثمّ بيَّن أنّه اذا أعطاهم ما طلبوه عاجلاً جعل لهم جهنّم جزاء على معاصيهم وكفرهم يصلونها مذمومين مدحورين أي متباعدين من رحمة اللّه يقال دحرته دحراً أي باعدته هكذا قيل في تفسير الآية.

و قال بعضهم أنّها نزلت في المنافقين الذّين يريدون الدنيّا بعمل الآخـرة و هكذا المرائي و المهاجر للدنيّا و المجاهد للغنيمة و أمثال ذلك.

و قد روي عنه عليه السلام: أنّه قال: من طلب الدنيّا بعمل الأخرة فما له في الأخرة من نصيب.

و قال عليه السلام: من كانت هجرته الى دنـيا يـصيبها أو إمـرأة يـنكحها فهجرته الى ما هاجر اليه رواه البخاري في كتابه.

و روي عن إبن عبّاس عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: معنى الآية من كان يريد ثواب الدنيّا بعمله الذّي إفترضه اللّه عليه لا يريد وجه اللّه و الدّار الأخرة عجَّل له فيها ما يشاء اللّه من عرض الدنيّا وليس له ثواب في الأخرة و ذلك أنّ اللّه سبحانه يؤتيه ذلك ليستعين به على الطّاعة فيستعمله في معصية اللّه فيعاقبه اللّه عليه.

و قيل أنّها نزلت في المنافقين الذّين كانوا يغزون مع المسلمين للغنيمة لا للثّواب، و كلمة مَن شرط و جوابه عجَّلنا له فيها ما نشاء، فقيّد المعجّل بمشيئته أي ما يشاء تعجيله و لمن نريد، بدلٌ من قوله: **لَهُ** بدل بعضٍ من كلّ، لأنّ الضّمير في، له، عائد على من الشرطيّة و هى في معنى الجمع ولكن جاءت الضّمائر هنا على اللّفظ لا على المعنى فقيّد المعجّل بإرادته فليس من يريد العاجلة يحصل له ما يريده.

ألا ترى أنّ كثيراً من النّاس يختارون الدنيّا و لا تحصيل لهم فيها إلاّ ما قسَّمه اللّه لهم و كثيراً منهم يتمنُّون النّزر اليسير فلا تحصيل لهم و يجمع لهم شقاوة الدنيّا و شقاوة الأخرة.

و قوله: **ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلٰيهٰا مَذْمُومًا مَدْحُورًا** قيل جعلنا هنا بمعنى صيَّرنا و المفعول الأوّل جهنّم و الثّاني له، «ويصلاها» حالٌ من جهنّم و قوله: **مَذْمُومًا** إشارة الى الإهانة «ومدحوراً» إشارة الى البعد و الطَّرد من رحمة

اللّه و حاصل المعنى أنّ من كان يريد العاجلة و هى الدنيّا نؤتيه ما نشاء لا ما يشاء ولكن مصيره الى النّار مذموماً مدحوراً.

هكذا فسّروا الآية ولم يكشفوا القناع و الإبهام عنها إمّا لعدم التوجّه و التدبّر فيها و إمّا لعدم القدرة على رفع الإبهام، و ذلك لأنّ مجرّد إرادة الدنيّا من الأعمال كيف يوجب الدّخول في النّار مذموماً مدحوراً نعم هذا يصحّ اذا كان المريد منكراً للآخرة و البعث لأنّ إنكار الآخرة يرجع الى إنكار النبوّة و الشريعة و هو يرجع الى إنكار اللّه تعالى و من كان كذلك فهو كافرٌ باللّه تعالى فلا محالة يكون مصيره الى النّار و هذا ممّا لا كلام فيه.

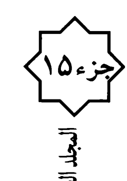
و أمّا اذا كان المريد مسلماً مؤمناً باللّه و رسوله معتقداً بالآخرة و مع ذلك كان في عمله مريداً للدنيّا إمّا للغفلة و أمّا لضعف إيمانه كما هو شأن كثيرٍ من الموحّدين المؤمنين فكيف يكون مصيره الى النّار مذموماً مدحوراً فأن كان الأمر على هذا المنوال فمصير أكثرنا الى النّار لأنّ العامل للآخرة قليل جدّاً و هو كما ترى فالحقّ تقييد الآية بالكافر المنافق المنكر للآخرة فأنّ مصيره الى النّار قطعاً لكفره و نفاقه و إنكاره القيامة و عليه فالآية بصدد بيان نكتةٍ دقيقة و هى أنّ اللّه لا يضيع عمل عاملٍ أصلاً و لو كان كافراً و يدلّ عليه قوله تعالى:

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْاٰخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ[1].

و هذا معنى قولهم أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ كانَ يُرِيدُ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ، أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْاٰخِرَةِ إِلَّا ٱلنّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**[2].

فالآية الأولى و هى قوله: من كان يريد حرث الآخرة مطلقة تشمل الكافر و



۱- الشّورىٰ = ۲۰ ۲- هُود = ۱۵ و ۱۶

المسلم إلاّ أنّ المسلم الّذي يريد الآخرة يزيد اللّه في ثوابه و الكافر الّذي لا يريد الآخرة لا يزيد في ثوابه و أمّا أنّه تعالى لا يؤجره لكفره فليس كذلك لقوله نوفّ اليهم أعمالهم فيها أي في الدنيّا و هم لا يبخسون و هذا مقتضى العدل و محصّل الكلام هو أنّ قوله: **ثُمَّ جَعَلْنٰا لَهُ جَهَنَّمَ** ألخ ليس لأجل أنّه أراد الدنيّا من عمله، بل لأجل كفره و نفاقه دخل النّار هذا و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

وَ مَنْ أَرٰادَ اَلْآخِرَةَ وَ سَعىٰ لَهٰا سَعْيَهٰا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا

أي و من أراد ثواب الآخرة في عمله بأن يؤثر الآخرة على الدنيّا و يعقد إرادته بها و سعى فيما كلّف من الأعمال و الأقوال سعيها بقدر الإمكان و هو مؤمن، **الواو** للحال أي حال كونه مؤمناً و هو أي الإيمان من أعظم الشّرائط في الباب فلا تنفع في الآخرة إرادة و لا سعى إلاّ بحصوله و فى الحقيقة هو النّاشئ عنه إرادة الآخرة فأنّ غير المؤمن لا يريدها فحصول الثّواب و النّجاة من العذاب فيها موقوفٌ عليه قيل من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله، إيمانٌ ثابت، و نيّة صادقة، و عملٌ مصيب.

فقوله: **فَأُولٰئِكَ** إشارة الى من إتّصف بهذه الأوصاف و قوله: **كٰانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** أي تكون طاعاتهم مقبولة عند اللّه تعالى.

و قيل معناه، شكر اللّه حسناتهم و تجاوز عن سيئاتهم، و اللّه تعالى هو المشكور على ما أعطى من العقل و إنزال الكتب و إرسال الرُّسل و إيضاح الدّلائل فهو المستحقّ للشّكر حقيقةً.

كُلًّا نُمِدُّ هٰؤُلاٰءِ وَ هٰؤُلاٰءِ مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ وَ مٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا

الإمداد المواصلة بالشّئ و المعنى كلّ واحدٍ من الفريقين نمدّه، كذا قدّره الزّمخشري.

و قال بعضهم الإمداد في الآية هو إيصال الرزق في الدنيّا أي أنّ اللّه يرزق في الدنيّا مريدي العاجلة الكافرين و مريدي الآخرة المؤمنين و يمدّ الجميع بالرّزق و إنّما يقع التّفاوت في الآخرة و يدلّ على هذا التّأويل قوله: **وَ مٰا كٰانَ عَطٰآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** أي أنّ رزقه لا يضيق عن مؤمنٍ و لا كافرٍ.

و عن إبن عبّاس أنّ معنى، من عطاء ربّك، من الطّاعات لمريد الآخرة و المعاصي لمريد العاجلة فيكون العطاء عبارة عمّا قسّم اللّه للعبد من خيرٍ أو شّرٍ.

و قال بعض المفسّرين، المعنى إنّا نعطي البرّ و الفاجر و المؤمن و الكافر في الدنيّا و أمّا الآخرة فليست إلاّ للمتّقين خاصّةً، و ما كان عطاء ربّك محظوراً أي ممنوعاً ففي الآية دلالة على خسّة الدنيّا و دنائتها و شرف الآخرة و فضيلتها جعل اللّه تعالى الدنيّا و زخارفها للكافر و المؤمن بل حظّ الكافر منها في أكثر الموارد أكثر و أوفر من حظّ المؤمن و أمّا الآخرة فليس للكافر منها نصيب فينبغي أن لا يكون المتنعّم في الدّنيا مغروراً بنعمها و زخارفها و السرّ فيه هو أنّ اللّه تعالى هو الجواد بقولٍ مطلق و فسّروا الجواد بأنّه المعطي بغير غرضٍ و لا عوض.

قال إبن سيناء أتدري ما الجود الجود إفادة ما ينبغي لا لعوضٍ و لا لغرضٍ، و مقتضىٰ ذلك هو أن يعطى البرّ و الفاجر و الكافر و المؤمن كما هو مقتضى الجود.

جزء ١٥

اُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلٰى بَعْضٍ وَ لَلْاٰخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا

الخطاب للرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و المراد به أمّته معه و الظّاهر أنّ المراد بالنّظر النّظر بالبصر لأنّ التّفاوت المشار اليه بالآية في الدنيّا مشاهدٌ بحاسّة البصر و على هذا، كيف، في موضع نصب بعد حذف حرف الجرّ لأنّ نظر، يتعدّى به

فانظر هنا معلّقة و لمّا كان النَّظر مفيضاً و سبباً الى العلم جاز أن يعلّق و يجوز أن يكون، أنظر من نظر الفكر فلا كلام في تعليقه إذ هو فعلٌ قلبيّ و التَّفضيل على ما قيل عبارة عن الطّاعات المؤدّية الى الجنَّة و المفضَّل عليهم الكفّار كأنّه قيل أنظر في تفضيل فريقٍ على فريقٍ و أمّا على التّأويل الأوّل كأنّه قيل في تفضيل شخصٍ على شخصٍ من المؤمنين و الكافرين والمفضول في قوله أكبر درجات و أكبر تفضيلاً محذوف و تقديره من درجات الدنيا و من تفضيل الدنيا.

و قال بعض المفسّرين في معنى الآية، أنظر كيف جعلنا بعض النّاس في الدّنيا أغنياء و بعضهم فقراء و بعضهم موالي و بعضهم عبيداً و بعضهم أصحّاء و بعضهم مرضى بحسب ما علمنا من مصالحهم ثمّ قال: **وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا** لأنّهم معطون على مقدار طاعتهم فمن كان كثير الطّاعة جعلنا له الدَّرجات العالية من الثّواب و إنّما أراد أن يبيّن أنّ التَّفاضُل في الدّنيا إذا كان يتنافس عليه فالتَّفاضل في الجنَّة أولى بأن يرغب فيه، هذا ما قيل في تفسير الآية.

أقول لا يبعد أن يكون المراد بالتّفاضل في الآية هو التّفاضل في كلّ فريقٍ في الدّنيا و الآخرة و عليه فالمعنى أنظر كيف فضلّنا بعض الكفّار على بعضهم في الدُّنيا و بعض المؤمنين على بعضهم أيضاً كذلك بمعنى أنّا قبضنا النّعمة عن كافرٍ و أوصلناها الى كافرٍ أخر و هكذا قبضنا النّعمة عن مؤمنٍ و أوصلناها الى مؤمنٍ أخر و بذلك فضّلنا بعض الكفّار على بعضهم و بعض المؤمنين على بعضهم في دار الدُّنيا من حيث المال و الأولاد و سائر النّعم و اذا كان التّفاوت و التّفاضل ثابتاً في دار الدُّنيا فهو ثابت في الآخرة أيضاً على نحو الأتمّ و الأكمل إلاّ أنّ التّفاوت في الدّنيا بحسب المصالح و فى الآخرة بحسب الطّاعة و العبوديّة و على ما ذكرناه في تفسير الآية فالكفّار في الآخرة أيضاً متفاوتون من حيث العذاب و هو كذلك عقلاً و شرعاً.

إن قلت علمنا وجه التّفاضل و التّفاوت في الآخرة لأنّه مسبّب عن العمل في دار الدّنيا فكلّ من كان اكثر عملا فى الدّنيا كان أكثر درجةً في الآخرة و بالعكس و لا فرق فيه بين الكافر و المؤمن فانّ الكفّار أيضاً متفاوتون في كفرهم و أعمالهم في الدّنيا فلا جرم يكونون متفاوتين من حيث العذاب يوم القيامة و هذا ممّا لا كلام فيه فأنّ الثّواب و العقاب مسبّبان عن الأعمال في دار الدّنيا بالنّسبة الى الكافر و المؤمن إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً.

و أمّا وجه التّفاضل في الدُّنيا فهو غير واضح اذ ليس مداره على الأعمال النّاشئة عن العبد بإختياره في الدّنيا و اذا كان كذٰلك فلم يتفاوتون في الغنى و الصّحة و المرض و هكذا غيرها من النِّعم.

قلت للتفاضل و التّفاوت في دار الدّنيا أيضاً أسباب و علل و هى المصالح و المفاسد الكامنة في الغنى و الفقر و الصّحة و المرض و هكذا إلاّ أنّا لا نعلمها و اللّه تعالى عالم بها و على هذا الأساس فضّل بعضهم على بعض في دار الدّنيا فأنّ مصلحة النّظام أوجبت ذلك و عليه فالتّفضيل في الدّنيا لأجل حفظ النّظم في الإجتماع فلو كان جميع النّاس أغنياء مثلاً لإختلّ النّظام و هكذا في الصّحة و المرض و العزّة و الحقارة و غيرها و حيث أنّ اللّه تعالى عادلٌ عالمٌ فالتّفضيل منه تعالى في الدّنيا و الآخرة لا يكون إلاّ حقّاً.

لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً

هذا أيضاً خطاب للنّبي و المراد أمّته نهى اللّه تعالى في هذه الآية عن الشِّرك فقال لا تجعل مع اللّه إلٰهاً أخر في عبادتك و إستدعاءك الحوائج منه فأنّك إن فعلت ذلك قعدت مخذولاً مذموماً، اذ لا ذمّ و لا خذلأن أشنع من الشِّرك.

قال صاحب الكشّاف يعني فتصير جامعاً على نفسك الذّم و ما يتبعه من الهلاك من الهك و الخذلان و العجز عن النُّصرة ممّن جعلته شريكاً له انتهى.

■

وَ قَضٰى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَ بِالْوٰلِدَيْنِ إِحْسٰانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاٰهُمٰا فَلاٰ تَقُلْ لَهُمَآ أُفٍّ وَ لاٰ تَنْهَرْهُمٰا وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَ ٱخْفِضْ لَهُمٰا جَنٰاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمٰا كَمٰا رَبَّيٰانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صٰالِحِينَ فَإِنَّهُ كٰانَ لِلْأَوّٰابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَ ءٰاتِ ذَا ٱلْقُرْبٰى حَقَّهُ وَ ٱلْمِسْكِينَ وَ ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَ لاٰ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كٰانُوٓا إِخْوٰانَ ٱلشَّيٰاطِينِ وَ كٰانَ ٱلشَّيْطٰانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَ إِمّٰا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغٰآءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهٰا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلٰى عُنُقِكَ وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰآءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كٰانَ بِعِبٰادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَ لاٰ تَقْتُلُوٓا أَوْلاٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاٰقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّٰاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كٰانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَ لاٰ تَقْرَبُوا ٱلزِّنٰىٓ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ سٰآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَ لاٰ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنٰا لِوَلِيِّهِ سُلْطٰانًا فَلاٰ يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كٰانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَ لاٰ تَقْرَبُوا مٰالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اَلْعَهْدَ كٰانَ مَسْؤُلاً ﴿٣٤﴾ وَ أَوْفُوا اَلْكَيْلَ إِذٰا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ اَلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ وَ لاٰ تَقْفُ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ اَلسَّمْعَ وَ اَلْبَصَرَ وَ اَلْفُؤٰادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً ﴿٣٦﴾ وَ لاٰ تَمْشِ فِي اَلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ اَلْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ اَلْجِبٰالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذٰلِكَ كٰانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴿٣٨﴾

◀ اللّغة

قَضٰى: أي حكم و أمر فأنّ القضاء الحكم.

أُفٍّ: بضمّ الألف إسم فعلٍ بمعنى التضجُّر.

وَ لاٰ تَنْهَرْهُمٰا: النّهر الزّجر بصياح و اغلاظٍ و أصله الظُّهور و منه النّهر و الإنتهار يقال أنهر الدّم، أي أظهره و أساله و إنتهر الرّجل أظهر له الإهانة بقبح الزّجر و الطّرد، و قيل الإنتهار إظهار الغضب في الصّوت و اللّفظ.

وَ اخْفِضْ: أي إخضع و تواضع.

لِلْأَوّٰابِينَ: الأوّاب كالتوّاب مبالغة في الاوب و هو الرّجوع و منه قيل للتّوبة أوبة.

لاٰ تُبَذِّرْ: التّبذير التّفريق و أصله إلقاء البذر و طرحه فأستعير لكلّ مضيّعٍ لماله فهو مذمومٌ.

اِبْتِغٰاءَ: الإبتغاء الطّلب.

تَبْسُطْهٰا: البسط ضدّ القبض.

مَحْسُوراً: الحسرة الغمّ على ما فاته و الندم عليه.

إِمْلَاقٍ: الإملاق الفقر يقال أملق فلان اذا إفتقر.

مَرَحًا: المرح شدّة الفرح.

◀ الإعراب

أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ يجوز أن يكون، أن، بمعنى، أى و هى مفسّرة لمعنى قضى و لا نهى و يجوز أن يكون في موضع نصب أي ألزم ربّك عبادته و، لا زائدة و يجوز، قضى، بمعنى أمر، و يكون التّقدير بأن لا تعبدوا إِمَّا يَبْلُغَنَّ إن، شرطيّة و ما زائدة للتّوكيد و يبلغنّ هو فعل الشّرط و الجزاء، فلا تقل، ويقرأ يبلغان، و الألف فاعل «أحدهما أو كلاهما»، بدل منه و قيل هو توكيد أُفٍّ اسم للفعل و معناه التضجُّر و الكراهة مِنَ ٱلرَّحْمَةِ يجوز أن تكون حالاً من جناح كَمَا نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي رحمة مثل رحمتهما ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مفعول له أو مصدر في موضع الحال تَرْجُوهَا وصفٌ للرّحمة أو حالٌ من الفاعل كُلَّ ٱلْبَسْطِ منصوبة على المصدر لأنّها مضافة اليه خِطْـًٔا بكسر الخاء و سكون الطّاء و الهَمز و هو مصدر خطئ مثل علم علماً ٱلزِّنَىٰٓ الأكثر القصر والمدّ لغة و قد قريئ به و قيل هو مصدر، زانى مثل قاتل قتالاً لأنّه يقع من أثنين فَلَا يُسْرِفْ الجمهور على التَّسكين لأنّه نهيٌ و قريئ بضمّ الفاء على الخبر و معناه النّهي بِٱلْقِسْطَاسِ بضّم القاف و كسرها و هما لغتان فيه وَ لَا تَقْفُ الماضي منه قفا اذا تتبع و يقرأ بضّم القاف و سكون الفاء مثل، تقم، و ماضيه، قافَ يَقُوف، اذا تتبع أيضاً كُلُّ مبتدأ و أُولَٰٓئِكَ خبره مَرَحًا بكسر الرّاء حال و بفتحها مصدر في موضع الحال و مفعول له تَخْرِقَ بكسر الرّاء و ضمّها لغتان طُولًا مصدر في موضع الحال من الفاعل أو المفعول سَيِّئُهُ يقرأ بالتّأنيث و النّصب أي كلّ ما ذكر من المناهي و ذكر مَكْرُوهًا على لفظ، كلّ، أو لأنّ التّأنيث غير حقيقّي و يقرأ بالرّفع و الإضافة و لكلٍّ وجهٌ وجيه.

◀ التفسير

وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا إِمّٰا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمٰآ أَوْكِلاٰهُمٰا فَلاٰ تَقُلْ لَهُمٰآ أُفٍّ وَلاٰ تَنْهَرْهُمٰا وَ قُلْ لَهُمٰا قَوْلًا كَرِيمًا

القضاء فعل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً و كلّ واحدٍ منهما على وجهين، إلهيٌّ و بشرىّ.

فمن القول الإلٰهيّ قوله تعالى: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ** أي أمَرَ بذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَضَيْنآ إِلىٰ بَنىٓ إِسْرٰآئيلَ فِى ٱلْكِتٰابِ**(١).

و قد مَرَّ الكلام فيها فهذا قضاء بالإعلام و الفصل في الحكم أي أعلمناهم و أوحينا اليهم وحياً جزماً، و من الفعل الإلهيّ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يَقْضي بِالْحَقِّ وَ ٱلَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ**(٢) يعني واللّه يحكم بالحقّ.

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَضيٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ في يَوْمَيْنِ**(٣) أي خلقهنّ في يومين.

و من القول البشري نحو قضى الحاكم بكذا فأنّ حكم الحاكم يكون بالقول، و مِن الفعل البشرى:

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذٰا قَضَيْتُمْ مَنٰاسِكَكُمْ**(٤) أي اذا فرغتم من المَناسِك قاله الرّاغب في المفردات.

أقول فعلى هذا معنى قوله: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ** أي أعلم و أوحى ربّك ألاّ

١- الإسراء = ٤
٢- غافر = ٢٠
٣- الفصلت = ١٢
٤- البقرة = ٢٠٠

تعبدوا إلاّ إيّاه و ليس المراد بالقضاء في الآية الحكم على سبيل الجزم اذ لوكان كذلك لم يقدر أحد على عبادة غيره تعالى بل المراد بالحكم الإعلام و الإيحاء و الإيصاء و أمثال ذلك كما قيل.

و قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام القضاء معناه الحكم الجزم البتّ الذّي لا يقبل النّسخ و الدّليل عليه أنّ الواحد منّا اذا أمر غيره بشئ فأنّه لا يقال أنّه قضى عليه أمّا إذا أمره جزماً و حكم عليه بذلك الحكم على سبيل البتّ و القطع فهاهنا يقال قضى عليه و لفظ القضاء في أصل اللّغة يرجع الى إتمام الشّئ وإنقطاعه انتهى موضع الحاجة من كلامه.

و أنت ترى أنّ ما ذكره الرّازي في معنى القضاء لا يساعده العقل و لا النَّقل، و أنّما ذكره من عند نفسه ولم يقم على مدّعاه دليلاً و قوله القضاء في أصل اللّغة يرجع الى إتمام الشّئ و إنقطاعه كأنّه عني به غير لغة العرب و إلاّ فهو في اللّغة الحكم سواء كان على سبيل الجزم أم لا.

ثانياً: لازم ما ذكره أن يكون القضاء في المقام بمعنى الحكم على سبيل الجزم و البتّ أي حكم اللّه تعالى بالعبادة جزماً وبتّاً و اذا كان كذلك فالعبد مجبور في عبادته و لا يقدر على التخلّف عنها و نحن نرى خلاف ذلك و بعبارةٍ أخرى كيف حكم اللّه بالعبادة على سبيل الجزم و البتّ و العبد لا يعبده فالحقّ أن يقال أنّ القضاء في المقام بمعنى الأمر و الحكم لا على سبيل الجزم بل على سبيل الإعلام و الإيصاء هذا و يمكن أن يقال أنّ القضاء بمعنى الأمر أو الحكم إلاّ أنّ الأمر تشريعى و تكوينّي و ما نحن فيه من التّشريعي و توضيح ذلك إجمالاً أنّ حكم اللّه أو أمره على قسمين:

تشريعّي و تكوينّي.

الأوّل: قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ**(١).



١- البقرة = ٤٣

الثّانی: قال اللّه تعالیٰ: **فَقَضيٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ**.

و قال اللّه تعالیٰ: **فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١].

و الفرق بينهما أنّ التشريعّي يمكن فيه التخلُّف للمأمور به بخلاف الثّاني و ذلك لأنّ إختيار المأمور به في الأوّل واسطة بين الإرادة و المراد و فی التكوينّي لا إختيار للمأمور به فقوله تعالى في الآية: **وَ قَضٰى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ** من الأحكام و الأوامر التّشريعيّة فمن شاء عبده و من لم يشاء لم يعبده.

و هذه هو الحقّ و كيف كان فهو تعالى قد أمر عباده بأن لا يعبدوا إلاّ أيّاه و هذا هو الأصل في باب المعرفة و الدّليل عليه عقلاً و نقلاً ثابت و قد أشرنا اليه غير مرّةٍ ثمّ أردف كلامه بقوله: **وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا** و فيه إشارة الیٰ أنّ الإحسان بهما بعد المعرفة باللّه و رسوله في رأس الطّاعات و هو كذلك عقلاً و نقلاً.

أمّا العقل فلوجوهٍ:

أحدها: أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و هذا ممّا لا خلاف فيه و المنعم الحقيقي هو الّذي أوجدنا و هو اللّه تعالى فيجب علينا عقلاً شكره ثمّ بعد نعمة الإيجاد الّذي هو مختصّ به تعالى تصل النوبّة الى الوالدين لأنّهما بمنزلة الواسطة في الإيجاد حيث أنّ اللّه تعالى خلقنا منهما لقوله: **إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثٰى**[٢] فيجب شكر الوالدين بعد شكر اللّه تعالى و هو المطلوب.

ثانيها: أنّ المربّي له حقّ على من ربّاه فيجب على المربّي اداء حقّه و هو لا يتحقّق إلاّ بالإحسان اليه و من المعلوم أنّ المربّي لكلّ الموجودات هو اللّه تعالى كما قال: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ** و المربّي للأولاد هو الأبوان بعون اللّه و توفيقه فيجب على الأولاد أن يحسن اليهما عقلاً و هو المطلوب.



١- البقرة = ١١٧ ٢- الحجرات = ١٣

ثالثها: ما ذكره بعض المفسّرين و هو أنّ الموجود إمّا قديمٌ و إمّا محدث و يجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإلٰه القديم بالتّعظيم و العبوديّة و مع المحدث بإظهار الشّفقة و هو المراد من قوله عليه‌السلام التّعظيم لأمر اللّه و الشّفقة على خلق اللّه و أحقّ الخلق بصرف الشّفقة اليه هو الأبوان لكثرة أنعامهما على الإنسان فقوله: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوٓا إِلآّٰ إِيّٰاهُ** إشارة الىٰ التّعظيم لأمر اللّه و قوله: **وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً** إشارة الى الشّفقة الىٰ خلق اللّه.

رابعها: ما ذكره أيضاً و هو أنّ الولد قطعة من الوالدين قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: **فاطمة بضعة منّي، و قال** عليه‌السلام: **أولا دنا أكبادنا.**

خامسها: أنّ الولد حال ما يكون في غاية الضّعف و نهاية العجز يكون في أنعام الأبوين فأصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة اليه و من المعلوم أنّ الأنعام إذا كان على هذا الوجه كان موقعه عظيماً فيجب على الولد الإحسان اليهما على كلّ حالٍ و محصّل الكلام هو أنّ أنعام الوالدين على الأولاد بعد أنعام اللّه تعالى ممّا لا ينكر و قد قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: **من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق** فثبت و تحقّق أنّ حقّ الوالدين بعد حقّ اللّه و رسوله أعظم من سائر الحقوق الخلقيّة فالعقل يحكم بالإحسان اليهما و هو المطلوب.

أمّا النّقل فمن الكتاب: قوله تعالى: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلاّٰ تَعْبُدُوٓا إِلآّٰ إِيّٰاهُ** و هي الّتي نحن بصدد تفسيرها.

قال اللّه تعالى: **وَ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً**[١].

قال اللّه تعالى: **كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ وَ لَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوٰالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ**[٢].

١- النّساء = ٣٦
٢- النّساء = ١٣٥

قال اللّه تعالى: **قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**(١).

قال اللّه تعالى: **أَنِ اشْكُرْ لي وَ لِوٰالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصيرُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ بَرًّا بِوٰالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبّٰارًا عَصِيًّا**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حُسْنًا**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ إِحْسٰانًا**(٥) والآيات في الباب كثيرة ومن الأثار.

وما رواه في كتاب مشكاة الأنوار من كتاب المحاسن عن الباقر عليه‌السلام قال عليه‌السلام: سأل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من أعظم حقّاً على الرّجل قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم والداه.

و عنه عليه‌السلام قال: أنّ الرّجل يكون بارّاً بوالديه و هما حيّان فإذا ماتا و لم يستغفر لهما كتب عاقّاً لهما و أنّ الرّجل يكون عاقّاً لهما في حياتهما فإذا ماتا و أكثر الإستغفار لهما فكتب بارّاً.

و عن الكاظم عليه‌السلام قال: سأل رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ما حقّ الوالد على الولد قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لا يسمّيه بإسمه و لا يمشي بين يديه و لا يجلس قبله و لا يستسبّ له.

و عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال: أنّ رجلاً أتى الٰ النّبي فقال يا رسول اللّه أوصني فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: لا تشرك باللّه شيئاً و إن حرّقت بالنّار و عذّبت إلاّ و قلبك مطمئنّ بالإيمان، و والديك فأطعهما و برّ بهما حيّين كانا أو ميّتين، و إن أمراك إن تخرج من أهلك و مالك فأفعل فأنّ ذلك من الأيمان انتهى(٦).

١- الأنعام = ١٥١
٢- لقمان = ١٤
٣- مَريم = ١۴
۴- العنكبوت = ٨
۵- الأحقاف = ١۵
۶- مشكاة الأنوار ص ١۶٨

و الأحاديث الواردة في الباب أكثر من أن تحصى و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية.

و اعلم أنّ اللّه تعالى جعل حقّ الوالدين بعد حقّه على خلقه فقال: **وَ قَضٰى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** ثمّ قال: **وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا** للدّلالة على أنّ حقّ الخالق أعظم من حقّهما فلا طاعة لهما في معصية الخالق، و لا فرق في وجوب الإحسان اليهما بين الكافر و المسلم فأن كانا كافرين يجب إطاعتهما و الإحسان اليهما في طاعة اللّه كما إذا كانا مسلمين.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ثلاثة لابدّ من إدائهنّ على كلّ حالٍ، الأمانة الى البرّ و الفاجر، و الوفاء بالعهد للبّر و الفاجر، و برّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين.

و روي في مشكاة الأنوار عن معاوية بن وهب عن زكرّيا بن إبراهيم قال: كنت نصرانيّاً فأسلمت و حججت فدخلت على أبي عبد اللّه عليه السلام و قلت له أنّي كنت على النّصرانية و أنّي أسلمت قال عليه السلام و أيّ شيءٍ رأيت في الإسلام قلت قول اللّه عزّ وجلّ (ما كنت تدري ما الكتاب و لا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء) فقال عليه السلام لقد هداك اللّه ثمّ قال عليه السلام اللّهم أهده ثلاثاً سل عمّا شئت يا بنيّ فقلت أنّ أبي و أمّي و أهل بيتي على النّصرانية و أمّي مكفوفة البصر فأكون معهم و آكل معهم في بيتهم فقال عليه السلام يأكلون لحم الخنزير فقلت لا و لا يمسُّونه فقال عليه السلام لا بأس و أنظر أمّك فبرّها فلا تكلها الى غيرك كن أنت الّذي تقوم بشأنها و لا تخبرنّ أحداً أنّك أتيتني و أتني بمنى إن شاء اللّه قال فأتيته بمنى و النّاس حوله كأنّه معلّم صبيان هذا يسأله و هذا يسأله فلمّا قدمت الكوفة ألطفت لأمّي وكنت أطعمها و أفلي ثوبها و قناعها و أخدمها قالت لي يا بنيّ ما

كنت تصنع بي هذا و أنت على ديني فما الّذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفيّة فقلت لها رجلٌ من ولد نبيّنا أمرني بهذا فقالت هذا الرّجل هو نبيّ فقلت لا و لكنّه إبن نبيّ فقالت يا بنيّ أنّ هذه وصايا الأنبياء فقلت يا أمّاه ليس يكون بعد نبيّنا نبيّ و لكنّه إبنه فقالت يا بنيّ دينك خير دينٍ فأعرضه عليّ فعرضته عليها فدخلت في الإسلام و علّمتها الصّلاة فصلّت الظهر و العصر و المغرب و عشاء الأخرة ثمّ عرض لها عارض في اللّيل فقالت يا بنيّ أعد عليّ ما علّمتني من دينك فأعدته عليها فأقرّت به و ماتت فلمّا أصبحت كان المسلمون الّذين غسّلوها و كفّنتها و صلّيت عليها و نزلت في قبرها[١].

و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ** و أنّما خصّ الكبر بالذّكر مع أنّ الإحسان بهما واجب على كلّ حال لأنّهما في سنّ الكبر و الشّيخوخة أحوج الى الإحسان لضعفهما بسب الهرم و قوله: **فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ** كناية عن حرمة إيذاءهما ولو بكلمة، أفّ، و ذلك لأنّ، أُفّ بضمّ الهَمزَة إسم فعلٍ بمعنى أتضجّر.

قال بعض المفسّرين، خصّ حالة الكبر لأنّها الحالة الّتي يحتاجان فيها الى برّه لتغيّر الحال عليهما بالضّعف و الكبر فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر ممّا ألزمه من قبل لأنّهما في هذه الحالة صارا كلاًّ عليه فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه فلذلك خصّ هذه الحالة بالذّكر و أيضاً فطول المكث للمرء يوجب الإستثقال للمرء عادةً و يحصل الملل و يكثر الضّجر فيظهر غضبه على أبويه و تنتفخ لهما أوداجه و أقلّ المكروه ما يظهره بتنفّسه المتردّد من الضّجر و قد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة و هو السّالم عن كلّ عيب فقال: **فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ**.

١- ص ١٥٩

و قد روي من طريق العامّة أنّه قال: رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم رغم أنفه رغم أنفه، قيل من يا رسول اللّه قال صلّى الله عليه وآله وسلّم من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثمّ لم يدخل الجنّة.

و قد روي البخاري في كتاب برّ الوالدين بأسناده عن أبي هريرة عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: رغم أنف رجلٍ ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ، رغم أنف رجلٍ أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنّة و رغم أنف رجلٍ دخل عليه رمضان ثمّ أنسلخ قبل أن يغفر له.

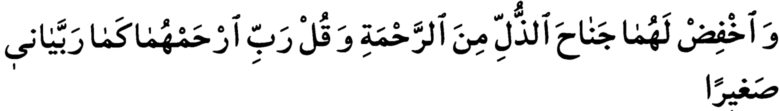
و أمّا كلمة، **أُفّ** فمعناها الإحتقار و قيل كلمة، أفّ، مقولة لكلّ شئٍ مرفوض أي متروك منفور و لذلك قال إبراهيم عليه السلام **لقومه، أُفّ لكم وما تعبدون من دون اللّه**، أي رفضٌ لكم و لهذه الأصنام معكم و إذا كان قد نهي أن يستقبلهما بهذه اللّفظة الدّالة على الضّجر و التّبرم بهما فالنّهي عمّا هو أشَدّ، كالشّتم و الضّرب هو بجهة الأولى.

قال الصّادق عليه السلام: أدنى العقوق، أُفّ، ولو علم اللّه شيئاً أهون منه لنهى عنه.

وَ لَا تَنْهَرْهُمَا وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا النّهر الزَّجر والغِلظة والقول الكريم اللّين اللّطيف مثل، يا أبتاه يا أمّاه من غير أن يسمّيهما أو يكنيّهما.

و عن الصّادق عليه السلام: ولا تنهرهما إن ضرباك و قل لهما قولاً كريماً.قال عليه السلام: فأن ضرباك فقل لهما غفر اللّه لكما فذلك منك قولٌ كريمٌ،





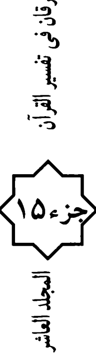
هذه إستعارة في الشّفقة و الرّحمة بهما و التذلّل لهما تذلّل الرعية للأمير و العبيد للسّادة قال إبن المسيّب ضرب خفض الجناح و نصبه مثلاً لجناح الطّائر

حين ينتصب بجناحيه لولده و الذلّ هو اللّين و قراءة الجمهور بضمّ الذّال من ذلَّ يذلّ و قرئ بكسر الذّال أيضاً من قولهم دابّـةٌ ذلول بيّنته الذّل و الذَّل في الدوّاب المنقاد السَّهل دون الصَّعب فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلّةٍ في أقواله و سكناته و نظره و لا يحدّ اليهما بصره فأنّ تلك هي نظرة الغاضب.

و عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: لا تملأ عينيك من النظّر اليهما إلاّ برحمةٍ و رقّةٍ و لا ترفع صوتك فوق أصواتهما و لا يدك فوق أيديهما و لا تقدم قدّامهما.

ثمّ أمر اللّه تعالى عباده بالترحّم على آباءهم و الدّعاء لهم و أن ترحمهما كما رحماك و ترفق بهما كما رفقا بك إذ و لياك صغيراً جاهلاً محتاجاً فآثراك على أنفسهما و أسهرا ليلهما و جاعا و تعرّيا و كسواك الى غير ذلك من الألطاف و العنايات فقال تعالى: **وَ قُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** قيل خصّ التّربية بالذّكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين و تعبهما فيزيده ذلك إشفاقاً لهما.

روي القرطبي بأسناده عن جابر بن عبد اللّه أنّه قال جاء رجلٌ الى النّبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: يا رسول اللّه أنّ أبي أخذ مالي فقال صلى الله عليه و آله و سلم للّرجل فأتني بأبيك، فنزل جبرئيل عليه السلام فقال أنّ اللّه عزّ وجلّ يقرؤك السّلام ويقول لك إذا جاءك الشّيخ فسئله عن شئ قاله في نفسه ما سمعته أذناه فلمّا جاء الشّيخ قال له النّبي صلى الله عليه و آله و سلم ما بال إبنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله فقال سله يا رسول اللّه هل أنفقه إلاّ على احدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إيه دعنا من هذا أخبرني عن شئ قلته في نفسك ما سمعته أذناك فقال الشّيخ و اللّه يا رسول اللّه ما زال اللّه عزّ وجّل يزيدنا بك يقيناً لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي قال صلى الله عليه و آله و سلم قل و أنا أسمع.



قال قلت:

غـذوتك مـولوداً و مـنتك يـافعاً تـقّل بـما أجـني عـليك و تـنهل
إذا ليـلةٌ ضـافتك بـالسُّقم لم أبت لسـقمك إلاّ سـاهراً اتـململ
كأنّـي أنـا المـطروق دونك بـالّذي طـرقت بـه دونـي فـعيني تـهمل
تخاف الرَّدى نـفسي عـليك و أنّـها لتـعلم أنّ المـوت وقتُ مـؤجّلُ
فـلمّا بـلغت السّـن و الغـاية الّـتي إليـها مـدى مـا كـنت فيك أؤمّـل
جـعلت جـزائي غـلظة و فـضاعةً كأنّك أنت المـنعم المـتّفضل
فـليتك إذ لم تـرع حـقّ أبـوّتي فعلت كما الجار المصاحب يـفعل
فأوليـتني حـّق الجـوار و لم تكـن عـلىّ بـمالٍ دون مـالك تـبخل

قال فحينئذٍ أخذ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بتلابيب إبنه و قال أنت و مالك لأبيك إنتهى.

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صٰالِحِينَ فَإِنَّهُ كٰانَ لِلْأَوّٰابِينَ غَفُورًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أعلم بما أنطوت عـليه الضّمائر مـن دون قصد عبادة اللّه و البرّ بالوالدين ثمّ قال أن تكونوا صالحين أي ذوي صلاحٍ ثـمّ فرط منكم تقصير في عبادةٍ أو برّ و أبتم و رجعتم الى الخير فأنّه غفورٌ لما فرط من حسناتكم و الظّاهر أنّ هذا عام لكّل من فرطت منه جناية ثمّ تـاب مـنها و يندرج فيه من جنى على أبويه ثمّ تاب من جنايته.

قال في المفردات، الأوّاب كالتوّاب و هو الرّاجع الى اللّه بـترك المـعاصي و فعل الطّاعات إنتهى و معنى الآية واضحٌ.

وَ آتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لاٰ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا

أمر اللّه أن يعطي ذوي القربى حقوقهم التّي جعلها اللّـه لهـم و هكـذا حـقّ المسكين و إبن السَّبيل و نهاه عن التّبذير و هو التَّفريق بالإسراف و قيل التَّبذير إنفاق المال في غير حقّه و فى الآية أبحاث:

الأوّل: ما المراد من ذوي القربى.

الثّانى: من هو المسكين.

الثّالث: من هو إبن السّبيل.

الرّابع: ما أريد بالتَّبذير في الآية.

البحث الأوّل: في تعيين ذوي القربى. **فقال إبن عبّاس و الحسن أنّهم قرابة الإنسان و قال عليّ بن الحسين عليه السلام: هم قرابة الرّسول.**

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ** أي كما راعيت حقّ الوالدين فصل الرَّحم ثمّ تصدّق على المسكين و إبن السَّبيل.

و قال عليّ بن الحسين، هم قرابة النَّبي أمره صلى الله عليه وآله وسلم بإعطائهم حقوقهم مـن بيت المال أي من سهم ذوي القربى من الغزو و الغنيمة، و يكون خطاباً للـولاة أو من قام مقامهم.

و قال صاحب الكشّاف، وصّى بغير الوالدين من الأقارب بعد التَّوصية بهما و حقّهم إذا كانوا محارم كالأبوين و الولد و فقراء عاجزين عـن الكسب و كـان الرّجل موسراً أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة و الشّافعي لا يرى النَّفقة إلاّ عـلى الولد و الوالدين فحسب و أن كانوا مـياسير أو لم يكـونوا مـحارم كأبـناء العـمّ فحّقهم صلتهم بالمودّة و الزّيارة و حسن المـعاشرة و المـؤلّفة عـلى السـرّاء و الضرّاء و المعاضدة ونحو ذلك إنتهى.

و قال الرّازى، أنّه خطاب للرّسول صلى الله عليه وآله وسلم فأمره أن يـعطي أقـاربه الحـقوق الّتي وجبت لهم في الفىء و الغنيمة و أوجب عليه إخـراج حـقّ المسـاكـين و أبناء السَّبيل أيضاً من هذين المثالين.و ألقول الثّانى أنّه خطاب للكـلّ و الدّلـيل

عليه أنّه معطوف على قوله: **وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** والمعنىٰ أنّك بعد فراغك من برّ الوالدين يجب أن تشتغل ببرّ سائر الأقارب الأقرب فالأقرب ثمّ بإصلاح أحوال المساكين و أبناء السَّبيل و أعلم أنّ قوله تعالى: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ** مجملٌ و ليس فيه بيان أنّ ذلك الحقّ ما هو إنتهى كلام الرّازي.

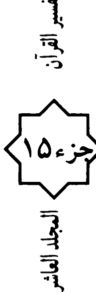
و قال الطّبرى، إختلف أهل التّأويل في المعنى بقوله: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ** فقال بعضهم عني به قرابة الميّت من قبل أبيه و أمّه أمر اللّه جلّ ثناؤه بصلتها و ساق الكلام الى أن قال و قال آخرون بل عني به قرابة الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم.

ثمّ روى بأسناده عن أبي الديلم أنّه قال قال عليّ بن الحسين عليه السلام لرجلٍ من أهل الشّام أقرأت القرآن قال: نعم. قال: أفما قرأت في بني إسرائيل وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ. قال: و أنكم للقرابة الّتي أمر اللّه أَن يؤتى حَّقه. قال: نعم.

ثمّ قال الطّبرى، و أولى التّأويلين عندي بالصَّواب تأويل من تأوّل ذلك أنّها بمعنٰ وصيّة اللّه عباده بصلة قرابات أنفسهم و أرحامهم من قبل آبائهم و أمّهاتهم ألخ إنتهى موضع الحاجة منه.

و قال البيضاوي **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ** من صلة الرَّحم و حسن المعاشرة و البرّ عليهم و قيل المراد بهم أقارب رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم إنتهى.

أقول إنّما نقلنا كلماتهم و هم أساطين مفسّري العّامة لتعلم أنّهم كيف تفوّهوا بالباطل و كتموا الحقّ و فسرّوا الآيات بآرائهم و عقائدهم و لتوضيح ذلك نقول قوله تعالى: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ** ألخ صريحٌ في أنّه كان هناك حقّ مالي عند الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم أمر بتأديته الى مستحقّيه و الدّليل على ما ذكرناه هو قوله و المسكين و إبن السّبيل فأنّهما قرينتان على أنّ الحّق في الآية كان من الأموال و ليست الآية معطوفة على قوله: **وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ**



كما زعم الرّازي و صاحب الكشّاف و القرطبي و غيرهم و ذلك لأنّ قوله: **وَ قَضٰى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** حُكمٌ عامّ يشمل جميع آحاد الأمّة مع الرّسول بدليل قوله: **أَلَّا تَعْبُدُوٓا** بصيغة الجمع و أمّا قوله و آت ذا القربى حقّه الآية حكمٌ خاصّ للنّبي فقط و لذلك قال تعالى: **وَ اٰتِ** ولم يقل و آتوا ذوي القربى حقوقهم و إذا كان كذلك فقولهم أنّه تعالى وصّى بغير الوالدين من الأقارب كما ذهب اليه الزّمخشري أو كما راعيت حّق الوالدين فصل الرّحم ثمّ تصّدق على المساكين و إبن السّبيل كما زعم القرطبي أو إعطاء الرّسول أقاربه حقوقهم الّتي وجبت لهم في الفيئ و الغنيمة كما قاله الرّازي أو قرابة الميت من قبل أبيه و أمّه و أنّه صلى الله عليه و آله و سلم أمر بصلتها كما قاله الطّبري، أو يكون المراد صلة الرّحم و حسن المعاشرة كما قال البيضاوي و هكذا غيرهم من مفسّري العّامة، كلّ هذه الأقوال غير صحيحة لا يساعده العقل و لا النّقل بل سياق الكلام يأباه فأنّ الآية الشّريفة بصدد بيان حكم آخر غير الأحكام السّابقة و**الواو** في قوله: **وَ اٰتِ** للإستئناف لا للعطف لما ذكرناه.

و امّا قول الرّازى، أنّ الآية مجملٌ و ليس فيها بيان فنقول في جوابه بيان الآية عند العترة الطّاهرة لقوله صلى الله عليه و آله و سلم: **كتاب اللّه و عترتي**.

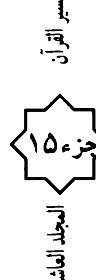
و أمّا عند أبي هريرة و أمثاله من الوضّاعين الكذّابين الّذين يأخذون تفسير كلام اللّه عنهم فليس فيها و لا في غيرها بيان و على هذا فليس عند الرّازي و أمثاله بيانٌ.

و أمّا عند أهل البيت و أتباعهم ففي الآية و أمثالهما بيانٌ شافٍ وافٍ و نحن نشير أوّلاً الى ما قاله المفسّرون من الشّيعة الإماميّة ثمّ نردفه بما صدر من أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية ثانياً، إتماماً للحجّة.

فنقول قال الطّبرسي قدس سره في تفسيره لهذه الآية بعد نقله عن إبن عبّاس و الحسن أنّ معنى الكلام و أعط القرابات حقوقهم الّتي أوجبها اللّه لهم في أموالكم ما هذا لفظه.

و قيل المراد بـه قـرابـة الرَّسـول عـن السَّـدي قـال: أنّ عـلّي بـن الحسين عليه السلام قال لرجلٍ من أهل الشّام حين بعث به عبيد اللّه بن زياد الى يزيد بن معاوية أقرأت القرآن قال نعم قال عليه السلام أما قرأت و آت ذا القربى حقّه قال و أنّكم ذوي القربى الّذي أمر اللّه أن يؤتى حقّه قال عليه السلام نعم و هو الّذي رواه أصحابنا عن الصّادقين عليهما السَّلام و أخبرنا السَّيد أبو الحمد مهدي بن نـزار الحسـيني قـال حدَّثنا الحاكم أبو القاسم عبيد اللّه بن عبد اللّه الحسكاني قال حدَّثنا الحاكم الوالد أبو محّمد قال: حدثّنا عمر بن أحمد بن عثمان ببغداد شفاهاً، و ساق الأسانيد الى عطّية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال لمّا نزل قوله: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ** أعطى رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فاطمة فدك قال عبد الرّحمن بن صالح كتب المأمون الى عبد اللّه بن موسى يسأله عن قصّة فدك فكتب اليه عبد اللّه بهذا الحديث فرَّد المأمون فدك الى ولد فاطمة عليها السّلام كلام الطَّبرسي قدّس سرّه.

و قال جميع مفسّري الإماميّة فأنّه لا خلاف بينهم في أنّ المراد بـالحقّ فـي قوله: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ** هو فدك و المراد بذي القربى هو فاطمة عليها السلام و لا نحتاج الى نقل أقوالهم فأنّ المسئلة ممّا لا خلاف فيه و من أراد الوقوف عـلى أقوالهم فعليه بمراجعة التَّفاسير فأنّ المراجع بعد الرُّجوع يجد صدق ما قلناه و الأصل في الباب ما صدر عن أهل البيت عليهم السلام من الأخبار الّتي تكون مستفيضة بل أدّعى بعضهم فيها التَّواتر الموجب للقطع.



ما عن عيون أخبار الرّضا عليه السلام في باب ذكر مجلس الرّضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العـترة و الأمّـة و الحـديث طـويل الى أن قال عليه السلام: و الآية الخامسة قول اللّه تعالى: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ** خصوصيّة خصَّهم اللّه العزيز الجبّار بها و أصطفاهم على الأمّة

فلمّا نزلت هذه الآية على رسول اللّه ﷺ قال أدعوا لي فاطمة فدعيت له فقال ﷺ يا فاطمة قالت لبيك يا رسول اللّه فقال ﷺ هذه فدك هي ممّا لم يوجف عليه بخيلٍ و لا ركابٍ و هي لي خاصّة دون المسلمين فقد جعلتها لك لما أمرني اللّه له فخذيها لك و لولدك فهذه الخامسة.

عن أصول الكافي بأسناده عن إبن أبي الدَّيلم عن أبي عبد اللّه عليه السلام في حديثٍ طويل يقول فيه ثمّ قال: جلّ ذكره: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ** فكان عليّ عليه السلام وكان حقّه الوصيّة التّي جعلت له.

ما رواه بأسناده عن عليّ بن أسباط قال لمّا ورد أبو الحسن موسى عليه السلام على المهدي العبّاسي رأه يردّ المظالم فقال: يا أمير المؤمنين ما بال مظلمتنا لا تردّ فقال المهدي و ما ذاك يا أبا الحسن قال إنّ اللّه تبارك و تعالى لمّا فتح على نبيّه فدك و ما والاها لم يوجف عليه بخيلٍ و لا ركابٍ فأنزل اللّه على نبيّه **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ** و لم يدر رسول اللّه ﷺ من هم فراجع في ذلك جبرئيل و راجع جبرئيل ربّه فأوحى اللّه اليه ﷺ أن أدفع فدك الى فاطمة عليها السلام فدعاها رسول اللّه ﷺ فقال لها يا فاطمة أنّ اللّه أمرني أن أدفع اليك فدك فقالت قد قبلت يا رسول اللّه من اللّه و منك فلم يزل و كلائها فيها حياة رسول اللّه فلمّا ولّي أبو بكر أخرج عنها و كلائها.

ما في تفسير علّي بن إبراهيم في قوله: **وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَ ٱلْمِسْكِينَ وَ ٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ** يعني قرابة رسول اللّه و نزلت في فاطمة فجعل لها فدك و المسكين من ولد فاطمة و إبن السّبيل من أل محمّد و ولد فاطمة.



ما عن تفسير العيّاشي عن عبد الرّحمٰن عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لمّا أنزل اللّه: وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَ ٱلْمِسْكِينَ قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يا جبرئيل قد عرفت المسكين فمن ذوي القربى قال هم أقاربك فدعا حسناً و حسيناً و فاطمة فقال إنّ ربّي أمرني أن أعطيكم ممّا أفاء اللّه علّي قال أعطيتكم فدك.

ما عن أبان بن تغلب قال قلت لأبي عبد اللّه، أكان رسول اللّه أعطى فاطمة فدكاً قال كان وقفها فأنزل اللّه: وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ فأعطاها رسول اللّه حقّها قلت رسول اللّه أعطاها قال بل اللّه أعطاها.

ما عن جميل بن دراج عن أبي عبد اللّه قال أتت فاطمة أبا بكر تريد فدك قال هاتي أسود أو أحمر يشهد بذلك قال فأتت أمّ أيمن فقال لها بم تشهدين قالت أشهد أنّ جبرئيل أتى محمّداً فقال أنّ اللّه يقول: وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ فلم يدر محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من هم فقال ياجبرئيل سل ربّك من هم فقال فاطمة ذو القربى فأعطاها فدكاً.

ما عن أبي الطّفيل عن علّي عليه السلام قال قال يوم الشّورى أفيكم أحد تمّ نوره من السّماء حين قال: وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَ ٱلْمِسْكِينَ قالوا لا.

أقول و الأحاديث من طريق أهل البيت كثيرة جدّاً

و روي السّيوطي في تفسيره المسمّى بالدرّ المنثور في التّفسير بالمأثور و هو من أعيان العامّة و أعاظم مفسّريهم في هذه الآية ما لفظه:

و أخرج البزاز و أبو يعلي و إبن أبي حاتم و إبن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لمّا نزلت هذه الآية: وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ دعا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة فأعطاها فدك.

و أخرج إبن مردويه عن إبن عبّاس رضي الله عنه قال لمّا نزلت: وَ ءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ أقطع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة فدكاً.

و روى الحافظ الحسكاني في شواهد التّنزيل عن أبي سعيد الخدري بطرقٍ كثيرة لمّا نزلت هذه الآية دعا النّبي فاطمة و أعطاها فدكاً.

و قد تحصّل ممّا ذكرناه أنّ النُّصوص الواردة الدّالة على أنّ المراد بالحقّ في الآية هو فدك و بذي القربى فاطمة لا إختصاص لها بطرق الشّيعة الإماميّة بل هي مشتركة بين الفريقين و لولا مخافة الإطناب و خروج الكتاب عن موضوعه لأ شبعنا الكلام فيه و مع ذلك يقول الرّازي أنّ الآية مجملة ليس فيها بيان، و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام.

إن قلت ما الّذي دعاهم الى إنكار النُّصوص و قد رواها كثير منهم في كتبهم.

قلت دعاهم الى ذلك عنادهم لأهل البيت و دفاعهم عن أصحاب السّقيفة و ذلك لأنّهم إن قالوا بما نقول به في الآية من أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أعطى فاطمة فدكاً بعد نزول الآية بأمرٍ من اللّه، و بعد فوت الرّسول غصبها أبو بكر على ما شهدت به الآثار فقد أثبتوا لخلفاءهم العصيان و الخطأ و هو كما ترى منافٍ لأصولهم في باب الخلافة فرأوا أنّ إنكار الحقائق أولى عندهم من إنكار ما صدر عن خلفاءهم و اللّه أعلم.

البحث الثّاني: ما المراد بالمسكين في الآية قال الرّاغب في المفردات المسكين هو الّذي لا شئ له و هو أبلغ من الفقير و قيل المسكين هو الّذي يسأل و الفقير هو المتعفّف الذّي لا يسأل.

روى في الكافي عن محمّد بن مسلم عن أحدهما أنّه سأله عن الفقير و المسكين فقال الفقير الّذي لا يسأل و لا مسكين الذّي هو أجهد منه الذّي يسأل.

و حسنة أبي بصير قال قلت لأبي عبد اللّه قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَ ٱلْمَسَاكِينِ قال عليه السلام: الفقير الّذي لا يسأل النّاس و المسكين أجهد منه و البائس أجهدهم.

و في حديث أخر أنّ المساكين هم أهل الزّمانة من العميان و العرجان و المجذومين و جميع أصناف الزّمناء من الرّجال و النّساء و الصّبيان.

و قيل المساكين أهل الحاجة من غير أهل الزّمانة.

البحث الثّالث: إبن السَّبيل من هو، المشهور في تعريفه، هو المنقطع به في غير بلده و أن كان غنيّاً في بلده سمّي بذلك لملازمته للسّبيل أي الطّريق فكأنّها ولدته و هذا تفسير أكثر علمائنا.

و قال المفيد و قد جاءت رواية أنّه الضّيف أي من أضيف لحاجةٍ الى ذلك و أن كان له في موضع أخر غناء و يسار.

قال بعض المحقّقين لم نقف على تلك الرّواية و كيف كان فالأمر سهل لأنّ المسكين و إبن السَّبيل لا خفاء في معناهما عند العرف فأنّ أبناء الطّريق الّذين يكونون في الأسفار في طاعة اللّه لا في معصيةٍ فيقطع عليهم و يذهب مالهم فعلى الإمام أن يردّهم الى أوطانهم من مال الصّدقات و لذلك أمر اللّه نبيّه بإيتاء حقوق الأقارب و المساكين و إبن السّبيل في الآية.

البحث الرّابع: في تفسير قوله: **وَ لَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** نهى اللّه نبيّه و أمّته عن التَّبذير و هو في الأصل التّفريق فأستعير لكلّ مضيّع لماله.

قال في المجمع هو من التّبذير في النَّفَقة و الإسراف فيها و تفريقها في غير ما أحلَّ اللّه و قد فرّق بين التَّبذير و الإسراف في أنّ التَّبذير الإنفاق فيما لا ينبغي الإسراف الصّرف زيادةً على ما ينبغي و كيف كان فهو مذمومٌ عقلاً و شرعاً.



أمّا العقل فلأنّه يحكم بحسن العدل و قبح الظُّلم و التَّبذير خروجٌ عن قانون العدل فهو داخل في الظّلم لعدم الواسطة بين الظّلم و العدل و أنّما قلنا أنّه من مصاديق الظّلم لأنّه من وضع الشّيئ في غير محلّه و هو بعينه تعريف الظُّلم هذا كلّه مضافاً الى أنّ العقل يحكم على صاحبه بالسّفاهة و الحماقة و هو يكفي في ذمّه و لذلك قال اللّه تعالى:

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا

أنّما جعلهم اللّه من أخوان الشّياطين لأنّهم بسبب التّبذير يكفرون بنعمة اللّه كما كان الشّيطان لربّه كفوراً، توضيح ذلك أنّ المال نعمة من نعم اللّه و هذا ممّا لا كلام فيه، و كلّ نعمةٍ يجب عقلاً على المنعم عليه الشّكر فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً.

و الشّكر الحقيقي عبارة عن صرف العبد جميع ما أنعمه اللّه عليه في طلب رضى المنعم و إلاّ لا يكون شاكراً، و حيث أنّ المبذّر يصرف ماله في غير ما أحلَّ اللّه فهو غير شاكرٍ لنعمته و من كان كذلك فهو كافر بنعمته لعدم الواسطة بين الشّكر على النّعمة و الكفر بها و من يكفر به فهو من أخوان الشّياطين من حيث الكفران و الى هذا المعنى أشير في أخر الآية حيث قال و كان الشيطان لربّه كفوراً و الأخبار في ذمّ التّبذير كثيرة.

ما رواه في الكافي بأسناده عن عامر بن جذاعة قال: جاء رجلٌ الى أبي عبد اللّه عليه السلام فقال عليه السلام: له إتّق اللّه و لا تسرف و لا تقتر ولكن بين ذلك قواماً أنّ التّبذير من الإسراف قال اللّه عزّ وجلّ و لا تبذّر تبذيراً.

و عن تفسير العيّاشي عن عبد الرّحمٰن بن الحجّاج قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قوله: وَ لَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا قال عليه السلام: من أنفق شيئاً في غير طاعة اللّه فهو مبذّر و من أنفق في سبيل اللّه فهو مقتصد.

و عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام في قوله: **وَ لَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** قال: بذّر الرّجل قال ليس له مالٌ قال فيكون تبذيراً في حلال قال نعم انتهىٰ.

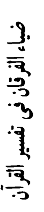
و عن بشر بن مروان قال: دخلنا على أبي عبد اللّه عليه السلام فدعى برطب فأقبل بعضهم يرمي النُّوى قال فأمسك أبو عبد اللّه يده فقال لا تفعل أنّ هذا من التّبذير. و الأحاديث نقلناها من تفسير نور الثّقلين(١).

وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً

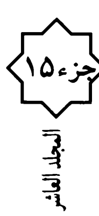
قيل في، إمّا، أنّ، ما، زائدة و التّقدير و إن تعرضنّ، و الإعراض صرف الوجه عن الشّئ و قد يكون للإشتغال بما هو الأولى و قد يكون لإذلال الجاهل مع صرف الوجه عنه كما قال تعالىٰ: **وَ أَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ**(٢).

قيل نزلت الآية في ناسٍ من مزينة إستحملوا الرّسول فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا أجد ما أحملكم عليه فبكوا، و قيل في بلال و صهيب و سالم و خباب سألوه ما لا يجد فأعرض عنهم.

و روي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان بعد نزول هذه الآية اذا لم يكن عنده ما يعطي و سئل، قال يرزقنا اللّه و ايّاكم من فضله فالرَّحمة على هذا الرّزق المنتظر و هو قول إبن عبّاس و مجاهد و عكرمة.



و قال إبن زيد الرّحمة الأجر و الثّواب و أنّما نزلت الآية في قومٍ كانوا يسألون رسول اللّه فيأبى أن يعطيهم لأنّه كان يعلم منهم نفقة المال في فسادٍ فكان يعرض عنهم و عنه في الأجر في منعهم لئَلا يعينهم على فسادهم فأمره اللّه أن يقول لهم قولاً ميسوراً يتضمّن الدّعاء في الفتح لهم و الإصلاح.



١- ج ٣ ص ١٥٦
٢- الأعراف = ١٩٩

و قال الزّمخشري أي و أن أعرضت عن ذي القربى و المسكين و إبن السَّبيل حياءً من الرَّد فقل لهم قولاً ميسوراً و لا تتركهم غير مجابين اذا سألوك و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اذا سئل شيئاً و ليس عنده أعرض عن السّائل و سكت حياءً و يجوز أن يكون معنى و إمّا تعرضنَّ عنهم، و إن لم تنفعهم و ترفع خصاصتهم لعدم الإستطاعة، و لا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك لأنّ من أبى أ يعطي أعرض بوجهه انتهى.

أقول و الذّي يظهر عند التّأمل في الآية هو أنّه تعالى لمّا أمر بإيتاء ذي القربى حقّه و من ذكر معه و نهاه عن التّبذير قال و إن لم يكن منك إعراض عنهم فالضّمير عائد عليهم و علّل الإعراض بطلب الرّحمة و هى كناية عن الرّزق و التّوسعة و طلب ذلك ناشٍ عن فقدان ما يجود به و يؤتيه من سأله و عليه فالمعنى و إن تعرض عنهم لإعسارك فوضع المسّبب و هو إبتغاء الرّحمة موضع السَّبب و هو الإعسار، و قد أجازوا أن يكون إبتغاء رحمةٍ من ربّك، علّة لجواب الشّرط فهو يتعلّق به و قدّم عليه أي فقل لهم قولاً سهلاً ليّناً وعدهم وعداً جميلاً رحمةً لهم و تطبيباً لقلوبهم إبتغاء رحمةٍ من ربّك أي إبتغ رحمة اللّه التّي ترجوها برحمتك عليهم هذا و فيه أنّ هذا لا يجوز لأنّ ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبله و لذلك صحّ أن يقال، إن يقم فأضرب خالداً، و لا يصحّ أن يقال أن يقم خالداً فأضرب، و هذا منصوص عليه نعم إن حذفت **الفاء** في مثل أن يقم يضرب خالداً، فذهب سيبويه و الكسائي الى الجواز و تحقيق هذا في علم النّحو و كيف كان فمورد الآية و أن كان خاصّاً ظاهراً لورودها في ذي القربى و المسكين و إبن السّبيل إلاّ أنّ المعنى فيها عامّ يشمل جميع موارد السّؤال و هو أنّ السّائل اذا سأل شيئاً و لم يقدر المسئول عنه عن إجابته و قضاء حاجته فينبغي أن يقول له قولاً سهلاً ليّناً تطبيباً لقلبه و هذا من أصول الأخلاق و محاسن الأداب و العادات و لعلَّ قوله تعالى: **وَ أَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا**

تَنْهَرْ[١] إشارة الىٰ ذاك مضافاً الىٰ قوله في أخر الآية فقل لهم قولاً ميسوراً ثمّ أنّه تعالى عرَّف نبيّه ظاهراً و جميع الأمّة واقعاً كيفيّة الإنفاق فقال تعالى.

وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا

لا شكّ في حسن الإنفاق و مدحه شرعاً و عقلاً كما لا شكّ في قبح البخل و ذمّه كذلك إلاّ أنّ لكلّ شئٍ حدّاً لا يجوز التّجاوز عنه فأنّ الشّئ إذا تجاوز حدَّه إنعكس ضدّه، و هذا أصلٌ ثابت لا يتغيّر و لا يتبدّل أبداً فأنّ التّخصيص في العقليّات لا يجوز بالإتّفاق و لا يختصّ بالإنفاق فقط بل يشمل جميع المحاسن و الصّفات ألا ترى أنّ الشّجاعة ممدوحة عقلاً و لكنّها إذا تجاوزت حدّها تصير تهوُّراً و هو مذموم لأنّ التهوّر ضدّ الشّجاعة و لذلك صار مذموماً عقلاً و شرعاً إذا عرفت هذا فنقول قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدٰآءَ عَلَى ٱلنّٰاسِ**[٢] و المراد بالوسط في الآية هو التجنُّب عن الإفراط و التَّفريط في جميع الأمور حتّى في العبادات فأن اليمين و الشّمال مضلّة و الطَّريق الوسطى هي الجادّة، فالإنفاق و أن كان حسناً عقلاً و شرعاً إلاّ أنّ حسنه مقيّد بما ذكرناه من أن لا يكون المنفق مفرطاً و لا مفرِّطاً و ذلك لأنّ الإنفاق إذا خرج عن حدّ الإعتدال و دخل في حدّ الإفراط فهو مذمومٌ فأنّ الإفراط هو الإسراف بعينه و إن نقص عن حدّ الإعتدال فهو يدخل في التَّفريط و هو البخل المذموم و خير الأمئر أوسطها.



قال الرّاغب في المفرادت الإفراط أن يسرف في التقدُّم و التّفريط أن يقصّر في الفرط يقال ما فرَّطت في كذا أي ما قصرت، و لأجل ذلك قال اللّه تعالى: **وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ** قيل نَزلت الآية

١- الضحى = ١٠

٢- البقرة = ١٤٣

في إعطاء الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم قميصه ولم يكن له غيره و قيل أعطى الأقرع بن حابس مائة إبل و عيينة مثل ذلك و العباس بن مرداس خمسين ثمّ كملها مائة فنزلت و الحقّ أنّ الآية بصدد بيان حكمٍ عامّ فالخطاب للنّبي و المراد أمّته و كيف كان فلا شكّ أنّ الآية إستعارة أستعير فيها المحسوس للمعقول و ذلك أنّ البخل معنى قائم بالإنسان يمنعه من التصرّف في ماله و الإنفاق به فأستعير له الغلّ الّذي هو ضمّ اليد الى العنق فامتنع من تصرّف يده و أجالتها حيث تريد و ذكر اليد لأنّ بها الأخذ و الإعطاء، ثمّ أستعير بسط اليد الإذهاب المال و ذلك أنّ قبض اليد يحبس ما فيها و بسطها يذهب ما فيها و طابق في الإستعارة بين بسط اليد و قبضها من حيث المعنى لأنّ جعل اليد مغلولة هو قبضها و غلّها أبلغ من القبض و قد طابق بينهما أبو تمام في شعره فقال في المعتصم:

تعوّد بسط اليد (الكفّ) حتّى لو أنّه ثناها لقبضٍ لم تجبه أنامله

و قال الزّمخشري هذا تمثيل لمنع الشحيح و إعطاء المسرف أمر بالإقتصاد الّذي هو بين الإسراف و الإقتار انتهى.

و قال إبن جريح المعنى لا تمسك عن النّفقة فيما أمرتك به من الحقّ و لا تبسطها فيما نهيتك عنه و أمّا قوله: **فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا** فهو بمنزلة النّتيجة للإسراف و الإقتار و هذا أيضاً إستعارة لأنّه كناية عن النّدامة على ما فات عنه و إلاّ فليس هناك قعوداً واقعاً و قيل معناه، إن أمسكت قعدت ملوماً عند العقلاء مذموماً، و إن أسرفت بقيت محسوراً أي مغموماً متحسّراً و على هذا فيرجع قوله ملوماً الى الإمساك و قوله محسوراً الى الإسراف فأنّ المحسور المنقطع به لذهاب ما في يده و الحسارة إنقطاعه عنه.

قال الشّاعر:

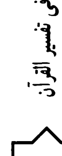
إنّ العسير بها داءُ فخامرها فشطرها نظرها العينين محسورُ

أقول الأصل فيها هو النّهي عن الإسراف و الإقتار سواء كان على سبيل اللّف و النّشر أم لم يكن فأنّ الملامة و الحسرة ثابتتان في كلا الوصفين أعني بهما الإسراف و الإقتار قال اللّه تعالى في أوصاف عباد الرّحمن في سورة الفرقان: **وَ ٱلَّذِينَ إِذٰآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كٰانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوٰامًا**(١).

و عن محمّد إبن يزيد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ قال عليه السلام الإحسار الإقتار.

و في تفسير علّي بن إبراهيم، و قوله عزّ وجلّ: وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً فأنّه كان سبب نزولها أنّ رسول اللّه كان لا يردّ أحداً يسأله شيئاً عنده فجاء رجل فسأله ولم يحضره شئ فقال يكون إن شاء اللّه فقال: يا رسول اللّه إعط قميصك و كان رسول اللّه لا يردّ أحداً عمّا عنده فأعطاه قميصه فأنزل اللّه عزّ وجلّ: وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَ لاٰ تَبْسُطْهٰا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فنهاه اللّه عزّ وجلّ أن يبخل و يسرف و يقعد محسوراً من الثّياب فقال الصّادق عليه السلام المحسور العريان من الثّياب.

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: وَ لاٰ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ قال ضمَّ يده فقال هكذا، ولا تبسطها كلّ البسط قال بسط راحته و قال هكذا.





و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و الّذي يحصل من الجميع هو النّهي عن الإسراف و الإقتار و الأخذ بالقصد في جميع الشّئون فأنّ خير الأمور أوسطها.

١- الفرقان = ٦٧

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

لمّا نهى النّبي و أمّته عن البسط قال أنّ ربّك يبسط الرِّزق و يوسعّه لمن يشاء من عباده أنّه أي أنّ اللّه تعالى كان خبيراً و بصيراً أي هو عالم بأحوالهم لا يخفى عليه ما يصلحهم و ما يفسدهم فيفعل معهم بحسب ذلك ففي الآية إشارة الى نكتةٍ و هي أنّ بسط الرزّق لا يصلح لجميع النّاس كما أنّ ضيقه أيضاً كذلك فمن النّاس من يصلح لبسط الرزّق و منهم من يصلح لضيقه و اللّه تعالى هو العالم بالمصالح و المفاسد و على هذا فلو كانت المصلحة في الضِّيق و صار الإنفاق موجباً للتّوسع و التَّرفه كان الإنفاق على خلاف المصلحة و هذا هو السرّ في النّهي عن الإنفاق الخارج عن حدّ المعمول و الى هذا المعنى أشار بقوله: **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ** أي إنّ اللّه تعالىٰ ليس بعاجزٍ عن بسط الرّزق في حقّ جميع آحاد النّاس إلاّ أنّه يوجب إختلال النّظام و إفساد النّاس في الدِّين و الدّنيا و هو كما ترى على خلاف مصلحة الشّخص و الإجتماع و هذا أصلٌ يبتني عليه جميع مواهب اللّه و عطاياه و هو من أحسن الأصول.

وَ لَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا

لمّا بيَّن اللّه تعالى أنّه هو المتكفّل بأرزاق العباد في قوله: **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ** نهى النّاس عن قتل أولادهم لأجل الفقر أو خوفاً منه في المستقبل و قد أجمع المفسّرون على أنّ المراد بالأولاد في الآية الإناث منهم و ذلك أنّ الأعراب في عهد الجاهليّة كانوا يقتلون الاناث من أولادهم خوف العيلة على أنفسهم بالإنفاق عليهنّ كما هو مسطورٌ في التّواريخ و قد تكلّمنا فيه عند قوله تعالى في سورة الأنعام: **وَ لَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ**[١] فلا يفيد الكلام في تفسيرها ثانياً.

١- الأنعام = ١٥١

و أمّا قوله: **إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا** قرأ الجمهور، خِطأً بكسر الخاء و سكون الطّاءو قرأ إبن كثير بكسر الخاء و فتح الطّاء و المدّ و حكم أبو حاتم بكونها من الأغلاط و المشهور هو قراءة الجمهور و عليها المصاحف فعلاً و الخطأ بفتح الخاء هو المصدر و بكسرها الإسم منه فقوله: **خِطْـًٔا** هو إسم للمصدر و معنى الكلام أنّ قتل الأولاد كان ذنباً كبيراً عند اللّه.

و قيل الخطأ الفاحشة قال الشّاعر:

الخطأ فاحشة و البرّ فاضلةٌ   كعجوةٍ غرست في الأرض توبير

و معنى الآية واضحٌ لا خفاء فيه كما سبق.

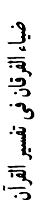
وَ لَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَ سَآءَ سَبِيلًا

لمّا نهى المكلّفين عن قتل الأولاد نهاهم عن الزّنا أيضاً وعدّه من الفواحش.

فنقول الزّناء بالقصر و المدّ وطى المرأة حراماً من دون عقدٍ و عند فقهاءنا هو إيلاج فرج البالغ العاقل في فرج إمرأةٍ محرّمة من غير عقدٍ و لا ملك و لا شبهة قدر الحشفة عالماً مختاراً فالزّاني فاعل الزّناء و الجمع الزُّناة كالقضاة و لا خلاف في حرمته بالأدلّة الأربعة يعني كتاباً و سنّةً و إجماعاً و عقلاً لقبحه و هو على قسمين:

محصنٌ و غير محصنٍ.

فالمحصن من كان له فرجٌ يغدو عليه و يروح و فى بعض الأخبار الّذي يزني و عنده ما يغنيه.



و غير المحصن بخلافه و حكم المحصن و المحصنة بعد الإثبات بالشهود أو الإقرار منهما أربع مرّات الرَّجم و حكم غيرهما الحدّ على التّفصيل المسطور في كتاب الحدود و قد يحكم على غير المحصن أيضاً القتل كما إذا زنى بمحارمه كأمّه و أخته و خالته و عمّته و هكذا أو كان الزّاني بالمسلمة كافراً فأنّ الحكم في هذه الأمور القتل و أن لم يكن محصناً هذا كلّه مع الإختيار.

و أمّا في صورة الإكراه و الإجبار فلا و كيف كان فالزّناء من المحرّمات بلا كلام و سيأتي الكلام فيه في سورة النُّور إن شاء اللّه تعالى و قوله: **وَ سَآءَ سَبِيلًا** أي بئس طريقاً طريقه لأنّها سبيلٌ تؤدي الى النّار.

وَ لَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا

نهى اللّه تعالى عن قتل النّفس المحرّم و هو نفس الإنسان و حيث كان متّعلق النّهي هذا الجنس صحَّ الإستثناء بقوله إلاّ بالحقّ و المراد بمن يجوز قتله بالحقّ من أباح الشّارع دمه مثل المحارب و المرتّد عن فطرةٍ و الزّاني و الزانيّة المحصنين و من زنى بالمحارم ولو كان غير محصنٍ و اللائط و من سبَّ النّبي أو واحداً من المعصومين عندنا و نحو ذلك و يدخل في الإستثناء قصاص القاتل ثمّ قال تعالىٰ: **وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا** أي جعلنا لوليّ المقتول سلطاناً على القاتل أو العفو عنه و أولى النّاس بالميّت أولى بميراثه ما عدا الزَّوجين، و الإمام عند عدم الولّي فأنّه وليّ من لا وليّ له فعند عدم الوارث للإمام سلطان على الجاني بأن يقتله قصاصاً و إن شاء أخذ الدَّية منه أن رضي الجاني فأن إختار الجاني القصاص يقتل و أمّا قوله فلا يسرف في القتل فقال بعض المحققّين معناه أن لا يمثّل به أو يقتل غير القاتل أو يقتل الرّجل بالمرأة من غير ردَّ نصف الدَّية أو يقتل الجماعة بالواحد من غير ردّ الزّائد عن حقّه فأنّ الحكم بجواز قتل الجماعة المشتركين في قتل الواحد بالواحد و قتل الرّجل بالمرأة مع ردَّ ما زاد عن حقَّه موضع وفاق بين الأصحاب.

و في رواية أبي العبّاس عن أبي عبد اللّه عليه السلام أن قتل رجل إمرأة أن قبلوا دية المراة فذلك و أن أبى أوليائها إلاّ قتل قاتلها غرموا نصف الرَّجل و قتلوه.

و هو قول اللّه عزّ وجّل: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ فظهر من ذلك أنّ الضّمير في يسرف و فى أنّه، راجع الى الولّي و هو الظّاهر من سياق الآية.

فما قيل أنّ الأوّل راجع الى القاتل و الثّاني: الى المقتول إسرافاً فبعيدٌ جدّاً.

و يظهر من الآية، أنّ إستيفاء حقّ القصاص لا يتوقّف على إذن الإمام و هو الّذي يظهر من أكثر الأخبار أيضاً و قد مرَّ الكلام فيه في سورة الأنعام و البقرة.

قال قتادة الهاء في قوله: إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا عائدة على الوليّ و قال مجاهد عائدة على المقتول و نصرة اللّه له بذلك حكمه له بذلك و قيل الوليّ هم الورّاث من الرّجال من الأولاد الذّكور و من الأقارب من كان من قبل الأب و تمام البحث فيه في الفقه فأن العّامة سلكوا في معنى الوليّ مسلكاً آخر.

و قال الزّمخشري، للسلطان التّسلط على القاتل في الإقتصاص منه أو حجّة يثبت بها عليه.

وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا

في الآية الشّريفة نهيٌ، و أمرٌ أمّا النّهي فقد تعلّق بمال اليتيم و أمّا الأمر فقد تعلّق با الوفاء بالعهد و المراد باليتيم من ليس له أب.

قال في المفردات: اليتيم إنقطاع الصبيّ عن أبيه قبل بلوغه و في سائر الحيوانات من قبل أمّه و اليتيم يجمع على أيتام و يتامى، و قال بعضهم اليتامىٰ جمع يتيم و يتيمة و أمّا أيتام فجمع يتيم لا غير كشريف و أشراف و قوله: إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إستثناء منه أي يجوز التصرّف في ماله إذا كان بطريق الحسن و هو أن يحفظوا عليه و يثمروه أو ينفقوا عليه بالمعروف على وجه لا يشكّ أنّه أصلح له و أمّا لغير ذلك فلا يجوز لأحدٍ التصرُّف فيه و أنّما خصّ اليتيم بذلك مع أنّ التّصرف في مال غير اليتيم بغير إذنه أيضاً لا يجوز لأنّ



اليتيم الى ذلك أحوج و الطَّمع في مثله أكثر و قوله: **حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** بمنزلة الغاية للنّهي أي لا تقربوا مال اليتيم الى أن يبلغ أشدّه و إختلفوا في معناه فقال قوم حتّى يبلغ ثمانية عشرة سنة و قال قوم حتّى يبلغ الحلم.

و قال أخرون حتّى يبلغ كمال العقل و يؤنس منه الرُّشد نقل هذه الأقوال في التّبيان و إختار الأخير منها.

و عن الفقيه بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إنقطاع اليتيم الإحتلام و هو أشدّه.

و في حديث أخر عنه عليه السلام قال: اذا بلغ الغلام أشدَّه ثلاث عشرة سنةٍ و دخل في الأربع عشرة سنة وجب عليه ما وجب في المحتلمين إحتلم أو لم يحتلم و كتبت له الحسنات و جاز له كلّ شيءٍ إلاّ أن يكون ضعيفاً أو سفيهاً.

و قد مرَّ الكلام في هذا الباب في أواخر سورة الأنعام حيث قال تعالى: **وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَ ٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ**[۱].

و قوله: **وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ** فالعهد في الأصل حفظ الشّيء و مراعاته حالاً بعد حالٍ و سمّي الموثق الّذي يلزم مراعاته عهداً، و الظّاهر أنّ اللاّم في قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْعَهْدَ** و **وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ**، للجِنس أي أوفوا بكلّ العقود و ذلك لأنّ العهد يتّصور على قسمين:

أحدهما: العهد الّذي بين الإنسان و بين ربّه.

ثانيهما: العهد الّذي بينه و بين إنسانٍ أخروكلاهما يجب الوفاء به ثمّ أنّ عهد اللّه تارةً يكون بما ركزه في عقولنا و تارةً يكون بما أمرنا به بالكتاب و بالسنّة رسله و تارةً بمانلتزمه و ليس بلازمٍ في أصل الشّرع كالنُّذور و ما يجري مجراها.

۱- الأنعام = ۱۵۳

قال اللّه تعالى: **وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اَللّٰهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ**[١].

قال اللّه تعالى: **أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اَللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ اَلْأَدْبارَ**[٣].

فعن كتاب الخصال عن عنبة بن مصعب قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول ثلاثة لم يجعل اللّه تعالى لأحدٍ من النّاس فيهنّ رخصة الى قوله و الوفاء بالعهد للبّر و الفاجر.

و الأخبار بوجوب الوفاء به كثيرة و لا نحتاج الى نقلها بعد نصّ الكتاب في غير واحدةٍ من الآيات بوجوب الوفاء به.

و روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: أية المنافق ثلاث اذا حدّث كذب و اذا وعد أخلف و اذا إئتمن خان، فالوفاء بالعهد من شيم النّفوس الشّريفة و الأخلاق الكريمة و الخلال الحميدة يعظم صاحبه في العيون و تصدق فيه خطرات الظّنون و يقال الوعد وجه و الإنجاز محاسنه و الوعد سحابه و الإنجاز مطرها.

و لنعم ما قيل:

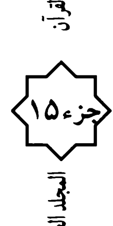
اذا قلت في شيءٍ نعم فأتّمه   فأنّ نعم دينٌ على الحرّ واجبُ
وإلاّ فقل لا تسترح و ترح بها   لئلاّ يقول النّاس أنّك كاذبُ

قال أعرابيٌ:

وعد الكريم نقدٌ و تعجيلُ   و وعد اللّئيم مطلٌ و تعليلُ

و قال الأخر:

العذر الجميل خير من المطل الطّويل قال الشّاعر:



١- التّوبة = ٧٥
٢- البقرة = ١٠٠
٣- الأحزاب = ١٥

لئن جمع الآفات فالبخل شرّها و شرٌّ من البخل المواعيد و المطل
و لا خير في وعدٍ اذا كان كاذباً و لا خير في قولٍ اذا لم يكن فعل

و ممّا نقل في الباب من عجائب الوقائع و غرائب البدائع هو ما يطرب السّامع و يشنف المسامع قضيّة الطّائي و شريك نديم النّعمان بن المنذر و خلاصته أنّ النُّعمان كان قد جعل لنفسه يومين يوم بؤسٍ من صادفه فيه قتله و أرداه، و يوم نعيم من لقيه فيه أحسن اليه و أغناه و كان هذا الطّائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته و فقره و أخرجته الفاقة من محلّ إستقراره ليرتاد شيئاً لصبيته و صغاره فبينما هو كذلك اذ صادفه النُّعمان في يوم بؤسه فلمّا رآه الطّائي علم أنّه مقتول و أنّ دمه مطلول فقال حيّا اللّه الملك أنّ لي صبيةً صغاراً و أهلاً جياعاً و قد أرقت ماء وجهي في حصول شيءٍ من البلغة لهم و قد أقدمني سوء الحظّ على الملك في هذا اليوم العبوس و قد قربت من مقرّ الصَّبية و الأهل و هم على شفا تلف من الطّوى و لن يتفاوت الحال في قتلي بين أوّل النّهار و أخره فأن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل اليهم هذا القوت و أوصي بهم أهل المرّوة من الحيّ لئلا يهلكوا جياعاً ثمّ أعود الى الملك و أسلم لنفاذ أمره فلمّا سمع النّعمان صورة مقاله و فهم حقيقة حاله و رأى تلهّفه على ضياع أطفاله رقَّ له غير أنّه قال له لا أذن لك حتّى يضمنك رجل معنا فأن لم ترجع قتلناه و كان شريك بن عديّ بن شرحبيل نديم النّعمان معه فإلتفت الطّائي الى شريك و قال له:

يا شريك بن عدي	ما من الموت إنهزامُ
من لأطفالٍ ضعافٍ	عدموا طعم الطّعام
بين جوعٍ و إنتظارٍ	و إفتقادٍ و سقامٍ
يا أخا كلّ كريمٍ	أنت من قومٍ كرامٍ
يا أخا النّعمان جد لي	بضمانٍ و إلتزامٍ
و لك اللّه بأنّي	راجعٌ قبل الظّلامٍ

فقال شريك بن عدى أصلح اللّه الملك على ضمانه فمرّ الطّائي مسرعاً و سار النّعمان يقول لشريك أنّ صدر النّهار قد ولّى و لم يرجع و شريك يقول ليس للملك عليّ سبيل حتّى يأتي المساء فلمّا قرب المساء قال النّعمان لشريك قد جاء وقتك قم فتأهّب للقتل فقال شريك هذا شخص قد لاح مقبلاً و أرجو أن يكون الطّائي فأن لم يكن فأمر الملك فتمثّل قال فبينما هم كذلك و اذا بالطّائي قد إشتدّ عدوه في سيره مسرعاً حتّى وصل فقال خشيت أن ينقضي النّهار قبل وصولي ثمّ وقف قائماً و قال أيّها الملك مر بأمرك فأطرق النّعمان ثمّ رفع رأسه و قال ما رأيت أعجب منكما أمّا أنت يا طائي فما تركت لأحدٍ في الوفاء مقاماً يقوم فيه و لا ذكراً يفتخر به و أمّا أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء فلا أكون أنا ألئم الثّلاثة إلاّ و إنّي قد رفعتُ يوم بؤسي عن النّاس و نقضت عادتي كرامةً لوفاء الطّائي و كرم شريك فقال الطّائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي   فعددت قولهم من الإضلال
أنّي إمرؤٌ منّي الوفاء سجيّةٌ   و فعال كلّ مهذّبٍ مفضالٍ

فقال النّعمان ما حملك على الوفاء و فيه إتلاف نفسك فقال ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له فأحسن اليه النّعمان و وصله بما أغناه و عاده مكرماً الى أهله و أناله ما تمّناه.

أقول أنظر الى أثار الوفاء بالعهد في الدنيّا فضلاً عن الآخرة و اذا كان الأمر على هذا المنوال فما ظنّك بقوم نقضوا عهد اللّه و عهد رسوله في غدير خمّ و نكثوا بيعة من بايعوه بمرئي و منظر الرّسول بعد وفاة الرّسول، ألم يقل رسول اللّه من **كنتُ مَولاه فهذا عليٌ مَولاه الخ** ألم يأخذ عنهم البيعة لعليٍ على الخلافة و الولاية و لنعم ما قيل فيه:

تبّاً لقومٍ بايعوا أهوائهم   فيما يسؤهم في غدٍ عقباه
أتراهم لم يسمعوا ما خصّه   منه النّبي من المقال أتاه
اذ قال في يوم الغدير معالناً   من كنت مولاه فذا مولاه

و أنا أقول أن كان هذا العهد لا يسأل عنه يوم القيامة فلا يسأل عن عهدٍ أصلاً و قد أنشد الكميت عند الباقر عليه السلام:

و يوم الدَّوح دوح غدير خمٍّ أبان له الولاية لو أطيعا
ولكنّ الرّجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً منيعاً
و لم أر مثل هذا اليوم يوماً و لم أر مثله حقّاً أضيعا
فلم أقصد بهم لعناً و لكن أساء بذاك أوَّلهم صنيعاً فصار لذاك
أقربهم لعدلٍ الى جورٍ و أقربهم مضياً
أضاعوا أمر قائدهم فضَّلوا و أقربهم لدي الحدثان ريعاً
تناسوا حقَّه فبغوا عليه بلاترةٍ وكان لهم قَريعاً

و قال مهيار:

و أسألهم يوم خمّ بعد ما عقدوا له الولاية لم خانوا ولم خلعوا
قولُ صحيحُ و نيّات بها دغلُ لا ينفع السَّيف صقلُ تحته طبع
إنكارهم بأمير المؤمنين لها بعد إعترافهم عادية أدرعوا
ونكثهم يك ميلاً عن وصيّة شرع لعمرك ثان بعده شرعوا

و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

الوافي الّذي بلغ التّمام يقال درهمٌ وافٍ وكيلٌ وافٍ أمرهم اللّه تعالى بإيفاء الكيل و بالوزن المستقيم الّذي لا عوج فيه و ذلك ممّا يرجع الى المعاملة بالأموال و الأمران راجعان الى البائع و هو ظاهر لأنّ إيفاء الكيل و عدمه و الوزن بالقسطاس و عدمه كلّ ذلك بيد البائع لا المشتري و حيث أن المبيع قد يكون ممّا يكال و قد يكون ممّا يوزن و فى كلّ واحدٍ منهما يجب مراعاة العدل و إيصال حقّ المشتري اليه أشار اللّه تعالى بهما فقال في المكيل: **وَ أَوْفُوا**

ٱلْكَيْلَ و قال في الموزون **وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْـمُسْتَقِيمِ** و في هذين الحكمين يراعى حقّ البائع و المشتري معاً فأنّ حقّ البائع إستيفاء الثّمن بقدر مبيعه و حقّ المشتري إستيفاء المبيع بقدر ثمنه فاذا كان الكيل و الوزن بطريق الإيفاء دون النّقص فقد وصلا الى حقّهما ثمّ قال تعالى ذاك خيرٌ و أحسن تأويلاً لأنّ فية تطبيب النُّفوس بالإتّسام بالعدل و الإيصال للحقّ و قوله: **أَحْسَنُ تَأْوِيلًا** أي عاقبةً اذ لا يبقى على الموفي و الوازن تبعة لا في الدُّنيا و لا في الآخرة و هو من المأل و هو المرجع هذا كلّه مضافاً الى أنّ المشتهر بالإحتراز عن التَّطفيف يعوَّل عليه في المعاملات وتميل اليه القلوب.

وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا

نهى اللّه تعالى نبيّه و جميع المكلفين عن متابعة ما ليس لهم به علم و معنى لا تقف أي لا تتَّبع و قيل معناه لا تحكم بالقيافة و الظَّن.

و عن إبن عبّاس لا ترم أحداً بما لا تعلم.

و قال قتادة لا تقل رأيت ولم تره و سمعت ولم تسمع و علمت ولم تعلمه، و قيل معناه لا تشهد بالزّور و الأقوال كثيرة يجمعها قولٌ واحدٌ و هو النّهي عن إتّباع ما لا يكون معلوماً و هذه قضيّة كليّة تندرج تحتها أنواع فكلٌّ من القائلين حمل على واحدٍ من تلك الأنواع.

قال الشّيخ في التّبيان و إستدّل بهذه الآية على أنّه لا يجوز العمل بالقياس و لا بخبر الواحد لأنّهما لا يوجبان العلم و قد نهى اللّه أن يتّبع الإنسان ما لا يعلمه انتهى.

أقول أمّا العمل بالقياس فأنّه لا يجوز لأنّه بدعة و أوّل من قاس هو إبليس تظافرت الأخبار الواردة عن المعصومين ببطلانه و حرمة العمل به لأنّه من



إدخال ما ليس من الدّين في الدّين مضافاً الى ما ورد أنّ دين اللّه لا يصاب بالعقول و للبحث فيه مقام أخر.

و أمّا الخبر الواحد فهو ليس من قبيل القياس و ذلك لأنّ من يقول بحجتيّه لا يقول بها مطلقاً أيُّ خبر واحد كان بل يقيّد العمل به بما اذا كان المخبر به عادلاً موثّقاً وكان الخبر محفوفاً بالقرائن المفيدة للظنّ الخاصّ الّذي يقوم مقام العلم في جميع مراتبه فهو من هذه الجهة داخل في العلم أو قائم مقامه بدليل الإنسداد و تفصيل الكلام فيه في الأصول، و قد إستَّدل بعض من لا يدري ما يقول بهذه الآية على بطلان الاجتهاد لأنّه لا يفيد إلاّ الظنّ ولم يعلم أنّه يوجب عدم العمل بالشّريعة لأنّ القطع بالحكم لا يحصل غالباً.

ألا ترى أنّ ظواهر الكتاب و السنّة ظنيّة الدّلالة غالباً فالأمر دائرٌ في العمل بالأحكام في زمان غيبة المعصوم بين العمل بالظّن أو ترك العمل رأساً لا سبيل الى الثّاني لأنّا نقطع بوجود التّكاليف في حقّ العموم فلو قلنا بسدّ باب الإجتهاد و المفروض عدم إمكان تحصيل القطع يلزم ترك العمل بالأحكام رأساً هذا كلّه مضافاً الى أنّ ظنّيّة الطّريق لا تنافي قطعيّة الحكم و للبحث فيه أيضاً مقام أخر.

اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالىٰ: **وَ لٰا تَقْفُ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ليس المراد بالعِلم أدارك الشّئ بحقيقته بحيث لا يحتمل الخلاف بل المراد به الإعتقاد الرّاجح المستفاد من سندٍ و دليلٍ سواءٌ كان يقيناً أو ظنّاً و منه قوله تعالى: **فَاِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنٰاتٍ**[١] فأنّ المراد بالعلم هو الظَّن المتأخّم للعِلم لا العلم حقيقة بحيث لا يحتمل فيه الخلاف فأنّه غير ممكنٍ قطعاً و عبّر عن الظّن بالعلم إيذاناً بأنّه كهو في وجوب العمل به و مثله قوله تعالى: **إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**[٢].

١- الممتحنة = ١٠
٢- النور = ٣٣

و من المعلوم أنّه لا يعلم الخير واقعاً في أحدٍ إلاّ اللّه تعالى لأنّه عالم بالسّرائر وقد جاء العلم بمعنى المعرفة كما جاءت بمعناه لإشتراكهما في كون كلٍّ منها مسبوقاً بالجهل قال اللّه تعالىٰ: **لا تَعْلَمُونَهُمُ اَللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ**[1] أي لا تَعرفونهُم اللّه يَعرفهم، و قوله تعالىٰ: **ممّا عرفوا عن الحق** الآية أي عَلِموا به و قال أمير المؤمنين عليه السلام: **العلم علمان، مسموعٌ و مطبوع.**

و من المعلوم أنّ العلم الّذي يحصل من المسموع لا يكون إلاّ ظنّاً في الحقيقة و أن أطلق عليه العلم لأنّ الخبر يحتمل الصّدق و الكذب، و نظائره كثيرةٍ فقوله تعالى: **وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** أي إعتقادٌ راجح سواء كان علماً بمعنى إدراك الواقع بحيث لا يحتمل فيه الخلاف، أو ظنّاً قريباً منه و أنّما قلنا ذلك لأنّ العلم في الآية لو حملناه على معناه الحقيقي و هو كشف الواقع يلزم تخصيص الأكثر في الشّريعة المقدّسة إذ لم يحصل العلم بهذا المعنى لأحدٍ من أحاد الأمّة ولن يحصل أبداً فالمعنى لا تتّبع الجهل و هذا ممّا لا كلام فيه.

إن قلت يلزم على ما ذكرت صحّة العمل بالظّن و قد نهى اللّه تعالى عن العمل به:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَلظَّنَّ لا يُغْني مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا اَلظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**[3].

و غير ذلك من الآيات الواردة في ذمّ الظّن والعَمل به.

قلت العمل بالظنّ بقولٍ مطلق ممنوعٌ و أمّا الظنّ المتاخّم للعلم فلا منع في العمل به و الظنّ المقدوح في تلك الآيات هو الظنّ العامّ و هو لا يعمل به قطعاً فهو خارج عن مورد البحث ألا ترى أنّ القاضي يحكم بشهادة الشّهود و من

١- الانفال = ٦٠
٢- يُونس = ٣٦
٣- يُونس = ٦٦

المحتمل كذبهم في شهادتهم واقعاً فلو قلنا بإشتراط العلم واقعاً في القضاء لإنسدّ باب القضاء و هكذا باب الإجتهاد وأكثر المعاملات فأنّ الملاك في صحّة الجميع هو العلم بمعنى الإعتقاد الرّاجح الشّامل للظنّ الخاصّ و هو حاصلٌ و أمّا غيره فلا يحصل فثبت و تحقّق أنّ متابعة غير العلم بالمعنى الذّي ذكرناه لا يجوز و ليس هو إلاّ الجهل والهوى و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤٰادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً** فمعناه لا تقل سمعت كذا فهو كذا و بصرت كذا فهو كذا و علمت كذا فهو كذا و ذلك لأنّ أكثر المسموعات و المبصرات و الإدراكات لا يكون حقّاً و فيه إشارة الى أنّ العلم في غير الضّروريات يحصل من طريق السّمع و البصر و الإدراك و لا شكّ في إحتمال الخلاف فيها فلابدّ للإنسان أن يتفحّص و يتفكّر فيما يسمع أو يبصر أو يتخيّل و يدرك:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ جٰآءَكُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٰا أَنْ تُصيبُوا قَوْمًا بِجَهٰالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلٰى مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمينَ**[١].

أي لا تعملوا بعلم حصل لكم من إخبار الفاسق لأنّه يوجب النّدامة و لذلك أمرهم بالتبيّن و التفحّص حول كلام الفاسق و هكذا في البصر و التخيُّل.

و أمّا قوله: **كُلُّ أُولٰئِكَ كٰانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً** فهو إشارة الى أنّ الأعضاء و الجوارح يوم القيامة يسأل عنها و الآيات مصرّحة به كما في هذه الآية.

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْديهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تُكَلِّمُنٰآ أَيْديهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لآ أَبْصٰارُكُمْ**[٤].

١- الحُجرات = ٦
٢- النُّور = ٢٤
٣- يٰس = ٦٥
٤- فصّلت = ٢٢

إن قلت لم يسأل عنها و عن غيرها من الأعضاء و الجوارح و هى تحت إختيار البشر و لا ذنب لها حتّى يسأل عنها.

قلت وجه السّؤال عنها هو شهادتها على صاحبها و ذلك لأنّه ينكر ما في صحيفة أعماله فتشهد الأعضاء عليه و يحتمل أن تكون شهادتها عليه على وجه الشّكاية و الإعتراض لأنّ الإنسان لم يصرفها في وجهها و اللّه أعلم بما قال و لنشر الى شطرٍ ممّا ورد حول الآية من الأخبار من طريق السنّة.

ما رواه في الفقيه بأسناده قال: رجل للصّادق عليه السلام: أنّ لي جيراناً و لهم جوار يتغنّين و يضربن بالعود فربّما دخلت المخرج فأطيل الجلوس إستماعاً منّي لهنّ فقال له الصّادق عليه السلام: تاللّه أنت، أما سمعت اللّه يقول: إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا فقال الرّجل كأنّي لم أسمع بهذه الآية من كتاب اللّه عزّ وجلّ من عربيّ و لا عجميّ و لا جرم أنّي قد تركتها و أنا أستغفر اللّه تعالى الحديث.

و في عيون الأخبار بأسناده الى عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني قال: حدّثني سيّدي عليّ بن محمّد بن عليّ الرّضا عن أبيه محمّد بن عليّ عن أبيه الرّضا عن أباءه عن الحسين بن عليّ عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ أبا بكر منّي بمنزلة السّمع و إنّ عمر بمنزلة البصر و إنّ عثمان منّي بمنزلة الفؤاد فلمّا كان من الغد دخلت عليه صلى الله عليه وآله وسلم و عنده أمير المؤمنين عليه السلام و أبو بكر و عمر و عثمان فقلت يأبه سمعتك تقول في أصحابك هؤلاء قولاً فما هو فقال صلى الله عليه وآله وسلم نعم ثمّ أشار اليهم فقال هم السّمع والبصر و الفؤاد و سيسألون عن وصيّي هذا و أشار الى عليّ بن أبي طالب ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول: إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ

أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا ثمّ قال ﷺ: و عزّة ربّي أنّ جميع أمّتي لموقفون يوم القيامة و مسئولون عن ولايته و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ وقفوهم أنّهم مسئولون.

و في كتاب علل الشّرائع بأسناده عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني قال حدَّثني عليّ بن جعفر عن أخيه موسى إبن جعفر عن أبيه قال:

قال عليّ بن الحسين عليه السلام: ليس أن تتكلّم بما شئت لأنّ اللّه عزّ وجلّ يقول و لا تقف ما ليس لك به علم، و لأنّ رسول اللّه ﷺ قال: رحم اللّه عبداً قال خيراً فغنم أو صمت فسلم، وليس لك أن تسمع ما شئت لأنّ اللّه عزّ وجلّ يقول: إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا.

و في أصُول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه و ذكر حديثاً طويلاً يقول فيه بعد أن قال أنّ اللّه تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح بن أدم و قسَّمه عليها و فرَّقه فيها ثمّ نظر ما فرض على القلب و اللّسان و البصر في أيةٍ أخرى فقال وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم و لا جلودكم، يعني بالجلود الفروج و الأفخاذ وقال: وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا فهذا ما فرض على العينين من غضّ البصر عمّا حرّم اللّه وهو عملها وهو من الإيمان.

و بأسناده عن الحسن بن هارون قال: قال لي أبو عبد اللّه إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا قال عليه السلام: يسأل السَّمع عمّا سمع و البصر عمّا نظر اليه و الفؤاد عمّا عقد عليه.

و الأحاديث كثيرة[١].



١- نور الثّقلين ج ٣ ص ١٦٥

و إعلم أنّ قوله: **أُولَٰئِكَ** إشارة الى السّمع و البصر و الفؤاد و هو إسم إشارة للجمع المذّكر و المؤنّث العاقل و غيره خلافاً لإبن عطيّة حيث ذهب بكونه مختصّاً بالعاقل و إستدلّ على ذلك بالآية الشّريفة و قال عبَّر عن السَّمع و البصر بأولئك لأنّهما حوّاس لها إدراك و جعلها في هذه الآية مسئولة فهي في حالة من يعقل.

و قد حكى الزّجاج أنّ العرب تعبر عمَّن يعقل و عمّا لا يعقل بأولئك قال الشّاعر:

ذمّ المنازل بعد منزلةاللّوى   و العيش بعد أولئك الأيّام

وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا

نهى اللّه تعالى نبيّه و المراد أمته أو هي معه أن يمشوا في الأرض مرحين، قيل المرح هو السُّرور و الإغتباط بالرّاحة و الفرح، و قيل أنّه البطر و الأشر، و قيل هو التَّبختر في المشي والتكبُّر و قيل تجاوز الإنسان قدره مستخفّاً بالواجب عليه، و قيل هو شدّة الفرح بالباطل.

و قال الرّاغب في المفردات المرح شدّة الفرح و التوسُّع فيه، **والخَرق** بفتح الخاء و سكون الرّاء و القاف قطع الشّئ على سبيل الفساد من غير تدبُّرٍ و لا تفكُّرٍ، و معنى الآية لا تمش في الأرض فرحاً مسروراً أو متكبّراً مغروراً أنّك لن تخرق أي لن تقطع الأرض أو لن تثقبها الى الجانب الأخر ولن تبلغ الجبال طولاً و إرتفاعاً.

قال مجاهد معناه لن تخرق بمشيك على عقبيك كبراً و تنعّماً ولن تبلغ الجبال بالمشي على صدور قدميك تفاخراً و طولاً.

و قال الزّجاج أي لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً و نظيره قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**(٣).

و قال الزّمخشري معنى لن تخرق الأرض، لن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها و شّدة وطائك ولن تبلغ الجبال طولاً بتطاولك و هو تهكّم بالمختال.

أقول و الّذي يقوّي في النَّظر هو أنّ الآية في ذمّ التكبُّر و التبختُّر، و ذلك لأنّ المتكبّر يضع قدميه على الأرض بشدّة كأنّه أراد خرقها و يرى نفسه و شخصه أعظم قدراً و أرفع مقاماً من غيره و هو كناية عن تكبّره و المقصود منها هو النَّهي عن التكبّر على سبيل الإستعارة.

فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لأبنه محمّد بن الحَّنفية: و فرض على الرّجلين أن تنقلهما في طاعته و أن لا تمشي بها مشية عاصٍ.فقال عزّ وجّل: وَ لَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا.

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: من جّر ثوبه خيلاء لا ينظر اللّه اليه.

و قال الأحنف بن قيس، ما تكبّر أحد إلاّ من ذلَّةٍ يجدها في نفسه، رآى رجلٌ رجلاً يختال في مشيه فقال جعلني اللّه مثلك في نفسك و لا جعلني مثلك في نفسي، و مرّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار و هو يتبختر في مشيه فقال له يا بنيّ لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك فقال أو ما تعرفني قال أعرفك معرفةً جيّدة أوَّلك نطفة و آخرك جيفة و أنت بين ذلك تحمل العذرة فأرخى الفتى رأسه و كفّ عمّا كان عليه.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا

١- الفرقان = ٦٣
٢- لقمان = ١٩
٣- لقمان = ١٨

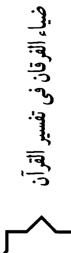
قرأ الحرميان و أبو عمر و أبو جعفر و الأعرج، سيِّئة بالنَّصب و التَّأنيث، و قرأ باقي السَّبعة و الحسن و مسروق، سيِّئه بضمّ الهَمزَة مضافاً لها المذَّكر الغائب و هی الأشهر و عليها المصاحف فعلاً، فعلى القراءة الأولى معنى الآية أنّ النهيين السّابقين و هما، قفوا ما ليس له به علم، و المشي في الأرض مرحاً كان سيِّئة عند ربِّك مكروهاً.

و قيل ذلك إشارة الى كلّ واحدٍ من المناهي المذكورة فيما تقدّم في هذه السورّة و المعنى كان سيّئ كلّ واحدٍ فيها عند اللّه مكروهة و بعبارةٍ أخرى كلّ ذلك أي كلّ ما تقدّم من المنهيات سيِّئة عند ربِّك مكروهاً و على هذا فقوله: **سَيِّئُهُ** خبر كان و أنت ثمّ قال مكروهاً فذكّر، و أمّا على القراءة المشهورة أعني سيِّئه بالتَّذكير و الإضافة الى الهاء، فسيّئه إسم كان و مكروهاً الخبر ولمّا تقدّم من الخصال ما هو سيّئٌ و ما هو حسن أشير بذلك الى المجموع و أفرد سيِّئه و هو المنهّي عنه و المعنى ما تقدّم من الخصال الحسنة و السيّئة فسيئّها عند اللّه مكروه و حسنها ممدوح.

و في الآية قراءة ثالثة و هی قراءة عبد اللّه، سيِّئاته، بالجمع مضافاً لِلهاء و عنه أيضاً بغير، هاء و عنه أيضاً، كان خبيثه عند اللّه مكروهاً و هی قراءة شاذَّة نادرة لا يعتنى بها و خير الأمور أوسطها و معنى الآية لا خفاء فيه إذ لو لم تكن السَّيئات عند اللّه من المكروهات المبغوضات لم ينه اللّه تعالى عنها فأنّ النَّهي عن شيئ كاشف عن وجود المفسدة فيه وكلّ فاسدٍ مكروهٌ.

■

ذٰلِكَ مِمّآ أَوْحىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ فَتُلْقىٰ في جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفيٰكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنينَ وَ ٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلآئِكَةِ إِناثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظيمًا ﴿٤٠﴾ وَ لَقَدْ صَرَّفْنا في هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ ما يَزيدُهُمْ إِلّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ اٰلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحانَهُ وَ تَعالىٰ عَمّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰواتُ ٱلسَّبْعُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَليمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَ إِذا قَرَأْتَ ٱلْقُرْاٰنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ ٱلَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ حِجابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَ جَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فيٓ اٰذانِهِمْ وَقْرًا وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْاٰنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلىٰٓ أَدْبارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطيعُونَ سَبيلًا ﴿٤٨﴾





◀ اللّغة

مَلُومًا: اللّوم الذّم أي مذموماً.

مَدْحُورًا: أي مطروداً.

أَفَأَصْفيٰكُمْ: أصل الصّفاء خلوص الشّئ من الشَّوب.
لَا بْتَغَوْا: الإبتغاء الطّلب.
أَ كِنَّةً: جمع كنان و هو ما ستر.
وَقْرًا: الوقر بفتح الواو الثِّقل في الأذن.

◀ الإعراب

مِنَ ٱلْحِكْمَةِ: متعلّق بأوحى أو حالٌ من العائد المحذوف، أو بدلٌ من ما أوحى أَفَأَصْفيٰكُمْ: الألف مبدلة من واوٍ لأنّه من الصفوة إِنٰاثًا مفعول أوّل لإتَّخذ و الثّاني محذوف أي أولاداً، و يجوز أن يكون، إتَّخذ متعديّاً الى واحدٍ مثل قالوا إتَّخذ اللّه ولداً، و من الملائكة يجوز أن يكون حالاً و أن يتعلّق بإتَّخذ وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا المفعول محذوف تقديره صرَّفنا المواعظ كَمٰا يَقُولُونَ الكاف في موضع نصب أي كوناً كقولهم عُلُوًّا في موضع، تعالياً، لأنّه مصدر قوله تعالى نُفُورًا جمع نافر و يجوز أن يكون مصدراً كالقعود فأن شئت جعلته حالاً و إن شئت جعلته مصدراً، وَلَّوا، لأنّه بمعنى نفروا نَجْوىٰ مصدر أي هو ذو نجوى و يجوز أن يكون جمع نجى كقتيل و قتلى.

◀ التّفسير

ذٰلِكَ مِمَّآ أَوْحىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ

ذلك، إشارة الى جميع أنواع التّكاليف من قوله: لٰا تَجْعَلْ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ الى قوله: وَ لٰا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا و هي أربعة و عشرون نوعاً من التّكاليف بعضها أمرٌ و بعضها نهيٌ بدأها بقوله لا تجعل و إختتمها بقوله: وَ لٰا تَمْشِ ثمّ قال ذلك أي ما ذكرناه من الأوامر و النّواهي ممّا أوحى اليك فكلمة، من، في ممّا،تبعيضيّة أي ما أشرنا اليه سابقاً من الأحكام هو بعض ما أوحى اليك ربّك من الحكمة لا جميعه لأنّ اللّه تعالى أوحى الى نبيّه أحكاماً كثيرة غير ما



ذكره في هذه الآيات كالصّلاة و الصّوم و الحجّ و الجهاد و هكذا من المنهيّات و (مِن) في قوله: **مِنَ ٱلْحِكْمَةِ** بيانيّة و أنّما عدّ الأحكام من الحكمة لوجهين:

أحدهما: أنّ الأحكام من الأوامر والنّواهي تابعة للمصالح و المفاسد الواقعيّة فكلّ شيئ فيه مفسدة نهاه عنه و كلّ شيئ فيه مصلحة أمره به و إذا كان الحكم تابعاً للمصلحة و المفسدة فهو من وضع الشّيئ في محلّه و لا نعني بالحكمة إلاّ هذا.

ثانيهما: أنّ مرجع جميع الأحكام الى التّوحيد و الطّاعة و الإعراض عن الدنيّا و الإقبال الى الآخرة و العقول تدل على صحّتها و هى في جميع الشّرائع و الأديان لا تقبل النّسخ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَتَبْنَا لَهُ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا**(١).

و قال بعض المفسّرين المقصود الدّلائل الّتي تؤدّي الى المعرفة بالحسن و القبيح و الفرق بينهما و الواجب ممّا لا يجب و ذلك كلّه مبيّنٌ في القرآن و الّذي ذكرناه و قصصناه من جملة ما أوحى اليك ربّك في القرآن انتهى كلامه و هو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه.

وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا

نهى اللّه تعالى عن الشّرك به في ألوهيّته و عبادته و الخطاب و أن كان ظاهراً للنبيّ كأكثر الآيات إلاّ أنّ المراد الأمّة و من المعلوم أنّ من جعل مع اللّه إلهاً آخر فهو كافر مشرك و مأواه جهنّم و بئس المصير و يصير بذلك ملوماً، أي مذموماً، و مدحوراً، أي مطروداً و الطّرد في الأصل المنع أي ممنوعاً من رحمة اللّه فأنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك **أَفَأَصْفَيكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ ٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا**.

١- الأعراف = ١۴۵

الهَمزَة في قوله: **أَفَأَصْفيٰكُمْ** للإستفهام و المراد بها الإنكار أي ليس كذلك فهي كقوله ءَإِلٰهٌ مع اللّه، أي ليس معه إلهاً آخر.

أقول لمّا نبَّه تعالى على فساد من أثبت له شريكاً و نظيراً أتبعه بفساد طريقةٍ أخرى من الفساد و هى طريقة من أثبت للّه ولداً و إعتقد أنّ الملائكة بنات اللّه و معنى، أصفاكم، آثركم و خصَّكم و هذا كما قال: ألِلّه البنات و لكم البنون، ألكم الذَّكر وله الأنثى، و هذا خلاف الحكمة و ما عليه عقولكم و عادتكم فأنّ العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء و أصفاها من الشّوب و يكون أردؤها و أدونها للسّادات هكذا قيل.

و قال بعض المفسّرين معناه، ءأخلص لكم البنين و إختار لكم صفوة الشّئ و جعل البنات مشتركة بينكم و بينه فإختصّكم بالأرفع و جعل لنفسه الأدون ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّهم يقولون في ذلك قولاً عظيماً انتهى.

و قال الرّازي أنّهم إعتقدوا أنّ الولد قسمان فأشرف القسمين البنون و أحسنهما البنات ثمّ أنّهم أثبتوا البنين لأنفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم و نقصهم و أثبتوا البنات للّه مع علمهم بأنّ اللّه هو الموصوف بالكمال الّذي لا نهاية له و الجلال الّذي لا غاية له و ذلك يدلّ على نهاية جهل القائل بهذا القول انتهى موضع الحاجة منه.

أقول يستفاد من الآية أمران قبيحان:

أحدهما: إثبات أصل الولد له تعالى.



ثانيهما: أنّهم أثبتوا البنات له تعالى و القول العظيم في آخر الآية إشارة اليهما و أنّما قلنا أنّهم أثبتوا أصل الولد أوّلاً مع أنّه غير مذكورٍ في الآية و أنّما الموجود فيها هو إثباتهم البنات له، لأنّ إثبات البنات فرع على إثبات أصل الولد ذكر في اللّفظ أو لم يذكر، فأنّ أصل الولد لو كان مستحيلاً فكيف يمكن إثبات البنات فثبت و تحقّق أنّهم بقولهم هذا إرتكبوا ذنبين عظيمين أحدهما،

أعظم من الأخر و هو إمكان أصل الولد و القول العظيم هو هذا و أمّا الذّنب الأخر و هو جعل البنات للّه تعالى فهو خروج عن طور العقل في إعتقادهم و ذلك أنّهم كانوا يعتقدون أنّ البنين أشرف من البنات و إذا كان كذلك فلم جعلوا الأشرف لأنفسهم و الأحسن لخالقهم فهم في الحقيقة جعلوا أنفسهم أعلى و أشرف من خالقهم إذ المفروض أنّ خالق البنين و البنات هو اللّه بزعمهم و لم يعلموا أنّ اللّه تعالى منزّه عن هذه الأمور اللائقة بالأجسام فلو كان له ولد فهو مركّب من الأجزاء و الأبعاض و كلّ مركّبٍ محتاج الى أجزاءه و كلّ محتاجٍ فهو ممكنٌ هف.

و أعلم أنّ في إعتقادهم هذا قبحٌ آخر و هو أنّهم نسبوا الملائكة الى الأُوثة أيضاً كذبٌ و إفتراء لأنّ الذكوريّة و الأنوثيّة من شئون الأجسام الكثيفة و الملك من الأجسام اللّطيفة العارية عن الشّهوة و غيرها من صفات الجسم فلا يصدق على الملك ما يصدق على الحيوان و الإنسان كما هو ثابت في محلّه.

وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا فِي هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ مٰا يَزِيدُهُمْ إِلّٰا نُفُورًا

التَّصريف في اللّغة صرف الشّئ من جهةٍ ثمّ صار كناية عن التّبيين فكأنّه قال لم نجعله نوعاً واحداً بل أنواعاً مختلفة، من وعدٍ و وعيدٍ و محكم و متشابهٍ و أمرٍ و نهيٍ و ناسخٍ و منسوخ و الأخبار و الأمثال و القصص و غيرها.

و على هذا فمفعول صرّفنا محذوف أي صرَّفنا في هذا القرآن هذه الأشياء.

و قيل المحذوف هو جبرئيل و المعنى أكثرنا صرف جبرئيل اليك و لم ننزّله مرّةً واحدة.

أقول قرأ حمزة و الكسائي في جميع القرآن خفيفاً من ذكر يذكر و الباقون بالتّشديد في جميع القرآن بمعنى ليتذكّروا فأدغموا التّاء في الذّال فصار ليذّكروا فهو من التّذكر إذا عرفت هذا.

فأعلم أنّ الغاية القصوى من نزول القرآن و جميع الكتب السّماوية بل جعل الأحكام و الشّرائع هو التذكّر ليذكّر الإنسان و يعرف مقامه و وظيفته بالنسّبة الى خالقه و لذلك نقول جميع الأحكام و التّكاليف المقرَّرة يرجع الى التَّوحيد و معرفة اللّه و أمّا سائر المعارف مثل معرفة النّبي و معرفة الإمام و معرفة المعاد و غير فهو فرعٌ على معرفة اللّه ثمّ أنّ اللّه تعالى أرسل رسله الى الخلق و أنزل معهم الكتاب لأجل إيصالهم النّاس الى تلك الغاية أعني بها المعرفة، و بيَّن اللّه تعالى في الكتب السّماوية و لا سيّما القرآن الطُّرق الموصلة الى المطلوب من طريق التعقُّل و التدبُّر في الآيات التَّدوينيّة و التَّكوينية و التّشريعية بأحسن وجهٍ و أبلغ لفظٍ و بيانٍ فأشار الى أصل المقصود و هو علّة بعث الرّسول:

قال اللّه تعالى: **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ**(١).

قال اللّه تعالى: **أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ**(٢).

و من المعلوم أنّ الكفر من أجلى مصاديق الظُّلمة كما أنّ الإيمان من أجلى مصاديق النُّور و الإيمان لا يحصل إلاّ بالمعرفة و هى لا تحصل إلاّ بالتذكّر و التدبُّر في أيات اللّه فينتج أنّ إرسال الرُّسل و إنزال الكتب لأجل حصول المعرفة و هو المطلوب.

ثمّ أنّ اللّه تعالى بيَّن في كتابه المنزل على نبيّه و هو القرأن ما يفيد هذا المعنى بطرقٍ مختلفة و ألفاظٍ متفاوتة، تارةً بطريق الموعظة و أخرى من طريق التّهديد و التَّخويف.

ثالثة: في قالب القصص.

رابعة: في صورة الأمثال.



١- إبراهيم = ١

٢- إبراهيم = ٥

خامسة: بنقل العبر و هكذا بيان الأحكام من الأوامر و النّواهي و أنّ الثّواب على الطّاعة و العقاب على المعصية، و أنّ الجنّة كذا و النّار كذا الى غير ذلك من الآيات.

عباراتنا شتّىٰ و حسنك واحدُ و كلٌّ الى ذاك الجمال يشير

و لكن مع الأسف يكون كثيرٌ من النّاس بل أكثرهم في غفلةٍ عن هذا الأصل الذّي هو غايةٌ لأصل الإيجاد لإنغمارهم في الشّهوات النفسانيّة و متابعتهم الهواجس و الوساوس الشيطانية اذا عرفت ما تلوناه عليك.

فإعلم أنّ التّصريف في الأصل التّغيير و التّبديل أي تبديل لفظٍ بلفظٍ أخر أو تغييره عمّا هو عليه مع حفظ المعنى فيقال مثلاً، ضرب، يضرب ضرباً، لا يضرب لا تضرب، إضرب، لم يضرب و هكذا و المعنى في جميعها واحد و هو الضّرب (زدن) و هذا يسمّى بالصّرف و التّصريف، فقول اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا فِي هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ** معناه غيّرنا الألفاظ و العبارات و القصص و المواعظ و هكذا ليذّكروا، و اللاّم في، لِيَذَّ كروا، لام الغاية و ما يزيدهم، أي ما يزيد هؤلاء المنكرين إلاّ نفوراً، أي بعداً و فراراً عن الحقّ:

قال اللّه تعالى: **فَزٰادَتْهُمْ رِجْسًا إِلٰى رِجْسِهِمْ**[1].

قال اللّه تعالى: **فَمٰا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**[2].

قال اللّه تعالى: **كَلّٰآ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ،فَمَنْ شٰآءَ ذَكَرَهُ**[3].

قال اللّه تعالى: **مٰآ أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ ٱلْقُرْاٰنَ لِتَشْقٰىٓ، إِلاّٰتَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشٰى**[4].

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[5].

۱- التّوبة = ۱۲۵
۲- المُدّثر = ۴۹ و ۵۰ و ۵۱
۳- المُدّثر = ۵۴ و ۵۵
۴- طه = ۲ و ۳
۵- القَمَر = ۱۷

و الآيات الواردة في الذّكر و التذكّر كثيرةٌ جدّا و لكنّ المتذكّر قليلٌ كذلك.

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار لو كان معه أي مع اللّه، ألهةٌ أخرىٰ كما يزعمون، إذاً لإبتغوا الى ذي العرش، أي صاحب العرش و هو اللّه، سبيلاً أي سبيلاً الىٰ مغالبته و مضادّته و إفساد ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعضٍ.

و قيل معناه، لإبتغوا ما يقربهم اليه لعلوّه عليهم و عظمته عندهم و ذلك لأنّهم يقولون أنّ الأصنام تقرّبهم الى اللّه و هذا إقرارٌ منهم على أنفسهم بأنّها تحتاج الى اللّه و هو تعالى أعلى شأناً منها و حيث لم يبتغوا ذلك فقد بطل كونها ألهة، و على هذا فالآية:

قال اللّه تعالى: **أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**[1].

سُبْحانَهُ وَ تَعالىٰ عَمّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا

عطف قوله: **وَ تَعالىٰ** على قوله: **سُبْحانَهُ** لأنّه إسمٌ قام مقام المصدر الّذي هو في معنى الفعل أي براءة اللّه و المعنى أنّ اللّه سبحانه و تعالى، أي أنّه منزّهٌ و يتعالى مكانةً و منزلةً عمّا يقولون هؤلاء الكفّار علوّاً كبيراً لا عُلوّ فوقه، و إنتصب علوّاً على أنّه مصدر غير الصّدر أي تعالياً و وصف بكبيراً مبالغةً في معنى البراءة و البعد عمّا وصفوه به لأنّ المنافاة بين الواجب لذاته و الممكن لذاته و بين القديم و المحدث و بين الغنيّ و المحتاج منافاةٌ لا تقبل الزّيادة.

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا



١- الإسراء = ٥٧

قوله: **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰوٰتُ ٱلسَّبْعُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ** التّسبيح في الأصل تنزيه اللّه تعالى عمّا لا يليق به و أصله المرّ السّريع في عبادة اللّه و هو عامٌّ في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو قصداً و نيّةً فقوله: **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰوٰتُ ٱلسَّبْعُ** الى قوله: **وَ مَنْ فِيهِنَّ** يدلّ على أنّ السّموات و الأرض و من فيهنّ من الخلق من الملائكة و الإنسان و الحيوان و الجماد و النّبات يسبّحون للّه تعالى و ينزّهونه عمّا لا يليق به و هذا ممّا لا كلام فيه بصريح الآية و غيرها من الآيات إلاّ أنّ الكلام يقع في نوع التّسبيح فأنّ التّسبيح على نوعين: إختياريّ، و تسخيريٌّ.

و نعني بإلاختياريّ ما يصدر من المخلوق عن إرادته و ميله و مشيئته.

و بالتسخيريّ ما لا يكون كذلك و صدور التّسبيح في جميع المخلوق كائناً ما كان ثابت بهذه الآية و أمثالها إلاّ أنّه في حقّ الموجودات التّي لها إرادة إختياريّ و في غيرها ممّا لا يكون له إرادة تسخيريٌّ.

إن قلت الموجود اذا لم تكن له إرادة كيف يسبّح و ما معنى التّسبيح في حقّه.

قلت تسبيح كلّ موجودٍ بحسب حاله و بلسانه اللائق به و لا دليل عقلاً على أنّ التّسبيح لا يكون إلاّ بالنُّطق بسبب ضمّ الحروف بعضها الى بعضٍ كما في الإنسان فأنّ نطق كلّ موجود بحسبه و عدم إطّلاعنا على نطقه لا يدلّ على عدمه رأساً و الى هذه الدقيقة أشار المولوي بقوله بالفارسيّة:

نطق آب و نطق خاک ونطق گل　　　هست محسوس حوّاس اهل دل

و الدّليل على ذلك هو أنّ الأنبياء و الأوصياء كانوا يفهمون منطق الطُّيور و الجمادات و هو دليل على وجود النّطق فيها، قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبةٍ:

وَانْقَادَتْ لَه الدُّنْيَا وَالأخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا وَقَذَفَتْ إلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالأَرَضُون مَقَالِيدَهَا وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةُ وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ الْيَانِعَةُ [١].

و الأخبار كثيرة لم نذكرها لعدم الإحتياج بها بعد دلالة صريح القرأن على المدَّعى:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** [٢].

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صٰٓآفَّٰتٍ** [٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَخَّرْنٰا مَعَ دٰاوُودَ ٱلْجِبٰالَ يُسَبِّحْنَ وَ ٱلطَّيْرَ** [٤].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا سَخَّرْنَا ٱلْجِبٰالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَ ٱلْإِشْرٰاقِ** [٥].

قال اللّه تعالىٰ: **كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** [٦] بناءً علىٰ قراءة التّشديد.

قال اللّه تعالىٰ: **سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** [٧].

قال اللّه تعالىٰ: **سَبَّحَ لِلّٰهِ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ مٰا فِى ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** [٨] والآيات كثيرة فالمطلوب ثابت.

أمّا شرعاً فظاهر و أمّا عقلاً فلأنّ العقل لا ينفيه لعدم دلالته على إستحالته و كلّ غير محالٍ جائز عقلاً و أن لم تدرك كيفيّة التّسبيح في غير ذوي العقول بعقولنا القاصرة.

و أمّا قوله: **إِنَّهُ كٰانَ حَلِيمًا غَفُورًا** فالحليم على ما فسّروه هو الّذي لا يعجل بالإنتقام فهو مبالغة في الحلم كما أنّ الغفور مبالغة في المغفرة.

١- خ ١٣٣ ٢- الرَّعد = ١٣
٣- النّور = ٤١ ٤- الأنبياء = ٧٩
٥- ص = ١٨ ٦- الانبياء = ٣٣
٧- الحَديد = ١ ٨- الحَشر = ١

إن قلت اذا كان على عزم أن لا ينتقم البتّة فهذا هو العفو و الغفران و أن كان على عزم أن ينتقم في المستقبل فهو حقود فأين موضع الحلم.

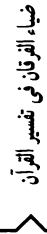
قلت الفرق بينهما إنّ الحليم من عزم على عدم الإنتقام لكن بشرط أن لا يظهر ذلك فأن أظهر عزمه كان ذلك عفواً و غفراناً فظهر الفرق بينهما هكذا فرّق بينهما بعض المحقّقين، و الّذي نقول في الفرق بينهما هو أنّ الحليم لا ينتقم عن المذنب لمصلحةٍ رأها فيه و الغفور يغفر الذّنب رأساً فكلّ غفورٍ حليم و لا عكس فذكر الغفور بعد الحليم في الآية من قبيل ذكر العامّ بعد الخاصّ و كيف كان لا شكّ أنّه تعالى حليمٌ و غفور.

قال بعضهم أنّ حلم اللّه عن المذنبين عظيم:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ ٱللّٰهُ ٱلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دٰابَّةٍ**[١].

و قد وصف اللّه نفسه بالحلم و الغفران في كثير من الآيات.

وَ إِذٰا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنٰا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ ٱلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجٰاباً مَسْتُوراً



الخطاب للرّسول و المعنى اذا قرأت يا محمّد القرأن جعلنا بينك و بين الكفّار الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، أي حجاباً من أن يدركوا ما في القرأن من الحكمة فينتفعوا به و قيل مستوراً عن أبصار النّاس و قيل، مستوراً، هاهنا بمعنى ساتراً عن إدراكه.

و قال بعضهم نزلت الآية في أبي سفيان و النّضر و أبي جهل و أمّ جميل إمرأة أبي لهب كانوا يؤذون الرّسول اذا قرأ القرأن فحجب اللّه أبصارهم اذا قرأ فكانوا يمرّون به و لا يرونه قاله الكلبي.

١- النّحل = ٦١

و قيل نزلت في بني عبد الدّار كانوا يؤذونه في اللّيل اذا صلّى و جهر بالقراءة فحال اللّه بينهم وبين أذاه.

أقول الحجب و الحجاب المنع من الوصول يقال حجبه و حجباً، و حجاب الجوف ما يحجب عن الفؤاد و الحجاب يتّصور على قسمين، محسوسٌ و معقولٌ.

فالحجاب المحسوس ما يدركه الحسّ و المعقول ما يدركه العقل و لا شكّ أنّ المراد بالحجاب في الآية هو العقلّي منه أي أنّ اللّه تعالى خلق في عيونهم مانعاً من أن يروه و يبصروه فهم ينظرون ولكن لا يبصرون.

و قال بعض المحقّقين ليس يعني به ما يحجب البصر و أنّما يعني به ما يمنع من وصول لذّة أهل المعرفة الى الكفّار:

قال اللّه تعالىٰ: **كَلَّآ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**[١].

و قال في أهل الجنّة و أهل النّار:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ**[٢].

أي بين أهل الجنّة و النّار حجاب أي مانع عن وصول لذّة أهل الجنّة الى أهل النّار أو أذيّة أهل النّار الى أهل الجنّة:

قال اللّه تعالىٰ: **فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللّٰهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ**[٤].

١- المُطّففين = ١٥ ٢- الأعراف = ٤٦
٣- الحَديد = ١٣ ٤- الشّورىٰ = ٥١

و من المعلوم أنّه ليس بين اللّه و بين عبده حجابٌ محسوس كيف و هو أقرب اليه من حبل الوريد فالحجاب في هذه الآيات عقليّ لا غيره و لعلَّ قوله: **مَسْتُورًا** إشارة الى ما ذكرناه لأنّ الحجاب المحسوس لا يكون مستوراً بل يكون مرّئياً و الحجاب المستور عن الحواسّ الظّاهرة هو الحجاب العقليّ و هو المطلوب.

وَ جَعَلْنا عَلٰى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِيٓ اٰذانِهِمْ وَقْرًا وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْاٰنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلٰىٓ أَدْبارِهِمْ نُفُورًا

لمّا قال في الآية السّابقة جعلنا بينك و بين الذّين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً على ما مرَّ بيانه كأنّه سأل سائل عن معنى الحجاب و كيفيّته و أنّه كيف يكون فقال تعالى في جوابه **وَ جَعَلْنا عَلٰى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** و هى جمع كنان، و هو ما ستر و المعنى جعلنا على قلوب الكفّار ما يسترها و يمنعها عن التفقّه و درك الحقائق و هذا بعينه تفسيرٌ لقوله: **حِجابًا مَسْتُورًا**.

ثمّ قال: **وَ فِيٓ اٰذانِهِمْ وَقْرًا** و **الوَقر** بفتح الواو الثِّقل في الأذن.

و محصّل الكلام أنّا جعلنا قلوبهم في الأستار و أذانهم في الأثقال فكأنّهم لم يسمعوا شيئاً و فى هذا الكلام إشارة الى سلب الأثار المتّرتبة على القلوب و الأذان:

قال اللّه تعالىٰ: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ اٰذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهآ أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللّٰهُ عَلٰى قُلُوبِ ٱلْكافِرِينَ**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلٰى قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ**[۳].

۱- الأعراف = ۱۷۹
۲- الأعراف = ۱۰۱
۳- يُونس = ۷۴

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ**[2] والآيات كثيرة.

وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْاٰنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا.

خاطب نبيّه و قال له اذا ذكرت ربّك في القرأن حين قراءتك وحده يعني اذا ذكرته بالتّوحيد و أنّه لا شريك له في الإلهيّة، ولّوا، هؤلاء الكفّار عنك على سبيل الإعراض ولم يسمعوه، على أدبارهم نفوراً أي ولّوا عنك نافرين معرضين قيل دخل ملاءٌ من قريش على أبي طالب يزورونه فدخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فقرأ و مرَّ بالتّوحيد ثمّ قال يا معشر قريش قولوا لا إله إلاّ اللّه تملكون بها العرب و تدين لكم العجم فولّوا و أنفروا فنزلت هذه الآية و الظّاهر أنّ الآية في حال الفارّين عند وقت قراءة القرأن و مروره بتوحيد اللّه و المعنى اذا جاءت مواضع التّوحيد فرَّ الكفّار إنكاراً و إستبشاعاً لرفض ألهتهم و إطراحها.

ثمّ أنّ قوله: **وَحْدَهُ** هو إسم وضع موضع المصدر الموضوع موضع الحال عند سيبويه فوحده عنده موضوع موضع ايحاد، و ايحاد موضوع موضع موحد و ذهب يونس الى أنّ، وحده، منصوب على الظّرف و ذهب قومٌ الى أنّه مصدر لا فعل له، و قومٌ الى أنّه مصدر لأوحد، على حذف الزّيادة و قوم الى أنّه مصدر لوحد كما ذهب اليه الزّمخشري و حجج هذه الأقوال مذكورة في كتب النّحو وكيف كان فهو على مذهب سيبويه حال من الفاعل أي موحّداً له.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن نفسه أنّه أعلم من غيره بما يستمعون الكفّار، إليك في حال إستماعهم و المعنى أنّهم يصغون الى سماع قراءتك و

١- الرّوم = ٥٩ ٢- الشّعراء = ٢٠٠

اللّه تعالى يعلم أى شيءٍ غرضهم اى ليس غرضهم من الإستماع هو معرفة الكلام و التّوجه الى معناه بل غرضهم منه الإستهزاء و الإنكار عليك كما هو شأن المعاند المكابر ففضح اللّه تعالى بهذه الآية سرَّهم **إِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ** أي أنّهم بعد الإستماع تناجوا فقال بعضهم ما نفهم ما تقول و قال الأخر أرى بعضه حقّاً و قال أبو جهل أنّه مجنونٌ، و قال أبو لهب أنّه كاهنٌ، و قال خويطب أنّه شاعر و قال الأخر، أساطير الأوّلين و هكذا.

و روي أنّ تناجيهم كان عند عتبة دعا أشراف قريش الى طعامٍ فدخل عليهم النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرأ عليهم القرأن و دعاهم الى اللّه فتناجّوا يقولون ساحرٌ مجنون و قوله مسحوراً الظّاهر أنّه من السِّحر أي قال الظّالمون إن تتَّبعون، أي لا تتَّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً أي رجلاً خبل عقله السِّحر.

و قال مجاهد أي مخدوعاً نحو قوله فأنّى تسحرون أي تخدعون.

و قال أبو عبيدة مسحوراً، معناه أنّ له سحراً أي رئة فهو لا يستغني عن الطّعام و الشّراب فهو مثلكم و ليس بملك و تقول العرب للجبان، قد إنتفخ سحره ولكلّ من أكل أو شرب من أدميٍ و غيره مسحور قال الشّاعر:

أرانا موضعين لأمر غيبٍ و نسحر بالطّعام و بالشّراب

أي نغذي و نعلل و نسحر قال لبيد:

فأن تسألينا فيم نحن فأنّنا عصافير من هذا الأنام المسحّر

أقول ما ذكره أبو عبيدة ليس بمعتمدٍ و لنعم ما قال إبن قتيبة حيث قال:

لا أدري ما الذّي حمل أبا عبيدة على هذا التّفسير المستكره مع أنّ السَّلف فسَّروه بالوجوه الواضحة انتهى.

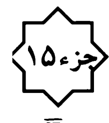
فالحقّ أنّ المسحور في الآية من السِّحر المصطلح و قد حكى اللّه تعالى في كثير من الآيات أنّ الكفّار كان ينسبون الأنبياء الى السِّحر و هكذا كفّار قريش و لم يفهم أحد في الأوّلين و الأخرين من كلمة السِّحر و ما يشتقّ منه إلاّ معناه

المتعارف المشهور عند أهل اللّسان فحمل كلام اللّه الّذي هو في أعلى مراتب الفصاحة على هذه الوجوه الرّكيكة الضّعيفة التّي تنفره الطّباع لا وجه له.

اُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا

أي أنظر الى هؤلاء الكفّار يا محمّد كيف ضربوا لك الأمثال فقالوا أنّه مجنونٌ أو كاهنٌ أو ساحرٌ او غير ذلك فأنّهم ضلّوا أي تحيَّروا فلا يستطيعون سبيلاً أي طريقاً و المقصود من الآية أنّ الأمثال الّتي ضربوها لك من أدلّ الدّلائل علىٰ عجزهم و إستئصالهم في جنب الحقّ و ذلك لأنّها ليست الاّ من التهمة و الإفتراء و هو دليل على العجز و عدم القدرة على الإستدلال و من الأمثال السّائرة الغريق يتشبّث بكلّ حشيشٍ، و هذا داءٌ لا دواء له أعاذنا اللّه تعالى منه.

■



وَ قٰالُوٓا أَ إِذٰا كُنّٰا عِظٰامًا وَ رُفٰاتًا أَ إِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا «۴۹» قُلْ كُونُوا حِجٰارَةً أَوْ حَدِيدًا «۵۰» أَوْ خَلْقًا مِمّٰا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنٰا قُلِ اَلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هُوَ قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا «۵۱» يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً «۵۲» وَ قُلْ لِعِبٰادِي يَقُولُوا اَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ اَلشَّيْطٰانَ كٰانَ لِلْإِنْسٰانِ عَدُوًّا مُبِينًا «۵۳» رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً «۵۴» وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ اَلنَّبِيِّينَ عَلىٰ بَعْضٍ وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُورًا «۵۵» قُلِ اُدْعُوا اَلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ يَمْلِكُونَ كَشْفَ اَلضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لاٰ تَحْوِيلاً «۵۶» أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ اَلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخٰافُونَ عَذٰابَهُ إِنَّ عَذٰابَ رَبِّكَ كٰانَ مَحْذُورًا «۵۷» وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّٰ نَحْنُ مُهْلِكُوهٰا قَبْلَ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهٰا عَذٰابًا شَدِيدًا كٰانَ ذٰلِكَ فِي اَلْكِتٰابِ مَسْطُورًا «۵۸» وَ مٰا مَنَعَنٰا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيٰاتِ إِلاّٰ أَنْ كَذَّبَ بِهَا

ٱلْأَوَّلُونَ وَ اٰتَيْنا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَ ما نُرْسِلُ بِالْاٰياتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَ ما جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِيَ أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ ٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْاٰنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلاٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قالَ أَرَأَيْتَكَ هٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قالَ ٱذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزٰآؤُكُمْ جَزٰآءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾

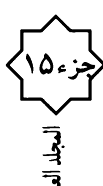
◀ اللّغة

عِظامًا وَ رُفاتًا: عظام بكسر العين جمع عظم و عظم الرحل خشبة بلا انساع و عظم الشّيء أصله كبر عظمه ثمّ أستعير لكلّ كبير، والرُّفات بضم الرّاء التُّراب.

فَسَيُنْغِضُونَ: يقال أنغضت رأسي أنغضه إنغاضاً و نغض برأسه نغضاً اذا حرّكه و النَّغض تحريك الرَّأس بإرتفاعٍ و إنخفاضٍ.

يَنْزَغُ: أي يفسد بينهم.

مَحْذُورًا: أي متقى لشدّته.



◀ الأعراب

يَكُونَ في موضع نصب بعسى و إسمها مضمرٌ فيها و يجوز أن يكون في موضع رفع بعسى و لا ضمير فيها يَوْمَ يَدْعُوكُمْ هو ظرفٌ ليكون أو للبعث

بِحَمْدِهِ في موضع الحال **أَيُّهُمْ** مبتدأ **أَقْرَبُ** خبره و هو إستفهام و الجملة في موضع نصب بيدعون، و قيل أيَّهم، بمعنى الّذي، و هو بدل من الضَّمير في يدعون و التَّقدير، الّذي هو أقرب، **أَنْ نُرْسِلَ** فهي في موضع نصب أو جرٍ على الخلاف بين الخليل و سيبويه.

أَنْ كَذَّبَ في موضع رفع فاعل **مُبْصِرَةً** أي ذات أبصارٍ **تَخْوِيفًا** مفعول له أو مصدر في موضع الحال (والشَّجرة) معطوف على الرُّؤيا.

◄ التَّفسير

وَ قالُوا أَءِذا كُنّا عِظامًا وَ رُفاتًا أَءِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا.

أي قالوا هٰؤلاء الكفّار ءَإذا كنّا عظاماً، بعد الموت و رفاتاً أي تراباً ءَإنّا لمبعوثون، بعد الموت خلقاً جديداً صورة القَّضية صورة الإستفهام و حقيقتها الإنكار لأنّهم كانوا منكرين للبعث و توضيح كلامهم إنّا بعد الموت لا يبقى منّا في القبر إلاّ العظام و التُّراب لأنّ لحومنا تنتشر و تبقى العظام و هى أيضاً بعد مدَّةٍ تصير رفاتاً أي تراباً و هذا حقّ لا كلام فيه و الكلام في قولهم: **أَءِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** و إنّما قالوا خلقاً جديداً لأنّ الخلق الأوّل لم يبق منه إلاّ العظام أو التُّراب فإذا بعث الميّت لا محالة يكون خلقاً جديداً غير خلق الأوّل و هذا لا يكون بعثاً بل هو خلق جديد فالقول بالبعث و إحياء الموتى كما هو المفروض لا معنى له هذا حاصل كلامهم و الجواب عنه أنّ المادّة الأصليّة الّتي خلق الإنسان منها أوّل مرّةٍ باقية و اللَّحم و العظم كانا عارضين عليها و فناء العارض لا يوجب فناء المعروض.

و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ البعث للجسد لا للرّوح و الجسد و أن شئت قلت البدن خلقه اللّه في المرَّة الأولى من التُّراب:

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فيهٰا نُعيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ إِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ**(٣).

و غيرها من الآيات فثبت و تحقّق أنّ المادّة الأصليّة كانت تراباً و اذا كان كذلك فالإحياء ليس خلقاً جديداً لأنّ الأصل فيهما واحد و أنّما الفرق بالعوارض.

ألا ترى أنّ زيداً لو بدَّل لباسه بلباسٍ أخر لا يقال أنّه ليس بزيد فأنّ تغيير اللّباس لا يوجب تغيير صاحب اللّباس نعم لباس الخلق بدلّ بلباس الجديد و هكذا البعث و سيأتي الكلام فيه في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

قُلْ كُونُوا حِجٰارَةً أَوْ حَدِيدًا

لمّا أنكروا البعث و تعجّبوا منه فقال اللّه لنبيّه قل لهم أي لهؤلاء الكفّار المنكرين للبعث كونوا حجارةٍ أو حديداً، أي لو كنتم حجارة أو حديداً بعد الموت لأحياكم اللّه و يحشركم فضلاً عن كونكم عظاماً و رفاتاً فأنّ اللّه قادرٌ على كلّ شيءٍ و هكذا لو كنتم خلقاً جديداً بزعمكم.

مِمّٰا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال مجاهد السّموات و الأرض و الجبال.

ثانيها: قال قتادة أيُّ شيءٍ إستعظموه من الخلق.

ثالثها: قال إبن عبّاس و إبن جبير و الفرّاء، أنّه الموت.

١- طه = ۵۵ ٢- الحجّ = ۵

٣- غافر = ۶۷

قال الفرّاء أنّهم قالوا للنّبي أرأيت لو كنّا الموت من كان يميتنا فأنزل اللّه: **أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ**، يعني الموت نفسه أي ليبعث اللّه عليكم من يميتكم ثمّ يحييكم انتهى.

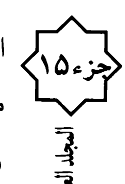
و قال صاحب الكشّاف في قوله: **كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** فردّ قوله: **كُونُوا** على قولهم: **كُنَّا**، كأنّه قيل كونوا حجارةً أو حديداً، و لا تكونوا عظاماً فأنّه يقدر على إحياءكم و المعنى أنّكم تستبعدون أن يجدّد اللّه خلقكم و يردّه الى حال الحياة و الى رطوبة الحيّ و غضاضته بعد ما كنتم عظاماً يابسة مع أنّ العظام بعض أجزاء الحيّ بل هي عمود خلقه الّذي يبني عليه سائره فليس ببدعٍ أن يردّها اللّه بقدرته الى حالتها الأولى ولكن لو كنتم أبعد شيءٍ من الحياة و رطوبة الحيّ و من جنس ما ركّب منه البشر و هو أن تكونوا حجارةً يابسة أو حديداً مع أنّ طباعها الجساوة و الصّلابة لكان قادراً على أن يردّكم الى حال الحياة أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم، يعني أو خلقاً ممّا يكبر عندكم عن قبول الحياة و يعظم في زعمكم على الخالق إحياءه فأنّه يحييه انتهى كلامه.

و قال إبن عطيّة معنى الآية كونوا إن إستطعتم هذه الأشياء الصّعبة الممتنعة التّأتي فأنّه لابدّ من بعثكم.

و قال بعضهم المعنى كونوا ما شئتم فستعادون.

و قال النّحاس هذا قولٌ حسن لأنّهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارةً و أنّما المعنى أنّهم قد أقرّوا بخالقهم و أنكروا البعث فقيل لهم إستشعروا أن تكونوا ما شئتم فلو كنتم حجارةً أو حديداً أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم صلابته و زيادته على قوّة الحديد و صلابته لبعثتم كما خلقتم أوّل مرّةٍ.

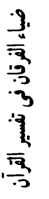
أقول تفسير الآية لا يحتاج الى هذه التّكلفات التّي إرتكبوها و ذكروها في ذيل الآية و ذلك لأنّ قوله:



أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ.معطوفٌ على قوله حديداً أو حجارةً و المعنى أنّكم تبعثون على أيّ حالٍ و ذكر الحجارة و الحديد أو خلقاً ممّا يكبر في صدورهم أيّ شئٍ كان فهو للدّلالة على أنّ اللّه قادرٌ على كلّ شئٍ.

فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ إخبارٌ منه حكايةً عن هؤلاء الكفّار أنّهم يقولون من يعيدنا أحياءً فقال اللّه لنبيّه قل لهم، الّذي فطركم، و خلقكم، أوّل مرّةٍ، أي الّذي خلقكم أوّل مرّةٍ من تراب يقدر على إعادتكم فأنّ الخلق إبتداءً أصعب من الإعادة لبقاء المادّة فيها و إيجادها في الأوّل و بعبارة أخرى أنّه تعالى أوجد المادّة و الصُّورة في الخلق الأوّل و أمّا في الخلق الثّاني أوجد الصُّورة فقط فهو أسهل من الأوّل.

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا أي اذا قلت لهم، الذّي فطركم أوّل مرّةٍ، فسينغضون اليك رؤوسهم، مستبعدين لذلك و قيل يحرّكون رؤوسهم مستهزئين، و النّغض تحريك الرّأس بإرتفاعٍ و إنخفاضٍ و يقولون متى هو، أي أيُّ زمانٍ يكون البعث فأنّ، متى، سؤال عن زمان كما أنّ، أين، سؤال عن مكانٍ قل في جوابهم عسى أن يكون البعث قريباً، و عسى من اللّه واجبة و كلّ ما هو أتٍ فهو قريب حتّى قالوا في المستقبل المحقّق وقوعه أنّه في حكم الماضي أي كأنّه وقع و حيث أنّ البعث ممّا لا ريب في وقوعه فكأنّه وقع أو قريبٌ منه.



يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا

قيل، يوم، يتعلّق بقوله: **عَسَى أَنْ يَكُونَ** و المعنى عسى أن يكون بعثكم أيّها المشركون قريباً يوم يدعوكم، و فى معنى، يوم يدعوكم، قولان:

أحدهما: أنّهم ينادون بالخروج الى أرض المحشر بكلامٍ تسمعه جميع العباد بعد أن يحييهم اللّه لأنّه لا يحسن أن ينادي المعدوم و لا الجماد.

الثّانى: أنّهم يسمعون صيحة عظيمة فتكون تلك داعية لهم الى الإجتماع الى أرض القيامة و يجوز أن يكون ذلك عبارة عن البعث.

و قوله: **فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ** أي تستجيبون حامدين كما يقول القائل جاء فلان بغضبه أي جاء غضبان، و قيل معناه يسْتجيبون معترفين بأنّ الحمد للّه على نعمه لا ينكرونه لأنّ معارفهم هناك ضروريّة كما قال الشّاعر:

فأنّي بحمد اللّه لا ثوب فاجرٍ لبست و لا من غدرة أتقنع

و الإستجابة موافقة الدّاعي فيما دعا اليه بفعله من أجل دعاءه و هى و الإجابة واحدة إلاّ أنّ الإستجابة تقتضي طلب الموافقة بالإرادة بأوكد من الإجابة انتهى ما قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين أنّما أجابهم عن سؤالهم، متى هو، بقوله عسى أن يكون قريباً ولم يعيّن زمانه لأنّ ذلك أي زمان الوقوع ممّا إستأثر اللّه تعالى بعلمه.

و قال الزّمخشري و المعنى يوم يبعثكم فتبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون و قوله: **بِحَمْدِهِ** حال منهم أي حامدين و هى مبالغة في إنقيادهم البعث كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى و يتمنّع، ستركبه و أنت حامدٌ شاكر يعني تحمل عليه و تقسر قسراً حتّى أنّك تلين لين المسمح الراغب فيه الحامد عليه.

و عن سعيد بن جبير أنّهم ينفضون التّراب عن رؤوسهم و يقولون سبحانك اللّهم و بحمدك.

و قوله: **وَ تَظُنُّونَ** أي و ترون الهول فعنده تستقصرون مدّة لبثكم في الدّنيا و تحسبونها يوماً أو بعض يومٍ.

و عن قتادة تحاقرت الدنيّا في أنفسهم حتّى عاينوا الآخرة انتهى.

أقول ما ذكروه في معنى الآية لا بأس به إلاّ أنّ في الآية إحتمال أخر و هو أنّ الكلام تمَّ عند قوله عسى أن يكون قريباً.

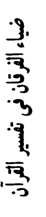
و قوله: **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ** خطاب للمؤمنين لا للكافرين و ذلك لأنّ المؤمنين هم الّذين يستجيبون اللّه بحمده و يحمدونه على إحسانه اليهم فلا يليق هذا إلاّ بهم و عليه فالمعنى يوم يدعوكم أيّها المؤمنون للبعث فتستجيبون الدّاعي بحمده أي حال كونكم حامدين له أو يقال أنّ الخطاب في، يدعوكم، للجميع، و المؤمن يحمده إختياراً و الكافر إضطراراً، و اذا كان الخطاب للكفّار كما ذهب اليه الجمهور بناءً على ظاهر الآية فقوله: **وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا** فالظنّ على بابه و المعنى لمّا رجعوا الى حالة الحياة وقع لهم الظنّ أنّهم لم ينفصلوا عن الدنيّا إلاّ في زمنٍ قليلٍ اذ كانوا في ظنّهم نائمين و يحتمل أن يكون الظنّ بمعنى اليقين من حيث أنّهم علموا أنّ ذلك منقضّ متصرّم و الظّاهر أنّ **وَ تَظُنُّونَ** معطوف على تستجيبون.

و قيل الواو للحال أي و الحال أنتم تظنّون، و أمّا على ما إحتملناه من انّ الآية خطاب للمؤمنين فقط فالخطاب في قوله، و تظنّون، أيضاً اليهم و هو واضح.

و على جميع التّقادير فقوله: **إِنْ لَبِثْتُمْ** كلمة، إن، نافية أي تظّنون ما لبثتم إلاّ قليلاً، و ذلك كما أنّ النّائم بعد اليقظة يظنّ أنّه نام قليلاً كما حكى اللّه تعالىٰ عن أصحاب الكهف:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ**[٢].





١- الكهف = ١٩

٢- البقرة = ٢٥٩

والوجه في ذلك أنّ النّائم حين كونه نائماً يكون غافلاً عن الحوادث مع أنّ روحه لا ينفصل عن جسده بالكليّة بل لها تعلّقٌ مّا به فاذا كان النّائم كذلك فما ظنّك بالميّت الذي فارق روحه جسده بالكليّة فهو أي الميّت أولى بالغفلة من النّائم و لذلك يظنّ بعد البعث أنّه ما لبث في عالم البرزخ إلاّ قليلاً.

وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً

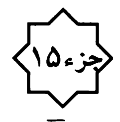
الخطاب للرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أمره اللّه تعالى أن يأمر عباده أن يقولوا بالكلمة التّي هي أحسن في مكالماتهم و محاوراتهم ثمّ علّل ذلك بأنّ الشّيطان ينزغ بينهم العداوة اذا لم يقولوا بالتّي هي أحسن.

قال بعض المفسّرين من العامّة نزلت في عمر بن الخطّاب و ذلك أنّ بعض الكفّار شتم عمر فسبّه عمر أيضاً و همّ بقتله فكاد يثير فتنة فنزلت الآية منسوخة بأية السّيف انتهى.

و الحقّ أنّ الآية لا تقبل النّسخ و أية السّيف لا تدلّ على جواز السبّ و الشتم في حقّ الكفّار بل الآية باقية على ما هي عليه أعني حسن الكلام بالنّسبة الى جميع النّاس الى يوم القيامة فأنّ حسن الكلام هو أساس دعوة الأنبياء في جميع الأعصار قال اللّه تعالى لنبيّه صلّى الله عليه و آله و سلّم:

أُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ(١).

و هذه الآية كما ترى تدلّ على أنّ الدّعوة الى الحقّ يبتغي أن تكون بالحكمة و الموعظة الحسنة و أن يكون الجدال مع المخالف بالطّريق التّي هي أحسن و لا شكّ أنّ السَّب و الشَّتم و السيئ من القول لا يدخل تحت الموعظة



١- النّحل = ١٢٥

الحسنة و الجدال بالتّي هي أحسن هذا كلّه مضافاً الى أنّ الأدب و العقل السّليم أيضاً يحكم بمصداق الآية فأنّ الإنسان العاقل لا يقول إلاّ بالتّي هي أحسن فضلاً عن العاقل الموحّد المعتقد بأحكام الشريعة و لأجل هذا قلنا أنّ الآية لا تقبل النّسخ.

و قال بعضهم المعنى، يقولوا، أي يقول بعض المؤمنين لبعضٍ الكلم التّي هي أحسن أي يجلّ بعضهم بعضاً و لا يصدر منه إلاّ الكلام الطيّب و القول الجميل فيكونوا مثل المشركين في معاملة بعضهم بعضاً بالتّهاجي و السّباب و الحروب و النّهب للأموال و السّبي للنّساء و الذّراري انتهى.

أقول هذا التّفسير أيضاً لا يرجع الى محصّل لما ذكرناه من أنّ حسن الكلام من الأصول العقليّة الشّاملة للكافر و المسلم و تخصيصه بالمؤمن مع المؤمن لا دليل عليه ولو كان الأمر كما ذكره هذا القائل لقال اللّه تعالى قل للمؤمنين و حيث قال قل لعبادي علمنا أنّ الآية على عمومها.

و قيل المراد بالعباد في الآية هنا المشركون اذ المقصود هنا الدُّعاء الى الإسلام فخوطبوا بالخطاب الحسن ليكون ذلك سبباً الى قبول الدّين فكانّه قيل قل للّذين أقرُّوا أنّهم عبادٌ لي يقولوا التّي هي أحسن و هو توحيد اللّه و تنزيهه عن الولد و إتّخاذ الملائكة بنات فأنّ ذلك من نزغ الشّيطان و وسوسته و تحسينه انتهى.

و قيل أنّ لفظة عبادي مضافة اليه تعالى كثر إستعمالها في المؤمنين في القرأن:

قال اللّه تعالىٰ: **فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ**(٣) و هكذا انتهىٰ.

١- الزمر = ١٨ ٢- الفجر = ٢٩
٣- الانسان = ٦

و أنت ترىٰ أنّ هذه الإحتمالات بعيدة عن مساق الآية.

و نقل عن مجاهد و الحسن أنّ معناه قل يا محمّد لعبادي يأمروا بما أمر اللّه به و ينهوا عنه هذا و الّذي ظهر لنا من الآية الشّريفة أنّ معناها قل يا محمّد لعبادي يقل بعضهم لبعضٍ أحسن ما يقال مثل رحمك اللّه و يغفر اللّه لك و يجتنبوا عن السبّ و الشّتم و الغلظة في الكلام و ذلك لأنّ القول السيّئ يوجب العداوة و البغضاء في الطّباع فينزغ الشّيطان بينهم لأنّه للإنسان عدوٌّ مبين واللّه أعلم.

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا

قال صاحب الكشّاف و فسّر التّي هي أحسن، بقوله: **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ** الى قوله: **يُعَذِّبْكُمْ** يعني يقولوا لهم هذه الكلمة و نحوها و لا يقولوا لهم أنّكم من أهل النّار و أنّكم معذّبون و ما أشبه ذلك مِمّا يغيظهم و يهيجهم علىٰ الشرّ.

و قوله: **إِنَّ ٱلشَّيْطٰانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ** إعتراضٌ يعني يلقي بينهم الفساد انتهىٰ.

أقول على ما ذكره الزّمخشري فالآية مفسّرة لقوله: **بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** فكأنّه قيل و ما قول الأحسن، فقال: **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ** الىٰ آخر الآية و تبعه على ذلك غير واحدٍ من المفسّرين و هو ممّا لا بأس به والّذي ظهر لنا منها أنّها بصدد بيان حكمٍ كليّ و هو أنّ اللّه تعالىٰ أعلم بحال العباد إن يشأ يرحمهم وإن يشأ يعذّبهم و حيث أنّ الرّحمة و العذاب مسبّبان عن الطّاعة و العصيان فالمعنى إن يشأ يرحم العاصي و إن يشأ يعذّبه أو إن يشأ يجعل العاصي من أهل الطّاعة مثلاً لأنّه قادر على ذلك و حيث لم يجعله كذلك على سبيل الجبر و الإضطرار و جعله مختاراً في فعله و قوله نستكشف منه أنّ المصلحة إقتضت ذلك.

و الىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا** أي و ما وكّلناك بمنعهم من الكفر و العصيان بل أرسلناك داعياً لهم الىٰ الإيمان، و زاجراً عن الكفر فأن أجابوك فهو و إلاّ فلا شئ عليك و اللّوم و العقوبة لهم.

ثمّ أردف كلامه بقوله:

وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ ٱلنَّبِيّنَ عَلٰى بَعْضٍ وَ اٰتَيْنٰا داوُودَ زَبُورًا

قوله: **وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** ممّا لا خلاف فيه و ذلك لأنّه تعالىٰ خالق لهما و ما فيهما و الخالق أعلم بحال مخلوقه لأنّه خلقه على علم و مصلحةٍ و أنّما قال، بمن في السّموات و الأرض، و لم يقل، بما في السّموات و الأرض لأنّ الكلام مختصّ بذوي العقول الّذين عبَّر عنهم بالعباد، و كلمة، من، تختصّ بهم بخلاف، ما، فأنّها لا تختصّ بهم بل تشمل غيرهم من الموجودات و عليه فالمراد بمن في السّموات، الملائكة، و بمن في الأرض الإنسان و المعنىٰ ربّك أعلم بحال عباده من الملائكة والأناسى.

و قوله: **وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ ٱلنَّبِيّنَ عَلٰى بَعْضٍ** إشارة الىٰ تفاوت مراتب الأنبياء و أنّهم ليسوا على حدٍّ سواء فالنبيّ يطلق عليهم على سبيل التّشكيك لا التّواطئ من حيث الفضيلة و أمّا من حيث النبوّة فالصّدق على سبيل التّواطئ كالإنسان الذّي يطلق على جميع أفراد البشر على سبيل التّواطئ مع أنّ بعضهم أفضل من بعضٍ و كيف كان لا خلاف في أصل الحكم و هو أنّ الأنبياء بعضهم أفضل من بعضٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلٰى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ ٱللّٰهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ اٰتَيْنٰا عيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنٰاتِ وَ أَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ**[١].

و قد أجمعوا علىٰ أنّ أفضل الأنبياء و المرسلين أولوا العظم منهم و أفضل من جميع الأنبياء و المرسلين هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاتم النّبيين.

١- البقرة = ٢٥٣

قال صلى الله عليه وآله وسلم: أنّا سيّد ولُد أدم ولا فَخر.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: كُنت نَبيّاً وأدم بين الماء والطّين.

وقال اللّه تعالىٰ مخاطباً إيّاه لولاك لما خلقت الأفلاك.

و قوله: **وَ اٰتَيْنٰا داٰوُدَ زَبُورًا** فالزّبور إسم كتاب داود النّبي كما أنّ التّوراة إسمٌ لكتاب موسىٰ و الإنجيل إسم لكتاب عيسىٰ و القرأن إسمٌ لكتاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الرّاغب في المفردات يقال زبرت الكتاب كتبته كتابة عظيمة و كلّ غليظ الكتابة يقال له زبوراً و خصّ الزّبور بالكتاب المنزّل علىٰ داود عليه السلام و قرئ **زبُور** بضمّ الزّاي جمع زبور، و قيل بل الزّبور كلّ كتابٍ صعب الوقوف عليه من الكتب الإلٰهيّة و قال بعضهم الزّبور إسمٌ للكتاب المقصور علىٰ الحكم العقليّة دون الأحكام الشّرعية، و الكتاب لِما يتضمّن الأحكام و الحكم و يدلّ على ذلك أنّ زبور داود عليه السلام لا يتضمّن شيئاً من الأحكام الشّرعية.

قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لاٰ تَحْوِيلًا

أي قل لهؤلاء الكفّار يا محمّد، الّذين زعمتم، أرباباً و آلهةً من دون اللّه فلا يملكون أي لا يقدرون على كشف الضرّ عنكم و لا تحويلاً أي و لا تحويله الى سواكم و من يكون عاجزاً عن كشف الضرّ كيف يكون معبوداً.

توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ المعبود ينبغي أن يكون ملجأً و ملاذاً للعابد في جميع الأمور و لا سيّما عند نزول الغموم و البليّات و يستجيب له إذا دعاه في الخلوات و الجلوات ومن المعلوم أنّ إستجابة الدّعوات متوقّفة على القدرة فمن كان عاجزاً كيف يستجيب الدُّعاء و يكشف الضرّ و هذا لا يتحقّق إلاّ في الموجود الّذي يقدر على كلّ شئ و هو اللّه الّذي لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم ذُو

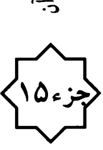
الجلال و الإكرام و أمّا غيره كائناً من كان فهو مخلوق له محتاجٌ اليه و الى هـذا المعنى أشار اللّه بقوله: **قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاٰ يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ لاٰ تَحْوِيلًا**.الى سواكم، فأنّ العاجز لا يعبُد العاجز لأنّه من قبيل ضمّ المعدوم الى المعدوم و هو كما ترى.

و قال الرّازي المقصود من هذه الآية الرّد عـلى المشـركين و قـد ذكـرنا أنّ المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهليّة أن نشتغل بعبادة اللّه فنحن نـعبد بـعض المقرّبين من عباد اللّه و هم الملائكة ثمّ أنّهم إتّخذوا لذلك الملك الّذي عبدوه تمثالاً و صورةً و إشتغلوا بعبادته على هـذا التّأويـل و اللّـه تـعالى إحـتجّ عـلى بطلان قولهم في هذه الآية فقال: **قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ** وليس المراد الأصنام لأنّه تعالى قال في صفتهم.**أُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلٰى رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ**. و ابتغاء الوسيلة الى اللّه تعالى لا يليق بالأصنام ألبتّة ثمّ قـال إذا ثبت هذا فنقول أنّ قوماً عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية و قيل أنّـها نـزلت في الّذين عبدوا المسيح و عزيراً و قيل أنّ قوماً عبدوا نـفراً مـن الجـنّ فأسـلم النّفر من الجنّ و بقى أولئك النّاس متمسّكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية انـتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكره الرّازي في نزول الآية و إنّها ردٌّ على المشركين الّـذين عـبدوا الملائكة الى آخر ما قال لا دليل عليه بل الدّليل قائم على خلافه.

أمّا أوّلاً: فلأنّ إطلاق قوله تعالىٰ: **قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ** يشمل الأصنام و الملائكة و كلّ ما سوى اللّه تـعالى و تـخصيصه بـالملائكة لا دليل عليه.

ثانياً: قوله تعالىٰ: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ ٱللّٰهِ**[١] نزل فيمن عبد الأصنام و غيرها.



١- يُونس = ١٨

و الحاصل أنّ المراد بالآية كلّ مشركٍ أشرك باللّه و عبد من دونه سواءٌ كان المعبود من الملائكة أم من الأصنام، و قوله أنّهم إتّخذوا لذلك تمثالاً و صورةً و إشتغلوا بعبادته، لا نفهم معناه فإنّا لم نسمع أنّ كفّار قريش و المشركين في صدر الإسلام جعلوا للملك صورةً و تمثالاً و إشتغلوا بعبادته و ذلك لأنّهم كانوا عبدة الأصنام الّتي كانت في البيت ولم ينقل أحد من المفسّرين و لا من غيرهم أنّهم عبدوا الملائكة و قوله هؤلاء شفعاءنا، إشارة الى الأصنام بإتّفاق المفسّرين هذا و الّذي حصل لنا من الآية الشّريفة هو أنّ المعبود الّذي يقدر على كشف الضرّ و تحويله الى من شاء و أراد ليس إلاّ اللّه تعالى و ما سواه كائناً ما كان عاجزٌ لا يقدر علىء شيٴ و هو المطلوب.

أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا

أُولئك مبتدأ **والّذين** صفته، و الخبر، **يَبتغُون**، و الوسيلة القرب الى اللّه.

و الظّاهر أنّ، **أُولئك** إشارة الى المعبودين و **الواو** في، **يَدعُون**، للعابدين و العائد على، الّذين، منصوب محذوف أي يدعونهم.

و قيل **أُولئك** إشارة الى النبيّين الّذين تقدّم ذكرهم و الضّمير المرفوع في **يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ** عائد عليهم و المعنى يدعون النّاس الى دين اللّه، أي أنّ الّذين عظمت منزلتهم و هم الأنبياء لا يعبدون إلاّ اللّه و لا يبتغون الوسيلة إلاّ اليه فهم أحقّ بالإقتداء بهم فلا يعبدوا غير اللّه، و الحقّ أنّ، أولئك إشارة الى المعبودين كما عليه أكثر المفسّرين و القول بأنّه إشارة الى النبيّين كما ذكره القائل بعيدٌ جدّاً و على هذا فالمعنى أنّ المعبودين الّذين يدعونهم المشركون من الأصنام و غيرها و يجعلونهم الوسائل الى اللّه، يبتغون أي يطلبون الى ربّهم الوسيلة و هو دليلٌ على عجزهم و ضعفهم و إحتياجهم الى اللّه فهم و

العابدون لهم على حدٍّ سواء في الإحتياج فكيف يعقل التوسُّل بهم مع أنّهم أيضاً موصوفون بالعجز و الحاجة و قد ثبت أنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و إذا كان كذلك فينبغي الإشتغال بعبادة اللّه الواحد القهّار الّذي لا يوصف بالعجز أبداً و قوله: **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** فقيل أنّه إبتداءٌ و خبر و المعنى، ينظرون أيّهم أقرب فيتوسّلون به و يجوز أن يكون، أيّهم أقرب، بدلاً من الواو في **يَبْتَغُون**.

و قال الزّمخشري أيٌّ، موصولة، أي يبتغي من هو أقرب منهم و أزلف الوسيلة الى اللّه فكيف بغير الأقرب.

و قال البيضاوي **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** بدلّ من واو **يَبتغُون**، أي يبتغي من هو أقرب منهم الى اللّه الوسيلة فكيف بغير الأقرب، و يرجون رحمته و يخافون عذابه كسائر العباد فكيف تزعمون أنّهم آلهة انتهى و قوله: **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** معناه أنّه حقيق بأن يحذره كلّ أحدٍ حتّى الرُّسل و الملائكة.

و أعلم أنّ قوله: **أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ** أي القربة بالطّاعة، هو الّذي دعاهم الى القول بأنّه ليس المراد بقوله: **مِنْ دُونِهِ** الأصنام بل المراد الملائكة كما ذهب اليه الرّازي أو المسيح أو عزير على ما ذهب اليه قومٌ آخرون و حاصل إستدلالهم هو أنّ إبتغاء الوسيلة أي القربة بالطّاعة لا يعقل إلاّ لذوي العقول و أمّا الأصنام الّتي لا عقل لها فكيف تبتغون الى ربّها الوسيلة.

قال الشّيخ ﷺ في التّبيان، (أُولئك) رفع بالإبتداء و(الّذين) صفة لهم و، (يَبتغُون الىٰ ربّهم) خبر الإبتداء و المعنىٰ الجماعة الّذين يدعون يبتغون الى ربّهم، (أيّهُم) رفع على الإبتداء و (أقرَب) خبره، و المعنى يطلبون الوسيلة ينظرون أيّهم أقرب فيتوسّلون به ذكره الزّجاج و قال قوم الوسيلة هي القربة و الزُّلفة.



و قال الزّجاج الوسيلة و السّؤال و الطلبة واحد و المعنى أنّ هؤلاء المشركين يدعون هؤلاء الّذين إعتقدوا فيهم أنّهم أرباب و يبتغي المدعوون أرباباً الى ربّهم القربة و الزُّلفة لأنّهم أهل إيمان به و المشركون باللّه يعبدونهم من دون اللّه أيّهم أقرب عند اللّه بصالح أعماله و إجتهاده في عبادته فهم يرجون بأفعالهم رحمته و يخافون عذابه بخلافهم أيّاه: **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** أي منفيّ انتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه و الأقوال كلّها يرجع الى قولٍ واحد و هو أنّ المدعوّ كائناً ما كان سوى اللّه تعالى فهو محتاج اليه لأنّ جميع ما سواه مخلوق له و المخلوق يحتاج الى خالقه حدوثاً و بقاءً فلا جرم يبتغي الى ربّه الوسيلة الأقرب فالأقرب و يرجو رحمته و يخاف عذابه و إذا كان كذلك فلا ينبغي لأحدٍ أن يدعو غير اللّه الّذي لا إله إلاّ هو فهو الحقيق بالمعبوديّة لا غيره فأنّ ما سواه باطل و هو الحقّ كما قيل ألاّ كلّ شيءٍ ما سوىٰ اللّه باطلّ.

وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذٰلِكَ فِى ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا

كلمة، إن نافية، بمعنى، ليس، من، قيل أنّها زائدة في المبتدأ تدلّ علىٰ إستغراق الجنس و الجملة بعد إلاّ، خبر المبتدأ، و قيل المراد الخصوص و التّقدير و إن من قريةٍ ظالمة.

و قال إبن عطيّة و، من، لبيان الجنس.

كيف كان فالظّاهر من الآية أنّ جميع القرى تهلك قبل يوم القيامة.

قيل إهلاكها تخريبها و فناءها و يتضمّن تخريبها هلاك أهلها بالإستئصال أو شيئاً فشيئاً أو تعذّب و المعنى أهلها بالقتل و أنواع العذاب.

و قيل الهلاك للصّالحة و العذاب للطالحة.

و قال بعض المفسّرين المراد بذلك قرى الكفر و الضّلال دون قرى الإيمان.

و قيل أنّ ذلك يكون في آخر الزّمان فيهلك اللّه كلّ قريةٍ بعقوبة بعض من فيها و يكون إمتحاناً للمؤمنين فيها.

و قيل أنّ المعنى ما من قريةٍ إلاّ و اللّه مهلكها أمّا بالموت لأهلها أو عذابٌ يستأصلهم ثمّ أخبر أنّ ذلك كائنٌ لا محالة و لا يكون خلافه لأنّ ذلك مسطورٌ في الكتاب يعني اللّوح المحفوظ هكذا فسّروا الآية.

و الحقّ أنّ في الآية تقدير و هو الأهل أي و أن من أهل قريةٍ إلاّ نحن مهلكوها و ذلك لأنّ الإهلاك لا يطلق إلاّ على الموجود المتّصف بالحياة كالإنسان و الحيوان.

و أمّا في الجماد و النّبات فلا يطلق الإهلاك عليهما فلا يقال أهلكنا الجبال و النّبات و لا شكّ أنّ القرية بما هي من سنخ الجماد فلا يصحّ الإهلاك فيها إلاّ بإعتبار أهلها ألا ترى أنّ قوله: **وَاسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ** يقدّر فيه الأهل أي و أسأل أهل القرية لأنّ السّؤال عن القرية لا معنى له و هكذا فيما نحن فيه إذا عرفت هذا.

فنقول معنى الآية ليس من قريةٍ أي من أهل قريةٍ إلاّ نحن مهلكوا أهلها قبل يوم القيامة بسبب ظلمهم و عنادهم للحقّ أو معذّبوا أهلها بأنواع العذاب في الدّنيا قبل الآخرة و قوله: **كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا** أي مقدّراً مكتوباً في اللّوح المحفوظ و قد أشير الى هذا المعنى في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمَآءِ**[٤] والآيات كثيرة.

١- الأعراف = ٤
٢- الحجر = ٤
٣- الأنبياء = ١١
٤- العنكبوت=٣٤

وَ مٰا مَنَعَنٰآ أَنْ نُرْسِلَ بِالْاٰيٰاتِ إِلّآ أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَ اٰتَيْنٰا ثَمُودَ ٱلنّٰاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهٰا وَ مٰا نُرْسِلُ بِالْاٰيٰاتِ إِلّٰا تَخْوِيفًا

روي عن إبن عبّاس أنّه قال أنّ أهل مكّة سألوا أن يجعل لهم الصّفا ذهبا و أن ينحي عنهم الجبال فيزرعون إقترحوا ذلك على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فأوحى اللّه اليه أن شئت أن أفعل ذلك لهم فأن تأخّروا عاجلتهم بالعقوبة و أن شئت إستأنيت بهم عسى أن أجتبي منهم مؤمنين فقال بل تستأني بهم يا ربّ فنزلت الآية و أستعير المنع للتّرك و المعنى ما تركنا إرسال الآيات المقترحة إلاّ لتكذيب الأوّلين بها و تكذيب الأوّلين ليس علّة في إرسال الآيات لقريش فالمعنى إلاّ إتّباعهم طريقة تكذيب الأوّلين بها فتكذيب الأوّلين فاعلٌ على حذف المضاف فإذا كذّبوا بها كما كذّب الأوّلون عاجلتهم بعذاب الإستئصال و قد إقتضت الحكمة أن لا أستأصلهم.

و قال صاحب الكشّاف و عادة اللّه في الأمم أنّ من إقترح منهم فأجيب اليها ثمّ لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الإستئصال، فالمعنى و ما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلاّ أن كذّب بها الّذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود و أنّها لو أرسلت لكذّبوا بها تكذيب أولئك و قالوا هذا سحرٌ مبين كما يقولون في غيرها و أستوجبوا العذاب المستأصل و قد عزمنا أن نؤخّر أمر من بعثت إليهم الى يوم القيامة إنتهى.

أقول الآيات جمع آية و هى العلامة و هى على قسمين:

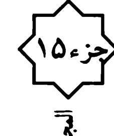
تدوينىّ، و تكوينىّ، فالتّدوينيّ عبارة عن الكلمات و الحروف سمّيت به لتدوينها في الكتابة و لذلك سمّيت أيات القرآن بها لأنّها دونت في الكتاب و دلّت على متكلّمها بأحسن الوجوه فكلّ آية من أيات الكتاب تدلّ على أنّ اللّه تعالى تكلّم بها أي أوجد حروفها في الخارج و هو دليل على أنّه متكلّمٌ و هو المطلوب.

و التكوينيّ منها عبارة عن جميع الموجودات الخارجيّة فكلّ واحدٍ منها يدّل على وجود خالقه كما قال الشّاعر:

و في كلّ شيءٍ له آيةُ تدلّ على أنّه واحدُ

و المراد بالآيات في الآية الشّريفة هو الآيات التكوينيّة و هي أيضاً على قسمين:

عامّة و خاصّة، و نعني بالعامّة الموجودات الّتي أوجدها اللّه تعالى بمشيئته و إرادته من الجماد و النّبات و الحيوان و الإنسان و الملك و غيرها ممّا خلق و وجد، و بالخاصّة الموجودات الّتي أوجدها بعد الإقتراح و الطّلب بسبب الأنبياء و الأوصياء و ذلك مثل المعجزات و الكرامات كإحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص على يد عيسى روح اللّه و إيجاد النّاقة بدعاء صالح النّبي و غير ذلك من المعجزات على أيدي الأنبياء و الفرق بينهما أنّ الإعتراض عن العامّة و عدم الإعتناء بها بل و الإنكار بها لا يترتّب عليه شيءٍ في الدنيا من العذاب ألا ترىٰ أنّ إنكار الأنبياء و هم من أظهر مصاديق الآيات التكوينيّة لا يوجب العذاب في الدنيا فضلاً عن غيرهم من الآيات و امّا الآيات الخاصّة فيترتّب على الإعراض عنها و الإنكار بها العذاب في الدّنيا و الآخرة معاً و السرّ في ذلك أنّها وجدت بدعوة الأنبياء بعد الإقتراح و الطّلب من ناحية القوم حيث علّقوا الإيمان بهم على وجودها فإذا وجد الشّرط لابدّ من تحقّق المشروط و هو الإيمان باللّه و رسوله و التخلّف عن الشّرط يوجب الذمّ و العقوبة عقلاً و شرعاً و لذلك جرت سنّة اللّه على عذاب المتخلّف في دار الدّنيا قبل الآخرة لكونه كالمستهزئ باللّه و بذلك يستحقّ الهلاك و العقاب و الى ذلك أشار اللّه تعالىٰ بقوله:



وَ لَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً[١].

١- طه = ١٣٤

و قال اللّه تعالى: **كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنَآ آلَ فِرْعَوْنَ**[۱].

و من المعلوم أن المراد بتكذيبهم الآيات هو تكذيبهم الآيات الّتي أوجدها اللّه لهم بعد إقتراحهم إيّاها من المعجزات و الكرامات على أيدي الأنبياء و لذلك قال تعالىٰ: **وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا**[۲] والمَوعد لا يكون إلاّ بعد تَماميّة الحجّة ليهلك من هلك عن بيّنة إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية أنّ المانع من إرسال الآيات إنّما هو تكذيبهم إيّاها كما كذّبوها من كان قبلهم فأنّ حكم الأمثال واحد فهٰؤلاء الكفّار كمن كان قبلهم في إنكار الآيات و نزول العذاب عليهم بعده و أستدلّ على ذلك بقوله: **وَ آتَيْنا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهٰا وَ مٰا نُرْسِلُ بِالْآيٰاتِ إِلّٰا تَخْوِيفًا** و قد مرَّت قصَّة النّاقة و عقرها في سورة هود عند قوله:

قال اللّه تعالى: **وَ يٰا قَوْمِ هٰذِهِ نٰاقَةُ ٱللّٰهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهٰا تَأْكُلْ فيٓ أَرْضِ ٱللّٰهِ**[۳].

قال اللّه تعالى: **فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا في دٰارِكُمْ ثَلاٰثَةَ أَيّٰامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**[۴].

قال اللّه تعالى: **فَعَقَرُوا ٱلنّٰاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ**[۵].

و حاصل الكلام إنّا آتينا ثمود النّاقة آيةٍ مبصرةً تبصر النّاس بما فيها من العبر و الهدى من الضّلالة و الشّقاء من السّعادة و قيل معنى مبصرة مضيئة وكيف كان أنّهم ظلموا بها أي بالنّاقة لأنّهم سخروها و عصوا اللّه في ذلك أو أنّهم ظلموا بتكذيبهم إيّاها بأنّها معجزةٌ باهرة.

۱- الأنفال = ۵۴
۲- الكهف = ۵۹
۳- هود = ۶۴
۴- هُود = ۶۵
۵- الأعراف = ۷۷

و قوله: **وَ مٰا نُرْسِلُ بِالْآيٰاتِ إِلاّٰ تَخْوِيفًا** أي لم نبعث الآيات و نظهرها إلاّ لتخويف العباد من عقوبة اللّه و معاصيه و اللّه أعلم.

وَ إِذْ قُلْنٰا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحٰاطَ بِالنّٰاسِ وَ مٰا جَعَلْنَا اَلرُّؤْيَا اَلَّتِي أَرَيْنٰاكَ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلنّٰاسِ وَ اَلشَّجَرَةَ اَلْمَلْعُونَةَ فِي اَلْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمٰا يَزِيدُهُمْ إِلاّٰ طُغْيٰانًا كَبِيرًا

أي أذكر يا محمّد الوقت الّذي قلنا لك أنّ ربّك أحاط بالنّاس، أي أحاط علماً بأحوالهم و ما يفعلونه من طاعةٍ أو معصيةٍ و ما يستحقّونه على ذلك من الثّواب و العقاب هكذا قيل في تفسير الآية و يحتمل أن تكون الإحاطة كناية عن القدرة أي أنّه تعالى قادرٌ على فعل ذلك بهم لأنّهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته.

أمّا قوله: **وَ مٰا جَعَلْنَا اَلرُّؤْيَا اَلَّتِي أَرَيْنٰاكَ إِلاّٰ فِتْنَةً لِلنّٰاسِ** ففيه أقوال:

أحدها: أنّ المراد رؤية عينٍ ليلة الإسراء فلمّا أخبر المشركين بها كذّبوه على ما مرَّ البحث فيه عند قوله: **سُبْحٰانَ اَلَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ** ذكره إبن عبّاس وإبن جبير و الحسن و قتادة و إن جريح و مجاهد و غيرهم.

ثانيها: أنّها رؤية نومٍ و هي رُؤيا أنّه سيدخل مكّة فلمّا صدَّه المشركون في الحديبيّة شكّ قوم و دخلت عليهم الشُّبهة فقالوا يا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أو ليس قد أخبرتنا إنّا ندخل المسجد فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم قلت لكم إنّكم، تدخلونها السّنة فقالوا لا فقال: سندخلها إنشاء اللّه فكان ذلك فتنةً و إمتحاناً.

ثالثها: ما روي عن أبي جعفر عليه السلام و أبي عبد اللّه عليه السلام إنّ ذلك رؤيا رآها في منامه أنّ قروداً تصعد منبره و تنزل فساءه.

ذلك، هذه الأقوال ذكرها الشّيخ في التّبيان.

رابعها: ما نقلوه عن أبي العبّاس القرطبي أنّه قال أنّها رؤية عينٍ يقظة لمّا أراه

جبرئيل مصارع القوم في بدر و كانت فتنةٍ لقريش فأنّهم لمّا سمعوا أخذوا في الهزء و السخريّة بالرّسول.

و أختار الأوّل فيها أكثر المفسّرين و أستدّلوا على ذلك بأنّ السُّورة مكيّة فالرُّؤية أيضاً كانت فيها و من المعلوم أنّ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لم ير رؤيةً فيها إلاّ ما أراه اللّه ليلة الإسراء و هى الّتي كانت سبباً للفتنة فصدّقه قوم و كذّبه آخرون.

و قال بعض المفسّرين أنّ الرُّؤية كانت بالمدينة و كانت رؤية نومٍ و لا يبعد أن تكون الآية مدنيّة و أن كانت السُّورة مكيّة.

و على هذا القول فالحّق ما ذهب اليه إبن عبّاس من أنّ الرُّؤية هي رؤيا رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه يدخل مكّة في سنة الحديبيّة فردّ فافتتن المسلمون لذلك فنزلت الآية و أمّا ما نقلوه عن أبي العبّاس القرطبي فهو ضعيفٌ لم يذهب اليه أحد غيره.

أقول أقرب الأقوال عندي و أصحّها هو القول الثالث و هو الّذي روي عن أبي جعفر عليه السلام و عليه فالرُّؤية كانت رؤية نومٍ و هى أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم رأى في منامه أنّ قروداً تصعد منبره و تنزل فساءه ذلك و أنّما إخترنا هذا القول لأنّ الشّجرة الملعونة في القرآن فسّرت ببني أميّة و بني مروان على ما سيأتي القول فيه و الأخبار الواردة عن طريق أئمّتنا تؤيّد هذا القول مضافاً الى قرنية السياق و قول بعض المفسّرين أنّه لم يكن له بمكّة منبر يدفعه، أمّا أوّلاً فيجوز أن يرىٰ بمكّة رؤيا المنبر بالمدينة هذا إذا قلنا أنّ الآية مكيّة.

و أمّا أن قلنا أنّها مدنيّة كما هو المحتمل فلا إشكال أصلاً.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال المذكورة ما هذا لفظه.

و هذا التّأويل الثّالث قاله أيضاً سهل بن سعدٍ قال سهل، أنّما هذه الرّؤيا هي أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم كان يرى بني أميّة ينزون على منبره نزو القردة فأغتمّ لذلك و ما إستجمع ضاحكاً من يومئذٍ حتّى مات صلّى الله عليه و آله و سلّم فنزلت الآية مخبرة

أنّ ذلك من تملّكهم و صعودهم يجعلها اللّه فتنةً للنّاس و إمتحاناً و قرأ الحسن بن عليّ عليه السلام في خطبته في شأن بيعته لمعاوية، «و أن أدري لعلّه فتنة لكم و متاعٌ الى حينٍ» انتهىٰ.

ثمّ نقل القرطبي عن إبن عطيّة أنّه قال في هذا التأويل نظر و لا يدخل في هذه الرّؤيا عثمان و لا عمر بن عبد العزيز و لا معاوية انتهى كلامه.

أقول قوله: و لا يدخل في هذه الرّؤيا عثمان الى آخر ما قال ناشٍ عن التعصُّب و العناد و مع ذلك مخالف لما رآه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم اللّهم إلاّ أن يدّعي القائل أنّ هؤلاء الثّلاثة لو يكونوا من بني أميّة أو لم يجلسوا على منبر رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته و إلاّ كيف يقول أنّهم لم يدخلوا في هذه الرّؤيا مع أنّ عثمان كان أصل الشّجرة و أساسها و هو الّذي سلَّط بني أميّة على رقاب المسلمين و مهَّد لهم بساط السَّلطنة و الظُّلم بعد موته بشهادة التّواريخ و أمّا معاوية فكان أخبث النّاس و لا نعلم في الحكّام بقولٍ مطلق أظلم و أخبث و أرذل منه بل هو و أبوه من أظهر مصاديق الشّجرة الملعونة.

و أمّا عمر بن عبد العزيز و أن كان من خيار بني أميّة و بني مروان إلاّ أنّه أيضاً داخل في الشّجرة بغصبه الخلافة و بالجملة الرّؤيا تعلّق بكلّ من جلس بعد رسول اللّه في مسنده غصباً و عدواناً و أنّما رآهم رسول اللّه في صورة القردة لا في صورة الإنسان لأنّ اللّه تعالى أرى رسوله في المنام صورتهم البرزخيّة الّتي بها يحشرون يوم الحشر و أن كانوا في الدنيّا بصورة الإنسان و لتحقيق هذا البحث مقام آخر.

روي العياشي عن الباقر عليه السلام أنّه سأل عن قوله تعالىٰ: وَ مَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَاكَ فقال عليه السلام: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم رأى رجالاً من بني تيم و عدي على المنابر يردُّون النّاس على الصّراط القهقرى. قيل والشّجرة الملعونة. قال عليه السلام هم بنو أميّة.



و عن الصّادق عليه السلام: مثله إلاّ أنّه قال: رأى أنّ رجالاً على المنابر يردُّون النّاس ضلالاً، زريق و زفرا.

قال الفيض قدس سره بعد نقل الحديث في تفسيره لهذه الآية أقول و هما كنايتان عن الأوّلين و تيم و عدّي جدّاهما و في رواية أخرى عنه عليه السلام.

أنّ رسول اللّه قد رأى رجالاً من نارٍ على منابر من نارٍ يردُّون النّاس على أعقابهم القهقرى.قال ولسنا نسمّي أحداً.

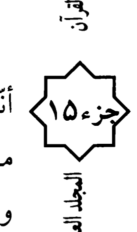
و في روايةٍ أخرى إنّا لا نسمّي الرّجال ولكن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم رأىٰ قوماً على منبره يضلّون النّاس بعده على الصّراط القهقري.

و في روايةٍ أخرى قال: رأيت اللّيلة صبيان بني أمّية يرقون على منبري هذا فقلت يا ربّ معي فقال لا ولكن بعدك.

و في الكافي عن أحدهما أصبح رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يوماً كئيباً حزيناً فقال علّي عليه السلام: مالي أراك يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم كئيباً حزيناً فقال صلى الله عليه و آله و سلم و كيف لا أكون كذلك و قد رأيت في ليلتي هذه أنّ بني تيم وبني عدّي و بني أميّة يصعدون منبري هذا يردُّون النّاس عن الإسلام القهقري فقلت يا ربّ في حياتي أو بعد موتي فقال بعد موتك.

قال الفيض قدس سره في تفسيره الصّافي بعد نقله ما نقلناه عنه ما هذا لفظه:

أقول معنى هذا الخبر مستفيض بين الخاصّة و العامّة إلاّ أنّ العامّة رأووا تارةً أنّه رأى قوماً من بني أميّة يرقون منبره و ينزون عليه نزو القردة فقال هو حظّهم من الدنيّا يعطونه بإسلامهم، و أخرى أنّ قروداً تصعد منبره و تنزل فساءه ذلك و إغتمّ به و القمّي قال نزَت لمّا رأى النّبي في نومه كأن قروداً تصعد منبره فساءه ذلك و غمَّه غمّاً شديداً فأنزل اللّه **وَ مَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً** ليعمهوا فيها و الشّجرة الملعونة كذا نزلت و هم بنو أميّة.



و في الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: أما أنّ معاوية و إبنه سيليانها بعد عثمان ثمّ يليها سبعة من ولد الحكم بن أبي العاص واحداً بعد واحدٍ يكمله إثني عشر إمام ضلالة و هم الّذين رأى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم على منبره يردُّون الأمّة على أدبارهم القهقري عشرة منهم من بني أميّة و رجلان أسّسا ذلك لهم و عليهما أوزار هذه الأمّة الى يوم القيامة.

و في مقدمة الصّحيفة السّجادية عن الصّادق عليه السلام: عن أبيه عن جدّه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم رأى في منامه أنّ رجالاً ينزون على منبره نزول القردة يردّون الناس على أعقابهم القهقري فأستوى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم جالساً و الحزن يعرف في وجهه فأتاه جبرئيل بهذه الآية وَ مٰا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنٰاكَ - يعني بني أميّة -.

قال لجبرئيل أعلى عهدي يكونون و فى زمني قال لا ولكن تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشراً ثمّ تدور رحىٰ الإسلام على رأس خمس و ثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمساً ثمّ لابدّ من رحىٰ الضّلالة و هى قائمة على قطبها ثمّ ملك الفراعنة قال و أنزل اللّه في ذلك: إِنّآ أَنْزَلْنٰاهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ، وَ مآ أَدْرٰيكَ مٰا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ، لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ،[1] تملكها بنو أميّة ليس فيها ليلة القدر فأطلع اللّه نبيّه أنّ بني أميّة تملك سلطان هذه الأمّة و ملكها و طول هذه المدّة فلو طاولتهم الجبال لطالوا عليها حتّىٰ يأذن اللّه بزوال ملكهم و هم في ذلك مستشعرون عداوتنا أهل البيت و بغضنا أخبر اللّه نبيّه بما يلقي أهل بيت محمّد و أهل مودّتهم و شيعتهم منهم في أيّام ملكهم.

١- القدر = ١/٢/٣

و في الاحتجاج عن الحسن بن علّي عليه السلام في حديثٍ أنّه قال لمروان بن الحكم أمّا أنت يا مروان فلست أنا سببت و لا سببت أباك و لكنّ اللّه عزّ وجلّ لعنك ولعن أباك و أهل بيتك و ذريّتك و ما خرج من صلب أبيك الى يوم القيامة على لسان محمّد يا مروان ما تنكر أنت و لا أحد ممّن حضر هذه اللّعنة من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لك و لأبيك قبلك و ما زادك اللّه يا مروان بما خوَّفك إلاّ طغياناً كبيراً و صدق رسوله يقول اللّه تعالى و الشّجرة الملعونة في القرأن و نخوّفهم فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً أنت يا مروان و ذريّتك الشّجرة الملعونة في القرأن.

عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث و جعل أهل الكتاب القائمين به والعاملين بظاهره و باطنه من شجرةٍ أصلها ثابت و فرعها في السّماء تؤتي أكلها كلّ حينٍ بأذن ربّها أي يظهر مثل هذا العلم لمحتمليه في الوقت و بعد الوقت و جعل أعدائها أهل الشّجرة الملعونة الّذين حاولوا إطفاء نور اللّه بأفواههم و يأبى اللّه إلاّ أن يتّم نوره الحديث[١].

أقول هذا ما ذكره الفيض قدس سره لهذه الآية و الأخبار الواردة في الباب كثيرة و بالجملة لا خلاف عند الشيعة أنّ المراد بالقردة و الخنازير الّتي رأها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في المنام من غصب الخلافة من البدو الى الختم و بالشَّجرة الملعونة شجرة الغاصبين التّي أظهر مصاديقها بني أميّة هذا هو الّذي يستفاد من روايات أهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

و أمّا قوله: **وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا** فمعناه أنّ التّخويف لا يؤثّر في الخبيث كما قال اللّه تعالى: **وَ ٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ**

١- تفسير الصّافي ص ٢٦٢

اَلَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا[١] ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

درختی که تلخ است وی را سرشت گرش بر نشانی بباغ بهشت
ور از جوی خلدش بهنگام آب به بیخ انگبین ریزی و شهد وناب
سرانجام گوهر ببار ناورد همان میوهٔ تلخ بار آورد

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا

قد مرّ الكلام فيها في سُورة البقرة و بيّنا هناك كيفيّة خلق أدم و سجود الملائكة إيّاه فلا نعيد الكلام فيها في المقام ونقول زيادةً عليه في المقام.

ما رواه في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال إنّ إبليس قاس نفسه بأدم فقال: خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[٢] فلو قاس الجوهر الذّي خلق اللّه منه أدم بالنّار كان ذلك أكثر نوراً و ضياءً من النّار انتهى.

قال الفيض قدس سره في شرحه أراد بالجوهر الذّي خلق اللّه منه أدم روحه المقدّسة التّي هي أمرٌ من اللّه عزّ وجلّ و كلمةٌ من كلماته و نورٌ من أنواره التّي بها صار أدم مكرّماً مستحقّاً لمسجوديّة الملائكة و هى نورٌ معنويٌّ عقلانيّ لا نسبة له الى الأنوار الحسيّة كنور الشّمس و القمر فضلاً عن نور النّار الّذى يضمحل في النّهار و أدم في الحقيقة عبارة عنه لا عن الجسد و لمّا لم يكن لإبليس منها نصيب لم يره من أدم و لم يعرفه و هو يختصّ بالأنبياء و الأولياء و أهل السّعادة الكاملة من العلماء و أمّا الأرواح التّي لسائر أفراد البشر فلابليس في مثلها مشاركة انتهى.

و أيضاً بأسناده عن عيسىٰ بن عبد اللّه القرشي قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد اللّه عليه السلام فقال عليه السلام: يا أبا حنيفة بلغني أنّك تقيس



١- الاعراف = ٥٨
٢- الاعراف = ١٢

قال نعم قال عليه‌السلام لا تقس فأنّ أوّل من قاس إبليس حين قال: خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ[1] **فقاس ما بين النّار و الطّين ولو قاس نوريّة أدم بنوريّة الماء عرف فضل ما بين النُّورين و صفاء أحدهما على الأخر**[2].

أقول ما ذكره قدس‌سره في بيانه للحديث و قال أراد بالجوهر الذّي خلق اللّه منه أدم روحه المقدسة الى أخر ما قال لا يتمّ إلاّ على القول بأنّ أدم خلق من الرُّوح أعني بها الجوهر و هو أوّل الكلام فأنّ القرأن يصرّح في كثير من الآيات أنّ أدم خلق من تراب:

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فيها نُعيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرىٰ**[3].

فالجوهر الّذي خلق اللّه منه أدم هو الأرض و الرُّوح نفخت فيه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**[4].

و الحاصل أنّه لا شكّ أنّ جسم آدم خلق من مادّة الأرض هي الجوهر الّذي يعبّر عنه بالرُّوح و هذا ممّا لا نفهم معناه.

نعم لو قيل أنّ الّذي صار به أدم مكرّماً مستحقّاً لمسجوديّة الملائكة هو روحه لا جسده فهو حقّ لا مرية فيه و ذلك لأنّ الرُّوح لشرفها نسبت الى اللّه تعالى في قوله من روحي، و بهذا الإنتساب صار أدم مسجوداً للملائكة و هذا ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في الجوهر الّذي خلق اللّه منه أدم في هذا الحديث أيّ شئ هو و لا يعلمه إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم و لم يبيّن في هذا الحديث حقيقة الجوهر الّذي خلق اللّه منه أدم فأنّ الّذي أشير به في القرأن

١- الاعراف = ١٢
٢- الوافي ج ١ ص ٥٨
٣- طه = ٥٥
٤- الحجر = ٢٩

في قوله: **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ** أنّما هو متعلّقٌ بجسده لا بروحه كما أنّ التّسوية أيضاً فيه لا في الرُّوح و قد ثبت أنّ الجسد مضافٌ و منتسبٌ اليه فيقال جسد أدم و أنّ أدم ليس هو الجسد فقط بل هو الجسد و الرُّوح معاً على قولٍ أو هو الرُّوح فقط على قول أخر.

و اذا كان أدم هو الرُّوح كما أشار اليه الفيض مُتَبَرِّ لا الجسد كما هو أحد القولين فلقائلٍ أن يقول أنّ الرُّوح من أي شيٍ خلقت و أيّ شيٍ مادّته و ما معنى الجوهر الذّي خلق اللّه منه الرُّوح.

و قوله هي أمرٌ من أمر اللّه و كلمة من كلماته و نورٌ من أنواره لا يوضح لنا معنى الجوهر الذّي خلق اللّه منه الرُّوح فتأمّل فيه فأنّه دقيقٌ جدّاً و لا يعلم حقيقة الجوهر إلاّ اللّه و الرّاسخون قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**.

قَالَ أَرَأَيْتَكَ هٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا

قوله: **أَرَأَيْتَكَ** الكاف فيه للخطاب و لا يلحق كاف الخطاب، هذه إلاّ اذا كانت بمعنى أخبرني بهذا المعنى قدّرها الحوفي و تبعه الزّمخشري و هو قول سيبويه فيها و الزّجاج و عليه فقوله أرأيتك بمعنى عرّفني و أخبرني و، هذا، منصوب بأرأيتك و المعنى أخبرني عن هذا الّذي كرّمته عليّ لم كرّمته علّي و قد خلقتني من نارٍ و خلقته من طينٍ و حذف هذا لما في الكلام من الدّليل عليه.

و قال صاحب الكشّاف الكاف للخطاب و، هذا، مفعول به و المعنى أخبرني عن هذا الّذي كرّمته عليّ أي فضّلته لم كرّمته عليّ و أنا خير منه فإختصر الكلام بحذف ذلك ثمّ إبتدأ فقال لئن أخّرتن الخ.

و قال بعضهم الكاف في أرَأيتَك حرف خطاب و مبالغة في التّنبيه لا موضع لها من الإعراب فهي زائدة و معنى أرأيت أتأمّلت و نحوه و في المقام أقوال كثيرة لا نحتاج الى ذكرها و قد تلخّص من هذا كلّه، أنّ الكاف إمّا في موضع نصب و، هذا، مبتدأ، و أمّا حرف خطاب، و هذا، مفعول بأرأيت بمعنى محذوف و هو الجملة الإستفهاميّة أو مذكور و هو الجملة القسميّة و معنى لئن أخرتن، أي أخّرت مماتي و أبقيتني حيّاً و قوله: **لَأَحْتَنِكَنَّ** أي لأ قطعنَّ و قيل أي لأستولينَّ عليهم أي على ذريّته إلاّ قليلاً.

و قال إبن زيد أي لأضلنّهم.

و قال الطّبري لأستأصلنَّ، قيل أنّ منشأ كفر إبليس كان جهله بصفة العدل من اللّه حين لحقته الأنفة و الكبر و ظهر ذلك من قوله: **أَرَأَيْتَكَ هٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ** اذ نَصَّ علىٰ أنّه لا ينبغي أن يكرم بالسّجود منّي من أنا خيرٌ منه و أقسم إبليس على أنّه يحتنك ذريّة أدم و علم ذلك إمّا بسماعه من الملائكة و قد أخبرهم اللّه به أو إستدلّ على ذلك بقولهم: **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ**(١) أو نظر اليه فتوسم في مخايله أنّه ذو شهوةٍ و عوارض كالغضب ونحوه و رأى خلقته مجوّفة مختلفة الأجزاء.

أقول منشأ كفره هو الكبر لا أنّه كان جاهلاً بصفة العدل من اللّه و ذلك لما نرى أنّ هذه الصّفة في العلماء أكثر من الجهّال و العوام فكيف يمكن أن يقال أنّ منشأ الكبر في العالم هو جهله بصفة العدل من اللّه و هو واضح لا خفاء فيه.

و أنّما أستثنى القليل بقوله: **إِلَّا قَلِيلًا** لأنّه علم أنّه يكون في ذريّة أدم من لا يتسلّط عليه كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله: **وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ،إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**(٢).

١- البقرة = ٣٠
٢- الحجر = ٣٩/٤٠

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَوْفُورًا

قَالَ ٱذْهَبْ أي قال اللّه لإبليس إذهب، و من المعلوم أنّ الأمر بالذّهاب ليس على حقيقته من نقيض المجئ و لكن المعنى إذهب لشأنك الذّي إخترته فكأنّه قيل له إفعل ما شئت فأنّي أخَّرت أجلك الى يوم الوقت المعلوم ثمّ عقَّبه تعالى بذكر ما جرّه سوء فعله من جزاءه و جزاء أتباعه فقال: **فَمَنْ تَبِعَكَ** فيما دعوته فأنّ جهنّم جزاءوكم جزاءً موفوراً، أي وافراً كثيراً ليس بقليلٍ ثمّ قال تعالى.

■

وَ ٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَ ٱلْأَوْلَادِ وَ عِدْهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّيكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ إِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَ لَوْلَا

أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ ٱلْحَيٰوةِ وَ ضِعْفَ ٱلْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلٰوةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلٰى غَسَقِ ٱللَّيْلِ وَ قُرْاٰنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْاٰنَ ٱلْفَجْرِ كانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَ مِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ ٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَ قُلْ جاءَ ٱلْحَقُّ وَ زَهَقَ ٱلْباطِلُ إِنَّ ٱلْباطِلَ كانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

◀ اللّغة

ٱسْتَفْزِزْ: الإستفزاز الإستزلال يقال إستفزّه و إستزلّه بمعنى واحد و تفزّز الثّوب اذا تمزّق.

وَ أَجْلِبْ: الإجتلاب السَّوق بجلبةٍ من السّائق و أصل الجلبة شدّة الصَّوت و به يقع السَّوق.

يُزْجي: بالجيم أي يجري يقال أزجىٰ يُزْجي إزجاءً اذا ساق الشّئ حالاً بعد حالٍ.

لِتَبْتَغُوا: الإبتغاء الطَّلب.

حٰاصِبًا: الحَصب الرَّمي يقال حصب الحصى يحصبه حصباً اذا رما رمياً متتابعاً و الحاصب ذو الحصب و الحاصب فاعل الحصب.

قٰاصِفًا: القاصف الكاسر بشدّةٍ.

تَبِيعًا: التَّبيع التّابع المطالب بدم المقتول.

أُنٰاس: بضمّ الألف لغة في النّاس.

فَتِيلًا: الفتيل هو المفتول الّذي في شقّ النّواة و قيل في بطنها و النَّقير في ظهرها و القطمير قشرها.

تَرْكَنُ: الرِّكون الإعتماد و قيل هو الميل.

غَسَقِ: غسق اللّيل ظلمته و هو وقت عشاء الأخرة.

فَتَهَجَّدْ: التهجُّد، التيقّظ بما ينفي النّوم و قيل التَّهجد يكون بعد النّومة.

نٰافِلَةً: قيل هي الزّيادة و قيل هي الغنيمة.

◀ الإعراب

مَنِ ٱسْتَطَعْتَ من إستفهام في موضع نصب بإستطعت أي من إستطعت منهم إستفزازه رَبُّكُمُ مبتدأ ٱلَّذِي و صلته الخبر و هو صفة لقوله (الّذي فطركم) و لا إشكال فيه و أن تباعد ما بينهما إِلاّٰ إِيّٰاهُ: إستثناء منقطع و قيل هو متّصل خارج على أصل الباب بِكُمْ حال من جٰانِبَ ٱلْبَرِّ أي نخسف جانب البرّ بِهِ تَبِيعًا يجوز أنّ تتعلّق الباء بتبيع و بتجدوا و أن تكون حالاً من تبيع يَوْمَ نَدْعُوا ظرفٌ لقوله فتستجيبون أو هو بدل من، يدعوكم و قيل هو مفعول أي إذكروا يوم ندعو بِإِمٰامِهِمْ متعلّق بندعوا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنٰا منصوب على المصدر أي سننّا بك سنّة من تقدّم من الأنبياء.

و قيل أنّه مفعول به أي إتَّبع سنّة من قد أرسلنا إِلىٰ غَسَقِ ٱللَّيْلِ حال من الصّلاة وَ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ معطوفٌ على الصّلاة أي و أقم صلاة الفجر نٰافِلَةً لَكَ

حال أي صلاة نافلة أو مصدر بمعنى تهجّد أي تنفّل نفلاً مِنَ ٱلْقُرْءَانِ من لبيان الجنس هي للتّبعيض وَ رَحْمَةٌ بالنّصب عطفاً على، ما.

◄ التّفسير

وَ ٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَ ٱلْأَوْلَادِ وَ عِدْهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا

و إستفزز عطف على فأذهب و عطف عليه ما بعده من الأمر و كلّها بمعنى التّهديد كقوله إعملوا ما شئتم، و، من، إستطعت موصولة مفعولة و قال أبو البقاء هي إستفهام في موضع نصب بإستطعت و ليس بظاهر لانّ إستفزز و مفعول استطعت محذوف و تقديره من إستطعت أن تستفزّه، و الصَّوت هنا الدُّعاء الى معصية اللّه و قيل هو الغناء و المزامير و اللَّهو و قيل صوت المزماز و قوله: **وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ** فالإجتلاب السَّوق بجلبةٍ من السّائق و أصل الجلبة الصَّوت و به يقع السّوق، بخيلك و رجلك، فالخيل تطلق على الأفراس حقيقةً و على أصحابها مجازاً و رجلك جمع راجل مثل ركب و راكب و تجر و تاجر هذا على قراءة حفص فأنّه قرأ، و **رَجَلك**، بكسر الجيم و قرأ سائر القرّاء بسكون الجيم مثل صاحب و صحب و راكب و ركب و أمّا على القول بالكسر فهو من رجل يرجل فهو راجل، و المعنى أنّه تعالى بعد إستمهال الشيطان الى يوم القيامة أمهله و أمره على سبيل التّهديد بأمورٍ مذكورة في الآية.

فقال له أوّلاً: إذهب فمن تبعك منهم فأنّ جزاءوكم جهنّم.

ثانياً: قال له: **وَ ٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ** أن تستفزّه، بصوتك أي بدعوتك الى معصية اللّه فأنّ كلّ صوتٍ دعي به الى الفساد فهو من صوت الشّيطان.

ثالثاً: قال له: **وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِك** أي سقهم الى معصية اللّه

بأعوانك و أنصارك و قيل ليس له خيل و لا رجل و لا هو مأمورٌ و أنّما هو زجرٌ و إستخفاف به كما تقول لمن تهدّده فأصنع ما شئت و إستعن بما شئت.

قال صاحب الكشّاف، فإن قلت ما معنى إستفزاز إبليس بصوته و إجلابه بخيله و رجله.

قلت هو كلام وارد مورد التّمثيل مثلّت حاله في تسلُّطه على من يغويه بمغوارٍ أوقع على قومٍ فصوّت بهم صوتاً يستفزّهم من أماكنهم و يقلقهم عن مراكزهم و أجلب عليهم بجنده من خيالةٍ و رجالةٍ حتّى إستأصلهم انتهى.

أقول قال أمير المؤمنين: أَلاَ وَ اِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَاسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَ رَجِلَه الخ[١].

و قال عليه السلام في خطبةٍ أخرى: أَلاٰ وَإِنَّ الشَّيْطٰانَ قَدْ ذَمَرَ حِزْبَهُ، وَ اسْتَجْلَبَ جَلْبَهُ، لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلىٰ أَوْطٰانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبٰاطِلُ إِلىٰ نِصٰابِهِ، الخ[٢]

و قال عليه السلام في موضع أخر: فَاحْذَرُوا عِبَادْ اللّٰهِ اَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ وَاَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنَدَائِهِ وَاَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ الخ[٣].

و قال عليه السلام: لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ اَصْلِكُمْ وَوَقَعَ فِى حَسَبِكُمْ وَدَفَعَ فِى نَسَبَكُمْ وَاَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ وَقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ فِى حَوْمَةِ ذُلٍّ وَحَلْقَةِ ضِيقٍ وَعَرْصَةِ مَوْتٍ ألخ[٤].

و أمّا قوله: وَ شٰارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوٰالِ وَ ٱلْأَوْلاٰدِ

فقد روي في المناقب بأسناده عن إبن عبّاس في قوله: وَ شٰارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوٰالِ وَ ٱلْأَوْلاٰدِ أنّه جلس الحسن بن علّي عليه السلام و يزيد بن

١-خ ١٠
٢-خ ٢٢
٣-خ ١٩٢
٤-خ ٢٢

معاوية بن أبي سفيان يَأكُلان الرُّطب فقال يزيد يا حسن إنّي منذ كنت أبغضك قال الحسن يا يزيد إعلم أنّ إبليس شارك أباك في جماعه فأختلط المائان فأورثك ذلك عداوتي لأنّ اللّه يقول: وَ شَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَ ٱلْأَوْلَٰدِ و شارك الشّيطان حرباً عند جماعه فولد له صخر فلذلك كان يبغض جدّي رسول اللّه ﷺ إنتهىٰ.

و في أصول الكافي بأسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول اللّه ﷺ أنّ اللّه حرَّم الجنَّة على كلّ فحّاش بذيّ قليل الحياء لا يبالي ما قال و لا ماقيل فيه فان فتَّشته لم تجده إلاّ لغية او شرك شيطان قيل يا رسول اللّه ﷺ و في النّاس شرك شيطان فقال رسول اللّه ﷺ أما تقرأ قول اللّه عزّ و جّل و شاركهم في الأموال و الأولاد إنتهىٰ.

و أيضاً في الكافي بأسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام يا أبا محّمد أيّ شئٍ يقول الرَّجل منكم إذا دخلت عليه إمرأته قلت جعلت فداك أيستطيع الرّجل أن يقول شيئاً فقال عليه السلام ألا أعلّمك ما تقول قلت بلى قال عليه السلام تقول بكلمات اللّه إستحللت فرجها و في أمانة اللّه أخذتها اللّهم إن قضيت لي في رحمها شيئاً فأجعله بارّاً تقيّاً و أجعله مسلماً سويّاً و لا تجعل فيه شركاً للشّيطان قلت و بأيّ شئٍ يعرف ذلك قال عليه السلام أما تقرأ كتاب اللّه عزّ وجّل، و شاركهم في الأموال و الأولاد ثمّ قال أنّ الشّيطان لجئ حتّى يقعد من المرأة كما يقعد الرّجل منها و يحدث كما يحدث و ينكح كما ينكح قلت بأيّ شئٍ يعرف ذلك قال عليه السلام بحبّنا و بغضنا فمن أحبّنا كان نطفة العبد و من أبغضنا كان نطفة الشّيطان.



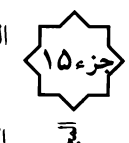
و في من لا يحضره الفقيه قال الصّادق عليه السلام من لم يبال ما قال و لا ما قال فيه فهو شرك شيطان، و من لم يبال أن يراه النّاس مسيئاً فهو شرك شيطان و من إغتاب أخاه المؤمن من غير ترةٍ بينهما فهو شرك شيطان، و من شغف بمحبّة الحرام و شهوة الزّنا فهو شرك شيطان انتهىٰ.

و في تفسير العيّاشي عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن شرك الشّيطان قال عليه السلام هو قوله تعالى: وَ شَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوٰلِ وَ ٱلْأَوْلٰدِ فأن كان من مالٍ حرام فهو شرك شيطان قال عليه السلام و يكون مع الرّجل حين يجامع فيكون من نطفته و نطفة الرّجل اذا كان حراماً.

و عن عبد الملك بن أعين قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول اذا زنى الرّجل أدخل الشّيطان ذكره ثمّ عملا جميعاً ثمّ تختلط النّطفتان فيخلق اللّه منهما فيكون شركة الشّيطان.

و عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام ما قول اللّه: و شٰاركهمْ فِى ٱلْأَمْوٰلِ وَ ٱلْأَوْلٰدِ فقال عليه السلام في ذلك قوله تعالىٰ أعوذ باللّه السَّميع العليم من الشّيطان الرّجيم. و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين[1].

و هناك أحاديث أخر إن شئت فراجعه و أنّما ذكرنا هذه الأحاديث في المقام لإبتلاء أكثر النّاس بهذا الدّاء المعضل لقلّة مبالاتهم في هذا الأمر.



و قد ورد في الأحاديث اذا جامع الرّجل أهله و لم يسمّ شاركه الشّيطان و الأحسن أن يقول بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الّذي لا إله إلاّ هُو بديع السّموات و الأرض اللّهم إن قضيت منّي في هذه اللّيلة خليفة فلا تجعل للشّيطان فيه نصيباً

۱- ج ۳ ص ۱۸۲

و لا شركا و لا حظّاً و أجعله عبداً صالحاً خالصاً مخلصاً مصغياً و ذريّته جلّ ثناءوك.

و قد ظهر ممّا ذكرناه معنى شرك الشّيطان في الأموال أيضاً فأن كلّ مال يكتسب من حرام فهو من شرك الشّيطان نعوذ باللّه منه.

و قوله: **وَ عِدْهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا** فمعناه واضح فأنّ إنجاز الوعد خارج عن قدرة الشّيطان بل عن قدرة كلّ مخلوقٍ لو لم يشأ اللّه فأنّ الأمور بيده و الكلّ مستمدّةٌ من مدده و الى اللّه عاقبة الأمور.

ثمّ أنّ **الغَرور** بفتح الغين كلّ ما يغرّ الإنسان من مالٍ و جاهٍ و شهوةٍ و شيطانٍ فسرّ بالشّيطان اذ هو أخبث الغارّين، و بالدّنيا لما قيل الدُّنيا تغرّ و تضرّ و تمرّ و الغرر الخطر و هو من الغرّ و نهي عن بيع الغرر و الغرير الخلق الحسن إعتباراً بأنّه يغرّ قاله الرّاغب في المفردات.

و قال بعض أهل اللّغة الغرور بالفتح الشّيطان و سمّي به لأنّه يحمل الإنسان على محابّه و وراء ذلك ما يسوءه.

و قال إبن السّكيت الغرور أيضاً ما رأيت له ظاهراً تحبّه و فيه باطن مكروه و مجهول و أمّا **الغُرور** بضمّ الغين فهو الباطل مصدر غررت و ما إغترّ به من متاع الدّينا قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ**(١) أي الخداع الّذي لا حقيقة له و هو المتاع الرّديئ الّذي يدلّس به على طالبٍ حتّى يشتريه ثمّ يتبيّن له رداءته و الشّيطان هو المدلّس فقوله تعالى: **وَ عِدْهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا** أي تدليساً و خداعاً و قوله: **وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ**(٢) أي الشّيطان أجمع القرّاء على أنّ الغرور في الآية المبحوثة عنها بضمّ الغَين و قد ظهر معناه.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا

١- آل عمران = ١٨٥ ٢- لقمان = ٣٣

الإضافة اليه تعالى في قوله، إن عبادي، للتشريف و المعنى المختصّين بكونهم عبادي لا يضافون الى غيري كما قال في مقابلهم، أولياءهم الطّاغوت و أولياء الشّيطان و قيل فيه صفة محذوفة أيأنّ عبادي الصّالحين و نفى السُّلطان الّذي هو الحجّة و الإقتدار على إغواءهم، عن الإيمان و يدلّ على لحظ الصّفة قوله: **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**(١) و قال بعض المفسّرين أنّ، عبادي، عامّ في جميع المكلّفين و لذلك إستثنى منه في قوله: **إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ**(٢) و إستدلّ بهذا علىٰ أنّه لا سبيل له و لا قدرة على تخليط العقل و أنّما قدرته على الوسوسة ولو كان له قدرة على ذلك لخبط العلماء ليكون ضرره أتمّ و قوله: **وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا** أي حافظاً لعباده الّذين ليس له عليهم سلطان من إغواء الشّيطان أو معناه أنّهم يكلون أمورهم الى اللّه فهو حافظهم بتوكيلهم أيّاه و توكّلهم عليه و يؤيّد هذا قوله: **وَ مَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ**.

رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

التَّزجية دفع الشّى لينساق كنزجية رديف البعير و تزجية الريح السّحاب يقال أزجى يزجي إزجاءً إذا ساق الشّئ حالاً بعد حالٍ.

والفُلك بضمّ الفاء و سكون اللاّم السَّفينة «والإبتغاء» الطَّلب و المعنى ربّكم الّذي يسوق و يجري لكم الفلك في البحر لتطلبوا فضل اللّه في ركوب البحر من الأرباح و غيرها أنّه أي أنّ ربّكم بكم رحيماً، أي منعماً عليكم راحمٌ لكم بتسهيله لكم طرق ما تنتفعون بسلوكه ديناً و دنياً و هذه الآية توقيف على آلاء اللّه و فضله عند عباده أي ربّكم الّذي أنعم عليكم بكذا و كذا فلا تشركوا به شيئاً.

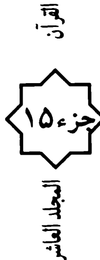
١- النحل = ١٠٠ ٢- الحجر = ٤٢

و أعلم أنّ الغرض من ذكر هذه الآية و ما بعدها هو أنّه تعالى لمّا ذكر وصف المشركين في إعتقادهم آلهتهم و أنّها تضرّ و تنفع و اتبع ذلك بقصّة إبليس مع آدم و تمكينه من وسوسة ذريّته و تسويله ذكر ما يدلّ من أفعاله على وحدانيّته و أنّه هو النّافع الضّارّ المتصرّف في خلقه بما يشاء فذكر إحسانه اليهم بحراً و برّاً و أنّه تعالى متّمكن بقدرته ممّا يريده فأشار الى البحر و الفلك التّي تجري فيه أوّلاً ثمّ قال:

وَ إِذاٰ مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلآّٰ إِيّٰاهُ فَلَمّٰا نَجّٰيكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كٰانَ ٱلْإِنْسٰانُ كَفُورًا

و المراد بالضرّ في البحر هو الخوف من الغرق بإضطرابه و عصف الرّيح، و معنى، ضلَّ، ذهب عن أوهامكم من تدعونه إلٰهاً فيشفع أو ينفع، أو ضلَّ من تعبدونه إلاّ اللّه وحده فتلتجئون اليه لإعتقادكم أنّه لا يكشف الضُّر إلاّ هو ثمّ إذا أنجاكم من الغرق أعرضتم عنه و كان الإنسان كفوراً، بنعمة ربّه و من كفر فأنّ اللّه غنيٌّ عن العالمين ثمّ أنّهم لم يعلموا أنّ ربّ البحر و البرّ واحد فكما أنّه يقدر على أن يغرقهم في البحر يقدر على أن يخسف بهم في البّر و الى هذا المعنى أشار بقوله تعالى:

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جٰانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حٰاصِبًا ثُمَّ لاٰ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا



الهَمزة في قوله **أفأمنتُم** للإنكار والفاء للعطف على محذوف و تقديره أنجوتم فأمنتم و قيل أنّ الفاء و **الواو** في مثل هذا التّركيب على محذوف بين الهَمزة وحرف العطف خلاف مذهب الأكثر و أنّ مذهبهم أن لا محذوف هناك و أنّ الفاء والواو للعطف على ما قبلها و أنّه إعتنى بهمزة الإستفهام لكونها لها صدر الكلام فقدّمت و النيّة التّأخير و التّقدير أفأمنتم أيّها النّاجون المعرضون

عن صنع اللّه الّذي نجّاكم و إنتصب، جانب البرّ، على المفعول به بيخسف كقوله تعالى في قصّة قارون: **فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ**[۱] و المعنى أفأمنتم أن نقلّبه و أنتم عليه و قوله: **أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا** أي حجارة على قول قتادة.

و قال السّدي رام يرميكم بحجارةٍ من سجّيل و المعنىٰ أنّ قدرته بالغة فأن كان نجّاكم من الغرق و كفرتم نعمته فلا تأمنوا إهلاكه أيّاكم و أنتم في البرّ بأمرٍ يكون من تحتكم و هو تغوير الأرض بكم أو من فوقكم بإرسال حاصبٍ عليكم و هذه الغاية في تمكّن القدرة ثمّ لا تجدوا عند حلول أحد هذين بكم من تكلون أموركم اليه ممّن تعبدونه و تعتمدون عليه فيتوكّل في صرف ذلك عنكم.

ثمّ أشار اللّه تعالى الى قسمٍ آخر من العذاب و هو الّذي نجّاهم منه أوّلاً فقال:

أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا

أم منقطعة تقدّر بل و الهمزة أي بَل أمنتم و الضّمير في، فيه، عائد الى البحر و إنتصب (تارةً) على الظَّرف أي وقتاً غير الوقت الأوّل والباء في، بما كفرتم، سببيّته، و، ما، مصدرية أي بسبب كفركم السّابق منكم و الوقت الّذي نجّاكم فيه أو بسبب كفركم الّذي هو دأبكم دائماً و الضّمير في، به، عائد على المصدر الدّال عليه فيغرقكم إذ هو أقرب مذكورٍ و هو نتيجة الإرسال و قوله: **تَبِيعًا**

قال إبن عبّاس معناه نصيراً و قال الفرّاء هو بمعنى طالب الثّار و قال أبو عبيدة المطالب قال الشّاعر:

۱- القصص = ۸۰

غدوّاً غدت غزلانهم فكأنّها ضوا من عزمٍ لدهن تبيع

أي مطالب بحقّه و قرأ إبن كثير و أبو عمر و نخسفً و أو نرسل، و أن نعيدكم، و فنرسل فنغرقكم خمستها بالنّون و باقي القرّاء بياء الغيبة و المعنى بل أمنتم أن يعيدكم في البحر تارةً أخرى فيرسل اللّه عليكم ريحاً قاصفاً شديداً فيغرقكم في البحر بسبب كفركم ثمّ لا تجدوا بعد الغرق من يطلب بثاركم، أو من ينصركم و فى الآية إشارة الى أنّ العبد لا يمكن له الفرار من حكومته و هو على كلّ حالٍ أسيرٌ تحت قدرة اللّه و هذا ممّا لا شكّ فيه.

وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ اٰدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلٰى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا

إعلم أنّ اللّه تعالى لمّا ذكر ما إمتنّ به عليهم من إزجاء الفلك في البحر و تنجيتهم من الغرق و وصفهم بما وصف ثمّ ذكر المنّة بذكر تكرمتهم و رزقهم و تفضيلهم.

أو نقول لما هددّهم بما هدّد من الخسف و الغرق و أنّهم كفروا بنعمته ذكر ما انعم به عليهم ليتذكّروا فيشكروا نعمه و يقلعوا عمّا كانوا فيه من الكفر و يطيعوه فأنّ في ذكر النِّعم و تعدادها هزٌّ لشكرها فقوله: **كَرَّمْنَا** بالتّضعيف من كرَّم أي جعلناهم ذوي كرمٍ بمعنى الشَّرف و المحاسن الجمّة كما تقول ثوبٌ كريم و فرسٌ كريم أي جامعٌ للمحاسن و ليس من كرم المال ففي الآية الشّريفة ذكر أنواعاً من النِّعم.

أوّلها: التّكريم و التّشريف بالمحاسن.

ثانيها: حملهم في البّر و البحر أي تسليطهم عليهما.

ثالثها: أكلهم الطيّبات من المأكولات و المشروبات و بالجملة ما خلق اللّه لهم في البرّ و البحر من أنواع النِّعم.

رابعها: و هو الأصل تفضيلهم على كثيرٍ ممّن خلق و إختلفوا في هذا التّفضيل فقال إبن عبّاس فضّلهم بالعقل.

و قال الضّحاك بالنُّطق، و قال عطاء بتعديل القامة و إمتدادها و عن زيد بن أسلم بالمطاعم و اللّذات و عن يمان بحسن الصُّورة وعن محمّد بن كعب بجعل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم منهم و عن إبن جرير بالتّسليط على غيره من الخلق و تسخيره له و قيل بالخطّ، و قيل باللّحية للرّجل و الذؤابة للمرأة، و قيل بتدبير المعاش و المعاد و قيل بخلق آدم بيده و هكذا قال القرطبي في تفسيره بعد نقله شطراً من الأقوال المذكورة ما هذا لفظه و الصّحيح الّذي يعوّل عليه أنّ التّفضيل أنّما كان بالعقل الّذي هو عمدة التّكليف و به يعرف اللّه و يفهم كلامه و يوصل الى نعمه و تصديق رسله إلاّ أنّه لمّا لم ينهض بكلّ المراد من العبد بعثت الرسّل و أنزلت الكتب فمثال الشّرع الشّمس و مثال العقل العين فإذا فتحت و كانت سليمة رأت الشّمس و أدركت تفاصيل الأشياء و ما تقدَّم من الأقوال بعضه أقوى من بعضٍ و قد جعل اللّه في بعض الحيوان خصالاً يفضل بها إبن آدم أيضاً كجري الفرس و سمعه و أبصاره و قوّة الفيل و شجاعة الأسد و كرم الدّيك و أنّما التّكريم و التَّفضيل بالعقل كما بينّاه انتهى كلامه.

أقول البحث في الآية يقع في مقامين:

أحدهما: أنّ التّفضيل المذكور في الآية ما هو.

الثّاني: أنّ المفضّل عليهم من هم فأنّ اللّه تعالى قال: **وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ولم يقل و فضّلناهم على غيرهم أو على جميع من خلقناه فذكر الكثير يدلّنا على عدم أفضليّة بني آدم على قليلٍ من المخلوق و بعبارة أخرى القليل الخارج من المفضّل عليهم من هم.

أمّا البحث في المقام الأوّل و هو إثبات أصل الفضيلة لبني آدم.

فنقول لا شكّ أنّ المراد ببني آدم هو أولاده المعبّر عنهم بالإنسان أعني به هذا الهيكل المخصوص الّذي يقال في تعريفه الإنسان حيوان ناطق و لا شكّ أيضاً أنّ الإنسان مركّب من جسم و روح ثمّ أنّ الرُّوح منسوب الى اللّه تعالى تشريفاً و تكريماً لها و ببركة هذا الرُّوح صار آدم مسجوداً للملائكة لا باعتبار جسده و جسمه و أن كان لجسمه أيضاً شرف و فضيلة ليس لغيره من الأجسام و ذلك لأنّه تعالى خلقه و سواه بيده ثمّ نفخ فيه من روحه و الدّليل عليه:

قال اللّه تعالى: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ**[١].

قال اللّه تعالى: **يآ أَيُّهَا ٱلْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ، ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّيكَ فَعَدَلَكَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **يآ إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**[٣].

و لم يثبت هذا الخلق لغير الإنسان من الموجودات و إذا كان كذلك فالأفضليّة ثابتة له على جميع الموجودات الأرضيّة من الجماد و الحيوان و الجنّ و النّبات بروحه و جسده.

أمّا المقام الثّاني: و هو تعيين المفضّل عليهم فقال قوم أنّ الإنسان أفضل من جميع المخلوقات إلاّ الملائكة فأنّهم أفضل من الإنسان و بعضهم خصّ الأفضليّة بالمقرّبين منهم و على هذا فقوله تعالىٰ: **وَ فَضَّلْناهُمْ عَلىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا** أي الجماد و الحيوان و النّبات و الجنّ و هذا هو المراد بالكثير.

و أمّا الملائكة فخارجون عن الآية خروجاً تخصّصياً أو تخصيصيّاً.

قال القرطبي بل التّفضيل فيها بين الإنس و الجنّ فأنّ هذه الآية أنّما عدّد اللّه فيها على بني أدم ما خصّهم به من سائر الحيوان و الجنّ هو الكثير

١- الحجر = ٢٩ و ص = ٧٢   ٢- الإنفطار = ٧

٣- ص = ٧٥

المفضول و الملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول و لم تتعرّض الآية لذكرهم بل يحتمل أنّ الملائكة أفضل و يحتمل العكس انتهى موضع الحاجة من كلامه.

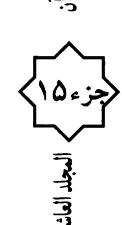
و لقائلٍ أن يقول ولم تتعرّض الآية لذكر الجنّ أيضاً و لا لسائر الحيوان فلم قلت أنّ اللّه عدّد فيها على بني أدم ما خصّهم به من سائر الحيوان و الجنّ هو الكثير أليس هذا مخالفاً لإطلاق الآية بل نقول كون الإنسان أفضل من الحيوان و الجنّ ممّا لا شكّ فيه و لا يحتاج إثبات ذلك الى الآية فقوله هذا من التّفسير بالرّأي و هو كما ترىٰ.

و قال صاحب الكشّاف في تفسيره ما هذا لفظه:

عَلٰى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا هو ما سوى الملائكة و حسب بني أدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة و هم و منزلتهم عند اللّه منزلتهم و العجب من المجبّرة كيف عكسوا في كلّ شيءٍ و كابروا حتّى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التّي هي تفضيل الإنسان على الملك و ذلك بعد ما سمعوا تفخيم اللّه أمرهم و تكثيره مع التّعظيم ذكرهم و علموا أين أسكنهم و أنّى قربهم و كيف نزّلهم من أنبياءه منزلة أنبياءه من أممهم ثمّ جرّهم فرط التعصّب عليهم الى أن لفّقوا أقوالاً و أخباراً.

قالت الملائكة ربّنا أعطيت بني أدم الدُّنيا يأكلون منها و يتمتّعون ولم تعطنا ذلك فاعطناه في الأخرة فقال و عزّتي و جلالي لا أجعل ذريّة من خلقت بيدي كمن قلت له كن فيكون (فكان).

و رووا عن أبي هريرة أنّه قال: المؤمن أكرم على اللّه من الملائكة الّذين عنده، و من إرتكابهم أنّهم فسّروا كثيراً بمعنى جميع في هذه الآية و خذلوا حتّى سلبوا الذّوق فلم يحسّوا ببشاعة قولهم و فضّلناهم على جميع ممّن خلقنا على أنّ معنى قولهم على جميع



ممّن خلقنا أشجى لحلوقهم و أقذى لعيونهم و لكنّهم لا يشعرون فأنظر الى تمحلهم و تشبّثهم بالتّأويلات البعيدة في عداوة الملاء الأعلى كأنّ جبرئيل غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط فتلك السَّخيمة لا تنحّل عن قلوبهم كلامه.

أقول أمّا ما ذكره بقوله ما سوى الملائكة و حسب بني أدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة و هم الخ فنطالبه بالدّليل و ليس في الآية ما يدلّ عليه فقوله في تفسير كلام اللّه: **عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا** هو ما سوى الملائكة هو كلام من عند نفسه و لا يحمل كلام اللّه عليه و إن شئت قلت لا دليل على تخصيص الكلام بغير الملائكة و على المدّعي الإثبات و اذ ليس فليس.

و أمّا الأخبار التّي نقلها عن أبي هريرة و أمثاله فلا نحكم بصحّتها بل هي بالمجعولات أشبه و تفضيل الإنسان على الملائكة لا يحتاج الى أمثال هذه المجعولات و العجب أنّ صاحب الكشّاف أنكر تفضيل الإنسان على الملائكة أشدّ الإنكار و الفخر الرّازي أثبته بالدّلائل العقليّة و أقام على المدّعىٰ براهين كثيرة إن شئت الوقوف عليها فراجعها.

و أمّا عندنا فالحقّ أنّ الإنسان الكامل أعني به الأنبياء و الأوصياء و من تابعهم من المؤمنين حقّ المتابعة فهم أفضل من الملائكة قطعاً و أمّا غيرهم فلا و ما ذكرناه و إخترناه مؤيّد بالعقل و النّقل و الأخبار الواردة فيه كثيرة من طريق أهل البيت و بالجملة لا خلاف عند الشّيعة في ذلك و عليه فقوله تعالىٰ: **وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا** معناه فضّلنا بني أدم يعني غير الأنبياء و الأوصياء ومن تابعهم على كثيرٍ ممَّن خلقنا من الجماد و النبات و الحيوان و الجن سوى الملائكة.

إن قلت تخصيص الآية بغير الأنبياء لا دليل عليه.

قلت خروجهم عنها تخصُّصيّ لا تخصيصيّ لوجود الأدلّة العقليّة عليه هذا أوّلاً.



ثانياً: نقول عموم القرأن يخصَّص بالسنّة فالأخبار الواردة عن المعصومين تخصّصها بغير الأنبياء و الأوصياء ألا ترى أنّ كثيراً من عمومات الكتاب خصِّصت بالسنّة و ما نحن فيه من هذا القبيل و للبحث فيه مقام أخر إلاّ أنّ الميسور لا يترك بالمعسور و ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه فالواجب علينا في المقام أن نشير في إثبات المدّعى الى الأدلّة العقليّة و النقليّة على سبيل الإجمال.

فنقول أمّا العقل فلوجوهٍ:

أحَدها: أنّ اللّه تعالى أمر الملائكة بالسُّجود لأدم في قوله: **وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ اَسْجُدُوا لِآدَمَ**[١] و لا شكّ أنّ السَّجدة كانت سجدة خضوعٍ و تواضع لا سجدة العبادة و العقل يحكم بأنّ الآمر الحكيم لا يأمر بسجود الأفضل للأدنى لأنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح عقلاً فلو كان الملك أفضل من أدم لزم تقديم المفضول و هو كما ترى لا يصدر من الحكيم فكان أدم أفضل من الملك و هو المطلوب.

الثّاني: أنّ أدم أنبأهم بالأسماء كما قال تعالى: **وَ عَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا**[٢] و العقل يحكم بأنّ المعلِّم أفضل من المتعلّم لأنّ العلم أفضل من الجهل و لازم ذلك أن يكون أدم أفضل و هو المطلوب.

الثّالث: أنّ أدم و الأنبياء بعده كانوا من المصطفين الأخيار من جميع المخلوقات بدليل قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ**[٣] و لا شكّ أنّ الملائكة داخلة في العالمين و حيث إصطفى و إختار اللّه من العالمين ما ذكره في الآية فهو دليل على أنّهم أفضل من الملائكة و هو المطلوب.

١- البقرة = ٣٤
٢- البقرة = ٣١
٣- آل عمران = ٣٣

الرّابع: أنّ للبشر شواغل عن الطّاعات العلميّة و العمليّة كالشّهوة و الغضب و سائر الحاجات الشّاغلة و الموانع الخارجة و الداخلة فالمواظبة على العبادات و تحصيل الكمالات بالقهر و الغلبة على ما يضّاد القوّة العاقلة يكون أشقّ و أفضل و أبلغ في إستحقاق الثّواب و لا معنى للأفضليّة سوى إستحقاق الثّواب و الكرامة فهذه الدّلائل العقليّة و غيرها ممّا لم نذكره حذراً من الإطناب تدلّ على أفضلية الإنسان و لا ينكره إلاّ مكابر نفسه.

وأمّا النّقل فمنه ما ذَكره في الاحتجاج فيما سأل الزّنديق الصادق عليه السلام: الرَّسول أفضل أم الملك المرسل اليه قال عليه السلام: بل الرّسول أفضل.

و عن مجالس الشّيخ قدس سره بأسناده عن زيد بن علّي عليه السلام عن أبيه في قوله تعالىٰ: وَ لَقَدْ كَرَّمْنٰا بَنِيٓ اٰدَمَ يقول فضّلنا بني أدم على سائر الخلق، وَ حَمَلْنٰاهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ يقول على الرّطب و اليابس، وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبٰاتِ يقول من طيّبات الثمّار كلّها، وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلٰى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا تَفْضِيلًا، يقول ليس من دابّةٍ و لا طائرٍ إلاّ هي تأكل و تشرب بفيها لا ترفع بيدها الى طعامٍ و لا شرابٍ غير إبن أدم فأنّه يرفع الى فيه بيده طعامه فهذا من التّفضيل.

و منه بأسناده عن أبي حازم عن معاوية الضّرير قال: دخلت على هارون الرّشيد و كانت بين يديه المائدة فسألني عن تفسير هذه الآية: وَ لَقَدْ كَرَّمْنٰا بَنِيٓ اٰدَمَ فقلت قد تأوَّلها جدّك عبد اللّه بن عبّاس قال كلّ دابّةٍ تأكل بفيها إلاّ إبن أدم فأنّه يأكل بالأصابع قال أبو حازم بلغني أنّه رمى بملعقةٍ كانت بيده من فضّة و تناول من الطّعام بأصبعه.

و عنه أيضاً بأسناده عن ميمون بن مهران عن إبن عبّاس في قوله

عزّ وجلّ: وَ لَقَدْ كَرَّمْنٰا بَنِيٓ اٰدَمَ قال ليس من دابّةٍ إلاّ و هي تأكل بفيها إلاّ إبن أدم فأنّه يأكل بيده.

و عن العلل بأسناده عن عبد اللّه بن سنان قال: سألت أبا عبد اللّه جعفر بن محمّد الصّادق فقلت الملائكة أفضل أم بنو أدم فقال عليه‌السلام قال أمير المؤمنين عليه‌السلام أنّ اللّه عزّ وجلّ ركَّب في الملائكة عقلاً بلا شهوةٍ و ركَّب في البهائم شهوةٍ بلا عقل و ركَّب في بني أدم كلتيهما فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة و من غلب شهوته على عقله فهو شرٌّ من البهائم.

و عن صحيفة الرّضا عليه‌السلام بالأسناد عنه عن أباءه قال: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مثل المؤمن عند اللّه كمثل ملكٍ مقرَّب و أنّ المؤمن عند اللّه عزّ وجلّ أعظم من ملكٍ و ليس شيءٍ أحبَّ الى اللّه من مؤمنٍ تائبٍ أو مؤمنةٍ تائبة.

و منه بهذا الأسناد قال: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّ المؤمن ليعرف في السّماء كما يعرف الرّجل أهله و ولده و أنّه أكرم عند اللّه عزّ وجلّ من ملكٍ مقرّب.

و عن العيّاشي عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالىٰ: وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلٰى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنٰا تَفْضِيلًا قال عليه‌السلام: خلق كلّ شيءٍ منكّساً غير الإنسان فأنّه خلق منتصباً.

و عن العيون و العلل و إكمال الدّين بأسناده عن أبي الصّلت الهروي عن الرّضا عن أباءه عن أمير المؤمنين قال عليه‌السلام: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ما خلق اللّه عزّ وجلّ خلقاً أفضل منّي و لا أكرم عليه منّي قال عليّ عليه‌السلام فقلت يا رسول اللّه فأنت أفضل أو جبرئيل فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يا عليّ أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ فضَّل أنبياءه المرسلين

علىٰ ملائكته المقرّبين و فضّلني على جميع النّبيين و المرسلين و الفضل بعدي لك يا عليّ و للأئمّة من بعدك و أنّ الملائكة لخدّامنا و خدّام محبّينا يا عليّ الذّين يحملون العرش و من حوله يسبّحون بحمد ربّهم و يستغفرون للّذين أمنوا بولايتنا يا عليّ لولا نحن ما خلق أدم و لا حوّاء و لا الجنّة و لا النّار و لا السّماء و لا الأرض فكيف لا نكون أفضل من الملائكة و قد سبقناهم الى معرفة ربّنا و تسبيحه و تهليله و تقديسه و ساق الحديث الى أن قال فكيف لا نكون أفضل من الملائكة و قد سجدوا لأدم كلّهم أجمعون لكوننا في صلبه و أنّه لمّا عرج بي الى السّماء أذّن جبرئيل مثنى و أقام مثنى ثمّ قال لي تقدّم يا محمّد فقلت له ياجبرئيل أتقدّم عليك فقال نعم لأنّ اللّه تبارك وتعالى فضّل أنبياءه على الملائكة أجمعين و فضّلك خاصّة الحديث.

و عن العلل بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: كان جبرئيل اذا أتىٰ النّبي قعد بين يديه قعدة العبيد وكان لا يدخل حتّى يستأذنه.

و عن الاحتجاج قال سأل المنافقون النّبي فقالوا يا رسول اللّه أخبرنا عن عليّ هو أفضل أم ملائكة اللّه المقرّبون فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و هل شرفت الملائكة إلاّ بحبّها لمحمّدٍ و عليّ و قبولها لولايتها أنّه لا أحد من محبّي عليّ نظّف قلبه من قذر الغشّ و الدَّغل و الغلّ و نجاسة الذّنوب إلاّ كان أطهر و أفضل من الملائكة الخبر.

و عن كمال الدّين بأسناده عن الرّضا عليه السلام قال: قال رسول اللّه أنّا سيّد من خلق اللّه و أنا خير من جبرئيل و إسرافيل و حملة العرش و جميع الملائكة المقرّبين و أنبياءه المرسلين الحديث.

أقول أنّ الأحاديث التّي نقلناها في المقام نقلناها عن البحار[1].

قال المجلسي بعد نقله ما نقلناه عنه أقول الأخبار في ذلك كثيرة قد أوردناها في أبواب فضائل النّبي و الأئمّة فليرجع اليها انتهى كلامه.

و أنا أقول هذا معنى قولنا أنّ الشّيعة قد إتّفقت على تفضيل الأنبياء و الأوصياء و المؤمنين على الملائكة المقرّبين فضلاً عن غير المقرّبين و أمّا صاحب الكشّاف و من حذىٰ حذوه في هذا الباب حيث قد قاسوا الأنبياء و الأوصياء و غيرهم من المؤمنين على أنفسهم فقالوا ما قالوا في تفضيل الملائكة فما قاله في المقام حقٌّ بالنّسبة اليه و من تبعه اذا عرفت ما تلوناه عليك.

فإعلم أنّ المستفاد من الأخبار المذكورة أنّ بني أدم في الآية عامّ بالنّسبة الى الجميع بحسب اللّفظ و أنّ الآية ليست بصدد بيان تفضيل الملائكة على الإنسان أو بالعكس بقولٍ مطلقٍ بل الآية بصدد بيان تفضيل بني أدم على غيرهم من أنواع الحيوان من جهة خاصّة و هى الأكل باليد و إنتصاب القامة و غيرهما من خصوصيّات الإنسان و ليس فيها من الملائكة عينٌ و لا أثر و يؤيّد هذا المعنى قوله تفضيلاً فأنّه يفيد النّوع في الفضيلة أي فضّلناهم على غيرهم نوعاً خاصّاً من الفضيلة و هو ما ذكرناه و هذا ممّا لا كلام فيه لأحدٍ و الملائكة لا تأكل و لا تشرب فهم خارجون عن مفاد الآية خروجاً تخصصيّاً كما هو ظاهر لمن تأمّل في الأخبار و أنّما تكلّمنا في فضيلة الإنسان على الملائكة تبعاً للقوم هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم بحقيقة كلامه فأنّ القرأن بحرٌ عميقٌ.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا

١- ج ١۴ ط قديم ص ٣۶٣

أُناس بضمّ الألف لغة في النّاس و المعنى يوم ندعو كلّ طائفة من النّاس بإمامهم و المراد باليوم هو يوم القيامة بإتّفاق المفّسرين.

و أمّا الإمام فقد إختلفوا فيه فقال إبن عبّاس و أبو العالية و الرَّبيع المراد بالإمام كتابهم الذّي فيه أعمالهم و هو الّذي يعبّر عنه بصحيفة الأعمال.

و قال الضّحاك و إبن زيد هو كتابهم الذّي نزل عليهم.

و قال مجاهد و قتادة هو نبيّهم.

و قال إبن عطيّة الإمام يعمّ هذا كلّه لأنّه ممّا يؤتمّ به.

و قال صاحب الكشّاف إمامهم من إئتمُّوا به من نبيّ أو مقدّم في الدّين أو كتابٍ أو دينٍ فيقال يا أهل دين كذا وكتاب كذا.

و قيل أنّ الإمام جمع أمّ و أنّ النّاس يدعون يوم القيامة بأمّهاتهم و أنّ الحكمة بالدُّعاء بالأمّهات دون الأباء رعاية حقّ عيسى و شرف الحسن و الحسين و أن لا يفتضح أولاد الزّناء.

و قال الرّازي بعد نقل الأقوال و فى اللّفظ إحتمال أخر و هو أنّ أنواع الأخلاق الفاضلة و الفاسدة كثيرة و المستولي على كلّ إنسانٍ نوعٌ من تلك الأخلاق فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب و منهم من يكون الغالب عليه الشّهوة و منهم من يكون الغالب عليه الحقد و الحسد و من جانب الأخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه الفقه أو الشّجاعة أو الكرم أو طلب العلم و الزُّهد اذا عرفت هذا فنقول.

الدّاعي الى الأفعال الظّاهرة من تلك الأخلاق الباطنة فذاك الخلق الباطن كالإمام له و الملك المطاع و الرّئيس المتبوع فيوم القيامة أنّما يظهر الثّواب و العقاب بناءً على الأفعال النّاشئة من تلك الأخلاق فهذا هو المراد من قوله: **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ** فهذا الإحتمال خطر بالبال انتهى كلامه.

أقول كلّ هذه الأقوال على خلاف العقل و النّقل و لا سيّما كلام الرّازي اذ لا



يطلق الإمام على الخلق الباطن في العرف و اللّغة و العَل و ليس كلّ ما يخطر بالبال يذكر في تفسير كلام اللّه و يعتمد عليه فأنّ كثيراً ممّا يخطر بالبال من تسويلات الشّيطان و إلهاماته وكلام اللّه تعالى لا ينطبق عليه.

و الحقّ في المقام أن يقال أنّ الإمام هو الّذي يؤتّم به في أمر الدّين في الدُّنيا و قيل مطلقاً.

قال الرّاغب في المفردات، الإمام المؤتمّ به إنساناً كأن يقتدي بقوله أو فعله أو كتاباً أو غير ذلك محقّاً كان أو مبطلاً و جمعه أئمّة و قوله: **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** أي بالّذي يقتدون به انتهى.

أقول فالإمام هو المقتدى في أمر الدّين فأنظر عمَّن تأخذ دينك فهو إمامك الّذي تدعى به يوم القيامة فمن أخذ دينه عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم فهو إمامه و من أخذ دينه عن أبي بكر و عمر و عثمان و غيرهم فهم إمامه و أنّما قلنا عليّ بن أبي طالب۶ ولم نقل رسول اللّه لأنّ الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم رسولٌ وإمامٌ في حياته و أمّا بعد وفاته فالائمّة الأثني عشر على مذهبنا و أبوبكر و عمر و عثمان و معاوية أو الأئمّة الأربعة و أمثالهم أئمّة على مذهبهم.

و يدلّ على ذلك ما رواه البرقي في محاسنه بأسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام، يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فقال عليه السلام يدعو كلّ قرنٍ من هذه الأمّة بإمامهم قلت فيجيئ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم في قرنه و عليّ فى قرنه و الحسن في قرنه و الحسين في قرنه الّذي هلك بين أظهرهم قال: نعم.

و في عيون الأخبار عن الرّضا عليه السلام بأسناده قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم في قوله تعالىٰ: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ قال صلى الله عليه و آله و سلم يدعىٰ كلّ قومٍ بإمام زمانهم و كتاب اللّه و سنّة نبيّهم.

محمّد بن يحيىٰ بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: لمّا نزلت هذه الآية، يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ قال المسلمون يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم ألست إمام النّاس كلّهم أجمعين قال عليه السلام فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أنا رسول اللّه الىٰ النّاس أجمعين ولكن سيكون بعدي أئمّة على النّاس من اللّه من أهل بيتي يقومون في النّاس فيكذبون و يظلمون تظلمهم أئمة الكفر و الضّلال و أشياعهم فمن والاهم و أتّبعهم و صدّقهم فهو منّي و معي و سيلقاني ألا و من ظلمهم و كذّبهم فليس منّي و لا معي و أنا بريءٌ منه.

عليّ بن محمّد بأسناده عن عبد اللّه بن سنان قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ قال إمامهم الّذي بينَ أظهرهم و هو قائم أهل زمانه.

عدّة من أصحابنا بالآسناد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم يجيء كلّ غادرٍ بإمامٍ يوم القيامة مايلاً شدقه حتّىٰ يدخل النّار.

و في تفسير عليّ بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول اللّه تعالىٰ: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ قال يجي رسول اللّه في فرقة و عليٌّ عليه السلام في فرقة، و الحسن في فرقة، و الحسين في فرقة و كلّ من مات بين ظهّراني قوم جاؤوا معه.



و قال علّي بن إبراهيم في هذه الآية ذلك يوم القيامة ينادي مناد ليقم أبو بكر و شيعته و عمر و شيعته و عثمان و شيعته و عليٌّ و شيعته.

أقول الأحاديث في الباب كثيرة و ما نقلناه عن تفسير نور الثّقلين[١].

١- نور الثّقلين ج ٣ ص ١٩١ و ص ١٩٢

و بعد الأخبار الواردة نقول العقل أيضاً يحكم به و أنّما قال تعالىٰ بإمامهم لأنّه هو الّذي ساقهم الى ما ساقهم في دار الدنيّا من حقٍّ أو باطلٍ و هو واضح.

و في الآية إشارة الى أنّ إمام كلّ قومٍ مسؤلٌ يوم القيامة عن إرشاده و إضلاله قومه و إذا كان كذلك فأقول:

ألا إنّني مولى لآل محمّد فلا تحسن الفحشاء منّي و لا الهزل
أولئك قومٌ لا يحاط بفضلهم وليس لهم في الخلق شبهٌ و لا شكلُ
هم أمناء اللّه في الأرض و السّماء و هم عينه و الأذن و الجنب و الحبل
و هم أنجم الدين الّذي صال ضوءها على ظلم الإشراك فهي لها تجلو
وفي كتب اللّه القديمة نعتهم وقد نطقت عن عظم فضلهم الرسّل
فروع رسول اللّه أحمد أصلها لقد طاب فرعُ و النّبي له أصلُ
علىّ أمير المؤمنين أبو هم فهل لعليٍّ في فضائله مثلُ

اللّهم أحشرنا معهم في الآخرة و أجعلهم شفعاءنا عندك يا أرحم الرّاحمين.

و أمّا قوله: **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** ليس المراد باليمين الجارحة بل المقصود الرّضا و الإخلاص.

و قيل إعطاء الكتاب بيمينه دليل على نجاة الطّالع و لذلك قال: **وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** أي لا يبخس أحدٌ حقّه، ناجياً كان أو هالكاً فالمستحقّ للثّواب و المستحقّ للعقاب يعاقب على قدر إستحقاقهم و الفتيل هو المفتول الّذي في شقّ النّواة.

وَ مَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا

هذه إشارة الى الدّنيا بقرينة قوله: **فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ** و المراد بالعمى هو عمىٰ القلب لا عمىٰ البصر أي من كان في الدّنيا أعمىٰ عن طريق الحقّ فهو في الآخرة أعمىٰ عن الرُّشد المؤدّي الى الجنّة و وجه ربط هذه الآية بسابقتها

أعني **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ** ظاهر و هو أنّ أعمىٰ القلب يقتدي في الدّنيا بإمامٍ ضالّ مضلٍّ فلا جرم في الآخرة يدخل النّار.

و أمّا من ليس كذلك في الدّنيا فيختار في دينه إماماً يرشده الى الحقّ فلا محالة يدخل الجنّة قال كلٌّ يعمل على شاكلته و لا شكّ أنّ عمي القلب داءٌ لا دواء له في الدّنيا نعوذ باللّه منه.

وَ إِنْ كٰادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنٰا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا

ان هذه هي المخفّفة من الثّقيلة و ليتها الجملة الفعّلية و هى كادوا، لانّها من أفعال المقاربة و أنّما تدخل على مذهب البصريّين من الأفعال على النّواسخ الّتي للإثبات على تقرّر في علم النّحو واللاّم في **لَيَفْتِنُونَكَ** هي الفارقة بين، إن، هذه و أن النّافية و إذا حرف جواب و جزاء و يقدّر قسم هنا تكون، لأتخذوك جواباً له و التّقدير و اللّه إذاً إن إفتتنت و إفتريت لأتّخذوك و هو في معنىٰ ليتّخذونك و ذلك لأنّ إذا تقتضي الإستقبال لأنّها من حيث المعنى جزاء فيقدّر موضعها بأداة الشّرط و الضّمير في (و أن كادُوا)، قيل لقريش و قيل لثقيف و قيل ليهود المدينة كحيّ ابن أخطب و غيره و المعنى أنّ الكفّار كادوا ليفتنونك أي قاربوا ليخدعونك عن الّذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره أي لتفتري علينا غير ما أوحينا اليك و الإفتراء الكذب و إذاً، أي بعد حصول غرضهم و تحقّق الإفتراء منك لأتّخذوك خليلاً.

قال بعض المفسّرين في كيفيّة الإمتنان أنّهم ذهبوا الى المكر برسول اللّه ﷺ فقالوا أنّ هذه الأرض أي أرض الحجاز، ليست بأرض الأنبياء و أنّما أرضهم أرض الشّام ولكنّك تخاف الرّوم فأن كنت نبيّاً فأخرج اليها فأنّ اللّه سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء فنزلت الآية و أخبر اللّه تعالى أنّ لو خرج لم يلبثهم بعد إلاّ قليلاً، و اليه الإشارة بقوله: **وَ إِنْ كٰادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ**

ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ إِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا و سيأتي الكلام فيها.

و الحاصل أنّ الكفّار كانوا بصدد الإفتتان بالنسّبة الى مقام الرّسالة و لكن لم يقدروا على ذلك لأنّ اللّه عصمه و حفظه كما قال:

وَ لَوْلَآ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا

أي لولا تثبيتناو عصمتنا لك لقد كدت تركن اليهم أي لقاربت أن تميل الى خدعهم و مكرهم شيئاً قليلاً أي يسيراً.

قال قتادة الفتنة الّتي كاد المشركون أن يفتنوا النّبي بها الإلمام بآلهتهم أن يمسّها في طوافه لما سألوه في ذلك و لا طفوه.

و قيل أنّهم قالوا للنبّي لا ندعك تستلم الحجر حتّى تلم بآلهتنا و قيل غير ذلك.

إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَ ضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا

أي لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة و ضعف الممات لعظم ذلك منه لو فعله قيل هو من حذف الموصوف و إقامة الصفة مقامه فكان أصل الكلام لأذقناك عذاباً ضعفاً في الحياة و عذاباً ضعفاً في الممات ثمّ حذف الموصوف و أقيمت الصفّة مقامه ثمّ أضيفت الصفّة إضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة و ضعف الممات كما قيل لأذقناك أليم الحياة و أليم الممات و يجوز أن يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيّا و بضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر و عذاب النّار و المعنى لضاعفنا لك العذاب المعجّل للعصاة في الحياة الدنيّا و ما نؤخّره لما بعد الموت.

وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَ إِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا

الكلام في قوله: **وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ** مثل الكلام في قوله: **وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ** من حيث التّركيب و فى هذه الآية إشارة الىٰ نوعٍ آخر من مكر الكفّار و هو أنّهم أرادوا إخراج الرّسول من أرض مكّة بسبب المكر و الخدعة و إختلفوا فيه فقال قوم هموا بأن يخرجوه من أرض العرب لا من مكّة فقط إذ قد أخرجوه منها و قيل أرادوا إخراج الرّسول عن مكّة الى أرض المدينة و قيل أنّ الأرض التّي أرادو استزلاله منها هي أرض المدينة الى أرض الشّام لأنّ اليهود قالت هذه الأرض ليست أرض الأنبياء و أنّما أرض الأنبياء الشّام و قيل غير ذلك والكلّ لا دليل عليه.

و الّذي يفهم من الآية هو الإستفزاز من الأرض ثمّ قال تعالىٰ أنّهم لو أخرجوك من هذه الأرض لما لبثوا بعدك فيها إلاّ قليلاً و قيل المدّة التّي لبثوا بعده هو ما بين خروج النّبي من مكّة و قتلهم يوم بدر فأنّ من حفر بئراً لأخيه وقع فيه من حيث لا يحتسب.

أقول يستفاد من هذه الآيات **وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ** الىٰ قوله: **إِلَّا قَلِيلًا** أمور لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

أحَدها: أنّ الإفتنان من أتباع الشّيطان، حاصل في كلّ زمانٍ و في حقّ جميع النّاس ولو في حقّ النّبي الذّي يوحى اليه فأنّ شياطين الإنس يدخلون من كلّ بابٍ لإغفال الخلق و إحياء الباطل فينبغي للمؤمن التّابع للحقّ أن يكون فطناً متفرّساً.

الثّانى: أنّ الإنسان لا يقدر على دفع مكائد الشّيطان عن نفسه إلاّ بحول اللّه و قوّته و الى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **وَ لَوْلَآ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** و اذا كان النّبي و هو حاله كذلك فما ظنّك بغيره من أحاد النّاس قال اللّه تعالى حكايةً عن يوسف الصّديق:



وَ مَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي[1].

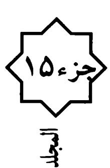
و لذلك أمرنا اللّه بالإستعاذة في جميع الأمور و قد ورد في الدُّعاء اللّهم لا تكلني الى نفسي طرفة عينٍ أبداً، فأنّ الشّيطان من أقوى الأعداء بالنّسبة الى أولاد أدم و لا يقدر احدٌ على دفعه إلاّ اللّه تعالى الّذي خلقه و سلَّطه على أولاد أدم لأجل المصالح التّي لا يعلمها إلاّ هو.

الثّالث: أنّ متابعة الشّيطان توجب العذاب في حقّ الجميع ولو كان التّابع هو النبيّ أو الوصيّ و لا يستثنى منه أحد و هذا مقتضى العدل.

الرّابع: أنّ العذاب و أن كان مترتّباً على العصيان بمتابعة الشّيطان إلاّ أنّه يتفاوت حسب مراتب العاصي علماً و جهلاً و معرفةً و حيث أنّ الأنبياء و الأوصياء من أعلم النّاس و أقربهم الى اللّه معرفةً فلا محالة عقوبتهم على الذّنب أشدّ منها على ذنب غيرهم و هكذا عقوبة العالم على الذَّنب أشدّ من عقوبة الجاهل عليه.

و الى هذا أشار اللّه بقوله: **إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ**.

الخامس: أنّ العذاب و أن كان مترتّباً على نفس العمل كما قال أمير المؤمنين عليه السلام **أوصيكم بخمسٍ الى أن قال و لا يخافنَّ إلاّ ذنبه**، إلاّ أنّ العبد حيث إرتكب الذّنب بإختياره و إرادته صار مستحقّاً له فالعدل يقتضي إيصاله اليه كما أنّ العفو يقتضي دفعه أو رفعه عنه و من المعلوم أنّهما بيد اللّه فقط و اليه الإشارة بقوله: **ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**.



السّادس: في المقام سؤال و هو أنّ النبيّ كان معصوماً كغيره من الأنبياء و المعصوم لا يرتكب ذنباً أصلاً فما معنىٰ هذه الآيات في حقّ النّبي المعصوم.

و الجواب من وجهين:

١- يُوسف = ٥٣

أحدهما: أنّه لم يثبت في هذه الآيات للنّبي أنّه أذنب أو أخطأ ليكون منافياً لعصمته و أنّما الآيات تدلّ على أنّه لولا العصمة أي حفظ اللّه إيّاه لوقع فيما وقع و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً اذ النّبي مع قطع النّظر عن العصمة كغيره من أحاد النّاس و بعبارةٍ آخرى أنّه معصوم أي عصمه اللّه عن الخطأ لا أنّه مع قطع النَّظر عنها لا يذنب و لا يعصي و بعبارة اخرى كلّ انسان بمقتضى فطرته البشرية يخطئ و يعصى لوجود الشّهوة و الغضب و غيرهما من أسباب المعصية فيه إلاّ من عصمه اللّه و الأنبياء و الأوصياء ممَّن عصمهم اللّه و هذا لا ينافي القدرة على العصيان بحسب الخلقة.

الثّاني: أن يقال أنّ الخطاب في الآيات بحسب الظّاهر للرّسول و أمّا بحسب الواقع فالمخاطب بها و أمثالها من الآيات هو الأمّة و هذا معنى قول من قال أنّ القرأن نزل، بايّاك أعني و أسمعي يا جارة، أي على سبيل الإستعارة و الكناية أو على أنّ المخاطب بالكلام ليس هو المراد بل الخطاب لشخصٍ و المراد به شخصٌ أخر و يدلّ على ذلك.

ما روي في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرّضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السّلام يقول فيه المأمون للرّضا عليه السلام فأخبرني عن قول اللّه تعالىٰ: عَفَا اَللّٰهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكَ اَلَّذِينَ صَدَقُوا[1] قال الرّضا عليه السلام: هذا ممّا نزل بإيّاك أعنى و إسمعي يا جارة، خاطب اللّه بذلك نبيَّه و أراد به أمّته وكذلك قوله عزّ وجلّ: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ[2] و قال: لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً[3] قال المأمون صَدَقت يابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم.

١- التوبة = ٤٣
٢- الزّمر = ٦٥
٣- الإسراء = ٧٤

و عن أصول الكافي عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: نزل القرأن بـإيّاك أعني و إسمعي يا جارة.

و في روايةٍ أخرى عنه عليه السلام قال: معناه ما عتب اللّه عزّ وجلّ به علىٰ نبيّه فهو يعني به ما قد مضى في القرأن مثل قوله: **لَوْلآ أَنْ ثَبَّتْنٰاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** عنى بذلك غيره.هذا ما فهمناه و إستفدناه من الآيات و اللّه أعلم.

سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنٰا وَ لٰا تَجِدُ لِسُنَّتِنٰا تَحْوِيلًا

السُنّة بضمّ السّين الطّريقة و منها سنّة النّبي التّي هي قوله و فعله وتقريره.

قال المفسّرون المراد بالسنّة في الآية هو أنّ كلّ قومٍ أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنّة اللّه أن يهلكهم بعد إخراجه و يستأصلهم و لا يقيمون بعده إلاّ قليلاً.

و قوله: **سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنٰا** إنتصب، سنّة، بمعنى لا يلبثون و تقديره لا يلبثون لعذابنا إيّاهم كسنّة من قبلك اذ فعلت أممهم مثل ذلك.

و قيل إنتصب، سنّة على المصدر المؤكّد أي سنَّ اللّه سنّة من قبلك.

و قوله: **لٰا تَجِدُ لِسُنَّتِنٰا تَحْوِيلًا** أي تغييراً و إنتقالاً من حالةٍ الى حالةٍ أخرى بل هي على وتيرةٍ واحدة هذا ملخّص ما ذكروه في المقام.

أقول و يحتمل أن يكون المراد بالسنّة في الآية هو تكذيب سائر الأمم أيضاً أنبيائهم و إفتنانهم و إستفزازهم إيّاهم و المقصود من الآية هو أنّ ما فعلوه من الإفتنان و الإستفزاز لا يختصّ بك يا رسول اللّه بل هذا كان دأب جميع الأمم مع أنبيائهم فأصبر كما صبر أولوا العظم من الرُّسل فأنّ السنّة قد جرت بذلك و هى لا يتغيّر و لا يتبدّل أبداً فكأنّ الآية بمنزلة التّسلية للنّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا

أمر اللّه تعالى نبيّه بإقامة الصّلاة و أمّته معه للإشتراك في التّكليف و إقامة الصّلاة إتيانها بشرائطها و إختلفوا في معنى الدُّلوك و المراد به في الآية.

فقال الفرّاء و إبن قتيبة الدُّلوك الغروب و إستدلّ الفرّاء بقول الشّاعر:

هذا مقام قدمي رباح غدوة حتّى دلكت براح

أي حتّى غابت الشّمس و براح إسم الشّمس و قال الأخر:

مصابيح ليست باللّواتي يقودها نجومٌ و لا بالأفلات الدّوالك

و قيل الدّلوك زوال الشّمس نصف النّهار و إشتقاقه من الدَّلك لأنّ الإنسان تدلك عينيه عند النَّظر اليها، و قيل الدُّلوك من وقت الزّوال الى الغروب.

و قال الرّاغب في المفردات دلوك الشّمس ميلها للغروب من قولهم دلكت الشّمس دفعتها بالرَّاح و منه دلكت الشّئ في الرّاحة و دالكت الرّجل اذا ماطلته و غسق اللّيل سواده و ظلمته.

و قال الكسائي غسق اللّيل غسوقاً والغسق الإسم بفتح السّين و قيل غسق اللّيل دخول أوَّله، قال الشّاعر:

أنّ هذا اللّيل قد غسقاً و إشتيكت الهمّ و الأرقا

و أصله من السّيلان و الغاسق السّائل، و معنى الكلام أقم الصّلاة و أت بها لدلوك الشّمس أي لغروبها الى غسق اللّيل و ظلمته، أو لزوال الشّمس الى غروبها، فمن ذهب الى أنّ الدّلوك هو المغرب قال المراد بالآية صلاة المغرب و من قال أنّ الدّلوك زوال الشّمس قال المراد بها صلاة الظُّهر و الأخبار الواردة من طريق أهل البيت تؤيّد الأخير من القولين و على هذا فالمراد بها في الآية صلاة الظُّهر.



و أمّا العامّة فإختاروا القول الأوّل و قالوا المراد بالصّلاة في الآية صلاة المغرب و وافقنا منهم شرذمةٌ قليلة و الإختلاف أنّما نشأ من تفسير الدّلوك كما عرفت الحال فيه.

و الحقّ أنّ الدّلوك هو زوال الشّمس لا غروبها و ذلك لأنّه مشتقّ من الدَّلك يقال دلك جسده عند الإغتسال بالطّيب أي تضمَّخ و هو الذّي يقال له بالفارسيّة (ماليدَن) اذا عرفت هذا بحسب اللّغة فنقول:

أنّ النّاظر الى الشّمس يدلك عينيه عند النّظر اليها لشّدة شعاعها وضوءها و أمّا عند غروبها فيدلك عينيه لقلّة تبيّنها و ظهورها فقوله تعالىٰ: **أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ** يناسب الظُّهر لشّدة شعاع الشّمس التّي تحتاج الى التّدلّك للنّظر اليها و هذا وجه عقليّ ذكرناه للتّأييد و إلاّ فالمرجع هو الأخبار الواردة في الباب عن العترة الطّاهرة.

و أمّا العامّة فحيث تركوا أهل البيت و أخذوا دينهم عن غيرهم فلا جرم سلكوا مسلكاً آخر.

و من الأخبار الواردة.

ما رواه في تهذيب الأحكام بأسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عمّا فرض من الصّلاة فقال خمس صلوات في اللّيل و النّهار فقلت هل سمّاهن اللّه و بيّنهن في كتابه فقال نعم قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّه صلى الله عليه و آله و سلم أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ و دلوكها زوالها ففي ما بين دلوك الشّمس الى غسق اللّيل أربع صلوات سمّاهن و بيّنهن و وقتّهن و غسق اللّيل إنتصابه.

موضع الحاجة من الحديث و حيث أنّ البحث ليس فيه كثير فائدة أعرضنا عن ذكر الأخبار و فيما ذكرناه كفاية.



و أمّا قوله: **وَ قُرْاٰنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْاٰنَ ٱلْفَجْرِ كٰانَ مَشْهُودًا** أي عند الملائكة يشهده ملائكة اللّيل و ملائكة النّهار قاله إبن عبّاس و قتادة و مجاهد و أمّا قرأن الفجر فقال الزّجاج هو صلاة الصّبح و عليه قاطبة المفسّرين قيل و خصّت بالقرأن و هو القراءة لأنّه عظمها اذا قراءتها طويلة مجهورٌ بها و إنتصب و قرأن الفجر عطفاً على الصّلاة.

و قال صاحب الكشّاف سمّيت صلاة الفجر قرأناً لأنّها ركن كما سمّيت ركوعاً و سجوداً.

و قال بعضهم اذا فسَّرنا الزّوال بدلوك الشّمس كان الوقت مشتركاً بين الظُّهر و العصر و يكون الغسق وقتاً مشتركاً بين المغرب و العشاء و يكون المذكور ثلاثة أوقات أوّل وقت الزّوال، و أوّل وقت المغرب، و أوَّل وقت الفجر و فى المقام تحقيق للرّازي لا بأس بذكره.

قال فأن فسَّرنا الغسق بظهور أوّل الظُّلمة كان الغسق عبارة عن أوّل المغرب و على هذا التّقدير يكون المذكور في الآية ثلاثة أوقات وقت الزّوال و وقت الغروب و وقت الفجر و هذا يقتضي أن يكون الزّوال وقتاً للظُّهر و العصر فيكون هذا الوقت مشتركاً بين الصّلاتين و هذا يقتضي جواز الجمع بين الظُّهر و العصر و اذا كان أوّل المغرب وقتاً للمغرب و العشاء و مشتركاً بينهما يجوز الجمع بين المغرب و العشاء مطلقاً إلاّ أنّه دلَّ الدّليل على أنّ الجمع في الحضر من غير عذرٍ لا يجوز انتهى موضع الحاجة من كلامه.



أقول ما ذكر و حقّقه حقّ لا مرية فيه كما هو مذهب الشّيعة الأثنى عشرية إلاّ أنّ قوله من غير عذرٍ لا يجوز بالدّليل، فيقال له و أيُّ دليلٍ دلَّ على أنَّ الجمع من غير عذرٍ لا يجوز فأن كان له دليلٌ عليه فينبغي أن يذكره و للبحث فيه مقام أخر.

فعن عبيدة بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: **أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ** قال عليه السلام: أنّ الله إفترض أربع صلوات أوّل وقتها من زوال الشّمس الىٰ إنتصاف اللّيل.

منها صلواتان أوّل وقتها من عند زوال الشّمس الى غروبها إلاّ أنّ هذه قبل هذه.

و صلواتان أوّل وقتها من غروب الشّمس الى إنتصاف اللّيل إلاّ أنّ هذه قبل هذه.

أقول و هو دليل على جواز الجمع بينها في حال الإختيار.

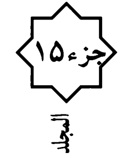
و عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالىٰ: **أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ** قال عليه السلام: دلوكها زوالها، غسق اللّيل الى نصف اللّيل ذلك أربع صلوات وضعهنّ رسول اللّه و وقّتهنَّ للنّاس و قرأن الفجر صلاة الغداة[1].

و الأخبار في ذلك كثيرة و الأمر أوضح من أن يخفى على أحدٍ.

وَ مِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا

من للتّبعيض، والهاء في به الى القرأن، نافلةٍ، أي زيادةً و التّهجد التّيقُّظ بما ينفي النّوم، و الهجود النّوم و قيل التّهجُّد يكون بعد نومة.

و قال المبرّد التّهجُّد عند أهل اللّغة السّهر للصّلاة أو لذكر اللّه فاذا سهر للصّلاة قيل تهجّد و اذا أراد النّوم قال هجدت و النّافلة فعل ما فيه الفضيلة ممّا رغَّب اللّه فيه ولم يوجبه و قد جاءت النّافلة بمعنى الغنيمة لأنّها زيادة على أصل المال، أمر اللّه رسوله بالتّهجُّد في بعض اللّيل و قوله: **نَافِلَةً** يجوز أن ينتصب بتّهجُّد أي صل نافلةً لك.



١- تفسير نور الثّقلين ج ٣ ص ٢٠٢

و قيل، نافلة هنا مصدر كالعاقبة و قيل هي حالٌ للصّلاة أي صلِّ صلاةً نافلةً.

قال مجاهد و السُّدي أنّما هي نافلة له صلى الله عليه و آله و سلم قد غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر عام الحديبيّة فأنّما كانت نوافله و إستغفاره فضائل من العمل و قرباً أشرف من نوافل أمّته لأنّ هذه أعني نوافل أمّته أمّا أن يجبر بها فرائضهم و أمّا أن يحطَّ بها خطيئاتهم و هذا بخلاف نوافل الرّسول صلى الله عليه و آله و سلم.

أقول النّافلة في حقّ الرّسول معناها ترفيع المقام عند اللّه كما نقول و تقبَّل شفاعته و إرفع درجته.

و أمّا قوله: **عَسَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا** فعسى هنا تامّة و فاعلها، أن يبعثك و ربّك فاعل بيبعثك و مقاماً، الظّاهر أنّه معمول ليبعثك و قيل هو منصوب على الظّرف أي في مقامٍ محمود و قيل على الحال أي ذا مقام و لا يجوز أن تكون، عسى، ناقصة و تقدّم الخبر على الإسم فيكون ربّك مرفوعاً إسم عسى و أن يبعثك الخبر في موضع النّصب.

فى تفسير المقام المحمود أقوال:

أحَدها أنّه في أمر الشّفاعة الّتي يتدافعها الأنبياء حتّى تنتهي اليه صلى الله عليه و آله و سلم.

الثّانى أنّه في أمر شفاعته لأمّته و هذه الشّفاعة لا تكون إلاّ بعد الحساب.

الثّالث عن حذيفة يجمع اللّه النّاس في صعيدٍ فلا تتكلّم نفسٌ فأوّل مدعوّ محمّد صلى الله عليه و آله و سلم **فيقول لبيّك و سعديك والشّر ليس اليك و المهديّ من هديت و عبدك بين يديك وبك و اليك لا ملجأ ولا منجأ إلاّ اليك تباركت و تعاليت سبحانك ربّ البيت قال فهذا قوله: عَسَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**

الرّابع: قال صاحب الكشّاف المقام المحمود المقام الذّي يحمده القائم فيه وكلّ من رأه و عرفه و هو مطلق في كلّ ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات انتهى.

الخامس: أنّ المقام المحمود إعطاء اللّه إيّاه لواء الحمد و عسى من اللّه واجبة و هذه الأقوال ذكروها في تفاسيرهم لهذه الآية.

و في كتاب التّوحيد عن أمير المؤمنين عليه‌السلام في حديث طويل، يقول فيه و قد ذكر أهل المحشر ثمّ يجتمعون في موطنٍ أخر يكون فيه مقام محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و هو المقام المحمود فيثنى على اللّه تبارك وتعالى بما لم يثن عليه أحدُ قبله ثمّ يثنى على كلّ مؤمنٍ و مؤمنةٍ يبدأ بالصّديقين و الشّهداء ثمّ بالصّالحين فيحمده أهل السّموات و الأرض فذلك قوله عزّ وجلّ: عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقٰامًا مَحْمُودًا فطوبى لمن كان ذلك اليوم له حظٌّ و نصيب و ويلٌ لمن لم يكن له في ذلك اليوم حظّ و لا نصيبٌ.

و في الكافي بأسناده عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد اللّه قال اذا دخلت المدينة الى أن قال و إبعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأوّلون و الأخرون.

و في تفسير عليّ بن إبراهيم بأسناده عن سماعة عن أبي عبد اللّه قال: سألته عن شفاعة النّبي يوم القيامة فقال عليه‌السلام: يلجم النّاس يوم القيامة العرق فيقولون إنطلقوا بنا الى أدم يشفع لنا عند ربّنا فيأتون أدم فيقولون يا أدم أشفع لنا عند ربّك فيقول أنّ لي ذنباً و خطيئة فعليكم بنوح فيأتون نوحاً فيردّهم الى من يليه و يردّهم كلّ نبيٍّ الى من يليه حتّى ينتهوا الى عيسى فيقول عليكم بمحمّدٍ رسول اللّه فيعرضون أنفسهم عليه و يسألونه فيقول إنطلقوا فينطلق بهم الى باب الجنّة و يستقبل باب الرّحمة و يخرّ ساجداً فيمكث ما شاء اللّه فيقول اللّه ارفع رأسك وإشفع تشفع و إسأل تعط و ذلك هو قوله: عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقٰامًا مَحْمُودًا



و أيضاً بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لو قد قمت مقام المحمود لشفعت في أبي و أمّي و عمّى و أخٌ كان لي في الجاهليّة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم هذا الكلام لسدّ ألسنة المعاندين المعترضين من العامة حيث ذهبوا الى كفر أبي طالب و أمّ رسول اللّه و أبيه و ألاّ فالمستفاد من الأدلّة هو إيمان أبيه و أمّه و عمّه فكأنّه جوابٌ تنزيليّ يعني إذا بلغت مقاماً محموداً و شفعت عدد الرّمل و الحصى فكيف لا أشفع في أبي و أمّى و عمّي الذين أحسنوا إليّ.

و عن آمالي الشّيخ بأسناده قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام سمعت النّبي يقول إذا حشر النّاس يوم القيامة نادى منادٍ يا رسول اللّه أنّ اللّه جلّ إسمه قد آمنك من مجازاة (مُجاراة) محبّيك ومحبّي أهل بيتك الموالين لهم فيك و المعادين لهم فيك فكافهم بما شئت.

فأقول: يا ربّ الجنّة فأنادى بوّئهم منها حيث شئت فذلك المقام المحمود الّذي وعدت به.

و بأسناده الى إنس بن مالك قال: رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مقبلاً على عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يتلوا هذه الآية فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم يا عليّ أنّ ربّي عزّ وجّل ملكني بالشّفاعة في أهل التّوحيد من أمّتي و حظر ذلك عمَّن ناصبك أو ناصب ولدك من بعدك.

و في روضة الواعظين للمفيد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمّتي فيفّعني اللّه فيهم و اللّه لا تشفّعت فيمن أذى ذريّتي[1].



١- تفسير نور الثّقلين ج ٣ ص ٢٠٧

و الأحاديث كثيرة في الباب فهذا هو المقام المحمود عند أهل البيت عليهم السّلام و قد نقل صاحب التّفسير أخباراً كثيرة و أكثر منه ما رواه في البحار و غيرها من المطوّلات هذا.

وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا

إختلف المفسّرون في شأن نزول الآية و المعنى المراد بها فقال مجاهد و أبو صالح ما معناه إدخاله صلّى الله عليه و آله و سلّم فيما حمله من أعباء النبّوة و إداء الشَّرع و إخراجه منه مؤدّياً لما كلّفه من غير تفريطٍ.

و قال الزّمخشري أدخلني القبر مدخل صدقٍ إدخالاً مرضيّاً على طهارةٍ و طيبٍ من السيّئات و أخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضيّاً بالكرامة آمناً من السّخط.

و قال قومٌ إدخاله مكّة ظاهراً عليها بالفتح و إخراجه منها آمناً من المشركين.

و قيل إدخاله الغار و إخراجه منه سالماً.

و قيل الإدخال فيما أمر به و الإخراج مّما نهاه عنه و هكذا و الأقوال كثيرة و لكلٍّ منها وجه و الّذي يستفاد من الأخبار أنّها نزلت يوم فتح مكّة لما أراد رسول اله صلّى الله عليه و آله و سلّم دخولها أنزل اللّه: **قُلْ** يا محّمد **أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ.**

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إذا دخلت مدخلاً تخافه فأقرء هذه الآية فاذا عاينت الّذي تخافه فإقرأ أية الكرسى.

أقول و هذا هو الحقّ فأنّ الآية في الحقيقة نزلت منزلة الدُّعاء و هكذا قوله: **وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا** أي و اجعل لي حجّةً بيّنةً.

وَ قُلْ جٰآءَ ٱلْحَقُّ وَ زَهَقَ ٱلْبٰاطِلُ إِنَّ ٱلْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقًا قيل الحقّ القرأن و الباطل الشّيطان، و قيل الحقّ الجهاد و الباطل الشّرك و قيل الإيمان و الكفر.

و قيل التّوحيد و الشِّرك أي جاء التّوحيد و بطل الشّرك و الكلّ لا بأس به فأنّ الحقّ معلوم و كذا الباطل فاذا جاء الحقّ ذهب الباطل لا محالة فأنّهما معاً لا يجتمعان في موردٍ واحدٍ و من المعلوم أنّ بعد مجيِ الإسلام ذهب الكفر.

فقد روي عن إبن مسعود أنّه قال: دخل النبيّ يوم فتح مكّة و حول الكعبة ثلاث مائة و ستّون صنماً فجعل رسول اللّه يطعنها بعود و يقول جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً، و زهوقاً صفة مبالغة في إضمحلاله و عدم ثبوته وقتاً ما.

إن قلت: كيف زهق الباطل بعد مجيِ الإسلام و قد نرى وجود الباطل بل غلبته على الحقّ حتّى في عهد الرّسالة و مدّة حياة النّبي فضلاً عمّا وقع بعد وفاته الى زماننا هذا.

قلت: عنه جوابان:

أحدهما: أنّ المراد بالباطل هو الشِّرك في ظاهر الأمر و بالحقّ التّوحيد كذلك و لا شكّ أنّ الشِّرك بهذا المعنى زهق بعد مجيِ التّوحيد في الإسلام و أن كان الشِّرك الخفيّ موجوداً.

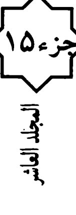
الثّاني: أنّ الآية و إن نزلت في عهد الرّسول في فتح مكّة و لكن مصداقها الأتمّ الأكمل بعد ظهور القائم عليه السّلام و قد ثبت أنّ المستقبل اذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي و لذلك قال جاء الحقّ، و يؤيّد هذا المعنى ما ورد في الأخبار من أنّ هذه الآية كانت مكتوبة بقلم القدرة على عضد القائم المهديّ و قيل على كتفه وكيف كان هو الّذي يظهر الحقّ و يميت الباطل من أصله.



و يحتمل أن يكون المراد بمجيء الحقّ و زهوق الباطل هو تمامية الحجّة على الخلق بمعنى أنّ الباطل لا حجّة له و لا أصل بخلاف الحقّ، أو أنّ الحقّ يدوم و الباطل لا دوام له فهو كسراب بقيعةٍ يحسبه الظّمان ماءً و اليه الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **للحقّ دولة و للباطل جولة.**

قال الرّاغب في المفردات، زهقت نفسه خرجت من الأسف علي الشّئ، و على هذا يكون المعنى جاء الحقّ و خرج الباطل أي أنّهما لا يجتمعان فمجيء الحقّ يوجب خروج الباطل في جميع الموارد و هذا من الأصول العقليّة التّي لا شبهة فيها وكيف كان فالمعنى واضح.

■



وَ نُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْاٰنِ مٰا هُوَ شِفٰآءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰا يَزِيدُ ٱلظّٰالِمِينَ إِلّٰا خَسٰارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذٰآ أَنْعَمْنٰا عَلَى ٱلْإِنْسٰانِ أَعْرَضَ وَ نَاٰ بِجٰانِبِهِ وَ إِذٰا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كٰانَ يَؤُسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلٰى شٰاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدٰى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ مٰآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلّٰا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَ لَئِنْ شِئْنٰا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ ثُمَّ لٰا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنٰا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلّٰا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كٰانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلٰىٓ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ لٰا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا لِلنّٰاسِ فِى هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبٰىٓ أَكْثَرُ ٱلنّٰاسِ إِلّٰا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهٰارَ خِلٰالَهٰا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمٰآءَ كَمٰا زَعَمْتَ عَلَيْنٰا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْمَلٰآئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقٰى فِى ٱلسَّمٰآءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنٰا كِتٰابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحٰانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلّٰا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَ مٰا مَنَعَ ٱلنّٰاسَ أَنْ يُؤْمِنُوٓا إِذْ

جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

◀ اللّغة

خَسَارًا: بفتح الخاء مصدر قولك خَسِر خُسراً و خَساراً و خُسراناً و خسارةً ضدّ ربح.

نَا: أي بعد و قيل تباعد.

يَؤُسًا: أي قنوطاً من رحمة اللّه مأخوذ من اليأس

شَاكِلَتِهِ: أي طبيعته و طريقته.

ظَهِيرًا: الظَّهير المعين و النّاصر.

صَرَّفْنَا: التَّصريف هو تصيير المعنى دائراً فيما كان من المعاني المختلفة.

تَفْجُرَ: أي تشقّق.

يَنبُوعًا: ينبع الماء أي يفور.

كِسَفًا: الكسف القطع واحده كسفة مثل قطعة.

قَبِيلًا: أي كفيلاً و قيل أي معاينةً.

لِرُقِيِّكَ: أي لصعودك.

◀ الإعراب

مِنَ ٱلْقُرْءَانِ من لبيان الجنس أي كلّه هدىً مِن الضّلال و قيل هي للتّبعيض أي منه ما يشفي المرض و أجاز الكسائي رحمةً بالنّصب عطفاً على محلّ، ما،

مِنَ ٱلۡعِلۡمِ متعلّق بأوتيتم و لا يكون حالاً من القليل لأنّ فيه تقديم المعمول على، إلاّ إِلَّا رَحۡمَةً هو مفعول له و يجوز أن يكون مصدراً و تقديره رحمناك رحمةً لَا يَأۡتُونَ ليس بجواب الشّرط لكن جواب قسم محذوف دلَّ عليه اللاّم الموطّئة في قوله لَئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ و قيل هو جواب الشّرط ولم يجزمه لأنّ فعل الشّرط ماضٍ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ يقرأ بالتّشديد على التّكثير، و بفتح التّاء و ضمّ الجيم و التّخفيف و الياء في، ينبوع زائدة لأنّه من، نبع فهو مثل يغبوب من غبَّ كِسَفًا حال من السّماء ولم يؤنّثه لأنّ تأنيث السّماء غير حقيقي قَبِيلًا حال من الملائكة أو من اللّه و الملائكة نَقۡرَؤُهُ صفة لكتاب أو حال من المجرور.

◀ التّفسير

وَ نُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَ رَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا

ذكروا في وجه الشّفاء وجوهاً:

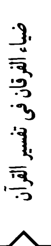
أحدها: ما في القرأن من البيان الّذي يزيل الجهل و حيرة الشكّ فأنّ الجهل مرض و كذا الشكّ و لا يداوي هذا المرض إلاّ بالقرأن.

الثّانى: أنّه من جهة نظمه و تأليفه يدلّ على أنّه معجزٌ دالٌ على صدق من ظهر على يده.

الثّالث: أنّه يتبرّك به فيدفع به كثيراً من المكاره و المضارّ على ما يصحّ و يجوز في مقتضى الحكمة.

الرّابع: ما في العبادة بتلاوته من الصّلاح هذه الوجوه ذكرها الشّيخ في التّبيان.

أقول ما ذكره لا بأس به و الحقّ أن يقال أنّه شفاء للأمراض الرُّوحية كما أنّ الأدوية شفاء للأمراض الجسميّة فأنّ لكلّ داءٍ دواء بحسبه فكما أنّ المرض



يعرض على الجسم و البدن كذلك يعرض على القلب و الرُّوح فالكبر و الحسد و الكذب و الغيبة و غيرها من الأخلاق الذّميمة كلّها مرض طارٍ على القلب و دواءها قراءة القرأن و التدبُّر فيه و لا يبعد أن يقال أنّه شفاء للأمراض البدنيّة أيضاً كما ورد به الأثار و شاهدناه بأعيننا غير مرّةٍ و لكن هذا كلّه للمؤمن الذّي يعتقد بالقرأن و أمّا غيرهم فلا.

و الى هذا أشار اللّه بقوله: **وَ لَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** والمراد بالظّالم في المقام من لا يعتقد بقرينة قوله: **لِّلْمُؤْمِنِينَ** ولتوضيح ذلك نقول:

قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ شرط تأثير العلّة في المعلول هو وجود المقتضى في المعلول و عدم وجود المانع فيه فبإنتفاء كلّ واحدٍ منهما ينتفي التّأثير و التّأثر و المراد بالمقتضى الإستعداد و القابليّة الفعليّة و بالمانع ما يمنع عن تأثير العلّة و تأثُّر المعلول بها فلو كان المقتضى موجوداً في المعلول مع وجود المانع أو كان المانع مفقوداً مع عدم المقتضى لا يكفي في مقام التّأثير و التّأثّر اذا عرفت هذا فنقول:

القرأن أعني به كلام اللّه المنزل على نبيّه بمنزلة العلّة اذ المفروض أنّه يشفي المريض و يؤثّر فيه و لا نعني بالعلّة إلاّ هذا و قلب المريض أو روحه أو جسده أو ما شئت فسمّه بمنزلة المعلول بل هو هو فاذا كان القلب مستعدّاً لذلك ولكن المانع موجودٌ هناك و هو الشِّرك و الكفر و العناد فلا تؤثّر العلّة لا لنقصٍ فيها بل لوجود المانع و هذا أصلٌ تبتني عليه الفروع في باب العلّة و المعلول و حيث أنّ قلب المؤمن مستعدّ لقبول الإفاضات الإلٰهيّة لإيمانه باللّه و المانع و هو الكفر مفقود فلا جرم يكون القرأن له شفاء و رحمة في صورة إقتضاء المصلحة.

و أمّا قلب الكافر المعاند فليس كذلك لوجود المانع و هو الكفر فلا يزيد الظّالمين إلاّ خساراً ألا ترى أنّ ضوء الشّمس في النّهار رحمة لجميع

الموجودات و خسارٌ للميتة التّي لا تقدر على الإستفادة منها لا لنقصٍ في الشّمس و ضياءه بل لنقصٍ في المعلول فلا تزيد الشّمس فيها إلاّ التّعفّن و هكذا الإنسان بالنسبة الى الإفاضات.

روي أنّ رجلاً عاصياً لمّا سمع **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ**[1] تاب و رجع عمّا كان عليه و إنّ الوليد الفاسق و هو من خلفاء بني المروان لمّا سمع قوله تعالىٰ: **وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ**[2] فَعل به ما فَعل ثمّ قال:

أتوعدني بجبّار عنيدٍ فها أنا ذاك جبّارٌ عنيدُ
اذا ما جئت ربّك يوم حشرٍ فقل ياربّ مزّقني خرّقنى الوليد

و هذا معنى قوله: **وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلّا خَساراً**، فالقرأن في لسان معاوية ويزيد و عبد الملك و غيرهم من الظّالمين لا يزيد إلاّ خساراً و أمّا في لسان سلمان و مقداد و عمّار و غيرهم من الأولياء شفاء و رحمة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ صَرَّفْنا في هٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً**[5].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلىٰ أَدْبارِهِمْ نُفُوراً**[6].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: وَاعْلَمُوا اَنَّ هٰذَا الْقُرآنَ هُوَ النّاصِحُ الَّذِى لَا يَغُشُّ وَالْهَادِى الَّذِى لَا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ الَّذِى لَا يَكْذِبُ.وَمَا جَالَسَ هٰذَا الْقُرآنَ اَحَدٌ اِلّا

١- الحديد = ١٥
٢- إبراهيم = ١٥
٣- الإسراء = ٩
٤- الإسراء = ٤١
٥- الإسراء = ٤٥
٦- الإسراء = ٤٦

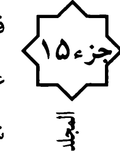
قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ اَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِی هُدیً وَنُقْصَانٍ مِنْ عَمیً وَاعْلَمُوا اَنَّهُ لَيْسَ عَلَیَ اَحَدٍ بَعْدَ الْقُرآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرآنِ مِنْ غِنیً فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ اَدْوائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَیٰ لَأْوائِكُمْ فَاِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ اَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَیُّ وَالضَّلَالُ وساق الكلام الیٰ أن قال عليه السلام: وَاعْلَمُوا اَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَقَائِلٌ مُصدَّقٌ الیٰ أن قال عليه السلام: فَاِنَّهُ يُنَادِی مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ(اَلَا اِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلیً فِی حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرآنِ فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَاَتْبَاعِهِ وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَیٰ رَبِّكُمْ وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَیٰ اَنْفُسِكُمْ الیٰ أخر ما قال عليه السلام[١] .

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَا بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَؤُسًا

لمّا ذكر اللّه تعالى تنويع ما أنزل من القرأن شفاءً و رحمةً للمؤمن و زيادة خسارٍ للظّالم عرَّض بما أنعم به و ما حواه من لطائف الشّرائع على الإنسان و مع ذلك أعرض عنه و نأى أي بعد بجانبه عنه اشمئزازاً له وتكَّبراً عن قرب سماعه و تبديلاً مكان شكر الإنعام كفره.

قال المفسّرون الظّاهر أنّ المراد بالإنسان هنا ليس واحداً بعينه بل المراد به الجنس كقوله: **إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ**[٢] و هو راجع لمعنىٰ الكافر.

أقول أمّا أنّ المراد بالإنسان الجنس فلا كلام فيه فأنّ اللاّم فيه أمّا للإستغراق أو للجنس و على التّقديرين فالمقصود حاصل و أمّا قولهم أنّه راجع الى الكافر فليس كذلك فأن الإنسان بمقتضى جبلّته كذلك و لا ينافيه خروج بعض أفراده عن الحكم و ذلك صدر بإعتبار ذاته لو خلّي و طبعه و هذا لا ينافي عدم شمول الحكم له ثانياً و بالعرض بسبب التّعاليم الدينيّة و قيل أنّ الحكم بإعتبار الأغلب و لا ينافيه خروج الأقلّ منه تخصُّصاً و قيل ما من عامٍّ إلاّ و قد خصَّ.



١- خ ١٧٦

٢- العاديات = ٦

و الحقّ ما ذكرناه اذ لا تخصيص في الأحكام العقليّة كما لا تخصُّص فيها و الحكم في المقام عقليّ.

و قوله: **وَ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَؤُسًا** يدلّ على ضعفه في حدّ ذاته و المراد بالشرّ البلاء و حاصل الكلام في الآية هو أنّ الإنسان لا يشكر على النِّعم و لا يصبر على البلاء و هو كذلك إلاّ من نوَّر قلبه بالإيمان باللّه و إعتمد عليه في جميع أموره فأنّه يشكر على النّعمة و يصبر على البلاء لكونه راضياً بقضاء اللّه.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا

أي قل لهم كلّ إنسان يعمل لهم كلّ شاكلته و طريقته التّي تشاكل أخلاقه و قيل يعمل على طبيعته و قيل على عادته التّي ألفها و المعنى أنّه ينبغي للإنسان أن يحذر الف الفساد فلا يستمرّ عليه بل يرجع عنه و اللّه تعالى أعلم بمن يهتدي الى الحقّ ممّن يسلك طريق الضّلال لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم.

قال الرّاغب في المفردات، على شاكلته، أي على سجيّته التّي قيَّدته و ذلك أنّ سلطان السجيّة على الإنسان قاهرٌ.

و الفرق بين المشاكلة و المشابهة و الندّ، هو أنّ المشاكلة في الهيئة و الصُّورة و الندّ في الجنسيّة و الشبه في الكيفيّة و الشّكل قيل هو الدلّ و هو في الحقيقة الأنس الّذي بين المتماثلين في الطّريقة و من هذا قيل النّاس أشكالٌ و ألاف و أصل المشاكلة من الشّكل أي تقييد الدّابة و الشّكال ما يقيّد به.

قيل سئأل الخليل بن أحمد النَّحوي العروضي و هو من أعيان العلماء و أستاذ سيبويه في العلوم الأدبيّة، مابال النّاس حيث تركوا عليّاً بعد رسول اللّه مع كونه منصوصاً به في غدير خمّ بالخلافة و الوصاية مضافاً الى علمه و فضله و سابقته في الجهاد قال الخليل في الجواب النّاس الى أمثالهم و أشكالهم أميل و عليّ لم يكن من أشكالهم و أمثالهم فلا جرم تبعوا من كان من جنسهم و شكلهم الى أخر ما قال.



أقول ما قاله الخليل حقّ لا مرية فيه و غرضه من هذا الكلام أنّ النّاس بعد رسول اللّه۶ و إن كانوا ظاهراً مسلمين إلاّ أنّ طبيعة الجاهليّة كانت قاهرة عليهم و لذلك إختاروا من كان من جنسهم في السجيّة و الطّبيعة و عليّ لم يكن من المشركين في عهد الجاهليّة لأنّه لم يشرك باللّه طرفة عينٍ و أين هذا من هذا.

ألا ترىٰ أنّ هذه القاعدة جارية في النّاس في جميع الأزمنة فالفاسق مع الفاسق و الكافر مع الكافر و المؤمن مع المؤمن و العالم مع العالم و الجاهل مع الجاهل و هكذا و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

ذرّه ذرّه كاندر اين ارض و سماست   جنس خود را مثل كاه و كهرباست

نوريان مر نوريان راطالبند   ناريان مر ناريان را جاذبند

سُنَّةَ ٱللّٰهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللّٰهِ تَبْدِيلًا(۱)

وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

قال الرّاغب في المفردات **الرَّوح** و الرُّوح بفتح الرّاء و ضمّها واحد في الأصل، و جعل الرُّوح إسماً للنّفس قال الشّاعر فى صفة النّار:

فقلت له أرفعها اليك و أحيها   بروحك و أجعلها لها فيئة قدراً

و ذلك لكون النّفس بعض الرُّوح كتسمية النّوع بإسم الجنس نحو تسمية الإنسان بالحيوان و جعل إسماً للجزء الّذي به تحصل الحياة و التحرّك و إستجلاب المنافع و إستدفاع المضّار و هو المذكور في قوله تعالى: **وَ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** و قوله: **وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى** و إضافته الى نفسه إضافة ملكٍ و تخصيصه بالإضافة تشريفاً له و تعظيماً انتهى كلامه.

۱- الاحزاب = ۶۲

أقول إتّفق أهل اللّغة على أنّ الرُّوح و الرَّوح مشتقّان من الرِّيح بكسر الرّاء و فرّقوا بينهما بأنّ الرَّوح بفتح الرّاء برد نسيم الرّيح و أيضاً يطلق على السُّرور و الفرح و لا كلام لنا فيه و أمّا الرُّوح بضمّ الرّاء فقال في لسان العرب أنّه في كلام العرب النَّفخ سمّي روحاً لأنّه ريحٌ يخرج من الرُّوح أعني به النَّفخ قال ذو الرمة:

فقلت له أرفعها اليك و أحيها بروحك و أجعله لها فيئةً قدراً.

و أعلم أنّ الآية الشّريفة ناظرة الى حقيقة الرُّوح و ماهيّته و السّؤال عن رسول اللّه ﷺ كان عن حقيقة الرُّوح و أنّه ما هو فقال تعالى مخاطباً لنبيّه **قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** أي من عالم الأمر **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** إشارة الى أنّكم لا تقدرون على فهم ذلك لقلّة علمكم و هو كذلك فأنّ جميع العقلاء و الفلاسفة في الإسلام و فى غير الإسلام عجزوا عن درك حقيقة الرُّوح و العلم بماهيّته و الأصل في ذلك هو الآية.

قال الغزالي في الأربعين الرُّوح هي نفسك و حقيقتك و هى أخفى الأشياء عليك و أعني بنفسك روحك الّتي هي خاصّة الإنسان المضافة الى اللّه تعالى بقوله: **قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** و قوله تعالى: **وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** دُون الرُّوح الجسماني اللَّطيف الّذي هو عامل قوّة الحسّ و الحركة الّتي تنبعث من القلب و تنتشر في جملة البدن في تجويف العروق و الضَّوارب فيفيض منها نور حسّ البصر على العين و نور السَّمع على الأذن و كذلك سائر القوى و الحركات و الحواسّ كما يفيض من السَّراج نورٌ على حيطان البيت إذا أدبر في جوانبه فأنّ هذه الرّوح تتشارك البهائم فيها و تنمحق بالموت لأنّه بخار إعتدل نضجه عند إعتدال مزاج الأخلاط فإذا إنحلّ المزاج بطل كما يبطل النّور الفائض من السَّراج عند إطفاء السّراج بإنقطاع الدّهن عنه أو بالنّفخ فيه و إنقطاع الغذاء عن الحيوان يفسد هذا الرُّوح لأنّ الغذاء له كالدهّن للسّراج و

القتل له كالنّفخ في السَّراج و هذه الرُّوح هي الّتي يتصرّف في تقويمها و تعديلها علم الطبّ و لا يحتمل هذه الرّوح المعرفة و الأمانة بل الحامل للأمانة الرُّوح الخاصّة للإنسان و نعني بالأمانة تقلُّد عهدة التّكليف بأن تعرض لخطر الثّواب و العقاب بالطّاعة و المعصية و هذه الرُّوح لا تفنى و لا تموت بل تبقى بعد الموت أمّا في نعيم و سعادةٍ أو في جحيم و شقاوةٍ فأنّه محلّ المعرفة، و التّراب لا يأكل محلّ المعرفة و الإيمان أصلاً و قد نطقت به الأخبار و شهدت له شواهد الإستبصار ولم يأذن الشّارع في تحقيق صفته الى آخر ما قال و يظهر ممّا ذكره أنّ النّفس و الرُّوح واحد و المراد بهما حقيقة الإنسان و ذاته إلاّ أنّ هذا الرّوح الّذي عدّ مساوقاً للنّفس غير الرُّوح البخاري الحيواني الّذي مشترك بين الحيوان و الإنسان على ما مرَّ بيانه في كلامه و هو حقٌّ لا مرية فيه فأنّ الرُّوح الّذي خصّ الإنسان به في قوله: **وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي** غير الرُّوح البخاري الموجود في الحيوان أيضاً و أن كان الإنسان أيضاً من حيث الحيوانيّة واجداً له فالإنسان له روحٌ إلٰهيّ أي منسوبٌ الىٰ الربّ تشريفاً و تكريماً، و روحٌ حيواني به يتحرّك و يحسّ و يرىٰ و يسمع و هذا الرُّوح ليس مورداً للبحث فعلاً و أنّما الكلام في الرُّوح المساوق للنّفس النّاطقة الإنسانية و الآية ناظرة اليه و هو الّذي لا يعلم حقيقته إلاّ اللّه تعالى و هو المراد من النّفس في الحديث الّذي قيل أنّه تعليق على المحال و هو قوله: **من عرف نفسه فقد عرف ربّه**، أي من عرف حقيقة نفسه و روحه فقد عرف ربّه و معرفة الرُّوح و النّفس بكنهها محال فمعرفة الرّب بكنهه و حقيقته أيضاً محال قال عليه السلام **ما عرفناك حقّ معرفتك.**

قال بعض المحقّقين الحمدللّه الّذي خلق النّفوس و حجب حقيقتها عنّا فأنّ العين تبصر غيرها و يتعذّر إدراك نفسها منها فأوجب ذلك تحيّر العلماء فيها و عدم وصولهم بدقيق الفكر اليها و قد قال العالم الرّباني الّذي أوجب اللّه

حقّه، من عرف نفسه فقد عرف ربّه، أشار بإمتناع معرفة نفسه مع قربه الى إمتناع الإحاطة بكنه ربّه و ما قيل في تفسيره من عرفها بالمخلوقيّة عرف اللّه بالخالقيّة (عرفها بالخالقيّة) لا يدفع ما قصدناه و لا يمنع ما ذكرناه إذ معرفتها بصفة حدوثها لا يستلزم معرفة عينها فأنّ معرفتها ليست ضروريّة بلا خلاف لوجود الخلاف فيها و لا كسبيّة لإمتناع صدق الجنس و الفصل عليها بل الإعتراف بالعجز عن وجدانها أسهل من الفحص عن كنهها و برهانها و الإنسان ضعيف القوّة محدود الجملة معلومه أقلّ من مظنونه و تخمينه أكثر من يقينه الى آخر ما قال و أفاد و ما ذكره لا غبار عليه فهو حقٌّ.

قال بعض العلماء الرُّوح لطيفة لاهوتية في صفةٍ ناسوتيّة دالّة من عشرة أوجه على وحدانيّة ربانيّة.

أحدها: لما حرَّكت الهيكل و دبَّرته علمنا أنّه لا بدّ للعالم من محرّكٍ و مدّبرٍ.

ثانيها: دلَّت وحدتها على وحدته.

ثالثها: دلّ تحريكها للجسد على قدرته.

رابعها: دلَّ إطّلاعها على ما في الجسد على علمه.

خامسها: دلَّ إستواءها على الأعضاء على إستواءه على خلقه.

سادسها: دلَّ تقدَّمها عليه و بقاءها بعده على أزله و أبده.

سابعها: دلَّ عدم العلم بكيفيّتها على عدم الإحاطة به.

ثامنها: دلَّ عدم العلم بمحلّها من الجسد على عدم إنيّته.

تاسعها: دلَّ عدم مسّها على إمتناع مسّه.

عاشرها: دلَّ عدم أبصارها على إستحالة رؤيته انتهى كلامه.

و قالت الفلاسفة أنّ في البدن أرواحاً و أنفساً يعبرّون عنها بالقوى.

منها، الرّوح الطّبيعي الّتي يشترك فيها جميع الأجساد الناميّة و محلّها الكبد.

و منها، الرُّوح الحيواني و هى الّتي يشترك فيها الحيوانات و محلّها من الإنسان القلب.

و منها، الرّوح النّفساني و هى من فيض النّفس الناطقة أو العقل و محلّها الدّماغ و هى المدبّرة للبدن و عندنا أنّ هذه الأرواح معان يخلقها اللّه تعالى في هذه المحالّ و قالوا أنّ إسم الرُّوح مشترك باللّفظ بين عشرة معانٍ الوحي، جبرئيل، عيسى، الإسم الأعظم، ملكٌ عظيم الجثة، الرَّحمة، الرّاحة، الإنجيل، القرآن، الحياة أو سببها انتهىٰ.

أقول قد ظهر لك ممّا ذكرناه و نقلناه منهم أنّ البحر عميقٌ بحيث لا يدرك قعره و الحقّ أنّ العقول قاصرة عن درك الرّوح و بيان حقيقتها و هذا معنى قوله تعالى: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** و إذا كان الرُّوح مع أنّه مخلوق بلا شكّ و لا شبهة لا يقدر الإنسان على معرفته بكنهه و لا يصل الى حقيقة ذاته و ماهيّته فما ظنّك باللّه الّذي خلقه و أوجده و بذلك يعرف صدق كلام الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم: **ما عَرفناك حَقّ مَعرَفتك**، و لنعم ما قيل بالفارسية:

بكنه ذاتش خرد برد پى   أگر رسد خس بقعر دريا

أن قلت كيف أبهم الجواب في الآية قلنا فيه وجوه:

أحدها: قال أهل الكتاب للمشركين إسألوا محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم عنه فأن توقّف فيه هو نبّي فسألوه فأجاب بذلك و قوله: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** عني به اليهود لأنّهم قالوا أوتينا التّوراة و فيها علم كلّ شئ.

ثانيها: أنّهم قصدوا بالسّؤال تخجيل النبّي صلى الله عليه وآله وسلم فأنّ الرُّوح لمّا قيل على معانٍ مختلفة كما سلف حتّى لو أجاب بواحدٍ منها قالوا ما نريد هذا فأبهموا السُّؤال فأبهم الجواب بما ينطبق على الجميع بأنّه من أمر اللّه و أنّه أحدثه بقوله، كن، أو هو من شأنه و خلقه.

ثالثها: أنّهم سألوا عن جبرئيل لأنّهم كانوا يدّعون معاداته.

رابعها: أنّهم سألوا عن الملك العظيم الجثّة.

هذا آخر الكلام في هذا الباب فأنّ البحث فيه يستدعي كتاباً مستقلاً و كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذه الأبحاث على وجه التّفصيل و اللّه تعالى أعلم بحقائق الأمور.

وَ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا

و المعنى أنّه تعالى لو شاء لذهب بما أوحي و لكنّه لم يشاء و ذلك لأنّ القادر على الإنزال قادرٌ على الإذهاب أيضاً.

و قال بعض المفسّرين لمّا سأل الرّسول عن الرُّوح و ابطأ عليه الوحي شقّ ذلك عليه و بلغ منه الغاية فأنزل اللّه تعالى هذه الآية تهذيباً له و يكون التّقدير أيعزُّ عليك تأخّر الوحي فإنّا لو شئنا ذهبنا بما أوحينا اليك جميعه فسكت النبيّ و طاب قلبه.

أقول معنى الآية ظاهر فأنّ اللّه يقدر على كلّ شيً و كيف يمكن أن يقال أنه قادر على الوحي و لا يقدر على تركه و قطعه ثمّ إذا قطع اللّه رحمته فمن يقدر على خلافه، و الّذي يستفاد من الآية هو أنّ العلم غير الإرادة في حقّه تعالى لأنّه علم و لم يرد.

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا

إختلفوا في الإستثناء فقال بعضهم أنّه من المتّصل و قال بعضهم أنّه منفصّلٌ منقطعٌ.



قال الزّمخشري و المعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن و محوناه عن الصدّور و المصاحف فلم نترك له أثراً و بقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب **ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ** بعد الذّهاب، به، من يتوكّل علينا بإسترداده و إعادته محفوظاً مستوراً **إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** أي إلاّ أن يرحمك ربّك فيردّه عليك فهذا على المتّصل أو

يكون على المنقطع بمعنى ولكن رحمةً من ربّك تركته غير مذهوبٍ به هذا إمتنان من اللّه ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنّة العظيمة في تنزيله و تحفيظه انتهى كلامه.

أقول لا فرق بين الإتّصال و الإنقطاع في الإستثناء فأنّ رحمة اللّه على التّقديرين كانت شاملة له ﷺ سواء قلنا بأنّ قوله: **إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** أستثنى من الوكيل في قوله وكيلاً كما هو مقتضى الإتّصال أو كانت، إلاّ، بمعنىٰ لكن الّتي للإستدراك كما هو مقتضى الإنفصال فأنّ المعنى على التّقديرين هو أنّ اللّه إمتنّ ببقاء القرآن على رسوله.

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا

لمّا ذكر اللّه تعالى أنعامه على نبيّه بالنبوّة و بإنزال وحيه اليه و باهر قدرته بأنّه لو شاء لذهب بالقرآن ذكر في هذه الآية ما منحه من الدّليل على نبوّته الباقي بقاء الدّهر و هو القرآن الّذي عجز المخلوق عن الإتيان بمثله و فيه إشارة الى أنّه من أكبر النِّعم عليه ﷺ و الفضل الّذي أبقى له ذكراً الى آخر الدَّهر و رفع له قدراً به في الدّنيا و الآخرة.

إعلم أنّ هذه الآية من أدلّ الدّلائل على كون القرآن معجزاً و الإستدلال بذلك لا يتمّ إلاّ بعد بيان خمسة أشياء:

أحدها: ظهور محمّد ﷺ و إدّعاءه أنّه مبعوث الى الخلق و رسولٌ اليهم.

ثانيها: تحدّيه العرب بهذا القرآن الّذي ظهر على يديه و إدّعاءه أنّ اللّه أنزله عليه و خصّه به.

ثالثها: أنّ العرب مع طول المدّة لم يعارضوه.

رابعها: أنّ عدم معارضتهم كان للتعذّر و العجز.

خامسها: أنّ هذا التّعذّر خارق للعادة فإذا ثبت هذا.

فنقول أمّا أن يكون القرآن نفسه معجزاً خارقاً للعادة بفصاحته و لذلك لم يعارضوه أو لأنّ اللّه تعالى صرفهم و منعهم عن معارضته و لولا الصَّرف لعارضوه و على التَّقديرين يثبت كونه معجزاً و أنّ الّذي جاء به صادقٌ في دعواه لأنّه تعالى لا يصدّق كاذباً و لا يخرق العادة لمبطلٍ ثمّ أنّهم إختلفوا في وجه إعجاز القرآن و أنّه لم لا يقدر أحدٌ على الإتيان بمثله على أقوال:

الأوّل: ما ذهب اليه المرتضىﷺ و هو أنّ وجه الإعجاز فيه هو أنّ اللّه صرف العرب عن معارضته و سلبهم العلم بكيفيّة نظمه و فصاحته فلولا هذا الصَّرف لكانوا قادرين على المعارضة.

الثّاني: ما ذهب اليه المفيدﷺ و هو أنّ إعجازه في فصاحته الّتي هي خارقة للعادة لأنّ مراتب الفصاحة أنّما تتفاوت بحسب العلوم الّتي يفعلها اللّه في العباد فلا يمتنع أن يجري اللّه العادة بقدرٍ من المعلوم يقع التّمكين بها و يكون ما زاد على ذلك زيادةً غير معتادة و معجزاً خارقاً للعادة.

الثّالث: أنّ إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرّة على النظّر و موافقة للعقل.

الرّابع: أنّ إعجازه في زوال الإختلال عنه و أنّه لا تناقض في آياته على وجهٍ لم يجر العادة بمثله.

الخامس: أنّ وجه إعجازه أنّه يتضمّن الأخبار عن الغيوب.

و الأقوال المحتملة في الباب كثيرة جدّاً اذ لم يرد في وجه إعجازه نصٌّ خاصّ بل الحقّ أن يقال لا يهمّنا تعيين وجه الإعجاز إذ النتيجة على جميع التّقادير واحدة و هى عجز المخلوق عن الإتيان بمثله و هذا هو المطلوب في المقام و يمكن أن يستدّل على المدّعى بأنّ القرآن كلام الخالق و الكلام قائم بالمتكلّم لأنّه من إنشائه و إيجاده و حيث أنّ المتكلّم في المقام هو اللّه تعالىٰ و هو لا يقاس بالخلق كما أنّ الخلق لا يقاس به أين التّراب و ربّ الأرباب، فلا محالة لا يقدر أحدٌ على الإتيان بمثل كلامه و بعبارةٍ أخرىٰ الإتيان بمثل كلامه



تعالى لا يعقل إلاّ من متكلّمٍ مثله و قد ثبت أنّه لا مثل له و من لا مثل له في ذاته لا مثل له في كلامه و صفاته و هذا ممّا لا يحتاج الى النصّ فأنّ العقل يحكم به حكماً قطعيّاً.

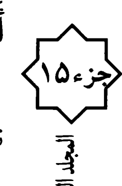
وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا اَلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبىٰ أَكْثَرُ اَلنّٰاسِ إِلاّٰ كُفُوراً

لمّا ذكر اللّه تعالى عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن نبّه على فضله تعالى بما ردّد فيه و ضرب من الأمثال و العبر الّتي تدّل على توحيده أو على أنّ القرآن من قبله تعالى و مع ذلك كلّه لم يكونوا إلاّ كافرين به و بنعمه عناداً منهم و فيه إشارة الى أنّ المعاند لا يقبل الحقّ أبداً ما دام كونه معانداً ثمّ أشار اللّه تعالى الى بعض ما دلَّ على عنادهم فقال:

وَ قٰالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنٰا مِنَ اَلْأَرْضِ يَنْبُوعاً

أي قالوا هؤلاء الكفّار لرسول اللّه لن نؤمن لك، أبداً، حتّى تفجر أي تخرج و التَّفجير التَّشقيق عمّا يجرى من ماء أو ضياء و منه سمّي الفجر فجراً و المعنى لن نؤمن لك حتّى تشقّق من الأرض عيناً ينبع بالماء أي يفور فهو على وزن مفعول من نبع الماء ينبع فهو نابع قيل أنّهم طلبوا عيوناً ببلدهم ثمّ أنّهم لم يقنعوا بذلك و قالوا:

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ اَلْأَنْهٰارَ خِلاٰلَهٰا تَفْجِيراً



و الجنّة البستان أي و لن نؤمن لك حتّى تكون لك بستاناً من نخيلٍ و عنبٍ و تشقق الأنهار خلالها أي في وسطها ثمّ قالوا:

أَوْ تُسْقِطَ اَلسَّمٰاءَ كَمٰا زَعَمْتَ عَلَيْنٰا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّٰهِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةِ قَبِيلاً

و المعنى أو تسقط السّماء علينا كسفاً، أي قطعةً منه أو طبقاً علينا والكِسف بسكون السّين و فتحها.

فَعلىٰ الأوّل: هو جمع كِسفة بسكون السّين كسدر و سدرة و هو للجنس يصلح للكثير و القليل يقول العرب أعطني كسفةً من الثّوب أي قطعةً منه.

وأمّا علىٰ القول الثّانى: و هو فتح السّين فهو مصدر من كسفت الشّيئ إذا غطيّته بالغطاء عمّن يراه، ثمّ طلبوا شيئاً آخر و هو قوله: **أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَ ٱلْمَلَآئِكَةِ قَبِيلًا** أي كفيلاً، أو مقابلةً و قيل معاينةً.

و حاصل المعنى أو تأتي باللّه و الملائكة حتّى نراهم و يظهر من هذا الكلام أنّ القوم كانوا مشبّهة، ثمّ طلبوا شيئاً آخر و هو قوله:

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ.يعني من ذهب على قول قتادة و مجاهد و إبن عبّاس: **أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ** أي تصعد اليها أمامنا **وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ** أي لصعودك **حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ** أي مَكتُوباً كما أنزل على موسى الألواح **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً** و المعنى أنّكم تقترحون منّي ما ليس أمره إلىّ و أنّما أمره الى اللّه الّذي أرسلني اليكم.

في هذه الآيات أبحاث.

الأوّل: أنّ مناسبة هذه الآيات لما قبلها أنّه تعالى لمّا تحدّاهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن فتبيَّن عجزهم عن ذلك أخذوا يتعلّلُون بإقتراح آيات فعل الحائر المبهوت فقالوا ما حكاه اللّه عنهم و هم كانوا جماعة من قريش، منهم عتبة بن ربيعة، و شيبة بن ربيعة، و أبوسفيان، و الأسود بن المطّلب بن أسد، و زمعة بن الأسود، و الوليد بن المغيرة، و أبو جهل بن هشام، و عبد اللّه بن أبيأميّة، و أميّة بن خلف، و العاص بن وائل، و بنيه و منبه إبنا الحجّاج السهميّان على ما في التّبيان وتفصيل القّضية على ما نقل عن أرباب السّير هو أنّهم إجتمعوا بعد غروب الشّمس عند ظهر الكعبة ثمّ قال بعضهم لبعضٍ إبعثوا الى

محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم فكلّموه و خاصموه حتّى تعذّروا فيه فبعثوا اليه أنّ أشراف قومك قد إجتمعوا اليك ليكلّموك فأتهم فجاءهم رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم و هو يظنّ أن قد بدا لهم فيما كلّمهم بدو، و كان رسول اللّه حريصاً يحبّ رشدهم و يعزّ عليه عنتهم حتّى جلس اليهم فقالوا له يا محمّد إنّا قد بعثنا اليك لنكلّمك و إنّا و اللّه ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الأباء و عبت الدّين و شتمت الآلهة و سفهت الأحلام و فرّقت الجماعة فما بقى أمرٌ قبيح إلاّ قد جئته فيما بيننا و بينك أو كما قالوا له، فأن كنت أنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالاً و إن كنت أنّما تطلب به الشّرف فينا فنحن نسوّدك علينا، و إن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا و إن كان هذا الّذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك و كانوا يسمُّون التّابع من الجنّ رئياً، فربّما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطبّ لك حتّى نبرأك منه أو نعذر منك فقال لهم رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم و لا الشّرف فيكم و لا الملك عليكم و لكنّي بعثني اللّه اليكم رسولاً و أنزل عليّ كتاباً و أمرني أن أكون لكم بشيراً و نذيراً فبلّغتكم رسالات ربّي و نصحت لكم فأن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدّنيا و الآخرة و أن تردُّوه عليّ أصبر حتّى يحكم اللّه بيني و بينكم قالوا يا محمّد فأن كنت غير قابلٍ منّا شيئاً ممّا عرضناه عليك فأنّك قد علمت أنّه ليس من النّاس أحد أضيق بلداً و لا أقلّ ماءً و لا أشدَّ عيشاً منّا فسل لنا ربّك الّذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنّا هذه الجبال التّي قد ضيّقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشّام و ليبعث لنا من مضى من أبائنا و ليكن فيمن يبعث لنا قصيّ إبن كلاب فأنّه كان شيخ صدقٍ فنسألهم عمّا تقول أحقٌّ هو أم باطل فأن صدّقوك و صنعت ما سألناك صدّقناك و عرفنا به منزلتك من اللّه و أنّه بعثك رسولاً كما تقول فقال لهم رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم ما بهذا بعثت

اليكم أنّما جئتكم من اللّه بما بعثني به و قد بلّغتكم ما أرسلت به اليكم فأن تقبلوه فهو حظّكم في الدّنيا و الآخرة و أن تردُّوه عليّ أصبر حتّى يحكم اللّه بيني و بينكم.

قالوا فاذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك سل ربّك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول و يراجعنا عنك و إسأله فليجعل لك جناناً و قصوراً و كنوزاً من ذهبٍ و فضّةٍ يغنيك بها عمّا نراك تبتغي فأنّك تقوم بالأسواق و تلتمس المعاش كما نلتمسه حتّى نعرف فضلك و منزلتك من ربّك أن كنت رسولاً كما تزعم فقال لهم رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ما أنا بفاعلٍ و ما أنا بالّذي يسأل ربّه هذا و ما بعثت بهذا اليكم و لكنّ اللّه بعثني بشيراً و نذيراً فأن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدّنيا و الآخرة و إن تردُّوه عليّ فأصبر حتّى يحكم اللّه بيني و بينكم.

قالوا فإسقط السّماء علينا كسفاً كما زعمت أنّ ربّك إن شاء فعل فإنّا لن نؤمن لك إلاّ أن تفعل فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ذلك الى اللّه عزّ وجلّ إن شاء أن يفعله بكم ففعل قالوا يا محمّد أفما علم ربّك أنّا سنجلس معك و نسألك عمّا سألناك عنه و نطلب منك ما نطلب فيتقدّم اليك فيعلمك بما تراجعنا به و يخبرك ما هو صانع في ذلك بنا اذا لم نقبل منك ما جئتنا به أنّه قد بلغنا إنّك أنّما يعلّمك هذا رجلٌ من اليمامة يقال له الرّحمٰن و أنّا و اللّه لا نؤمن بالرّحمن أبداً فقد أعذرنا اليك يا محمّد و أنّا واللّه لا نتركك و ما بلغت منّا حتّى نهلك أو تهلكنا و قال قائلهم نحن نعبد الملائكة و هى بنات اللّه و قال قائلهم لن نؤمن لك حتّىٰ تأتي باللّه و الملائكة قبيلاً فلمّا قالوا ذلك لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قام عنهم و قام معه عبد اللّه إبن أبي أميّة بن المغيرة بن عبد اللّه بن مخزوم و هو إبن عمّته و هو لعاتكة بنت عبد المطّلب فقال لرسول اللّه يا محمّد أعرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثمّ سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها

منزلتك من اللّه كما تقول و يصدّقوك و يتّبعوك فلم تفعل ثمّ سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم و منزلتك من اللّه فلم تفعل، ثمّ سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل، فواللّه لا أومن بك أبداً حتّى تتّخذ الى السّماء سلّماً ثمّ ترقى فيه و أنا أنظر حتّى تأتيها ثمّ تأتي معك بصكٍّ معه أربعة ملائكة يشهدون لك أنّك كما تقول و أيم اللّه لو فعلت ذلك ما ظننت أنّي أصدّقك ثمّ إنصرف عن رسول اللّه و إنصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى أهله حزيناً أسفاً لما فاته ممّا كان يطمع من قومه حين دعوه و لما رأى من مباعدتهم إيّاه انتهى.

البحث الثّاني: أنّهم لم يقصدوا بهذه الإقتراحات إلاّ العناد و اللّجاج ولو جاءتهم كلّ آية منها لقالوا هذا سحرٌ كما قال عزّ و علا، ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ و لو فتحنا عليهم باباً من السّماء فظلّوا فيه يعرجون و حين أنكروا الآية الباقية التّي هي القرأن و سائر الآيات و ليست بدون ما إقترحوه بل هي أعظم لم يكن الى تبصرتهم سبيل هذا ما ذكره صاحب الكشّاف و هو كما قال فأنّ المعاند حاله معلوم.

البحث الثّالث: أنّ الآيات الإلهيّة لا تتّبع الشّهوات و الإقتراحات و أنّما هي تابعةٌ للمصالح و لو تبعت الشّهوات و الإقتراحات لكان كلّ واحدٍ من المقترحين يقترح ما يقترحه الأخر و ذلك يؤدّي الى الفساد مضافاً الى أنّه يؤدّي الى أن يكون اللّه تابعاً للنّاس فيما يقترحونه و هو كما ترى.

الرّابع: أنّهم أي الكفّار لو أجيبوا بما إقترحوا ثمّ لم يؤمنوا بعد ذلك كان ذلك مؤدّياً الى عذابهم فأنّ سنّة اللّه قد جرت بذلك كما في قصّة فرعون و ناقة صالح و إلاّ فلا شكّ أنّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير.

وَ مَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَنْ قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا

الظّاهر أنّ قوله: وَ مَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ من كلام اللّه أي يقول اللّه تعالىٰ ما صرف النّاس يعني المشركين أي أيُّ شيءٍ صرفهم و منعهم عن الإيمان باللّه و برسوله.

و قال إبن عطيَّة هو من قول الرَّسول و ليس بشيءٍ وقوله: إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ يعني الحجج و البيّنات و طريق الحقّ إلاّ قولهم أبعث اللّه بشراً رسولاً فدخلت عليهم الشُّبهة في أنّ الرّسول لابدّ من أن يكون ملكاً و لا يجوز أن يكون من جنس البشر و هذا هو المانع من إيمانهم بعد إقامة الحجّج و البراهين اذ لا عذر لهم غير ذلك ولم يعلموا أنّ الملك لا يصلح أن يكون رسولاً الى البشر لعدم السِّنخية و لذلك لو بعث اليهم لنفرت طباعهم من رؤيته و لم تحتمله أبصارهم و لا تجلّدت له قلوبهم و أنّما أجرى اللّه أحوالهم على معتادها فالهَمزة في قوله أبشراً، للإنكار و الهدى هو القرأن و من جاء به و ليس المراد بقوله: أَنْ قَالُوٓا مجرّد القول بل المراد قولهم النّاشئ عن إعتقادهم فقال اللّه تعالى في جوابهم:

قُلْ لَوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَسُولًا

أي قل يا محمّد في جواب هؤلاء الكفّار لو كان في الأرض ملائكة أي يتصرّفون فيها بالمشي و ليس لهم صعود الى السّماء فيسمعوا من أهلها و يعلمون ما يجب علمه بل هم مقيمون في الأرض يلزمهم ما يلزم المكلّفين من عبادات مخصوصة و أحكام لا يدرك تفصيلها بالعقل، لنزّلنا عليهم من جنسهم من يعلّمهم ذلك و يلقيه اليهم و أمّا الإنس فأنّهم ليسوا بهذه المثابة فلا يرسل اليهم ملك.

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

أمر اللّه تعالى نبيّه بأن يقول لهم كفى باللّه شهيداً بيني و بينكم، على تبليغه و ما قام به من أعباء الرّسالة و عدم قبولهم و كفرهم و ما إقترحوا عليه من

الآيات علىٰ سبيل العناد و أردف ذلك بكلامٍ فيه تهديد و هو قوله: **إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** خبيراً بخفيّات أسرارهم بصيراً مطلقاً على ما يظهر من أفعالهم و أقوالهم و هو يعلم أنّ ما إقترحوه كان على سبيل العناد ولو جاءتهم كلّ آية لقالوا هذا سحرٌ لأنّ شقّ القمر أعظم من شقّ الأرض و نبع الماء من بين أصابعه صلّى الله عليه وآله وسلّم أعظم من نبع الماء على الحجر فلم لم يؤمنوا لو كانوا صادقين في مقالاتهم هذه.

قال القرطبي في تفسير قوله: **إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا** ما هذا لفظه:

اتبع ما يوحى إليّ من ربّي و يفعل اللّه ما يشاء من هذه الأشياء التّي ليست في قدرة البشر.

و قال بعض الملحدين ليس هذا جواباً مقنعاً و غلطوا لأنّه أجابهم فقال أنّما أنا بشر لا أقدر على شيءٍ ممّا سألتموني و ليس لي أن أتخيّر على ربّي ولم تكن الرُّسل قبلي يأتون أممهم بكلّ ما يريدونه و يبغونه و سبيلي سبيلهم و كانوا يقتصرون على ما أتاهم اللّه من أياته الدّالة على صحّة نبوّتهم فاذا أقاموا عليهم الحجّة لم يجب لقولهم أن يقترحوا غيرها ولو وجب على اللّه أن يأتيهم بكلّ ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرُّسل ولو وجب لكلّ إنسانٍ أن يقول لا أؤمن حتّى أوتي بآيةٍ خلاف ما طلب غيري فهذا يؤدل الى أن يكون التّدبير الى النّاس لا الى اللّه و أنّما التّدبير الى اللّه تعالى انتهى كلامه.

أقول ما ذكره حقّ إلاّ أنّه لا يصحّ التّعبير بالملحد عمَّن قال أنّ الجواب إقناعيّ فأنّ أمثال هذه التّعابير في الأبحاث العلميّة عن المخالف في الرّأي لا يجوز إلاّ بعد ثبوت إلحاده.

■

وَ مَنْ يَهْدِ ٱللّٰهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عَلٰى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمٰا خَبَتْ زِدْنٰاهُمْ سَعيرًا ﴿٩٧﴾ ذٰلِكَ جَزٰآؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاٰيٰاتِنٰا وَ قٰالُوٓا أَءِذٰا كُنّٰا عِظٰامًا وَ رُفٰاتًا أَءِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَديدًا ﴿٩٨﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللّٰهَ ٱلَّذي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ قٰادِرٌ عَلٰىٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لٰا رَيْبَ فيهِ فَأَبَى ٱلظّٰالِمُونَ إِلّٰا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزٰآئِنَ رَحْمَةِ رَبّيٓ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفٰاقِ وَ كٰانَ ٱلْإِنْسٰانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسٰى تِسْعَ اٰيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ فَسْئَلْ بَنيٓ إِسْرٰآئيلَ إِذْ جٰآءَهُمْ فَقٰالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنّي لَأَظُنُّكَ يٰا مُوسٰى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قٰالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰآ أَنْزَلَ هٰٓؤُلٰآءِ إِلّٰا رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ بَصٰآئِرَ وَ إِنّي لَأَظُنُّكَ يٰا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرٰادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَميعًا ﴿١٠٣﴾ وَ قُلْنٰا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنيٓ إِسْرٰآئيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذٰا جٰآءَ وَعْدُ ٱلْاٰخِرَةِ جِئْنٰا بِكُمْ لَفيفًا ﴿١٠٤﴾ وَ بِٱلْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ وَ بِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا مُبَشِّرًا وَ نَذيرًا ﴿١٠٥﴾ وَ قُرْاٰنًا فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنّٰاسِ عَلٰى

مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿۱۰۶﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿۱۰۷﴾ وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿۱۰۸﴾ وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿۱۰۹﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَ لَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَ لَا تُخَافِتْ بِهَا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿۱۱۰﴾ وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿۱۱۱﴾

◀ اللّغة

خَبَتْ: الخبوة هدء النّار عن الإلتهاب يقال خبت النّار إذا سكنت.

سَعيرًا: السَّعير الإلتهاب.

رُفاتًا: أي تراباً.

قَتُورًا: القتور بفتح القاف و ضمّ التّاء المضيّق للنَّفقة يقال قتر و أقتر اذا قدّر النَّفقة.

مَثْبُورًا: أي ملعوناً ممنوعاً من الخير يقال رجل مثبور أي محبوس عن الخيرات.

يَسْتَفِزَّهُمْ: الإستفزاز الإستزلال و أصله القطع بشدّةٍ يقال فزّ الثّوب اذا قطعه بشدّة تخريق.

لَفِيفًا: اللَّف الإختلاط يقال لفَّت الجيوش اذا إختلط الجميع.

لِلْأَذْقَانِ: الأذقان جمع ذقن و هو مجمع اللَّحيين.

خُشُوعًا: الخشوع الخضوع و الفرق بينهما بالإعتبار.

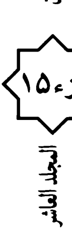
وَ ٱبْتَغِ: الإبتغاء الطَّلب أي و أطلب.

◀ التّفسير

وَ مَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عَلٰى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنٰاهُمْ سَعيرًا

من مفعول بيهد و بيضلل، وحمل على اللّفظ في قوله: **فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ** فأفرد ملاحظةً لسبيل الهدى و هى واحدةٍ فناسب التّوحيد التَّوحيد، و حمل على المعنى في قوله: **فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ** لا على اللّفظ ملاحظةً لسبيل الضّلال فأنّها متشعبّة متعدّدة و التَّعديد الجمع و هذا من المواضع الّتي جاء فيها الحمل على المعنى إبتداءً من غير أن يتقدّم الحمل على اللَّفظ و هى قليلة في القرأن و قوله: **عَلٰى وُجُوهِهِمْ** قيل المراد به معناه الحقيقي كما قال تعالى يوم يسحبون في النّار على وجوههم الّذين يحشرون على وجوههم الى جهنّم و فى هذا حديث.

قيل يا رسول اللّه كيف يمشي الكافر على وجهه قال ﷺ: أليس الذّي أمشاه في الدّنيا على رجلين قادراً أن يمشيه في الأخرة على وجهه، قال قتادة بلى و عزّة ربّنا.



و المشهور عند المفسّرين هو حمل الكلام على معناه المجازي و ذلك أنّه يقال للمنصرف عن أمرٍ خائباً مهموماً، إنصرف على وجهه و يقال للبعير كأنّما يمشي على وجهه.

و قيل هو مجاز عن سحبهم على وجوههم على سرعةٍ من قول العرب قدم القوم على وجوههم اذا أسرعوا.

و قوله: **عُمْيًا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا** حمله قوم على الظّاهر و ذلك عند قيامهم من قبورهم يردّ اللّه اليهم أبصارهم و سمعهم ونطقهم فيرون النّار و يسمعون زفيرها و ينطقون بما حكى اللّه عنهم.

و الحقّ في المقام أيضاً ما قلناه سابقاً من إرادة المجاز و ذلك أنّهم كما عموا عن الحقّ في الدُّنيا ولم يتكلّموا به ولم يسمعوه مع وجود العين و اللّسان و السَّمع فيهم كذلك في الآخرة فمن كان في هذه الدُّنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى و هكذا في البكم و الصُّم قال اللّه تعالى في حقّهم في الدُّنيا: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لايَرْجِعُونَ** [١].

و أصرح من ذلك قوله: **وَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِاٰياتِنٰا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمٰاتِ** [٢] و من المعلوم أنّهم ليسوا كذلك حقيقةً و هكذا في الأخرة.

و قوله: **مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمٰا خَبَتْ زِدْنٰاهُمْ سَعِيرًا** المأوى المكان و المقرّ أي أنّ هؤلاء الّذين وصفناهم بالبكم و العمي و الصمّ مأواهم جهنّم أي نار جهنّم التّي ملتهبةٌ في حقّهم دائماً قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية.

أمّا قوله: **وَ مَنْ يَهْدِ ٱللّٰهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيٰآءَ مِنْ دُونِهِ** فالمقصود تسلية الرّسول و هو أنّ الذّين سبق لهم حكم الإيمان و الهداية وجب أن يصيروا مؤمنين و من سبق لهم حكم اللّه بالضّلال و الجهل إستحال أن ينقلبوا عن ذلك الضّلال و إستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضّلال و إحتجّ أصحابنا بهذه الآية على صحّة مذهبهم في الهدى و الضّلال انتهى.

١- البقرة = ١٨ و ١٧١ ٢- الأنعام = ٣٩

أقول مقصوده من صحّة مذهبهم هو القول بالجبر و أنّ الهداية و الضّلالة خارجتان عن قدرة البشر و إختياره و أنّما هما بيد اللّه تعالى فمن سبق له حكم الإيمان و الهداية فهو المهتدي ومن سبق له حكم اللّه بالضّلال و الجهل فهو الضالّ المضلّ الذّي يحشره يوم القيامة كذا وكذا و مأواه جهنّم خالداً فيها هذا ما أفاده الرّازي في المقام بتوضيح منّا و هو كما ترى لا يقبله العقل السّليم و لا يساعده المذهب و ينافيه العدل بل هو عين الظُّلم و ذلك لأنّ الّذي سبق له الحكم بالضّلال قبل وجوده في الدُّنيا ما ذنبه حتّى يحشر يوم القيامة على وجهه في نار جهنّم أليس الثّواب و العقاب يترتّبان على العمل في الدُّنيا، فمن لم يوجد فيها ولم يعمل شيئاً لم سبق له حكم اللّه بالضّلال أليس هذا من الظُّلم القبيح عقلاً و شرعاً فأن قال القائل أنّه ليس بظلم، نقول فما الظُّلم فسرّه لنا لنعلمه ألستم تقولون أنّ الظُّلم عبارة عن وضع الشّئ في غير محلّه.

إن قلت فما معنى الكلام.

قلت معنى الكلام أنّ من يوفّقه اللّه بلطفه و عنايته و توفيقه في دار الدُّنيا بالهداية و متابعته الحقّ فهو المهتدي أي فهو الذّي يقبل الهداية و من يضلّله و يخذله بأن يكله الى نفسه فهو الضالّ المضلّ فالإضلال من اللّه هو عدم شمول لطفه و توفيقه للعبد و إيكاله الى نفسه بسبب المعاصي و إعراضه عن الحقّ بسوء سريرته و خبث ذاته و عناده.

نعم أنّ اللّه تعالى كان عالماً بضلاله قبول وجوده اذ لا يخفى عليه شيئاً قبل الإيجاد و بعد الإيجاد إلاّ أنّ العلم الأزلي لا يكون علّة و معنى الكلام الأزلي هو أنّ اللّه كان عالماً في الأزل بأنّ العبد الفلاني بعد وجوده يفعل كذا وكذا بإختياره فمثل الكافر العاقل العاصي مثل الإنسان الّذي تكون عينه صحيحة فوضع يده عليها أو يغمضها فسقط في البئر و هلك و هو واضح بحمد اللّه.

ذٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاٰيَاتِنَا وَ قَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا

هذه الآية بمنزلة العلّة و السّبب للعذاب الذّي وصفه اللّه في الآية السّابقة فكأنّه سأل سائل لم يحشرون كذلك فقال تعالى: **ذٰلِكَ** أي العذاب المذكور جزاءهم بأنّهم كفروا بأياتنا و الكفر أصل العصيان و رأس الشّقاق.

و قالوا هؤلاء الكفّار، ءإذا كنّا عظاماً و رفاتاً، بعد الموت ءإنّنا لمبعوثون خلقاً جديداً، في الحشر و أنّما قالوا خلقاً جديداً مع أنّه هو هو بعينه لأنّ الإنسان بإعتقادهم عبارة عن هذا الجسد المحسوس و لا غيره و المفروض أنّه صار عظاماً و رفاتاً، أي تراباً فلم يبق منه عينٌ و لا أثر و على هذا فالّذي يحشرون هو خلقٌ جديدٌ هذا تقرير شبهتهم و الحاصل أنّهم كفروا بالبعث و أنكروه و إنكار البعث ينشأ عن إنكار الخالق و من أنكر الخالق فجزاءه ما ذكره في الآية و هو المطلوب.

فاجاب اللّه تعالى عنهم بقوله:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا

الحقّ أنّ الهمزة في قوله: **أَوَلَمْ يَرَوْا**، للإنكار أي بلى أنّهم يرونه و فيه إشارة الى عنادهم للحقّ فأنّ من يرى خلق السّموات و الأرض كيف ينكر خلق الإنسان و أنّما خصّ السّموات و الأرض بالذّكر إمّا لعظم جرمهما و إمّا لأنّهما من أعظم المحسوسات و أظهرها و هنا إحتمال ثالث و هو أنّ اللّه الّذي خلق هذه الأجرام العظيمة التّي بعض ما تحويه البشر فيكف لا يقدر على إعادة بعضٍ ممّا حلّه و هو الإنسان.

قال المفسّرون الرُّؤية هنا رؤية القلب و هى العلم، و الظّاهر أنّ المراد بها رؤية البصر فأنّ المحسوس مقدّم على المعقول في باب البرهان و ذلك لأنّ

إنكار المحسُوس أشنع من إنكار المعقول و حيث أنّ الكفّار كانوا لا يعتنون بالمعقولات دعاهم اللّه الى المحسوسات و أظهرها و أكبرها السّموات و الأرض إذ جميع الموجودات فيهما هذا ما خطر بالبال في وجه إختصاصهما بالذّكر و اللّه أعلم.

و أمّا قوله: **قٰادِرٌ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** قالوا معناه أنّ القادر علىٰ الشّئ: قادر علىٰ أمثاله لأنّ حكم الأمثال واحد عقلاً و اللّه تعالى خلق الإنسان فهو قادرٌ على خلق مثله و أمثاله قلَّ أو كثر.

أقول يستفاد من كلمة المثل في الآية أنّ المبعوث يوم البعث هو مثل الأوّل لا عينه و هذا هو الّذي يعبّر عنه بالخلق الجديد إذ لو كان المبعوث هو الإنسان الأوّل بجميع خصوصيّاته المكانيّة و الزمانيّة و الأينيّة و الوضعيّة و بالجملة بجميع خصوصيّاته الشخصيّة يلزم إعادة المعدوم و قد أجمعوا على إستحالتها و بعضهم إدّعى الضّرورة فيها.

قال الحكيم السّبزواري في منظومته:

إعادة المعدوم ممّا إمتنعا   و بعضهم فيه الضّرورة إدّعى

و قد ثبت أنّ الإرادة لا تتعلّق بالمحال العقلي لا لضعفٍ في القادر بل لعدم قابليّة المحلّ فمن زعم أنّ القول بالبعث يلازم القول بجواز الإعادة فقد أخطأ خطأً فاحشاً، و توضيح ذلك إنّ المادّة الأصليّة الّتي منها خلق الإنسان باقية بعد الموت و هى الّتي قال اللّه تعالىٰ: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ**[1] فقوله: **مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ** إشارة الىٰ ما ذكرناه أي المادّة الأصليّة و إذا كانت المادّة باقية فما خلق منها ثانياً هو المخلوق أوّلاً لوحدة المادّة و إنّما الفاني هو الصُّورة الجسميّة و لا دخل لها في الإنسانيّة و قول الفلاسفة شيئيّة الشّئ بصورته لا بمادَّته مرادهم صورة النّوعية و هى لا تنفك

١- طه = ٥٥

عن المادّة أصلاً إذ المادّة مع قطع النَّظر عن الصُّورة صرف القوّة و لا وجود لها في الخارج و للبحث فيه مقام آخر إذ عرفت هذا فقد علمت أنّ الموجود حين البعث هو الموجود حين الخلق أوّلاً و مع ذلك هو غيره و أن شئت قلت عينه من حيث الصُّورة النوعيّة الّتي بها يصير الإنسان إنساناً و غيره من حيث الصُّورة الجسميّة الخارجة عن حقيقة الإنسانيّة و لعلّ ما ورد عن الصّادق عليه السلام حيث قال هو و هو غيره ما ذكرناه و هذا هو المراد بالمثل في الآية و يصدق عليه أنّه خلقٌ جديد و سيأتي الكلام في هذه المباحث بوجهٍ أبسط إنشاء اللّه في موضعه و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ** فمعناه ظاهر فأنّ القادر على الخلق قادرٌ على أن يجعل له أجلاً و مدَّة يعيش فيه في النَّشأة الّتي خلق فيها.

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنْفَاقِ وَ كَانَ ٱلْإِنْسَانُ قَتُورًا

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الّذين قالوا لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً فطلبوا إجراء الأنهار و العيون في بلدهم الى آخر ما قالوه و أقترحوه، **لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ** أي لو ملكتموها لأمسكتم أي بقيتم على بخلكم و شحّكم خشية الإنفاق و لما قدمتم على إيصال النَّفع لأحدٍ و كان الإنسان بمقتضى جبلّته و طبعه قتوراً أي بخيلاً ممسكاً.

و قال بعض المفسّرين و الّذي يظهر لي أنّ المناسب هو أنّ الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم قد منحه اللّه ما لم يمنحه لأحدٍ من النبّوة و الرّسالة الى الإنس و الجنّ فهو أحرص النّاس على إيصال الخير و إنقاذهم من الضَّلال و هؤلاء أقرباؤه لا يكاد يجيب منهم أحد إلاّ الواحد بعد الواحد قد لجُّوا في عناده و بغضائه فلا يصل منهم اليه إلاّ الأذى فنبّه اللّه تعالى بهذه الآية على سماحته عليه السلام و بذله ما اتاه اللّه و على إمتناع هؤلاء أن يصل منهم شيئ من الخير اليه فقال تعالى لو ملكوا

التصرُّف في خزائن رحمة اللّه الّتي هي وسعت كلّ شئٍ كانوا أبخل من كلّ أحدٍ بما أوتوه من ذلك بحيث لا يصل لأحدٍ شئٍ من النَّفع إذ طبيعتهم الإقتار و هو الإمساك عن التوسُّع في النَّفقة هذا مع ما أوتوه من الخزائن فهذه الآية مبيّنة تبيّن ما بينهم و بينه عليه‌السلام من حرصه علىٰ إيصال النَّفع اليهم إنتهىٰ.

أقول ما ذكره لا بأس به إلاّ أنّه لا يستفاد من الآية و الحقّ ما ذكره المشهور من أنّ المراد بها هو إثبات أنّ الإنسان بمقتضى طبعه كذلك.

وَ لَقَدْ اٰتَيْنا مُوسٰى تِسْعَ اٰياتٍ بَيِّنٰاتٍ فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ إِذْ جٰآءَهُمْ فَقٰالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰا مُوسٰى مَسْحُورًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أعطى موسى تسع أيات بيّنات ظاهرات دالاّت على صحّة نبوّته و إختلفوا في هذه التِّسع.

فعن إبن عبّاس و غيره هي، يد موسىٰ، و عصاه، و لسانه، و البحر، و الطُّوفان و الجراد و القمّل، الضّفادع، و الدَّم، أيات مفصّلات.

و عن إبن كعب القرطي هي الجراد و القُّمل و الضّفادع و الدَّم و البحر و عصاه و الطّمسة و الحجر، قال و الطَّمسة دعاء موسى و تأمين هارون فقال اللّه تعالىٰ: **قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمٰا**[1].

و في رواية أخرى عن عكرمة و إبن عبّاس، هي مطر الوراق الطّوفان، و الجراد و القمَّل و الضَّفادع و الدَّم و العصا و اليد و السِّنون و نقص من الثّمرات.

و قيل تسع أيات هي من الكتاب و ذلك أنّ يهوديّاً قال لصاحبه تعال حتّى نسأل هذا النّبي فقال الأخر لا تقل أنّه نبيّ فأنّه لو سمع كلامك صارت له أربعة أعين فأتياه و سألاه عن تسع أيات بيّنات فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: **لا تشركوا باللّه شيئاً، ولا تأكلوا الرّباء، ولا تمشوا ببريءٍ الى السّلطان ليقتله ولا تسحروا ولا**

۱- يُونس = ۸۹

تقذفوا المحصنات ولا تفرّوا من الزَّحف و عليكم خاصّة يا يهود أن لا تعتدوا في السَّبت قال فقبّلا يده و قالا نشهد أنّك نبيّ فقال ما منعكما أن تسلما قالا أنّ داود دعا اللّه أن لا يزال في ذريّته نبي و أنّا نخاف أن أسلمنا تقتلنا اليهود.

و قوله: **فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرٰٓئِيلَ** فهو معمول لقولٍ محذوف أي فقلنا سل و هو خطاب للرّسول أمره اللّه أن يسأل بني إسرائيل عمّا أعلمه به من غيب القصّة.

و قال الزّمخشري سلهم عن إيمانهم و عن حال دينهم أو سلهم أن يعاضدوك و تكون قلوبهم و أيديهم معك و يدلّ عليه قراءة رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فسأل بني إسرائيل على لفظ الماضي بغير همزٍ و هى لغة قريش، و قيل فسل يارسول اللّه المؤمنين من بني إسرائيل و هم عبد اللّه بن سلام و أصحابه عن الآيات لتزداد يقيناً و طمأنينة قلبٍ لأنّ الدّلالة اذا تظافرت كان ذلك أقوىٰ و أثبت، و قوله: **إِذْ جَآءَهُمْ** يعني موسىٰ.

و روي عن إبن عبّاس أنّه كان يقرأ فسأل بني إسرائيل يعني فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم معه فقال له أي لموسى أنّي لأظنّك يا موسى مسحوراً، بغيرك و قد يجوز أن يكون المراد ساحراً فوضع مفعول موضع فاعل مثل مشئوم و ميمون موضع شائم و يامن.

قٰالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مٰآ أَنْزَلَ هٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ بَصٰآئِرَ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا

أي قال موسى في جواب فرعون لقد علمت أنّي لست كذلك أي لست ساحراً أو مسحوراً و أنّه ما أنزل هذه الآيات إلاّ ربّ السّموات و الأرض جعلهنّ بصائر أي حججاً واضحة وَ **إِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**، أي ملعوناً ممنوعاً من الخير، هذا على قراءة الفتح في علمت.

و أمّا على قراءة الضمّ فالمعنى لقد علمت أنا بنفسي إنّي لست كذلك و على التّقديرين فالمعنى واضح.

فَأَرٰادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ اَلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنٰاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعًا

أي لمّا قال موسى لفرعون ما قال فأراد فرعون أن يستفزّهم، أي موسى و من معه أي يخرجهم من مصر بالنَّفي و القتل و الإزعاج كرهاً و أصل الإستفزاز القطع بشدّةٍ يقال فزّز الثّوب اذا قطعه بشدّةٍ تخريق فأغرقناه، أي أغرقنا فرعون و من معه من أعوانه و أنصاره جميعاً و قد مرَّ الكلام في كيفيّة غرقهم سابقاً فلا يفيد الكلام بذكرها ثانياً.

وَ قُلْنٰا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ اُسْكُنُوا اَلْأَرْضَ فَإِذٰا جٰآءَ وَعْدُ اَلْآخِرَةِ جِئْنٰا بِكُمْ لَفِيفًا

أي قلنا من بعد الغرق لبني إسرائيل و هم قوم موسى إسكنوا الأرض و هى مصر فاللاّم فيها للعهد فإذا جاء وعد الآخرة يعني يوم القيامة و هى الكرّة الآخرة **جِئْنٰا بِكُمْ لَفِيفًا**، أي مختلطاً أي حشرناكم الى أرض القيامة مختلطين من كلّ قومٍ و من كلّ قبيلة قد إلتفّ بعضكم على بعضٍ لا تتعارفون يقال لففت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض فأختلط الجميع و كلّ شئ إختلط بشئ فقد لفّ به.



وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا

و الضَّمير في أنزلناه يعود الى القرآن أي و بالحقّ أنزلنا القرآن، و ذلك لأنّه يأمر بالعدل و الإحسان و الأخلاق الجميلة الحسنة و ينهى عن الظّلم و أنواع القبائح و الفجور و ذمائم الأخلاق و لا نعني بالحقّ إلاّ هذا و قوله: **بِالْحَقِّ نَزَلَ** قيل أي بالحقّ نزل القرآن من عند اللّه على نبيّه، و قيل الضّمير في أنزلناه على

موسى أو عائدٌ على الآيات التِّسع و ذكر على المعنى أو عائدٌ على الوعد المذكور قبله.

أقول كلّ ذلك خلاف ظاهر الآية و الحقّ ما ذكرناه، و قال بعضهم بالحقّ أنزلناه أي بالتَّوحيد و بالحَّق نزل أي بالوعد و الوعيد و الأمر و النَّهي.

و قيل بالحقّ أنزلناه أي بالواجب الّذي هو المصلحة و السَّداد للنّاس و بالحقّ نزل في أوامره و نواهيه و أخباره.

و قال الزَّمخشري، أي و ما أنزلنا القرآن إلاّ بالحكمة المقتضية لإنزاله و ما نزل إلاّ متلبّساً بالحقّ و الحكمة لإشتماله على الهداية الى كلّ خيرٍ و ما أنزلناه من السَّماء إلاّ بالحَّق محفوظاً بالرَّصد من الملائكة و ما نزل على الرّسول إلاّ محفوظاً بهم من تخليط الشّياطين انتهى.

و قد يقال قوله: **بِالْحَقِّ نَزَلَ** توكيد من حيث المعنى هذا ما قالوه في المقام.

و قال القرطبي و وجه التّكرير في قوله: **وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ**، يجوز أن يكون معنى الأوّل **وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ** أي أوجبنا إنزاله بالحقّ و معنى الثّاني **وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ** أي نزل و فيه الحقّ كقوله خرج بثيابه أي و عليه ثيابه و قيل الباء في قوله: **بِالْحَقِّ** الأوّل بمعنى مع، أي و مع الحقّ أنزلناه كقولك ركب الأمر بسيفه أي مع سيفه و بالحقّ نزل، أي و بمحمّدٍ أي نزل عليه و يجوز أن يكون المعنى و بالحقّ قدّرنا أن ينزل و كذلك نزل انتهى.

هذا ما ذكره القرطبي و بعد ما نقلناه من الأقوال عثرنا على ما ذكره بعض المعاصرين في تفسيره المسمّى بالميزان قال قدس سره ما هذا لفظه:

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ لمّا فرغ من التّنظير رجع الى ما كان عليه من بيان حال القرأن و ذكر أوصافه فذكر أنّه أنزله إنزالاً مصاحباً للحقّ و قد نزل هو من عنده نزولاً مصاحباً للحقّ فهو مصون من الباطل من جهة من أنزله فليس من لغوٍ من

القول و هذره و لا داخله شيئ يمكن أن يفسده يوماً و لا شاركه فيه أحد حتّى ينسخه في وقتٍ من الأوقات و ليس النّبي إلاّ رسولاً منه تعالى يبشّر به و ينذر و ليس له أن يتصرّف فيه بزيادة أو نقيصة أو يتركه كلاًّ او بعضاً باقتراحٍ من النّاس أو هوىً من نفسه أو يعرض عنه فيسأل اللّه آية أخرى فيها هواه أو هوى النّاس أو يداهنهم فيه أو يسامحهم في شيئ من معارفه و أحكامه كلّ ذلك لأنّه حقّ صادر عن مصدرٍ حقّ و ماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال فقوله: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ** الخ. متّمم للكلام السّابق و محصّله أنّ القرأن آية حقّة ليس لأحدٍ أن يتصرّف فيه شيئاً من التصرّف و النّبي و غيره في ذلك سواء انتهى كلامه.

أقول كأنّه مِّتِّقُ لم يتوجّه الى أصل الإشكال و لذلك خرج في كلامه عن موضوع البحث فأنّ كون القرأن آية حقّة ليس لأحدٍ أن يتصرّف فيه شيئاً من التصرّف نبيّاً كان أو غيره، ممّا إتفق عليه جميع المسلمين و ليس لنا و لا لغيرنا فيه بحثٌ و أنّما الكلام في وجه التّكرير فأنّ قوله تعالىٰ: **وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ** يشمل قوله: **بِالْحَقِّ نَزَلَ** اذ لو لم يكن نزوله حقّاً لم ينزل قطعاً و بعبارةٍ أخرى الإنزال بالحقّ شاملٌ للنُّزول بالحقّ فما وجه التّكرير و أين هذا من كون القرأن حقّاً لا ريب فيه و أنّه مصونٌ من الباطل الى أخر ما قال القائل فلو لم يذكر في الآية قوله: **بِالْحَقِّ نَزَلَ** كان كافياً في إفادة ما ذكره في تفسير الآية فكلامه هذا لا يشفي المريض و الإشكال باقٍ على حاله.

و أمّا ما ذكره غيره ممّا نقلناه عنهم فهو أيضاً لا فائدة فيه في جسم مادّة الإشكال و إنّي بعد التفحُّص فيما عندي من التّفاسير لم أر شيئاً يعتمد عليه و الّذي يختلج بالبال و اللّه أعلم بحقيقة كلامه هو انّهم لم يفرّقوا بين الإنزال و النُّزول و أنّ الإنزال يحتاج الى المنزل اليه بخلاف النُّزول فأنّه يعتبر بنفسه.

و أنّما قلنا ذلك لأنّ الإنزال متعدّ و النُّزول لازم و اذا كان الأمر على هذا المنوال فقوله تعالىٰ: **وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ** مشعر بأنّ المنزل عليه و هو



الرّسول ﷺ كان على الحقّ اذ لو كان على الباطل يلزم أن يكون القرأن أنزل على الباطل و ما أنزل على الباطل فالإنزال باطل و يدلّ على جهل المنزل فأنّ المنزل اذا كان عالماً بشئون الإنزال لا ينزل كتابه باطلاً لعلمه بأنّ المنزل عليه لا يليق به فمن لا يكون لائقاً لا يكون حقّاً و من لا يكون حقّاً فالإنزال عليه لا فائدة فيه و ما لا فائدة فيه فهو باطل فيصير الإنزال باطلاً و الإنزال الباطل لا يكون إلاّ من المنزل الباطل و حيث أنّ منزل القرأن حقّ و المنزل عليه أيضاً لأنّه رسوله الذّي أرسله بالهدى و دين الحقّ و أمر النّاس بإتّباعه فإنزاله القرأن بالحقّ و هذا معنىٰ قوله: **وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنٰاهُ**.

و أمّا قوله: **بِالْحَقِّ نَزَلَ** فهو بإعتبار نفس القرأن و لا يعتبر فيه المنزل عليه و المعنىٰ أنّ نزول القرأن عن مقام الرّبوبي الى مقام الخلقي حقّ اذ فيه إرشاد النّاس الى السّعادة و الخيرات فالإنزال حقّ و النُّزول أيضاً حقّ إلاّ أنّ الأوّل بإعتبار المنزل عليه و الثّاني بإعتبار نفسه فظهر الفرق و هذا ممّا ألقاه اللّه على قلبي و اللّه أعلم بما أراد من كلامه.

و أمّا قوله: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا** فقد بيَّن اللّه تعالى في هذا الكلام وظيفة النّبي و أنّه يبشّرهم بالجنّة في صورة الطّاعة و ينذرهم من عذاب اللّه في صورة عدم الطّاعة و البقاء على الكفر و العصيان.

و أمّا القبول و عدم القبول فهو ليس تحت قدرة الرّسول:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰآءُ**[١].

و قد صرَّح في كثير من الآيات بذلك:

وَ قُرْاٰنًا فَرَقْنٰاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنّٰاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنٰاهُ تَنْزِيلًا

فرقناه بالتّخفيف على المشهور عند أهل الأمصار و عليه المصاحف فعلاً و حكي عن إبن عبّاس بتشديد الرّاء بمعنى نزّلناه شيئاً بعد شئٍ و آيةً بعد آيةٍ

١- القصص = ٥٥

فعلى الأوّل معنى الكلام و قرآناً، فصّلنا فيه الحلال و الحرام و ميَّزنا بينهما لأنّ الفرق الميز.

و على الثّاني معناه أنزل متفرّقاً و لم ينزل جميعاً وكان بين أوّله و آخره أكثر من عشرين سنة و نصب **قُرْآنًا** على معنى و أحكمنا قرآناً أو آتيناك قرآناً، و قوله: **لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ** أي لتقرأ القرآن على النّاس تدريجاً فترتِّله و تبيّنه لهم من غير تعجيل في تلاوته و فى **المُكث** لغات، بضمّ الميم و عليه القرآء و فتح الميم و سكون الكاف و فتح الميم و كسر الكاف.

قال الرّاغب في المفردات المكث، بضمّ الميم ثباتٌ مع إنتظارٍ يقال مكث مكثاً، و قرئ **مَكُثَ** بفتح الميم و ضمّ الكاف و منه قوله: **إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ** و قوله: **لِأَهْلِهِ امْكُثُوا** انتهى.

و قوله: **وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا** أي نوعاً خاصّاً من التّنزيل لا يعلم كيفيّته إلاّ اللّه و قيل هو يدلّ على أنّ القرآن محدث لأنّ القديم لا يجوز وصفه بالمنزل و التّنزيل لأنّ ذلك من صفات المحدثين، و قيل معنى الكلام نزّلناه على حسب الحوادث من الأقوال و الأفعال.

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا، وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا



أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار آمنوا به أي بالقرآن بأنّه كلام اللّه أو لا تؤمنوا به، هذا الكلام يتضمّن الإعراض عنهم و الإحتقار لهم و الإزدراء بهم و عدم الإكتراث بهم و بايمانهم و بإمتناعهم منه و أنّهم لم يدخلوا في الإيمان و لم يصدّقوا القرآن و هم أهل جاهليّةٍ و شرك فأنّ خيراً منهم و أفضلهم العلماء الّذين قرأوا الكتاب و علموا الوحي قد آمنوا به و صدّقوه و ثبت عندهم أنّه النّبي العربي الموعود في كتبهم فإذا تلي عليهم القرآن خرّوا سجّداً و سبّحوا

للّه تعظيماً لوعده و لإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة و بشّر به من بعثة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و إنزال القرآن عليه و هو المراد بالوعد في قوله: **إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا** قاله بعض المفسّرين.

قال القرطبي في قوله: **قُلْ اٰمِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا** يعني القرآن و هذا من اللّه عزّ وجلّ على وجه التَّبكيت لهم و التّهديد لا على وجه التَّخيير انتهى.و لقائل أن يقول من أين علمت أنّه ليس على وجه التَّخيير و كلمة (أو) يدلّ عليه بالإتّفاق مضافاً الى أنّ البشر مختار في فعله و قوله:

قال اللّه تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ**.

بل الحقّ أن يقال معنى الآية أنّكم مختارون في قبول الحقّ و عدمه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**[١].

و بعبارةٍ أخرى سواءٌ علينا ءأمنتم أم كفرتم و أنّما ضرر ذلك على أنفسكم و السرّ فيه هو أنّ اللّه تعالى غنيّ بذاته عمّا سواه فلا تنفعه طاعة من أطاعه كما لا تضرّه معصية من عصاه و أمّا قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِۦٓ** فقيل الضّمير في قبله عائد على القرآن كما عاد اليه في قوله: **بِهِۦٓ** و يدلّ عليه ما قبله بعده و قيل الضّميران في المقامين عائدان على الرّسول و إستأنف ذكر القرآن في قوله: **وَ إِذاٰ تُتْلٰى عَلَيْهِمْ**[٢] أي يتلى عليهم القرآن و قيل عائد على التّوراة إذا يتلى عليهم التّوراة و ما فيها من تصديق القرآن و معرفة النبيّ و قوله: **يَخِرُّونَ** فالخرور هو السّقوط بسرعةٍ و منه فخرّ عليهم السَّقف، و إنتصب، سجّداً على الحال و السُّجود هو وضع الجبهة على الأرض و هو غاية الخرور و نهاية الخضوع و الأذقان جمع ذقن خصّ بالذّكر لأنّه أول ما يلقي الأرض حالة السجود و قيل عبّر عن الوجوه بالأذقان كما يعبّر عن كلّ شيءٍ ببعض ملاقيه و الى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

١- الاسراء = ٧ ٢- الانفال = ٣١

فخرُّوا لأذقان الوجوه تنوشهم سباعُ من الطّير العوادي و تنتف

و قيل أريد حقيقة الأذقان لأنّ ذلك غاية التّواضع و كان سجودهم كذلك.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

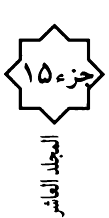
اَوِهِ عَلَىٰ اِخْوانِي الَّذينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَاَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَاَقَامُوهُ اَحْيُوا السُّنَّةَ وَاَمَاتُوا الْبِدْعَةَ الخ[١].

وقال عليه السلام: في وصف المتّقين:

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ دَوَاءَ دَائِهِمْ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقُ رَكَنُوا اِلَيْهَا طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ اِلَيْهَا شَوْقاً وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ وَاِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفُ أَصْغَوْا اِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِى أُصُولِ آذَانِهِمْ فَهُمْ حَانُونَ عَلَىٰ أَوْسَاطِهِمْ مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ اِلَى اللّهِ تَعَالىٰ فِى فَكَاكِ الىٰ آخر كلامه[٢].

و قوله: **وَ يَقُولُونَ سُبْحٰانَ رَبِّنٰآ إِنْ كٰانَ وَعْدُ رَبِّنٰا لَمَفْعُولاً** أي يقولون في سجودهم سبحان ربّنا أي ينزّهونه و يعظّمونه أن كان وعد ربّنا لمفعولا بإنزال القرآن و بعث محمّد و هذا يدلّ على أنّ هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأنّ الوعيد ببعثة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم سبق في كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد.

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** و الفائدة في هذا التّكرار قيل هو إختلاف الحالين و هما خرورهم للسّجود و فى حال كونهم باكين عند إستماع القرآن و يدلّ عليه قوله: **وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** أي تواضعاً.



١-خ ١٨٢

٢-خ ص ١٩٣

و أعلم أنّ قوله: **إِنْ كٰانَ وَعْدُ رَبِّنٰا** إن هنا المخفّفة من الثّقيلة و لذلك يقال أنّها بمنزلة التّعليل لقولهم سبحان ربّنا هذا، و الّذي يظهر من الأخبار هو أنّ قوله: **يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّدًا** فيه إشارة الى صحّة السجود على الذّقن لمن لا يقدر أن يسجد على الجبهة.

ففي الكافي سأل أبو عبد اللّه عليه السلام: عمّن بجبهته علّة لا يقدر على السّجود عليها قال عليه السلام يضع ذقنه على الأرض أنّ اللّه عزّ وجلّ يقول: يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّدًا.

و في تفسير علّي إبن إبراهيم بأسناده عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبد اللّه عليه السلام: قال قلت له رجلٌ بين عينيه قرحة لا يستطيع أن يسجد عليها قال عليه السلام يسجد ما بين طرف شعره فأن لم يقدر سجد على جانبه الأيمن فأن لم يقدر فعلى جانبه الأيسر فأن لم يقدر فعلى ذقنه قلت على ذقنه قال نعم أما تقرأ كتاب اللّه عزّ وجلّ: يَخِرُّونَ لِلْأَذْقٰانِ سُجَّدًا انتهىٰ.

قُلِ ٱدْعُوا ٱللّٰهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ أَيًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمٰاءُ ٱلْحُسْنىٰ وَ لٰا تَجْهَرْ بِصَلاٰتِكَ وَ لٰا تُخٰافِتْ بِهٰا وَ ٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا، وَ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيرًا

آيتان في المقام أبحاث.

أحدهما: قوله: **قُلِ ٱدْعُوا ٱللّٰهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ أَيًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمٰاءُ ٱلْحُسْنىٰ** أي قل يا محمّد لهؤلاء المشركين من قومك المنكرين لنبوّتك الجاحدين لدّعاءك و تسميتك اللّه تعالى بالرّحمن **ٱدْعُوا ٱللّٰهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ** أيّها القوم **أَيًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمٰاءُ ٱلْحُسْنىٰ.**

قال إبن عبّاس تهجّد الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة بمكّة فجعل يقول في سجوده يا رحمن يا رحيم فقال المشركون كان محمّد يدعو إلهاً واحداً فهو الآن يدعو إلهين إثنين اللّه و الرّحمن، ما الرّحمن إلاّ رحمن اليمامة يعنون مسيلمة فنزلت الآية و قيل كان صلى الله عليه وآله وسلم يكتب بإسمك اللّهم حتّى نزلت أنّه من سليمان و أنّه بسم اللّه الرّحمن الرّحيم فكتبها فقال مشركوا العرب هذا الرّحيم نعرفه فما الرّحمن فنزلت.

و قال الضّحاك قال أهل الكتاب للرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أنك لتقلّ ذكر الرّحمن و قد أكثر اللّه في التّوراة هذا الإسم فنزلت لمّا لجّوا في إنكار القرآن أن يكون اللّه نزّله على رسوله و عجزوا عن معارضته و كان صلى الله عليه وآله وسلم قد جاءهم بتوحيد اللّه و الرّفض لآلهتهم عدلوا الى رميه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ ما نهاهم عنه رجع هو اليه فردّ اللّه تعالى عليهم بقوله: **قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ.**

أقول و كيف كان شأن نزول الآية لا يهمّنا البحث فيه و أنّما المهمّ ما يستفاد منها و هو أنّ اللّه تعالى له الأسماء الحسنى كلّها يشير الى معنى واحد كما قال الشّاعر.

عباراتنا شتّى و حسنك واحدُ و كلٌّ الى ذاك الجمال يشير

فقوله: **أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** إشارة الى أنّ المعبود ليس هو الإسم فقط بل الإسم إشارة أو حاكية عن المسمّى الّذي هو المعبود و بعبارة أخرى المعبود الّذي يستحقّ أن يعبد هو الّذات و أنّما جعلت الأسماء للدّلالة على الذّات.

قال في المفردات الإسم ما يعرف به ذات الشّئ و أصله سموّ بدلالة قولهم أسماء و سميّ و أصله من السُّمو و هو الّذي به رفع ذكر المسمّى فيصرف به و حيث أنّ البحث في باب الأسماء من دقائق العلوم فلابدّ لنا من التكلّم فيه على سبيل الإجمال فنقول، لنا في الباب أمور ثلاثة:

الإسم و المسمّىٰ»، و التسميّة، فقال بعضهم أنّ الإسم نفس المسمّى التسميّة.

و قال بعضهم أنّه غير التسميّة و المسمّى، و قال الآخر الإسم و المسمّىٰ و التسميّة أمور ثلاثة متباينة و إختاره الغزالي و الفخر الرّازي و غيرهما من الأعلام.

و قال الرّازي في بعض تأليفاته إن كان الإسم عبارة عن اللّفظ الدالّ على الشّيئ بالوضع و كان المسمّى عبارة عن نفس ذلك الشّيئ فالعلم الضروّري حاصل بأنّ الإسم غير المسمّى و أن كان الإسم عبارة عن ذات الشّيئ و المسمّى أيضاً ذات الشّيٍ كان معنى قولنا الإسم نفس المسمّى هو أنّ ذات الشّيئ نفس ذات الشّيئ و هذا ممّا لا يمكن و قوع النزّاع فيه بين العقلاء فثبت أنّ الخلاف الواقع في هذه المسألة أنّما كان بسبب أنّ التّصديق ما كان مسبوقاً بالتصوُّر و هذا القدر كاف في هذه المسألة انتهى كلامه.

أقول الحقّ أنّ الإسم غير المسّمى و الدّليل عليه من وجوهٍ.

أحدها: أنّ للّه تعالى أسماء كثيرة و المسمّى ليس بكثيرٍ قطعاً أمّا أنّ للّه أسماءٌ كثيرأ فهو ممّا لا خلاف فيه و قد نصَّ عليه الكتاب في مواضع، منها:

قال اللّه تعالى: **وَ لِلّٰهِ ٱلْأَسْمٰآءُ ٱلْحُسْنٰى فَادْعُوهُ بِهٰا**[١].

و قوله: **أَيًّا مٰا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمٰآءُ ٱلْحُسْنٰى** وهو هذه الآية المبحُوثة عنها في المقام:

قال اللّه تعالى: **اَللّٰهُ لآ إِلٰهَ إِلّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمٰآءُ ٱلْحُسْنٰى**[٢].

و قوله: **أنّ لِلّه تسعة و تسعين إسماً**، و أمّا أنّ المسّمى ليس بكثيرٍ فهو متّفقٌ عليه فثبت أنّ الأسماء كثيرة و المسمّى ليس بكثيرٍ فكانت المغايرة ثابتة بين الإسم و المسمّى و هو المطلوب.

١- الأعراف = ١٨٠
٢- طه = ٨

ثانيها: أنّ المفهوم من التسميّة هو وضع الإسم للمسمّى فلو كان الإسم هو المسمّى لكان وضع الإسم للمسمّى عبارة عو وضع الشّي لنفسه و ذلك غير معقول.

ثالثها: لو كان الإسم عين المسمّى لزم أن يكون الشّيٍ إسماً لنفسه و العقل يأباه.

رابعها: أنّا اذا قلنا أنّ بحراً من زيبق معدومٍ، و العنقاء معدوم، و إجتماع النقيضّين معدوم و هكذا لا شكّ لنا في وجود هذه الأسماء و إنتفاء المسمّيات فلو كان الإسم عين المسمّى و المفروض أنّ المسمّى معدوم يلزم أن يكون الإسم أيضاً معدوم و ليس كذلك بالضّرورة فالمغايرة ثابتة.

خامسها: أنّ الإسم عبارة عمّا يتلفّظ به و هو من مقولة العرض و كلّ عرضٍ حالّ بالمحلّ و المسمّى هو الذّات و هو من مقولة الجوهر فلو كان الإسم هو المسمّى بعينه يلزم أن يكون العرض عين الجوهر و الحالّ عين المحلّ و هو كما ترى.

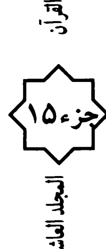
هذا و ذهب كثير من المحقّقين الى و حدتهما و أنّ أحدهما عين الأخر و إستدلّوا بوجوهٍ:

منها قوله تعالىٰ: **سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى**[١].

قال اللّه تعالى: **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ**[٢].

و وجه الإستدلال أنّه أمر بتسبيح إسم اللّه تعالى و دلَّ العقل على أنّ المسبّح هو اللّه تعالى لا غيره و هذا يقتضي أنّ إسم اللّه تعالى هو لا غيره.

و منها قوله تعالىٰ: **مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِٓ إِلّآ أَسْمٰآءً سَمَّيْتُمُوهٰآ أَنْـتُمْ وَ ءٰابآؤُكُمْ**[٣].



١- الاعلى = ١
٢- الواقعة = ٧٤
٣- يوسف = ٤٠

أخبر اللّه تعالى أنّهم عبدوا الأسماء و القوم ما عبدوا إلاّ تلك الذّوات فهذا يدلّ على أنّ الإسم هو المسمّى.

و منها، أنّ إسم الشّيئ لو كان عبارة عن اللّفظ الدّال عليه لوجب أن لا يكون للّه تعالىٰ في الأزَل شيءٌ من الأسماء اذ لم يكن هناك لفظٌ و لا لافظٌ و ذلك باطل.

و منها، أنّه اذا قال القائل محمّد رسول اللّه فلو كان إسم محمّد غير محمّد لكان الموصوف بالرّسالة غير محمّدٍ و كذا قوله تبّت يدا أبي لهب و هكذا اذا كانت إمرأةٍ مسمّاة بحفصة مثلاً فقال حفصة طالق فوجب أن لا يتحقّق الطّلاق و نظائره كثيرة فثبت أنّ الإسم هو عين المسمّى و هو المطلوب و قد أطالوا الكلام فيه من الطّرفين بما لا فائدة في ذكره.

و نحن نقول لكلّ إسم من الأسماء إعتباران إعتبار الذّات و إعتبار المسمّى أعني ما يدلّ عليه الإسم فهو بإعتبار ذاته غير المسمّى قطعاً فأنّ زيداً مثلاً بإعتبار ذاته أعني الحروف و هى الزّاء والياء والدّال غير المدلول و هو الجسم المعبّر عنه بالإنسان كما أنّ مفهومه ايضاً غير مفهومه.

و أمّا بإعتبار إنّ الإسم مرآة للمسمّى و حاكٍ عنه فهو عينه و بعبارةٍ أخرىٰ تارةً يلحظ الإسم بعنوان الحكاية عن المسمّىٰ و أخرى بعنوان ذاته مع قطع النّظر عن الحكاية و يعبّر عن الأوّل بالمرآتيّة و عن الثّاني بالإستقلاليّة فعلى المرآتيّة هو المسمّى بوجهٍ، و أمّا على الإستقلاليّة فلا فالحقّ في المقام هو أنّ الإسم عين المسمّى بوجهٍ و غيره من وجهٍ أخر و بهذا التّحقيق يمكن الجمع بين القولين فمن قال أنّ الإسم غير المسمّى نظر الى كون الإسم مستقّلاً و من قال أنّ الإسم عين المسمّى نظر الى كونه مرآتاً للمسمّى و حاكياً عنه فهو أي الإسم بإعتبار الحكاية عين المحكّي عنه و بإعتبار نفسه و ذاته غيره فلا نزاع في البين هذا ما خطر ببالي في المقام و اللّه أعلم و لنرجع الى تفسير قوله **أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ.**

و نقول معنى الكلام أنّ أسماء اللّه كثيرة و المسمّى واحد و كثرة الإسم لا تدلّ على كثرة المسمّى كما قال العطار بالفارسيّة:

اگر چه اين همة اسماء نهاديم مشو احول مسمّى جز يكى نيست

و ذلك لأنّ الأسماء كلّها تشير الى ذات الواجب و قد إتّفقوا على بساطته هذا تمام البحث في الأسماء المركّبة من الحروف مثل، اللّه، الرَّحمن، الرّحيم، المحيي، المميت، الرّازق، الباسط و غير ذلك و يظهر من الأخبار الواردة في تفسير الآية عن أهل البيت أنّ المراد بالأسماء الحسنى في الآيات هو الأئمّة عليهم السّلام و توضيح ذلك يستدعي ذكر مقدّمةٍ.

و هي أنّ الإسم ما دلّ على الذّات الموصوفة بصفةٍ معيّنةٍ سواء كان لفظاً أو حقيقةً من الحقائق الموجودة في الأعيان فأنّ الدّلالة كما تكون بالألفاظ كذلك تكون بالذّوات من غير فرقٍ بينهما فيما يؤول الى المعنى بل كلّ موجودٍ بمنزلة كلامٍ صادرٍ عنه تعالى دالّ على توحيده و تمجيده بل كلّ منها عند أولي البصائر لسان ناطق بوحدانيّته يسبّح بحمده و يقدّس له كما قال تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**[1] بل كلٌّ من الموجودات ذكرٌ و تسبيح له تعالى و اذا كان كذلك فلا شكّ أنّ كلّ موجودٍ له مرتبة خاصّة في عالم التّكوين من حيث القرب و البعد الى خالقه و على هذا فالموجود الأخسّ هو الجماد و الأشرف هو الإنسان.

ثمّ أنّ المراتب في الإنسان أيضاً متفاوتة فالأخسّ منه هو الكافر و الأشرف منه هو المؤمن ثمّ أنّ مراتب الإيمان أيضاً متفاوتة الى أن تنتهي الى الأنبياء و الأوصياء المعبّر عنهم بالإنسان الكامل الّذي هو المثل الأعلى للحقّ.

قال الإمام الهادي عليه السلام: السّلام على أئمّة الهدى و مصابيح الدُّجى و أعلام التُّقى و ذوي النُّهى و أولي الحجى و كهف الورى و المثل الأعلى و الدّعوة الحسنى الخ.



١- الاسراء = ٤٤

فالموجودات كلّها أسماء للّه تعالى و الإنسان الكامل هو المثل الأعلى و أن شئت قلت الأسماء الحسنى فكما أنّ الأسماء التدوينيّة نحو اللّه و رحمن و رحيم، و غيرها أسماء اللّه فكذلك الأوصياء بعد الرَّسول أسماء اللّه، يدلّ على ما ذكرناه و إستنبطناه من الآية.

ماروواه في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: في قول اللّه تعالى و للّه الأسماء الحسنى فأدعوه بها قال عليه السلام: نحن و اللّه الأسماء الحسنى التّي لا يقبل اللّه من العباد عملاً إلاّ بمعرفتنا.

قال الفيض قدس سره في الوافي في بيان الحديث ما هذا لفظه.

قد سلف منّا ما يصلح شرحاً لهذا الحديث و نزيد فنقول كما أنّ الإسم يدلّ على المسمّى و يكون علامة له كذلك هم عليهم السّلام أدلاّءٌ على اللّه يدلُّون النّاس عليه سبحانه و هم علامة لمحاسن صفاته و أفعاله و أثاره «فأدعوه بها» أي فادعوا اللّه و إطلبوا التَّقريب اليه بسبب معرفتهم فأنّ معرفته تعالى منوطة بمعرفتهم عليهم السّلام و العبادة غير مقبولة إلاّ بمعرفة المعبود المتوقّفة على معرفتهم انتهى و لنختم الكلام في المقام فأنّ البحث فيه وتفصيل الكلام في الأسماء يقتضي كتاباً مستقلاً.

المقام الثّاني: قوله **وَ لاٰ تَجْهَرْ بِصَلاٰتِكَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا وَ ٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا** نهى اللّه تعالى عن الجهر العظيم في الصّلاة و عن المخافتة الشّديدة فيها و أمر رسوله و من تبعه بأن يتَّخذوا بين ذلك سبيلاً، فأنّ خير الأمور أوسطها.

و قيل المراد بالصّلاة في الآية معناها اللّغوي و هو الدُّعاء و المعنى اذا تدعوا اللّه لا تجهر بدعاءك و لا تخافت ولكن بين ذلك و الحقّ أنّ المراد بالآية هو الصّلاة الشرعيّة لا الدُّعاء و ذلك لو كان المراد بها الدُّعاء لقال و لا تجهر بدعاءك.

و قد روي أنّ النبيّ كان اذا صلّى يجهر في صلوته فسمعه المشركون فشتموه و آذوه و آذوا أصحابه فأمر اللّه تبارك بترك الجهر و كان ذلك بمكّة في أوّل الأمر و قيل غير ذلك و الحقّ ما ذهب اليه المشهور.

عن الكافي بأسناده عن سماعة قال سَألته عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاٰتِكَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا قال عليه السلام: المخافتة ما دون سمعك و الجهر أن ترفع صوتك شديداً.

و في تفسير عليّ بن إبراهيم بأسناده عن عبد اللّه بن سنان قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام أعلى الإمام أن يسمع من خلفه و أن كثروا قال عليه السلام: ليقرأ قراءةً وسطاً يقول اللّه تبارك وتعالى و لا تجهر بصلواتك ولا تخافت بها.

و فيه أيضاً عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالىٰ: وَ لاٰ تَجْهَرْ بِصَلاٰتِكَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا قال: الجهر بها رفع الصَّوت والتَّخافت ما لم تسمع نفسك و إقرأ ما بين ذلك.

و روي أيضاً عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله وَ لاٰ تَجْهَرْ بِصَلاٰتِكَ وَ لاٰ تُخٰافِتْ بِهٰا قال عليه السلام: الإجهار أن ترفع صوتك فتسمعه من بعد عنك و لا تسمع من معك إلاّ سرّاً و الأحاديث كثيرة[١].

المقام الثّالث، قوله **وَ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** أمَر اللّه تعالى نبيّه و جميع أمّته بأن يحمدوا اللّه الّذي لم يتّخذ ولداً فيه ردٌّ علىٰ اليهود و النّصارى و العرب الّذين عبدوا الأصنام و جعلوها شركاء للّه و العرب الّذين عبدوا الملائكة و إعتقدوا أنّهم بنات اللّه فنفى اللّه تعالى أوّلاً الولد خصوصاً

١- نور الثّقلين ج ٣ ص ٢٣٣

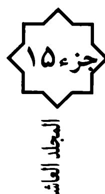
بقوله: **لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا** ثمّ نفى الشّريك في ملكه بقوله: **وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ** و هو أعمّ من أن ينسب اليه ولد فيشركه أو غيره ولمّا نفى الولد و نفى الشّريك نفى الوليّ و هو النّاصر و هو أعمّ من أن يكون ولداً أو شريكاً أو غير شريك و أنّما قيّد الوليّ بقوله: **مِنَ ٱلذُّلِّ** لأنّ الوليّ قد لا يكون من الذلّ كما اذا كان للتفضّل و الرّحمة لا للإنتصار و الإعتزاز و الإحتماء من الذلّ، فنفى الجهة التّي لأجل النّقص بخلاف الولد و الشّريك فأنّهما نفيا على الإطلاق.

و حاصل الآية هو أنّ إتّخاذ الولد من شئون الجسم فكأنّه ردّ على النّصارى حيث قالوا أنّ المسيح إبن اللّه أو على من قال أنّ الملائكة بنات اللّه، و هو تعالى منزّهٌ عنه.

و إتّخاذ الشّريك يدلّ على الضّعف و العجز و هو تعالى منّزهٌ عن العجز، و إتّخاذ الوليّ ناشٍ عن الحقارة و الذلّة لأنّ المراد بالوليّ النّاصر و من لا يكون ذليلاً لا يحتاج الى ناصرٍ يعينه.

و قوله: **وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** أمر نبيّه بأن يعظّمه تعظيماً يليق بمقام قدسه أي أنّه تعالى أكرم و أعظم من هذه النّقائض فهو لا يقاس بخلقه كما أنّ الخلق لا يقاس به أين التُّراب و ربّ الأرباب و الحمد للّه ربّ العالمين.

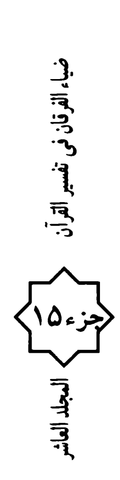
■



سُورة الكَهف

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِ ٱلْكِتٰابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصّٰالِحٰاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مٰاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَ يُنْذِرَ ٱلَّذِينَ قٰالُوا ٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لٰا لِاٰبٰآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلّٰا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بٰاخِعٌ نَفْسَكَ عَلٰىٓ اٰثٰارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَيْهٰا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحٰابَ ٱلْكَهْفِ وَ ٱلرَّقِيمِ كٰانُوا مِنْ اٰيٰاتِنٰا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقٰالُوا رَبَّنٰآ اٰتِنٰا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنٰا مِنْ أَمْرِنٰا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنٰا عَلٰىٓ اٰذٰانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنٰاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصٰى لِمٰا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ



بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ اٰمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنٰاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَ رَبَطْنٰا عَلٰى قُلُوبِهِمْ إِذْ قٰامُوا فَقٰالُوا رَبُّنٰا رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِۦٓ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنآ إِذًا شَطَطًا ﴿١۴﴾ هٰٓؤُلاۤءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِۦٓ اٰلِهَةً لَوْلاٰ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطٰانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرٰى عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا ﴿١۵﴾

◀ اللّغة

عِوَجًا: العوج بكسر العين و فتح الواو الإعوجاج و الإلتباس.

مٰا كِثِينَ: المكث اللبث أي لابثين فيه.

بٰاخِعٌ: البخع بفتح الباء و سكون الخاء قتل النّفس غمّاً.

أَسَفًا: الأسف الغضب.

صَعِيدًا جُرُزًا: الصَّعيد ظهر الأرض و الجرز بضم الجيم والرّاء الّذي لا نبات عليه و لا غرس.

ٱلْكَهْفِ: بفتح الكاف و سكون الهاء المأوى في الجبل.

ٱلرَّقِيمِ: قيل هو إسم قريةٍ و قيل وادٍ.

أَوَى ٱلْفِتْيَةُ: يقال أوى الى البيت أي نزل فيه و الفتية بكسر الفاء و سكون التّاء و فتح الياء جمع فتى.

هَيِّئْ: أي يسّر.

شَطَطًا: الشَّطط الخروج عن الحدّ بالغلّو فيه.



◀ الإعراب

قَيِّمًا حال من الكتاب أو هو منصوب بفعلٍ محذوف تقديره جعله قيّماً و عليه فهو حال من الهاء مٰا كِثِينَ حال من المجرور في، لهم، و العامل فيها

الإستقرار و قيل هو صفة لأجر و العائد الهاء في، فيه، كَلِمَةً تمييز و الفاعل مضمر أي كبرت مقالتهم تَخْرُجُ في موضع نصبٍ صفة لكلمة، و قيل في موضع رفع تقديره كلمة تخرج لأنّ، كبر، بمعنى بئس فالمحذوف هو المخصوص بالذّم كَذِبًا مفعول، يقولون، أو صفة لمصدرٍ محذوف أي قولاً كذباً أَسفًا مصدر في موضع الحال من الضّمير في، باخع، و قل هو مفعول له زِينَةً مفعول ثانٍ على أنّ جعل بمعنى، صيَّر، أو مفعول له عَجَبًا خبر كان وِمِنْ ءايٰاتِنا حال منه (إذ) ظرف، لعجباً، و يجوز أن يكون التّقدير فيه، إذكر إذ سِنِينَ ظرف لضربنا عَدَدًا صفة لسنين أي معدودة أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ مبتدأ و أَحْصٰى الخبر و موضع الجملة نصب بنعلم أَحْصٰى فيه وجهان:

أحدهما: أنّه فعل ماضٍ من أحصى يحصي و أَمَدًا مفعوله و لِمٰا لَبِثُوٓا نعتٌ له قدّم عليه فصار حالاً أو مفعولاً له أي لأجل لبثهم.

الثّانى: أنّه إسم و، أمداً، منصوب بفعلٍ دلَّ عليه الإسم شَطَطًا مفعول به.

◄ التّفسير

سمّيت هذه السوّرة به لأنّه تعالى ذكر فيها قصّة أصحاب الكهف.

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِ ٱلْكِتٰابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا

اللاّم في قوله: ٱلْحَمْدُ للجنس أو للإستغراق أي جنس الحمد أو كلّه، للّه، أي مختصّ به فاللاّم في، لِلّٰه، للإختصاص و المراد بالكتاب القرآن بإجماع المفسّرين و المعنى الحمد للّه تعالى الّذي أنزل على عبده و بيّنه القرآن ولم يجعل اللّه له أي للقرآن عوجاً أي إعوجاجاً.

و قال إبن عبّاس أي مُلتبساً و قيل أي إختلافاً و كسرت العين في عوجاً، لأنّ العرب تقول عوجاً بكسر العين في كلّ إعوجاج، كان في دينٍ أو فيما لا يرى شخصه قائماً و لا يدرك عياناً منتصباً كالعوج في الدّين و لذلك كسرت العين

في هذا الموضع وكذلك العوج في الطّريق لأنّه ليس بالشّخص المنتصب و أمّا ما كان في الأشخاص المنتصبة فأنّ عينها تفتح كالعوج في القناة و الخشبة و نحوها هكذا قيل.

و أمّا شأن نزول الآية فقالوا فيه أنّ قريشاً بعثت النّضر بن الحارث و عقبة بن أبي معيط الى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهما سلاهم عن محمّد وصفا لهم صفته فأنّهم أهل الكتاب الأوّل و عندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتّى أتيا المدينة فسألاهم فقالت اليهود سلوه فأن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسلٌ و أن لم يفعل فالرّجل متقوّلٌ مقتول خ.ل، سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدّهر الأوّل ما كان من أمرهم فأنّه كان لهم حديثٌ عجيب و سلوه عن رجلٍ طوّاف بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان نبأه و سلوه عن الرّوح، فأقبل النّضر و عقبة الى مكّة فسألوه فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم غداً أخبركم ولم يقل إن شاء اللّه فإستمسك الوحي خمسة عشر يوماً فأرجف كفّار قريش و قالوا أنّ محمّداً قد تركه رأيه الّذي كان يأتيه من الجنّ و قال بعضهم قد عجز عن أكاذيبه فشقّ ذلك عليه فلمّا إنقضى الأمد جاء الوحي بجواب الأسئلة و غيرها.

و روي في هذا السّبب أنّ اليهود قالت إن أجابكم عن الثّلاثة فليس بنبيّ و إن أجاب عن إثنتين و أمسك عن الأخرى فهو نبيّ فأنزل اللّه سورة أهل الكهف و أنزل بعد ذلك **يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ**.

قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا

لَدُن بفتح اللاّم و ضمّ الدّال إسمٌ غير متمكّن و معناه، عند، وصف الكتاب بقوله: **قَيِّمًا** أي معتدلاً مستقيماً أو أنّه قيّمٌ على سائر الكتب يصدّقها و يحفظها و تقدير الكلام أنزل قيّماً ولم يجعل له عوجاً و إختلافاً، لينذر بأساً شديداً، أي لينذركم بأساً شديداً من عند اللّه وبأمره و يبشّر المؤمنين، يعني المصدّقين

باللّه و رسوله الّذين يعملون الصّالحات من الأعمال حسب ما أمرهم اللّه **أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا** أي ثواباً جزيلاً من اللّه على إيمانهم و أعمالهم من فعلهم الطّاعات و إجتنابهم المعاصي و ذلك الثّواب هو الجنّة و قوله: **مٰاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا** أي لابثين خالدين مؤبّدين لا ينتقلون عنه أصلاً و الضّمير في قوله: **فِيهِ** يرجع على الأجر و الثّواب، و في الآية ذكر للكتاب وصفين.

أحدهما منذر والثّاني أنّه مبشّر فهو منذرٌ للعصاة و مبشّرٌ للمطيعين.

وَ يُنْذِرَ ٱلَّذِينَ قٰالُوا ٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ وَلَدًا

خصّه بالذّكر بعد قوله لينذر، مشعراً بأنّ هذا من أعظم المعاصي لأنّه من الشّرك و قد مرّ الكلام فيه عند قوله: **وَ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**[1] و قلنا أنّه من شئون الجسم و اللّه تعالى منزّهٌ عنه و لذلك قال تعالى في ردّهم:

مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لاٰ لِاٰبٰآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاّٰ كَذِبًا

ما، نافية بمعنى ليس و المعنى أنّ الّذين قالوا ذلك ليس لهم و لا لآباءهم الّذين إتّبعوهم في هذه المقالة علمٌ بما يقولون و ذلك لأنّ من عرف اللّه و علم أنّه منزّهٌ عن النّقائض لا يقول ذلك.

و الحاصل أنّ من قال ذلك أنّما قاله عن جهلٍ، و تقليدٍ و ذكر الآباء لأنّ تلك المقالة قد أخذوها عنهم و تلّقفوها منهم و قوله: **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ**، تقديره كبرت كلمتهم الّتي قالوها كلمة كما تقول نعم رجلً عمروٌ و نعم الرّجل رجلاً قام و المراد بها قولهم له ولد، و أنّما أطلق عليه الكلمة كما أطلق على القصيدة و قولهم لا إله إلاّ اللّه كلمة الإخلاص و قوله: **تَخْرُجُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ** فيه إشارة الى أنّ ما قالوه أو يقولون به ليس مسبوقاً بالعلم و المعرفة

١- الاسراء = ١١١

و الفكر و أنّما هو خرج من أفواههم من غير أن يتأمّلوا فيه كما هو شأن الجاهل في كلماته.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **لسان العاقل وراء قلبه و قلب الأحمق وراء لسانه** أي أنّ الأحمق يقول أوّلاً ثم يتفكّر فيما قال و العاقل لا يقول إلاّ بعد التأمّل و التفكّر و قوله: **إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا** أن نافية أي ليس قولهم هذا إلاّ من الكذب و الإفتراء.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا

المراد بالحديث القرآن قال اللّه تعالى: **نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا**[١] و المعنى فلعلّك يا محمّد قاتل نفسك و مهلكها على آثار قومك الّذين **قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا**[٢] تمرّداً منهم علىٰ ربّهم بأنّهم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الّذي أنزلناه عليك أسفاً أي تحسّراً و قيل غضباً و قيل حزناً و قيل جزعاً.

و في هذا الكلام إيماءٌ بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان حريصاً على إيمان النّاس فضلاً عن إيمان قومه فلمّا لم يؤمنوا صار محزوناً مغموماً و هذا دليل على سعة صدره صلّى الله عليه وآله وسلّم و كمال رأفته بالنّاس و أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم كان رحمة للعالمين و لذلك لم يدع على القوم حتّى بعد إيذائهم إيّاه بل كان يقول اللّهم إهد قومي فأنّهم لا يعلمون:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**[٣].

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزً

١- الزمر=ژ ٢٣ ٢- الاسراء = ٩٠
٣- الانبياء = ١٠٧

قلنا الصَّعيد ظهر الأرض **والجُرُز** بضّم الجيم و الرّاء الأرض التّي لا نبات عليها و لا غرس و المعنى إنّا جعلنا ما على الأرض من أنواع المخلوقات جمادها و حيوانها و نباتها طينةً لها أي للأرض لنبلوهم أي لنختبر النّاس أيّهم أحسن عملاً، يعني من إتَّبع أمرنا و نهينا و عمل فيها بطاعتنا و المقصود من هذا الكلام هو تسلية النّبي أي لا تأسف على عدم إيمانهم.

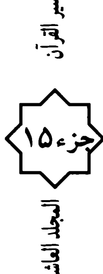
و في قوله تعالىٰ: **وَ إِنّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعيدًا جُرُزً** إشارة الىٰ نكتة خفيّة و هى أنّ مثل النّاس مثل الأرض فكما أنّ الأرض قد تكون لها زينة من أنواع المخلوقات و الثّمار و قد لا تكون لها زينة كما اذا كانت صعيداً جرزاً، لا نبات لها و لا زرع، كذلك قلوب النّاس فمنها ما تكون لها زينة و هى الإعتقاد الصّالح من معرفة اللّه و معرفة رسوله و الإتّصاف بالكمالات و الفضائل النّفسانية.

و منها، ما لا يكون كذلك و هذا أمرٌ معقولٌ بل محسوسٌ نراه و نشاهده في النّاس:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ ٱلَّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلّا نَكِدًا كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْاٰياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**[1].

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ إِنّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعيدًا جُرُزاً** ما هذا لفظه:

وَ إِنّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها من هذه الزّينة **صَعيدًا جُرُزاً** يعني مثل أرض بَيضاء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة في إزالة بهجته و إماطة حسنه وإبطال ما به من إماتة الحيوان و تخفيف النّبات و الأشجار و نحو ذلك ذكر من الآيات الكليّة تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس الّتي لا حصر لها و إزالة ذلك كلّه كأن لم يكن انتهىٰ كلامه.



١- الأعراف = ٥٨

أنّ اللّه جعل على الأرض زينة من النّبات و الحيوان و الجماد و غيرها ثمّ أزالها عنها فهو تعالىٰ قادرٌ على الإيجاد و الإزالة و الإحياء و الإماطة و أنت ترى أنّ الآية أجنبيّة عن ذلك وليت شعري من أين إستنبط هذا منها.

و نقل الرّازي في تفسيره لهذه الآية عن القاضي أنه قال:

كأنّه تعالى يقول يامحمّد أنّي خلقت الأرض و زينتها أخرجت منها أنواع المنافع و المصالح و المقصود من خلقها بما فيها من المنافع إبتلاء الخلق بهذه التّكاليف ثمّ أنّهم يكفرون و يتمرّدون و مع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النِّعم فأنت أيضاً يا محمّد ينبغي أن لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى أن تترك الإشتغال بدعوتهم الى الدّين الحقّ انتهى.

و هذا أيضاً كما ترى لا ربط له بالآية أصلاً فالحقّ ما ذكرناه من أنّ النّاس حالهم كحال الأرض التّي خلقوا منها فكما أنّ الأرض منها ما لا زينة له ومنها ما له زينة كذلك الإنسان الّذي خلق منها فمنه ما له زينة و هى المعرفة و منه ما ليست له كالكافر و الذّاتي لا يتغيّر و لا يتبدّل و لا يعلَّل و يحتمل أن يكون المراد من جعل الزِّينة عليها هو إختبارهم و إمتحانهم في الشّكر على النّعمة و عدمه فالشّاكر يؤمن و الكافر لا يؤمن و اذا كان كذلك فلا تأسف على من لا يؤمن فإنّا لا نحتاج الى إيمانهم كما لا يضرّنا كفرهم فأنّ ربّك غنيٌّ حميدٌ.

و أمّا الإختبار من اللّه تعالى فقد تكلّمنا فيه غير مرّةٍ و قلنا أنّه تعالى عالمٌ بجميع ما يفعله العبد و لا يخفى عليه شئ و أنّما يختبر العبد ليعرّفه نفسه و سيأتي الكلام فيه في المستقبل بوجهٍ أبسط.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحٰابَ ٱلْكَهْفِ وَ ٱلرَّقِيمِ كٰانُوا مِنْ اٰيٰاتِنٰا عَجَبًا جزء ١٥

أم هنا منقطعة فتتَّقدر ببل، و الهمزة للإستفهام.و قال بعض النّحويين أنّ، أم، هنا بمعنى الهمزة فقط، ثمّ أنّ الظّاهر في أم حسبت، أنّه خطاب للرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و أمّا الكهف و الرَّقيم **فالكَهف** بفتح الكاف و سكون الهاء الغار في الجبل و جمعه **كُهُوف** قاله الرّاغب في المفردات.

و الرَّقيم قال إبن عبّاس هو إسم قريةٍ و قيل أنّه وادٍ بين غضبان و إيلة دون فلسطين و قيل الرَّقيم وادٍ، و قيل هو الكتاب.

و قال في المفردات أنّه إسم مكانٍ و قيل نسبوا الى حجرٍ رقم فيه أسماؤهم و به قال سعيد بن جبير و المعنى بل حسبت يا محمّد أنّ أصحاب الكهف و الرَّقيم، على ما سأتي بيانه، من أياتنا الأفاقيّة و الأنفسيّة عجباً، أي لا عجب فيه فأنّ العجائب كثيرة جدّاً.

قال الطّبري و أمّا الكهف فأنّه كهف الجبل الذّي أوى اليه القوم الّذين قصَّ اللّه شأنهم في هذه السُّورة و أمّا الرَّقيم فأنّ أهل التّأويل إختلفوا في المعنى به فقال بعضهم هو إسم قريةٍ أو وادٍ على إختلافٍ بينهم في ذلك.

ثمّ نقل عن عكرمة عن إبن عبّاس أنّه قال يزعم كعب أنّ الرَّقيم القرية و نقل في حديثٍ أخر عنه أنّه وادٍ بين عسفان و إيلة و فى حديثٍ أخر أنّ الرَّقيم الوادي الذّي فيه أصحاب الكهف و فى حديثٍ أخر أنّ الرَّقيم كتاب تبيانهم.

و قال الضّحاك أمّا الكهف فهو غار الوادي والرَّقيم إسم الوادي.

و قال أخرون الرَّقيم الكتاب و قيل الرَّقيم الجبل الّذي فيه الكهف و الظّاهر أنّ أصحاب الكهف و الرَّقيم طائفة واحدة و قيل أنّهم طائفتان أخبر اللّه عن أصحاب الكهف ولم يخبر عن أصحاب الرَّقيم بشيءٍ.

إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا



أي حين جاء أصحاب الكهف الى كهف الجبل هرباً بدينهم الى اللّه و قالوا إذا أووه ربّنا أتنا من لدنك رحمةً، رغبةً منهم الى ربّهم في أن يرزقهم من عنده رحمةً و هيّئ لنا، أي يسرّ و سهل لنا ما نبتغي و نلتمس من رضاك أي دلّنا على ما فيه نجاتنا و الهرب من الكفر بك و من عبادة الأوثان التّي يدعونا اليها قومنا، رشداً، أي رشداً الى العمل الّذي تحبّ.

قال الطّبري قد إختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية الى الكهف الّذي ذكره اللّه في كتابه فقال بعضهم كان سبب ذلك أنّهم كانوا مسلمين على دين عيسى عليه السلام و كان لهم ملك عابد وثن دعاهم الى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم أو يقتلهم فإستخفوا منه في الكهف.

ثمّ نقل بأسناده عن عمرو أنّ الفتية كانت على دين عيسى على الإسلام و كان ملكهم كافراً و قد أخرج لهم صنماً فأبوا «وقالوا ربّنا ربّ السّموات و الأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً» قال فإعتزلوا عن قومهم لعبادة اللّه فقال أحدهم أنّه كان لأبي كهف يأوي فيه غنمه فإنطلقوا بنا نكن فيه فدخلوه و فقدوا في ذلك الزّمان فطلبوا فقيل دخلوا هذا الكهف فقال قومهم لا نريد لهم عقوبة عذاباً أشدّ من أن نردم عليهم هذا الكهف فبنوه عليهم ثمّ ردموه ثمّ أنّ اللّه بعث عليهم ملكاً على دين عيسىٰ و رفع ذلك البناء الذّي كان ردم عليهم الى أخر ما قال.

أقول ثمّ نقل الطّبري عن إبن إسحاق قصّتهم مفصّلةً و نحن ننقلها بألفاظه و عباراته.

قال إبن إسحاق مرج أهل الإنجيل و عظمت فيهم الخطايا و طغت فيهم الملوك حتّى عبدوا الأصنام و ذبحوا للطّواغيت و فيهم على ذلك بقايا على أمر عيسى بن مريم متمسّكون بعبادة اللّه و توحيده فكان ممّن فعل ذلك من ملوكهم ملكٌ من الرُّوم يقال له دقينوس كان قد عبد الأصنام و ذبح للطّواغيت و قتل من خالفه في ذلك ممَّن أقام على دين عيسى بن مريم كان ينزل في قرى الرَّوم فلا يترك في قريةٍ ينزلها أحداً ممَّن يدين بدين عيسى بن مريم إلاّ قتله حتّى يعبد الأصنام و يذبح للطّواغيت، حتّى نزل دقينوس مدينة الفتية أصحاب الكهف فلمّا نزلها دقينوس كبر ذلك على أهل الإيمان فإستخفوا منه و هربوا في كلّ وجهٍ و كان دقينوس قد أمر حين قدمها أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا له و إتّخذ شرطاً من الكفّار من أهلها فجعلوا يتبعون أهل الإيمان في

أماكنهم الّتي يستخفون فيها فيستخروجونهم الى دقينوس فيقدمهم الى المجامع الّتي يذبّح فيها للطّواغيت فيخيّرهم بين القتل و بين عبادة الأوثان و الذبح للطّواغيت فمنهم من يرغب في الحياة و يفظع بالقتل فيفتتن و منهم من أبى أن يعبد غير اللّه فيقتل فلمّا رأى ذلك أهل الصّلابة من أهل الايمان باللّه جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب و القتل فيقتلون و يقطعون ثمّ يربط ما قطع من أجسادهم فيعلّق على سور المدينة من نواحيها كلّها و على كلّ بابٍ من أبوابها حتّى عظمت الفتنة على أهل الإيمان فمنهم من كفر فترك و منهم من صلب على دينه فقتل فلمّا رأى ذلك الفتية أصحاب الكهف حزنوا حزناً شديداً حتّى تغيّرت ألوانهم و نحلت أجسامهم و إستعانوا بالصّلاة و الصّيام و الصّدقة و التّحميد و التّسبيح و التّهليل و التّكبير و البكاء و التضرّع الى اللّه وكانوا فتيةٍ أحداثاً أحراراً من أبناء أشراف الرُّوم حتّى قيل أنّه كان على بعضهم من حداثة أسنانه وضح الورق.

قال إبن عبّاس فكانوا كذلك في عبادة اللّه ليلهم ونهارهم يبكون الى اللّه و يستعينونه و كانوا ثمانية نفر، مكسلمينا و كان أكبرهم و هو الّذي كلَّم الملك عنهم، و محسيميلنيا، و يمليخا، و مرطوس و كشوطوش و بيرونس، ودينموس و يطونس قالوس، فلمّا أجمع دقينوس أهل القرية لعبادة الأصنام و الذبح للطواغيت بكوا الى اللّه و تضرّعوا اليه و جعلوا يقولون اللّهم ربّ السّموات و الأرض لن ندعوا من دونك إلهاً لقد قلنا اذاً شططاً أكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة و أدفع عنهم البلاء و أنعم على عبادك الّذين أمنوا بك و منعوا عبادتك إلاّ سرّاً مستخفين بذلك حتّى يعبدوك علانية فبينما هم على ذلك عرفهم عرفاؤهم من الكفّار ممّن كان يجمع أهل المدينة لعبادة الأصنام و الذبح للطّواغيت و ذكروا أمرهم و كانوا قد خلوا في مصّلى لهم يعبدون اللّه فيه و يتضرّعون اليه و يتوقّعون أن يذكروا لدقينوس فأنطلق أولئك الكفرة حتّى دخلوا عليهم مصلاهم فوجدوهم سجوداً على وجوههم

يتضرّعون و يبكون و يرغبون الى اللّه أن ينجّيهم من دقينوس و فتنته فلمّا رأهم أولئك الكفرة من عرفائهم قالوا لهم ما خلّفكم عن أمر الملك إنطلقوا اليه ثمّ خرجوا من عندهم فرفعوا أمرهم الى دقينوس و قالوا تجمع النّاس لذبح لألهتك و هؤلاء فتية من أهل بيتك يسخرون منك و يستهزؤون بك و يعصوك و يتركون ألهتك و يعمدون الى مصلّى لهم و لأصحاب عيسى إبن مريم يصلّون فيه و يتضرّعون الى آلهتهم و إله عيسى و أصحاب عيسى فلم تتركهم يصنعون هذا و هم بين ظهراني سلطانك و ملكك و هم ثمانية نفر رئيسهم مكسلمينا و هم أبناء عظماء المدينة فلمّا قالوا ذلك لدقينوس بعث اليهم فأتى بهم من المصلّىٰ الذّي كانوا فيه تفيض أعينهم من الدُّموع معفرة وجوههم في التّراب فقال لهم ما منعكم أن تشهدوا الذبح لألّهتنا التّي تعبد في الأرض و أن تجعلوا أنفسكم أسوة لسراة أهل مدينتكم و لمن حضر منّا من النّاس.

إختاروا منّي أمّا أنّ تذبحوا لألهتنا كما ذبح النّاس و أمّا أن أقتلكم فقال مكسلمينا إنّ لنا إلهاً نعبده ملأ السّموات و الأرض عظمته لن ندعوا من دونه إلهاً أبداً و لن نقرّ بهذا الّذي تدعونا اليه أبداً ولكنّا نعبد اللّه ربّنا له الحمد و التّكبير و التّسبيح من أنفسنا خالصاً أبداً إيّاه نعبد و إيّاه نسأل النّجاة والخير فأمّا الطّواغيت و عبادتها فلن نقرّ بها أبداً و لسنا بكائنين عبّاداً للشّياطين و لا ما علىٰ أنفسنا و أجسادنا عباداً لها اذ هدانا اللّه أصنع بنا ما بدا لك.

ثمّ قال أصحاب مكسلمينا لدقينوس مثل ما قال، فلمّا قالوا ذلك أمر بهم فنزع عنهم لبوس كان عليهم من لبوس عظمائهم ثمّ قال أمّا اذا فعلتم ما فعلتم فأنّي سأؤخّركم أن تكونوا من أهل مملكتي وبطانتي و أهل بلادي و سأفرغ لكم فأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة و ما يمنعني أن أعجّل ذلك لكم إلاّ إنّي أراكم فتياناً حديثة أسنانكم و لا أحبّ أن أهلككم حتّى أستأني بكم و أنا جاعل لكم أجلاً تذكرون فيه و تراجعون عقولكم ثمّ أمر بحليةٍ كانت عليهم من ذهبٍ و فضّةٍ فنزعت عنهم ثمّ أمر بهم فأخرجوا من عنده و إنطلق دقينوس

مكانه الى مدينتهم سوى مدينتهم التّي هم بها قريباً منها لبعض ما يريد من أمره فلمّا رأى الفتية دقينوس قد خرج من مدينتهم بأدروا قدومه و خافوا اذا قدم مدينتهم أن يذكو بهم فإتمروا بينهم أن يأخذ كلّ واحدٍ منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدّقوا منها و يتزودّوا بما بقي ثمّ ينطلقوا الى كهفٍ قريبٍ من المدينة في جبلٍ يقال له بنجلوس فيمكثوا فيه و يعبدوا اللّه حتّى اذا رجع دقينوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما شاء فلمّا قال ذلك بعضهم لبعضٍ عمد كلّ فتى منهم فأخذ من بيت أبيه نفقة فتَّصدق منها وإنطلقوا بما بقي من نفقتهم و أتبعهم كلبٌ لهم حتّى أتوا ذلك الكهف الذّي في ذلك الجبل فلبثوا فيه ليس لهم عمل إلاّ الصّلاة و الصّيام و التّسبيح و التّكبير و التّحميد إبتغاء وجه اللّه و الحياة التّي لا تنقطع و جعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له بمليخا فكان على طعامهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرّاً من أهلها و ذلك أنّه كان من أجملهم و أجلدهم فكان يمليخا يصنع ذلك فاذا دخل المدينة يضع ثياباً كانت عليه حساناً و يأخذ ثياباً كثياب المساكين الّذين يستطعمون فيها ثمّ يأخذ ورقة فينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاماً و شراباً و يتسمّع و يتجسّس لهم الخبر هل ذكر هو و أصحابه بشيءٍ في ملاء المدينة ثمّ يرجع الى أصحابه بطعامهم و شرابهم و يخبرهم بما سمع من أخبار النّاس فلبثوا بذلك ما لبثوا.

ثمّ قدم دقينوس الجبّار المدينة التّي منها خرج الى مدينته و هى مدينة أفسوس فأمر عظماء أهلها فذبحوا للطّواغيت ففرغ من ذلك أهل الإيمان فتخبؤوا في كلّ مخبأ و كان يمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم و شرابهم ببعض نفقتهم فرجع الى أصحابه و هو يبكي و معه طعامٌ قليل فأخبرهم أنّ الجبّار دقينوس قد دخل المدينة و أنّهم قد ذكروا و افتقدوا و التمسوا مع عظماء أهل المدينة ليذبحوا للطّواغيت فلمّا أخبرهم بذلك فزعوا فزعاً شديداً و وقعوا سجوداً على وجوههم يدعون الّله و يتضرّعون اليه و يتعوذّون به من الفتنة ثمّ أنّ يمليخا قال لهم ياإخوتاه أرفعوا رؤوسكم فأطعموا

من هذا الطّعام الّذي جئتكم به و توكّلوا على ربّكم فرفعوا رؤوسهم و أعينهم تفيض من الدَّمع حذراً و تخوّفاً على أنفسهم منه و ذلك مع غروب الشّمس ثمّ جلسوا يتحدّثون و يتدارسون و يذكر بعضهم بعضاً على حزنٍ منهم مشفقين ممّا أتاهم به صاحبهم من الخبر فبينا هم على ذلك اذ ضرب اللّه على آذانهم في الكهف سنين عدداً و كلبهم باسطٌ ذراعيه بباب الكهف فأصابهم ما أصابهم و هم مؤمنون مصدّقون بالوعد و نفقتهم موضوعة عندهم فلمّا كان الغد فقدهم دقينوس فإلتمسهم فلم يجدهم.

فقال لعظماء أهل المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الّذين ذهبوا لقد كانوا يظنُّون أنّ بي غضباً عليهم فيما صنعوا في أوّل شأنهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لأجهل عليهم في نفسي و لا أواخذ أحداً منهم بشيءٍ إن هم تابوا و عبدوا ألهتي و لو فعلوا لتركتهم و ما عاقبتهم بشيءٍ سلف منهم فقال له عظماء أهل المدينة ما أنت بحقيقٍ أن ترحم قوماً فجرةً مردة عصاة مقيمين على ظلمهم و معصيتهم و قد كنت أجّلتهم أجلاً و أخّرتهم عن العقوبة التّي أصبت بها غيرهم ولو شاءوا لرجعوا الى ذلك الأجل و لكنّهم لم يتوبوا ولم ينزعوا ولم يندموا على ما فعلوا و كانوا منذ إنطلقت ينذرون أموالهم بالمدينة فلمّا علموا بقدومك فرّوا فلم يروا بعد فأن أحببت أن تؤتى بهم فأرسل الى أباءهم فإمتحنهم و أشدد عليهم يدلّوك عليهم فأنّهم مختبئون منك فلمّا قالوا ذلك لدقينوس الجبّار غضب غضباً شديداً.

ثمّ أرسل الى أباءهم فأتى بهم فسألهم عنهم و قال أخبروني عن أبناءكم المردة الّذين عصوا أمري و تركوا ألهتي أئتوني و أنبئوني بمكانهم فقال أباءهم أمّا نحن فلم نعص أمرك ولم نخالفك قد عبدنا ألهتك و ذبحنا لهم فلم تقتلنا في قومٍ مردة قد ذهبوا بأموالنا فبذّروها و أهلكوها في أسواق المدينة ثمّ إنطلقوا فإرتقوا في جبلٍ يدعى بنجلوس بينه و بين المدينة أرضٌ بعيدة هرباً منك فلمّا قالوا ذلك خلّى سبيلهم و جعل يأتمر ماذا يصنع بالفتية فألقى اللّه

عزّ وجّل في نفسه أن يأمر بالكهف فيسدّ عليهم كرامةً من اللّه أراد أن يكرمهم و يكرم أجساد الفتية فلا يجول و لا يطوف بها شئٌ و أراد أن يحييهم و يجعلهم آية لأمّةٍ تستخلف من بعدهم و أن يبيّن لهم أنّ السّاعة آتية لا ريب فيها و أنّ اللّه يبعث من في القبور فأمر دقينوس بالكهف أن يسدّ عليهم و قال دعوا هؤلاء الفتية المردة الّذين تركوا آلهتي فليموتوا كما هم في الكهف عطشاً و جوعاً وليكن كهفهم الّذي إختاروا لأنفسهم قبراً لهم ففعل بهم ذلك عدوّ اللّه و هو يظنّ أنّهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم و قد توّفي اللّه أرواحهم وفاة النُّوم و كلبهم باسطٌ ذراعيه بباب الكهف قد غشاه اللّه ما غشاهم يقلّبون ذات اليمين و ذات الشِّمال ثمّ أنّ رجلين مؤمنين كانا في بيت الملك دقينوس يكتمان إيمانهما إسم أحدهما بيدروس و إسم الآخر روناس فاتمرا أن يكتبا شأن الفتية أصحاب الكهف أنسابهم و أسمائهم و أسماء آبائهم و قصّة خبرهم في لوحين من رصاص ثمّ يصنعا له تابوتاً من نحاس ثمّ يجعلا اللوحين فيه ثمّ يكتبا عليه في فم الكهف بين ظهرانيّ البنيان و يختما على التابوت بخاتمهما و قالا لعلّ اللّه أن يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم حين يقرأ هذا الكتاب خبرهم ففعلا ثمّ بنيا عليه في البنيان فبقى دقينوس و قرنه الّذين كانوا عندهم ما شاء اللّه أن يبقوا ثمّ هلك دقينوس و القرن الّذي كانوا معه و قرون بعده كثيرة و خلفت الخلوف بعد الخلوف إنتهى ما نقله عن إبن إسحاق.

و قال مجاهد كان أصحاب الكهف أبناء عظماء مدينتهم و أهل شرفهم فخرجوا و أجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد فقال رجلٌ منهم و هو أسنّهم إنّي لأجد في نفسي شيئاً ما أظنّ أنّ أحداً يجده قالوا ماذا تجد قال أجد في نفسي أنّ ربّي ربّ السّموات و الأرض و قالوا نحن نجد جميعاً فأجتمعوا أن يدخلوا الكهف و على مدينتهم إذ ذاك جبّار يقال له دقينوس فلبثوا في الكهف ثلاث مائة سنين و أزدادوا تسعاً رقداً، إنتهىٰ.

إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآيات.

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا

و المراد بضرب الآذان هو النَّوم أي أنمناهم و قوله: **سِنِينَ عَدَدًا** أي سنين معدودة و نصب سنين على الظَّرف بقوله: **فَضَرَبْنَا** و العدد بمعنى معدود و العدّ المصدر، و قوله: **فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ**.كما يقول القائل لآخر ضربك اللّه بالفالج بمعنى إبتلاه اللّه به و أرسله عليه.

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا

أي ثمّ بعثنا هؤلاء الفتية الّذين آووا الى الكهف بعد ما ضربنا على آذانهم فيه سنين عدداً، من رقدتهم و نومهم لينظر عبادي فيعلموا بالبحث أيّ الطّائفتين اللّتين إختلفا في قدر مبلغ مكث الفتية في كهفهم رقوداً أحصى لما لبثوا أمداً و الأمد الغاية.

و إختلف المفسّرون في معنى المراد بالحزبين فقال قومٌ كان الحزبان جميعاً كافرين و قال بعضهم كان أحدهما مسلماً و الأخر كافراً.

أقول لا يهمّنا البحث فيه فأنّ الآية ليست بصدد بيان ذلك مضافاً الى أنّه لا فرق بين كون الحزبين مسلمين أو كافرين بل المقصود من الآية أنّ النّاس إختلفوا في مدّة لبثهم في الكهف الى أن بعثوا و أنّما إختلفوا فيه لطول المدّة.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى

يقول اللّه تعالى لنبيّه نحن نقصّ عليك يا محمّد نبأهم أي خبر أصحاب الكهف أنّهم أي أصحاب الكهف كانوا فتية أمنوا بربّهم على ما مرَّ بيانه و زدناهم هدى، إشارة الى أنّ اللّه تعالى زاد في إيمانهم و هدايتهم حتّى صبروا على هجران دار قومهم و الهرب من بين أظهرهم بدينهم الى اللّه و فراق ما كانوا فيه من خفض العيش و لينه الى خشونة المكث في كهف الجبل.

وَ رَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا

هذه الآية كأنّها تفسير لقوله و زدناهم هدىٰ فكأنّه قيل ما معنى الزّيادة في الإيمان فقال تعالى معناها أنّا ربطنا على قلوب الفتية اذ قاموا أي أصحاب الكهف بحضرة الملك الجبّار «**فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا**» أبدا، فأنّ كلمة، لن، لنفي الأبد «**مِنْ دُونِهِۦٓ**» أي غير خالق السّموات و الأرض «**إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا**»، الشَّطط الخروج عن الحدّ بالغلُو فيه أي لو قلنا غير ذلك لقد قلنا إذاً شططاً أي خرجنا عن حدّ الإعتدال و سلكنا طريق الظُّلم.

و من المعلوم أنّ التّكلم بهذا الكلام عند الجبّار لا يكون إلاّ بتأييد اللّه:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلآئِكَةُ أَلّا تَخٰافُوا وَ لا تَحْزَنُوا**(٢).

هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا

يقول اللّه تعالى مخبراً عن قبل الفتية من أصحاب الكهف «هؤلاء قومنا اتّخذوا من دونه»، أي من دون اللّه، «ألهةٌ» من الأصنام و الأخشاب، «لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بيّنٍ»، أي هلاّ يأتون على عبادتهم إيّاها بحجّةٍ بيّنةٍ «فمن أظلم ممَّن إفترى على اللّه كذباً»، أي أنّ الشّرك باللّه ظلم إذ قال لقمان لإبنه و هو يعظه:

١- محمد = ٧
٢- فصّلت = ٣٠

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱفْتَرىٰ إِثْمًا عَظيمًا**[۲].

بل نقول أنّه من أقبح الظُّلم و أشنعه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللّٰهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جٰآءَهُ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرىٰ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعىٰ إِلَى ٱلْإِسْلاٰمِ**[۴].

و محصّل الكلام هو أنّه ما أقبح بالإنسان أن ينكر خالقه الّذي خلقه.

■



۱- لقمان = ۱۳

۲- النّساء = ۴۸

۳- الزّمر = ۳۲

۴- الصّف = ۷

وَ إِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُوٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَ تَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَ إِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَ مَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَ كَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَ كَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَ كَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم

مَسْجِدًا ﴿۲۱﴾ سَيَقُولُونَ ثَلٰثَةٌ رٰابِعُهُمْ كَـلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سٰادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثٰامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مٰا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمٰارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرٰآءً ظٰاهِرًا وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿۲۲﴾ وَ لا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فٰاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا ﴿۲۳﴾ إِلَّآ أَنْ يَشٰآءَ ٱللَّهُ وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ إِذٰا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسىٰٓ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذٰا رَشَدًا ﴿۲۴﴾

◀ اللّغة

فَأْوُوٓا: أمرٌ من أوىٰ يأوي أي إجعلوا الكهف مأوى لكم و المأوى المكان.

مِرْفَقًا: المرفق بكسر الميم و فتحها ما إرتفعت به أي شيئاً يرتفعون به مثل المقطع و قيل هو مصدر كالرِّفق جاء على مفعل.

تَزٰاوَرُ: أصله تتزاور فأدغم التّاء في الزّاء و المعنى تزوغ و تميل يقال هو أزور عن كذا أي مائل.

تَقْرِضُهُمْ: أي تتركهم يقال قرضت الموضع اذا قطعته و جاوزته و منه سمّي المقراض لأنّه يقطع الثّوب.

فَجْوَةٍ: الفجوة بفتح الفاء المتّسع من الأرض و قال قتادة في فضاء منه.

أَيْقٰاظًا: جمع يقظة و هى ضدّ النّوم.

رُقُودٌ: رَقَد رَقداً ورُقُوداً ورِقاداً، نام فهو راقد جمعه رقود و رقد فقوله رقود أي نيام.

بِالْوَصِيدِ: الوصيد بفتح الواو الفناء و قيل هو الباب و قيل الوصيد، العتبة فناء الدّار و قد جاء بمعنى الجبل و الكهف أيضاً.

رُعْبًا: الرُّعب بضّم الرّاء الخوف.

أَعْثَرْنَا: أي أظهرنا و إطّلعنا.

تُمَارِ: أي تجادل.

مِرَآءً: المراء الخصومة و الجدل.

◀ الإعراب

وَ إِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ إذ، ظرف لفعلٍ محذوف أي و قال بعضهم لبعضٍ وَ مَا يَعْبُدُونَ ما، موصولة بمعنى، الّذي و إِلَّا ٱللَّهَ مستثنى من، ما، أو من العائد المحذوف و قيل هي مصدرّية و التّقدير إعتزلتموهم و عبادتهم إلاّ عبادة اللّه.

و هنا قول ثالث و هو أنّها حرف نفيٍ و عليه فيخرج في الإستثناء وجهان:

أحدهما: هو منقطع.

الثّاني: هو متّصل و التّقدير و إذ إعتزلتموهم إلاّ عبادة اللّه أو و ما يعبدون إلاّ اللّه مِرْفَقًا نصب على المصدر أي إرتفاقاً تَزَاوَرُ أصله تتزاور فقلبت الثّانية زاياً و أدغمت و قد يقرأ بالتّخفيف على حذف الثّانية و ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ظرف لتزاور بَاسِطٌ خبر المبتدأ ذِرَاعَيْهِ منصوب به و أنّما عمل إسم الفاعل و هو للماضي لأنّه حالٌ محكية فِرَارًا مصدر لأنّ، و لّيت بمعنى فررت و يجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال و أن يكون مفعولاً له رُعْبًا مفعول ثان و قيل تمييز وَ كَذَٰلِكَ في موضع نصب و كَمْ ظرف و بِوَرِقِكُمْ في موضع الحال أَيُّهَآ أَزْكَىٰ الجملة في موضع نصب و طَعَامًا تمييز إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ إذ ظرف ليعلموا أو لأعثرنا بُنْيَانًا مفعول و قيل هو مصدر و رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ رابعهم مبتدأ و كلبهم خبره و لا يعمل إسم الفاعل هنا لأنّه ماضٍ و الجملة صفة، لثلاثة و ليست حالاً اذ لا عامل لها إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ ٱللَّهُ في المستثنى منه ثلاثة أوجه:

أحدها: هو من النّهي و المعنى لا تقولنَّ إفعل غداً إلاّ أن يؤذن لك في القول.

الثّانى: هو من فاعل أي لا تقولن إنّي فاعلٌ غداً حتّى تقرن به قوله إن شاء اللّه.

الثّالث: أنّه منقطع و موضع، أن يشاء اللّه، نصب على وجهين:

أحدهما: على الإستثناء.

الثّانى: هو حال والتّقدير لا تقولنّ إفعل هـذا إلاّ قـائلاً إنشـاء اللّـه فـحذف القول و هو كثير في كلام العرب.

◀ التَّفسير

وَ إِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُوٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا

أي قـال بـعضهم لبـعضٍ إذا إعـتزلتموهم أي إعـتزلتم هـؤلاء الكـفّار وهـم دقينوس و أتباعه و الإعتزال يشمل مـفارقة أوطـان قـومهم و مـعتقداتـهم فـهو إعتزال جسمانيٍ و قلبي و، ما، معطوف عـلى المـفعول فـي اعـتزلتموهم أي و أعتزلتم معبودهم و قوله إلاّ اللّه، إستثناء متّصل أن كان قومهم يعبدون اللّـه مـع آلهتهم لأندراج لفظ الجلالة في قوله: **وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ** و ذلك لما قيل أنّهم كانوا يعبدون اللّه و يعبدون معه آلهة فأعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم يعتزلوا عبادة اللّه و به قال الفرّاء و كثيرٌ من المفسّرين، و قيل الإستثناء مـنقطع لأنّهم أي دقينوس و أتباعه كانوا لا يعرفون اللّـه و لا يـعبدونه فـلم يكـن اللّـه مندرجاً في معبوداتهم فالإستثناء منقطع و قال بعض المفسّرين **وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ** كلام معترض إخبار من اللّه تعالى عن الفتية أنّهم لم يعبدوا غير اللّـه تعالى، فعلى هذا، ما، نافية و الإستثناء مـفرغ له العـامل، فآووا الى الكـهف، أي أجعلوه مأوى لكم تقيمون فيه و تأوون اليه و قـوله: **يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِـنْ رَحْمَتِهِ** معناه ينشر فيه ما كـانوا عـليه مـن التـوكُّل عـلى اللّـه حـيث آووا الى

الكهف و يهَّئ لكم من أمركم مرفقاً، معناه نشر رحمة اللّه عليهم و تهيئة رفقه تعالى بهم لأنّ من أخرجه اللّه من ظلمة الكفر الى نور الإيمان لا يضّيعه فالمعنى أنّه تعالى سيبسط علينا رحمته و يهَّئ لنا ما نرتفق به في أمر عيشنا.

و قال إبن عبّاس، و يهّئ لكم أي يسهل عليكم ما تخافون من الملك و ظلمه و يأتيكم باليسر و الرِّفق و اللُّطف و قيل معناه يهّئ لكم بدلاً من أمركم الصعب مرفقاً.

قال الشّاعر:

فليست لنا من ماء زمزم شربة　　　مبرّءة بابت على طهيانٍ

أي بدلاً من ماء زمزم.

و قال الزّمخشرى، **مَرفقاً** قرئ بفتح الميم و كسرها و هو ما يرتفق به أي ينتفع، امّا أن يقولوا ذلك ثقة بفعل اللّه و قوّةً من رجائهم لتوكلّهم عليه و نصوح يقينهم و أمّا أن يخبرهم نبيّ عصرهم، و أمّا أن يكون بعضهم نبيّاً، هذا ما ذكروه في تفسير الآية و يستفاد منها أنّ الإعتزال ممدوحٌ مستحسن إذا كان لحفظ الدّين فكلّ من خاف على دينه في الإجتماع يجب عليه الإعتزال عن النّاس إذا كان حفظ دينه فيه و على هذا يحمل ما ورد في مدح الإعتزال في آخر الزّمان و سنتكلم في هذا الباب في موضعه.



وَ تَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَ إِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَ هُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَ مَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا

هنا جملٌ محذوفة دلّ عليها ما تقدَّم و التَّقدير فأووا الى الكهف فألقى اللّه عليهم النّوم و إستجاب دعاءهم و أرفقهم في الكهف بأشياء **وَ تَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ** أي تعدل عنهم و تميل يقال ازور

إزوراراً و فيه زور أي ميل، وقوله: **وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ ٱلشِّمالِ** فقيل في معناه تقطعهم في ذات الشّمال أي أنّ الشّمس تجوزهم منحرفة عنهم من قولهم قرضته بالمقراض أي قطعته، و قال بعض المفسّرين معناه تعطيهم اليسير من شعاعها ثمّ تأخذه بإنصرافها من قرض الدّراهم الّتي تسترد.

و قال مجاهد تقرضهم أي تتركهم و المعنى في الآية أنّ الشّمس لا تصيبهم ألبتّة أو في أكثر الأوقات فتكون صورهم محفوظة و قيل أنّ الكهف الّذي كانوا فيه كان محاذياً لبنات النَّعش إذا جازت خط نصف النّهار.

و أعلم أنّهم إختلفوا في القراءة، فمنهم من قرأ، تزوّر على وزن تحمر و منهم من قرأ، تزوارّ على وزن تحمارّ و منهم من قرأ تزوئر بهمزة قبل الرّاء و على أيّ التّقادير فالمعنى واحد و أمّا قوله: **وَ هُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ** أي متّسع من الكهف

و قال قتادة في فضاء منه و قيل الفجوة متّسع داخل الكهف بحيث لا يراه من كان ببابه و كان الكلب بباب الفجوة.

قال إبن عطيّة كان كهفهم مستقبل بنات النَّعش لا تدخله الشّمس عند الطّلوع و لا عند الغروب إختار اللّه لهم مضجعاً متّسعاً في فضاء لا تدخل عليهم الشّمس فتؤذيهم وتدفع عنهم كربة الغار و غمومه.

و قال الزّمخشري المعنى أنّهم في ظلّ نهارهم كلّه لا تصيبهم الشّمس في طلوعها و لا غروبها مع أنّهم في مكانٍ واسع منفتح معرّض لإصابة الشّمس لولا أنّ اللّه يحجبها عنهم، و قال أبو عليّ يعني تقرضهم تعطيهم من ضوءها شيئاً ثمّ تزول سريعاً كالقرض يستردّ و المعنى عنده أنّ الشّمس تميل بالغدوة و تصيبه بالعشيّ إصابة خفيفةً انتهىٰ.

أقول الإحتمالات في المقام كثيرة جدّاً و الحقّ أنّ ما ذكروه لا دليل عليه عقلاً و نقلاً و لا يعلم حقيقة الحال إلاّ اللّه تعالى إذ لم ترد به رواية صحيحة من أهل العصمة يعتمد عليها.

نعم يستفاد من الآية أنّ اللّه تعالى حفظهم من الآفات في الغار ولو كانت الشّمس لا تصيب مكانهم أصلاً لكان يفسد هواء الغار و يتعفّن ما فيه فيهلكوا فالمعنى أنّه تعالى دبَّر أمرهم فأسكنهم مسكناً لا يكثر سقوط الشّمس فيه فيحمي و لا تغيب عنه غيبوبة دائمة فيعفن و الإشارة بذلك الى ما صنعه تعالى بهم من إزورار الشّمس و قرضها طالعة و غاربة آية من آياته و اليه الإشارة بقوله: **ذٰلِكَ مِنْ اٰيٰاتِ اَللّٰهِ** الدّالة على أنّ العالم له خالقٌ مدبّرٌ حكيمٌ قادرٌ على كلّ شئ لأنّ حديث أصحاب الكهف من أوّله الى آخره من آيات اللّه كيف و هو الّذي هداهم الى توحيده و أخرجهم من بين عبدة الأوثان و أرشدهم الى الكهف و صرف الشّمس عنهم يميناً و شمالاً لئلا تفسد أجسامهم و أنامهم هذه المدّة الطّويلة و صانهم من البلى و ثيابهم من التمزُّق كلّ ذلك من آيات اللّه لمن كان له قلبٌ و قوله: **مَنْ يَهْدِ اَللّٰهُ فَهُوَ اَلْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا.**

فقوله: **مَنْ يَهْدِ اَللّٰهُ فَهُوَ اَلْمُهْتَدِ** حكمٌ عامّ يدخل فيه ما سبق نسبتهم و هم أصحاب الكهف و من يضلل عامّ أيضاً يدخل فيه مثل دقينوس الكافر و من حذى حذوه و قوله: **فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا** فكلمة، لَن، لنفي الأبد أي من يضلل لن تجد له وليّاً و ناصراً أبداً في الدّنيا و الآخرة و ذلك لانّ ما سوى اللّه مخلوق له و المخلوق تحت قدرة الخالق فكيف يعقل أن يكون ناصراً لمن أضلّه اللّه و قد تكلّمنا في معنى الهداية و الإضلال من اللّه تعالى غير مرّةٍ و قلنا أنّ الهداية من اللّه تعالى معناها توفيق العبد و الإضلال هو إيكاله العبد الى نفسه.

وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقٰاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ قيل أنّهم كانوا مفتحة أعينهم و هم نيام فيحسبهم النّاظر منتبهين، قيل في الكلام حذف تقديره لو رأيتهم لحسبتهم أيقاظاً.

و قيل و تحسبهم أيقاظاً كلام مستأنف و ليس على تقدير و كيف كان فالمعنى تحسبهم منتبهين غير نائمين و الحال أنّهم رقود أي هم نائمون **وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ ٱلْيَمِينِ وَ ذاتَ ٱلشِّمالِ** نُقلّبهم بالنُّون على المشهور بين القرّاء و قد قرئ بالياء أيضاً أي يقلّبهم اللّه، و على التّقديرين فالمقلِّب هو اللّه تعالى و فيه مزيد إعتناءٍ بهم حيث أسند التَّقليب الى نفسه و أنّه هو الفاعل له و الفائدة في تقلّبهم في الجهتين لئلاّ تبلى الأرض ثيابهم و تأكل لحومهم فيعتقدوا أنّهم ماتوا.

و عن إبن عبّاس لو مسّتهم الشّمس لأعرقتهم و لولا التَّقليب لأكلتهم الأرض.

و أمّا أوقات تقليبهم و عدد التّقليبات فالبحث فيه عاطلٌ باطلٌ لأنّه ممّا لا يعلمه إلاّ اللّه **وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** فالظّاهر أنّ المراد بالكلب هو الحيوان المعروف و من ذهب الى أنّ المراد بالكلب الأسد أو أنّه رجلٌ طبّاخ لهم تبعهم أو أحدهم قعد عند الباب طليعة لهم و أمثال ذلك من الأقوال لا يسمع منه إذ لا دليل عليه مضافاً الى أنّه خلاف الظّاهر فالمعنى و كلب أصحاب الكهف باسطٌ ذراعيه بالوصيد أي بفناء الغار أو ببابه و بسط اليد مدّها.

لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرارًا وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا الرُّعب الخوف و المعنى لو أشرفت عليهم أي على أصحاب الكهف لولّيت منهم فراراً، أي لأعرضت عنهم هرباً إستيحاشاً للموضع ولملئت منهم رعباً و خوفاً لما ألبسهم اللّه من الهيبة لئلا يصل اليهم أحد حتّى يبلغ الكتاب أجلَّه فيهم فينتبهون من رقدتهم بإذن اللّه و قيل أنّ أظفارهم قد طالت و كذلك شعورهم فلذلك يأخذه الرُّعب منهم و كان نومهم ثلاث مائة و تسع سنين لا تتغيّر أحوالهم و لا يطعمون ولا يشربون معجزة لا تكون إلاّ لنبيّ و قيل أنّ النّبي كان أحدهم و هو الرّئيس الّذي إتبعوه وآمنوا به.

وَ كَذٰلِكَ بَعَثْنٰاهُمْ لِيَتَسٰاءَلُوا بَيْنَهُمْ قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قٰالُوا لَبِثْنٰا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قٰالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهٰا أَزْكىٰ طَعٰامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لاٰ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه بعث و أحيى أصحاب الكهف بعد نومهم الطَّويل و رقدتهم البعيدة ليسأل بعضهم بعضاً عن مدّة مقامهم فلمّا بعثهم (قال قائل منهم كم لبثتم)، في الغار (قالوا لبثنا) في الكهف (يوماً أو بعض يوم)، و أنمّا أخبَروا بذلك من غير أن يعلموا صحته لأنّ الأخبار في مثل هذا مبنيٌّ على الظنّ الغالب و على ذلك وقع السّؤال لأنّ النّائم لا يدري مقدار نومه إلاّ على غالب الظنّ و قيل أنّهم لمّا ناموا كان عند طلوع الشّمس فلمّا إنتبهوا كانت الشّمس دنت للغروب فلذلك قالوا يوماً أو بعض يومٍ **قٰالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثْتُمْ** و ذلك لأنّه خلقكم و أنامكم في الكهف ثمّ بعثكم عن رقدتكم فلا جرم هو أعرف بحالكم و مدّة لبثكم فيه.

ثمّ قال بعضهم لبعضٍ، **فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ** قيل المبعوث هو تمليخا و كانوا قد إستصحبوا حين خرجوا فارّين، دراهم لنفقتهم و كانت حاضرة عندهم، فالورق كناية عن الدِّرهم **فَلْيَنْظُرْ أَيُّهٰا أَزْكىٰ طَعٰامًا**

قال قتادة، أزكى، أجلّ و خير، و قيل معناه، أنمى، طعاماً بأنه طاهر حلال لأنّهم أي أهل المدينة كانوا يذبحون للأوثان و هم كفّاراً أرجاس و قيل معناه أيّها أكثر فأنّ الزّكاء و النّماء الزّيادة **فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ** في شراءه و إخفاء أمره **وَ لاٰ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** أي لا يعلمنّ بمكانكم هذا.

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا

و المعنى إن يظهروا، أي هؤلاء الكفّار، عليكم بأن يعلموا بمكانكم، يرجموكم، أي يقتلوكم أويعيدوكم في ملتهم أي يردّوكم في عبادة الأصنام و متى فعلتم ذلك، لن تفلحوا، بعد ذلك أبداً، إذ لا فلاح لمن لا دين له في الدّنيا و الأخرة.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا

الإعثار الإظهار و الإطّلاع و المعنى كذلك، أي كما فعلنا بهم ما مضى ذكره كذلك أظهرنا عليهم و أطلّعنا عليهم ليعلموا، أي ليعلم أصحاب الكهف.

و قيل ليعلم الّذين يكذبون بالبعث، أنّ وعد اللّه حقٌّ، لا مرية فيه، و أنّ السّاعة، و هي القيامة، لا ريب فيها، أي في مجيئها، و قيل التّقدير، ليستدّلوا بما يؤديهم الى العلم بأنّ الوعد في قيام السّاعة حقّ كما قبضت أرواح هؤلاء الفتية تلك المدّة ثمّ بعثوا كأنّهم لم يزالوا أحياء على تلك الصّفة.

قال بعض المفسّرين قوله: **إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ** يجوز أن تكون، إذ، نصباً بيعلموا في وقت منازعتهم و يجوز أن يكون بقوله: **أَعْثَرْنَا** و التّقدير و كذلك أطلعنا إذ وقعت المنازعة في أمرهم و المعنى أنّهم لمّا ظهروا عليهم و عرفوا خبرهم أماتهم اللّه في الكهف فإختلف الّذين ظهروا على أمرهم من أهل مدينتهم من المؤمنين و هم الّذين غلبوا على أمرهم و قيل رؤوساءهم الّذين إستولوا على أمرهم فقال بعضهم إبنوا عليهم مسجداً ليصلّي فيه المؤمنون تبرّكاً بهم.

و قيل أنّ النّزاع كان في أنّ بعضهم قال، قد ماتوا في الكهف وبعضهم قال لا، بل هم نائمون كما كانوا فقال عند ذلك بعضهم أنّ الّذي خلقهم و أنامهم و بعثهم أعلم بحالهم و كيفيّة أمرهم فقال عند ذلك الّذين غلبوا على أمرهم من رؤوساءهم لنتّخذن عليهم مسجداً كما حكى اللّه عنهم بقوله: **رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**

روي أنّهم لمّا جاؤوا الى فم الغار دخل صاحبهم اليهم و أخبرهم بما كانوا عنه غافلين مدّة مقامهم فسألوا اللّه تعالى أن يعيدهم الى حالتهم الأولى فأعادهم اليها و حال بين من قصدهم و بين الوصول اليهم بأن أضلّهم عن الطّريق الى الكهف الّذي كانوا فيه فلم يهتدوا اليهم.

و قيل أنّهم لمّا دخلوا الغار سدّوا على نفوسهم بالحجارة فلم يهتد أحد اليهم لذلك.

و قال بعض المفسّرين مفعول، أعثرنا، محذوف تقديره أعثرنا عليهم أهل مدينتهم والكاف في قوله: **وَ كَذٰلِك** للتشبيه و التّقدير وكما أنمناهم بعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم أهل مدينتهم لما فيه من الحكمة أيضاً و الضّمير في قوله ليعلموا، عائد على مفعول أعثرنا و هو أهل المدينة أي ليعلم أهل المدينة و اليه ذهب الطبري، و قوله: **أَنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ** المراد بالوعد البعث لأنّ حالتهم في نومهم و إنتباههم بعد المدّة المتطاولة كحال من يموت ثمّ يبعث، و قوله: **وَ أَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ** أي لا شكّ و لا إرتياب في قيامها و المجازاة فيها و كان الّذين أعثروا على أهل الكهف من أهل المدينة قد دخلتهم فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور فشكّ في ذلك بعض النّاس و إستبعدوه و قالوا تحشر الأرواح فشقّ على ملكهم و بقي حيران لا يدري كيف يبيّن أمره لهم حتّى لبس المسوح و قعد على الرّماد و تضرّع الى اللّه في حجّةٍ و بيانٍ، فأعثر اللّه على أهل الكهف فلمّا بعثهم اللّه تعالى و تبيَّن النّاس أمرهم سرَّ الملك و رجع من كان شكّ في بعث الأجساد الى اليقين و الى هذا وقعت الإشارة بقوله: **إِذْيَتَنٰازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ** فقوله: **إِذْ** معمُولة لأعثرنا أو ليعلموا، و فى المقام إحتمال آخر و هو أن يعود الضّمير في قوله: **لِيَعْلَمُوٓا** على أصحاب الكهف أي جعل اللّه أمرهم آية لهم دالّة على بعث الأجساد من القبور و على هذا فقوله:: **إِذْيَتَنٰازَعُونَ** إبتداء و خَبر عن القوم

الّذين بعثوا علىٰ عهدهم فالتّنازع إذ ذاك في أمر البناء و المسجد لا في أمر القيامة و قيل التّنازع أنمّا هو في أن إطّلعوا عليهم فقال بعض، هم أموات، و قال بعض هم أحياء.

و قد روي في بعض التّفاسير أنّ الملك و أهل المدينة إنطلقوا مع تمليخا الى الكهف و أبصروهم ثمّ قالت الفتية للملك نستودعك اللّه و نعيذك به من شّر الجنّ و الأنس ثمّ رجعوا الى مضاجعهم و توّفى اللّه أنفسهم و ألقى الملك عليهم ثيابه و أمر فجعل لكلّ واحدٍ تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذّهب فجعلها من السّاج و بنى على باب الكهف.

أقول أمّا قوله: **رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ** يحتمل أن يكون من كلام اللّه تعالى ردّاً لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين أو من الذّين تنازعوا فيه على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم من أهل الكتاب و الّذين غلبوا قال قتادة هم الولاة ثمّ أنّهم إختلفوا في مكان الكهف فقال بعضهم كان في الرّوم و قيل في الشّام و أنّ بالشّام كهفاً فيه موتى و يزعم مجاوروه أنّهم أصحاب الكهف و عليهم مسجد و بناء يسمّىٰ الرّقيم و معهم كلب رقد، و قيل في الأندلس في جهة غرناطة بقرب قريةٍ تسّمى نوشة كهف فيه موتى و معهم كلب رقد و أكثرهم قد إنجرد لحمه و بعضهم متماسك و قد مضت القرون السّالفة و لم نجد من علم شأنهم و يزعم ناس أنّهم أصحاب الكهف.

قال إبن عطيّة دخلت اليهم فرأيتهم منذ أربع و خمس مائة و هم بهذه الحالة و عليهم مسجد و قريب منهم بناء رومي يسمّى الرّقيم كأنّه قصرٌ مخلق قد بقى جدرانه و هو في فلاة من الأرض خربة و بأعلىٰ حضرة قرناطة ممّا يلي القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس وجدنا في آثارها غرائب من قبور و نحوها و أنمّا إستسهلت ذكر هذا مع بعده لأنّه عجب يتخلّد ذكره ما شاء اللّه عزّ وجلّ انتهىٰ.

قال ناقل الحديث عن إبن عطيّة، ما هذا لفظه و حين كنّا بالأندلس كان النّاس يزورون هذا الكهف و يذكرون أنّهم يغلطون في عدّتهم إذا عدّوهم و أنّ معهم كلباً و يرحل النّاس الى لوشة لزيارتهم و أمّا ما ذكرت من مدينة دقيوس الّتي بقبلة غرناطة فقد مررت عليها مراراً لا تحصى و شاهدت فيها حجارة كباراً و يترجّح كون الكهف بالأندلس لكثرة دين النّصارى بها حتّى أنّها هي بلاد مملكتهم العظمى و لأنّ الأخبار بما هو في أقصى مكانٍ من أرض الحجاز أغرب و أبعد أن يعرفه أحد إلاّ بوحيٍ من اللّه تعالى:

سَيَقُولُونَ ثَلٰثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَليلٌ فَلا تُمارِ فيهِمْ إِلَّا مِرآءً ظاهِرًا وَ لا تَسْتَفْتِ فيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا

الضّمير في و سيقولون، عائد على من تقدّم ذكرهم و هم المتنازعون في حديثهم قبل ظهورهم عليهم فأخبر تعالى نبيّه بما كان من إختلاف قومهم في عددهم، و قيل يعود الضّمير على نصارى نجران تناظروا مع رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في عددهم، فقالت الملكانية الجملة الأولى **ثَلٰثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ** و اليعقوبيّة الجملة الثّانية **وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ** و النسطوريّة الجملة الثّالثة **وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ.**

و قال صاحب الكشّاف، أنّ السّيد قال الجملة الأولى وكان يعقُوبياً، و العاقب قال الثّانية و كان النسطوريّه و المسلمون قالوا الثّالثة و أصابوا و عرفوا ذلك بإخبار الرّسول عن جبرئيل عليه السلام فتكون الضّمائر في سيقولون، و يقولون عائداً بعضها على نصارى نجران و بعضها على المؤمنين و قد روت العامّة عن عليّ عليه السلام أنّه قال كانوا سبعة نفر، أسمائهم تمليخا و مشلكبينا و مشلينا هؤلاء أصحاب يمين الملك و كان عن يساره مونوش، و دبرنوش، و شاذنوش، وكان

يستشير هؤلاء السّتّة في أمره و السّابع الرّاعي الّذي وافقهم، هربوا من ملكهم دقيانوس و إسم مدينتهم أفسوس و إسم كلبهم قطمير إنتهى.

و قال إبن عطيّة، الضّمير في قوله: **سَيَقُولُونَ** راجع الى أهل التّوراة من معاصري محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك أنّهم إختلفوا في عدد أصحاب الكهف هذا الإختلاف المنصوص إنتهى.

و إنّما جاء بسين الإستقبال لأنّ في الكلام طيّ وإدماج و التّقدير فإذا أجبتهم عن سؤالهم و قصصت عليهم قصّة أصحاب الكهف فسلهم عن عددهم فأنّهم إذا سألتهم سيقولون كذا وكذا و فى قوله: **رَجْمًا بِالْغَيْبِ** إشارة الى أنهّم سيقولون كذا وكذا رمياً بالشّيء المغيب عنهم أو ظنّاً أستعير من الرَّجم كأنّ الإنسان يرمي الموضع المجهول عنده بظنّه المرَّة بعد المرَّة يرجم به عسى أن يصيب و منه التَّرجمان و ترجمة الكتاب قال زهير:

وما الحرب إلاّ ما علمتم و ذقتم   و ما هو عنها بالحديث المرجّم

أي المظنون و المقصود من هذه الكلمة أنّهم لم يقولوا ذلك عن علم فأنّ التَّرديد في المقال دليل على الجهل بالواقع و أنتصب رجماً، على أنّه مصدر لفعلٍ مضمر أي يرجمون رجماً بذلك و قوله: **ثَلٰثَةٌ** خبر مبتدأ محذوف و الجملة بعده صفة و التَّقدير هم ثلاثة أشخاصٍ و إنّما قدَّرنا أشخاصاً لأنّ، رابعهم، إسم فاعل أضيف الى الضّمير و المعنى أنّه ربعهم أي جعلهم أربعة و صيَّرهم الى هذا العدد فلو قدّر ثلاثة رجالٍ إستحال أن يصير ثلاثة رجالٍ أربعة لإختلافِ الجنسين **والواو** في وثامنهم للعطف على الجملة السّابقة أى يقولون هم سبعة و ثامنهم كلبهم فأخبروا أوّلاً بسبعة رجالٍ جزماً ثمّ أخبروا ثانياً أنّ ثامنهم كلبهم بخلاف القولين السّابقين فأنّ كّلاً منهما جملة واحدة وصف المحدّث عنه بصفةٍ ولم يعطف الجملة عليه.

و نقل عن أبي بكر بن عياش أنّه قال أنّ قريشاً إذا تحدّثت تقول ستّة سبعة و ثمانية تسعة فتدخل **الواو** في الثّمانية و كونهما جملتين معطوف إحداهما على

الأخرى موذنٌ بالتَّثبيت في الأخبار بخلاف ما تقدّم فأنّهم أخبروا بشيءٍ موصوف بشيءٍ لم يتأخّر عن الأخبار و لذلك جاء فيه، رجماً بالغيب و لم يجيءْ في هاتين الجملتين بشيءٍ يقدح فيهما و قوله: **مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ** بعد قوله: **قُلْ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ** يشير به الى عدم علم أكثر النّاس بعدّتهم و إنّما العلم بعدتهم مختصّ باللّه تعالى و من علّمه اللّه بتوسّط الوحي و يدخل في القليل من أخذ علمه من اللّه و رسله.

و الحاصل أنّ القضيّة من العجائب التّي لا يمكن الوقوف عليها و على أمثالها إلاّ من طريق الوحي و لذلك قال تعالى لنبيّه و المراد أمّته.

فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَ لَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا أي لا تجادلهم إلاّ بحجّةٍ و دلالةٍ بيّنةٍ و إخبارٍ من اللّه و هو المراء الظّاهر.

و قال بعضهم معناه حسبك ما قصصنا عليك و لا تستفت فيهم، يعني في أهل الكهف و في مقدار عددهم (منهم)، أي من أهل الكتاب أحداً عن قصّتهم لا سؤال متعنت لأنّه خلاف ما أمرت به من الجدال إلاّ بالتّي هي أحسن و لا سؤال مسترشدٍ لأنّه تعالى قد أرشدك بأن أوحى اليك قصّتهم ثمّ نهاه أن يخبر بأنّه يفعل في الزّمن المستقبل شيئاً إلاّ و يقرن ذلك بمشيّئة اللّه تعالى و قد تقدّم في سبب النّزول أنّه حين سأله قريش عن أهل الكهف و الرُّوح قال غداً أخبركم و لم يقل إن شاء اللّه فتأخّر عنه الوحي مدّة قيل خمسة عشر يوماً و قيل أربعين و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَ ٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا

قال صاحب الكشّاف قوله إلاّ أن يشاء اللّه متعلّق بالنّهي أي و لا تقولنَّ إلاّ أن يشاء اللّه لا بقوله إنّي فاعلٌ لأنّه لو قال إنّي فاعل كذا إلاّ أن يشاء اللّه كانَ معناه إلاّ أن تعترض مشيئة اللّه دون فعله و ذلك ما لا مدخل فيه للنّهي، و تعلّقه بالنّهي من وجهين:

أحدهما: و لا تقولنَّ ذلك القول إلاّ أنّ يشاء اللّه أن تقوله بأنّ ذلك فيه.

الثّاني: و لا تقولنّه إلاّ بأن يشاء اللّه أي إلاّ بمشيئته و هو في موضع الحال أي إلاّ ملتبساً بمشيئة اللّه قائلاً إن شاء اللّه و السرّ فيه هو أنّ ما شاء اللّه كان و ما لم يشاء لم يكن و لا يكون فأنّ أزمّة الأمور بيده تعالى و الكلّ مستمدّةٌ من مدده و العبد لا يقدر على شيءٍ من عند نفسه و ليس هذا من الجبر بشيءٍ لأنّ إجبار العبد على الفعل شيءٌ و إفاضته التّوفيق منه تعالى شيءٌ أخر.

و أمّا قوله: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ** فقيل معناه اذا نسيت أن تقول إن شاء اللّه ثمّ ذكرت فقل إن شاء اللّه و قيل معناه أنّ له أن يستثنى ولو الى سنة و قيل و له أن يستثنى بعد الحنث إلاّ أنّه لا تسقط عنه الكفّارة في اليمين إلاّ أن يكون الإستثناء موصولاً بالإجماع و قال قومٌ معناه و أذكر ربّك إذا نسيت أمراً ثمّ تذكّرته فأن لم تذكّره فقل عسى أن يهدين ربّي لأقرب من هذا رشداً.

و قال بعضهم عسى أن يعطيني ربّي من أرشد ما هو أولى من قصّة أصحاب الكهف و قد فعل اللّه ذلك حيث أخبر نبيّه من قصص الأنبياء و الأخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك.

أقول يستفاد من قصّة أصحاب الكهف أمور لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

أحدها: أنّهم أظهروا الكفر و أسرُّوا الايمان و فيه دلالة على أنّ التقيّة أمرٌ ممدوحٌ ينبغي للمؤمن أن يراعيها في موردها فعن أصول الكافي.

بأسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسرُّوا الإيمان و أظهروا الشِّرك فأتاهم اللّه أجرهم مرَّتين.

و بأسناده عن الواسطي قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام ما بلغت تقيّة أحدٍ تقيّة أصحاب الكهف اذ كانوا يشهدون الأعياد و يشدُّون الزّنانير فأعطاهم اللّه أجرهم مرَّتين.

و في تفسير العيّاشي عن عبيد اللّه بن يحيىٰ عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه ذكر أصحاب الكهف فقال لو كلّفكم قومكم ما كلّفهم قومهم، فقيل له عليه السلام وما كلّفهم قومهم فقال عليه السلام كلّفوهم الشّرك باللّه العظيم فأظهروا لهم الشّرك و أسرّوا الإيمان حتّى جاءهم الفرج.

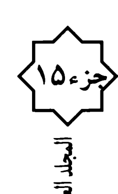
و عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّ أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان و أظهروا الكفر فأجرهم اللّه.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا من أياتنا عجباً، قال عليه السلام: هم قومٌ فرّوا وكتب ملك ذلك الزّمان بأسماءهم و أسماء أباءهم و عشائرهم في صحفٍ من رصاصٍ فهو قوله أصحاب الكهف و الرَّقيم.

و عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: خرج أصحاب الكهف على غير معرفةٍ و لا ميعاد فلمّا صاروا في الصّحراء و أخذ بعضهم على بعضٍ العهود و المواثيق يأخذ هذا على هذا و هذا على هذا ثمّ قالوا أظهروا أمركم فأظهروه فاذا هم على أمرٍ واحدٍ.

و عن سليمان بن جعفر قال: قال جعفر بن محمّد عليه السلام يا سليمان من الفتى قال قلت جعلت فداك الفتى عندنا الشابّ قال قال لي أما علمت أنّ أصحاب الكهف كانوا كلّهم كهولاً فسمّاهم اللّه فتية بإيمانهم يا سليمان من أمن باللّه و إتّقى هو الفتى.

و في روضة الكافي بأسناده قال: أبو عبد اللّه لرجلٍ ما الفتى عندكم فقال له الشّاب فقال عليه السلام لا، الفتى المؤمن أنّ أصحاب الكهف كانوا شيوخاً فسمَّاهم اللّه عزّ وجلّ فتية بإيمانهم.و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين[١].



١-ج ٣ ص ٢٤٣ الىٰ ص ٢۴۴

الأمر الثّانی: أنّ المؤمن اذا توَّكل على اللّه خالصاً مخلصاً كفاه اللّه و الى هذا المعنى أشار في كتابه حيث قال: **وَ مَنْ يَتَوَّكلّ عَلىَ اللّه فَهُوَ حَسْبُهُ**.

الثّالث: أنّ الإنزواء و الإعتزال عن الخلق اذا كان لحفظ الإيمان مرغوب في كلّ عصرٍ و زمانٍ كما أنّ أصحاب الكهف أووا اليه لذلك.

الرّابع: أنّ البعث أمرٌ معقول لا امتناع فيه كما أنّ اللّه تعالى بعث أصحاب الكهف و لا فرق فيه بين الموت و النّوم و هو واضح لا خفاء فيه.

■

وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ٱزْدٰادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثُوا لَـهُ غَـيْبُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَ ٱتْلُ مٰآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتٰابِ رَبِّكَ لٰا مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَ ٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَ ٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لٰا تَعْدُ عَيْنٰاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَ لٰا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا وَ ٱتَّبَعَ هَوٰيهُ وَكٰانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَ قُلِ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شٰآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شٰآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنّٰآ أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِينَ نٰارًا أَحٰاطَ بِهِمْ سُرٰادِقُهٰا وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغٰاثُوا بِمٰآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرٰابُ وَسٰآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ إِنّٰا لٰا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ جَنّٰاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهٰارُ يُحَلَّوْنَ فِيهٰا مِنْ أَسٰاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِيٰابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى ٱلْأَرٰآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوٰابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنٰا لِأَحَدِهِمٰا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ حَفَفْنٰاهُمٰا

بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعًا ﴿۳۲﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ اٰتَتْ أُكُلَهٰا وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَ فَجَّرْنٰا خِلٰالَهُمٰا نَهَرًا ﴿۳۳﴾ وَ كٰانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقٰالَ لِصٰاحِبِهِ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُۥٓ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مٰالًا وَ أَعَزُّ نَفَرًا ﴿۳۴﴾ وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ قٰالَ مٰآ أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿۳۵﴾ وَ مٰآ أَظُنُّ ٱلسّٰاعَةَ قٰآئِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلٰى رَبّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهٰا مُنْقَلَبًا ﴿۳۶﴾ قٰالَ لَهُ صٰاحِبُهُ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّٰيكَ رَجُلًا ﴿۳۷﴾ لٰكِنَّا هُوَ ٱللّٰهُ رَبّى وَ لٰآ أُشْرِكُ بِرَبّى أَحَدًا ﴿۳۸﴾ وَ لَوْلٰآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مٰا شٰآءَ ٱللّٰهُ لٰا قُوَّةَ إِلّٰا بِاللّٰهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مٰالًا وَ وَلَدًا ﴿۳۹﴾ فَعَسٰى رَبّىٓ أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْهٰا حُسْبٰانًا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿۴۰﴾ أَوْ يُصْبِحَ مٰآؤُهٰا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿۴۱﴾ وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلٰى مٰآ أَنْفَقَ فِيهٰا وَ هِىَ خٰاوِيَةٌ عَلٰى عُرُوشِهٰا وَ يَقُولُ يٰا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّىٓ أَحَدًا ﴿۴۲﴾ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ مُنْتَصِرًا ﴿۴۳﴾ هُنٰالِكَ ٱلْوَلٰايَةُ لِلّٰهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوٰابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا ﴿۴۴﴾

◀ اللّغة

مُلْتَحَدًا: أي ملتجأ و قال مجاهد ملجأ و قيل موئلاً يقال لحدت الى كذا أي ملت اليه و منه اللّحد لأنّه في ناحية القبر و منه الإلحاد في الدّين.

فُرُطًا: أي خروجاً عن الحقّ يقال أفرط اذا أسرف.

سُرادِقُها: أي دخانها و قيل السُّرادق ثوب يدار حول الفسطاط و قيل أنّه حائط من نارٍ يطيف بهم.

يَسْتَغِيثُوا: الإستغاثة طلب النّجاة.

كَالْمُهْلِ: المهل بضمّ الميم كلّ شئٍ أذيب حتّى ماع كالصُّفر و الرّصاص و الذّهب و الحديد و قيل هو القيح و الدَّم، و قيل هو دردي الزّيت.

يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ: أي يحرقها.

تَبِيدَ: أي تهلك و الباقي واضح.

◀ الإعراب

ثَلٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ يقرأ بتنوين، مائة و سنين على هذا بدلٌ من ثلاث و أجاز قوم أن تكون بدلاً من، مائة، لأنّ مائة في معنى مآت و يقرأ بالإضافة و هو ضعيف لأنّ مائة تضاف الى المفرد و الأصل إضافة العدد الى الجمع تِسْعًا مفعول إزدادوا و زاد متعدٍّ الى أثنين فإذا بني على إفتعلٍ تعدّى الى واحدٍ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ موضعهما رفع لأنّ التّقدير أبصر اللّه والباء زائدة

و قَلْبَهُ بالنّصب أي أغفلناه عقوبةً له أو وجدناه غافلاً يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ يجوز أن يكون نعتاً لِما، و أن يكون حالاً من المهل و أن يكون حالاً من الضّمير في الكاف في الجار إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا في خبر إنّ ثلاثة أوجه:

أحدها: أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنّٰتُ عَدْنٍ و ما بينهما معترض مسدّد.

الثّانى: تقديره لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا منهم فحذف العائد للعلم به.



الثّالث: أنّ قوله: **مَنْ أَحْسَنَ** عامّ فيدخل فيه الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات و يغني ذلك عن ضمير كما أغنى عن دخول زيد تحت الرّجل في باب، نعم، عن ضميرٍ يعود اليه.

مِنْ أَسٰاوِرَ من لبيان الجنس أو للتّبعيض و هكذا في قوله **مِنْ ذَهَبٍ مُتَّكِئِينَ**، حال من الضّمير في تحتهم أو من الضّمير في يحلّون أو يلبسون و السُّندُس جمع سندسة و إستبرق جمع إستبرقة و قيل هما جنسان **كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ** مبتدأ و أتت، خبره و أفرد الضّمير حملاً على لفظ كلتا **فَجَّرْنٰا** بالتّخفيف و التّشديد و **خِلاٰلَهُمٰا** ظرف **وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ** أنّما أفرد ولم يقل جنّتيه لأنّهما جميعاً ملكه فصارا كالشّئ الواحد و قيل إكتفاءً بالواحدة عن الثّنتين كما يكتفي بالواحد عن الجمع.

◄ التّفسير

وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ٱزْدٰادُوا تِسْعًا

أخبر اللّه في هذه الآية عن مدّة مكثهم في الكهف و هى ثلاث مائة سنين، قرأ حمزة و الكسائي ثلاث مائة سنين، مضافاً و قرأ الباقون بالتّنوين، فمن وضع سنين موضع سنة فهو في موضع خفضٍ على قراءة من أضاف و من لم يضع فعلى القطع منها.

قال مجاهد هذه الآية بيان لقوله فضربنا على أذانهم في الكهف سنين عدداً و لمّا تحرَّر هذا العدد بأخبارٍ من اللّه تعالى أمر نبيّه أن يقول.

قُلِ ٱللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ

فخبره هذا هو الحقّ و الصّدق الذّي لا يدخله ريبٌ لأنّه تعالى عالم غيب السّموات و الأرض لأنّه خالقهما و موجدهما و الخالق أعرف بحال مخلوقه.

قال بعض المحقّقين الغيب يكون للشّئ بحيث لا يقع عليه الإدراك و لا

يغيب عن اللّه لأنّه لا يكون بحيث لا يدركه و قيل معنى عالم الغيب و الشّهادة، أنّه عالم بما يغيب عن إحساس العباد و ما يشهادونه.

و قيل ما يصحّ أن يشاهد و ما لا يصحّ أن يشاهد و أنّما قلنا ذلك لأنّ المعلول بجميع مراتبه حاضر عند العلّة لأنّه رشحٌ من رشحات العلّة و فيضٌ من إفاضته فكيف يعقل أن يكون غائباً عن موجده و علّته فالأشياء ظاهرها و غائبها حاضرة لديه فالتّعبير بالغيب بالنّسبة الينا لا اليه تعالى.

و قوله: **أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ** قيل معناه ما أبصره و ما أسمعه بأنّه لا يخفى عليه شئ فخرج الكلام مخرج التعجّب على وجه التّعظيم له تعالى.

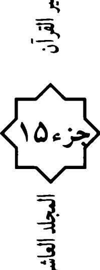
أقول ما ذكره القائل لا بأس به إلاّ أنّه يصحّ بناءً على أنّ قوله أبصر به و أسمع و أن كان بصيغة الأمر ظاهراً و لكن معناهما إنشاء التَّعجب و إثبات ذلك مشكل جدّاً اذ لا دليل عليه.

قال الزّمخشري و جاء بما دلَّ على التعجُّب من إدراكه المسموعات و المبصرات للدّلالة على أنّ أمره في الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السّامعين و المبصرين لأنّه يدرك الأشياء ألطفها و أصغرها كما يدرك أكبرها حجماً و أكثفها جرماً و يدرك البواطن كما يدرك الظّواهر انتهى.

و لقائلٍ أن يقول أين اللّفظ الذّي دلَّ على التعجّب في كلامه و من أين علمت أنّ كلامه هذا دلَّ على التعجُّب و أعجب منه أنّه تبعه غير واحدٍ من المفسّرين على هذا التّأويل.

قال الرّازي ثمّ قال تعالى أبصر و أسمع، و هذه كلمة تذكر في التعجُّب و المعنى ما أسمعه و ما أبصره و قد بالغنا في تفسير كلمة التعجُّب في سورة البقرة في تفسير قوله: **فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ** انتهى كلامه.

أقول مقام البحث لا يقاس بقوله: **فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ** و ذلك لأنّ كلمة، ما، هناك للتعجُّب و ليس المقام كذلك و محصّل الكلام هو أنّا لا ننكر التعجُّب



في الكلام فأنّه شائع في كلام العرب و أنّما ننكر دخول مورد البحث فيه ولو كان الأمر كما ذكروه لقال تعالى ما أبصر و ما أسمع، و لكنّه لم يقل ذلك بل قال أبصر به و أسمع بصيغة الأمر و من المعلوم أنّ صرف الكلام عن ظاهره يحتاج الى دليلٍ و اذ ليس فليس و الأصل في ذلك هو الطبري و جميع المفسّرين من العامّة و الخاصّة بعده أخذوه منه.

قال الطّبري و قوله: **أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ** يقول أبصر باللّه و أسمع و ذلك بمعنى المبالغة في المدح كأنّه قيل ما أبصره و أسمعه و تأويل الكلام ما أبصر اللّه لكلّ موجودٍ و أسمعه لكلّ مسموعٍ لا يخفى عليه من ذلك شئ انتهى كلامه.

ثمّ ذكر لتأييد كلامه عن قتادة ما هذا لفظه:

حدَّثنا يزيد قال حدَّثنا سعيد عن قتادة، أبصر به و أسمع فلا أحد أبصر من اللّه و لا أسمع تبارك و تعالى هذا ما ذكره في تفسير الكلام وليت شعري بأيّ دليلٍ تمّسكوا في صرف الكلام عن ظاهره مع أنّه لا دليل لهم إلاّ قول قتادة و أمثالهما و ليس في الكلام ما يدلّ على التعجُّب أصلاً.

نعم لو قلنا أنّ، أبصر و أسمع، أمران لفظاً لكن معناهما إنشاء التعجُّب كما ذهب اليه بعض النحويّين فتمّ ما ذكره المفسّرون من إفادة الكلام التعجُّب بنفسه و أمّا اذا قلنا هما أمران حقيقةً لفظاً و معنىً كما هو مذهب كثير من النّحويّين و ليس معناهما إنشاء التعجُّب فعلى هذا على المدّعي إثبات معنى التعجُّب من لفظ أخر أو قرنية دالّة عليه و كلاهما مفقودان في المقام.

و حاصل الكلام أنّ ما ذكروه من معنى التعجُّب أنّما يتمّ على مذهب من قال أنّ اللّفظين موضوعان للتعجُّب معنىً و كيف كان فالمشهور عند المفسّرين في معناهما التعجُّب أي ما أبصره و أسمعه و أمّا عندي فلم يثبت كونهما للتعجُّب بل هما أمران حقيقةً لفظاً و معنىً و على هذا فلا يبعد أن يكون

المعنى أبصر النّاس يا محمّد به أي بما ذكرناه من قصّة أصحاب الكهف و أسمعهم كيفيّة ذلك ليعتبروا بها و بعبارةٍ أخرى أجعلهم على بصيرة في هذه القصّة و أذكرها لهم فأنّ فيها عبرة لمن إعتبر و عظةٌ لمن إتّعظ و اللّه أعلم بما أراد من كلامه.

و قوله: **مٰا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ** أي ليس للخلق أو لأصحاب الكهف وليّ و ناصرٌ من دون اللّه **وَ لاٰ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** أي أنّ اللّه تعالى لا يجعل لنفسه شريكاً بما يخبر به من الغيب أحداً، فلا يعلم الغيب إلاّ هو الحيّ القيّوم.

وَ اتْلُ مٰا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتٰابِ رَبِّكَ لاٰ مُبَدِّلَ لِكَلِمٰاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا

والمعنى و أتل يامحمّد و أقرأ على النّاس ما أوحي من ربّك اليك من كتابه من أخبار أصحاب الكهف وغيرهم من القصص لا مبدّل لكلماته أي لا مغيّر لما أخبر اللّه تعالى به لأنّه صادق في قوله فلا يجوز أن يكون بخلافه ولن تجد، يامحمّد، من دونه، أي من دون ما أخبر اللّه به في كتابه ملتحداً أي ملتجأً تهرب اليه.

و قال مجاهد معناه لن تجد من دون اللّه ملجأ هذا تمام الكلام في قصّة أصحاب الكهف و فيها من الدّلالة على قدرة اللّه و نصرته لمن آمن به و توكّل عليه و لزوم حفظ الإيمان بأيّ نحوٍ كان ما لا يخفى على النّاقد البصير ثمّ بعد ذلك أمر نبيّه بأمور ينبغي أن يكون الرّسول متّصفاً بها في إرشاده الخلق و هدايتهم الى الحقّ فقال.

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لاٰ تَعْدُ عَيْنٰاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا وَ لاٰ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا وَ اتَّبَعَ هَوٰيهُ وَ كٰانَ أَمْرُهُ فُرُطًا

قيل في نزولها أنّ كفّار قريش قالوا لرسول اللّه ﷺ لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك و صحبناك يعنون عمّاراً و صهيباً و سلمان و إبن مسعود و بلالاً و نحوهم من الفقراء و قالوا إنّ ريح حبابهم تؤذينا فنزلت الآية فهي على هذا مدنيّة و المشهور أنّها مكيّة و فعل المؤلّفة فعل قريش فردّ بالآية عليهم و كيف كان أمر نبيّه أن يصبر مع هؤلاء المؤمنين الّذين كانوا يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون بذلك وجهه أي وجه اللّه و هو إشارة الى خلوصهم في عبادتهم و الصَّبر على ثلاثة أقسام:

صبرٌ واجب مفروض و هو ما كان على أداء الواجبات.

و صبرٌ مندوب فأنّ الصَّبر عليه مندوب اليه.

و صبرٌ على المباح و هو الصّبر على المباحات الّتي ليست بطاعة اللّه و الصَّبر هو حبس النّفس و ثبتها قال الشّاعر:

فصبرت عارفة لذلك حرّة ترسو اذا نفس الجبان تطلع

قال مجاهد و غيره أنّ قوله: **بِالْغَدٰوةِ وَ ٱلْعَشِيِّ** إشارة الى الصّلوات الخمس.

و قال قتادة الى صلاة الفجر و صلاة العصر و قد يقال أنّ ذلك يراد به العموم أي يدعون ربّهم دائماً فهو من قبيل قولهم ضرب زيد الظّهر و البطن يريد جميع بدنه لا خصوص المدلول بالوضع و أنّما أمر نبيّه بالصَّبر مع هؤلاء الفقراء لأنّ اللّه تعالى جعل ملاك الفضيلة التّقوى في قوله: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقٰيكُمْ**[1] فليس للفقر و الغناء مدخل فيها.

و في تفسير عليّ بن إبراهيم في هذه الآية قال فهذه نزلت في سلمان الفارسي رضي الله عنه كان عليه كساء يكون فيه طعامه و هو دثاره و رداءه و كان كساء من صوف فدخل عيينة بن حصين على النّبي ﷺ و

۱- الحجرات = ۱۳

سلمان عنده فتأذّى عيينة بريح كساء سلمان و قد كان عرق فيه و كان يوماً شديد الحرّ فعرق في الكساء فقال يارسول اللّه اذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا و أصرفه من عندك فاذا نحن خرجنا فأدخل من شئت فأنزل اللّه الآية.

و في حديث أخر أنّ المؤلّفة قلوبهم جاءوا الى رسول اللّه فقالوا يارسول اللّه إن جلست في صدر المجلس نحيّت عنّا هؤلاء و روائح صنانهم و كانت عليهم جبّات الصّوف جلسنا نحن اليك و أخذنا عنك فلا يمنعنا من الدُّخول اليك إلاّ هؤلاء فلمّا نزلت الآية قام النّبي يلتمسهم فأصابهم في مؤخّر المسجد يذكرون اللّه عزّ وجلّ فقال صلى الله عليه وآله وسلم الحمد للّه الّذي لم يمتني حتّى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمّتي معكم المحيى و معكم الممات.

و في تفسير العيّاشي عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله: وَ ٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَ ٱلْعَشِيِّ قال عليه السلام أنّما عني بها الصّلاة.

و قوله: وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا معناه لا تتجاوز عيناك عن هؤلاء الفقراء الى غيرهم من الأغنياء.

قال صاحب الكشّاف قوله: تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا في موضع الحال.

أقول فعلى هذا يكون النّهي مقيّداً بزينة الحياة الدُّنيا و أمّا اذا كان النَّظر الىٰ الأغنياء من جهة إيمانهم فلا إشكال فيه فالمعنى لا تتجاوز عيناك عن الفقراء الى الأغنياء و الحال أنّك تريد زينة الحياة الدُّنيا و أمّا اذا أردت بذلك رضى اللّه و الآخرة فلا بأس به و هو كذلك لأنّه اذا ثبت الإيمان فلا فرقٍ بين الفقير و الغني.

وَ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ ٱتَّبَعَ هَوَيٰهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا

ذكروا في معنى الكلام وجوهاً:

منها، لا تطع من صادفناه غافلاً عن ذكرنا كقولهم أحمدت فلاناً أي صادفته محموداً فهو من باب صادفناه على صفةٍ.

و منها، لا تطع من سمّيناه غافلاً و نسبناه الى الغفلة كقولهم أكفرته أي نسبناه الى الكفر.

و منها، ما ذكره الزّمخشري قال لا تطع من أغفلنا قلبه أي من جعلنا قلبه غافلاً عن الذّكر بالخذلان أو وجدناه غافلاً عنه كقولك أجنبته و أفحمته و أبحلته اذا وجدته كذلك أو من أغفل إبله اذا تركها بغير سمة أي لم نسمّه بالذّكر و لم نجعلهم من الّذين كتبنا في قلوبهم الإيمان و قد أبطل اللّه توهّم المجبّرة بقوله و إتّبع هواه.

و منها، ما ذكره الرّماني قال لم نسمّه بما نسمّ به قلوب المؤمنين بما يبين به فلاحهم كما قال كتب في قلوبهم الإيمان.

و منها، ما ذكره أهل السنّة و الجماعة و هم على مذهب الأشعري فقالوا أنّ اللّه تعالى أغفله حقيقة و هو خالق الضّلال فيه و الغفلة.

و منها، ما ذكره المفضّل قال أي أخليناه عن الذّكر و هو القرأن.

و قال إبن جريح شغلنا قلبه بالكفر و غلبة الشّقاوة و قد أطال الكلام الرّازي في هذا المقام في النّقض و الإبرام في إثبات مذهب الأشاعرة القائلين بالجبر من أهل السنّة و نحن أعرضنا عن نقل ما ذكره مخافة الإطناب و قلّة الفائدة.

و حاصله أنّ العبد لا يقدر على إيجاد الغفلة في نفسه فوجب أن يكون خالق الغفلات و موجدها في العباد هو اللّه.

ثمّ قال و هذه نكتةٌ قاطعة في القلوب في إثبات هذا المطلوب و عند هذا يظهر أنّ المراد بقوله: **وَ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ** هو إيجاد الغفلة لا وجدانها

هــذا مــلخّص الكـلام و إذا أردت الوقـوف عـلى تـفصيل كـلامه و مـواضـع إستدلالاته فعليك بكتابه.

أقول الحقّ أنّ جميع الأقوال في المقام لا يرجع الى محصّلٍ يعتمد عليه.

و أمّا ما ذكره الرّازي فكأنّه لم يفرق بين شرحه عـلى الإشـارات و تـفسيره لكلام اللّه فكما قال هناك ما شاء و أراد و تخيّل كذلك قال في تفسير الآيات ما إنتهى اليه فكره الباطل و زعمه الكـاسد ولم يـعلم أنّ مـن فسَّـر القـرأن بـرأيـه فليتبوّأ مقعده من النّار، أليس حمل كلام اللّه على مسـلك الجبر مـن التّـفسير بالرّأي، أليس قوله فوجب أن يكون خالق الغفلات و موجدها بإيجاد التّكوين في العباد هو صريح الجبر، و ما ذنب العبد الذّي خلقه اللّه لمعرفته و تـوحيده أن يوجد في قلبه الغفلة حتّى لا يقدر فـي الدّنـيا عـلى مـعرفة اللّـه أليس هـذا منافياً لفلسفة الخلقة في قوله: **وَ مٰا خَـلَقْتُ اَلْـجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِـيَعْبُدُونِ**[١] أي ليعرفون.

و من المعلوم أنّ إيـجاد الغـفلة فـي قـلب العـبد مـعناه سـلب القـدرة عـن المعرفة و من سلب القدرة عليها فقد ظلم عليه و الذّي نقول في حلّ الإشكال هو أنّ الغفلة مسببٌ عن قطع التّوفيق و إيكال العبد الى نفسه و توضيح الكلام بحسب إقتضاء المقام هو أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان لأجـل المـعرفة كـما فـي الآية ثمّ بعث الأنبياء واحداً بعد واحدٍ للإرشاد و هداية الخلق إتماماً للـحجّة و أعطى الإنسان العقل لتشخيص الحقّ من الباطل و المعجزة من السِّحر كما قال: **لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْـزَلْنٰا مَـعَهُمُ اَلْكِـتٰابَ وَ اَلْـمِيزٰانَ لِـيَقُومَ اَلـنّٰاسُ بِالْقِسْطِ**[٢].

فأمن منهم من أمن و كفر منهم من كفر ومن المعلوم أنّ من كفر منهم أنّـما كفر لعناده و لجاجه و إلاّ فالحقّ كان واضحاً على العاقل و من كان كلذلك فلا

١- الذاريات = ٥٦
٢- الحَديد = ٢٥

جرم سلب عن نفسه الإهتداء بسوء إختياره و قبح سريرته الّذي نشأ من لجاجه و عناده و معصيته فأوكله اللّه الى نفسه و قال لنبيّه ذرهم في خوضهم يلعبون، و الإيكال الى النّفس سببٌ للغفلة عن ذكر الرَّب لأنّ الشّيطان يدخل من هذا المنفذ و من سلَّط عليه الشّيطان فإتَّبع هواه وكان أمره فرطاً، ففي الآية ذكر المسَّبب و اراد السبب اى ذكر الغفلة و اريد بها الايكال الى النفس و ما ربّک بظلّام للعبيد.هذا مافهمناه من الايه و اللّه اعلم بما اراد منه.

و أمّا قوله: **وَ ٱتَّبَعَ هَوَيٰهُ** فأنّه من لوازم الغفلة عن ذكر اللّه و ذلك لأنّ خلوّ القلب عن ذكر اللّه لا ينفكّ عن متابعته الهوى بل هو هي من وجهٍ و السرّ فيه أنّ ذكر اللّه حقّ و متابعة الهوى باطل و الحقّ و الباطل لا يجتمعان فوجود أحدهما فيه ينفي الأخر و القلب لا يخلو منهما لأنّ النَّقيضين كما لا يجتمعان لا يرتفعان أيضاً فاذا كان القلب خالياً عن ذكر الحقّ لا محالة يتبع الباطل لما ذكرناه من إستحالة إرتفاعهما و لا نعني بالباطل إلاّ متابعة الهوى و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** فالفرط بضّم الفاء والرّاء الأمر المتروك المجاوز فيه الحدّ، الإسراف، الظُّلم، و الإعتداء و المعنى من أغفلنا قلبه و إتَّبع هواه و كان أمره فرطاً أي إسرافاً و ظلماً و أنّما قال ذلك لأنّ الغافل التّابع للهوى خارج عن حدّ الإعتدال و ظالمٌ على نفسه و هو ظاهر.

قال بعض المفسّرين و تحقيق القول أنّ ذكر اللّه نور و ذكر غيره ظلمة لأنّ الوجود طبيعة النُّور و العدم منبع الظُّلمة و الحقّ تعالى واجب الوجود لذاته فكان النُّور الحقّ هو اللّه و ما سوى اللّه فهو ممكن الوجود لذاته و الإمكان طبيعة عدمية فكان منبع الظُّلمة فالقلب اذا أشرق فيه ذكر اللّه فقد حصل فيه النُّور و الضَّوء و الإشراق و اذا توجّه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظُّلم و الظُّلمة بل الظُّلمات فلهذا السَّبب اذا أعرض القلب عن الحقّ و أقبل على

الخلق فهو الظُّلمة الخالصة التامّة فالإعراض عن الحقّ هو المراد بقوله: **أَغْفَلْنٰا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنٰا** و الإقبال على الخلق هو المراد بقوله: **وَ اتَّبَعَ هَوٰيهُ** و قوله: **وَ كٰانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** معناه أنّ الأمر الّذي يلزمه الحفظ له و الإهتمام به و هو أمر دينه يكون مخصوصاً بإيقاع التّفريط و التّقصير فيه و هذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه و أنّما عمله لدنياه فبيَّن اللّه تعالى من حال الغافلين عن ذكر اللّه التّابعين لهواهم أنّهم مقصّرون في مهمّاتهم معرضون عمّا وجب عليهم من التدبّر في الآيات و التحفّظ بمهمّات الدُّنيا و الآخرة.

روى أبو سعيد الخدري قال: كنت جالساً في عصابة من ضعفاء المهاجرين و أنّ بعضهم ليستر بعضاً من العري و قاريءٌ يقرأ من القرأن فجاء رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم فقال ماذا كنتم تصنعون قلنا يارسول اللّه كان واحد يقرأ من كتاب اللّه و نحن نسمع فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم الحمد للّه الذّي جعل من أمّتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم ثمّ جلس وسطنا و قال أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنُّور التّام يوم القيامة تدخلون الجنَّة قبل الأغنياء بمقدار خمسين ألف سنة ما ذكره.

وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شٰاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شٰاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِينَ نٰارًا أَحٰاطَ بِهِمْ سُرٰادِقُهٰا وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغٰاثُوا بِمٰاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرٰابُ وَ سٰاءَتْ مُرْتَفَقًا

أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم أنّ الّذي آتيكم به هو الحقّ من ربّكم الّذي خلقكم أي ما قلت لكم إلاّ ما أمرني اللّه به، فمن شاء منكم فليؤمن بما قلت لم و من شاء فليكفر به، و هذا الكلام صريح في الإختيار و أنّه لا إكراه في الدّين فالأمر في الإيمان و الكفر و الطّاعة و المعصية مفوَّضٌ الى العبد و إختياره فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرأن وبه قالت المعتزلة.

قال الرّازي في المقام ولقد سألني بعضهم عن هذه الآية فقلت هذه الآية من أقوى الدّلائل على صحّة قولنا و ذلك لأنّ حصول الإيمان و حصول الكفر فيها موقوف على حصول مشيئة الإيمان و حصول مشيئة الكفر و الفعل الإختياري يمتنع حصوله بدون القصد اليه و بدون الإختيار له و حصول ذلك القصد و الإختيار أن كان بقصدٍ أخر يتقدّمه لزم أن يكون كلّ قصدٍ و إختيارٍ مسبوقاً بقصدٍ أخر الى غير النّهاية فوجب إنتهاء تلك القصود و الإختيارات الى قصدٍ و إختيارٍ يخلقه اللّه في العبد على سبيل الضّرورة فالإنسان شاء أو لم يشاء إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة لم يترتّب الفعل و اذا حصلت يجب ترتّب الفعل عليه فلا حصول المشيئة مترتّبٌ على حصول الفعل و لا حصول الفعل مترتب على حصول المشيئة فالإنسان مضطرّ في صورة المختار.

ثمّ نقل تأييداً لما ذكره عن الغزالي أنّه قال في كتاب الأحياء في باب التوكُّل ما يفيد هذا المعنى و حاصل ما ذكره الغزالي أنّ الفعل و التّرك و أن كانا تحت إختيارك ظاهراً إلاّ أنّ حصول المشيئة و عدمه خارجان عن قدرتك انتهى كلام الرّازي و الغزالي بتلخيص منّا.

و أنا أقول ما ذكراه و حقّقاه بزعمهما لا يرجع الى محصّلٍ و ذلك لأنّ حصول الفعل و عدمه في الخارج لا يترتّب على المشيئة حتّى يقال أنّ المشيّئة اذا حصلت حصل الفعل فأنّا نجد من أنفسنا أنّ كثيراً ما نشاء إيجاد فعل و لكن بعد التأمُّل نتركه و بالعكس و الوجه فيه أنّ الإختيار للعبد أنّما هو بين المشيئة و الفعل فأنّا إذا شئنا نختار فعله أو تركه فقولهم ترتّب الفعل على حصول المشيئة أمرٌ لازم لا دليل عليه بل ضرورة الوجدان ينكره.

و محصّل الكلام في الجواب أنّ المشيئة أن سلّمنا أنّها خارجة عن الإختيار لا يضرّنا و الأحسن للأشاعرة أن يقولوا فعل العبد موقوف على وجوده و

وجوده من اللّه فالفعل من اللّه و العاقل لا يقول بهذه المقالات الفاسدة بعد إحساس الإختيار قبل وجود الفعل و بعد المشيئة و لتفصيل الكلام مقام أخر.

ثمّ هدَّد اللّه الظّالمين الّذين إختاروا الكفر على الإيمان بقوله: **إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** و هذا الكلام دليل على مذهب الحقّ و إبطال الجبر اذ لو كان الكفر خارجاً عن قدرة الكافر و إختياره فما معنى لقوله: **إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ** كذا وكذا اذ المفروض أنّ كفر الكافر ليس بإختياره و ما هو خارج عن قدرة العبد فالعقاب عليه قبيح عقلاً وكيف يعاقب العبد على الكفر الّذي جعله فيه بل أجبره عليه وكيف كان ففي الآية دلالة على أنّ النّفع و الضرّ في الإيمان و الكفر يرجع الى صاحبهما فلا ينتفع اللّه بإيمانكم كما لا يستضرّ بكفرهم ثمّ أتبع كلامه بذكر الوعيد على الكفر و العصيان و بذكر الوعد على الإيمان و العمل الصّالح فقال في الوعيد إنّا إعتدنا للظّالمين ناراً و المراد بالظّالمين هو من ظلم نفسه و وضع العبادة في غير موضعها و أنف عن قبول الحقّ فأخبر تعالى أنّه أعدَّ لهؤلاء الأقوام ناراً و هى الجحيم ثمّ وصف تلك النّار بصفتين:

الأُولىٰ: قوله: **أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** و السُّرادق هو الحجزة الّتي تكون حول الفسطاط فأثبت للنّار شيئاً شبيهاً بذلك من باب الإستعارة و هو من تشبيه المعقول بالمحسوس تحيط بهم من جميع الجهات كما يستفاد من قوله: **أَحَاطَ بِهِمْ** و المقصود أنّه لا مخلص لهم منها و لا فرجة بالنَّظر الى ما وراءها من غير النّار بل هي محيطة بهم من كلّ جانبٍ.

و قيل السُّرادق الدُّخان و هذه الإحاطة به أنّما تكون قبل دخلوهم النّار فيغشاهم هذا الدُّخان و يحيط بهم كالسُّرادق بهم حول الفسطاط.

الصّفة الثّانية: التّي أثبتها لها قوله: **وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَ سَآءَتْ مُرْتَفَقًا** الإستغاثة طلب الغوث و



النّجاة و لعلّ المراد بها في المقام طلب الماء لمّا غلبت عليهم حرارة النّار بدليل قوله: **يُغَاثُوا بِمَاءٍ** أي يجابوا بماءٍ كالمهل، و يمكن أن تكون الإستغاثة للنّجاة من العذاب و كيف كان المراد أغيثوا بماءٍ كالمهل و هو كلّ شئ أذيب حتّى ماع كالصّفر و الرّصاص و الذّهب و الفضّة و الحديد و أمثالها من الفلزّات التّي تقبل الذّوب.

ثمّ وصف الماء ثانياً بقوله: **يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ** أي يحرقها من شدّة حرّه اذا قربت منه بئس الشّراب ذلك الماء و ساءت مرتفقاً أي متّكئاً و سمّي المرفق مرفقاً لأنّه يتّكأ عليه و المرتفق مأخوذ منه.

و إحتمل بعض المفسّرين أنّهم يطلبون الماء للتّبريد فيعطون هذا الماء كما قال تعالى حكاية عنهم، أن أفيضوا علينا من الماء.

و قال في موضع أخر **سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ**(۱) فإذا إستغاثوا من حرّ جهنّم صبّ عليهم القطران الذّي يعمّ كلّ أبدانهم كالقميص.

و قوله: **بِئْسَ ٱلشَّرَابُ** لأنّ المقصود من شرب الشّراب هو تسكين الحرارة و هذا الماء يبلغ في إحتراق الأجسام مبلغاً عظيماً.

و قال في قوله: **وَ سَآءَتْ مُرْتَفَقًا** أي ساءت النّار منزلاً و مجتمعاً للرّفقة لأنّ أهل النّار مجتمعون رفقاء كأهل الجنّة فالمعنى بئس موضع التّرافق النّار انتهى.

و قال الزّمخشري هذا لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقاً، و إلاّ فلا إرتفاق لأهل النّار و لا إتّكاء.

أقول الثّابت بالآية هو العذاب و أنّ الماء كالمهل يشوي الوجوه الى قوله: **مُرْتَفَقًا**.

و أمّا بيان ماهيّة الماء و كيفيّة العذاب و الأوصاف الثّابتة في الآية فهو خارج عن عقولنا و العلم عند اللّه فكلّ ما قيل أو يقال في المقام لا يعتمد عليه

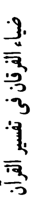
۱- ابراهيم = ۵۰

إلاّ أن يدلّ عليه أثرٌ صحيحٌ و ما سواه إستحسانات و إستخراجات ظنيّة و سيأتي الكلام في هذا الباب في المستقبل إن شاء اللّه تعالى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا

لمّا ذكر اللّه تعالى حال أهل الكفر و ما أعدَّ لهم في النّار من أنواع العذاب ذكر حال أهل الإيمان و ما أعدَّ لهم في الجنّة من أنواع النِّعم فقال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ** و فيه إشارة الى أنّ الإيمان لا يتحقّق حقيقتاً إلاّ بالعمل و أنّ الجزاء متوقّف على الأعمال خلافاً لمن ذهب الى أنّ الإيمان هو الإعتقاد المجرّد عنها و الدّليل على ما قلناه هو أنّ اللّه تعالى رتَّب الأجر على العمل لا على الإعتقاد المجرّد عنه قال اللّه تعالىٰ **وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّالِحِينَ**(١) و الآيات بهذه المضامين كثيرة لا نحتاج الى ما ذكرها لأنّ الأمر أوضح من أن يخفى على أهله.

و في قوله: **إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** إشارة الىٰ أنّ تضييع الأجر ظلمٌ قبيح و لذلك نزَّه اللّه نفسه عنه.



ثمّ قال تعالىٰ: **أُولٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**



في هذه الآية ذكر اللّه مكان أهل الإيمان و هى جنّات عدنٍ بعد ذكره مكان أهل الكفر و هو النّار، ولمّا ذكر ما يغاثون به و هو الماء كالمهل الى آخر ما قال ذكر هنا ما خصّ به أهل الجنّة من كون الأنهار تجري من تحتهم ثمّ ذكر ما أنعم عليهم من التّحلية و اللّباس اللّذين هما زينةٌ ظاهرة فأنّ قوله: **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ**

١- العنكبوت = ٩

أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ أي يجعل لهم فيها حليّاً من زينةٍ من أساور و هو جمع إسوار على حذف الزّيادة لأنّ مع الزّيادة أساوير على قول قطرب و قيل هو جمع سوار بكسر السّين و ضمّها في قول الزّجاج و السّوار زينة تلبس في الزَّند من اليد و قيل هو من زينة الملوك يسور في اليد و يتوجّ على الرّأس ثمّ أشار الى ما يلبسون فيها و قال: **وَ يَلْبَسُونَ ثِيٰابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ** فالسندس مارقّ من الدّيباج واحده سندسة و هى الرّقيقة من الدِّيباج على أحسن ما يكون و أفخره و الإستبرق الغليظ منه و قيل هو الحرير قال صاحب الكشّاف و جمع بين السندُّس و هو مارقّ من الدّيباج و بين الإستبرق و هو الغليظ منه جمعاً بين النَّوعين و قدّمت التّحلية على اللّباس لأنّ الحليّ في النّفس أعظم و الى القلب أحبُّ و فى القيمة أغلى و فى العين أحلى و أنّما قال يحلّون بصيغة المجهول إشعاراً بأنّهم يكرمون بذلك و لا يتعاطون ذلك بأنفسهم كما قال الشّاعر:

غرائرو في كنٍّ و صونٍ ونعمةٍ يحلَّين ياقوتاً و شذراً مفقّراً.

و أنّما وصف اللّباس بالخضرة لأنّها أحسن الألوان و النّفس تنبسط لها أكثر من غيرها.

و قد روي فيها أنّها تزيد في ضوء البصر و الى هذا المعنى أشار بعض الأدباء حيث قال:

أربعةُ مذهبة لكلّ همّ و حزن
الماء و الخضرة و البستان و الوجه الحسن.

و قال الآخر:

ثلاثة تذهب عن قلب الحزن الماء و الخضراء و الوجه الحسن

و قال الشّاعر في الإستبرق:

تراهنّ يلبسن المشاعر مرّةً و إستبرق الدّيباج طوراً لباسها

و أمّا قوله: **مُتَّكِئِينَ فِيهٰا عَلَى ٱلْأَرٰآئِكِ** فهو نصب على الحال أي يلبسون ما ذكرناه و يحلّون بأساور من ذهب حال كونهم متكئين على الأرائك، جمه أريكة و هي السَّرير قال الشّاعر:

حدوداً جفت في السَّير حتّى كأنّما
يباشرن بالمعزاء مسَّ الأرائك

و قال الأخر:

بين الرّواق و جانبٍ من سيرها   منها و بين أريكةٍ الأنضاد

أي السّرير في الجملة و خصّ الإتّكاء بالذّكر لأنّها هيئة المنعّمين و الملوك على أسرتهم و قال الزّجاج الأرائك الفرش في الجمال و قوله: **نِعْمَ ٱلثَّوٰابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقًا** معناه نعم الثّواب ما وعدوا به فالمخصوص بالمدح محذوف و الضّمير في حسنت عائد على الجنّات أي أنّ الجنّات مع ما أعدّ فيها من أنواع النِّعم نعم الثّواب و حسنت الجنّة مرتفقاً أي مجلساً و هو نصب على التّمييز و وصف اللّه الجنّة بالعدن الّذي هو بمعنى الإقامة مشعراً بأنّهم يبقون فيها ببقاء اللّه دائماً و أبداً و هذا هو السّر في قوله: **نِعْمَ ٱلثَّوٰابُ** لأنّ ما يزول لا يتّصف بالمدح واقعاً، قال الشّاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصةً   لذّاته بادّكار الموت و الهرم

وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنٰا لِأَحَدِهِمٰا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنٰابٍ وَ حَفَفْنٰاهُمٰا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنٰا بَيْنَهُمٰا زَرْعًا، كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ اٰتَتْ أُكُلَهٰا وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَ فَجَّرْنٰا خِلاٰلَهُمٰا نَهَرًا، وَكٰانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقٰالَ لِصٰاحِبِهِ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُٓ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مٰالاً وَ أَعَزُّ نَفَرًا

قيل نزلت الآية في أخوين من بني مخزوم، الأسود بن عبد الأسود بن عبد ياليل وكان كافراً و أبي سلمة عبد اللّه بن الأسود وكان مؤمناً و قيل إخوان من

بني إسرائيل، فرطوس و قيل إسمه قطفير، و يهوذا و هو المؤمن و عن إبن عبّاس أنّهما إبنا ملك من بني إسرائيل أنفق أحدهما ماله في سبيل اللّه و كفر الأخر و إشتغل بزينة الدّنيا و تنمية ماله و قيل غير ذلك و الضّمير في، لهم، عائد على المتجبّرين من الطّالبين من الرّسول طرد الضعفّاء المؤمنين فالرَّجل الكافر بإزاء المتجبّرين و الرّجل المؤمن بإزاء ضعفاء المؤمنين و ضرب بضرب هذا المثل الرّبط بين هذه الآية و الّتي قبلها إذ كان من أشرك إنّما إفتخر بماله و أنصاره و هذا قد يزول فيصير الغنيّ فقيراً و إنّما المفاخرة لو صحَّت فهي بطاعة اللّه كما قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقيٰكُمْ**[1].

نقل بعض المفسّرين عن إبراهيم بن القاسم الكاتب أنّه قال في كتابه عجائب البلدان أنّ بحيرة تنيس كانت هاتين الجنّتين وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الأخر و أنفقه في طاعة اللّه حتّى عيَّره الآخر و جرت بينهما هذه المحاورة. قال فغرقها اللّه في ليلةٍ وإيّاهما عنى بهذه الآية و لنرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول أمر اللّه نبيّه أن يضرب لهم مثلاً فقال لنبيَّه: **وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ** أي أضرب رجلين لهم مثلاً **جَعَلْنٰا لِأَحَدِهِمٰا** أي أحد الرَّجُلين **جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنٰابٍ** و الجنَّة هي البستان الّذي فيه الشَّجر و أعناب جمع عنب **وَ حَفَفْنٰاهُمٰا بِنَخْلٍ** أي جعلنا النَّخل مطيفاً بهما يقال حفَّه القوم إذا طافوا به **وَ جَعَلْنٰا بَيْنَهُمٰا زَرْعًا** أي و جعلنا بين الجنَّتين زرعاً و هو إعلام بأنّ عمارتهما كانت متَّصلة لا يفصل بينهما إلاّ عمارة **كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ اٰتَتْ أُكُلَهٰا وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا** و المعنى أنّهما كاملتان في تأدية كلّ حملها من غلّتها و آتت أكلها، أي طعمها و ما يؤكل منها ولم تظلم منه شيئاً، أي لم تنقص منها شيئاً بل أخرجت ثمرها على الكمال **وَ فَجَّرْنٰا خِلاٰلَهُمٰا نَهَرًا** أي شققنا نهراً بينهما و فيه إشارة الى أنّ الجنَّتين كانتا تشربان من نهرٍ واحدٍ **وَ كٰانَ لَهُ ثَمَرٌ** قيل هو ذهب و فضَّة و قيل هي الأصول فيها الثَّمر و قيل المراد صنوف الأموال.

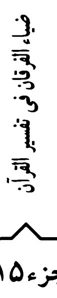
١- الحجرات = ١٣

و قال إبن عبّاس و قتادة الثّمر جميع المال من الذّهب و الفضّة و الحيوان و غير ذلك.

قال النّابغة:

مــهلاً فــداء لك الأقـوام كـلّهم وما أثمروا مـن مـالٍ ومـن ولدٍ

و الضّمير في قوله، له، يرجع على أحد الرَّجلين أي وكان لأحدهما ثمر أي أموالٌ و أولاد و غير ذلك على ما مَّر الكلام فيه (فقال) أحدهما، **لِصٰاحِبِهِ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُۥٓ** أي قال أحد الرَّجلين لصاحبه يعني صاحبي الجنتين اللّتين ضرب بهما المثل، و هو يحاوره أي يراجعه الكلام **أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مٰالاً وَ أَعَزُّ نَفَرًا** أي أنا أجمع مالاً منك و أعزّ عشيرة و أكثر أنصاراً و حاصل الكلام في الآية أنّ أحد الرَّجلين إفتخر على الآخر بماله و أولاده و عشيرته و لم يعلم أنّ الدنيّا و ما فيها في معرض الزّوال و الفناء و لا يبقى منها شئ و ما مصيره الى الزّوال فهو زائلٌ بنفسه و ما كان كذلك فالعاقل لا يعتمد عليه كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله:



وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ قٰالَ مٰآ أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِۦٓ أَبَدًا

أي دخل صاحب الجنَّة جنَّته و هي البستان الّذي يجنّه الشَّجر و يحفّه الزّهر و هو ظالم لنفسه لكفره و إرتكابه القبيح و الإخلال بالواجب اللّذين بهما صار مستحقّاً للعذاب فلمّا رآى هذا الجاهل المعجب ما راقه و شاهد ما أعجبه كبر في نفسه و توهّم أنّه يدوم و أنّه لا يفنى فقال ما أظنّ أن تبيد، أي تهلك و تفنى هذه الجنَّة أبداً.

وَ مٰآ أَظُنُّ ٱلسّٰاعَةَ قٰآئِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلىٰ رَبّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهٰا مُنْقَلَبًا

قال **وَ مَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً** كما يدَّعيه الموحّدون و إنّما قال هذا الكلام تأييداً لقوله: **مَآ أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِۦٓ** و ذلك لأنّ قيام السّاعة بعد فناء الدُّنيا و ما فيها فمن إعتقد بقيام السّاعة إعتقد بفناء الدّنيا و زوالها و من كان كذلك من حيث الإعتقاد لا يقول: **مَآ أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِۦٓ أَبَدًا** و حيث أنّه قال ذلك فلا جرم قال: **مَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً** و بعبارةٍ من إعتقد بقيام السّاعة إعتقد بزوال الدُّنيا و من إعتقد ببقاء الدّنيا و عدم زوالها إعتقد بعدم قيام السّاعة و إنّما عبَّر بالظنّ ولم يقل أعلم مثلاً، لأنّ العلم الواقعي و هو كشف الواقع لا يحصل في أمثال هذه المسائل و قوله: **وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا** أي من الجنَّة **مُنْقَلَبًا** أي مرجعاً و عاقبة، قيل في معناه أنّه قاسَ حالَه في الآخرة علىٰ الدّنيا فكما أنّ اللّه تعالىٰ أَعطاه في الدّنيا ما أعطاه ففي الآخرة أيضاً كذلك و إنّما قال خيراً، تطمّعاً و تمنّياً على اللّه و إدّعاء لكرامته عليه و مكانته عنده و أنّه ما أولاه الجنَّتين في الدّنيا إلاّ لإستحقاقه و أنّ معه هذا الإستحقاق أين توجَّه كقوله أنّ لي عنده للحسنى.

و قال بعض المفسّرين إنّما قال هذا مع كفره باللّه لأنّ المعنى، أن رددت الى ربّي، كما يدَّعيه الموحّدون فلي خير من هذه تحكماً سوّلته له نفسه لا مطمع فيه.

و قال إبن زيد شكّ ثّم قال على شكَّه في الرّجوع الى ربّه ما أعطاني هذه الأولى عنده خيرٌ منها.

و قال القرطبي في معناه ما هذا لفظه، أي و أن كان بعثٌ فكما أعطاني هذه النِّعم في الدّنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه و هو معنى قوله: **لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَامُنْقَلَبًا** و إنّما قال ذلك لمّا دعاه أخوه الى الإيمان بالحشر و النَّشر و فى مصاحف مكّة و المدينة و الشّام، منهما، و فى مصاحف أهل البصرة و الكوفة، منها، على التَّوحيد و التَّثنية أولى لأنّ الضّمير أقرب الى الجنَّتين إنتهىٰ كلامه.

أقول و الأصل في هذه الشُّبهة هو أنّ اللّه تعالى لمّا أعطاه المال في الدّنيا تخيّل أنّ ما أعطاه اللّه إنّما هو بسبب إستحقاقه و تقرّبه عند اللّه و هذا الملاك موجود في القيامة أيضاً و لم يعلم أنّ فتح باب الدنيّا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للإستدراج لا للإستحقاق:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهٰذَا اَلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَحْسَبَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**(٣) و غيرها من الآيات.

قٰالَ لَهُ صٰاحِبُهُ وَ هُوَ يُحٰاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّٰيكَ رَجُلاً

و هو يحاوره، حالٌ من الفاعل و هو صاحبه المؤمن و الهمزة في، أكفرت، إستفهام إنكارٍ و توبيخ حيث أشرك مع اللّه غيره و المعنى قال له صاحبه المؤمن الفقير و الحال أنّه يحاوره أي يراجعه الكلام أكفرت بالّذي خلقك، نبّهه على أصل نشأته وإيجاده بعد العدم و أنّ ذلك دليل على جواز البعث من القبور:

قال اللّه تعالىٰ: **مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرىٰ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ اَلْبَعْثِ فَإِنّٰا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ**(٥).

١- الأعراف = ١٨٢
٢- القَلم = ٤٤
٣- آل عُمران = ١٧٨
٤- طه = ٥٥
٥- الحجّ = ٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنْ اٰيـاتِهِ أَنْ خَـلَقَكُمْ مِـنْ تُـراٰبٍ ثُـمَّ إِذاۤ أَنْـتُمْ بَشَـرٌ تَنْتَشِرُونَ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ تُراٰبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**[۲].

قوله: **ثُمَّ سَوّٰيٰكَ رَجُلًا** فيه إشارة الى تسوية جسمه.

كما قـال تـعالىٰ: **فَـإِذاٰ سَـوَّيْتُهُ وَ نَـفَخْتُ فـيهِ مِـنْ رُوحـي فَـقَعُوا لَـهُ ساٰجِدينَ**[۳].

ثمّ أنّ قوله: **خَلَقَكَ مِنْ تُراٰبٍ** إمّا أن يراد به خلق أصله و هـو آدم عليه السلام و خلق أصله سبب في خلقه فكان خلقه خلقاً له أو أريد أنّ ماء الرّجل يتولّد من أغذيةٍ راجعةٍ الى التُّراب وكيف كان لا شكّ أنّ الإنسان أعني به البشر مخلوقٌ منه كما صرَّحت الآيات به و أ نمّا قال: **أَكَفَرْتَ** لقوله: **مٰاۤ أَظُنُّ ٱلسّٰاعَةَ قٰاۤئِمَةً** و فيه دلالة على أنّ منكر البعث كـافرٌ و هـو كـذلك لأنّ البـعث ثـابت بـالأدلة الأربعة و هى الكتاب و السنّة و الإجماع و العقل و لذلك عدَّ من الضَّروريّات و أيضاً فيه دلالة على أنّ اللّه تعالى مختارٌ في فعله لأنّ خلق البشـر و غـيره مـن الحيوان و تنقّله من تراب الى نطفة و منها الى علقة و منها الى صـورةٍ ثـمّ مـن الطّفولية الى الرُّجولية ذلك من الأحوال و النشئات يدلّ على تدبير مدبّرٍ مختار يعرف الأشياء من حالٍ الى حالٍ كيف يشاء و لا نعني بالإختيار إلاّ هذا.

لٰكِنَّا هُوَ ٱللّٰهُ رَبّي وَ لاۤ أُشْرِكُ بِرَبّي أَحَدًا

لكِنّا أصله لكِن أنا، نقل حركة الهَـمزَة الى نُـون لكـن، و حـذفت الهَـمزَة فإلتقى مثلان أي نُونان فأدغم أحدهما في الآخر فـصار، لكنّا، و قـيل حـذفت الهَمزة من، أنا، على غير قياسٍ فإلتقت نُون لكن، و هـى سـاكـنة مـع نـُون أنـا،

۱- الرّوم = ۲۰
۲- غافر = ۶۷
۳- الحجر = ۲۹ و ص = ۷۲

فأدغمت فيها و أمّا في الوقف فأنّه أثبت ألف أنا، و هو المشهور في الوقف على، أنا، و أمّا في الوصل فالمشهور حذفها، و قرأ أبو عمرو و لكنّه هو اللّه ربّي، بضميرٍ لحق، لكن، و قال في التبيان و يجوز في (لكنّا هو اللّه ربّي) خمسة أوجه في العربيّة.

أحدها: لكنّ هو اللّه، بالتّشديد من غير ألفٍ في الوصل و الوقف.

الثّاني: بألف فيهما.

الثّالث: لكنّنا بإظهار النونين و طرح الهمزة.

الرّابع: لكن هو اللّه ربّي بالتّخفيف.

الخامس: لكن أنا على الأصل.

إذا عرفت هذا فنقول، قوله: **لٰكِنَّا هُوَ ٱللّٰهُ رَبِّى** هو مقول قول المؤمن في محاورته مع الكافر أي أنّه بعد ما قال لصاحبه أكفرت بالّذي خلقك الى آخر ما قال، قال لكنّا أي لكن أنا هو اللّه ربّي، و الضّمير أعني به، هو، علامة الحديث و القصّة كقوله: **قُل هُو اللّهُ أَحد** و قوله: **فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ** والتّقدير، اللّه أحد.

أقول سيأتي الكلام في مرجع الضّمير في قوله: **قُل هُو اللّهُ أَحد** في موضعه إن شاء اللّه تعالىٰ وقوله: **وَ لآ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا** معناه واضح.



وَ لَوْلآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مٰا شٰآءَ ٱللّٰهُ لا قُوَّةَ إِلّٰا بِاللّٰهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مٰالًا وَ وَلَدًا

الواو للعطف أي و قال المؤمن للكافر أيضاً، و لولا، للتحضيض أي و هلاّ حين دخلت جنّتك قلت ماشاء اللّه لا قوّة إلاّ باللّه، مكان قولك أنا أكثر مالاً و أعزّ نفراً و قولك ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً، و قولك ما أظنّ السّاعة قائمة، و قوله **إِنْ تَرَنِ** بكسر النّون أي ترني أقلّ منك مالاً و ولداً.

و حاصل الكلام أنّ الغنى و الفقر بيد اللّه فليس للغنيّ أن يفتخر على الفقير بماله و لا للفقير أن يشكو ربّه لفقره بل وظيفة الغني الشّكر قولاً و عملاً و حالاً و وظيفة الفقير الرّضا بقضاء اللّه و إذا كان الأمر على هذا المنوال فكانت وظيفتك الشّكر على النّعمة لا الكفر بها، و لذلك أردف تلك النّصيحة بترجيةٍ من اللّه و توقعه أن يقلب ما به و ما بصاحبه من الفقر و الغنى فقال له أن ترني أنا أقلّ منك مالاً و ولداً فعسى ربّي أن يؤتين خيراً من جنتّك، في الآخرة.

وَ يُرْسِلَ عَلَيْهٰا حُسْبٰانًا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مٰآؤُهٰا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا

و حاصل المعنى أنّ المؤمن قال للكافر إن ترني في الدّنيا أنا أقلّ منك مالاً و ولداً فعسى أي أرجو ربّي أن يؤتيني أي أعطاني خيراً من جنّتك في الآخرة و يرسل عليها أي على جنّتك حسباناً أي ناراً من السّماء تحرقها، و قيل أي صاعقة و قيل آفةً و الكلّ متقارب المعنى لأنّ أصل الحسبان السّهام الّتي ترمى لتجري في طلقٍ واحدٍ و الحسبان المرامي الكثيرة مثل كثرة الحساب واحده حسبانة، فتصبح صعيداً زلقاً، الظّاهر أنّ فاعل الفعل هو الجنّة أي فتصبح جنتّك صعيداً أي أرضاً زلقاً لا نبات فيها لا من كرم و لا نخل و لا زرع قد إصطلم جميع ذلك فبقيت قفراً و الزّلق الّذي لا تثبت فيه قدم ذهب غراسه و نباته و سلب المنافع حتّى منفعة المشي فيه فهو وحل لا ينبت و لا يثبت فيه قدم.

و قال مجاهد زلقاً، أي رملاً هائلاً.

و قال الحسن الطّريق الّذي لا نبات فيه، أو يصبح ماءها، أي ماء الجنَّة، غوراً، أي غائراً فوضع المصدر موضع الصفّة أي ذاهباً في باطن غامضٍ، فلن يستطيع له طلباً أي لا تقدر على طلب الماء إذ غار.

و الحاصل أنّ المؤمن ترجى لجنّة هذا الكافر آفةً علويّة و هى الحسبان من السّماء و آفةً أرضيّة و هى غور الماء و من كان كذلك فهو ممنوعٌ من بركات الأرضيّة و السماويّة و ذلك هو الخسران المبين الّذي لا خسران فوقه و لا يبعد أن يكون قوله فلن تستطيع، إشارة عدم إستطاعته من حيث البدن و عليه فهو كناية عن ذهاب صحّته في جسمه و الأحسن حمل الكلام على المعنى الشّامل لجميع مراتب الإستطاعة فقوله: **فَلَنْ تَسْتَطِيعَ** أي فلن تقدر و هو واضح.

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلٰى مٰآ أَنْفَقَ فيهٰا وَ هِىَ خٰاوِيَةٌ عَلٰى عُرُوشِهٰا وَ يَقُولُ يٰا لَيْتَني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّىٓ أَحَدًا

الإحاطة إدارة الحائط على الشّى فقوله أحيط بثمره معناه هلكت ثمرهم عن آخرها، ولم يسلم منها شيئ كما يقال أحاط بهم العدوّ إذا هلكوا عن آخرهم و المعنى هلكت ثمر صاحب البستان ولم يبق منها شيئ فأصبح صاحب الجنّة يقلّب كفَّيه على ما أنفق فيها، تقليب الكفّ كناية عن التأسّف و التحسُّر أي كان يتحسّر على ما أنفق في عمارتها و زرعها، **وَ هِىَ خٰاوِيَةٌ عَلٰى عُرُوشِهٰا** أي حيطانها قائمة لا سقوف عليها لأنّها إنهارت فصارت في قرارها و خوت فصارت خاوية من الأساس و العروش الأبنية و قيل السُّقوف فصارت الحيطان على السُّقوف، و يقول، صاحب الجنّة، **يٰا لَيْتَني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّىٓ أَحَدًا** أي يا ليتني لم أقل ما قلت ممّا دلَّ على الشِّرك و الكفر.



وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ مٰا كٰانَ مُنْتَصِرًا، هُنٰالِكَ ٱلْوَلٰايَةُ لِلّٰهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوٰابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا

الفئة الجماعة و المعنى لم تكن هناك جماعة ينصرونه من دون اللّه، إذ لا يقدر أحدٌ و لا جميع الخلق عن دفع أمثال هذه البليّات السماويّة و الأرضيّة

فلا جرم ما كان صاحب الثّمر منتصراً بأن يستردّ بدل ما كان ذهب منه و جمع الضّمير في ينصرونه على المعنى كما أفرده على اللّفظ في قوله: **فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** وإحتمل النّفي أن يكون منسحباً على القيد فقط أي له فئة لكنّه لا يقدر على نصره و أن يكون منسحباً على القيد و المراد إنتفاءه لأنتفاء ما هو وصف له أي لا فئة فلا نصر و ما كان منتصراً بقوّةٍ عن إنتقام اللّه و قوله: و **هُنَالِكَ** ظرف مكانٍ للبعد و الظّاهر أنّه أشير به لدار الآخرة أي في تلك الدّار الولاية للّه كقوله تعالىٰ: **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ**[1] قيل لمّا نَفىٰ عنه الفئة الناصرة في الدّنيا نفى عنه أن ينتصر في الآخرة فقال: **وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا** هناك أي في الدّار الآخرة و عليه فيكون، هنالك، معمولاً لقوله: **مُنْتَصِرًا**.

و قيل هنالك الولاية للّه، مبتدأ و خبر و الوقف على قوله: **مُنْتَصِرًا**.

و قال بعضهم في قوله: **هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ** إخبار منه تعالى أنّ في ذلك الموضع أعني به موضع نزول الآفات و البلّيات و المصائب أرضيّة كانت أو سماويّة الولابة بالنّصر و الإعزاز للّه عزّ وجلّ لا يملكها أحد من العباد يعمل بالفساد فيها.

و الحاصل أنّ زمام الأمور بيد اللّه.

أقول الظاهر من اللّفظ أنّ هنالك، إشارة الى البعيد و هو الآخرة و الولاية بكسر **الواو** بمعنى الرّئاسة و الرّعاية و بفتحها بمعنى الموالاة و الصّلة و على التّقديرين فالولاية للّه في الآخرة وقوله: **هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا** أي أنّه تعالى خيرٌ ثواباً أي جزاءً على العمل و عقباً أي عاقبةً و قيل معناه عاقبة ما يدعو اليه خير من عاقبة ما لا يدعو اليه ثمّ ضرب اللّه مثلاً ثانياً لبقاء الحقّ و زهوق الباطل إتماماً للحجّة فقال تعالى.

■

۱- غافر = ۱۶

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿۴۵﴾ اَلْمالُ وَ الْبَنُونَ زينَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا ﴿۴۶﴾ وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿۴۷﴾ وَ عُرِضُوا عَلٰى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿۴۸﴾ وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمينَ مُشْفِقينَ مِمّا فيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهٰذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَ لا كَبيرَةً إِلّآ أَحْصيٰها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿۴۹﴾ وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلّآ إِبْليسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُوني وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظّالِمينَ بَدَلًا ﴿۵۰﴾ مآ أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلّينَ عَضُدًا ﴿۵۱﴾ وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكآئِيَ الَّذينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿۵۲﴾ وَ رَءَا الْمُجْرِمُونَ النّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ

مُواقِعُوها وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفًا ﴿۵۳﴾ وَ لَقَدْ صَرَّفْنا في هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ لِلنّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كانَ ٱلْاِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿۵۴﴾ وَ ما مَنَعَ ٱلنّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ ٱلْهُدٰى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلّآ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذابُ قُبُلًا ﴿۵۵﴾

◀ اللّغة

هَشِيمًا: أي مكسوراً مفتّتاً.

تَذْرُوهُ: أي تنقله من مكانٍ الى مكانٍ.

بارِزَةً: البروز الظّهور أي يظهر ما فيها من الكنوز و الأموات.

نُغادِرْ: المغادرة التَّرك.

أَحْصيها: الإحصاء العدّ.

عَضُدًا: يقال أعتضد به إذا إستعان به.

مَوْبِقًا: أي مهلكاً.

مَصْرِفًا: أي معدولاً.

◀ الإعراب

كَمآءٍ أَنْزَلْناهُ خبر مبتدأ محذوف أي هو كماءٍ هذا اذا كان، إضرب، بمعنى أذكر فيتعدّى الى واحدٍ و إن قلنا أنّه بمعنى صيّر فيكون كماءٍ أنزلناه مفعولاً ثانياً بارِزَةً حال وَ حَشَرْناهُمْ في موضع الحال و قد، مرادة أي و قد حشرناهم صَفًّا حال بمعنى مصطفين أي مصفوفين لا يُغادِرُ في موضع الحال من الكتاب وَ إِذْ قُلْنا أي و إذكر إِلّآ إِبْلِيسَ إستثناء من غير الجنس و قيل من

الجنس و كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ في موضع الحال و، قد، معه مرادة أَنْ يُؤْمِنُوٓا مفعول منع أَنْ تَأْتِيَهُمْ فاعله.

◀ التّفسير

وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا

أمر اللّه تعالى نبيّه في هذه الآية بضرب مثلٍ أخر فقال و إضرب لهم مثل الحياة الدُّنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء و هو ماء المطر فإختلط بالماء نبات الأرض، و قيل أي نبت بذلك الماء المنزل من السّماء نبات فإلتفت بعضه ببعضٍ يروق حسناً و غضاضة ثمّ عاد هشيماً، أي مكسوراً مفتّتاً **تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ** أي تنقله الرّياح من موضع الى موضع أخر **وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا** أي كان قادراً على أن يكوّنه قبل أن يكوّن و قبل أن يكون.

أقول لمّا بيّن اللّه تعالى في المثل الأوّل حال الكافر و المؤمن و ما أل اليه ما إفتخر به الكافر من الهلاك بيّن في هذا المثل حال الحياة الدُّنيا و إضمحلالها و مصير ما فيها من النّعيم و الترفّه الى الهلاك.

قال إبن عطيّة في قوله: **كَمَآءٍ** أي هي أعني الحياة الدُّنيا كماءٍ و عليه فقوله : **كَمَآءٍ** خبر مبتدأ محذوف و لمّا ذكر اللّه تعالى قدرته الباهرة في صيروزة ماكان في غاية النّضرة و البهجة الى حالة التّفتت و التّلاشي الى أنّ فرّقته الرّياح و لعبت به ذاهبةً و جائيةً أخبر تعالى عن إقتداره على كلّ شئٍ من الإنشاء و الإفناء و الإحياء و الإماتة و غيرها من أنواع التّصاريف الّتي تتعلّق بها القدرة.



ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا

لمّا حقر اللّه تعالى حال الدُّنيا بما ضربه من ذلك المثل ذكر أنّ ما إفتخر به أهل الدُّنيا من المال و البنين أنّما ذلك زينة الحياة الدُّنيا المحقّرة و أنّ مصير ذلك الى الفناء فينبغي أن لا يكترث به.

قيل الكلام على تقدير المضاف أي مقرّ زينة أو وضع المال و البنين منزلة المعنى و الكثرة فأخبر عن ذلك بقوله: **زِينَةُ** و لمّا ذكر مأل ما في الحياة الدّنيا الى الفناء إندرج فيه هذا الجزئي من كون المال و البنين زينة و أنتج أنّ زينة الحياة الدُّنيا فان اذ ذاك فردٌ من أفراد ما في الحياة الدُّنيا فهو سريع الإنقضاء و ترتيب هذا الإنتاج، أن يقال: **اَلْمالُ وَ اَلْبَنُونَ زِينَةُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيا** وكلّ ماكان زينة الحياة الدُّنيا فهو سريع الإنقضاء، فالمال و البنون سريع الإنقضاء و من بديهة العقل أنّ ما كان كذلك يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه و هذا برهان على فساد قول أولئك المشركين الذّين إفتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال و الأولاد.

أقول و أنّما خصّ المال و الأولاد بالذّكر مع أنّ الفناء لا يختصّ بهما بل الدُّنيا و ما فيها في معرض الزّوال، لأنّ المستكبرين إفتخروا بهما على فقراء المؤمنين.

ألا ترى الى قوله: **أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَرًا**[١] و يمكن أن يكون وجه الإختصاص أنّهما من أظهر مصاديق الزّينة في الحياة الدُّنيا لذلك ترى النّاس كثيراً ما يفتخرون بهما و أمّا قوله: **وَ اَلْباقِياتُ اَلصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا** فإختلفوا في معناه فقال قوم هي الكلمات المأثور فضلها، سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه واللّه أكبر و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

و قال إبن عبّاس و إبن جبير و غيرهما هي الصّلوات الخمس، و قيل كلّ عملٍ صالح من قولٍ أو فعلٍ يبقى للآخرة و إختاره الطّبري.

١- الاسراء = ٣٤

و قال قتادة كلّ ما أريد به وجه اللّه و قيل أنّها النيّات الصّالحة و قيل غير ذلك و الحقّ أنّ الباقيات الصّالحات كلّ ما يصرف من الدُّنيا في طريق الآخرة من قولٍ أو فعلٍ فأنّ المال و البنون أيضاً قد يكونان من الباقيات الصّالحات فالمال المصروف في طريق الآخرة و الولد الصّالح من أعظم مصاديق الباقيات الصّالحات و أن شئت قلت جميع نعم الدُّنيا كذلك فأن صرفتها في طريق الآخرة فهي الباقيات الصّالحات و أن صرفتها في طريق الدُّنيا فهي ذاهبة فانية.

فالبحث عن أنّ المراد بها ما هو لا معنى له بعد ثبوت أنّ الدُّنيا مزرعة الآخرة و أنّ ما عندكم ينفد و ما عند اللّه باقٍ و معنى، **خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابًا** أنّها دائمة باقية و خيرات الدُّنيا منقرضة فانية و الدّائم الباقي خير من المنقرض المُنقضي و قوله: **خَيْرٌ أَمَلًا** قيل أي و خيرٌ رجاءً لأنّ صاحبها يأمل في الدُّنيا ثواب اللّه و نصيبه في الآخرة دون ذي المال و البنين العاري من الباقيات الصّالحات هذا.

في كتاب معاني الأخبار بأسناده عن جعفر بن مُحمّد عليه السلام قال عليه السلام: ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وثمان ركعات أخر اللّيل و الوتر زينة الأخرة وقد يجمعهما اللّه عزّ وجلّ لاقوامٍ.

و في نهج البلاغة: انَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ لِأَقْوَامٍ[1] انتهىٰ.



و في تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي عَبد اللّه أنّه قال عليه السلام: ٱلْمَالُ وَ ٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا و أنّ الثّمانية ركعات يصلّيها العبد أخر اللّيل زينة الأخرة.

و عن أبي عبد اللّه هي الصّلوات الخَمس.

١- الخطبة ٢٣

و أمثال ذلك من الأحاديث كثيرة و الجامع بينها هو العمل الصّالح قولاً و فعلاً كما ذكرناه و لنعم ما قيل:

ما أنعم اللّه على عبده	بنعمةٍ أوفى من العافية
وكلّ من هو عوفي في جسمه	فأنّه في عيشةٍ راضية
و المال حلوٌ حسنٌ جيّدٌ	على الفتى لكنّه عارية
ما أحسن الدُّنيا و لكنّها	مع حسنها غدّارةٌ فانية

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَ تَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا

لمّا ذكر اللّه تعالى ما يؤول اليه حال الدُّنيا من النّفاد أعقب ذلك بأوائل أحوال يوم القيامة فقال نسيّر الجبال، التَّسيير تطويل السَّير و أنّما يسيّرها اللّه تعالى و يخبر به لما في ذلك من الإعتبار في الدّنيا و قيل يسيّرها بأن يجعلها منبّثاً، و ترى الأرض بارزةً أي ظاهرةً لا شئ يسترها و حشرناهم فلم نغادر منهم أحداً، أي يحشر الخلائق حتّى يكونوا كلّهم على صعيد واحدٍ و يرى بعضهم بعضاً و حشرناهم أي بعثناهم و أحييناهم بعد أن كانوا أمواتاً فلم نغادر منهم أحداً، أي فلم نترك واحداً منهم لا نحشره.

وَ عُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا

فقوله: **صَفًّا** إنتصب على الحال و هو مفرد تنزل منزلة الجمع أي صفوفاً و قيل إنتصب على المصدر الموضوع موضع الحال أي مصطّين، و قيل المعنى صفّاً صفّاً فحذف صفّاً و هو مراد و قوله: **لَقَدْ جِئْتُمُونَا** معمولٌ لقولٍ محذوف أي و قلنا، و قوله: **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ** نعتٌ لمصدر محذوف أي مجيئاً مثل مجى خلقكم أي حفاة عراة بل زعمتم في الدُّنيا، أن لن نجعل لكم موعداً، و أنّكم

الينا لا ترجعون و لذلك أنكرتم البعث و قلتم من يحيي العظام و هـي رمـيم و المراد من الموعد مكان وعدٍ أو زمان وعدٍ لإنجاز ما وعدوا على ألسنة الأنـبياء من البعث و النُّشور و الخطاب للكفّار المنكرين البعث عـلى سـبيل التّـقريع و التّوبيخ ثمّ قال تعالى.

وَ وُضِعَ ٱلْكِتٰابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّٰا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يٰا وَيْلَتَنٰا مٰا لِهٰذَا ٱلْكِتٰابِ لاٰ يُغٰادِرُ صَغِيرَةً وَ لاٰ كَبِيرَةً إِلاّٰ أَحْصٰيهٰا وَ وَجَدُوا مٰا عَمِلُوا حٰاضِرًا وَ لاٰ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا

الكتاب إسم جنس أي كتب أعمال الخلق و يجوز أن تكون الصّحائف كلّها جـعلت كـتاباً واحـداً و وضـعته المـلائكة لمـحاسبة الخـلق فـترى المـجرمين العاصين، مشفقين أي معرضين أو خـائفين مـمّا فـي الكـتاب مـن الفـضائح و القبائح وكشف أعمالهم السيّئة و ما يترتّب على ذلك مـن العـذاب فـقالوا: **يٰـا وَيْلَتَنٰا** هذه لفظة من وقع في شدّةٍ دعا بها كقوله يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، ما لهذا الكتاب، أي أيُّ شيءٍ لهذا الكتاب، لا يغادر، أي لا يترك صغيرةً و لا كـبيرة من المعاصي، إلاّ أحصيها، بالعدد و حواها، و وجدوا ما عـملوا، فـي دار الدُّنـيا حاضراً عندهم، و لا يظلم ربّك أحداً، فيكتب عليه مـا لم يـعمل أو يـزيد فـي عقابه زائداً على ما يستحقّه أو يعذّبه بغير جرمٍ.

و الحاصل أنّهم يرون جزاء أعمالهم إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد لأنّ الظُّلم قبيحٌ و هو تعالى منزّه عنه.

روي المجلسي ﵀ في البحار بأسناده عن شريح القاضي عن أمير المؤمنين ﵇ في خطبةٍ طويلة، قال: إسمع ياذا الغفلة و التّصريف من ذي الوعظ و التّعريف جعل يوم الحشر يوم العرض و السّؤال و الحباء و النّكال يوم تقلب اليه أعمال الأنام وتحصى فيه جميع

الأثام يوم تذوب من النّفوس أحداق عيونها و تضع الحوامل ما في بطونها و تفرّق من كلّ نفسٍ و حبيبها و يحار في تلك الأحوال (الأهوال) عقل لبيبها إذ نكرت الأرض بعد حسن عمارتها و تبدَّلت بالخلق بعد أنيق زهرتها أخرجت من معادن الغيب أثقالها و نقضت الى اللّه أحمالها يوم لا ينفع الحذر اذ عاينوا الهول الشّديد فإستكانوا و عرف المجرمون بسيماهم فإستتابوا فإنشقّت القبور بعد طول إنطباقها و إستسلمت النُّفوس الى اللّه بأسبابها كشف عن الأخرة غطاءوها فظهر للخلق أنباءوها فدكّت الأرض دكّاً و مدّت لأمرٍ يراد بها مدًّاً مدّاً و إشتدّ المبادرون الى اللّه و تزاحفت الخلائق الى المحشر زحفاً زحفاً و ردَّ المجرمون على الأعقاب ردّاً ردّاً و قرّبوا للحساب فرداً فرداً وجاء ربّك و الملك صفّاً صفّاً يسألهم عمّا عملوا وجئ بهم عراة الأبدان خشّعاً أبصارهم أمامهم الحساب و من وراءهم جهنّم يسمعون زفيرها و يرون سعيرها فلم يجدوا ناصراً ولا وليّاً يجيرهم من الذلّ فهم يعدون سراعاً الى مواقف المحشر يساقون سوقاً فالسَّموات مطوّياتٌ بيمينه كطيّ السّجل للكتب و العباد على الصّراط و جلت قلوبهم يظنُّون أنّهم لا يسلمون و لا يؤذن لهم فيتكلّمون ولا يقبل منهم فيعتذرون قد ختم على أفواههم وإستنطقت أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون الى أخر كلامه.

و في كتاب كتبه أمير المؤمنين عليه السلام الى أهل مصر مع محمّد بن أبي بكر قال عليه السلام يا عباد اللّه أنّ بعد البعث ما هو أشدّ من القبر يوم يشيب فيه الصّغير و يسكر فيه الكبير و يسقط فيه الجنين و تذهل كلّ مرضعةٍ عمّا أرضعت يوم عبوسٍ قمطرير يوم كان شرّه

مستطيراً أنّ فزع ذلك اليوم ليرهب الملائكة الذّين لا ذنب لهم و ترعد منه السَّبع الشّداد و الجبال و الأوتاد و الأرض المهاد الى أخر ما قال عليه السلام(١).

و روى أيضاً بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: إذا كان يوم القيامة دفع الى الإنسان كتابه ثمّ قيل له إقرأ، قال الرّاوي قلت فيعرف ما فيه فقال عليه السلام أنّ اللّه يذكّره فما من لحظةٍ ولا كلمةٍ ولا نقل قدمٍ و لا شئٍ فعله إلاّ ذكره كأنّه فعل تلك السّاعة فلذلك، قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصيها.

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلآَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا

لمّا ذكر اللّه تعالى يوم البعث و الحشر و ذكر خوف العصاة ممّا سطر في ذلك الكتاب الّذي لا يغادر صغيرةً و لا كبيرةً و كان إبليس هو الّذي حملهم على ما حملهم من الكفر و العصيان ذكر في هذه الآية أنّه كان من المتكبّرين حيث لم يسجد لأدم حين أمر به ثمّ قال أفتتّخذونه، الهَمزَة للتّوبيخ و الإنكار و التّعجب أي بعد ما ظهر منه من الفسق و العصيان و أنّه عدوّ لكم أتتخّذونه و ذريّته أولياء من دوني بئس للظّالمين بدلاً، و المخصوص بالذمّ محذوف أي بئس للظّالمين بدلاً من اللّه إبليس و ذريّته.

أقول ظاهر الآية أنّ إبليس كان من الجنّ و لم يكن من الملائكة و عليه فالإستثناء منقطع و أمّا من قال أنّ الجنّ حيٌّ من الملائكة خلقوا من نار السَّموم، فهو منهم و الإستثناء متّصل و قد تقدّم البحث في هذا الباب في أوائل البقرة.

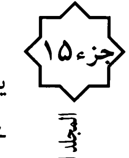
١- ج ٣ص ٢١٩

ففي عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرّضا في هاروت و ماروت، بعد أن مدح عليه السلام الملائكة قال: معاذ اللّه من ذلك أنّ الملائكة معصومون محفوظون من الكفر و القبائح بألطاف اللّه تعالى قال السّائل قلنا له عليه السلام فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً قال عليه السلام لا، بل كان من الجنّ أمّا تسمعان قال اللّه تعالى: وَ إِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِكَةِ فأخبر اللّه عَزّ وجلّ أنّه كان مِن الجنّ و هو الّذي قال اللّه تعالى: وَ اَلْجَاَنَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ اَلسَّمُومِ انتهىٰ.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ الملائكة كانوا يحسبون أنّ إبليس منهم و كان في علم اللّه أنّه ليس منهم فإستخرج ما في نفسه بالحميّة و الغضب فقال: خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[1].

وفي تفسير العيّاشي عن جميل بن درّاج عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سألته عن إبليس كان من الملائكة و هل كان يلي من أمر السّماء شيئاً، قال عليه السلام لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي من السّماء شيئاً كان من الجنّ و كان مع الملائكة و كانت الملائكة تراه أنّه منها و كان اللّه يعلم أنّه ليس منها فلمّا أمر بالسُّجود كان منه الذّي كان[2].

مٰآ أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ اَلسَّمٰوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لاٰ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ اَلْمُضِلِّينَ عَضُدًا



إختلفوا في مرجع الضّمير في قوله: مٰآ أَشْهَدْتُهُمْ فالمشهور عندهم أنّه يعود على إبليس و ذريّته أي لم أشاورهم في خلق السّموات و الأرض و لا في خلق أنفسهم بل خلقتهم على ما أردت و لهذا قال و ما كنت متّخذ المضلّين عضداً أي مستعيناً بهم.

١- الاعراف = ١٢
٢- نور الثّقلين ج ٣ ص ٢٦٧

و قال الزّمخشري يعني أنّكم إتّخذتم شركاء لي في العبادة و أنّما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلٰهيّة فنفى مشاركتهم في الإلٰهيّة بقوله: **مَآ أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ** لا أعتضد بهم في خلقها و لا خلق أنفسهم أي و لا أشهدت بعضهم خلق بعضٍ و ما كنت متّخذهم أعواناً، فوضع المضلّين موضع الضّمير ذمّاً لهم بالإضلال فاذا لم يكونوا لي عضداً في الخلق فما لكم تتّخذونهم شركاء في العبادة انتهى.

و قيل يعود الضّمير على الملائكة و المعنى أنّه ما أشهدتهم ذلك و لا إستعنت بهم في خلقهم بل خلقتهم ليطيعوني و يعبدوني فكيف تعبدونهم.

و قيل يعود على الكفّار و قيل على جميع الخلق هذا كلّه بناءً على قراءة الضمّ في قوله: **مٰا كُنْتُ**.

و أمّا على قراءة الفتح فيها كما ذهب اليها أبو جعفر و الجحدري و الحسن و شيبة فهو خطاب للرّسول و المعنى ما كنت يا محمّد متّخذ المضلّين عضداً أي ما إستعنت بهم في نبوّتك و لا أشهدتهم عليها كما ما أشهدت المضلّين عضداً في خلق السّموات و الأرض و لا على خلق أنفسهم و هذه القراءة أولى و أقوى عندي و أنسب بسياق الآية و ذلك لأنّ حين خلق السمّوات و الأرض و خلقهم أنفسهم لم يكونوا موجودين حتّى يستعان بهم فلا معنى لقوله: **وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا** على قراءة الضمّ فالسّالبة تنتفي بإنتفاء الموضوع و هذا بخلاف قراءة الفتح لأنّه يصحّ أن يقال للنبيّ ما كنت متّخذ المضلّين عضداً لكونهم موجودين، و يؤيّد ما ذكرناه.

ما روي عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام في قوله: مَآ أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ قال عليه‌السلام: أنّ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال: اللّهم أعزّ الإسلام بعمر بن خطّاب أو بأبي جهل بن هشام فأنزل اللّه تعالى: وَ مٰا كُنْتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا يعنيهما.

و عن محمّد بن مروان عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قلت له جعلت فداك قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم اللّهم أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطّاب فقال عليه السلام: يا محمّد قد و اللّه قال ذلك و كان أشدّ عليّ من ضرب العنق ثمّ أقبل عليّ فقال هل تدري ما أنزل اللّه يا محمّد قلت أنت أعلم جعلت فداك قال عليه السلام: أنّ رسول اللّه كان في دار الأرقم فقال اللّهم أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطّاب فأنزل اللّه، ما أشهدتهم خلق السّموات و الأرض و لا خلق أنفسهم و ما كنت متّخذ المضلّين عضداً[1].

أقول و على هذا يصير معنى الآية أنّي ما أشهدتهم خلق السّموات و الأرض و لا خلق أنفسهم بل خلقتهم على ما شئت و أردت فكيف أعزّ ديني بهم فقراءة الضمّ لا بأس بها هذا ما وصل اليه فهمي القاصر في تفسير الآية و اللّه تعالى أعلم بما أراد من كلامه.

نعم يستفاد من الآية أنّ الرُّكون الى الظَّلمة و الإستعانة بهم مذموم و أنّ الذلّة و العزّة بيد اللّه و هو واضح.

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآئِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا

قرأ المشهور، يقول بالياء و قرأ حمزة وحده و يوم نقول بالنّون على أنّ اللّه تعالى هو المخبر عن نفسه بذلك لأنّه قال قبل ذلك و ما كنت متّخذ المضلّين عضداً، و يوم نقول حمله على ما تقدّم و الجمع و الإفراد بذلك المعنى و أمّا على الياء فالمعنى قل يا محمّد لهم يوم يقول اللّه أين شركائي الّذين زعمتم.

أقول قراءة المشهور أرجح و أولى بسياق الكلام و ذلك لأنّ قوله: **شُرَكَآئِيَ**

۱- نور الثّقلين ج ۳ ص ۲۶۸

بياء المتكلّم يؤيّدها و أمّا على قراءة حمزة فحقّ العبارة أن يقال شركاءنا بصيغة الجمع هذا مع أنّ القرائتين واحد إذ على التّقديرين فالقائل هو اللّه تعالى و المراد باليوم هو يوم القيامة و المعنى يوم يقول اللّه لهؤلاء الكفّار، نادوا شركائي الّذين زعمتم، أنّهم شركائي، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم و جعلنا بينهم موبقاً، أي و جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، و قيل موبقاً أي مهلكاً.

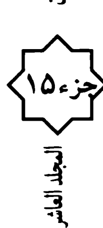
و قال الحسن عداوةً، قال بعضهم النّداء في قوله نادوا، بمعنى الإستغاثة أي أستغيثوا بشركائكم لدفع العذاب عنكم أو للشفّاعة لكم.

وَ رَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ مُواقِعُوهٰا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهٰا مَصْرِفًا

قوله: **وَ رَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ** الظّاهر أنّ المراد بالرُّؤية رؤية عينٍ أي عاينوها، و قوله: **فَظَنُّوٓا** فقيل الظنّ هنا معنى اليقين أي فأيقنوا و قيل هو على موضوعه من كونه ترجيح أحد الجانبين و كونهم لم يجزموا بدخول النّار رجاءً و طمعاً في رحمة اللّه و معنى مواقعوها مخالطوها، و المصرف المعدول و هو الموضع الّذي يعدل اليه.

و معنى الآية أنّ المجرمين رأوا النّار رؤية عينٍ فعلموا أنّهم مخالطوها ولم يجدوا عن النّار مصرفاً أي موضعاً يعدل اليه.

وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰا فِي هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ لِلنّٰاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كٰانَ ٱلْإِنْسٰانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا



أي و لقد بيّنا في هذا القرأن للنّاس من كلّ مثلٍ، المثل بفتح الميم و الثّاء عبارة عن قولٍ في شيءٍ يشبه قولاً في شيءٍ أخر بينهما مشابهة ليبيّن أحدهما الأخر و يصوّره نحو قولهم الصَّيفَ ضيَّعت اللَّبن فأنّ هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الإمكان أمرك و على هذا الوجه ضرب اللّه تعالى من الأمثال في القرأن و قال و تلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتّفكرون، و غير ذلك من الأمثال.

ثمّ أنّ المثل يقال على وجهين أحدهما بمعنى المثل نحو شبه و شبه و نقض و نقض و قد يعبّر بهما عن وصف الشّئ نحو قوله: **مَثَلُ اَلْجَنَّةِ اَلَّتِي وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ**[١].

الثّاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنىٰ من المعاني و كيف كان لا شكّ أنّ اللّه تعالىٰ ضرب في القرأن أمثلة كثيرة.

قال اللّه تعالىٰ: **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ اَلَّذِى اَسْتَوْقَدَ نٰارًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَثَلُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ اَلَّذِي يَنْعِقُ بِمٰا لاٰ يَسْمَعُ إِلاّٰ دُعٰآءً وَ نِدٰآءً**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **مَثَلُ اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اَللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ**[۵] والآيات كثيرة.

و قوله: **وَ كٰانَ اَلْإِنْسٰانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** إشارة الى عدم تعقّل الإنسان في الأمثلة التّي ضربها اللّه لهم و الجدل في الأصل المفاوضة على سبيل المنازعة و المغالبة و أصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله و منه الجدال فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحدٍ الأخر عن رأيه.

و قيل الأصل في الجدال الصّراع و إسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة الأرض الصُّلبة و أنّما وصفه اللّه بأنّه أكثر جدلاً، لأنّ طبيعة الإنسان تقتضي الغلبة في المجادلات و المحاورات ثمّ أن كان الجدال بالحقّ فهو ممدوحٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**[۶].

و أمّا إن كان بالباطل فهو مذمومٌ لأنّه يورث العداوة و الخصومة و تنفّر القلوب و لأجل ذلك أمر اللّه نبيّه:

١- الرعد = ٣۵
٢- البَقرة = ١٧
٣- البقرة = ١٧١
۴- البَقرة = ٢۶١
۵- أل عمران=۵٩
۶- النّحل = ١٢۵

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.**

و قوله: **جَدَلًا** إنتصب على التّمييز.

قال بعضهم الإنسان هنا النَّضر بن الحرث و قيل إبن الزّبعري و قيل أبيّ بن خلف وكان جداله في البعث حين أتى بعظم قذرة فقال أيقدر اللّه على إعادة هذا.

و الحقّ أنّ المراد بالإنسان جميع النّاس، و أنّه أكثر جدلاً في كلّ ذوي العقول من مللكٍ و جنٍّ و الحكم بإعتبار الأغلب أو بإعتبار طبعه و غريزته.

وَ مٰا مَنَعَ ٱلنّٰاسَ أَنْ يُؤْمِنُوٓا إِذْ جٰآءَهُمُ ٱلْهُدىٰ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذٰابُ قُبُلًا

إختلفوا في، ما، على قولين:

أحدهما: و هو المشهور عندهم أنّ كلمة، ما، نافية و على هذا فقوله: **وَ مٰا مَنَعَ ٱلنّٰاسَ** الآية تأسّف علىٰ الكفّار و تنبيهٌ على فساد حالهم لأنّ هذا المنع لم يكن بقصدٍ منهم أن يمتنعوا ليجيئهم العذاب و أنّما إمتنعوا مع إعتقاد أنّهم مصيبون لكنّ الأمر في نفسه يسوقهم الى هذا فكان حالهم يقتضي التأسّف عليهم و المراد بالنّاس كفّار عصر الرّسول الذّين تولّوا دفع الشّريعة و تكذيبها.



و قال الزّمخشري، أن، الأولى نصب و الثّانية رفع و قبلهما مضاف محذوف تقدير الكلام و ما منع النّاس الإيمان إلاّ إنتظار أن تأتيهم سنّة الأوّلين و هى الإهلاك أو إنتظار أن يأتيهم العذاب يعني عذاب الآخرة و هو المراد بقوله قبلاً.

أقول ما ذكره الزّمخشري مسترق من قول الزّجاج.

ثانيهما: أنّ، ما، إستفهاميّة لا نافيّة و التقدير و أيّ شيئٍ منع النّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، و الهدى الرّسول أو القرأن.

أقول الحقّ أنّ، ما، نافية لأنّ النّفي أوفق بسياق الآية كما لا يخفى على المتّأمل و أكثر القرّاء عليه و اللّه أعلم.

■

وَ مٰا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاّٰ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجٰادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَ ٱتَّخَذُوٓا اٰيٰاتي وَ مٰآ أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴿۵۶﴾ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِاٰيٰاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهٰا وَ نَسِيَ مٰا قَدَّمَتْ يَدٰاهُ إِنّٰا جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فيٓ اٰذٰانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿۵۷﴾ وَ رَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤٰاخِذُهُمْ بِمٰا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذٰابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿۵۸﴾ وَ تِلْكَ ٱلْقُرىٓ أَهْلَكْنٰاهُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنٰا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿۵۹﴾ وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِفَتيٰهُ لآ أَبْرَحُ حَتّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿۶۰﴾ فَلَمّٰا بَلَغٰا مَجْمَعَ بَيْنِهِمٰا نَسِيٰا حُوتَهُمٰا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿۶۱﴾ فَلَمّٰا جٰاوَزٰا قٰالَ لِفَتيٰهُ اٰتِنٰا غَدٰآءَنٰا لَقَدْ لَقِينٰا مِنْ سَفَرِنٰا هٰذٰا نَصَبًا ﴿۶۲﴾ قٰالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَ مٰآ أَنْسٰانِيهُ إِلاَّ ٱلشَّيْطٰانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ ٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿۶۳﴾ قٰالَ ذٰلِكَ مٰا كُنّٰا نَبْغِ فَارْتَدّٰا عَلىٰٓ اٰثٰارِهِمٰا قَصَصًا ﴿۶۴﴾ فَوَجَدٰا عَبْدًا مِنْ عِبٰادِنآ اٰتَيْنٰاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنٰا وَ عَلَّمْنٰاهُ مِنْ لَدُنّٰا عِلْمًا ﴿۶۵﴾ قٰالَ لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلىٰٓ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّٰا

عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قٰالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلٰى مٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قٰالَ سَتَجِدُنِيٓ إِنْ شٰآءَ ٱللّٰهُ صٰابِرًا وَ لَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قٰالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلٰا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتّٰىٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقٰا حَتّٰىٓ إِذٰا رَكِبٰا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهٰا قٰالَ أَخَرَقْتَهٰا لِتُغْرِقَ أَهْلَهٰا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قٰالَ لٰا تُؤٰاخِذْنِي بِمٰا نَسِيتُ وَ لٰا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقٰا حَتّٰىٓ إِذٰا لَقِيٰا غُلٰامًا فَقَتَلَهُ قٰالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قٰالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهٰا فَلٰا تُصٰاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقٰا حَتّٰىٓ إِذٰآ أَتَيٰآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمٰآ أَهْلَهٰا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمٰا فَوَجَدٰا فِيهٰا جِدٰارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقٰامَهُ قٰالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قٰالَ هٰذٰا فِرٰاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مٰا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكٰانَتْ لِمَسٰاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهٰا وَ كٰانَ وَرٰآءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَ أَمَّا ٱلْغُلٰامُ فَكٰانَ

أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكٰوةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً ﴿٨١﴾ وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتيمَيْنِ فِي الْمَدينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْري ذٰلِكَ تَأْويلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٨٢﴾

◀ اللّغة

لِيُدْحِضُوا: الإدحاض الإذهاب بالشّئ الى الهلاك.

هُزُواً: الهزء السُّخرية.

أَكِنَّةً: هي جمع كنات كراهية أن يفقهوه.

وَقْراً: الوقر الثِّقل.

مَوْئِلًا: أي ملجأً.

لا أَبْرَحُ: أي لا أزال.

حُقُباً: الحقب الدَّهر و قيل هو سنة بلغة قيس و قيل سبعون سنة.

سَرَباً: يقال سَرَب يَسرب سَرباً اذا مضى لوجهه في سفر غير بعيد و لا شاقّ و هي السّربة فاذا كانت شاقّة فهي السَّبأ بالهَمزَة.

نَصَباً: النَّصب بفتح النّون والصّاد التَّعب.

أَوَيْنا: أي أقمنا.

نَبْغ: أي نطلب فأنّ البغي الطَّلب.

خَرَقَها: الخرق الشقّ.

إِمْرًا: الأمر بكسر الألف الأمر المنكر و قيل داهيةٌ عظيمةٌ.
تُرْهِقْنِي: أي لا تغشّني من قولهم رهقه الفارس اذا غشيه.

◀ الإعراب

وَ مَآ أُنْذِرُوا ما بمعنى، الذّي و العائد محذوف و **هُزُوًا** مفعول ثانٍ و يجوز أن يكون ما، مصدريّة **لَوْ يُؤَاخِذُهُم** مضارع محكيّ به الحال و قيل بمعنى الماضي **مَوْئِلًا** من و أل يئلُ اذا لجأوا و هو مفعول **وَ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ** مبتدأ و **أَهْلَكْنَاهُمْ** الخبر **لِمَهْلِكِهِمْ** هو مصدر بمعني الإهلاك مثل المدخل و قيل هو مفعول أي لمن أهلك او لما اهلك منها **لَآ أَبْرَحُ** قيل هي النّاقصة و فى إسمها و خبرها و جهان:

أحدهما: خبرها محذوف أي لا أبرح أسير.

الثّانى: الخبر **حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ** و التّقدير لا أبرح سيري ثمّ حذف الإسم و جعل ضمير المتكلّم عوضاً منه فأسند الفعل الى المتكلّم.

و الوجه الأخر هي التّامة و المفعول محذوف أي لا أفارق السَّير حتّى أبلغ كقولك لا أبرح المكان أي لا أفارق (أو أمضي) في، أو، وجهان:

أحدهما: هي لأحد الشَّيئين أي أسير حتّى يقع أمّا بلوغ المجمع أو مضيّ الحقب.

الثّانى: بمعنى إلاّ أن، أي إلاّ أن أمضي زماناً أتيقّن معه فوات مجمع البحرين **سَبِيلَهُ** الهاء تعود على الحوت و **فِى ٱلْبَحْرِ** متعلّق، بإتَّخذ و قيل هو حال من السَّبيل أو من، سرباً، **أَذْكُرَهُ** في موضع نصب بدلاً من الهاء في، أنسانيه، **عَجَبًا** مفعول ثانٍ لأتّخذ، و قيل هو مصدر و عليه فيكون المفعول الثّاني لأتَّخذ في البحر **قَصَصًا** مصدر و قيل هو مصدر فعلٍ محذوف أي يقصّان قصصاً و قيل هو في موضع الحال أي مقتصّين و **عِلْمًا** مفعول به **عَلَىٰٓ أَنْ تُعَلِّمَنِ** هو في موضع الحال أي أتّبعك و الكاف صاحب الحال و **رُشْدًا**

مفعول تعلّمن خُبْرًا مصدر لأن تحيط بمعنى تخبر عُسْرًا هو مفعول ثان لتزهق بِغَيْرِ نَفْسٍ في موضع الحال.

◄ التّفسير

وَ مٰا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجٰادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبٰاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَ ٱتَّخَذُوا آيٰاتِي وَ مٰا أُنْذِرُوا هُزُوًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لم يرسل رسله الى الخلق إلاّ مبشّرين لهم بالرّحمة و الجنَّة اذا أطاعوا و منذرين مخوّفين لهم من النّار و العذاب يوم القيامة اذا عصوا فالبشارة للمطيعين و الإنذار للعاصين.

و قيل مبشّرين بالنّعيم المقيم لمن أمن و منذرين بالعذاب الأليم لمن كفر لا ليجادلوا و لا ليتمنُّوا عليهم الإقتراحات ليدحضوا أي يزيلوا و إتَّخذوا أياتى و ما أنذروا من عذاب الآخرة هزواً أي سخريّةً و إستهزاءً و إستخفافاً كقولهم ما هذا إلاّ أساطير الأوّلين و قولهم لو شئنا لقلنا مثل هذا و جدالهم للرّسول كقولهم ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلنا و قولهم ولو شاء اللّه لأنزل ملائكة و ما أشبه ذلك من أقوالهم الفاسدة.

و محصّل الكلام في الآية هو أنّ وظيفة الرّسول في كلّ عصرٍ و زمانٍ ليست إلاّ البشارة و الإنذار لا ما كانوا ليقترحونه منهم من أنواع الإقتراحات.

و في قوله: **وَ يُجٰادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** الخ، إشارة الى أنّ غرضهم من الجدال هو إزالة الحقّ و الإستخفاف و الإستهزاء بأيات اللّه لا تحصيل اليقين و إزاحة الشكّ في الإعتقاد و هذا هو الّذي يعبّر عنه بالعناد و اللّجاج و إلاّ فالجدال بالتّي هي أحسن لا منع فيه بل هو مرغوبٌ فيه إذ به ينكشف الحقّ و هو ظاهر.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيٰاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهٰا وَ نَسِيَ مٰا قَدَّمَتْ يَدٰاهُ إِنّٰا جَعَلْنٰا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذٰانِهِمْ وَقْرًا

أي لا أحد أظلم لنفسه ممّن ذكِّر و وعظ بأيات اللّه فتهاون بها و أعرض عن قبولها و نسي ما قدَّمت يداه أي ترك كفره و معاصيه ولم يتب منها فالنّسيان هنا بمعنى التَّرك.

و قيل المعنى نسي ما قدَّم لنفسه و حصَّل من العذاب و المعنى متقارب.

قال البلخي معناه تذكّر و إشتغل عنه إستخفافاً به لا أنّه نسيه.

أقول ما ذكره البلخي حقّ إذ لو نسي لا معنى لقوله فأعرض عنها ألا ترى أنّه لا يقال لمن نسي شيئاً أنّه أعرض عنه.

و الحاصل أنّ الإعراض يصدق بعد التذكّر كما هو شأن المعاند فالكلام يدلّ على أنّ أكثر الكفّار كانوا كذلك أي أنكروا الحقّ بعد ظهوره و وضوحه و بذلك إستحقّوا العذاب الدّائم و الخلود في النّار و أنّما قال تعالى أنّهم أظلم لأنّ الظُّلم تارةً يكون منشأه الجهل أو الغفلة أو النسيان و أمثال ذلك، و تارةً يكون عن علم و لذلك يكون الظُّلم من العالم أقبح منه اذا صدر عن الجاهل و عذابه أيضاً أشدّ منه فمن ذكِّر بأيات ربّه صار عالماً بها فالإعراض عنها بعد العلم بها من أقبح أنواع الظُّلم فلا أحد أظلم منه قطعاً.

و أمّا قوله: **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** ليس معناه إنّا منعناهم عن التَّفقه و الإستماع كما هو ظاهر الآية و مذهب أكثر أهل السنّة القائلين بالجبر.

قال القرطبي أي نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم و أسماعهم.



و قال الطّبري يقول تعالى ذكره إنّا جعلنا على قلوب هؤلاء الّذين يعرضون عن أيات اللّه اذا ذكّروا بها أغطية لئّلا يفقهوه و فى أذانهم وقراً يقول في أذانهم ثقلاً لئّلا يسمعوه **وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا** قال فلن يستقيموا إذاً أبداً على الحقّ و لن يؤمنوا بما دعوتهم اليه لأنّ اللّه قد طبع على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم انتهىٰ.

إعلم أنّ هذه الآية قد مرَّ الكلام فيها في سورة الأنعام[١] و في سورة الإسراء[٢] و قلنا هناك أنّ الآية لا تدلّ على الجبر ولتوضيح ذلك نقول.

قال الرّاغب في المفردات، الكنّ، ما يحفظ فيه الشّيئ يقال كننت الشّي كنّاً، جعلته في، كنٍّ، و خصَّ كننت بما يستر ببيتٍ أو ثوبٍ و غير ذلك من الأجسام، يقال اعننت بما يستر في النّفس قال تعالىٰ: **أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ** و جمع الكنّ أكنان قال تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبالِ أَكْنٰانًا**[٣] و الكنان الغطاء الذّي يكنّ فيه الشّي و الجمع أكنَّة نحو غطاء و أغطية قال تعالىٰ: **جَعَلْنٰا عَلٰى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ** (قلوبنا في أكنَّة) قيل معناه في غطاءٍ عن تفهّم ما تورده علينا كما قالوا: **قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ مٰا نَفْقَهُ**[٤] انتهى كلامه في المفردات.

أقول فعلى هذا معنى قوله في أكنَّةٍ، أي في أغطيةٍ، و لا شكّ أنّ سبب الغطاء هو العصيان فمن لا يعصي اللّه لا يكون قلبه في أكنَّة و سبب المعصية هو الشَّهوة بمعناها العام و حيث أنّ اللّه تعالى خلق الإنسان و جعل فيه الشَّهوة التّي هي سبب للمعصية صحَّ أن يقال أنّ اللّه خالق المعصية و الطّاعة مجازاً من قبيل ذكر المسبّب و إرادة السَّبب فمعنى قولنا أنّ اللّه خلق الطّاعة و العصيان أو جعلهما، أنّه خلق أسبابهما في الإنسان و أمّا المسبّب و هو الفعل فليس مخلوقاً له واقعاً إلاّ بالإعتبار الّذي ذكرناه و ذلك لأنّ وجود السَّبب ليس علّة تامّة لوجود المسبّب.

ألا ترى أنّ السُّلم سببٌ للإرتقاء على السَّطح لكن لا يلزم من وجود السلّم الإرتقاء عليه و أنّما يوجد الإرتقاء و يحصل الكون على السَّطح بإرادة المرتقي أوّلاً و حركة العضلات ثانياً فلو لم يرد لا يوجد الإرتقاء و هذا هو الفرق بين السَّبب و العلّة التّامة فأنّ العلّة يلزم من وجودها وجود المعلول بخلاف السَّبب

١- آية ٢٥
٢- آية ٤٦
٣- النحل = ٨١
٤- هود = ٩١

أخرى السَّبب يلزم من عدمه عدم المسبّب و لا يلزم من وجوده وجوده و العلّة يلزم من وجودها وجود المعلول و من عدمها عدمه و السرّ في ذلك هو عدم الفصل بين العلّة و المعلول و وجوده بين السَّبب و المسبّب و نعبّر عن هذا الفصل بالإرادة يتبعها من تحريك العضلات و غيرها ممّا يتَّرتب وجود الفعل عليه.

اذا عرفت هذا فقد علمت أنّ ما جعله اللّه في الإنسان من القوى الباعثة على الطّاعة و العصيان مثل الغضب و الشّهوة و البخل و غيرها ليس من سنخ العلل حتّى يلزم من وجودها وجود معلولاتها شاء الإنسان أو لم يشا بل هي من قبيل الأسباب و الإرادة واسطة بينها و بين مسبّباتها فقوله تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ** ليس معناه إنّا خلقناهم كذلك أو جعلنا في قلوبهم أغطية لئلاّ يفقهوه، بل معناه إنّا خلقناهم و جعلنا فيهم ما كان سبباً لعدم تفقّههم إلاّ أنّهم بسوء سريرتهم و خبث طينتهم و متابعتهم للشّيطان و إعراضهم عن أيات ربّهم بعد تذكّر الأنبياء إيّاهم إختاروا الكفر و العصيان علىٰ الإيمان و الطّاعة و بعبارةٍ أخرى إنّا جعلنا فيهم أسباب الكفر و عدم التفقّه بالآيات لا نفس الكفر و الغطاء و هذا كما إذا صنع النجّار سلّماً و إرتقيت به على السَّطح، صحَّ له أن يقول أنا إرتقيته على السَّطح بإعتبار أنّه صنع السلّم لك فذكر المسبّب و أراد السَّبب و لعمري أنّ هذا ممّا لا خفاء فيه لمن كان له قلبٌ و على هذا فقوله: **وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا** قد ظهر معناه ممّا ذكرناه و أوضحناه و ذلك لأنّ مثل هذا المدعوّ مثل من كسَّر السلّم أو أحرقه و أنت تدعوه الى السَّطح و لا سبب عنده للصّعود عليه و أنّما أفنى السَّبب بإختياره و قد ثبت أنّ الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار و أنّما قلنا أنّ القوى و الأعضاء من قبيل الأسباب لا من قبيل العلل لأنّ العلّة لا تنفكّ عن المعلول و لازم ذلك أن يكون جميع النّاس على و تيرةٍ واحدة في الإيمان

أو الكفر لوجود العلّة في الكلّ و نحن نرى خلاف ذلك فمنهم من آمن و منهم من كفر و منهم المطيع و منهم العاصي مع أنّ القوى البدنيّة و الأعضاء في الجميع على حدّ سواءٍ فلولا الإختيار واسطة بين السّبب و المسبّب كان الفعل واحداً و هو واضح على المنصف.

وَ رَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤٰاخِذُهُمْ بِمٰا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذٰابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا

الغفور من صيغ المبالغة أخبر اللّه في هذه الآية أنّه لو يؤاخذهم، أي الكفّار و العصاة، بما كسبوا من الكفر و العصيان، لعجّل لهم العذاب، لإستحقاقهم و لكن لا يؤاخذهم بما كسبوا بل لهم موعدٌ، وعدهم اللّه أن يعاقبهم فيه و هو يوم القيامة، لن يجدوا، هؤلاء الكفّار من دونه، أي من دون الموعد ملجأً و لا يبعد أن يكون الضّمير عائداً على اللّه أي لا يجدون من دون اللّه ملجأً، و لعلّ السرّ في عدم التّعجيل هو أنّ اللّه لطيفٌ بعباده فيؤخّر عنهم العذاب ليتوبوا اليه و لذلك صدّر الكلام بقوله: **وَ رَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ** فوصف نفسه أوّلاً بالغفران الّذي معناه السّتر.

و ثانياً بالرّحمة الّتي وسعت كلّ شيءٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ يُؤٰاخِذُ ٱللّٰهُ ٱلنّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَكَ عَلَيْهٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَ لٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَحْسَبَنَّ ٱللّٰهَ غٰافِلًا عَمّٰا يَعْمَلُ ٱلظّٰالِمُونَ إِنَّمٰا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصٰارُ**(٢) والآيات كثيرة.

وَ تِلْكَ ٱلْقُرىٰ أَهْلَكْنٰاهُمْ لَمّٰا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنٰا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا

١- النّحل = ٦١
٢- إبراهيم = ٤٢

أخبر اللّه تعالى في هذه عن إهلاك القرى و المراد أهل القرى و لذلك قال: **أَهْلَكْنٰاهُمْ** ولم يقل أهلكناها و أشار الى أنّ سبب إهلاكهم هو ظلمهم و قوله: **وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ**، فالمهلك بفتح الميم و اللاّم مصدر هلك مهلكاً، مثل طلع مطلعاً، ومن كسر اللاّم جعله وقت هلاكهم مثل مغرب الشّمس.

قال بعضهم و كلّ فعلٍ كان على فعل يفعل مثل ضرب يضرب فالمصدر منه **المَضرَب** بالفتح و الزّمان و المكان، مفعل، بكسر العين و كلّ فعلٍ كان مضارعه، يفعل بالفتح نحو يشرب و يذهب فهو مفتوح أيضاً نحو المشرب و المذهب و كلّ فعلٍ كان على فعل يفعل بضمّ العين في المضارع نحو يدخل و يخرج فالمصدر و المكان منه بالفتح نحو المدخل و المخرج إلاّ ما شذَّ منه نحو المسجد، و معنى الكلام إنّا جعلنا لموضع هلاكهم أو زمان هلاكهم موعداً، و اللّه تعالى لا يخلف الميعاد.

وَ إِذْ قٰالَ مُوسٰى لِفَتٰيهُ لاٰ أَبْرَحُ حَتّٰى أَبْلُغَ مَجْمَعَ اَلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا، فَلَمّٰا بَلَغٰا مَجْمَعَ بَيْنِهِمٰا نَسِيٰا حُوتَهُمٰا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي اَلْبَحْرِ سَرَبًا

أي و أذكر يا محمّد إذ قال موسى لفتيه، قيل أنّ فتى موسى كان يوشع بن نون وقيل إبن يوشع و سمّي فتى، لملازمته أيّاه، لا أبرح، أي لا أزال و لا يجوز أن يكون بمعنى لا أزول لأنّ التّقدير لا أزال أمشي حتّى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً، قيل هو سنة بلغة قيس و قيل سبعون سنة و قيل ثمانون سنة.

و قال قتادة الحقب الزّمان و مجمع البحرين بحر فارس و الرُّوم.

قال صاحب الكشّاف قوله: **لِفَتٰيهُ** أي لعبده و قيل هو يوشع بن نون و أنّما قيل فتاه لأنّه كان يخدمه و يتبعه و قيل كان يأخذ منه العلم.

فأن قلت (لا أبرح) أن كان بمعنى لا أزول من برح المكان فقد دلّ على الإقامة لا على السَّفر و أن كان بمعنى لا أزال، فلابدّ من الخبر، قلت هو بمعنى

لا أزول و قد حذف الخبر لأنّ الحال و الكلام يدلاّن عليه أمّا الحال فلأنّهما كانت حال السّفر و أمّا الكلام فلأنّ قوله حتّى أبلغ مجمع البحرين، و وجهٌ آخر و هو أن يكون المعنى لا يبرح مسيري حتّى أبلغ، على أنّ أبلغ هو الخبر فلمّا حذف المضاف و أقيم المضاف اليه مقامه و هو ضمير المتكلّم فأنقلب الفعل عن لفظ الغائب الى لفظ المتكلّم و هو وجه لطيف و يجوز أن يكون المعنى لا أبرح ما أنا عليه بمعنى ألزم المسير و الطّلب و لا أتركه و لا أفارقه حتّى أبلغ، و مجمع البحرين المكان الّذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليه السلام وهو ملتقى بحر فارس و الرّوم ممّا يلي المشرق و قيل طنجة و قيل أفريقيّة و من بدع التّفاسير أنّ البحرين موسى و الخضر لأنّهما كانا بحرين في العلم انتهى كلام صاحب الكشّاف.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية و سبب هذه القصّة ما خرجه الصّحيحان عن أبيّ بن كعب أنّه سمع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول أنّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسأل أيّ النّاس أعلم فقال أنا، فعتب اللّه عليه إذ لم يرّد العلم اليه تعالى فأوحى اللّه اليه أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا ربّ فكيف لي به قال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتلٍ فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ و ذكر الحديث و اللّفظ للبخاري.

و قال إبن عبّاس لمّا ظهر موسى و قومه على أرض مصر أنزل قومه مصر فلمّا إستقرّت بهم الدّار أمره اللّه أن ذكرهم بأيّام اللّه فخطب قومه فذكّرهم ما أتاهم اللّه من الخير و النّعمة إذ نجّاهم من آل فرعون و أهلك عدوّهم و إستخلفهم في الأرض ثمّ قال و كلّم اللّه موسى تكليماً و إصطفاه لنفسه و ألقى عليه محبّة و أتاكم من كلّ ما سألتموه فجعلكم أفضل أهل الأرض و رزقكم العزّ بعد الذلّ و الغنى بعد الفقر و التّوراة بعد أن كنتم جهّالاً فقال رجل من بني

إسرائيل عرفنا الّذي تقول فهل على وجه الأرض أعلم منك يا نبيّ اللّه قال لا فعتب اللّه عليه حين لم يردّ العلم اليه فبعث اليه جبرئيل أن يا موسى و ما يدريك أين أضع علمي، بلى أنّ لي عبداً بمجمع البحرين أعلم منك و ذكر الحديث.

قال علماءنا و قوله في الحديث، هو أعلم منك أي بأحكام وقائع مفصلّة و حكم نوازل معيّنة لا مطلقاً بدليل قول الخضر لموسى أنّك على علمٍ علّمكه اللّه لا أعلمه أنا و أنا على علمٍ علّمنيه لا تعلمه أنت و على هذا فيصدق على كلّ واحدٍ منهما أعلم من الآخر بالنّسبة الى ما يعلمه واحدٌ منهما لا يعلمه الآخر فلمّا سمع موسى هذا تشوّقت نفسه الفاضلة و همّته العالية لتحصيل علم مالم يعلم وللقاء من قيل فيه أنّه أعلم منك فعزم فسأل سؤال الذّليل بكيف السبيل؟ فامر بالإرتحال على كلّ حالٍ و قيل له أحمل معك حوتاً حالحاً في مكتلٍ و هو الزّنبيل فحيث يحيا و تفقده فثمّ السَّبيل فأنطلق مع فتاه لماواتاه مجتهداً طالباً قائلاً لا أبرح حتّى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً **والحُقُب** بضم الحاء و القاف الدَّهر و الجمع أحقاب و قد تسكن قافه فيقال، حقب، و هو ثمانون سنة و يقال اكثر من ذلک و الجمع حقاب **والحِقبة** بكسر الحاء واحدة الحقب و هى السّنون.

ثمّ قال القرطبي عند قوله: **إِذْ قَالَ مُوسٰى لِفَتٰيهُ** فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه كان معه يخدمه و الفتى في كلام العرب الشّاب و الفتى في الآية هو الخادم و هو يوشع بن نون بن فراثيم بن يوسف عليه السلام.

الثّانى: أنّه إبن أُخت موسى.

الثّالث: أنّه سمّاه فتى لأنّه قام مقام الفتى و هو العبد و ساق الكلام الى أن قال و هذا كلّه ممّا لا يقطع به و التوقّف فيه اسلم انتهى كلام القرطبي.

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا

أي لمّا بلغ موسى وفتاه، مجمع بينهما، و هو المكان الموعود في قوله لا أبرح حتّى أبلغ مجمع البحرين، و أنّما نسيه يوشع بن نون و أضافه اليهما كما يقال نسي القوم زادهم و أنّما نسيه بعضهم و قيل نسي يوشع أن يحمل الحوت و نسي موسى أن يأمره فيه شئ و لذلك قال، نسيا حوتهما، و قوله: **فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا** يعني فأتَّخذ الحوت سبيله في البحر سرباً أي مسلكاً.

قيل أنّ الحوت كانت سمكة مملحة فطفرت من موضعها الى البحر ذاهبة.

و قال الفرّاء كان مالحاً فلمّا حيي بالماء الّذي أصابه من العين وقع في البحر و وجد مذهبه فكان كالسَّرب.

و قال بعض المفسّرين لمّا أتيا الصَّخرة وضعا رؤوسهما فنام موسى و إضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر سرباً و قيل جمع يوشع الحوت و الخبز فنزلا ليلة على شاطئ عينٍ تسمّى عين الحياة و نام موسى فلمّا أصاب السّمكة روح الماء و برده عاشت.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَيٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا

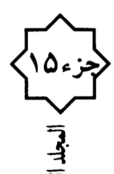
أي فلمّا جاوزا مجمع البحرين أي خرجا من ذلك الموضع و المجاوزة الخروج عن حدّ الشّئ قال موسى، لفتاه آتنا غدائنا، الغداء طعام الغداة و العشا طعام العشيو التَّغذي أكل الطّعام الغداة التعشّى أكل طعام العشيّ، (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً)، أي تعباً و مشقّة و قيل معناه وهناً، أيالوهن الّذي يكون عند الكدّ و مثله الوصب.

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا

أي قال يوشع بن نون في جواب موسى، أرأيت، الوقت الّذي **أَوَيْنَآ** أي أقمنا **إِلَى ٱلصَّخْرَةِ** أي عندها **فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ** هناك **وَ مَآ أَنْسِينِيهُ** يعني الحوت **إِلَّا ٱلشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ** أي وسوسني و شغلني بغيره حتّى نسيت و قيل في هذا الكلام من حسن الأدب ما لا يخفى حيث نسب الإنساء الى الشّيطان بوسوسته، و قوله: **أَنْ أَذْكُرَهُ** بدل إشتمالٍ من الضّمير العائد على الحوت و الظّاهر أنّ الضّمير في قوله: **وَ ٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا** على الحوت أي و إتّخذ الحوت سبيله في البحر الضّمير عائد على موسى أي إتّخذ موسى و معنى عجباً أي تعجّب من ذلك، أو إتّخاذاً عجباً.

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا

قيل هو حكاية عن قول موسى عند ذلك من أنّ ذلك الّذي كنّا نطلب من العلامة يعني نسيانك الحوت فالإشارة بقوله: **ذَٰلِكَ** الى أمر الحوت و فقده و إتّخاذه سبيلاً في البحر لأنّه أمارة الظّفر بالطّلبة من لقاء ذلك العبد الصّالح، فما، في قوله: **مَا كُنَّا** موصولة بمعنى الّذي و العائد محذوف تقدير الكلام ذلك الّذي كنّا نبغيه و نطلبه، فأرتدّا، أي رجعا **عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا** أي رجعا على أدراجهمامن حيث جائا قصصاً أي يقصّان الأثر قصصاً فهو منصوب على المصدريّة بإضمار، يقصّان أو يكون في موضع الحال أي مقتصّين فينصب بقوله: **فَارْتَدَّا**، أي رجعا على آثارهما مقتصّين.



فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا

أي لمّا رجع موسى و فتاه الى الموضع المعلوم و هو مجمع البحرين وجدا هناك، عبداً من عبادنا، أي صادفاه و أدركاه، و العبد المملوك من النّاس فكلّ إنسانٍ عبدٌ للّه لأنّه مالك له و قادرٌ عليه، و يحتمل أن يكون المراد بالعبد مقام العبوديّة الّذي هو من أعلى المقامات كقوله تعالى: **سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**

لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ(١) و قد مضى الكلام فيه هناك و قوله: **أٰتَيْنٰهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنٰا** أي أعطيناه نعمةً من عندنا، و علّمناه من لدنّا علماً، أي علّمنا ذلك العبد من لدُّنا علماً.

و فيه إشارة الى أنّ العلم الّذي علّمه اللّه كان حضوريّاً أفاضيّاً لا كسبيّاً و حصوليّاً، و قوله: **عِلْمًا** يفيد النوعيّة أي علّمناه علماً مخصوصاً به من أنواع العلوم الغَيبية الّتي لا يعلمها إلاّ هو.

قٰالَ لَهُ مُوسٰى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلٰىٓ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّٰا عُلِّمْتَ رُشْدًا

أي قال موسى للعالم الّذي لقيه، هل أتّبعك، الإتّباع و الإنقياد واحد و المعنى أتّبعك في أوامرك و نواهيك **عَلٰىٓ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّٰا عُلِّمْتَ رُشْدًا** أي على تعلّمني ممّا علّمت، أي ممّا علّمك اللّه رشداً، **الرُّشد** بضمّ الرّاء و سكون الشّين قراءة المشهور، و بفتح الرّاء و الشّين قراءة أبي عمرو و بضمّهما قراءة إبن عامر مثل أسد و أسد و وثن و وثن قيل لمّا وجداه عند الصَّخرة الّتي فقد الحوت عندها رأياه مستلقياً على الارض و هو مسجّي في ثوبه قال موسى السّلام عليك فرفع رأسه ثمّ قال له من أنت قال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم قال ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السَّفر الى هنا قال بلى و لكن أحببت لقاءك و أن أتعلّم منك قال له أني على علم من علم اللّه علّمنيه لا تعلمه أنت و أنت على علم من علم اللّه لا أعلمه أنا و الجمهور على أنّه الخضر و أنّه كان نبيّاً وكان علمه علم الباطن و علم موسى هو العلم الظّاهر و أنّما سمّي خضراً لأنّه جلس على فروةٍ بالية فاهتزّت تحته خضراً و قيل كان إذا صلّى اخضر ما حوله و قيل غير ذلك.

قٰالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

١- الاسراء = ١

معناه يثقل عليك الصّبر و لا يخفّ عليك ولم يرد أنّه لا يقدر عليه و أنّما قال له ذلك لأنّ موسى كان يأخذ الأمور على ظواهرها و الخضر كان يحكم بما أعلمه اللّه من بواطن الأمور فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك قيل لو أراد نفي الإستطاعة الّتي هي القدرة لما قال:

وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا

أي قال الخضر لموسى و كيف تصبر الخ، أي أنّ صبرك على ما لا خبرة لك به مستبعدٌ و فيه إبداء عذرٍ له حيث لا يمكنه الصّبر لما يرى من منافاة ما هو عليه من شريعته و أنتصب، خبراً، على التّمييز أي ممّا لم يحط به خبرك فهو منقول من الفاعل أو على أنّه مصدر.

قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَ لَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا

وعده موسى بوجدانه صابراً و قرن ذلك بمشيئة اللّه علماً منه بشدّة الأمر و صعوبته.

قال القيشري وعد موسى من نفسه بشيئين، الصَّبر و قرنه بالإستثناء بالمشيئة فصبر حين وجد على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل، و بأن لا يعصيه فأطلق ولم يقرنه بالمشيئة فعصاه حيث قال له فلا تسألني فكان يسئله فما قرن بالإستثناء لم يخالف فيه و ما أطلقه وقع فيه الخلف، قيل هذا منه صحيح على تقدير أن يكون (ولا عصي) معطوفاً على ستجدني فلم يندرج تحت المشيئة.

قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا

قال الخضر لموسى فأن إتّبعتني و أقتفيت أثري فلا تسئلني عن شئ حتّى أحدث، أي حتّى أكون أنا المبتدئ لك، ذكراً أي علماً، و الذّكر بكسر الذّال هو

إدراك النَّفس للمعنى بحضوره كحضور نقيضه و لا يبعد أن يكون المراد به في المقام علّة الحكم و سببه.

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

فأنطلقا، أي موسى و الخضر.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ و كان معهم يوشع ولم يضمر لأنّه في حكم التَّبع و موسى و الخضر هما الأصلان في القصّة و قيل كان موسى قد صرفه و ردَّه الى بني إسرائيل و الألف و اللاّم في السَّفينة لتعريف الجنس إذ لم يتقدّم عهدٌ في سفينة مخصوصة **خَرَقَهَا** أي شقَّها **قَالَ** أي قال موسى **أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا** و الهَمزة للإستفهام **لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا** أي مُنكِراً في قول قُتادة و داهية عظيمة في قول أبي عبيدة قال الشّاعر:

لقد لقي الأقران مني نكراً داهية دهياء إدّاً امراً

و قد يقال رجلٌ أمرٌ إذا كان ضعيف الرَّأي لأنّه يحتاج أن يؤمر حتّى يقوى رأيه روي بعض المفسّرين عن البخاري و مسلم في صحيحهما قالا فأنطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت سفينة فكّلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نولٍ فلّما ركبا فيها لم يفجا إلاّ و الخضر قد قلع لوحاً من ألواح السَّفينة بالقدوم فقال له موسى قومٌ حملونا بغير نولٍ عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها و اللاّم في لتغرقها لام العاقبة و قيل لام العلّة.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

أي قال الخضر لموسى ذلك.

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَ لَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا

أي قال موسى لخضر لا تؤاخذني بما نسيت.

روي أنّه قال ذلك لمّا رآى الماء لا يدخل السَّفينة مع خرقها فعلم أنّ ذلك لمصلحة يريدها اللّه فقال: **لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ** أي بما غفلت من النّسيان الّذي هو ضدّ الذِّكر و قيل معناه لا تؤاخذني بما تركت من عهدك.

و قيل معناه كأنّي نسيته ولم ينسه في الحقيقة وقوله: **لَا تُرْهِقْنِي** أي لا تغشّني من قولهم رهقه الفارس إذا غشيه و أدركه و غلام مراهق إذا قارب أن يغشاه حال البلوغ و الإرهاق إدراك الشّئ بما يغشاه و قيل معناه الإلحاق من أرهقه الأمر إذا لحقه إيّاه.

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا

فَأَنطَلَقَا أي موسى و الخضر قيل في الكلام حذف تقديره فخرجا من السَّفينة ولم يقع غرق بأهلها فأنطلقا فبينما هما يمشيان على السّاحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الصَّبيان فقتله الخضر و كان هذا الغلام لم يبلغ الحلم فلهذا قال موسى له أقتلت نفساً زكيّة و قيل كان الغلام بالغاً شابّاً و العرب تبقى على الشّاب إسم الغلام و إنّما وصف الغلام بما وصف من الطّهارة لأنّه لم يره أذنب أو لأنّها صغيرة و قوله: **بِغَيْرِ نَفْسٍ** أي بغير قودٍ ثمّ قال له موسى **لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا** أي منكراً فأنّ قتل النَّفس بغير حقّ من المنكرات الّتي لا شكّ فيها و إنّما قال موسى في خرق السَّفينة لقد جئت شيئاً إمراً و هاهنا قال نكراً لأنّ الخرق أهون من القتل إذ يمكن سدّ الخرق و لا يمكن سدّ القتل بتدارك الحياة فهذا أنكر و أقبح من الخرق و لذلك قيل فيه أغلاظ ليس في الأوّل و اللّه أعلم.



هذا تمام الكلام في هذا الجزء و به تمّ الجزء الخامس عشر مـن التّـفسير و يتلوه الجزء السّادس عشر أوّله.قـوله: **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**.

■



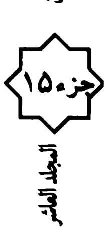
الفهرست

■

سُورة النَّحل ١٠٧

■

■


جزء ١٥